

الحاخام جوناثان ساكس

مع تمهيد لِمِيخال رزنيك ويُوئيل قُوليق

دِرَاسَاتُ فِي الرُّوحَانِيَّةِ

قراءات أسبوعية في الكتاب اليهودي المقدس

Jonathan Sacks
THE RABBI SACKS LEGACY

Bar-Ilan
University



DANGOOR
EDUCATION

The Center for Jewish Studies
معهد الدراسات اليهودية

מגיד
ماجيد

دِراسَاتُ في الرّوحانية

قراءات أسبوعية
في الكتاب اليهودي المقدس



الحاخام جوناثان ساكس

دراساتٌ في الرّوحانية

قراءات أسبوعية

في الكتاب اليهودي المقدس

الترجمة من اللغة الإنجليزية:

The Connecting Hamza NGO

دراساتٌ في الرّوحانية
قراءات أسبوعية في الكتاب اليهودي المقدس
Studies in Spirituality
A Weekly Reading of the Jewish Bible

Translation to Arabic by The Connecting Hamza NGO
<https://theconnectinghamza.org>
Email: theconnectinghamza@gmail.com

Translation by arrangement with Koren Publishers Jerusalem

© The Estate of Jonathan Sacks, 2021

Cover Image © Yoram Raanan, *Kabalat Shabbat*,
www.yoramraanan.com

The translation to Arabic and digital edition
was made possible through the generous funding of
The Sir Naim Dangoor Centre for Universal Monotheism

إلى روح المرحومين بإذن الله
إرفينغ وطوني روزن،
إلى آبائنا وأجدادنا
عائلة روزن

الإهداء

تقديرًا لأعماله العظيمة فإننا نُهدي هذا العمل المتواضع إلى روح المرحوم

الحاخام اللورد جوناثان ساكس طيب الله ذكراه

هذا الرَّجُلُ الذي عَرَسَ في نفوسنا بُدُورَ القِيمِ والأخلاقِ اليهودية من خلال كتاباته وحواراته

وخطاباته العظيمة، فكان له الفضل في تعليمنا كيف نَصِلُ إلى قِمةِ الروحانيَّةِ التوراتية كيهود. على أملٍ أن تُشَقِّقَ تعاليمُ الحاخام جوناثان ساكس طريقها نحو أفئدة الكثيرين خلال السنوات القادمة، بإذنِ الله.

كما ونُهدي هذا العمل المتواضع إلى والدَيْنا ووالِدَتَيْنا:

المرحومة پيغي زمرمان طيب الله ذكراها

فيليب زمرمان

هاورد ليشر

ودورين كاسيلا

بالإضافة إلى أبنائنا جيك ودافيد وغابريئيل وجيك موسكوفيتش وحفيدنا نوح ليف.

هذه بعض من العبارات العظيمة للحاخام جوناثان ساكس – طيبَ الله ذكراه بين الصالحين – والتي من شأنها أن تكون شعاراً للنجاح والتوفيق في الحياة:

"لا تَنْتَظِرْ كَلِمَاتِ الثَّنَاءِ والمَدِيحِ من أَحَدٍ بَلِ بِادِرِ أَنْتِ بِمَدْحِ الآخَرِينَ،

لا تَنْتَظِرِ الاحْتِرَامَ من الآخَرِينَ بَلِ بِادِرِ أَنْتِ بِاحْتِرَامِ غَيْرِكَ،

لا تَقِفِ مُتَفَرِّجًا مُنْتَقِدًا الآخَرِينَ، بَلِ بِادِرِ أَنْتِ بِتَحْسِينِ ما حَوْلَكَ وَكُنِ قُدُوةً لِغَيْرِكَ فِي صُنْعِ التَّغْيِيرِ
نحو الأفضل.

عَلَيْكَ دَوْمًا أَنْ تَأْخُذَ زَمَامَ المُبَادِرَةِ حَتَّى تَصْنَعَ التَّغْيِيرَ الَّذِي تَصْبُو لِرُؤْيَيْتِهِ فِي هَذَا العَالَمِ."

شيريل & لي لاشر

الولايات المتحدة الأمريكية، إنجلوود، نيو جيرسي.

قائمة المحتويات

XI	تمهيد
XV	السيرة الذاتية للحاخام جوناثان ساكس
XVIII	قاموس المصطلحات
1	مُقدِّمة
	الشُّعورُ بالأبدية رغم محدودية الوقت
7	بريشيت
	فَنُ الإِصْغَاءِ
12	نوح
	جُرأَةُ الحَيَاةِ مَعَ اللّائِقِينَ
16	ليخ ليخا
	رِحْلَةُ الأَجْيَالِ
20	فيرا
	بورك الحَيْرُ الفاصِلُ بَيْنَنَا
24	حبي ساره
	الإيمانُ بِالمُسْتَقْبَلِ
29	تولدوت
	مَحَبَّةُ الأبِّ
33	فايتسيه
	كَيْفَ يَدْخُلُ التَّوْرُ إِلَى قُلُوبِنَا
37	فايشلاح
	الشُّعورُ بِالخَوْفِ
42	فايشيف
	كَيْفَ نُغَيِّرُ العَالَمَ؟

- 47مقيّس
..... لا تَقْنَطُوا مِنَ الْإِنْتِظَارِ
- 51فِيحَاشِ
.....إِعَادَةُ الصَّبَاغَةِ
- 55فِيحِي
.....عَنْ عَدَمِ التَّنْبِيءِ بِالْمُسْتَقْبَلِ
- 61شَمُوت
.....كَيْفَ تَتَحَوَّلُ النِّقْمَةُ إِلَى نِعْمَةٍ
- 66فَايْرِي
.....أَرْوَاحٌ فِي عَالِمِ مَادِيّ
- 71بِوَا
.....الابْنِ الرُّوحِيّ
- 75بِشَلَاحِ
.....طَاقَةٌ مُتَجَدِّدَةٌ
- 79يْتَرُو
.....أَنْ نَشْكُرَ قَبْلَ أَنْ نُفَكِّرَ
- 84مِشْبَانِيْمِ
.....الطَّاعَةُ وَالسَّمْعُ
- 89تِرُومَاهِ
.....هَبَةُ الْعَطَاءِ
- 93تِصْفِيهِ
.....الْإِلَهَامُ وَالْعَمَلُ الدَّوُّوبُ
- 97كِي تِسَا
.....قُرْبُ اللَّهِ مِنَّا
- 102فِيْقَهِيْلِ
.....الْحَيَوَانُ الْاجْتِمَاعِيّ

107	بقودي	لا تتوقّف وواصل المسير
112	فيقرا	البحث عن معنى للحياة
116	تساف	المعنى الحقيقي للتضحية
120	شميني	مخاطر الحماسة الزائدة
125	تزيغ - مصراع	قوة التشهير بالآخرين
130	أحري موت	الجرأة على الاعتراف بالخطأ
135	قدوشيم	في خصم البحث عن الهوية اليهودية
140	إمور	أوقات مقدّسة
146	بهار	الإحساس بالانتماء للعائلة
150	بحوقوتاي	الوجهة الصحيحة
156	بمدبار	صوت السكون
161	ناسوا	نعمة المحبة
166	بيهاعلوتخا	من اليأس إلى الأمل

171	شلاح
	نوعانٍ من الخوف
175	قورح
	السِّياسةُ وتَسْلُسُلُ المَناصِبِ في أنْظِمَةِ الحُكْمِ: قِصَّةٌ لا نْهايةَ لها
180	حوقات
	الخُرُوجُ من الحُزنِ على رَحيلِ الأَحَبَّةِ
185	بلاق
	ما الذي يُضْحِكُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ؟
190	پنحاس
	حَبيبةُ أَمَلِ موشيه
196	مَطَوْت
	الوَفاءُ بِالوَعْدِ
200	مَسْعِي
	التعقيدُ في مسألةِ حُقوقِ الإنسانِ
206	دفاريم
	حتى المائةِ والعشرين: أنْ تَتَقَدَّمَ في العُمُرِ وتَظَلَّ شاباً
211	فَأْتَحَنَ
	قُوَّةُ الـ "لِماذا"
216	عيقف
	روحانيَّةُ الإِصْغاءِ
221	رئيه
	التأثيرُ العَميقُ لِلفَرَحِ
226	شوفتيم
	عَظْمَةُ التَّواضُعِ
230	كي تَسِيه
	حُدُودُ المَحَبَّةِ

235 كي تفوا

..... الذّكرة هي الهويّة

239 نتسافيم

..... ليست في السّماوات

244 فئيلخ

..... لنجدد زماننا

249 هازينو

..... قوس الأخلاقيات

تمهيد

"لقد آن الأوان لكي يقول اليهودُ والمسيحيون والمسلمون ما عجزوا عن قوله في الماضي: نحنُ جميعاً أبناء أفرهام/إبراهيم، وسواء كُنّا من نسل يتسحق/إسحق أو يشمعئيل/إسماعيل أو يعقوف/يعقوب أو عيسف/عيسو، أو ليئة أو راحيل، أو يوسف أو أيّ من إخوته، فإننا جميعاً عزيزون ومباركون في نظر الله عزّ وجلّ، وهذه البركة لا تعني أبداً أنه يجب علينا أن نُبغض بعضنا بعضاً، فمحبّة الله لنا لا تُسيرُ على هذا النّحو.

إن الله عزّ وجلّ يدعو كلّ فردٍ منّا سواء كان يهودياً أو مسيحياً أو مُسلماً لنبذ كافة أشكال الكراهية والتحريض، وأن نحيا أخيراً كأخوة وأخوات مُلتزمين بمعتقداتهم من جهة، ومن جهة أخرى يحلون كالبركة في حياة الآخرين بغض النظر عن معتقداتهم، ففي هذا توقيّر وإجلالٌ لاسم الله عزّ وجلّ ولصورته التي خُلقنا عليها: إنها الصورة الإنسانية".

اقتباس للحاخام جوناثان ساكس من كتابه

"Not in God's Name - Confronting Religious Violence" (ليس باسم الله: مواجهة التطرف الديني).

مع الأسف الشديد لم يُكتَب للحاخام الراحل جوناثان ساكس - طيّبَ الله ذكراه - أن يُنهي كتابة هذا الكتاب "دراساتٌ في الروحانية" والذي نحن بصدد التمهيد إليه هنا، فقد توقّاه الله في شهر نوفمبر/تشرين الثاني من سنة 2020م، أي قبل أن ينتهي من كتابة مقالته الأخيرة التي يتطرّق فيها للنصّ الأسبوعي الأخير من نُصوص التوراة والذي يحمل اسم "فِرُوث هَابْرَاخَاهُ" (بمعنى "وهذه هي البركة" باللغة العربية).

ومن المؤكّد بأن وفاة الحاخام ساكس قبل أن يتمكن من إنهاء كتابه هو أمرٌ مؤثّر جداً وله وقعٌ كبيرٌ على القلوب، إذ يعكس ذلك كيف أن فهمنا للتوراة ليس أمراً نهائياً ولا قطعياً، ذلك لأن العمق الشديد في حكمة التوراة وجمالها كان ولا زال موضع بحثٍ واستكشافٍ على مدى آلاف السنين، وبالرغم من ذلك فإن عملية تحليلها ودراستها لم تَسْتَنْفِذ الكَمّ الهائل من الموارد والتعاليم والدروس التي تحملها بين ثناياها، والعكسُ صحيحٌ أيضاً: فقد قام دارسو التوراة ومفسّروها وعُلماءُها بإعادة إحياء التوراة وتجديدها جيلاً تلو الآخر، وكلما تعمّقوا في دراستها كلما عثروا على أفكار جديدة.

إنّ تعاليم الحاخام جوناثان ساكس المعاصرة ترتبُ على قمة الثروة المعرفية التي تَسَجَّها وصَقَّلها مُفكرون يهود وغير يهود على حدّ سواء. وبالطريقة ذاتها فقد كانت كلماته بمثابة مصدرٍ إلهامٍ لنا كي نَمضي قُدماً على هذا الدرب العظيم الذي تملؤه التساؤلات، بل ومواجهةً أعظم الأسئلة التي طُرحت في التاريخ البشري والتي تبدأ بأداة الاستفهام "لماذا". بالتالي، فإن هذا الكتاب الذي لم

تمهيد: ميخال رزنيك ويُوئيل قُوليق

يُكْتَب للحاخام ساكس إنهاؤه هو بمثابة دعوة مفتوحة لنا جميعاً كي نواصل المسير على دربه، هذا الدرب التي يَكْمُنُ سِرُّ جمالها في طبيعته السرمديّة.

لقد كان الحاخام جوناثان ساكس - ولا زال - من ضمن أكثر الحاخامات تأثيراً في العالم المعاصر، فقد عُرف ضمن المجتمع اليهودي وخارجه بكونه عالم دين مُتمرّسٍ ومتحدثاً فصيحاً وكاتباً بليغاً، كما نقل إلينا تعاليم يهوديةً قيّمةً للغاية ولا تختصّ بالأسس التي تقوم عليها الديانة اليهودية فحسب، بل تتطرقُ للأديان عموماً والإنسانية جمعاء. كما أنّ فهمه العميق للفلسفة واللاهوت والأدب وعلم الاجتماع يبدو جلياً في عِظاته وتعاليمه، هذا بالإضافة إلى القدر الهائل من المعرفة والثقافة التي كان مُلمّاً بها مُتأثراً بما جاء به أفلاطون أو أرسطو ونيتشه وألكسيس دو توكفيل بالإضافة إلى كبار المُفسّرين والحاخامات وعلماء الدين البارزين الذين تطرّقوا للنصوص والكتابات اليهودية المقدّسة الأعمال والكتابات الحاخامية عموماً.

وفي الوقت الذي تمّت ترجمة أعماله الزاخرة ومحاضراته القيّمة إلى العديد من اللغات ووصلت إلى مُتناول الملايين من البشر حول العالم وكانت مصدر إلهامٍ لهم، فقد حُرِمَ ملايين العرب ومُتحدثو اللغة العربية من فرصة قراءتها والاطّلاع عليها حتى يومنا هذا مع الأسف الشديد.

لقد عبّر الحاخام ساكس من خلال أعماله عن توجّه يسيرٍ جداً في فهم الديانة اليهودية، حيث شرح التفاصيل الدقيقة والتعقيدات الفلسفية والدينية والاجتماعية في اليهودية بشكل بالغ الوضوح والإيجاز، الأمر الذي يجعل هذا الكتاب بمثابة مُرشِدٍ يُمكن أن يَهْتدي به كل من يرغب في التعرف على اليهودية، بل ومدخلاً هاماً لكلّ طالبٍ بصدد دراسة أسفار موسى الخمسة وكتاب التوراة.

وتتعدّى أهمية وقيمة هذا الكتاب حدود ذلك بكثير، فهو موجّهٌ لكلّ أتباع الديانات الذين يسعون لإيجاد معنىٍ لحياتهم في العالم المعاصر، فقد أكّد الحاخام جوناثان ساكس على ضرورة الاعتدال وأهمية وجود "طريقٍ وسطيّ" في حياة المرء يمكنه من خلالها أن يتأى بنفسه عن خطر التطرف والتعصّب متى شرّعت سهامها نحوه. في الوقت نفسه فقد كان الحاخام جوناثان ساكس على تواصل مع العديد من المفكرين المتديّنين وغير المتديّنين من شتى بقاع العالم، وهو من المؤيدين لفكرة تقاسمنا لعالمٍ قادر على احتواء وتقبّل الفروقات بين البشر، هذه الفروقات التي لا يمكن صهرها أو تجاوزها في سبيل تحقيق حالة من الوحدة العالمية بين البشر، لأن تجاوز وصهر هذه الفروقات من شأنه أن يُشوّه تميّزنا واختلافنا عن بعضنا البعض. كما آمن الحاخام ساكس - رحمه الله - بأنه لا يجب علينا أن نكون مُتسامحين مع أبناء الديانات والمعتقدات الأخرى فحسب، بل يجب علينا أيضاً أن نُقدّر القيم الإيجابية التي يؤمنون بها.

ولو أخذنا مثلاً من مقالاته التي كتبها في مستهل تعقيبه وتحليله للنصّ الأسبوعي التوراتي والذي يحمل اسم "يترو"، ذلك النص الذي يحمل اسم كاهن منطقة مدين والذي كان أيضاً والد زوجة نبي الله ورسوله موسى (رغم أن يترو لم يكن ينتمي لبني إسرائيل)، حيث يُبيّن لنا الحاخام ساكس كيف أن عبارة "باروخ هاشيم" (بمعنى تبارك الله عزّ وجلّ) قد ورد ذكرها ثلاث مرات في التوراة على لسان أشخاص ليسوا من بني إسرائيل. وحول هذه الجزئية بالذات يعقب قائلاً بأن "الله إله إسرائيل هو ربّ

تمهيد: ميخال رزنيك ويُوئيل قُوليق

للناس جميعاً بالرغم من أن ديانة بني إسرائيل ليست ديانةً للبشرية جمعاء". وإذا تأملنا ملياً في كلماته فإننا سنجد أنها الرسالة ذاتها التي أكَد عليها الحاخام عَقيقا في مقولته الشهيرة: "محبوبة هي البشرية، كونها مخلوقة على صورة الله وشَبَّهه. ومحبوبون هم شعب إسرائيل، كونهم أبناء الله" (أو أولياء الله على حد تعبير الحاخام سَعاديا چاؤون).

بالتالي تحمل تعقيبات الحاخام ساكس في طياتها دروساً وعبراً من شأنها أن نُعلِّمنا كيف نحيا في عالم معاصر ومترايط الأجزاء، فتعاليمه وتعقيباته وتَفاسيره تُعتبر دليلاً ومرشداً عملياً للقيم والمبادئ الإنسانية للبشرية جمعاء. ويوضح في كتاباته بأن الحداثة لا يجب أن تكون مصدر تهديد للدين، كما لا ينبغي لها أن تحريمَ البشر من فُرصة إيجاد المعنى لوجودهم، بل على النقيض من ذلك: فالحداثة بإمكانها أن تُعزِّز من وجود هذا المعنى إذا تمَّت مقاربتها بالشكل الصحيح. ويتكرر هذا الطرح المنطقي على امتداد فصول الكتاب ويُشكّل جزءاً كبيراً من تعاليم الحاخام جوناثان ساكس وعِظاته المستوحاة من التوراة، إذ يقوم عبر تحليلاته بإعادة إحياء مجموعة من أعرق الدروس والعبر التي عرفتتها البشرية وربطها بمجريات حياتنا اليومية، تلك الدروس التي استمدَّها من خلال تحليله ودراسته لأكثر الكُتب صيتاً وشهرةً على مستوى العالم: كتاب التوراة، هذا الكتاب الذي تشكل قِصصه أساساً مُتأصلاً في كلِّ من العقيدة اليهودية والمسيحية والإسلامية.

كما ويقدم لنا الحاخام ساكس عبر كتابه "دراسات في الروحانية" قدراً كبيراً من الحكمة التي تتطرق للأسس التي تقوم عليها الديانات الإبراهيمية جميعها من خلال تحليله لأجزاء التوراة المقسّمة إلى نصوص أسبوعية يُطلق عليها مُصطلح "پاراشوت" باللغة العبرية (والتي تُقرأ في جميع الكُتب اليهودية في كافة أرجاء العالم في الوقت نفسه تقريباً على مدار العام). كما يُخاطبنا بمُنتهى البلاغة عن القيم الأخلاقية التي تحملها عقيدة التوحيد، ناقلاً إلينا تعاليم الرُّسل والأنبياء الذين استشعروا فعلاً تجربة الحضور الإلهي في الحياة. كما ويناقش أيضاً عبر صفحات كتابه أهمية القيم الدينية كالعبادة والصلوات والروحانية والارتباط العائلي والاحترام المتبادل وفعل الخير وطلب العلم وضبط النفس والاعتدال والتواضع والعرفان والامتنان وغيرها الكثير من القيم والمفاهيم الهامة في الحياة.

ويتطرَّق الكتاب أيضاً للإجابة عن العديد من الأسئلة التي تُورق البشر وتشغل بالهم عموماً: "أين وكيف نجد الله؟ وما الفرق الذي سيُحدثه وجوده في حياتنا؟ وكيف يُمكن لليهودية أن تساعدنا لنكون أفضلَ وأكثر عاطفيةً وعطاءً على المستوى الفردي؟ وكيف للديانة اليهودية أن تؤثر إيجابياً على حياتنا العاطفية؟ وهل من شأنها أن تُساعدنا على ترتيب سُلّم أولوياتنا بطريقة تجعلنا نولي اهتماماً بالأمر الجديرة بالاهتمام فعلاً، لا بالأمر الضرورية فقط؟ وهل وجودها في حياتنا كفيلاً بأن يمنحنا القوّة للتغلب على الصعاب والمضي قدماً في الحياة في أوقات العثرات والفضل؟ هل سيساعدنا ذلك على تحمّل الصعوبات والمشقات دون أن نفقد الأمل أو القُدرة على الاستمرار؟ وهل بإمكان الديانة اليهودية أن تُعلِّمنا المحبة والتسامح؟ وهل سيجلب وجودها البهجة والسُرور إلى حياتنا؟ (بحسب ما ذكر الحاخام جوناثان ساكس في مقدمة كتابه). كما ويُسهب في الإجابة عن المزيد من الأسئلة: لماذا تحدث أمور سيئة للناس الصالحين؟ وكيف بإمكاننا أن نواجه مخاوفنا؟ وكيف بإمكاننا أن نتجاوزها؟

تمهيد: ميخال رزنيك ويُوئيل قُوليق

كيف نتصالحُ مع ماضيِنا؟ وكيف نُحوّلُ النَّقَمَ إلى نِعم؟ كيف نحقق أهدافنا بحيث نكون على أفضل صورةٍ بإمكاننا الوصول إليها؟ وغيرها الكثيرُ من الأسئلة.

وباختصار شديد، يناقش هذا الكتاب بشكل مُفصّل وموسّع تلك المُسَلّمات التي يقبل العقل صحتها بشكلٍ فطريّ، ويقترح أيضاً سُبُلًا يمكننا من خلالها أن نحسّن من هذا العالم الذي نعيش فيه. فنحن قبل كلّ شيء شركاء لله في عملية الخلق والحفاظ على هذا العالم بل وتحسينه أيضاً بحسب ما يُبيّن لنا التراث اليهودي، وهو الأمر الذي يشرحه الحاخام ساكس بإسهاب عبر صفحات كتابه.

ختاماً، لا بُدّ لنا وأن نولي بعض الاهتمام للحديث عن هذه النسخة المترجمة من الكتاب، فترجمةُ هذا الكتاب للغة العربية هي ثمرةٌ لجهود مشتركة ومُضنيّة بين اليهود والعرب معاً، فقد ثابر مترجمون من فلسطين والمغرب والعراق إلى جانب زملائهم الإسرائيليين اليهود بكل محبة ووثام حتى تخرّج هذه الترجمة بأفضل صورة مُمكنة. وقد تم إنجاز هذا العمل بدعمٍ سخّي من مركز السيد نعيم دَنغور للديانات التّوحيديّة العالميّة باعتباره جزءاً من التزام عائلة دَنغور المستمرّ لبناء الجسور من خلال التبادل الثقافي والفكري. ويترأس المركز الدّكتورة دانييلاه غوريفيتش التي كان لِحكمتها ورؤيتها وتقديرها لقيمة كتابات الحاخام جوناثان ساكس الفضلُ الكبير في أن يرى هذا العملُ النور. والدكتورة دانييلاه غوريفيتش ومركز دَنغور جعلوا هذا العملَ متاحاً للقراء بالمجان كجزء من مكتبة إلكترونية مُتخصّصة في الأدب اليهودي باللغة العربية ممّا يخدمُ الرسالة التي تحمّلها عائلة دَنغور العريقة. ولا نُفشي سرّاً حين نقول بأن كل من ساهم بهذا الترجمة كان مُتأثراً جداً بتعاليم الحاخام ساكس، الأمر الذي جعلهم يدركون حجم المسؤولية المُلقاة على كاهلهم من أجل إيصال أفكارٍ تُعتبر مقدّسة لدى الملايين من الناس حول العالم بمُنتهى الدقة والسلاسة. ومن خلال هذا الجهد المشترك، وجد كل مترجم وكل مدقق لغويّ معنى عميقاً في الكلمات التي قاموا بترجمتها، مُدركين العلاقة المباشرة بين الرسائل التي يريدُ الحاخام جوناثان ساكس إيصالها ومدى اتصالها بمناحي ومُجريات حياتهم اليومية.

بالتالي تعتبرُ النسخة المُترجمة إلى اللغة العربية شاهداً حياً على مدى قُوّة تعاليم الحاخام ساكس وعمليّتها بالنسبة لمن ينتمون لديانات ومعتقدات أخرى غير اليهودية في مختلف دروب الحياة. وإننا نتمنى من أعماق قلوبنا أن تجذب هذه النسخة المُترجمة للغة العربية انتباه القراء العرب وتكون مصدر إلهامٍ لهم تماماً مثلما كانت مصدر إلهامٍ لفريق العمل الذي عمل على ترجمته وتدقيقه لغويّاً رغم كونهم من خلفياتٍ مُتعددة.

ومعاً وسويّاً يمكننا أن نكمل المسير في الدّرب الذي وضعه لنا الحاخام جوناثان ساكس لكي نستفيد من الحكمة التي تركها لنا كبارُ الحاخامات الذين عاشوا قبل الحاخام ساكس، والذين استندّ إليهم كمرجعية فيما أصدره ونشره من أعمال وكتابات.

ميخال رزنيك ويُوئيل قُوليق

ميخال رزنيك هي المُؤسّسة والمديرة التنفيذية لجمعية "همزة الوصل" غير الحكومية والمسؤولة عن مشروع ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية.

يوئل قُوليق هو كاتب مقدسيّ وخريج قسم التاريخ والفلسفة السياسيّة من جامعة كامبريدج وباحث في الشؤون اليهودية والإسرائيلية وشؤون الشرق الأوسط

السيرة الذاتية للحاخام جوناثان ساكس



الحاخام اللورد جوناثان ساكس طيب الله ذكره هو أحد الرموز الدينية القيادية البارزة على مستوى العالم، وهو رجل فلسفة وكاتبٌ مُخضرمٌ وأحد الأصوات الأخلاقية العالمية التي تحظى باحترام عالمي واسع. وقد حاز الحاخام جوناثان ساكس على الكثير من الجوائز، منها جائزة تمبليتون (Templeton) التي نالها عام 2016م تقديراً "لجهوده الاستثنائية في الحفاظ على البُعد الروحي للحياة". وقد وصّفه ملك بريطانيا العظمى بأنه "قَبَسٌ من النور بين ثنايا الأمة الإنجليزية"، كما وصّفه رئيس الوزراء البريطاني السابق طوني بليز بأنه "مُفكّرٌ عملاق". وكان الحاخام جوناثان ساكس ضيفاً مُعتاداً في محطات الإذاعة وقنوات التلفزيون والإعلام البريطاني والعالمي في مُختلف أنحاء العالم.

وبعد أن أنهى مهمته ككبيرٍ لحاخامات مجلس الاتحاد العبري في مناطق التاج البريطاني المعروفة اصطلاحاً باسم دول الكومونويلث (الأقاليم والدول التابعة للمملكة البريطانية) والذي شغله لمدة اثنين وعشرين عاماً (من عام 1991م حتى عام 2013م) حصل على عدد من الدرجات والشهادات العلمية من عدد من المحافل الأكاديمية المرموقة، وعلى رأسها جامعة يَشيفا (Yeshiva University) وجامعة نيويورك وكلية كنجز في لندن. وخلال مسيرته الطويلة مُنح الحاخام جوناثان ساكس إحدى وعشرين درجة دكتوراة فخرية، من ضمنها درجة الدكتوراه في اللاهوت (Doctor of Divinity) والتي منحتها له مُطران منطقة كانتربيري اللورد كاري بعد مضيّ عشر سنوات على وجوده في منصب كبير حاخامات إنجلترا.

ألّف الحاخام جوناثان ساكس خلال مسيرة حياته أربعين كتاباً، وتم تصنيف كتابه الإبداعي الذي ألّفه عام 2020م تحت عنوان "الأخلاق: استعادة المصلحة العامة في أوقات الانقسام" (*Morality: Restoring the Common Good in Divided Times*) على أنه واحدٌ من أكثر عشر كتب مبيعاً تبعاً لتصنيف صحيفة صنديا تايمز البريطانية، ونُشر في أمريكا الشمالية في الأول من أيلول/سبتمبر من العام نفسه وحاز على لقب "كتاب العام" تبعاً لتصنيف المجلس القومي اليهودي للكتاب.

ومن مؤلفاته أيضاً: كتاب "ليس باسم الله: مواجهة التطرف الديني" (*Not in God's Name: Confronting Religious Violence*)، وكتاب "الشراكة العظيمة: الله والعلم والبحث عن المعنى" (*The Great Partnership: God, Science and the Search for Meaning*)، وكتاب "كرامة الاختلاف: كيف نتجنب الصدام بين الحضارات" (*The Dignity of Difference: How to Avoid the Clash of Civilizations*) والذي حاز على جائزة چرومير للأديان عام 2004م تقديراً لنجاحه في إيجاد وتعريف إطارٍ للحوار الديني بين أتباع جميع الديانات من جهة وغير المؤمنين بالأديان من جهة أخرى. كما قام أيضاً بتأليف كتاب "إصلاح عالمٍ مُنكسر: أخلاقيات المسؤولية" (*To Heal a Fractured World: The Ethics of Responsibility*)، بالإضافة إلى كتاب "متطرف الماضي هو متطرف الحاضر" (*Radical Then, Radical Now*) والذي نُشر تحت عنوان "رسالة في لفيفة: أن تكون يهودياً في أمريكا الشمالية" (*A Letter in the Scroll: On Being Jewish in North America*) والذي حاز على جائزة مؤسسة الكتاب القومي اليهودي عام 2000م.

وبصفته عالماً وفقهياً في الكتاب اليهودي المقدس (التناخ) فقد نشر ترجمة إنجليزية حديثة وتفسيراً مُعاصراً لكُتَيْب الصلوات والأدعية اليهودية (سيدور باللغة العبرية) تحت عنوان كُتَيْب الصلوات كورين-ساكس " (Koren Sacks Siddur)"، والذي يُعدّ أول كُتَيْب صلواتٍ وأدعية جديد على النهج اليهودي الأرثوذكسي يتم نشره خلال العقدین المنصرمين، هذا عدا عن احتوائه على تفاسير عميقة وصلواتٍ للأعياد الدينية اليهودية الرئيسية مثل روش هاشناه (رأس السنة العبرية) ويوم كيپور (يوم الغُفران) وعيد البَيْسَح (عيد الفصح اليهودي) وعيد الشُّفوعوت (عيد الأسابيع) وعيد السُّكوت (عيد العُرش والمظلات). أما مقالاته وتعليقاته على النصوص التوراتية الأسبوعية والتي وضعها في كتابه "العهد والحديث" (*Covenant & Conversation*) فهي تُقرأ في مُختلف أرجاء المُجتمعات اليهودية حول العالم.

وباعتباره مُتحدّثاً وخطيباً بارعاً فقد كانت تتم دعوته مراراً وتكراراً لإلقاء الخُطب وإعطاء المحاضرات في المحافل الأكاديمية المرموقة والمعاهد والمنصّات حول العالم. وقد حصل مقطع الفيديو الخاص بمُحاضرته التي ألقاها عبر منصة تيد (TED Conference talk) عام 2017م على أكثر من مليوني مُشاهدة، مما جعل كريس أندرسون مؤسس منصة تيد والمسؤول عنها يصنّف هذه المحاضرة على أنها واحدةٌ من أكثر مقاطع الفيديو مُشاهدةً على الإطلاق خلال ذلك العام.

وتكريماً لجهوده الجبّارة فقد كان الحاخام جوناثان ساكس واحداً ممن نالوا جائزة القدس عام 1995م تقديراً لمساهماته في الحياة اليهودية في الشتات، كما منحته جامعة بن غوريون الإسرائيلية جائزة لاديسلاوس لاشت (Ladislaus Laszt) للقضايا الاجتماعية على المستوى العالمي عام 2011م، كما

السيرة الذاتية للحاخام جوناثان ساكس

منحه مركز انغبورغ رينيه (Ingeborg Rennert) لدراسات القدس في جامعة بار إيلان جائزة حارس صهيون عام 2014م، وفي العام نفسه حصل على جائزة كاتز (Katz) تقديراً لجهوده الجبارة في التحليل العملي لتطبيق قوانين الشريعة اليهودية (الهالاخاه) في الحياة المعاصرة في دولة إسرائيل. وفي العام نفسه أيضاً حصل على وسام مؤسسة بيكيت (The Becket Fund) في منطقة كانتريري تقديراً لدوره البارز في الدفاع عن الحرية الدينية في الأماكن العامة. وعام 2016م مُنِح جائزة برادلي (Bradley Prize) تقديراً لكونه "صوتاً أخلاقياً قيادياً في العالم المعاصر". وعام 2017م منحه المعهد الأمريكي للمبادرات الاقتصادية جائزة إرفينغ كريستول (Irving Kristol) تقديراً "لمساهمته البارزة في مجالات الفلسفة والدين والخطاب الديني باعتباره واحداً من أعظم المُفكرين على مستوى العالم". ثم في عام 2018م منحته صحيفة لندن جويش نيوز (The London Jewish News) جائزة إنجاز العمر (Lifetime Achievement Award) تقديراً لخدماته للعالم اليهودي والمجتمعات الإنسانية عموماً. وعام 2005م مَنَحَت جلالته ملكة بريطانيا الحاخام جوناثان ساكس لقب "نبيل مدى الحياة" (Life Peer)، ثم أصبح لوردًا في مجلس اللوردات البريطاني في شهر تشرين الأول/أكتوبر من عام 2009م.

وُلِدَ الحاخام جوناثان ساكس عام 1948م في لندن، وارتبط بزوجته إلين عام 1970م وأنجب منها ثلاث أبناء. وتوفي بتاريخ السابع من تشرين الثاني/نوفمبر من سنة 2020م، تاركاً خلفه إرثاً معرفياً هائلاً باعتباره واحداً من أعظم المُفكرين اليهود في القرن العشرين، وباعتباره شخصية جسّرت الهوة بين العالم المُتدين والعالم العلماني عبر ما سطره من أعمال زاخرة تُطغى عليها ملامح الإبداع والتميز.

قاموس المصطلحات

* كثيرٌ من الآيات التوراتية (التوراة هي الأسفار الخمسة الأولى من كتاب التَّنَاخ: سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد وسفر التَّنْثِيَة) الموجودة في هذا الكتاب مُقْتَبَسَة مِن تفسير التوراة للحاخام سَعْدِيَا غَاوُون طَيَّبَ اللهُ ذَكَرَهُ. هذا التَّفْسِيرُ مُتَاحٌ للقراءة في المكتبة الالكترونية الخاصة بمركز السيّد نعيم دَنغُور للدراسات التوحيدية العالمية والتي يُمكنكم زيارتها من خلال الرابط التالي :

<https://dangoorcentre.com/product/%d8%a7%d9%84%d8%aa%d9%91%d9%88%d9%92%d8%b1%d9%8e%d8%a7%d8%a9>

بروتوكولات حُكَمَاءِ صَهِيون

يعتبر هذا الكتاب أحد أكثر الكتب سيئة السمعة والمعادية للسامية والذي انتشر كالنار في الهشيم في العصر الحديث. وبالنسبة لما يحتويه من الأكاذيب الفاضحة والملققة عن اليهود فقد تم دحضها وتفنيدها جميعها، لكن وبالرغم من ذلك إلا أن هذا الكتاب لا زال مُنتَشَرًا عبر مواقع وصفحات الإنترنت حتى يومنا هذا. وبالنسبة للأفراد والجماعات التي تسعى لنشر هذا الكتاب فجميعهم يجتمعون على هدف واحد وهو التحريض على كراهية اليهود.

إن هذا الكتاب عبارة عن محتوى خياليّ تماماً تم تأليفه بقصد تحميل اليهود مسؤولية الكثير من المصائب والكوارث حيث ادّعى ناشروه بأنه يوثق محاولات اليهود لحياكة المؤامرات من أجل السيطرة على العالم، لكن هذه المؤامرة والشخصيات التي يُفترض أنها تقوم بحياكتها ليس لهم أي وجود أصلاً. وقد تم نشر بعض أجزاء من الكتاب في روسيا سنة 1903م تحديداً في جريدة "زناميا" (بمعنى الراية) على شكل مقالات متسلسلة، لكن أول انتشار وظهور رسمي للنسخة التي حققت انتشاراً واسعاً من "المخططات" والتي تُرجمت إلى لغاتٍ عديدة فقد كان في روسيا سنة 1905م كملحق من كتاب الأديب والمحرف الروسي سيرجي نيلوس الذي حمل عنوان "عظيم في حقير: المسيح الدجال ومملكة الشيطان على الأرض" (*The Great in the Small: The Coming of the Anti-Christ and the Rule of Satan on Earth*)

بصورتِه كَشْبِه

يُعدّ موضوع خلق الله للإنسان على "صورتِه وشبهه" محطّ نقاشٍ وجدالٍ على مرّ التاريخ اليهودي، وقد ذُكر هذا الموضوع أيضاً في بعض الأحاديث النبوية الإسلامية، ولكننا نودُّ مناقشتها انطلاقاً من

وجهة نظر يهودية. وقد تطرّق الحاخام الراحل جوناثان ساكس- طيب الله ذكر - كبير حاخامات إنجلترا، إلى هذا الموضوع في عدّة مقالات تتعلّق بالنصّ الأسبوعي "بريشيت" يمكن إيجادها في موقعه الرّسمي، منها مقال "كتابٌ حيّ" (A Living Book) وآخر يُدعى "مراحل الخلق الثلاثة" (The Three Stages of Creation).

يُعدّ الإنسان العاقل (الاسم البيولوجيّ للنوع البشريّ) من وجهة نظرٍ يهودية مزيجاً فريداً من "تراب الأرض" و"نفس الله"، ممّا يجعله منفرداً مميّزاً عن باقي الخلائق، حيث أن وجوده لا يرتكز على جوهرٍ واحدٍ مثلهم وامتلاكه حرية الاختيار.

إن التأكيد على أهمية حرية الاختيار والحرية بشكل عامّ وكذلك التأكيد على أهمية المسؤولية، يُعتبر من أبرز مميّزات الفكر اليهوديّ. فالقول بأن الله عزّ وجلّ قد خلق الإنسان على صورته أو شبهه يُشكّل تناقضاً بحد ذاته، لكونه يتعارض مع ما أكّدت عليه التوراة مراراً وتكراراً بأن الله ليس له صورة على الإطلاق، وهذا ما تؤكّد عليه الآية الرابعة عشرة من المقطع الثالث من سفر الخروج: "أكون ما أكون" في ردّ من الله على موسى/موشيه حين سأله عن اسمه.

إن الله عزّ وجلّ يتعدّى حدود الطبيعة، وهذه هي النقطة التي تؤكّد عليها قصّة الخلق في سفر بريشيت/التكوين، فالله مُطلق الحرّية وغير خاضع لأيّ من قوانين الطبيعة. وبخلقه الإنسان على صورته فقد منحنا بذلك الحرّية، وبالتالي فقد خلق الإنسان بصفة في قمّة التميّز وفي قدرته على الخلق والإبداع، الأمر الذي يفسّر قدرة البشر على التغيير والتطوير الذاتي.

إن الكلمات هي أسمى أشكال الإبداع، وليست التكنولوجيا ولا العلوم، فمن خلال الكلمات فقط خلق الله هذا الكون بكلّ مخلوقاته. وعلى غرار ذلك فإن ما يميّز الإنسان العاقل عن الحيوانات الأخرى هو قدرته على الكلام، فقدرتنا على الكلام تمنحنا القدرة على التفكير الذي بدوره يجعلنا قادرين على تصوّر عالمٍ آخر ومُختلفٍ عن هذا الموجود حالياً.

إن أول مرحلة في الخلق هي الكلمة الخالقة، أي الفكرة والرؤية والحلم. واللغة بجانب القدرة على تذكر ماضٍ بعيد وتخيّل مستقبلٍ أبعد، هما أمران موجودان في صميم تميّزنا كوننا خُلِقنا بشكلٍ منفردٍ على صورة الله وشبهه.

لكنّ القدرة على خلق أشياء جديدة ليست القدرة الوحيدة التي أنعم بها الله على الإنسان".

وكان هذا الأمر الذي علّمنا إياه كبار حاخامات اليهود منذ القدم: "مثلما يتّسم الله عزّ وجلّ بالكرم، عليكم أنتم أيضاً أن تكونوا كرماء، ومثلما يتّصف عزّ وجلّ بالرحمة، فعليكم أيضاً أن تكونوا رُحماء. ومثلما يتّصف الله عزّ وجلّ بالقداسة، فعليكم أن تكونوا مُقدّسين". كما نرى جلياً كيف وصّف الأنبياء الله عزّ وجلّ بالصفات التالية: "الطّائِقُ والمُحسِنُ والصّالحُ والأمِينُ والكَاملُ والجَبّارُ والقويُّ وغيرها من الصفات. والهدف من وراء وصف الأنبياء لله عزّ وجلّ بهذه الصفات هو أن يعلمونا بأن هذه الصفات جيّدة وصالحة، وعلى الإنسان الملتزم أن يتّصف بها، واتصافه بها سيجعل الإنسان يفتدي بالله عزّ

وجلّ قدرَ المُستطاع (بحسب ما وضحه الحاخام موشيه/موسى بن ميمون في كتاب "مِشنيه تورا"، باب هِلْخُوتْ دِعُوتْ 1:6).

وفيما يلي، نذكر بعض الخصال الخاصة والمميزات التي يتمتع بها الإنسان دون سائر المخلوقات الأخرى، ومن خلال هذه الميزات تظهرُ الغاية من وجود الإنسان. وهذه الخصال هي: القدرة على الكلام، والقدرة على التفكير، والقدرة على إدراك الذات، والقدرة على الخلق والإبداع، وحرية الاختيار، والحس الأخلاقي.

الخلاصة: إذا كانت هذه الافتراضات صحيحة بالفعل، أي أن هذه الخصال والمميزات الستة تُميزُ الجنس البشري عن سائر المخلوقات، وأنها الشروط الستة ذاتها التي تتطلبها لتحمله المسؤولية الأخلاقية (وهي الصفات الستة لصورة الله التي خلقَ الإنسان بها)، فإنه من المنطقي أن نستنتج بأن الغاية من وجود الإنسان هو أن يستخدم تلك الخصال الستة ليعيشَ ضمن منظومة أخلاقية، ويصبح خاضعاً لمسؤولية أخلاقية تُؤطر سلوكياته. فقط حين يتصرف المرء على هذا النحو، فحينها فقط يُصبح إلى حد ما "على سَبَهِنا"، أي شبيهاً ببعض الشيء بالله عز وجلّ، والشبه هنا يعني تمتع الإنسان بجزء محدود من صفات الله السامية والكاملة: مثل الصلاح والإحسان والصدق والرحمة والحنان.

باراشاة شافوع

الباراشاة أو باراشات هاشافوع باللغة العبرية هي النصوص الأسبوعية التوراتية التي تُقرأ على نحو أسبوعي أثناء الصلوات اليهودية في أيام الاثنين والخميس والسبت من كل أسبوع (اليوم المقدس من كل أسبوع تبعاً للديانة اليهودية). والتورا (التي هي عبارة عن أسفار النبي موشيه/موسى الخمسة التي يبدأ بها كتاب التناخ المقدس) مُقسّمة إلى أربعة وخمسين نصاً أسبوعياً (باراشاة أو باراشوت بالجمع) بحيث تُورَعُ قراءة هذه النصوص على مدار السنة تبعاً للتقويم العبري. ويتكوّن كل نصّ أسبوعي من مقطعين (اصحاحين) إلى ستة مقاطع.

وبالنسبة لقراءة التورا على مدار العام فهي تبدأ وتنتهي مع حلول عيد "سمحات تورا" (بمعنى فرحة وبهجة إتمام قراءة التورا بأكملها)، بحيث يعتمد التقسيم الأسبوعي لنصوصها على التقويم العبري القمري-الشمسي والذي قد يصل إلى مجموع خمسة وخمسين أسبوعاً في السنة اليهودية الواحدة بحيث يعتمد ذلك على ما إذا كانت السنة كبيسة أو عادية. وبالنسبة للتقويم القمري الذي يتبعه اليهود فإنهم يقومون كل ثلاثة سنوات بإضافة شهر كامل إلى التقويم من أجل الموائمة بين السنة الشمسية والسنة القمرية باعتبار أن السنة القمرية بها عدد أيام أقل من الشمسية. وفي السنة التي تحتوي على أقل من ثلاثة وخمسين أسبوعاً فإنه يتم دمج نصّين من النصوص الأسبوعية وقراءتهما خلال أسبوع واحد من أجل إتمام قراءة التورا بأكملها في الموعد المحدد لذلك.

وتعود أصول قراءة التورا بشكل جماعي على نحو أسبوعي إلى سفر (كتاب) نحمياه، حين بيّن عزرا الكاتب (هسوفير) عبر كتاباته عن رغبته في إيجاد طريقة تضمن عدم ضلال بني إسرائيل وابتعادهم عن

سبيل الله عز وجل. ومن هنا جاءت فكرة نظام القراءة هذا بحيث تُقرأ النصوص الأسبوعية بشكل جماعي في الكُنُس اليهودية.

ومع إتمام قراءة التوراة بأكملها يحلّ العيد اليهودي "سيمحات تورا" والذي يُقصدُ به فرحة وبهجة إتمام قراءة التوراة، ويحتفل به اليهود في كافة المُجتمعات اليهودية حول العالم.

تَرْجُوم /ترجمة أنكلوس

تَرْجُوم /ترجمة أنكلوس (תרגום אונקלוס) هي الترجمة اليهودية الآرامية الرئيسية للتوراة، والتي اعتُمِدَت كترجمة رسمية ثم أصبحت الترجمة الآرامية القياسية للتوراة التي يستخدمها اليهود على نحو يومي، بالرغم من أنّ اللغة الآرامية لم تُعد مُستخدمة من قبل غالبية اليهود. وترجمة أنكلوس تُنسبُ إلى أحد نُبلاء الرومان الذي اعتنق الديانة اليهودية ويُدعى أنكلوس، حيث عاش في القرن الأول قبل الميلاد (بين عامي 35 -120 ق.م). كرس أنكلوس حياته لدراسة التوراة وأصبح من أتباع الحاخام إلبير بن هورقانوس والحاخام يهوشوع بن حنانيا. هنالك قصة معروفة عن أنكلوس وعمّه الذي كان إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية، حين نصحه بأن يمضي قُدماً في البحث عن أمرٍ ليس بتلك القيمة في تلك الفترة لكنه سيصبح في غاية القيمة مُستقبلاً، فمضى أنكلوس باحثاً عن هذا الأمر ووجد الديانة اليهودية.

تَلْمُود

التَّلْمُودُ (بالعبرية: תלמוד) هو النص المركزي لليهودية الحاخامية والمصدر الأوّل للشريعة الدينية اليهودية (الهالاخاه) واللاهوت اليهودي. يعود أصل كلمة تلمود إلى الجذر العبري (ل-م-د)، بمعنى تعلم ودّرس. يحتوي التلمود على التشريعات والروايات والحكايات الرمزية والأمثال والصلوات والقواعد الأخلاقية، إضافة إلى نقاشات فلسفية ودينية حول الكتاب اليهودي المقدس الذي يضم كلا من النصّ المكتوب وهو التناخ، والروايات الشفهية الموجودة في المشناه والجَمَاره (الجَمَاره تضمّ النقاشات الحاخامية حول المشناه). يتكون التلمود من سبعة وثلاثين كتاباً. وتتكوّن المشناه من ثلاثة وستين كتاباً تنقسم بدورها إلى ستة أجزاء تسمّى "سُداريم" باللغة العبرية. هناك نُسختان من التلمود: البابلي واليروشلمي (أي تلمود أرض إسرائيل)، حيث يوثقُ التلمود البابلي نقاشات الحاخامات الذين عاشوا في أرض بابل، واليروشلمي يوثقُ نقاشات الحاخامات الذين عاشوا في أرض إسرائيل، إلا أن التلمود البابلي هو الأكثر شيوعاً واستخداماً.

تنّاخ

التَّنَاح هي كلمة تختصرُ الحروف الثلاثة الأولى من كلمات "توراة، نفيئيم، كتوفيم" (أي التوراة والأنبياء والكتابات)، ويُقصد بكلمة تنّاخ الكتاب اليهودي المقدس الذي يضم أسفار التوراة الخمسة (سفر التكوين وسفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية)، بالإضافة إلى أسفار الأنبياء (وهي ثمانية أسفار: سفر يوشع، وسفر القضاة وسفر صموئيل الأول والثاني وسفر الملوك الأول والثاني وسفر إشعياء وسفر إرميا وسفر حزقيال، وسفر اثني عشر الأنبياء الاثني عشر الأواخر. ويُضاف لها أسفارُ الكتابات، والتي تضمّ الهاغيوغرافيا، أي كُتُب السيرة الخاصة بالكهنة وكبار الحاخامات والشخصيات العظيمة في الديانة اليهودية، والتي تضمّ أحد عشر كتاباً، وهي سفر المزامير، وسفر الأمثال، وسفر أيوب، وسفر روث (راعوث)، وسفر نشيد الإنشاد، وسفر الجامعة، وسفر مراثي إرميا، وسفر أستير، وسفر دانيال، وسفر عزرا ونحميا، والجزء الأخير من التَّنّاخ يضم أسفارِ تدوين التاريخ. بالتالي يضمّ التَّنّاخ بين ثناياه أربعة وعشرين سفرًا (كتاباً).

حركة الحَسِيدِيم

حركة الحَسِيدِيم هي حركة دينية يهودية روحانية إحيائية أرثوذكسية ظهرت في أوروبا الشرقية (أوكرانيا) في القرن الثامن عشر على يد الحاخام يسرائيل بن إليعزر والذي يُعرف باسم الحاخام بعال شيم توف. ويستند أتباع الحركة الحَسِيدِيَّة (أو الحَسِيدِيَّون، وهي كلمة تعني الورعين أو الأتقياء) في تعاليمهم الدينية إلى الطريقة اليهودية الصوفية المعروفة بالقبالة وذلك بهدف إيجاد تجربة روحية بديلة ومباشرة للوصول إلى الله عزّ وجلّ من خلال الصلاة والتأمل وغيرها من الطقوس بإرشادٍ روحي من الرّبي (بمعنى القائد الروحيّ صاحب الكاريزما والتأثير). الحركة الحسيدية تعتبرُ بمثابة توجّهٍ روحيّ بديلٍ للتوجهات الدينية الرسمية والتعليمية لممارسة المُعتقد اليهودي والتي ظلّت موجودة حتى ظهورها في تلك الفترة. وخلال أحداث المحرقة (الهولوكوست) كادت الحركة الحسيدية على وشك الاندثار، لكن العشرات من الفرقِ الحسيدية لا زالت موجودة حتى يومنا هذا ويتركز وجودها في دولة إسرائيل والتجمعات المدنية في نيويورك.

دريفوس (قضية دريفوس)

وُلِدَ ألفريد دريفوس في التاسع من شهر تشرين الأول\أكتوبر عام 1859م وتوفي بتاريخ الثاني عشر من شهر تمّوز\يوليو سنة 1935م، وكان ضابطاً في سلاح المدفعية الفرنسي وينحدرُ من أصول يهودية، تحديداً من منطقة ألزاس. كانت مُحاكمته وإدانته بالخيانة سنة 1894م واحدة من أكثر الأحداث السياسية استقطاباً ومأساوية في التاريخ الفرنسي المُعاصر والتي صارت تُعرف باسم "قضية دريفوس". كان لهذه القضية صدى واسع في أوروبا، وانتهت بتبرئة ألفريد دريفوس من التّهم المنسوبة إليه. بدأت

القضية بتسريب معلومات تتعلق بقطع جديدة لسلاح المدفعية الفرنسي إلى المُلحق العسكري الألماني في باريس من خلال أحد الجواسيس، والذي يُعتقد بأنه كان من الرتب العليا في رئاسة أركان الجيش الفرنسي. وعلى الفور بدأت الشكوك تحوم حول ألفريد دريفوس الذي اعتُقل إثر ذلك بتهمة الخيانة بتاريخ الخامس عشر من شهر تشرين الأول\أكتوبر سنة 1894م. وبتاريخ الخامس من كانون الثاني\يناير سنة 1895م وبمنتهى السرعة تمت إدانة ألفريد دريفوس بتهمة الخيانة خلال محكمة عسكرية سرية، كما تم تجريده من رتبته العسكرية في الجيش وحُكم عليه بالسجن مدى الحياة في جزيرة الشيطان في منطقة غويانا الفرنسية. وفي شهر آب\أغسطس من عام 1896م قام الرئيس الجديد لاستخبارات الجيش الفرنسي الفریق كولونيل جورج بيكار بإرسال تقرير إلى قيادته موضحاً بأنه وجد دليلاً يُثبت بأن الخائن كان الرائد فرديناند والسين إسترهازي وليس ألفريد دريفوس، لكن تم إسكات الكولونيل جورج بيكار عبر نقله ليعخدم في قوات المُشاة الموجودة في منطقة سوسة التونسية في شهر تشرين الثاني\نوفمبر سنة 1896م. وعندما تسربت تقارير إلى الإعلام حول مُحاولات الجيش لإخفاء احتمالية براءة ألفريد دريفوس انتشر جدلٌ واسعٌ حول معاداة السامية والهوية الحقيقية لفرنسا: فهل هي دولة لشعبٍ كاثوليكي أم جمهورية أقيمت على أساس الحقوق المتساوية لجميع مواطنيها. وبفضل الرأي العام عرض الرئيس الفرنسي آنذاك إيميل لوبيه عفواً عاماً على ألفريد دريفوس، فقبله وتم إطلاق سراحه عام 1899م. لكن هذا العفو كان بمثابة تنازل من قبل الجيش حتى لا يعترف بالخطأ الفاضح الذي اقترفه بحق دريفوس والذي كان سيعود لجزيرة الشيطان لو لم يقبل بهذا العفو، وهو حكمٌ لم يكن قادراً على إكماله أو التعاطي معه عاطفياً، بالتالي ظلّ دريفوس خائناً رسمياً لفرنسا بالرغم من إطلاق سراحه. وبتاريخ الثاني عشر من شهر تموز\يوليو عام 1906م قامت لجنة عسكرية بتبرئة ألفريد دريفوس رسمياً من جميع التهم المنسوبة إليه بعد مضي اثني عشر سنة على إدانته بتهمة باطلة، وعاد إلى الجيش الفرنسي وتمت ترفيته ليحمل رتبة رائد (*Chef d'Escadron*).

شبات/يوم الشبات

بحسب ما تُخبرنا التوراة فإن الله عزّ وجلّ خلق الكون في ستة أيام واستراح وتوقّف في اليوم السابع، أي "سَفَّت" باللغة العبرية. لاحقاً وبعد أن أخرج الله عزّ وجلّ بني إسرائيل من أرض مصر وأنزل عليهم التوراة فوق جبل سيناء، أمرهم بأن يلتزموا بتعاليم يوم السبت اليهودي المقدس (الشّبات) وألزمهم بالمحافظة عليها بحيث يتوقّفون عن العمل في اليوم السابع من كل أسبوع تماماً كما فعل الله في عملية خلق الكون. لكن الغرض من هذا الأمر الإلهي ليس قيام اليهود بتقليد الله بقدر ما كان القصد منه إدراك كيفية خلق هذا العالم، وتخصيص وقتٍ محدد من كل أسبوع بعيداً عن روتين الحياة اليومية وصعوباتها بحيث نركّز خلاله على تقربنا من الله عزّ وجلّ. بالتالي فإن جميع التفاصيل المتعلقة بالالتزام بيوم الشّبات اليهودي نابعة من هذه الفكرة الجوهرية، ألا وهي الاعتراف بأن الله عزّ وجلّ هو خالق كل شيء.

وعندما استراح الله عزّ وجلّ كان قد أتمّ مهمّة خلق السماوات والأرض، بمعنى آخر فإن الله فعلياً لم يكن يستعيد قواه من بعد التعب، بل يعني ذلك بأنه توقّف لأنه لم يبقَ أي عملٍ يقوم به عقب إتمامه خلق السماوات والأرض، بالتالي لم تكن هناك حاجة لأي مجهود ماديّ او معنويّ إضافي، مما يعنى أن الفكرة من هذا اليوم تكمن في الاستمتاع بثمار العمل الذي نقوم به كل أسبوع.

وبالطريقة نفسها فإننا عندما نتحدث عن يوم الشّبات اليهودي باعتباره يوماً للراحة فإن القصد منه ليس الانقطاع عن العمل، بل القصد منه عدم القيام بأي عمل من مُنطلق أنه لم يتبقَ أي عملٍ للقيام به أصلاً، وهي فكرة من شأنها أن تخوّلنا بالتفكير في الأمر من مُنطلق التمام والكمال. وبمجرد تفكيرنا بهذه الطريقة فإننا نضع أهدافنا وطموحاتنا ومشاغِلنا جانباً لنستمتع بما هو موجودٌ حولنا. كما وُصِفَ الشّبات بأنه يوم "شبات لأدوناي إلهيخا" (بمعنى يوم راحةٍ لله ربك)، بمعنى أننا عندما نتوقف عن التركيز على الأعمال الدنيوية فإن هذه الراحة تمنحنا الفرصة لقضاء وقت أطول في التركيز على الله عزّ وجلّ لتقدير ما يفعله من أجلنا. ويحلّ يوم الشّبات من كل أسبوع مع غياب شمس نهار يوم الجمعة وينتهي بحلول الليل وغياب شمس نهار يوم السبت، فتبعاً للتقويم اليهودي فإن اليوم يبدأ من مغيب الشمس وينتهي بمغيبها في اليوم التالي، وهكذا.

مخيلتا

مخيلتا هي كلمة آرامية يُقابلها في المعنى الكلمة العبرية "מידاه" والتي تعني المقياس أو القانون، وفي هذا السياق فإن المقصود بها هو تشريعات مُعيّنة تختصّ بالتفسير النقديّة للنصوص الدينية الموجودة في التناخ (الكتاب اليهوديّ المقدس)، والتي تُستخدم في التفاسير المدرّاشية التي تتطرّق للهالاه (قوانين الشريعة الدينية اليهودية). وبالرغم من وجود بعض الأعمال المشابهة التي يُطلق عليها اسم "مخيلتوت" إلا أن كلمة "مخيلتا" بحدّ ذاتها تستخدم للتعبير عن مجموعة التفاسير المدرّاشية التي تتطرّق للقوانين الشرعية اليهودية الموجودة في سفر الخروج على وجه التحديد والتي يُطلق عليها أيضاً "مخيلتا ديراوي يشمّعئيل" (المقصود بيشمّعئيل هو الحاخام يشمّعئيل بن إليشع الذي كان من الحاخامات المُعاصرين للحاخام اليهودي الكبير عقيفا). لكن من المُستبعد أن يكون الحاخام يشمّعئيل هو الذي قام بإعداد وتجميع محتوى النسخة الختامية للمخيلتا بمفرده، لكن عدداً كبيراً من تفاسيره موجود بالفعل في المخيلتا، ناهيك عن أن عدداً لا بأس به من تفسيرات المدرّاش للقوانين الشرعية اليهودية تتفق مع مدرسته الفكرية للتفسير بالإضافة إلى أنها تتفق مع تفاسير الحاخام يشمّعئيل وتلامذته وتابعيه، وبذلك فهي تحتل قدراً كبيراً من كتاب المخيلتا خاصته. وبجميع الأحوال فإن نسبة كبيرة من محتوى المخيلتا تتضمن مدرّاش الأعداء الذي يتطرّق بإسهاب وتفصيل إلى القصص والروايات الموجودة في التناخ، بالإضافة إلى تطرّق قسم كبير منه إلى الأخلاقيات والقيم والقضايا الأخلاقية على اختلافها.

مِدرَاش

المِدرَاش هو مصطلحٌ يُشيرُ إلى التفاسيرِ اليهوديةِ الموسَّعةِ للكتابِ اليهوديِّ المُقدسِ (التناخ)، بحيث تستندُ هذه التفاسيرُ إلى نمطِ حاخاميٍّ شائعِ الاستخدامِ في كتابِ التلمودِ (التلمودُ هو النصُّ المركزيُّ في الحاخاميةِ اليهوديةِ ويعدُّ المصدرَ الأساسيَ للديانةِ اليهوديةِ وللشريعةِ اليهوديةِ المعروفةِ باسمِ الهالاخاه). ومن ناحيةٍ لغويَّةٍ فإن كلمةَ مِدرَاشٍ تعني تفسيرَ النصِّ بالتَّصِّص، كما تعني أيضاً الدِّراسة، وهي مُشتقةٌ من الجذر "د.ر.ش" في اللغةِ العبريةِ، والذي يحملُ في طياته أكثرَ من معنى، منها البحثُ المُتأنِّي والاستفسارُ والطلبُ، وتظهرُ اشتقاقاتٌ كثيرةٌ لهذا الفعلِ على نحوٍ مُتكررٍ في الكتابِ اليهوديِّ المُقدسِ. كما أن التفاسيرِ المِدرَاشيةِ والقراءاتِ الحاخاميةِ للنصوصِ الدينيةِ تهدفُ إلى البحثِ عن القيمةِ الموجودةِ في النصوصِ والكلماتِ والحروفِ أيضاً، وهي تعتمدُ التفاسيرِ المِدرَاشيةِ على أسلوبِ طرحِ الأسئلةِ حولِ النصِّ الدينيِّ، وفي بعضِ الأحيان تُجيبُ على تلكِ الأسئلةِ، وفي أحيانٍ أخرى تتركُ المجالَ مَفْتُوحاً أمامَ القارئِ لِجُيبِ عنها بنفسه. والتفسيرُ المِدرَاشيُّ يُعدُّ نهجاً يهودياً مُميزاً، فهو لا يُحاولُ فهمَ الكلماتِ الموجودةِ في النصِّ الدينيِّ وما وراءه من أفكارٍ فحسب، بل يذهبُ بعيداً ليتطرقَ إلى ما هو غيرُ موجودٍ في الآيةِ، أي كلِّ حرفٍ وكلِّ كلمةٍ لم تُذكرْ في هذا النصِّ. إنَّ الأسلوبَ المِدرَاشيَّ يتضمَّنُ تفسيراتٍ قديمةً للتوراةِ المكتوبةِ والشفهيةِ (القوانينِ والمناسكِ الدينيةِ التي انتقلتِ بالمشافهةِ)، بالإضافةِ إلى الكتاباتِ الحاخاميةِ التي لا تتمحورُ حولِ القوانينِ (أغاداه) أو التشريعاتِ الدينيةِ اليهوديةِ (الهالاخاه) التي تجسَّدُ بالعادةِ تفسيراً مُكَمَّلاً لتفسيرِ نصوصٍ معيَّنة من الكتابِ اليهوديِّ المُقدسِ (التناخ).

مِشناه

كلمةُ مِشناه تعني باللغةِ العبريةِ الدراسةِ من خلالِ التكرارِ ودراسةِ موضوعٍ معينٍ ومُراجعتِهِ. ويقصدُ بها اصطلاحاً أوَّلَ مجموعةٍ رئيسيةٍ مكتوبةٍ للتقاليدِ والسيرِ التوراتيةِ الشفهيةِ، وهي أوَّلُ عملٍ رئيسيٍّ للنصوصِ الحاخاميةِ. وتمت كتابةُ المِشناه وتدقيقها وتنقيحها على يدِ الحاخامِ يهوداهِ هَنَسِي في أرضِ يسرائيلِ بدايةً القرنِ الثالثِ بعدَ الميلادِ، خلالِ حقبةٍ زمنيةٍ شهدتِ اضطهاداً لليهودِ، ومرورِ الوقتِ خلالِ هذا الاضطهادِ أدى إلى زيادةٍ احتماليةٍ اندثارِ السيرِ والتقاليدِ التوراتيةِ الشفهيةِ التي تعودُ إلى عهدِ الهيكلِ اليهودِ الثاني (516 ق.م حتى 70م). وأغلبُ مُحتوىِ المِشناه مكتوبٌ بلغةِ عبريةٍ خاصةٍ بالمِشناه، لكن بعضاً منها مكتوبٌ باللغةِ الآراميةِ. وتنقسمُ المِشناه لستةِ أجزاءٍ (سدرايم): زُرَاعِيم (الزراعة) الذي يتطرقُ للشرائعِ المتعلقةِ بأرضِ يسرائيلِ - موعيدِ (المواعيد) الذي يتطرقُ لشرائعِ الإجازاتِ والأعيادِ والصيامِ - نَشِيمِ (النساء) الذي يتطرقُ لشؤونِ الأسرةِ والزواجِ والطلاقِ وغيرِ ذلكِ... - نَزِيْقِينِ (الأضرار) الذي يتطرقُ للقوانينِ المدنيةِ والجنائيةِ والنظامِ القضائيِّ اليهوديِّ - قوداشيمِ (المقدسات) الذي يتطرقُ لشؤونِ الهيكلِ والمقدساتِ - طَهْرُوتِ (الطهارة) الذي يتطرقُ لشؤونِ الطهارةِ.

هاشيم

يتكوّن الاسم الصريح لله عزّ وجلّ في التوراة من أربعة حروف، وهو مُشتق من الجذر "ه.ي.ه" باللغة العبرية والذي يعني الوجود. ومن الجذر نفسه يُمكن اشتقاق صيغة الماضي والحاضر والمستقبل للأفعال في اللغة العبرية، وهذا يعني أن الله عزّ وجلّ دائمٌ وبأنه لا توجد حدود زمنية لوجوده. لم يكشف الله عزّ وجلّ عن اسمه الصريح لأفرهام/إبراهيم أو يتسحق/إسحق أو يعقوف/يعقوب، وأظهره فقط عندما تجلّى لموشيه/موسى تبعاً لما تذكره الآية الثانية من المقطع السادس من سفر الخروج: "ثم كلم الله موشيه، وقال له أنا الله" بالإضافة إلى الآيتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من المقطع الثالث من السفر نفسه: "قال موشيه بين يدي الله، ها أنا صائرٌ إلى بني إسرائيل، وأقول لهم إله آبائكم بعثني إليكم، فإن سألوني ما اسمه، ماذا أقول لهم؟ قال له، الأزلي الذي لا يزول، ثم قال، كذا قل لبني إسرائيل، الأزلي بعثني إليكم". توقّف اليهود عن استخدام الاسم الصريح لله عزّ وجلّ منذ زمن الهيكل الثاني، واستبدلوه بكلمات أخرى مثل "أدوناي" و"إلوهيم" و"هاشيم" (كلمة ها-شيم تعني الاسم). واستناداً إلى الهلاخاه (قوانين الشريعة اليهودية) فإنه ينبغي علينا أن نتعامل مع الاسم الصريح لله عزّ وجلّ بقمة التبجيل والاحترام، لأنها اللفظة التي تُستخدم في الحديث عن القدوس الذي يفوق في قدسيته كل شيء. وعند كتابة الاسم الصريح لله عزّ وجلّ فإنه يُمنع مسحه، لأن هذا العمل يعتبر تدنيّاً لقدسية الله عزّ وجلّ واسمه. إن هذا الاسم هو خاصٌ بالله عزّ وجلّ ولا يحمله أي شخص أو شيء آخر، فهو بمثابة اسم خاصٍ لله، بالتالي لا يجب أن يُلفظ هذا الاسم لأنه يحملُ أعلى درجاتِ القداسة.

هالاخاه

لا تقوم الديانة اليهودية على مجموعة المعتقدات المتعلقة بالله والإنسان والكون فحسب، بل هي شريعة حياة شاملة ومُتكملة تتضمن قوانين وتشريعات تنظم كل جانبٍ من جوانب الحياة: فما هي أدعية الصباح التي يجب عليك أن ترددها فور استيقاظك من النوم، وما هو الطعام والشرابُ المُحلل والمُحرّم تناوله، وما هي الثياب التي يمكنك أو لا يمكنك ارتداؤها، وكيف تُدير أعمالك ومصالحك التجارية، ومن يحلّ لنا الزواج منهم، وكيف نحتفل بالأعياد والمناسبات الدينية، وما هي الواجبات التي ينبغي علينا الالتزام بها للحفاظ على يوم الشّبات اليهودي (يوم السبت اليهودي المُقدس من كل أسبوع)، والأهم من هذا كلّهُ كيف نتعامل مع الله عزّ وجلّ ومع غيرنا من البشر والمخلوقات. وجميع هذه القوانين والتشريعات الدينية اليهودية تُعرف باسم الهالاخاه. وبالنسبة للمعنى الاصطلاحي للكلمة فالمقصود بالهالاخاه هو "التشريعات الدينية اليهودية"، لكن الترجمة الدقيقة للمصطلح هي "الطريق الذي نسيرُ عليه" استناداً إلى الجذر اللغويّ العبريّ الذي اشتُقّت منه الكلمة وهو "ه.ل.خ" والذي يعني سار أو ذهب أو سافر.

إن الالتزام الحقيقيّ بالهالاخاه هو أمر يرفع من الحالة الروحانية في حياة المرء، كما أن هذا الالتزام يُضفي أهمية دينية على أبسط الممارسات الدنيوية اليومية مثل تناول الطعام وارتداء الملابس وغيرها. ناهيك

عن أن الالتزام بهذه التشريعات الدينية هو بمثابة تذكيرٍ دائمٍ لعلاقة الإنسان بالله عزّ وجلّ لدرجة يصبح فيها هذا الالتزام جزءاً من وجودك كإنسان. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل توجد صعوبة في الالتزام بهذه التشريعات؟ الإجابة هي نعم، لكن حين يطلب منك شخصٌ مقرب منك مثل والدك أو ابنك أو شريك حياتك القيام بأمر يصعب عليك القيام به فإنك ستقوم به بغض النظر عن مدى صعوبته، أليس كذلك؟ فأَيُّ حُبِّ هذا الذي لا يجعل الإنسان يتحدّى الصعوبات من أجل القيام بما يطلبه المحبوب؟ وكم من الصعوبات التي يجب علينا تحديها وتجاوزها من حين لآخر من أجل الله عزّ وجلّ خالقنا وواضع هذه التحديات من أجل مصلحتنا قبل أي شيءٍ آخر؟

ويوجد ثلاثة مصادر تشريع للهالأخاه: التوراة، والقوانين الدينية التي وضعها الحاخامات مع مرور الزمن، بالإضافة إلى الأعراف والتقاليد الدينية الثابتة. والهالاخاه المستمدة من هذه المصادر الثلاثة يُطلقُ عليها لفظة "مِتْرَفاه" (بمعنى وصيّة نسبة إلى وصايا التوراة)، بالتالي فإن كلمة "مِتْرَفاه" لا ترتبط بالوصايا التوراتية فقط بل ترتبط أيضاً بالقيام بالأعمال الصالحة. ونظراً لاستخدام الكلمة نفسها (مِتْرَفاه) للتعبير عن أمرين ليسا متشابهين تماماً فقد ناقش كبار الحاخامات هذه المسألة وفرّقوا بين مفهوم "مِتْرَفوت دؤورائتا" (عبارة آرامية تعني الوصايا التوراتية)، ومفهوم "مِتْرَفوت دِربانين" (عبارة آرامية تعني الوصايا التي جاء بها حاخامات اليهود)، ومفهوم "مِنهاغ" الذي يُقصد به الوصايا التي مصدرها هو الأعراف والتقاليد الدينية المُتعارف عليها. لكن وبجميع الأحوال فإن جميع هذه الوصايا أياً كان مصدر تشريعها فهي تعتبر مُلزِمةً وواجبة الاتّباع، لكن مع وجود اختلاف في طريقة وأسلوب الالتزام بها.

يسرائيل

لقد قمنا بتغيير لفظة "إسرائيل" في هذا الكتاب وبدلاً منها قمنا باستخدام لفظة "يسرائيل" وذلك تبعاً للطريقة التي تُكتب بها هذه الكلمة باللغة العبرية. ويعود أصل هذه الكلمة إلى الجذر "أ.س.ر"، وهو جذر قريبٌ من اللغة العربية بحيث يمكن اشتقاق كلمات عديدة منه مثل الأسر والمَنع وغيرها، لكن تبعاً لسفر التكوين فإن "يسرائيل" هو الاسم الذي مُنِحَ ليعقوف/يعقوب بعد الحدث البارز الذي تمثل في مواجهة (مصارعة) يعقوب مع الملاك تبعاً لما تذكره الآية الثامنة والعشرون والتاسعة والعشرون من المقطع الثاني والثلاثين من سفر التكوين والتي تقول: "قال له ما اسمك، قال يعقوف، قال لا يُسمّى اسمك أبداً يعقوف بل يسرائيل، لأنك ترأست عند الله وعند الناس وطِقت ذلك"، بالإضافة إلى ما ذكرته الآية العاشرة من المقطع الخامس والثلاثين من نفس السّفر والتي جاء فيها: "وقال له اسمك يعقوف، لا يُسمّى اسمك أبداً يعقوف بل يسرائيل، فسماه أيضاً يسرائيل". بالتالي منح الله يعقوف اسمه الآخر يسرائيل بعد المواجهة المُحتمدة والصراع مع الملاك والتي حدثت في الليلة التي سبقت لقاء يعقوف بأخيه عيسف / عيسو. ومن هذا المنطلق فإن كلمة "يسرائيل" تعني "مَن واجهه الله". وبالفعل كانت حياة يعقوف مليئةً بالتحديات والمواجهات والصراعات، بدءاً من مواجهته مع أخيه عيسف، مروراً بما تعرّض له من خداع على يد حماه لَقْن/ لَبان، وانتهاءً بمواجهته وصراعه مع

الملاك. لكنه كان في جميع صراعاته يخرج منتصراً، ومن هذا المنطلق أطلق اسم إسرائيل على يعقوف وعلى قومه الذين جاؤوا من نسله، صار اسمهم بني إسرائيل.

وكما يوجد لكل انسان من اسمه نصيب فإن لكل شعبٍ من اسمه نصيب أيضاً، لكن هذا الأمر يطرح سؤالاً جوهرياً: إذا كان اسم إسرائيل مُرتبطاً بالانتصار في الصراعات، فلماذا لم يُطلق على اليهود لقب مثل "الذي انتصر" بدلاً من "الذي صار"؟ إن إجابة هذا السؤال تكمن في صميم العقيدة اليهودية: فاليهود يؤمنون بأن الخير ينتصر في النهاية، لكن النهاية السعيدة للأمور لا تحظى بتلك الأهمية. وبغض النظر عن النتيجة فإن العزم على القيام بأمر معين وتحدي الصعاب في سبيل الوصول إليه هو بحد ذاته أمرٌ مقدّس، ومن يحاول جاهداً أن يصل إلى الخير فإنه يسيرُ على الطريق الصحيح قبل أن يحقق غايته. لهذا فإن من يُحاول السعي إلى الأفضل فإنه أيضاً على الطريق الصحيح حتى لو فشل في بعض الأحيان، لهذا فإن طريق الوصول إلى الخير ومواجهة الصعاب في سبيل الوصول إليه هي الغاية بحد ذاتها. ومن هذا المنطلق نجد أن التوراة لا تتطرق للحديث عن الجنة، فبالرغم من أن اليهود يؤمنون بالحياة الآخرة إلا أنهم ليسوا مستغرقين أو منشغلين طوال الوقت بالتفكير فيها، بل يركزون طاقاتهم وجهدهم على تغيير أنفسهم نحو الأفضل ومواجهة الصعاب في سبيل ذلك والكفاح في سبيل مواجهة العدو الداخلي والعدو الخارجي.

الشُّعُورُ بِالْأَبَدِيَّةِ رَغْمَ مَحْدُودِيَّةِ الْوَقْتِ

يَتَطَرَّقُ هذا العملُ إلى النصوص التوراتية الأسبوعية ومسألة الروحانيّة والبحث عن الله عزّ وجلّ ومكانته في حياتنا: أين وكيف نجدُ الله؟ وما الفرقُ الذي سيُحدِثُه وجودُه في حياتنا؟ وكيف يُمكن لليهوديّة أن تساعدنا لنكونَ أفضلَ وأكثرَ عاطفيّةً وعطاءً على المستوى الفرديّ؟ وكيف للديانة اليهوديّة أن تؤثرَ إيجابياً على حياتنا العاطفية؟ وهل من شأنها أن تُساعدنا على ترتيب سُلّم أولوياتنا بطريقة تجعلنا نولي اهتماماً بالأُمور الجديرة بالاهتمام فعلاً، لا بالأُمور الضرورية فقط؟ وهل وجودها في حياتنا كفيلاً بأن يمنحنا القوّة للتغلّب على الصعاب والمضي قدماً في الحياة في أوقات العثرات والفشل؟ هل سيساعدنا ذلك على تحمّل المشاق دون أن نفقد الأملَ أو المقدرة على الاستمرار؟ وهل بإمكانِ الديانة اليهوديّة أن نُعلّمنا المحبّة والتسامح؟ وهل سيجلبُ وجودها البهجة والسرورَ إلى حياتنا؟

في الحقيقة، وعلى الرغم من أن كلا المسألتين مُرتبطتان ببعضهما، إلا أنّ مسألة الروحانيّة تختلفُ عن موضوع "الدين"، لكن ماهيّة الروحانيّة تكمنُ في مدى انفتاحنا على جانبٍ أعظم وأكبر من حدود الداتِ البشريّة، لهذا فإن البعض يجدُ الروحانيّة في جمال الطبيعة أو الفنّ أو الموسيقى، كما يجدُها البعض في الصلوات والابتهالات أو في الالتزام بـ"متسفاه" من التوراة (بمعنى وصيّة في اللغة العربية)، أو في دراسة نصّ دينيّ مقدّس، في حين يجدها البعض في مُساعدة ومحبة الغير أو في تكوينِ صداقاتٍ مع الآخرين.

والروحانيّة نُخبرنا بأنه "ليس بالخُبزِ وحده يَحيا الإنسانُ، بل بِجميع ما أُخرِجَهُ قولُ الله" تبعاً لما تذكره الآية الثالثة من المقطع الثامن من سفر التثنية. والروحانيّة تُبيّنُ لنا بأننا لسنا مُجرّد كائناتٍ ماديّة تُحرّكها العوامل الجسدية والبيولوجية فقط، فنحنُ نمتلكُ بداخلنا محبّةً وآمالاً وطموحاتٍ وأحلاماً ومخاوفَ، كما أننا تواقون بطبيعتنا للتواصلِ مع البشر وإقامة العلاقات مع الغير، كما أننا نُضحّي من أجل الآخرين ونبحثُ عن معنىٍ لحياتنا والارتقاء بها روحانياً.

وشأني شأنُ الكثيرين من الناس، فقد وجدتُ الله عزّ وجلّ في عمقِ يَأسي وإحباطي، وفي قَمّة شعوري بالبهجة والسرور. لقد وجدتُه في لحظة غروب الشمس في أورشليم القدس أثناء وقوفي على جبل المشارف بينما أوجّهُ ناظري إلى تلال منطقة يهودا، حين طغت أشعة الشمس الذهبية المُحمّرة على سحرِ ذلك المنظر، فبدأ لي الأمرُ وكأنّ الحضورَ الإلهي يتجسّدُ في وهجِ هذا المشهدِ المهيب. لقد وجدتُ الله عزّ وجلّ حين كان ينتشلي من القاع في أصعب لحظاتِ حياتي، حين كان يشدّ من أزرِي

لأقف على قدمي مُجدداً وأواصل المسير. واستشعرتُ وجوده حينما فتح أولادي وأحفادي أعينهم على هذا العالم، استشعرتُ محبته التي ضحّت دماءً جديدة في عروقهم وجعلتهم جزءاً من هذا العالم. إنني أستشعرُ وجوده مساء كلِّ يومِ جمعة حين تَغشى غمامة مجده مائدة عشاء يوم السبت (الشّبات)، حين أنضِرُّ إليه طالباً منه أن يمنحني القوّة والقُدرة قُبيلَ كلِّ مرحلة جديدة من مراحل حياتي. إنني أحاول جاهداً أن أعبّر له عن عظيم سُكري وامتناني في كل مرة أشعر فيها بأنني قمتُ بعملٍ يريدني الله عزّ وجلّ فعلاً أن أقوم به.

لقد قرّرتُ أن أكتبَ عن مسألة الروحانيّة انطلاقاً من وجود كثيرٍ من الأشخاص الذين قابلتهم في حياتي ممّن يبحثون عنها، وبأن الكثيرين يقولون بأنهم لا يجدونها دوماً في الديانة اليهوديّة في عصرنا الحالي. في الحقيقة فإن الباحثين عن الروحانية ليسوا بالضرورة أناساً مُتديّنين بالمعنى الاعتيادي المُتعارف عليه للكلمة، فبعضهم يصفُ نفسه بأنه علماني والبعض الآخر يصفُ نفسه بأنه يهوديّ الثّقافة فقط، بينما يصفُ البعض الآخر نفسه على أنه يهوديّ بالعرق لا بالديانة، وهذا أمرٌ أجدهُ في غاية الروعة والجمال، لأنه يؤكّد تماماً ما تحدّثتُ عنه كبار الحاخامات في مُستهلّ وصفهم لحديث نبيّ الله ورسوله موشيه/موسى مع الله عزّ وجلّ في الآية الأولى من المقطع الرابع من سفر الخروج، والتي تقول: "لعلّهم لا يُؤمنون بي، ولا يقبلون مِنّي، بل يقولون ما تجلّى الله لك"، فيردّ الله عزّ وجلّ عليه قائلاً: "إنّهم مؤمنون من نسل مُؤمنين، لكن في النهاية أنت الذي لن يُؤمن" تبعاً لما هو مذكور في التلمود (باب الشّبات 97 أ).

والفكرة هنا تكمنُ في أن الناس العاديين الذين لا يعتبرون أنفسهم مُتديّنين قد يحملون بين ثنايا قلوبهم إيماناً وعقيدة أقوى من تلك التي يحملها من يعتبرون أنفسهم من رجال الدين. في الوقت نفسه، ليس الجميع مُلمّين بالقوانين الدينيّة ولا بالتشريعات اليهوديّة، في حين أن الروحانية مُحفورة ومُتجذّرة في أعماق أرواحنا، وهذا ما أكّده الحاخام مناحيم مندل من كوتزك حين قال: "الله يدخلُ إلينا حيث نَسْمُحُ له بذلك".

في الحقيقة توجدُ أزمة روحانية يهوديّة في وقتنا المعاصر، أزمة لا يُمكننا تجاهلها بأي شكلٍ من الأشكال، وهذا أمرٌ يُدمي القلوب فعلاً، خاصة وأن اليهود كانوا لقرونٍ طويلة مولعينَ روحياً بوجِبِ الله عزّ وجلّ، ولو كانت هناك جُملة تختزل في ثناياها التاريخ اليهوديّ بأكمله لكانت عبارة النبي زكريا/زكريا حين قال: "لا بالقُدرة ولا بالقوّة لكن بروحي، قال رَبُّ الجُنود" (تبعاً للآية السادسة من المقطع الرابع من سفر زكريا).

ولو فكّرنا ملياً في الأمر لوجدنا أن اليهود لم يكونوا بذلك القدر من القوّة على الإطلاق، خلافاً لما هو مذكور في كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" الذي يدّعي ذلك، بل كانت القوّة بمثابة حلْمٍ بالنسبة لهم. كما أنّهم لم يكونوا يمتلكون قوّة عظيمة ولا جبروتاً هائلاً عبر تاريخهم، في حين أن كلتا الديانتين المسيحية والإسلامية أقامتاً إمبراطورياتٍ عظيمة عبر تاريخهما الطويل، وهو ما لم تحظ به الديانة اليهودية أبداً.

لكن سِرَّ العنقوان الذي تمَّتَّع به أجدادنا اليهودُ كان روحانيَّة الله الذي استشعروا وجوده دوماً بالقُرب منهم، وهنالك كلمة مؤثِّرةٌ جداً نستخدمها نحنُ اليهودُ عادةً للتعبير عن مدى ذلك القُرب، وهي كلمة "شَخِيناه" (أي السَّكينة)، والتي تُترجمُ عادةً على أنها الحضورُ الإلهي، في حين أن معناها الحقيقيُّ أجملُ بكثيرٍ من ذلك، فكلمة "شَخِين" تعني الجار، أي الشخص الذي يسكنُ بجوارِك، وهكذا شعرَ اليهودُ بمدى قُرب الله منهم، فَمَع أنَّه أبعدُ من أبعدِ مجرَّة في هذا الكون إلا أنه أقربُ إلينا من ذاتنا*، واللهُ ربُّ أفْرَهام/ إبراهيم ليسَ بالِإله البعيد، ورغم أن عرشه في ملكوت السماء إلا أنه أبُّ وشريكٌ وجارٌ وصديقٌ ومُرشد.

لقد كانت تلكَ هي الحالة الروحانية لليهود لقرونٍ طويلة مصَّت، لكن فجأةً بدأ يتغيَّرُ أمرُ ما، أمرٌ قد يكونُ أكثرَ تعقيداً من أن يتمَّ تحليله هنا، لكن بطبيعة الحال وخلال فترة زمنيَّة معينة من العصر الحديث بدأ اليهودُ يتخذون منحيَّ عقلاً نياً جِداً في حياتهم، فأصبحوا رُوادِ عِلْم الفيزياء والطبِّ وعلم الاجتماع وعلم الإنسان والرياضيات والفلسفة وغيرها من العلوم، بل وأصبحوا يُشكِّلون ويصيغون العقلية الإنسانية المعاصرة. وخلال ريادتهم لتلك المجالات بدأ الكثير منهم يفقدون الشعور بالقُرب من الله عز وجل، ذلك القُرب الذي كان له صدى عظيمٌ في حياة آبائنا وأجدادنا، مانِحاً إياهم إحساساً بالأمل والجُرأة والتميز.

كما لم يكن هناك أيُّ مُعتقدٍ دينيٍّ ينظرُ إلى الله عزَّ وجلَّ بهذه الدرجة من القُرب، لكننا في الوقت نفسه واجهنا الله عزَّ وجلَّ وطرحنا عليه الأسئلة وجادلناه وتحديناه أيضاً، لأننا لم نكن سلبيين في مسألة قبولنا لقدَرنا ومصيرنا. ولطالما كانت علاقة اليهود مع الله عزَّ وجلَّ عاصِفةً بطبيعتها، وعلى حدِّ تعبير الفيلسوف المعروف مارتين بوبر، فإننا كيهودٍ لطالما تعاملنا مع الله عزَّ وجلَّ على أنه "ضمير مُخاطب، لا جَماد" في تلك العلاقة، وبأنه كينونةٌ حيَّة لا مُجرَّدُ فكرة، وبأنه مصدرٌ للمحبَّة وليس مصدرًا لما وراء الطبيعة المجردة.

وسيلَاحظُ القارئ لهذه السلسلة من المقالات بأن كتابتي تحملُ نزعة ذاتية وشخصية أكثر من المُعتاد، والسبب وراء ذلك هو أنه يوجدُ في اليهودية أشكالٌ مُختلفة للروحانيَّة، وهذا ما تُعبِّرُ عنه التوراة بشكلٍ دقيق، حيث أننا نقرأ في ثلاثة مواضعٍ مُختلفة من صفحات التوراة عن كيفية قبول بني إسرائيل للعهدِ مع الله عزَّ وجلَّ في جبل سيناء، لكن في الحقيقة يوجدُ فرقٌ دقيقٌ بين الموضوع الأول والموضوع الثالث، وهذه المواضع الثلاثة هي:

الموضع الأول: عندما ردَّ الناس جميعاً قائلين: "فَأجابوا أجمَعين وقالوا: جميعُ ما قالَ اللهُ نصنَعُ /نَعسِيه" (الآية الثامنة من المقطع التاسع عشر من سفر الخروج).

الموضع الثاني: عندما ذهبَ نبيُّ الله ورسوله موشيه إلى قومه وأخبرهم بكلماتِ الله وشرائعِهِ، ردَّوا جميعاً خلفه بصوتٍ واحد: "فَأجابَ جميعُ القومِ بصوتٍ واحدٍ وقالوا: جَميعُ الكلامِ

*مُلاحظة توضيحية من المترجم: هنالك صورة قرآنية مُشابهة لتصوير مدى قرب الله عزَّ وجلَّ من البشر تبعاً للآية السادسة عشرة من سورة (ق) والتي تقول: "ونحنُ أقربُ إليه من حبل الوريد".

الذي أمر الله نَصْنَعُ/ نَعْسِيه" (الآية الثالثة من المقطع الرابع والعشرين من سفر الخروج).

الموضع الثالث: عندما أخذ كتاب العهد (التوراة) وقرأها على قومه، ردّوا قائلين: "وقالوا جميعاً ما أمر الله نَقْبَلُهُ ونَصْنَعُهُ ونَسْمَعُهُ/ نَعْسِيه فَنِسْمَعُ" (الآية السابعة من المقطع الرابع والعشرين من سفر الخروج).

لاحظ عَزِيْزِي الْقَارِي بأنّ الموضع الأول والثاني يركّزان على الفعل "نَعْسِيه" (أي نَعْمَلُ أو نَصْنَعُ) بطريقة تُشير إلى إجماع واضح من قبلهم، خاصة عندما ردّوا جميعاً "بصوتٍ واحد"، أما في الموضع الثالث والذي لا يشير إلى الفعل "نَعْسِيه" بقدر ما يُشير إلى حالة القبول والاستماع (نِسْمَعُ)، فإننا لا نجد حالة الإجماع تلك، فحالة الاستماع هنا قد تحمل في طياتها أكثر من معنىٍ مختلف: معنى الإصغاء أو معنى الانتباه وربّما معنى الإدراك أو الردّ بالقبول.

بعبارة أخرى، إنها تتحدّث عن البُعد الروحي العميق للديانة اليهودية، فخلافاً لطابع الخصوصية الذي تتسم به الديانة اليهودية، إلا أنّ اليهود هم شعبُ أفعالٍ أكثر من كونهم شعبُ أقوال وتفكير وفهم وإحساس عندما يتعلّق الأمر بالالتزام بالتعاليم والشرائع الدينية. وفي هذا السياق يوجد قانونٌ ديني صارمٌ من ضمن منظومة القوانين الدينية اليهودية، وهو أنه عندما يتعلّق الأمر بتنفيذ "الهالاخاه" (قوانين الشريعة اليهودية) فإنه يجب أن يكون هناك إجماع على ذلك. في الوقت نفسه، وكما كتب الحاخام موشيه/موسى بن ميمون أكثر من مرة في كتابه "تفسير المشناه"¹، فإنه لا يوجد "پساک"، أي لا توجد فتوى واضحة وجازمة تتعلّق بتنفيذ التعاليم والقوانين غير المتعلقة بالأحكام الشرعية اليهودية.

بالتالي فإن لكلّ منا أسلوبه في فهم الديانة اليهودية وفي طريقته للوصول إلى الله عزّ وجلّ، أي يوجد طريقة للكاهن ويوجد طريقة أخرى للنبيّ أو الرسول، كما يوجد للديانة اليهودية شعراًؤها وفلاسفتها وعقلائيّوها ومُتصوِّفوها. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فالطائفة اليهودية الحسيدية تعتقد بأنّ الطريق لإيجاد الله عزّ وجلّ هو الفَرَحُ والبهجة والسرور، فيما وجد آخرون هذا الطريق من خلال الدّراسة، وآخرون وجدوه في الرّؤى والطموحات، وآخرون في الصّلاة، وآخرون استشعروا وجود الله عزّ وجلّ في أمور لم تكن بحاجة للكلام. وبالنسبة للكثيرين فإن قِمة الروحانية اليهودية تتجلّى في سفر المزامير الذي يضمّ بين ثناياه مُفردات اللغة الخاصة بالروح اليهودية.

إننا جميعاً بحاجة للحظات الصمت والسكون أثناء صخب الذات، إننا بحاجة لها حتى نتمكن من الانفتاح على الطبيعة الساحرة لهذا العالم حتى نُصغي إلى صوتِ الأمرِ الإلهي النابع من أعماق ذاتنا، إلى نداء الله الذي يُساعدنا في رُبّ الصّدوع التي تملأ عالمنا. لهذا فإن واحداً من أسرار جمال وسحر التوراة يكمن في طريقة تصويرها للبطلات والأبطال اليهود عبر التاريخ الطويل لأجدادنا، فهي لا تصوّرهم بصورة الكمال أو المثالية أو التّموجية بقدر ما تصوّرهم على أنّهم بشرٌ قبل أي شيءٍ آخر، يُواجهون

1. انظر تفسير المشناه، باب السنهدرين 3:10

الله عزّ وجلّ ويجِدونه حين يُواجههم.

إننا كائناتٌ روحانيّةٌ ولسنا مُجرّد تركيبة من الطفرات الجينية العشوائية التي تتضاعفُ وتزداد مع مرور الوقت، كما أننا لسنا مُجرّد باحثين عن أقصى قدرٍ من المنفعة لأنفسنا بقدر ما أننا فعلياً باحثون عن معنى لحياتنا، وهذا ما كان آباؤنا وأجدادنا اليهودُ سباقينَ إليه خلال مسيرة حياتهم الحافلة بالقصص العظيمة والتي دُوِّنت في كُتُبنا المقدسة، هذه القصص التي لا زالت تُخاطبنا حتى يومنا هذا لثريتنا كيف أن بإمكان الأناص العاديين والبسطاء أن يصلوا إلى عنان السّماء حين يتّسمون بالانفسية والعقلية المُفتحة تجاه مَنْ هو بعيدٌ عن حدود ذاتنا، لكنّه في الوقت نفسه قريبٌ جداً من أعماق ذاتنا.

"لا بالقدرة ولا بالقوّة لكن بروحي، يقول الله ربّ الجنود"، لقد كان ولا زال هذا هو صوتُ الإيمان والعقيدة اليهودية الرّاسخة خلال خمسة وعشرين قرناً من الزمان. إننا بحاجة للقوّة الروحانيّة أكثر من حاجتنا للقوّة العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية في السنوات القادمة، لأن الروحانية تُعلّمنا بأن الحياة مقدّسة، وبأن السعادة لا تكمنُ في الثروة أو القوّة أو النجاح أو الشهرة، وبأنه رغم قِصر الحياة ومحدوديّتها إلا أنه باستطاعتنا خلال العديد من الأوقات المباركة أن نخوضَ تجربة الشعور بالبهجة وعظمتها، لنستشعرَ شعوراً بالأبدية بالرغم من محدوديّة الوقت.

وفي ختام مقَدِّمة هذا الكتاب، فإنني أتمنى من أعماق قلبي أن يكون الطابع الذاتي والشخصي لهذه السلسلة من المقالات بمثابة حافزٍ للقراء يُساعدُهم على شقّ طريقهم نحو اكتشافِ الوجودِ الإلهي، هذا الإله الكامنُ في الصوتِ الخافتِ أسفل الضجيج، في النداء الكامنِ أسفل الصخب، في صوت الله عزّ وجلّ الكامنِ في روحِ الإنسان.

בְּרִישִׁית בְּרֵאשִׁית

بريشيت

هو أول نصِّ توراتي أسبوعي، وبحسب برنامج القراءة الأسبوعية لأسفار التوراة الخمسة فإنه يُقرأ في كافة أنحاء العالم لكل الطوائف اليهودية خلال فترة عيد سمحاة تورا (أي فرحة قراءة التوراة مُجدداً) والذي يهَلّ بعد انقضاء عيد العرش اليهودي. وهذا النصُّ الأسبوعي يشكل بداية سفر بريشيت (أو) من التوراة، ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الأول (الإصحاح الأول) وينتهي بالآية الثامنة من المقطع السادس.

فَنُّ الإِصْغَاءِ

ما هو أولُ ذنب ارتكبه الإنسان؟ وما ماهيةُ شجرة معرفة الخير والشر؟ وهل هذا الشكل من المعرفة سيءٌ إلى درجةٍ يكون فيها محظوراً على مخلوقات الله عزّ وجلّ؟ هل كانت المعصية هي الوسيلة الوحيدة لاكتساب تلك المعرفة؟ أليس التمييز بين الخير والشر أمراً ضرورياً بالنسبة للبشر؟ ألا تُعتبر القدرة على التمييز بينهما من أعلى درجات ومراتب المعرفة؟ إن الله عزّ وجلّ يريد للإنسان أن يمتلك تلك القدرة بكلّ تأكيد، لكن إن كان هذا الافتراض صحيحاً فلماذا حرّم عليهم ثمر تلك الشجرة التي تمنحهم تلك القدرة؟ على أية حال، ألم يكن آدم وحفاه/حواء يعلمان مسبقاً هذا الأمر قبل تناولهما الثمر المحرّم، خاصة وأنهما خُلقا "بصورته كسبّه مسلطاً"

ومما لا شك فيه أن قدرة آدم وحفاه على المعرفة قد تجلّت في الأمر الإلهي الذي وجهه لآدم وحفاه مُباركاً إياه حين قال "أثمروا وأكثروا"، وأن يفرضاً سلطتهما على الطبيعة، وألا يأكلا من ثمار شجرة معرفة الخير والشر. في الوقت نفسه فإن البعض يجب عليه أن يعلم ماهية الخير الكامن في طاعة الأوامر الإلهية، وماهية المضرة في عدم طاعتها حتى يتمكن من فهم الأوامر نفسها. بالتالي يمكننا الجزم بأنهما - على الأقل - كانا يمتلكان شكلاً من أشكال القدرة على إدراك الفرق بين الخير والشر. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: طالما أنهما يمتلكان تلك القدرة، فما الذي تغيّر عندما تناولوا الثمر المحرّم؟ إن الإجابة على هكذا أسئلة تتطلب عمقاً شديداً لدرجة أن العثور على الإجابات قد يجعلنا عاجزين عن استيعاب هذه القصة بأكملها.

وبالفعل، كان هذا ما أدركه الحاخام اليهودي المعروف موشيه/موسى بن ميمون، الأمر الذي جعله يتطرّق لهذه الجزئية من القصة في بداية كتابه "دلالة الحائرين" (في الفصل الثاني من الكتاب الأول). في الوقت نفسه كانت إجاباته عن ذلك السؤال مُبهمة ومُحيّرة إلى حدّ ما، حيث وضح بأن آدم وحفاه كانا يمتلكان القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب قبل تناول الثمر المحرّم، لكن ما اكتسباه من تناوله كان إدراكهما "للأمور المُتعارف عليها أنها مقبولة".¹

1. الحاخام موشيه بن ميمون، كتاب "دلالة الحائرين" - الجزء الأول من الفصل الثاني.

فلنتوقف هنا للحظة لنسأل ماذا كان يقصد الحاخام موشيه/موسى بن ميمون حين قال "الأمر المُتعارف عليها أنها مقبولة"؟ على سبيل المثال لا الحصر، من المتعارف عليه بين البشر أن قتل الإنسان هو فعل شرير، وأن الصدق هو فعلٌ خير، بالتالي هل كان يقصدُ أن الأخلاق بشكل عام هي بمثابة عقدٍ اجتماعيٍّ مُتفقٍ عليه بين البشر؟ بالتأكيد لم يقصد ذلك.

ما قصدهُ حينها هو أن آدم وحفاه بعد تناولهما للثمر المحرم قد شعرا بالخجل لكونهما عاريين، وهذا بحد ذاته يُشكلُ جزءاً من عقدٍ اجتماعيٍّ مُعَيّن بين البشر، خاصة وأنه يوجد من لا يرى أن التعزّي هو فعلٌ مُخجل ومُشين. لكن السؤال الذي يطرح نفسه مرة أخرى هنا: كيف بإمكاننا إيجاد العلاقة بين شعور المرء بالخجل لكونه عارياً، وبين التمييز بين "الخير والشر"؟ للوهلة الأولى يبدو أنه لا يوجد أي علاقة بين الموضوعين، لأن الإجماع البشري حول ارتداء الملابس من عدمه يرتبطُ بالجمال وفلسفته أكثر من ارتباطه بالأخلاق.

بصراحة، ظلّت هذه القضية غامضة جداً بالنسبة لي حتى قرأت عن موقفٍ تاريخيٍّ مُذهلٍ أعتبرُهُ من أروع المواقف التي شهدتها الحرب العالمية الثانية، فبعد الهجوم على بيرل هاربر في شهر كانون الأول/ديسمبر 1941م أدركت القوات الأمريكية أنها بصدد حوض حربٍ ضد اليابان، وهي دولة ذات ثقافة غامضة ومُبهمة بالنسبة للأمريكيين. لهذا استعانوا بالباحثة روث بنديكت التي تعتبرُ واحدة من أفضل الخبراء في علم الإنسان في التاريخ المعاصر حتى توضّح لهم ماهية الثقافة اليابانية، وهذا ما قامت به فعلاً.

وبعد انتهاء الحرب نشرت الباحثة روث بنديكت كتاباً يشرحُ رؤيتها للعديد من القضايا أطلقت عليه اسم (*The Chrysanthemum and the Sword*) أي "الأقحوان والسيف"²، وكان أحد أبرز المواضيع التي تناولتها في الكتاب هو الفرق بين الثقافات التي يتركزُ فيها سلوك الفرد على إحساسه بالذنب (أو ثقافة الذنب)، والثقافات التي يتركزُ سلوك الفرد فيها على شعوره بالخزي والعار (أو ثقافة الشرف والعار)، فالقيمة العُلّيا لأبناء هذه الثقافة هي الشرف، أما في ثقافة الذنب فإن القيمة العُلّيا هي الاستقامة والصّلاح.

وبالنسبة لثقافة الشرف والعار فإنّ الشعور بالخزي نابعٌ من إحساس الفرد بفشله في تحقيق ما يتوقّع الآخرون منه تحقيقه، في المُقابل، فإن شعور الفرد بالذنب في ثقافة الذنب نابعٌ من إحساس الفرد بالفشل في تحقيق ما يُملّيه عليه ضميره، بالتالي فإن الفرق الرئيسي بين الثقافتين هو أن الشعور بالخزي والعار مصدرهُ الآخرون، بينما الشعور بالذنب مصدره الفرد نفسه.

وفي هذا السياق، يوضّح عدد كبير من الفلاسفة وعلى رأسهم برنارد وليامز بأن ثقافة الشرف والعار تتمحورُ بشكل رئيسيٍّ على المظاهر، فشعور الفرد بالخزي والعار يرتبطُ بأمور ظاهرية مثل الصورة التي يظهر بها - أو التي يعتقدُ أنه يظهرُ بها - في عيون الآخرين. إذ يتمنى المرء عند شعوره بالخزي والعار أن

2. روث بنديكت، كتاب "الأقحوان والسيف" (بوسطن، هوتون ميفيلن هاركورت، 1946م).

تنشق الأرض وتبتلعهُ حتى لا يكون في مثل هذا الموقف، أو لو أنه كان موجوداً في أي مكانٍ آخر غير هذا المكان. في المقابل، نجدُ أن شعور الفرد بالذنب هو شعورٌ داخليّ ذاتيّ إلى أبعد حد، حيث لا يُمكن للفرد أن يهربَ من تأنيب ضميره سواءً كان موجوداً في هذا المكان أو في أي مكانٍ آخر، لأن ضميره يلاحقه في كل مكان يذهب إليه، سواءً أراه الآخرون أم لا. لهذا يُمكننا تلخيص الفرق الجوهرى بين الثقافتين بالآتي: إن ثقافة الذنب هي ثقافةُ أساسها "الأذن"، بينما ثقافة الشرف والعار هي ثقافةُ أساسها "العين".

وبعد أن فهمنا الفرق الجوهرى بين الثقافتين يُمكننا العودة إلى قصة آدم وحفاه مع الثمر المحرم وأول ذنب اقترفه البشر حتى نفهم ما حدث حينها، لأن الفكرة المركزية في فهمها ترتبطُ بالمظهر الخارجى وشعورهما بالخزي والعار. واستناداً إلى أحداث القصة يقول سفرُ التكوين في الآية الخامسة من المقطع الثالث: "لأنَّ اللهَ عالمٌ أنَّ في يومٍ تَأْكُلَانِ مِنْهَا تَنْفُضُ عَيْونُكُمَا، وتكونان كالملائكة عارفينَّ الخَيْرَ والشَّرَّ زيادَةً"، وهذا ما حدث بالضبط حينها تبعاً للآية السابعة من نفس المقطع: "فانقضت عيناها، فعلمتا أنَّهما عريانان...". وينبغى التنبيه كذلك إلى أن الأمر الذي تركز عليه التوراة في خضمَّ الحديث عن هذه القصة هو الصورةُ التي تظهرُ بها الشجرة، حيثُ تقولُ الآيةُ السادسة من نفس المقطع: "فلما رأت المرأةُ أنَّ الشجرةَ طيبةٌ المأكَلِ وشهيَّةُ المنظرِ ومنى للعقل...".

بالتالي فإن العاطفة المركزية في هذه القصة تتمثلُ في شعورهما بالخزي، إذ قبل تناول الثمر المحرم كان آدم وحفاه عراً لا يرتدون أي ثياب بحسب ما تخبرنا الآية الخامسة والعشرين من المقطع الثاني: "فكانا جميعاً عريانين... ولم يَحْتَشِمَا..."، أي أنهما لم يشعرا بالخزي أو الخجل من ذلك، أما بعد تناولها للثمر المحرم شعرا فوراً بالخزي والخجل من كونهما عاريين، فسارعا إلى الاختباء ومداراة عورتيهما ("فحيطا من ورق التين وصنعا لهما ميازرًا"). بالتالي لو قمنا بتحليل عناصر القصة جميعها بدءاً من الثمر المحرم والشجرة، مروراً بآدم وحفاه وكونهما عاريين، وانتهاءً بما شعرا به من خزي وخجل، فإنه سيبدو لنا لوهلة أن القصة ترتبط بثقافة الشرف والعار أكثر من ارتباطها بثقافة الذنب.

لكن في الوقت نفسه فإننا نؤمن في الديانة اليهودية بأن الله سبحانه وتعالى يُسمع، ولا يرى، تبعاً لما سمعه آدم وحفاه بحسب ما تذكره التوراة في الآية الثامنة من المقطع الثالث: "فسمعا صوتَ الله سبحانه وتعالى مازاً في الجنان يرفق بحركة النهار..."، وبحسب الآية العاشرة من المقطع الثالث فقد ردَّ آدم على الله عزَّ وجلَّ قائلاً: "إني سمعتُ صوتك في الجنان واتقيتُ إذ أنا عريانٌ فاختبأتُ".

فلننتبه قليلاً إلى التهكم والسخرية المُتعمَّدة بل والمُضحكة فيما فعله آدم وحفاه: لقد سمعا صوتَ الله سبحانه وتعالى فسارعا إلى الاختباء منه خلف أشجار الجنة! وهذا ما ذكره المقطع في الآية الثامنة: "فاختبأ آدمُ وروجتهُ حياءً من بين يدي الله فيما بين شجر الجنان".

لكن السؤال الذي يطرحُ نفسه هنا: كيف بإمكانيهما الاختباء ومداراة أنفسهما من الصوت؟ فالاختباءُ يعني الاختفاء عن الأنظار، وهو ردُّ فعل تلقائيٌ بديهيٌ لشعور المرء بالخجل والخزي. لكن التوراة تُعتبرُ من أبرز الأمثلة على ثقافة الذنب، لثقافة الشرف والعار. بالتالي لا يمكن للمرء الهروب من شعوره بالذنب عبر التخفي والاختباء، لأن الشعور بالذنب ليس له علاقة بالمظهر، بل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالضمير، أي صوت الله سبحانه وتعالى في نفوس وقلوب البشر.

ومن هذا المنطلق يُمكننا القول بأن أول ذنب ارتكبه البشر في جنة عدن كان أنهم اتَّبَعُوا عيونهم، لا آذانهم. لقد كانت أفعالهم وتصرفاتهم محكومة بما رأوه من جمال وسحر لتلك الشجرة، لا بكلام الله عزَّ وجلَّ حين أمرهم ألا يأكلا من ثمرها، فكانت النتيجة هي اكتسابهما للقدرة على التمييز بين الخير والشرِّ، لكن طريقة اكتسابهما لتلك القدرة كانت خاطئة.

لقد أدرك آدم وحفاه حينها معنى شعور المرء بالخزي والعار، لكنهما لم يُدركا معنى شعور المرء بالذنب، وأدركا معنى المظهر الخارجي لكنهما لم يُدركا معنى الضمير، وهذا - من وجهة نظري - ما قصده الحاخام موشيه/موسى بن ميمون حين تحدَّث عن التمييز بين الخطأ والصواب و"الأمر المُتعارف عليها أنها مقبولة" إن شعور المرء بالذنب نابعٌ من وازع داخليّ يقول لهُ بمنتهى الوضوح "هذا خطأ، وهذا صواب"، لكن شعور المرء بالخزي نابعٌ عن وجود عقدي اجتماعيٍّ مُحدد بين البشر، فهذا الشعور قائم على مدى إحساس الفرد بالنجاح أو الفشل في تحقيق ما يتوقع الآخرون منه تحقيقه.

إن ثقافة الشرف والعار هي ثقافة تقوم بالأساس على الامتثال للقواعد والضوابط الاجتماعية لتلك الثقافة، إذ يتفاعل أبناء تلك الثقافة اجتماعياً مع بعضهم البعض على أساس قبولهم لتلك القواعد والضوابط، فعلى سبيل المثال يشعر الفرد المُنتمي لتلك الثقافة بالخزي - وهو شكل بارزٌ من أشكال الخجل - نتيجة عدم امتثاله لتلك القواعد والضوابط، لأنه يُدرك في قرارة نفسه أنه سيصبح عديم الشرف وسيخسر ماء وجهه بين أبناء ثقافته في حال علموا بعدم التزامه بتلك الضوابط.

لكن الديانة اليهودية بعيدة كل البعد عن هذا الموضوع، لأن اليهود لا يأبهون كثيراً بـ "مظهرهم في عيون الآخرين" على الإطلاق. وهنا نستذكر قصة أينا أفرهام/إبراهيم التي أخبرنا بها كبار الحاخامات، حين قرَّر أن يكون لوحده في كفة، وبقبة البشرية في الكفة الأخرى. وتبعاً لكتاب إستر (الآية الثامنة من المقطع الثالث) يقول هامان وإصفاً اليهود: "وسننهم مُغايرةً لِجَمِيعِ الشُّعوب..."، وهذه بالفعل صفاتُ اليهود الذين لطالما كانوا مُتمردين رافضين للخضوع والانصياع لعبادة الأوثان وتقدیس الأشخاص والأفكار وروح العصر والصوابية السياسية.

ولو كان اليهود ممن يسبحون مع التيار ويتبعون القطيع لاختفوا من الوجود واندثروا منذ زمنٍ طويل، خاصة وأنهم كانوا أبناء الديانة التوحيدية خلال فترة عهد التناخ حين كانت عبادة الأوثان المُعتقد الأكثر رواجاً وقبولاً، وفي الفترة اللاحقة لعهد التناخ عاشوا في مُجتمعات كانوا بمثابة الأقلية الدينية فيها. بالتالي فإن الديانة اليهودية تعتبرُ مثلاً حياً على كيفية التمرد على سلوك القطيع والتيار السائد في المُجتمعات البشرية. إنها الصوت المُعارض لِإجماع البشر حين يكون موضوع النقاش غير سويِّ. كما أن الأخلاقيات اليهودية لا ترتبطُ أبداً بالمظهر الخارجي أو بالشرف والعار، بل ترتبطُ ارتباطاً وثيقاً بالسمع والإصغاء لصوتِ الله سبحانه وتعالى الكامن في أعماق أرواحنا.

إن قصة آدم وحفاه في الحقيقة لا تتعلق بالثمرة أو الجنس أو أول معصية ارتكبتها الإنسان أو حتى بنزولهما من الجنة أو غيرها من التأويلات والتحليلات الغربية غير اليهودية لهذه القصة، بل إنها تتعلقُ بأمرٍ أعمق بكثيرٍ من تلك الأمور السطحية: إنها تتعلقُ بطبيعة الأخلاق التي ينبغي أن نمثل لها، إنها تتعلقُ بإجابة هذا التساؤل الفلسفي: هل نحن محكومون بما يفعله غيرنا من البشر؟ وهل مسألة الأخلاق مُرتبطة بما يفعله الأغلبية، شأنها في ذلك شأن السياسة؟ وهل تُحدِّد قضية الشرف والعار - باعتبارهما مشاعر اجتماعية بحتة - آفاقنا العاطفية؟ وهل يُعدُّ مظهرنا الخارجي وصورتنا في عيون الآخرين، أساساً لقيمنا وأخلاقياتنا؟ أم أن هنالك أسساً أخرى أهم من ذلك بكثير علينا أن نلتفت لها، مثل النية للإصغاء إلى كلام الله سبحانه وتعالى وصوته ومشيئته؟

لقد كان أمام آدم وحفاه خياران اثنان: إما أن يتبعا ما تراه عيونهما، أي الشجرة وثمارها، أو الإصغاء لكلام الله، أي أمره لهم بعدم الاقتراب من الشجرة، وهما خياران نموذجيان ونمطيان ويشكلان أساساً من أسس صراعنا في الحياة البشرية. وقد اختارا اتباع ما يريانه بعيونهما، مما يعني سيطرة الشعور بالخزي عليهما. إن هذا القرار يُعتبر معرفةً وإدراكاً للخير والشر بشكل أو بآخر، لكن من المنظور اليهودي يُعتبر اختيارهما خاطئاً.

إن الديانة اليهودية - مثلما ذكرت سابقاً - هي ديانة تقوم على الإصغاء، لا على الرؤية، وهذا لا يعني بالضرورة عدم وجود مظاهر خارجية ملموسة في الديانة اليهودية، لكنها ليست أركاناً رئيسية فيها، لأن الركنَ المقدسَ فيها هو الإصغاء، خاصة وأن أحد أهم الأوامر والوصايا الإلهية لليهود هي "سمع إسرائيل"، أي "اسمع يا إسرائيل - أو اعلم يا إسرائيل - أن الله ربنا، الله الواحد" تبعاً للآية الرابعة من المقطع السادس من سفر التثنية، وهي آية تُردّد مراراً وتكراراً في الصلوات اليومية لليهود. أضف إلى ذلك أن أحد أبرز الأمور التي جعلت أفرهام وموشيه يتميّزون عن أقرانهم من الرسل والأنبياء هو أنهم سمعوا ذلك الصوت الإلهي الذي كان بالنسبة للآخرين غير مسموع أبداً. وفي أحد أكثر المشاهد إثارة في كتاب التناخ، يُعلّم الله عزّ وجلّ نبيه إيلياهو / إيلياس في الآية الثانية عشر من المقطع التاسع عشر من كتاب الملوك الأول، بأنه لن يجد الصوت الإلهي في العواصف والزلازل والبراكين، بل سيسمع ذلك الصوت الإلهي الخافت بين ثنايا الهدوء والصمت والسكون.

إن الوصول إلى حالة سكونٍ وهدوءٍ داخليّ تسمح للمرء بالإصغاء هو أمرٌ يتطلّب قدراً كبيراً من التمرين والتركيز. فالرؤية تُبيّن لنا جمال وروعة الخلق في العالم، في حين أن الإصغاء يُمكننا من الاتصال روحياً بالآخرين، وفي كثير من الأحيان يصلنا روحياً بالله عزّ وجلّ ويُمكننا من سماع صوته حين يُخاطبنا طالباً ممّا أن نُؤدي مهامنا وواجباتنا في هذا العالم.

ولو وُجّهَ إليّ هذا السؤال: كيف أجّد الله؟ لأجبتُ قائلاً: "تعلم كيف تسمع وتُصغي"، أصغ إلى صوت الكون في زفزة العصافير وحفيف الأشجار وتلاطم الأمواج. أصغ إلى شعر الشعراء وموسيقى سفر المزامير. أصغ بعمق إلى أولئك الذين يحبونك وتحبهم، أصغ إلى كلام الله عزّ وجلّ في التوراة وأنصت جيداً إلى آياتها وهي تخاطبك. أصغ إلى نقاشات الكهنة والحاخامات على مرّ القرون وهم يُحاولون الإصغاء إلى حميمية وعاطفية النصوص التوراتية وثناياها.

أخيراً وليس آخراً، إياك أن تأبه بصورتك في عيون الآخرين، لأن عالم المظاهر الخارجية هو عالم زائفٌ تملؤه الأقنعة والسواتر والتخفي. كما أنني أعترف بأن الإصغاء ليس بالأمر الهين على الإطلاق، بل إنني أجده أحياناً في غاية الصعوبة، إلا أننا عندما ننجح ونتمكّن من الإصغاء فإننا سنتمكّن من جسّر الهوة بين أرواحنا وبين الله عزّ وجلّ.

بالتالي فإن الأساس الروحي للديانة اليهودية قائمٌ على إتقان فنِّ الإصغاء.³

3. لقراءة المزيد حول هذا موضوع الإصغاء في الديانة اليهودية يُمكنكم زيارة موقع (<https://www.rabbisacks.org>) / لقراءة تعاليم وتفسيرات الحاخام جوناثان ساكس، تحديداً مقالة "صوت السكون" التي يشرح فيها نص القراءة الأسبوعي بيمدبار من سفر التثنية، ومقالة "روحانية الإصغاء" التي يشرح فيها نص القراءة الأسبوعي براشوت عقب.

نوح

هو النصّ الأسبوعيّ الثاني من سفر بريشيت (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ بالآية التاسعة من المقطع السادس، وينتهي بالآية الثانية والثلاثين من المقطع الحادي عشر.

جُرأة الحياة مَعَ اللائقين

لِكُلِّ مَنَّا مراحلٌ مُختلفةٌ في حياته الروحية، مراحلٌ تُغيّرُ الاتجاه الذي تسير به حياتنا لكي نضعنا على مساراتٍ جديدة، وبالنسبة لي شخصياً فقد عِشتُ لحظة التغيير تلك عندما كنتُ طالباً في مدرسة يهودية حاخامية وهي كُلية اليهود (Jews' College)، وحينها حظيتُ بشرف التلمذة على يد واحدٍ من أعظم علماء التوراة في عصرنا الحديث، الحاخام الدكتور نحوم رابينوفتش طيبَ اللهُ ذكره من بين الصّالحين.

لقد كان هذا الحاخامُ عالماً فذاً بكل ما تحمّله الكلمة من معنى، كما كان واحداً من أبرز المُفكرين المُعاصرين الذين اتبعوا نهج الحاخام الكبير موشيه/موسى بن ميمون وتعمّقوا في أفكاره ومؤلفاته، كما كان مُلمّماً بالقضايا العلمانية والقضايا اليهودية الدينية على حدٍ سواء، والأهم من هذا كلّهُ أنه كان من أجراً المُشرّعين اليهود وأكثر القضاة الشرعيين خُروجاً عن المألوف (پوسكيم باللغة العبرية تعني القضاة الشرعيين)، وهذا ما يبدو جلياً في أجزاء مؤلفاته في مجموعة "Responsa" (بمعنى الأسئلة الدينية والردود عليها)، وهو أمرٌ قلّمنا نراه في وقتنا الحالي مع الأسف الشديد.

وفي أحد الأيام كان الحاخام نحوم رابينوفتش يُعطي درساً دينياً توراتياً كعادته، ولم يكن ذلك الدرسُ مُرتبطاً بأي حدثٍ مُميز على وجه التحديد، بل كان درساً اعتيادياً من ضمن دروسه الأسبوعية "دِفريه توراه" التي تطرّق فيها إلى موضوع براشات نوح (أي نصّ نوح من سفر التكوين). لكن ما كان استثنائياً حينها هو القصص والاقتراسات التي كان يستحضرها ويستشهد بها من المِدراش، خاصة وأنه من الصعب جداً إيجاد هذا المِدراش نفسه، فهو يظهرُ في كتاب يُعرف بكتاب "تنحوما بوبر" (Buber's Tanhuma) الذي نُشر عام 1885م على يد شلومو بوبر (جدّ الفيلسوف اليهودي المعروف مارتن بوبر)، وهذا المِدراش يتضمن عدداً من أقدم المخطوطات الدينية اليهودية التي تعودُ إلى القرن الخامس للميلاد، والمُحتوى الواردُ في هذا الكتاب يتداخلُ كثيراً مع محتوى مِدراشٍ قديم لا نمتلكُ نصّه الكامل، ويُعرّف باسم مِدراش يلمدينو.

وعلى أي حال، فإن النصّ الذي اقتبسهُ من القصة مكوّن من جزأين، ويتضمّن تفسيراً لما قاله الله عزّ وجلّ مُخاطباً نوح في الآية السادسة عشر من المقطع الثامن من سفر التكوين حين أمره قائلاً: "أُخْرِجْ مِنَ الْفُلكِ"، وهُنَا يُعلّق المِدراش:

"يتساءل نوح بينه وبين نفسه قائلاً: بما أتت دخلت الفلك (السفينة) بإذن من الله عز وجل، فهل يجب عليّ مغادرته بإذن منه أيضاً؟"، وهنا يقول الله عز وجل ردًا على تساؤل نوح: هل تنتظرُ إذنًا مِنِّي بالخروج؟ إن كنت كذلك فما أنا أمنحكُ إذنًا بالخروج، حينها يقول الله لنوح: "أُخْرِجْ مِنَ الْفُلكِ".

وفي هذا السياق يذكر المِدراس ما قاله الحاخام يهودا بار عيلاي تعليقاً على ذلك الموقِف: "لو كنتُ في الفُلك لحطّمت بابَ الفُلكِ وخرجتُ منه على الفور!"¹

ويوضّح الحاخام نحوم رايبنوفتش أنّ الدرس الهامّ الذي ينبغي علينا تعلّمه من هذا الموقِف هو أنه عندما يتعلّق الأمر بإعادة بناء عالمٍ مُحطّمٍ فلا يجبُ علينا أن ننتظرُ إذنًا من أحدٍ للقيام بذلك، لأن الله عز وجل قد منحنا الإذن سلفاً، وما يتوقّعه الله مِنّا هو أن نُبادرَ ونمضي قدماً في عمليّة البناء.

وبطبيعة الحال فإن هذا الدرس العظيم يُعدُّ واحداً من أبرز القيم والتقاليد اليهوديّة القديمة التي ذكرها الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف باسم الحاخام راشي) في تفسيره للآية التاسعة من المقطع السادس من سفر التكوين، بل ويُعتبر موضوعاً مركزياً أكّد عليه كبار الحاخامات من أجل معرفة السبب الذي جعل أفرهام/ إبراهيم عليه السلام الأبّ الأوّل للأمة اليهودية، لا نوح، فتقول هذه الآية: "في طاعةِ الله سَلَكَ نوحٌ"، في حين قال الله مُخاطباً أفرهام: "أنا الله القديرُ، سرّ أمامي" (الآية الأولى من المقطع السابع عشر). بالتالي لم تكن تلك الفكرة رائعة بقدر روعة تفسير المِدراس لها.

فجأة أدركتُ بأن فكرة المبادرة إلى البناء والإصلاح تحظى بأهميّة كبيرة جداً في الديانة اليهودية، إذ يجب أن يتمتّع المرءُ بالجُرأة الكافية حتى يكون ريادياً ومُبادراً للتجديد، بل ويجبُ عليه أن يسلك الطريق الذي لا يسلكه غالبية البشر والمضيّ قدماً نحو المجهول، وهذا بالفعل ما حدث مع أفرهام وساره عليهما السلام حين رحلا من أرضهما وأرض آبايَهما وأجدادِهما، وهذا أيضاً ما قام به بنو إسرائيل اليهود في عهد رسول الله ونبيّه موشيه/موسى عندما خرجوا من أرض مصر إلى التّيّه ومَضوا نحو المَجْهول مُستعينين بعمود سحابٍ يقودهم نحو وُجْهَتِهِمْ في وَضْح النَّهَار، وشُعلة نارٍ تقودهم إليها في ظُلْمَةِ الليل الحالك.

إنّ الإيمان قائمٌ بالأساس على الجُرأة في قبول المخاطر، علماً بأنه "إِذَا سِرْتُ فِي وَايِ ظِلِّ الْمَوْتِ لَا أَخَافُ شَرًّا، لِأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي. عَصَاكَ وَعِصَاكَ هُمَا يُعَزِّيَانِي" مثلما تذكر الآية الرابعة من المقطع الثالث والعشرين من سفر المزامير. لقد كان الإيمان ركيزة أساسيّة لتحدّي الأمم والشعوب قديماً، تلك الشعوب التي شكّلت إمبراطوريات عظيمة في ذلك الوقت. لقد كانت عقيدة اليهود الراسخة وإيمانهم القوي أساساً لبقائهم مُتَشَبِّثين بديانتهم اليهودية في العهد الهلنستي القديم، خاصة

1. يبدو أن المِدراس يستند إلى حقيقة أن الآية الأولى في التوراة قد استخدمت الفعل "قَمِيدَ" والمشتق من الفعل د.ب.ر. باللغة العبرية (والذي يعني قال أو تحدّث باللغة العربية). إن الجذر العبري أ.م.ر. (بمعنى قال) يتضمن معنى شبيهاً للفعل الأول، لكن هنالك فرق بسيط بين الفعلين، حيث أن الفعل "د.ب.ر." عادة ما يعبر عن الأحاديث شديدة اللهجة التي تتضمن أحكاماً مُسبقة قد يُطلقها الناس جزافاً. أنظر أيضاً إلى تفسير الحاخام ابن عيزرا فيما يتعلق بهذه النقطة، والذي يرى بأنه تبعاً للنص التوراتي فإن نوح كان مُتردداً بالنسبة لمسألة خروجه من الفُلك (السفينة).

وأن اليهود كانوا أقلية مُنعزلةً وضميلة جداً مقارنةً بالعديد من أعتى الثقافات وكبرى الحضارات البشرية، مثل الحضارة الإغريقية وإمبراطورية إسكندر المقدوني وغيرها.

كما كان الإيمان هو اللبنة الأساسية التي استند عليها الحاخام يهوشوع بن جَملا في القرن الأول للميلاد لتأسيس أول منظومة تعليم إجبارية في العالم (بحسب ما يذكر مُجلد بافا بتره، وهو أحد الكُتب التلمودية، في الصفحة 21 أ)، تماماً مثلما كان الإيمان ركيزة استند عليها الحاخام يوحنا بن زكاي حين أدرك أن بمقدور العقيدة اليهودية أن تمضي قُدماً وتظل باقيةً على الرغم من فُقدان اليهود لهيكلهم وفقدانهم للدولة اليهودية المُستقلة فوق أرض إسرائيل، وذلك في ظل ثقافة يهودية تعليمية ومنظومة دراسة دينية راسخة ومُتواصلة عبر مرّ العصور.

ولا يزال امتداد روح الدراسة والعلم اليهودية حاضراً بين اليهود حتى في وقتنا الحالي، على الرغم من أن نسبة لا يُستهان بها من أبرز العقول والعلماء والمُفكرين اليهود قد تخلّوا عن ذلك الإيمان. إذ كيف لنا أن نفسر حقيقة أن تلك الأقليات اليهودية الضميلة جداً في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية قد أنجبت عدداً كبيراً من العلماء والمُفكرين اليهود ممن صاغوا العقلية الإنسانية المُعاصرة وأسهموا في بنائها وتقدمها إلى حدٍ كبير، فكان كلُّ منهم رائداً في مجاله بطريقة إبداعية مُميّزة، فعلى سبيل المثال نجد ألبرت آينشتاين أحد أبرز رواد علم الفيزياء، وإميل دوركايم في علم الاجتماع، وكلود ليفي ستروس في علم الإنسان، وغوستاف مالر/مهلر وأرنولد شوينبيرج في مجال الموسيقى، ناهيك عن عددٍ كبير من كبار علماء وخبراء الاقتصاد على مستوى العالم من أمثال ديفيد ريكاردو صاحب نظرية الميزة النسبية، وجون فون نيومان صاحب نظرية اللعبة، وميلتون فريدمان صاحب النظرية النقدية المُعاصرة، ودانييل كاهنمان وعاموس تفيرسكي الذين يُعتبران من رواد مجال الاقتصاد السلوكي، وغيرهم الكثير في شتى المجالات.

كما أننا نجد العلماء والمفكرين اليهود من بين عمالقة مجال علم النفس والطب والتحليل النفسي، بدءاً من فرويد وطلّابه، مروراً بفيكتور فرانكل صاحب البصمة العظيمة في مجال العلاج بالمعنى، وآرون ت. بيك الذي يعتبر رائداً في مجال العلاج المعرفي السلوكي، ومارتن سليجمان الرائد في مجال العلاج النفسي الإيجابي. ولو نظرنا إلى عالم هوليوود السينمائي لرأينا أن غالبية روادها هم أيضاً من اليهود، أضف إلى ذلك البصمة المُميّزة لليهود في مجال الفنّ والموسيقى، بدءاً من إرفينغ برلين وجورج جيرشوين اللذان يُعتبران من رواد العروض الموسيقية الأمريكية، إضافة إلى بوب ديلن وليونارد كوهين واللذان يُعتبران من أبرز كُتاب ومؤلفي الأغاني الشعبية في القرن العشرين.

في المُقابل، كان لهؤلاء الرواد المُبدعين نصيبهم من النقد والاستهزاء والازدراء والمعارضة، وهذا بلا شك هو قدرُ العُظماء المُبدعين دوماً. فحتى تكون رائداً في مجالٍ مُعين فإنه ينبغي عليك أن تُهيء نفسك لتكون وحيداً، ففي أحسن الأحوال سيُساء فهمك، أما في أسوأ الأحوال "سيُقدفك الناس بالحجارة". ويقول آينشتاين في هذا السياق: "في حال تتوجت نظريتي النسبية بالنجاح فإن ألمانيا ستدعي بكل فخر بأبي مواطنٌ ألماني، أما فرنسا فستدعي أنني ابنٌ للبشرية جمعاء. لكن لو فُشلت لكانت فرنسا ستلفظني مُدعيةً بأني مواطنٌ ألماني، أما ألمانيا فكانت ستقولُ بأني مُجرّد شخصٍ يهودي".

بالتالي حتى تكون ريادةً عليك أن تكون جاهزاً للمضي قُدماً في رحلة التّيه نحو المجهول، وهذا ما علمتنا إياه تجربتنا اليهودية الطويلة عبر مَرّ العصور.

لقد امتلك الصهاينة الأوائل إيماناً قوياً وعقيدة راسخة، وأدركوا منذ البداية بأن عهد التنوير والتحرّر في أوروبا لم يكن فعلياً بالمعنى الذي تحمله تلك الكلمات على الإطلاق، فعلى الرغم مما رافق تلك الحُقة من ثورات فكرية وعلمية وسياسية في كافة مظاهر الحياة في أوروبا، إلا أنه لم يكن فيها أي مُتّسع لتقبّل اليهود، وهذا بالفعل ما أدركه بعض الصهاينة الأوائل خلال ستينيات القرن التاسع عشر، فيما أدركه بعضهم الآخر لاحقاً من أمثال هرتزل بعد قضية دريفوس وأدركه بعضهم بعد أحداث العنف التي تعرّض لها اليهود خلال ثمانينات القرن نفسه. وبالنسبة للصهاينة الأوائل فقد كان بعضهم مُتديناً وبعضهم الآخر علمانياً غير مُتديّن، إلا أن القاسم المُشترك بين كلا المتدينين والعلمانيين الصهاينة هو إدراكهم للفكرة التي وضّحها مدرّاش تَنحوما: عندما يتعلّق الأمر بإعادة بناء عالمٍ مُحطّمٍ ومُنكسرٍ فلا تنتظروا إذناً من السماء، لأن الله يقول لكم امضوا قُدماً دون أدنى تردّد.

لكن هذا المبدأ لا يعني وجود ضوء أخضر يسمح لنا بأن نفعل ما يحلو لنا دون حسيبٍ أو رقيب، خاصة وأن الإبداعات والابتكارات لا تستخدم جميعها بهدف البناء، بل على العكس تماماً، إذ قد يُستخدم بعضها لتنفيذ غاياتٍ هدامة، إلا أن مبدأ "سر أممي" الذي يريدنا الله أن نفهمه - باعتبار أننا البشر نُجسّد أعظم مخلوقاته - هو مبدأ يجعل العقيدة اليهودية فريدة جداً، كونها تُؤكّد على ضرورة التزام الفرد بهذا المبدأ بحسب قدرته وحسب ما تملّيه عليه ظروفه.

بالتالي، ومثلما ذكرتُ سابقاً، فإن الإيمان يعني الجرأة في تحمّل المخاطر في سبيل الله عزّ وجلّ وفي سبيل الأمة اليهودية جمعاء، إنه يعني ترحال المرء لمسافات طويلة رغم علمه مُسبقاً بأن طريق الترحال محفوفٌ بالكثير من المخاطر. لكن في المُقابل يجب أن يُدرك المرء أنه في خضمّ تلك المشقّات والصعاب فإن الله معه وسيمنحه القدرة والقوّة على المضي قُدماً إذا ما كانت نيّته تتماشى مع مشيئة الله عزّ وجلّ. بمعنى آخر: الإيمان لا يعني اليقين بقدر ما يعني الجرأة على الحياة مع الشكّ واللايقين.

ليخ ليخا

هو النصّ الأسبوعي الثالث من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الثاني عشر وينتهي بالآية السابعة والعشرين من المقطع السابع عشر.

رحلة الأجيال

لربّما يكون توصيفُ مارك توين من أكثر التوصيفات الدقيقة التي لخصت الموضوع الذي نحن بصدد الحديث عنه هنا: "عندما كنتُ أبلغُ أربعة عشر عاماً كان أبي جاهلاً لدرجة أنني لم أكن أطيعُ الوجود بجوار شخصٍ بهذا القدر من الجهل. لكن عندما صار عمري واحداً وعشرين عاماً ذهلتُ من قدر المعرفة التي اكتسبها رجلٌ في سنّه خلال سبع سنوات". وبغضّ النظر عن مدى صحّة أو خطأ نظرية فرويد بالنسبة لعقدة أوديب، إلا أنه يوجد جانبٌ صحيح من جوانبها يتعلّق بقوة الألم الذي نشعرُ به عند البلوغ، ألمٌ نابغٌ من كوننا أصبحنا نعرّفُ أنفسنا بطريقةٍ مُختلفة نُركّز فيها على ذاتنا، وبأننا بدأنا نختلفُ عن شخصيات آبائنا وأمهاتنا.

وعندما كنّا أطفالاً صغاراً كان ابتعاد أو غياب أمهاتنا عنّا واحداً من أعمق وأشدّ مخاوفنا في تلك المرحلة العمرية، فالأطفال الصغار بشكل عام يشعرون بالطمأنينة والاستقرار طالما كانت الأم – أو من يرعاهاهم – بالجوار، وفي اللحظة التي تختفي عن الأنظار نجدُ حالة من الذعر والهلع تتمكك الطفل، فنحنُ لا نزالُ أصغر من أن نخوض مُعترك الحياة لوحدها، بالتالي فإن ذلك الشعور بالاستقرار والوجود إلى جنبنا من قبل آبائنا وأمهاتنا هو الذي يمنحنا إحساساً بالثقة والقوة في الحياة.

لكن خلال مرحلة معينة من حياتنا نمُرُ بمرحلة البلوغ، وهي المرحلة التي ينبغي علينا أن نتعلم فيها كيف نشقّ طريقنا في هذا العالم، وتلك هي السنين التي يبدأ مشوارنا في البحث بل وفي بعض الأحيان نبدأ بالتمرد والعصيان، وهذا ما يجعلُ مرحلة البلوغ محفوفة بالمخاطر أكثر من غيرها. في الوقت نفسه نجدُ أن كلمة شباب باللغة العبرية مُشتقة من الجذر (ن.ع.ر)، وهو جذرٌ يحملُ في طياته معنى "اليقظة والانتباه" من جهة، و"عدم الاستقرار" من جهة أخرى، فنحنُ في تلك المرحلة نبدأ بتعريف أنفسنا من خلال مقارنة شخصيتنا بشخصيات أصدقائنا وأقراننا من المرحلة العمرية ذاتها، لا بشخصيات أفراد عائلتنا، خاصة في ظلّ حالة التوتّر والاختلاف الموجودة بين الأجيال المُختلفة.

وقد ألفَ الأديب المعروف هارولد بلوم كتابين رائعين يتطرّقان لهذا الموضوع تحديداً، الكتابُ

الأول أطلق عليه "دُعُرُ التأثير" (*The Anxiety of Influence*) والكتاب الثاني "خرائط سوء القراءة" (*Maps of Misreading*).¹

وهو يتبنّى في هذين الكتابين منهج فرويد ووجهة نظره التي تقول بأن الشعراء الكبار يخلقون مساحة لأنفسهم في مجال الشعر من خلال قيامهم عمداً بإساءة فهم وإساءة تفسير الأعمال الشعرية لأسلافهم، ولو كان هذا الافتراض خاطئاً وكان الشعراء في حالة إعجاب دائم بأعمال أسلافهم لكانوا في حالة جمود أدبي تام، لأنهم سيشعرون بالإحباط الشديد مُعتقدين أن أسلافهم من الشعراء العظماء قد قالوا كل ما يُمكن أن يُقال وعبروا عن كل ما يُمكن أن يحتويه الشعر من معانٍ وبأفضل الأساليب التي يُمكن أن يُكتب بها الشعر. بالتالي فإن خلق تلك المساحة للذات دوماً ما تتطلب وجود علاقة خلافية نعتز من خلالها على من سبقونا، وعلى رأسهم آباؤنا وأمهاتنا.

كما أن أحد أهم الأمور التي نُدرِكها كلما تقدّمنا بالعمر هو أننا نحاولُ طيلة حياتنا الابتعاد عن آباؤنا وأمهاتنا، كلما رأينا أننا على وشك أن نكون نسخة طبق الأصل عنهم، لكننا في الوقت نفسه لا نُدرِكُ بأننا كلما هربنا منهم كلما أصبحنا نُشبههم أكثر وأكثر، وهذا هو الجانب الحقيقي لوجهة نظر مارك توين، فنحن بحاجة للوقت والمسافة حتى نُدرِك كم نحن مدينون لآبائنا وأمهاتنا من جهة، ومقدار الشبه الكبير بيننا وبينهم من جهة أخرى.

في السياق نفسه، تتطرق التوراة إلى هذا الموضوع بمنتهى الحنكة وبطريقة مُستترة، خاصة من خلال قصة أفرهام / إبراهيم (أو أفرم كما كان يُسمى في أول الأمر). فهذا النصّ الأسبوعي "ليخ ليخا" يتسم بدقته وحنكته البارزة بين باقي النصوص. وهذا النصّ على وجه الخصوص، والتاريخ اليهودي عموماً، يبدآن بعبارة "إذ قالَ اللهُ لأفرم، امضِ مِنْ أَرْضِكَ وَمَوْلِدِكَ وَبَيْتِ أَبِيكَ إِلَى الْبَلَدِ الَّذِي أُرِيكَ" تبعاً لما تذكره الآية الأولى من المقطع الثاني عشر من سفر التكوين. في الحقيقة تُعدّ هذه الآية واحدة من أكثر الآيات التوراتية جرأة في الحديث عن موضوع الحياة في الكتاب اليهودي المقدس التناخ، إذ يبدو وكأن قصة حياته قد ظهرت فجأة بين آيات الكتاب المقدس، خاصة وأن التوراة لم تتحدث عن طفولة أفرهام ولا عن فترة شبابه أو حتى عن طبيعة العلاقة بينه وبين باقي أفراد عائلته، ولا حتى عن زواجه من ساره أو حتى عن طبيعة الصفات والمؤهلات التي جعلت الله عزّ وجلّ يختاره من بين غيره من البشر حتى يكون المؤسس لما سيصبح لاحقاً أعظم ثورة في تاريخ الأديان البشرية، تلك الثورة الدينية التي نُصِفها اليوم بالإيمان التوحيدي الإبراهيمي.

لكن هذا الصمت التوراتي وغياب المعلومات الكافية عن حياة أفرهام في التوراة كان السبب الذي جعلَ تفاسير المدرّش تجلبُ لنا الأمر البارز الذي تعلّمه كل يهودي بوضوح وإسهابٍ عن حياته: وهو أنّه قام بتحطيم أوّثان والده التي كان يصنعها في بيته، هذا هو أفرهام صاحب الشخصية الثورية

1. المصدر: Harold Bloom, *The Anxiety of Influence: A Theory of Poetry*, (New York: Oxford University Press, 1973);
A Map of Misreading, (New York: Oxford University Press, 1975).

المُتمرّدة، وهو الإنسان الذي لم يخضع لأي صنمٍ أو سلطان، إنه رجلُ البداية الجديدة الذي ضرب بعرض الحائط جميع المُعتقدات التي كان والده يؤمن بها. وإن شاء البعض توصيفه فهو تحديداً تلك الشخصية التي وصفها وتحدّث عنها فرويد.

وربما مع تقدّمنا بالعمر فقط، صرنا نعود إلى قصّة أفرهام ونقرأها مراراً وتكراراً حتى نُدرك أهمية جُزئية مُحدّدة من النص الأسبوعي السابق، تحديداً في الآية الحادية والثلاثين من المقطع الحادي عشر والتي تقول:

"وأخذ تيرح، أفرم ابنه، ولوط بن هران ابن ابنه، وسراي كتنه زوجة أفرام ابنه، وخرجوا معهم من أنون الكسدانيين، ليَمْضُوا إِلَى بَلَدِ كَنْعَانَ، فَجَاؤُوا إِلَى حَارَانَ وَأَقَامُوا ثَمَّ".

بعبارة أخرى، فقد افترق أفرهام عن والده تيرح/تارح بعد فترة طويلة من رحيله من موطنه ومسقط رأسه في بلدة أور الموجودة حالياً في جنوب العراق، تحديداً في منطقة حرّان والموجودة حالياً في شمال سوريا، وذلك بعد مُدّة طويلة من رحيله عن موطنه ومسقط رأسه في منطقة أور، بالتالي نجد أن تيرح قد رافق ابنه أفرهام خلال النصف الأوّل من رحلة خروجه من موطن آباءه وأجداده، أي أنه رافقه - على الأقل - خلال جزء من تلك الرحلة.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما الذي حدث فعلاً آنذاك؟ في الحقيقة هناك احتمالان لا ثالث لهما: الاحتمال الأول هو أن أفرهام قد لبّى نداء الله عزّ وجلّ أول الأمر في منطقة أور، ثم وافق والده على الرحيل معه إلى أرض كنعان، وربما لم يُكمل الرحلة حتى نهايتها مع أفرهام نظراً لكونه طاعناً في السنّ وليس بإمكانه تحمّل مشاقّ السفر. أما الاحتمال الثاني فهو أن أفرهام قد لبّى نداء الله في منطقة حرّان، وفي هذه الحالة فإن والده يكون قد بدأ بالفعل رحلة الخروج من تلقاء نفسه من خلال مغادرته لمنطقة أور. لكن وبجميع الأحوال فإن ما يُمكننا الإجماع عليه هو أن أفرهام ووالده كانا مع بعضهما لمرحلة معينة من الرحلة، وأن انفصاله عن والده ليس بتلك الصورة الدرامية المثيرة التي لطالما كنا نراها بها.

وقد وضحّ في كتاب آخر أطلقتُ عليه "ليس باسم الله" (*Not in God's Name*)² بأنّ الرواية التوراتية اليهودية أعمق وأكثرُ غُموضاً مما كنا نعتقد، خاصة وأنها مكتوبة عن قصدٍ بأسلوبٍ يجعلنا نفهم هذا الغموض خلال مراحل مختلفة من حياتنا تتناسب مع نموّنا الأخلاقي. فهناك دوماً رواية ظاهرية تُفهم بشكل سطحي، لكن هنالك أيضاً جوانب لتلك الرواية لا يمكن لنا أن نلاحظها ونفهمها إلا إذا وصلنا لمرحلة معينة من النضج والبلوغ، وهذا ما أطلق عليه "الرواية المضادة المُستترة"، وخير مثال على ذلك هو المقطع الحادي عشر والثاني عشر من سفر التكوين.

فعندما كنّا في مرحلة الشباب كنا نسمعُ دوماً تلك القصة الحماسية المؤثرة عن أفرهام وتحطيمه لأوثان والده، وكنا نفهم منها درساً مفاده أن الأبناء قد يكونون مُحقّقين أحياناً، وأن الآباء قد

2. كتابُ الحاخام جوناثان ساكس "ليس باسم الله - مواجهة الغُنف الديني". (New York: Schocken Books, 2017).

يكونون على خطأ، خاصة عندما يتعلق الأمر بمسألة الروحانية والإيمان. و فقط مع تقدّمنا في العمر صرنا ندرك حقيقة أعمق لهذه القصة (موجودة بشكل مُستتر في الجزئية التي تحدثت عن موضوع الأنساب في النص الأسبوعي السابق)، حينها فقط نرى أن أفرهام يُكْمِلُ الرحلة التي بدأها والده أصلاً.

وهناك سطرٌ من سفر يهوشوع/يوشع (تحديداً في الآية الثانية من المقطع الرابع والعشرين) والذي نقرأه كجزء من الهجده (الكتاب الذي يُقرأ خلال تناول الطعام عشية عيد البيسح /الفصح اليهودي) والتي تقول: "هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلَهُ إِسْرَائِيلَ: آبَاؤُكُمْ سَكَنُوا فِي عَبْرِ النَّهْرِ مُنْذُ الدَّهْرِ، تِيرِحُ أَبُو أَفْرَهَامَ وَأَبُو نَاحُورَ، وَعَبَدُوا آلِهَةً أُخْرَى". بالتالي كانت عائلة أفرهام ذات خلفية وثنية، لكن سفر التكوين في المقطع الحادي عشر يذكر لنا بأن تيرح هو الذي أخذ بيد ابنه أفرهام وانطلق به في تلك الرحلة، وليس العكس، حيث انطلق معه من منطقة أور مُتجهاً إلى أرض كنعان، كما لم يكن انفصال أفرهام عن والده فجائياً، بل جاء على عدّة مراحل.

كما أنه من الصعب جداً أن نتخيّل عكس ذلك، فاسمه الأصليّ في بداية الأمر كان أفرَم (أف رَم باللغة العبرية تعني الأب المُقْتَدِر) قبل أن يُصبح اسمه أفرهام لاحقاً. وقد اختاره الله عزّ وجلّ لكونه "سَيَامُرُ بَنِيهِ وَآلَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَنْ يَحْفَظُوا طَرِيقَ اللَّهِ، لِيَعْمَلُوا بِالْعَدْلِ وَالْحُكْمِ، لِقَبْلِ أَنْ يَفِيَّ اللَّهُ لِأَفْرَهَامَ بِمَا وَعَدَهُ" تبعاً لما تذكره التوراة في الآية التاسعة عشرة من المقطع الثامن عشر من سفر التكوين. بالتالي فقد اختاره الله ليكون أباً وقُدوةً لأبنائه ونسله الذي سيأتي من بعده.

لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف لأبٍ تمرد على والده أن يكون والداً لأبناءٍ لا يتمردون عليه؟³ ربما ستكون الصورة أكثر منطقية وعقلانية حين نفهم أن تيرح كان لديه شكوكٌ أصلاً فيما يتعلق بجِدوى عبادة الأصنام والأوثان، خاصة وأنه هو الذي ألهم ابنه أفرهام وساعده للمضي قُدماً في تلك الرحلة الروحانية الشاقّة. بالتالي فقد أكمل أفرهام الرحلة التي بدأها والده أصلاً، أي أنّه ساعد أبناءه يتسحق/إسحق ومن ثم حفيده يعقوف/ يعقوب وجميع من انحدر من نسلهم ليَمْضُوا في رحلة عبادة الله الواحد، والذين واجهوه وتعزّفوا عليه بطرقٍ مختلفة. وهذا ما يُعيدنا إلى مارك توين، حيث نبدأ حياتنا مُعتقدين بأننا مُختلفون إلى حدٍ كبيرٍ عن آبائنا وأمهاتنا، لكننا بنهاية المطاف ومع مرور الوقت فإننا نصلُ لتلك اللحظة التي نُقدّر فيها فعلاً ما فعلاه من أجلنا حتى نُصبح على ما نحن عليه الآن. وحتى عندما نعتقد أننا نهربُ مُبتعدين عنهما، فإننا في الحقيقة نهربُ مُستكملين لتلك الرحلة والمسيرة التي بدأها كلاهما، والكثير مما نحنُ عليه الآن يعود إلى ما هم عليه فعلياً.

3. يقول الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف بلقب الحاخام راشي) في تفسيره لسفر التكوين المقطع الحادي عشر الآية الواحدة والثلاثين بأن التوراة جعلت قصة انفصال أفرهام ووالده مُستترة، حيث أن الآية التي تحدثت عن وفاة تيرح جاءت قبل الآية التي تحدثت عن نداء الله عزّ وجلّ لأفرهام. على أي حال، يُرجى المقارنة مع تفسير الحاخام موشيه/موسى بن نحمان على هذه الآية

فيرا

هو النصّ الأسبوعي الرابع من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الثامن عشر وينتهي بالآية الرابعة والعشرين من المقطع الثاني والعشرين.

بورك الحيز الفاصل بيننا

يُسيطر الغموض على صميم القصة التوراتية المتعلقة بأفرهام/إبراهيم، وهذا الغموض له تبعات كبيرة تؤثر على طريقة فهمنا للديانة اليهودية. من هو أفرهام؟ ولماذا تمّ اختياره دون غيره من البشر؟ الإجابة بعيدة كل البعد عن الوضوح، خاصة وأنه لا يوجد وصف مُحدّد له كما هو الحال مع العديد من الشخصيات التوراتية مثل نوح الذي وُصف بأنه "كَانَ رَجُلًا صَالِحًا صَحِيحًا فِي أَجْيَالِهِ" كما بيّنت الآية التاسعة من المقطع السادس من سفر التكوين، أو نبيّ الله ورسوله موسى/موشيه في الشارب القويّ اليافع الذي كان يُقاتل بجسده دفاعاً عن العدالة ومحاربة الظلم. كما لم يكن جُندياً مُحاربياً كالملك داوود/داوود، ولا رجلاً صاحب رؤية ثاقبة بعيدة المدى كالنبيّ يشعياهو/أشعيا. في الوقت نفسه، تذكر التوراة في موضع واحد في بداية هذا النصّ الأسبوعي السبب الذي جعل الله عزّ وجلّ يختار أفرهام دون غيره من البشر، وذلك في الآيات 17-19 من المقطع الثامن عشر والتي تقول:

"فَقَالَ اللهُ أُمخفي أنا من أفرهام ما أنا صانع وأفرهام، ستكون منه أمة عظيمة ويتبارك به جميع أمم الأرض. وأنا معرفه أنه سيأمر بنيه وآله من بعده، وأن يحفظوا طريق الله ليعملوا بالعدل والحكم، ليقبل أن يفي الله لأفرهام بما وعده".

لقد وقع اختيار الله عزّ وجلّ على أفرهام حتى يكون أباً، وبالفعل فإن اسمه السابق كان أف رام (عبارة باللغة الآرامية تعني الأب المُقتدر)، وحتى بعد إضافة حرف الهاء إلى اسمه اللاحق "أفرهام" فإن معناه يظل مرتبطاً بالأبوة، فكلمة أفرهام تعني "أب لكثير من الشعوب". لاحقاً وبعد تغيير اسمه إلى أفرهام، فإننا نلاحظ بأن أول إنسان مُنح اسماً تبعاً للرواية التوراتية كانت حفاه/حواء، لأن آدم وصفها بأنها "أُمٌ لِكُلِّ حَيٍّ ناطقٍ" تبعاً لما هو مذكور في الآية العشرين من المقطع الثالث، مع العلم أن التوراة سلّطت الضوء على ظاهرة الأمومة قبل أن تأتي على ذكر الأبوة (تحديداً بعد فترة عشرين جيل، عشرة أجيال من خلق آدم حتى نوح، وعشرة أخرى من عهد نوح حتى أفرهام). ويعود السبب وراء ذلك إلى أن الأمومة هي ظاهرة بيولوجية مألوفة بين كافة الكائنات الحية المتقدمة، في حين أن الأبوة هي ظاهرة ثقافية بحتة، خاصة وأن الأبوة تتضمن قدراً محدوداً من المساهمة البيولوجية في العلاقة التي تربط الزوجين ومدى الإخلاص والانتماء للعلاقة الزوجية، هذا عدا عن الرابطة الضعيفة نسبياً التي تربط بين الآباء والنسل الذي ينحدر من صلبهم. لهذا السبب نجد أن الأبوة وواجباتها بحاجة دائمة

ومستمرّة إلى تعزيز وترسيخ من قبل المنظومة الأخلاقية المعمول بها في كلّ مُجتمع، وفي حال لم يحدث ذلك فإن العائلة ستفتكك سريعاً دون أدنى شك، فيما سيكون عبء العائلة بأكملها مُلقى على كاهل الأم وحدها.

في الحقيقة فإن التركيز على مسألة الوالدين (الأمومة في حالة حفاه والأبوة في حالة أفرهام) هو أمرٌ جوهريّ في الروحانيّة اليهودية، باعتبار أن العقيدة الإبراهيمية التوحيدية لم تجلب للعالم فكراً دينياً جديداً يقوم على الحساب فقط، أي بتقليص عدد الآلهة إلى إله واحد فقط. كما أن إله إسرائيل لم يكن فقط إلهاً للعلماء الذين يعتقدون بأن الكون في حركة دائمة نتيجة للانفجار الأعظم، ولم يكن إلهاً فقط للفلاسفة الذين يركزون دورهم على تزويد البشرية بالاحتمالات. كما أنه ليس إلهاً فقط لمتصوّفي القبالة اليهود الذين يؤمنون بفكرة "إين سوف" (اللانهاية) والأبدية التي تُشكّل حالة التناهي. إن الله ربّ إسرائيل هو الربّ الذي يحيطنا بمحبّته ورعايته تماماً كما يُحيط الأبُ أبناءه بالحُب والرّعاية.

وفي بعض الأحيان يوصفُ الله عزّ وجلّ في النصوص الدينية اليهودية على أنه أب، تماماً كما تصفه الآية العاشرة من المقطع الثاني من سفر مَلاخي والتي تقول: "أليسَ أباً واحداً لنا جميعاً؟ أليسَ إله واحد خلقنا؟"، وأحياناً أخرى يوصفُ الله بصفة الأمومة، خصوصاً في المقاطع الأخيرة من سفر أشعيا تماماً كما هو مذكور في المقطع السادس والستين من هذا السفر في الآية الثالثة عشرة والتي تقول: "كإنسانٍ تُعزّيه أمُّه، هكذا أعزّيكم أنا"، بالإضافة إلى ما هو مذكور في الآية الخامسة عشرة من المقطع التاسع والأربعين من السفر نفسه والتي تقول: "هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسين، وأنا لا أنساك". وهناك أمرٌ جديرٌ بالذكر في هذا السياق، وهو أن الصفة الرئيسيّة التي تصفُ الله، والتي يأتي ذكرها عادة حين يُذكر باسمه ذي الحروف الأربعة والذي يُشيرُ إليه اليهود عادة بلفظة "هَشِيم" (بمعنى "الإسم") هي "رحاميم" وتعني الرحمة، والتي جاءت بالأصل من كلمة "ريجم" باللغة العبرية والتي تعني رَحَم الأم.

ومن هذا المنطلق، فإن علاقتنا بالله عزّ وجلّ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعلاقتنا بآبائنا وأمهاتنا، كما أن إدراكنا وفهمنا لله عزّ وجلّ سيتعمّق أكثر وأكثر تحديداً حين يكون لدينا أبناء، ودوماً حين أطرحُ هذه النقطة فإنني أستحضرُ مقولة لأحد الأمهات اليهوديات الأمريكيات تقول فيها: "ها هيّ علاقتي بالله عزّ وجلّ تتعمّق أكثر بعد أن أصبحتُ أمّاً، فقد أصبحتُ أدركُ الآنَ معنى أن توجدَ شيئاً خارجاً عن نطاق سيطرتك".

إن جميع النقاط التي ذكرناها للتوّ تجعلُ من قصّة أفرهام عصيّة على الفهم إلى حدٍ ما، لكن هناك سببان اثنان على وجه الخصوص وراء حالة عدم الفهم هذه: السببُ الأول هو أن أفرهام كان الابن الذي أمره الله أن يهجّر أباه تبعاً لما تذكره الآية الأولى من المقطع الثاني عشر من سفر التكوين والتي تقول: "فلما كان بعد هذه الأمور امتحنَ اللهُ أبرهَم، فقال له يا أبرهَم، قال لبيك". أما السبب الثاني فهو أن أفرهام كان الأب الذي أمره الله أن يضحّي بابنه، تبعاً لما تذكر الآية الثانية من المقطع الثاني والعشرين من السفر نفسه والتي تقول: "خذ ابنك وحيّدك الذي تُحبّه، هو يتسحق، وامض إلى العبادة وقربه ثمّ لقربان، على أحد الجبال الذي أقولُ لك". والسؤال الذي يطرحُ نفسه هنا: أين

المنطق العقلائي فيما حدث؟ خاصة في ظل صعوبة استيعاب قيام الله عز وجل بتوجيه تلك الأوامر لأي إنسان! بالإضافة إلى أننا نجد أن الله عز وجل قد اختار أفرهام على وجه التحديد ليكون قُدوة للبشر في طبيعة العلاقة بين الوالد والولد، والأب والابن.

في المُقابل، فإن التّوراة تُعلمنا درساً هاماً وأساسياً لكنه يتناقض إلى حدٍ ما مع فطرتنا البشرية: لا بُد من الانفصال حتى يحدث الاتصال، أي يجب علينا امتلاك حيزٍ خاص بنا إذا أردنا أن نَبني علاقة جيّدة مع آباؤنا ونكون أبناء صالحين، كما يجب علينا أن نسمح لأطفالنا بامتلاك ذلك الحيز الخاص بهم إذا أردنا أن نكون آباء صالحين لهم.

وقد بينتُ في المقالة التي تُناقش النصّ الأسبوعيّ السابق كيف أن أفرهام كان في الحقيقة يستكملُ الرحلة التي بدأها والده تيرح أصلاً، لكن إدراك وفهم هذه الجزئية يتطلّب وجود قدرٍ معيّن من البلوغ لدى الإنسان، ذلك لأن القراءة الأولى والسطحية لهذه القصة توجي للقارئ بأن أفرهام كان على وشكِ المضيّ قُدماً في رحلة جديدة كلياً، وأن أفرهام – تبعاً لتفسير المِدراس- كان مُحطّم الأوثان الذي كسر بيديه الأصنام التي كان يصنعها والده. لكن مع مضيّ الوقتِ نبدأ بإدراك حقيقة الشبه الموجود بيننا وبين آباؤنا أثناء البلوغ، وبأن ذلك القدر من الشبه أكبر بكثير منه حين كنا شباباً يافعين، وهي حقيقة لا نُدرکہا أحياناً رغم بلوغنا، لهذا حتى نتمكن من إدراك هذه الحقيقة فإنه يتوجب علينا أن نفصلَ عنهما إلى حدٍ ما. والأمر يُكرّر نفسه مع قصة التضحية بيتسحق / إسحق، فلطالما وضحّت بأن الفكرة الهامة من هذه القصة لا تكمنُ في أن حُب أفرهام لله كان كافياً لجعله يُضحّي بابنه، بل إن الفكرة من هذه القصة تكمنُ في أن الله كان يُريد أن يُعلم أفرهام درساً هاماً في الحياة: وهو أننا كأباء ليس لدينا صكّ ملكية يجعل أبناءنا مُلكاً لنا مهما بلغ مقدار محبتنا لهم.

وإنّ أول طفل وُلِد في هذا العالم سُمّي باسم قاين (قابيل)، ذلك لأن والدته حَفاه قالت بعد أن أنجبته: "وإنّ آدَمَ قَدِ واقَعَ حَوَاءَ رَوجَتَهُ، فَحَمَلَت وَوَلَدَت قاين" (كلمة قاين جاءت من الفعل "قنى" باللغة العبرية ويعني الاقتناء والامتلاك) تبعاً لما هو مذكور في الآية الأولى من المقطع الرابع من سفر التكوين. وحينما يعتقدُ الوالدان بأنهما يمتلكان أبناءهما، حينها فقط تحدثُ المآسي التي لا يُحمدُ عُقبها. بالتالي هنالك ركيزة أساسية للروحانيّة اليهودية تقوم على الفكرة التالية: انفصل أولاً ثم اتّصل، وانعزل أولاً ثم اجتمع. كما أننا لسنا الله عز وجلّ، والعكس صحيح أيضاً، لأن تلك الحدود التي تفصلُ بشكلٍ جليّ بين السماوات والأرض تحافظُ على العلاقة الطيبة بيننا وبين الله. وبالرغم من أن الصوفيّة اليهودية تؤمن بفكرة "بيطول هيبش" (عبارة باللغة العبرية تعني إلغاء الذات الإنسانية) والتي يُقصدُ بها النكران التام للذات عند احتضان النور الإلهي، إلا أن هذه الفكرة ليست نمطية أو رائجة على نطاقٍ واسعٍ في عالم الروحانية اليهودية.

كما يوجد جانبٌ جميلٌ آخرُ في كتاب التناخ، وهو أسلوب الحديث عن البطولة والأبطال وحديثهم مع الله عز وجلّ، فعندما يأتي على ذكرهم في هذا الموقف فإنهم يقفون أمامه كما هم، على طبيعتهم، دون أي تملقٍ أو تقمصٍ أو مُحاباة، لأن الله عز وجلّ لا يستحوذُ علينا، بل على العكس تماماً، وهذا كان أحد أبرز أفكار يهود القبالة والذي يُدعى "تسمتسوم"، ويُقصدُ بها تقليصُ الله لنوره،

بِحَيْثُ تَقُومُ هَذِهِ الْفِكْرَةُ عَلَى أَسَاسِ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ خَلَقَ لَنَا حَيْرًا وَمَسَاحَةً لِنَكُونَ فِيهَا أَنْفُسَنَا
بِحَيْثُ نَكُونُ فِيهَا عَلَى طَبِيعَتِنَا.

بِالتَّالِي كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَى أَقْرَاهِمَ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنِّ أَبِيهِ قَبْلَ أَنْ يَتِمَّ كُنْهُ هُوَ - وَنَحْنُ أَيْضًا - مِنْ أَنْ
نُدْرِكَ كَمَ هُوَ مَدِينٌ لِأَبِيهِ بِكَثِيرٍ مِنَ الْأُمُورِ. كَمَا كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَى أَقْرَاهِمَ أَنْ يَنْفَصِلَ عَنِ ابْنِهِ حَتَّى لَا يَكُونَ
يَتَسَحَّقُ مُجَرَّدَ نُسْخَةٍ طَبَقِ الْأَصْلِ عَنِ أَقْرَاهِمَ، وَفِي هَذَا الصِّدْدِ يَصِفُ الْحَاخَامُ مَنَاحِيمَ مَنَدِيلٍ مِنْ
كُوتِرِكَ هَذِهِ الْفِكْرَةُ بِأَسْلُوبٍ فِي غَايَةِ الرَّوْعَةِ وَالْجَمَالِ قَائِلًا:

"إِن كُنْتُ أَنَا لِأَنِّي أَنَا، وَأَنْتَ لِأَنَّكَ أَنْتَ، عِنْدَهَا سَأَبْدُو عَلَى حَقِيقَتِي وَأَنْتَ سَتَبْدُو عَلَى حَقِيقَتِكَ. لَكِنْ إِنْ
كَانَتْ كَيْنُونَتِي نِتَاجًا لِكَيْنُونَتِكَ، وَكَيْنُونَتُكَ نِتَاجًا لِكَيْنُونَتِي، عِنْدَهَا لَنْ أَكُونَ أَنَا عَلَى حَقِيقَتِي وَلَنْ تَكُونَ
أَنْتَ عَلَى حَقِيقَتِكَ، حِينَهَا لَنْ أَكُونَ أَنَا أَنَا، وَلَنْ تَكُونَ أَنْتَ أَنْتَ."

بِعِبَارَةِ أُخْرَى، إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُحِيطُنَا بِمَحَبَّتِهِ تَمَامًا كَمَا يُحِيطُ الْأَبُ أَبْنَاءَهُ بِالْمَحَبَّةِ، لَكِنَّ الْأَبَ
الَّذِي يُحِبُّ أَبْنَاءَهُ فِعْلًا هُوَ الْأَبُ الَّذِي يَخْلُقُ لَهُمْ حَيْرًا حَتَّى يَتِمَّ كُنْهُ مِنْ تَنْمِيَةِ وَصَقْلِ هَوِيَّتِهِمْ
الْخَاصَّةِ بِهِمْ. إِنْ الْحَيْرُ الَّذِي نَخْلُقُهُ لِبَعْضِنَا الْبَعْضُ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ الْمَحَبَّةَ بَيْنَنَا تَبْدُو كَأَشْعَةِ الشَّمْسِ
بِالنِّسْبَةِ لِلزَّهْرِ، لَا كَالشَّجَرَةِ بِالنِّسْبَةِ لِلنَّبَاتَاتِ الَّتِي تُلْقَى بِظِلَالِهَا عَلَى مَا يَنْمُو تَحْتَهَا. وَقَدْ عَبَّرَ الشَّاعِرُ
الْإِيرْلَنْدِي جُون أَوْدُونَهُو عَنِ دَوْرِ الْمَحَبَّةِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْبَشَرِيَّةِ فِي حَيَاتِنَا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ الْجَمِيلَةِ: "بُورِكَ الْحَيْرُ
الْفَاصِلُ بَيْنَنَا".

حَيِّ ساره

هو النصّ الأسبوعي الخامس من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الثالث والعشرين وينتهي بالآية الثامنة عشر من المقطع الخامس والعشرين.

الإيمانُ بالمُسْتَقْبَلِ

كان يبلغ من العمر مئة وسبعة وثلاثين عاماً، ثمّ مرّ بتجربتين مريرتين تتعلّقان بأقرب الناس إليه في الحياة. التجربة المريعة الأولى تتعلّق بابنِهِ يِتسَحَقُ/إِسْحَقُ الذي انتظرَ قدومه بفارغِ الصبر، خاصة بعد أن فقدَ الأملَ هوَ وزوجتُهُ ساره من قدرتهما على الإنجاب، إلا أنّ الله عزّ وجلّ وعدهُما بأنهما سيُنجبانِ طفلاً، وبأنه سيكمل مسيرة العهد التي بدأها والده. لكن مرّت السنين وصارت ساره تتقدّم في العمر شيئاً فشيئاً ولم تحمِل بعد، بيد أن الله عزّ وجلّ ظلّ يؤكّد لها بأنها ستُنجبِ طفلاً.

وبنهاية المطاف، وبعد طول انتظارٍ جاء هذا الطفل، وغمرَتْهُمَا البهجةُ والسُرورُ عند قدومه، فقالت ساره حينها: "قد صنع لي الله سروراً، كلّ من سمع فرح لي" تبعاً لما هو مذكور في الآية السادسة من المقطع الحادي والعشرين من سفر التكوين. ثمّ جاءت تلك اللحظة المروّعة عندما أمرَ الله عزّ وجلّ أفرهام/إبراهيم قائلاً: "خذ ابنك وحيدك الذي تُحبّه، هو يِتسَحَقُ، وامضِ إلى بلدِ العبادة وقربه ثمّ لقربان، على أحد الجبال الذي أقول لك" تبعاً لما تذكره الآية الثانية من المقطع الثاني والعشرين. لم يعترض أفرهام على هذا الأمر الإلهي ولم يتردّد لحظة في تنفيذه، فاصطحب ابنه يِتسَحَقُ إلى حيث أمره الله أن يذهب، وفي اللحظة الأخيرة جاء أمرٌ إلهي يطلب من أفرهام بأن "يتوقّف" على الفور. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف بإمكان الأب، والابن على وجه الخصوص، أن يتجاوزا صدمة مروّعة كهذه؟

أما بالنسبة للتجربة المريعة الثانية التي مرّ بها أفرهام فكانت تتعلّق بزوجه الحبيبة ساره حين فارقت الحياة. لقد كانت ساره بالنسبة له شريكاً رفيقاً دربه على الدوام، شاركته الرحلة التي مضى بها عندما تركا خلفهما كل شيء: أرضهما ومسقط رأسيهما وأهلها وأحبائهما. كما أنها أنقذت حياته مرّتين عندما ادّعت بأنها شقيقته.

بالتالي ماذا عسى رجل بلغ من العمر مائة وسبعة وثلاثين عاماً أن يفعل بعد كل هذا؟ (أو مثلما تنعته التوراة بأنه "شاحّ وطعن في السن") كما ورد في الآية الأولى من المقطع الرابع والعشرين من سفر التكوين). في حالة كهذه ليس من المُستغرب أبداً أن يقضي أفرهام بقية حياته حزيناً منكسراً، خاصة وأنه قام بكل ما أمره الله عزّ وجلّ به، في حين أن الوعود التي قطعها الله عزّ وجلّ لأفرهام لم تتحقّق

بعدُ خلال تلك الفترة، فقد وعدهُ اللهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ بأن أرض كنعان ستكون له، لكن عندما توفيت ساره لم يكن يملكُ شيئاً منها، بل لم يكن يملك حتى مساحة قبرٍ يدفنُ فيه زوجته. والحال نفسه يتكرر بالنسبة للوعدِ الإلهي لأقرباهم بأنه سيُكثِرُ نسله ويجعل منه أمة عظيمة وشعباً كثيرة بعدد حبات الرمل الموجودة على شاطئ البحر وبعدد النجوم في السماء، في حين أن ابنه الوحيد يتسحق - والذي كان على وشك أن يفقده هو الآخر- لم يكن مُتزوجاً حينها رغم أنه كان يبلغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً.

بالتالي لن يلومه أحدٌ إن قضى بقية حياته غارقاً في الحُزنِ والأسى، لكن أقرباهم لم يفعل ذلك، وفي هذا الصدد نُخبرنا التوراة (عبر ترتيبٍ استثنائي لخمس كلماتٍ في اللغة العبرية) في الآية الثانية من المقطع الثالث والعشرين بالتالي: "[ماتت ساره ...]، فأقبلَ أقربهمُ يندُبُها ويَبكيها"، ثم تأتي خلفها مباشرة هذه الآية: "فَقَامَ أَقْرَهُمُ مِنْ حَضْرَةِ مَيْتِهِ". ومنذ تلك اللحظة وقفَ أقرباهم على قدميه مُنطلقاً بمُنتهى العُنفوان واضعاً نصب أعينه هدفين اثنين: الهدف الأول هو أن يشتري قطعة أرض يدفنُ بها زوجته ساره، والهدف الثاني هو أن يجد زوجة لابنه يتسحق. ولعلنا نلاحظ بأن هذين الهدفين يُجسدان النعمتين الإلهيتين اللتين أنعم اللهُ بهما على بني إسرائيل: الأرضُ والنَّسل. بالتالي لم ينتظر أقرباهم من الله عزَّ وجلَّ أن يتصرف، حيثُ أدرك أقرباهم واحدة من أهم الأسس والمبادئ التي تقوم عليها الديانة اليهودية: وهي أن الله عزَّ وجلَّ ينتظرُ منا أن نتصرف.

لكن السؤال الذي يطرحُ نفسه هنا: كيف تمكَّن أقرباهم من تجاوز الحُزن والأسى والصدمة الأليمة التي مرَّ بها؟ كيف استطاع أن يتجاوز فُقدانه لِسَريكة حياته بعد أن كان على وشك أن يفقد فلذة كبدِه؟ من أين أتى بالقُوَّة الكافية للمضي قُدماً رغم ذلك؟ ما الذي منحه القُدرة على التحمل والبقاء دون أن يفقد صوابه؟

في الحقيقة لقد عثرتُ على إجابة هذه الأسئلة عن طريق العديد من الأشخاص الذين اعتبرهم أساتذة لي في الجرأة الأخلاقية، وأخص بالذكر الناجين من المحرقة (الهولوكوست) الذين حظيتُ بشرف التعرّف عليهم والتعلّم منهم. فطالما كنتُ أتساءل بيني وبين نفسي: كيف لهؤلاء الناس أن يواصلوا مسيرة الحياة بالرغم مما شاهدوه وعاشوه في المحرقة؟ خاصة وأننا نعلمُ بأن الجنود الأمريكيين والبريطانيين الذين حرّروا اليهود من معسكرات الموت النازية لم يتمكنوا من تجاوز أو نسيان ما رأوه أو شاهدوه حينها. وتبعاً لنيال فرچوسن كاتب السيرة الذاتية لهنري كيسنجر،¹ فإن المشاهد التي رآها هنري عندما دخل معسكرات الموت النازية قد قلبت حياته رأساً على عَقِب. بالتالي إن كان هذا هو حال الجنود الذين بالكادِ رأوا ما حدث من عذاباتٍ في معسكر برجن بيلسين وغيرها من معسكرات الموت النازية، فكيف سيكون حال أولئك الذين عاشوا فعلاً في تلك المعسكرات وعاشوا عذاباتها ورأوا العدد الهائل من البشر الذين قُتلوا أمام أعينهم؟ وحسب معرفتي بالكثير من الناجين من الهولوكوست فإنهم

1. Niall Fergusson, *Kissinger: 1923–1968: The Idealist* (London: Penguin Books, 2015)

كانوا من أكثر الناس تشبثاً بالحياة بعدها، لذا أردت أن أفهم كيف تمكّنوا من المضيّ قُدماً في الحياة بعد هذه التجربة الأليمة.

وبنهاية المطاف أدركتُ السرّ الكامن وراء ذلك، فالكثيرُ منهم لم يتحدّثوا عن ويلات ومآسي الماضي حتى مع أزواجهم وزوجاتهم وأبنائهم وأقرب الناس إليهم، وعوضاً عن الحديث عن الماضي بدأوا ببناء حياة جديدة في أرض جديدة، فتعلّموا لغتها وعاداتها وتقاليدها، وبدأوا يعملون في شتى المهن والوظائف وتزوجوا وأنجبوا الأولاد والبنات، فأصبحت عوائلهم الجديدة بمثابة العائلة الممتدة لعوائلهم التي فقدوها في المحرقة. لقد كانوا يتطلّعون إلى الأمام بدلاً من الالتفات إلى الوراء، فبنوا مستقبلهم أولاً، وعندها فقط بدأوا يتحدّثون عن الماضي وويلاته، بعد مضي أربعة أو خمسة عقود على ما حدث في المحرقة. وفي بادئ الأمر كانوا يُحدّثون عوائلهم ومن ثمّ بدأوا بالحديث للعالم، لهذا ابن مُستقبلك أولاً، وعندها فقط بإمكانك الحديث عن الماضي.

وبحسب ما تُحدّثنا التوراة، هنالك شخصيتان فقط ممّن نظّروا إلى الوراء، الشخصية الأولى فعّلت ذلك بشكل صريح، والشخصية الأخرى فعلت ذلك بشكل ضمنيّ. أما الشخصية الأولى فكانت نوح، رجل صالح بين أبناء جيله، والذي انتهى به المطاف وهو يعصرُ الخمر والنبيذ ويشربه حتى الثمالة. والتوراة لا تُخبرنا تحديداً لماذا انتهى به المطاف هكذا، لكن بإمكاننا أن نُخمن السبب: لقد فقدَ نوحُ عالمه بأكمله، وبينما كان هو وعائلته يتواجدون بأمان في الفلك (السفينة) فقد غرق باقي البشر في الطوفان، خاصة وأنه كان من ضمنهم أصحابه وأحبائه وأقرانه. وفي موقف كهذا لن يكون من الصعب علينا أن نتخيل كمّية الحزن والأسى التي سيشعر بها هذا الرجل الصالح حين يعود بذكرته إلى ما حدث، خاصة حين يُفكر بينه وبين نفسه إن كان بإمكانه أن يفعل شيئاً ليُنقذ أيّ عددٍ منهم أو رُبما إن كان بإمكانه منع وقوع تلك الكارثة.

أما الشخصية الثانية فهي زوجة لوط، والتي خالفت أوامر الملائكة ونظّرت للوراء لترى ماذا حلّ بالمدن التي اختفت من الوجود حين التهمتها ألسنة اللهب والنيران غضباً من الله على قوم لوط. وكان عقابها بأن تحوّلت على الفور إلى عمودٍ من الملح، وإن صحّ التعبير فإن التوراة صوّرت تحديداً زوجة لوط على هيئة امرأة تطغى عليها ملامح المفاجأة والصدمة والحزن لدرجة أنها أصبحت عاجزة عن الحركة.

والخلفية وراء هاتين القصتين ستساعدنا كثيراً على فهم واستيعاب ما قام به أفرهام بعد وفاة زوجته، فكان له السبق في ترسيخ هذا المبدأ: ابن مُستقبلك أولاً، وحينها فقط يُمكنك أن تبكي وتندب على ما حدث في الماضي. وفي حال عكسنا ترتيب هذين الأمرين فإن الإنسان سيصبح أسيراً للماضي ولن يتمكن من التقدّم أبداً، بالتالي سيكون مصيره كمصير زوجة لوط التي أصرت على أن تنظر إلى الخلف عوضاً عن التقدّم نحو الأمام.

في الوقت نفسه، فإن العمق الموجود في هذه الحقيقة كان الدافع وراء أعمال شخص يُعتبر من أشهر الناجين من المحرقة، وهو عالم النفس المعروف فيكتور فرانكل، حيث كان أسيراً في سجن

أوشفيتز، وخلال الاعتقال كرس حياته وكل جهده محاولاً مساعدة باقي الأسرى في الإصرار على البقاء والحياة.

وقد كتب عن تجربته وقصته في أكثر من كتاب، أبرزها الكتاب المعروف "الإنسان يبحث عن معنى"²، موضحاً عبر كتبه بأنه حاول إيجاد مهمة أو عملٍ مُحدد للأسرى داخل معسكرات الموت بحيث تُشجعهم على الحياة والبقاء، مهمة لم يقوموا بها سابقاً لكن باستطاعتهم القيام بها بلا شك. وقد كان لمنهجيته الفضل في مضيهم نحو المستقبل والبقاء في الحاضر وترك الماضي جانباً.

كما أن فيكتور فرانكل كان يُطبّق مبادئه ونظرياته بنفسه، وبعد تحرير الأسرى من معسكر أوشفيتز النازي، أسس فرانكل مدرسة لعلم النفس أطلق عليها اسم "العلاج بالمعنى"، مُستنداً إلى حقيقة بحث الإنسان عن معنىٍ لحياته. في الوقت نفسه كانت مدرسة فرانكل بمثابة نظرية مُعكسة لنظريات فرويد في علم النفس والتي تقوم بالأساس على تحفيز الإنسان على التفكير والتعمق في الماضي، في حين أن نظريات فرانكل كانت تُعلم الناس كيف يُؤسسون لمستقبلهم، أو بالأحرى حتّمهم على الإصغاء إلى صوت المستقبل وهو يُناديهم.

وفي تشابه كبير بين حياة فرانكل وأفرهام، فقد عاش فرانكل حياة طويلة وتوفّي عن عُمر يناهز اثنين وتسعين عاماً، وذاع صيته في كافة أصقاع الأرض، تماماً كأفرهام الذي أنصت جيّداً لصوت المستقبل وهو يناديه بالرغم من وفاة زوجته ساره وعدم زواج ابنه يتسحق. حينها لم يكن أفرهام يمتلك أرضاً ولا أحفاداً ينحدرون من نسله، ولم يوجّه صرخات الغضب والحسرة والحرقة إلى الله عزّ وجل، وعوضاً عن ذلك أنصت جيّداً لذلك الصوت الذي كان يقول له طوال الوقت: **الخطوة القادمة تعتمد عليك**، عليك أن تبني المستقبل الذي سأملاه بروحانيّتي. هكذا صمد أفرهام في وجه المصاعب ومضى قدماً بالرغم ممّا عايشه من صدمة وحزنٍ وأسى. وفي حال مرّ أحدنا بتجربة مماثلة من الحزن والبأس - لا قدر الله - فهذا هو السبيل الوحيد لتجاوز تلك التجربة والمضيّ قدماً في الحياة.

إنّ حضور الله عزّ وجلّ يتجلّى في حياتنا على هيئة نداءٍ قادمٍ من المستقبل، وكأنه يومئ لنا عبر آفاق الزمان ليحثنا على المضيّ قدماً في رحلة البحث عن الغاية والمهمة التي خلقنا الله من أجلها، والتي قد يصعب علينا فهمها في بعض الأحيان. إن هذا هو المعنى الحرفي لكلمة "مهنة"، إنها مهمة ورسالة علينا أن نلبي نداءها حين نسمع النداء.

كما أنّ وجودنا ليس من محض الصدفة، بل نحن موجودون لأن الله عزّ وجلّ أرادنا أن نكون موجودين في المكان الذي وُجدنا فيه، لهذا فنحن مُكلّفون بمهمةٍ محددة ينبغي علينا تنفيذها. وإدراك هذه الغاية أو المهمة التي نحن موجودون من أجلها هو أمر صعبٌ جداً، ولربّما يستغرق منا الأمر سنين طويلة وبدايات خاطئة حتى نتمكّن في نهاية المطاف من اكتشافها.

2. Viktor E. Frankl, *Man's Search for Meaning: An Introduction to Logotherapy*, translated by Ilse Lasch (Boston: Beacon Press, 1992) المصدر: كتاب فيكتور فرانكل "الإنسان يبحث عن معنى" (Beacon Press, 1992)

لكن علينا أن نُدرِك وجودَ نداءِ إلهيٍّ لكلِّ إنسانٍ منّا، وبأنه يوجدُ مُستقبلاً قَديماً لا زال ينتظرنا حتى نبنيه، وهذا هو التَّوجُّهُ المُستقبلي الذي يُعرِّفُ اليهودية كديانة ومُعتقد مثلما وضّحت في الفصل الأخير من كتابي "صِبغَةُ المُستقبل" (Future Tense).³

إنّ مشاعر الغضبِ والكراهية وحالة الاستياء والسخط في هذا العالم تُعزى في كثير من الأحيان إلى أولئك المُستغرقين في ماضيهم، لدرجة أنهم يُصبحون عاجزين عن المضي قُدماً في حياتهم، تماماً مثلما حدث مع زوجة لوط التي تجمّدت في مكانها، إذ لا توجدُ نهاية سعيدة لقصة قائمة على الاستغراق والهوس بما حدث في الماضي، والنهائية لمثل هذه القصص ستكون المزيد من المآسي والدموع. لقد كانت مَنهجيةً أفرهام مثلما رأينا في هذا النصّ الأسبوعي الذي يحمل عنوان "حَيّ ساره" مُختلفاً تماماً، لهذا إنَّ مُستقبلكَ أولاً، وحينها فقط يُمكنك أن تبكي وتندب على الماضي.

3. Jonathan Sacks ,*Future Tense: Jews, Judaism, and Israel in the Twenty-first Century* (New York: Schocken Books, 2012)

تولدوت

هو النصّ الأسبوعي السادس من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعيّ بالآية التاسعة عشرة من المقطع الخامس والعشرين وينتهي بالآية التاسعة من المقطع الثامن والعشرين.

مَحَبَّةُ الأب

تقول الآيتان السابعة والعشرون والثامنة والعشرون من المقطع الخامس والعشرين من سفر التكوين: "ولَمَّا كَبُرَ الغلامان فَكانَ عيسفُ/عيسو رَجُلًا عارِفًا بالصَّيْدِ، رَجُلًا صحراويًّا، وَيَعقوفُ رَجُلًا ساذجًا مُقيمًا في الأُخبية. فأَحَبَّ يتسحقُ عيسو لِمَعْرِفَتِهِ بالصَّيْدِ، ورفقه أَحَبَّتْ يَعقوفُ".

ليسَ مِنَ الصَّعِبِ أبداً أن نفهمَ سببَ حُبِّ رفقهِ/ رِفقة لابنِها يَعقوفُ/ يَعقوبَ وتفضيلِها له، خاصة وأنه كان لها نُبوؤة من الله عزَّ وجلَّ تتعلَّقُ بابنيها، حيث يقول الله في سفر التكوين في الآية الثالثة والعشرين من السفر والمقطع نفسه: "فَقَالَ اللهُ لها إِنَّ آباءَ أُمَّتَيْنِ في بَطْنِكَ، وَحِزْبَيْنِ من أُمَّعائِكَ يَتَفَرَّقانِ، وَيَتَأَيَّدُ أَحَدُهُما مِنَ الأَخرِ، وَالكَبيرُ يَخْدُمُ الصَّغِيرَ". وَيَعقوفُ كان الابنَ الأصغرَ، فيما يبدو أن رفقهِ توصلت إلى استنتاج - اتَّضحَ لاحقاً بأنه صحيح - مفاده بأن يَعقوفُ هو الابنُ الذي سَيُكْمَلُ مشوارَ العهدِ معَ اللهُ عزَّ وجلَّ، وهو الذي سيلتزم بمواصلة الإرثِ الروحيِّ لأبيه أفرهام وسيُعلِّمُهُ لأبنائه وأحفاده من بعده، حاملاً معه القِصةَ اليهوديةَ نحو المُستقبل.

لكن السؤال الذي يطرحُ نفسه هُنا: لماذا كان يتسحقُ يُفضِّلُ عيسفُ/عيسو على يَعقوفُ؟ ألم ير يتسحقُ بأن ابنه عيسفُ مولعٌ بالصَّيْدِ والبراري وبأنه ليس بذلك الشخص المُحِبُّ للتأمل والتعمق الروحيِّ وأنه ليسَ بالإنسانِ الراغبِ في التقَرُّبِ مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ؟ أليسَ من المُرجَّحِ أن تكونَ مَحَبَّةُ يتسحقُ لعيسفُ نابعةً من كونِ يتسحقُ كان يهوى الصَّيْدِ والبراري هو الآخر؟ هل سيطرت هِوايَتُهُ على تَفكيرِهِ وعاطِفَتِهِ؟ وهل كان يتسحقُ يجهلُ ما فعله ابنه عيسفُ حين تنازل لأخيه يَعقوفُ عن الامتيازات التي يحظى بها لكونه الابنِ البكرِ مقابلِ صحنٍ من العَدَسِ، مُستخِفاً ومُهيناً بفعلته هذه لتلك الامتيازات؟ (تبعاً للآياتِ 29-34 من نفس المقطع)، وهل شخصٌ بهذه الصِّفاتِ يُعتَبَرُ جديراً بالثِّقة حتى يستكمل الإرثَ الروحيِّ الذي سيورثُهُ إياه والده؟

لقد كان يتسحقُ يعلمُ علمَ اليقين بأن ابنه الكبيرَ عيسفُ هو شخصٌ مُتقلِّبُ الأهواءِ والمزاجِ، وأن حياته تتقلَّبُ بتقلِّباتِ عاطفته في كل لحظة يعيشها. وعلى فرض أن هذه الحقيقة لم تُثقل كاهل يتسحقُ، إلا أن المرحلة اللاحقة من حياة عيسفُ قد أثقلت كاهله دون أدنى شك، تبعاً لما جاء في الآيات 34 و35 من المقطع السادس والعشرين من سفر التكوين: "ولَمَّا كانَ عيسفُ ابنَ أربعين سنة، تزوَّجَ بامرأةٍ اسمها يهوديت، ابنةُ بئرِّي الحِيثي، وبِباسمَتِ ابنةِ إيلون الحِيثي. فكانتا مُخالفتين رأي

يتسحق ورفقة". بالتالي عاش عيسف بين الحيثيين وتزوج اثنتين من نسايمهم، الأمر الذي لا يُحوِّله أبداً بأن يكون وصياً على الإرث الإبراهيمي وحاملاً لرسالة العهد الروحي مع الله عز وجل، لأن حمل هذه الرسالة يتطلب من عيسف ان ينأى بنفسه عن الحيثيين والكنعانيين ودياناتهم وثقافتهم وما يُمثّلونه من منظومة أخلاقية.

لكن يتسحق كان يُحبّ ويُفضّل ابنه عيسف وهذا كان أمراً واضحاً وضوح الشمس، فهذا ما أكّده الآيات التي اقتبستها في بداية هذه المقالة، وهذا ما يُدكرنا به أيضاً المقطع السابع والعشرون من سفر التكوين عبر القصة التي تحمل بين ثناياها المعضلة الأخلاقية المتمثلة في خداع يعقوف لأبيه حين ارتدى ملابس أخيه عيسف وأخذ البركة بدلاً منه. إنها قصة بالغة الأهمية لما حملته من وصفٍ يُصوّر حالة الانسجام والمحبة الشديتين بين عيسف وأبيه يتسحق، هذه العواطف التي نستشعرها في حديث يتسحق في بداية الأمر حين طلب من عيسف قائلاً: "إتني بصيد، وأصلحه لي ألواناً أكل منه، حتّى أباركك بين يدي الله قبل موتي" بحسب ما تُخبرنا الآية السابعة من المقطع السابع والعشرين من سفر التكوين. إن كلمات يتسحق هذه لا تُشير إلى شهيته لتناول الطعام، بل هي رغبته الجامحة في أن يكون مُحاطاً بِرائحةٍ ومذاقٍ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بصفات ابنه البكر، بالتالي كان يتسحق يرغب بأن يكون في أقصى درجات محبته لعيسف وهو يُباركه.

في الوقت نفسه، فإن نهاية القصة هي التي تكشف عمق المشاعر التي تختلج صدريهما، فعيسف يدخل إلى أبيه جالباً معه الطعام الذي حضره بنفسه له، وشيناً فشيناً يبدأ يتسحق ثم عيسف بإدراك ما يتعرّض له كلاهما من خداع وتضليل، حينها بدأ يتسحق "يرتجف بشدة"، أما عيسف فقد "صرخ صرخة عظيمة ومرة جداً" مثلما تخبرنا الآيتان الثالثة والثلاثون والرابعة والثلاثون من المقطع السابع والعشرين من سفر التكوين. إنه لمن الصعب جداً إيجاد الكلمات التي تُعبّر عن عُنفوان ذلك المشهد بلغةٍ أخرى غير اللغة العبرية التي كُتبت بها التوراة. كما أن التوراة تتحدّث بإيجاز شديد عندما يتعلّق الأمر بعواطف البشر عموماً، وفي قصة مثل قصة التضحية بيتسحق فإن التوراة بالكاد تُخبرنا عما اختلج أقرهام وابنه يتسحق من مشاعر على الرغم من أنه واحدٌ من أكثر المواضع المشحونة والغزيرة بالعواطف في سفر التكوين.

لكن ومثلما وضح عالم اللغويات إريك أورباخ فإن "خلفية النصّ مشحونة بالخبايا"، بمعنى أن ما لم يُقل في هذا المشهد هو أكثر بكثير ممّا قيل فيه،¹ والتوراة لم تتكلم بين صفحاتها بهذا العمق والاستغراق كما تكلمت عن عملية الخداع التي تعرّض لها يتسحق وابنه عيسف، فالأب والابن يختلجها الشعور نفسه، وهو تعرّضهما للخيانة، فيقترب عيسف بمنتهى الشغف من أبيه ليباركه، بينما ينهض يعقوف ليأخذ البركة بدلاً من أخيه. وفي ظلّ عاطفة الحبّ المتينة التي تجمع يتسحق بابنه عيسف، فإن السؤال الذي يطرح نفسه بقوة هنا: لماذا أحبّ يتسحق ابنه عيسف رغم كل ما ذكرناه، رغم بربريته وعدم استقراره وزواجه من نساء قبيلةٍ غير مرغوبٍ فيها؟

1. Erich Auerbach, Mimesis: The Representation of Reality in Western Literature, translated by Willard R. Trask (Princeton: Princeton UP, 1953).

لقد بيّن لنا كبارُ الحاخامات الإجابة عن هذا السؤال، حيثُ فسّروا عبارة "كان رجلاً عارفاً بالصّيد" (المذكورة في الآية السابعة والعشرين من المقطع الخامس والعشرين) بأنها تعني أن عيسف قد خدع يتسحق وأوقعه في الفخّ حين تظاهر بأنه مُتديّن، لكن لم يكن تدبّنه في الحقيقة بتلك الدرجة التي يُظهرها أمام أخيه.² في الوقت نفسه يوجد تفسيرٌ مُختلفٌ لكته أكثر إثارةً للمشاعر ويتوافق مع روح النص: لقد أحبّ يتسحق ابنه عيسف لأنه كان ابنه، وهذا ما يشعُر به الآباء تجاه أبنائهم بشكلٍ تلقائيٍّ، فهم يحبّونهم دون قيدٍ أو شرطٍ، لكن هذا لا يعني بالضرورة أن يتسحق لم يكن يدرك عيوب وسلبيات شخصيّة ابنه عيسف، وهذا يُجعلنا نفترض بأن يتسحق لم يكن يعتقد بأن عيسف هو الشخص المناسب ليكمل مشوار العهد مع الله عزّ وجلّ، وهذا أيضاً لا يعني أنّ يتسحق لم يكن يتألّم عقب زواج ابنه عيسف نساءً من قبيلة الحيثيين، فالنصّ يقول بصريح العبارة بأن يتسحق قد تألّم جداً نتيجة لذلك. في الوقت نفسه، فإن يتسحق يدرك تماماً أن الأب يتوجّب عليه أن يحبّ ابنه أياً كانت الظروف، لأنه ببساطة ابنه، وهذا الحبّ لا يتناقض أبداً مع انتقاد الأب لتصرفات الابن، إلا أن هذا الانتقاد لا يعني أن يتبرأ الأب من ابنه حتى لو خيّب الابن آمال أبيه، لهذا كان يتسحق يُعلّمنا درساً أساسياً جداً فيما يتعلّق بالأبوة.

لكن لماذا يتسحق تحديداً هو الذي يُعلّمنا درساً كهذا؟ لأنه يعلم أن أباه أفرهام قد أبعده ابنه يشمّعئيل/إسماعيل عنه، ولربّما كان يدرك جيداً حجم الألم الذي اعتصر قلب أفرهام وحجم الجرح الذي شعر به يشمّعئيل نتيجة ذلك. ويوجد عدد من تفاسير المِدراش البارزة التي توضّح لنا بأن أفرهام قد زار ابنه يشمّعئيل بعد أن أبعده، فيما يوضّح آخرون بأن يتسحق هو من توسّط بينهما حتى يتصالحا،³ لهذا كان يتسحق حريصاً جداً على ألا يواجه ابنه عيسف المصير ذاته.

بالتالي كان يتسحق يدرك تماماً الثمنَ النفسيّ الباهظ الذي دفعه والده والذي دفعه هو شخصياً بعد ما أراد والده التضحية به وتقديمه كقربانٍ لله عزّ وجلّ. وفي بداية المقطع الذي يُخبرنا عن قصّة يعقوف وعيسف، يوجد تفسيرٌ مِدراشي يوضّح لنا بأن الدّموع التي ذرفت الملائكة لرؤية أفرهام وهو على وشك التضحية بابنه رافعاً السكين على رقبتة قد دخلت إلى عيني يتسحق مُسببة له العمى بعد تقدّمه في العُمُر.⁴

لقد كان ذلك الاختبار الإلهي لأفرهام ضرورياً جداً، ولو لم يكن بتلك الدرجة من الضرورة لما طلب الله عزّ وجلّ من أفرهام القيام بذلك، لكن في الوقت نفسه فقد تركّ هذا الموقف جراحاً أليمة وندوباً نفسيّة عميقة جعلت يتسحق مُصرّاً على عدم التضحية بفلذة كبد عيسف. وبطريقة أو بأخرى، فإن حبّ يتسحق لابنه عيسف دون قيدٍ أو شرطٍ كان بمثابة تيكون (إصلاح أو رأب) لذلك الصّدع في

2. كما كان يسأله أيضاً: "أبي، كيف بإمكانني أن أخرج ضريبة العشر بالنسبة للملح والتبن؟ مع العلم بأنهما معفيان من هذه الضريبة. بالتالي كان يعتقد يتسحق بأنه يطرح مثل هذه الأسئلة من باب الدقة في قراءته وملاحظته للوصايا.

3. انظر هذا الكتاب للحاخام جوناثان ساكس: .

See Jonathan Sacks, Not in God's Name: Confronting Religious Violence (New York: Schocken Books, 2017), 107–124.

4. سفر التكوين - رابا 10:65.

العلاقة بين الأب وابنه والتي خَلَفَتْهَا قِصَّةُ التَّضْحِيَةِ بِهِ عَلَى يَدِ وَالِدِهِ. بِالتَّالِي، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ طَرِيقَ عَيْسَى لَمْ تَكُنْ نَفْسَهَا طَرِيقَ الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِلَّا أَنَّ نِعْمَةَ الْحَبِّ الْأَبَوِيِّ الَّتِي يَمْتَّازُ بِهَا يَتَسَخَّرُ قَدْ مَهَّدَتْ الطَّرِيقَ لِلْجِيلِ الْقَادِمِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَظَلُّوا مُتَمَسِّكِينَ بِهَذَا الْعَهْدِ.

وَيُوجَدُ نِقَاشٌ مُذْهِلٌ جَدًّا بَيْنَ اثْنَيْنِ مِنْ كِبَارِ حَاخَامَاتِ الْمِشْنَاهِ وَحُكْمَائِهَا تَعْقِيبًا عَلَى هَذِهِ النِّقْطَةِ، حَيْثُ تَقُولُ الْآيَةُ الْأُولَى مِنَ الْمَقْطَعِ الرَّابِعِ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ التَّثْنِيَةِ فِي وَصْفِ الْيَهُودِ: "وَإِذْ أَنْتُمْ أَبْنَاءُ (أَوْلِيَاءِ) اللَّهِ". وَتَعْقِيبًا عَلَى هَذَا الْوَصْفِ، يُوَضِّحُ الْحَاخَامُ يَهُودَهُ بِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ يَنْطَبِقُ عَلَى الْيَهُودِ فَقَطْ عِنْدَمَا يَتَصَرَّفُونَ بِطَرِيقَةٍ يَسْتَحَقُّونَ بِهَا وَصْفَ أَبْنَاءِ اللَّهِ، فِي حِينِ أَنَّ الْحَاخَامَ مَثِيرٌ يُوَضِّحُ بِأَنَّ هَذَا الْوَصْفَ غَيْرُ مُقْتَرَنٍ بِأَيِّ قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ: سِوَاءً تَصَرَّفَ الْيَهُودُ بِطَرِيقَةٍ تَنْتَاسِبُ مَعَ مَنْ يَسْتَحَقُّونَ وَصْفَ أَبْنَاءِ اللَّهِ أَمْ لَا، فَإِنَّهُمْ يَظَلُّونَ أَبْنَاءَ اللَّهِ بِجَمِيعِ الْأَحْوَالِ.⁵

وَكَانَ الْحَاخَامُ مَثِيرٌ الَّذِي آمَنَ بِعَدَمِ وُجُودِ قَيْدٍ أَوْ شَرْطٍ لِلْمَحَبَّةِ يَتَصَرَّفُ انْتِظَامًا مِنْ وَجْهَةِ نَظَرِهِ هَذِهِ، حَيْثُ قَامَ أَسْتَاذُهُ وَمُعَلِّمُهُ الْحَاخَامُ أَلِيْشَاعُ بْنُ أَبُويَا بِتَرْكِ الدِّينِ الْيَهُودِيِّ وَصَارَ مِنَ الْمَهْرُطَقِينَ، إِلَّا أَنَّهُ وَرَغْمَ تَرْكِهِ لِلدِّينِ فَقَدْ ظَلَّ مُوَاطِبًا عَلَى دِرَاسَةِ التَّوْرَةِ مَعَ الْحَاخَامِ مَثِيرٍ، فِي حِينِ ظَلَّ الْحَاخَامُ مَثِيرٌ يَحْتَرِمُهُ وَيُوقِّرُهُ جَدًّا حَتَّى آخِرَ لِحْظَةٍ مِنْ عُمُرِهِ. وَبِنَهَايَةِ الْمَطَافِ تَابَ الْحَاخَامُ بِنَ أَبُويَا وَعَادَ إِلَى الدِّينِ الْيَهُودِيِّ قَبْلَ وَفَاتِهِ.⁶

بِالتَّالِي حَتَّى نَفْهَمَ هَذِهِ الْفِكْرَةَ الْجَوْهَرِيَّةَ فِي الدِّينَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ، أَقْصِدُ فِكْرَةَ "أَفِينُو مَلَكِينُو" (أَيُّ أَبَانَا إِلَهُنَا وَمَلِكُنَا مِنْذُ الْأَزْلِ وَأَبِينَا لِلْأَبَدِ) فَإِنَّهُ يَتَوَجَّبُ عَلَيْنَا أَنْ نَبْذُلَ جُهْدًا كَبِيرًا مِنْ أَعْمَاقِ عَاطِفَتِنَا لِإِنْجَاحِ عِلَاقَتِنَا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَلَا شَكَّ بِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُوَاجِهُنَا بِنَفْسِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي يُوَاجِهُ بِهَا الْأَبَّ أَبْنَاءَهُ، وَنَحْنُ نَقُومُ بِالمِثْلِ وَبِالطَّرِيقَةِ ذَاتِهَا الَّتِي يُوَاجِهُ بِهَا الْأَبْنَاءُ آبَاءَهُمْ. وَمِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْعِلَاقَةَ لَهَا مَدٌّ وَجَزْرٌ، فَقَدْ تَتَّخَذُ طَابِعًا حَادًّا فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، وَفِي أُخْرَى قَدْ تَطْعَى عَلَى مَلَاحِمِهَا الصَّرَاحِ وَالْأَلْمِ، لَكِنْ مَا يَمْنَحُهَا هَذَا الْعُمُقُ هُوَ مَعْرِفَتُنَا الْمُسَبِّقَةَ بِأَنَّهَا عِلَاقَةٌ مَتِينَةٌ وَثِيْقَةٌ أَيًّا كَانَتْ الظُّرُوفُ الْمُحِيطَةُ بِهَا، فَهَمَّا حَصَلَ بَيْنَهُمَا يَظَلُّ الْأَبُّ أَبًا وَالابْنُ ابْنًا، وَمَهْمَا سَاءَتِ الْعِلَاقَةُ إِلَّا أَنَّهَا لَنْ تَصِلَ لِمَرِحَلَةِ الْانْقِطَاعِ نَهَائِيًّا.

وَلرَبِّمَا تَكُونُ هَذِهِ هِيَ الرِّسَالَةُ الَّتِي أَرَادَ يَتَسَخَّرُ بِإِصَالِهَا لِلْأَجْيَالِ الْآلِخَةِ مِنْ خِلَالِ مَحَبَّتِهِ لِابْنِهِ عَيْسَى، فَرَغْمَ عَدَمِ التَّشَابُهِ بَيْنَهُمَا، وَرَغْمَ الْاِخْتِلَافِ فِي شَخْصِيَّةِ وَمَصِيرِ كِلَيْهِمَا، إِلَّا أَنَّ يَتَسَخَّرُ لَمْ يُغْلِقْ بَابَ مَحَبَّتِهِ أَمَامَ ابْنِهِ عَيْسَى، وَهَذَا مَا فَعَلَهُ أَقْرَاهَامُ الَّذِي لَمْ يَتْرُكْ ابْنَهُ يَشْمَعُئِيلَ/إِسْمَاعِيلَ.

وَدَوْمًا مَا كَانَ يَجِدُ طَرِيقَةً لِلتَّوَاصُلِ مَعَهُ بِحَسَبِ مَا نُخْبِرُنَا تَفْسِيرَاتِ الْمِدْرَاشِ. إِنْ عِلَاقَةُ الْمَحَبَّةِ غَيْرُ الْمَشْرُوطَةِ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ تَكُونُ عِلَاقَةٌ سَلْسَلَةٌ، وَهِيَ بِالطَّبَعِ لَيْسَتْ خَالِيَةً مِنَ الْاِنتِقَادَاتِ بَيْنَ طَرَفَيْهَا، لَكِنْهَا بِالتَّأَكِيدِ عِلَاقَةٌ وَثِيْقَةٌ مَتِينَةٌ، فَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مَحَبَّةُ الْآبَاءِ لِأَبْنَائِهِمْ، وَهَكَذَا هِيَ مَحَبَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَنَا.

5. Kiddushin 36a

6. Y. Hagiga 2:1

فأيتسيه

هو النصّ الأسبوعي السابع من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعيّ بالآية العاشرة من المقطع الثامن والعشرين وينتهي بالآية الثالثة من المقطع الثاني والثلاثين.

كيف يدخل النور إلى قلوبنا

لماذا اختار الله عزّ وجلّ يعقوف/يعقوب على وجه التّحديد؟ هذا هو السؤال الذي يظلّ يُراودنا باستمرار أثناء قراءتنا القصص والروايات الموجودة في سفر التكوين. في الحقيقة لم يكن يعقوف مثل نوح على سبيل المثال، والذي وُصِفَ بأنه الرجل المثاليّ الصالح بين أبناء جيله والذي سار مع الله عزّ وجلّ. كما أنّه لم يكن مثل أفرهام/إبراهيم، هذا الرجل الذي ترك أرضه ومسقط رأسه وبيت أبيه تلبيةً للنداء الإلهي. وهو ليس كأبيه يتسحق/إسحق الذي قدّم نفسه قرباناً لله عزّ وجلّ. ولم يكن كنبّي الله ورسوله موشيه/موسى الذي امتلأ من النخوة والمرورة منذ نعومة أظافره ما جعله يُدافع بكل ما أوتي من قوّة عن العدالة ضدّ الظلم. ورغم ذلك، فنحن نُعرّف أنفسنا كيهودٍ على أننا بنو إسرائيل، بنو يعقوف، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا يعقوف على وجه التّحديد؟

من وجهة نظري فإن الإجابة على هذا السؤال تبدو واضحة في الآيات الأولى من هذا النصّ الأسبوعيّ: لقد كان يعقوف يخوض غمار رحلة محفوفة بالكثير من المخاطر، كما ترك يعقوف بيته بعد أن أقسم أخوه عيسف/عيسو بأنه سيقتله بعد وفاة أبيهما يتسحق، في الوقت نفسه كان على وشك الدخول لبيت خاله لَقْن/لبان، وهذا كفيلاً بأن يجلب له المزيد من المخاطر. لقد كان يعقوف وحيداً بعيداً عن بيته وأهله، وخلال تلك المرحلة من حياته كان في قمة الضعف والوهن. وخلال لحظة معيّنة، تغرب الشمس ويحلّ الليل بينما هو مُستلقٍ على الأرض لكي ينام، وفي تلك اللحظة يرى يعقوف في منامه تلك الرؤية العظيمة بحسب ما تذكر الآيات 12-17 من المقطع الثامن والعشرون من سفر التكوين:

"فَرَأَى حُلُمًا، كَانَ سَلْمًا مَنْتَصِبًا عَلَى الْأَرْضِ، وَرَأْسُهُ يُدَانِي السَّمَاءَ، وَمَلَائِكَةُ اللَّهِ تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ. وَإِذَا بَنُورِ اللَّهِ واقِفٌ أَمَامَهُ، وَقَالَ: أَنَا اللَّهُ إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ أَبِيكَ، وَالْهَ يَتَسَحَّقُ، الْأَرْضُ الَّتِي أَنْتَ نَائِمٌ عَلَيْهَا، لَكَ أُعْطِيهَا وَلَتَسْلِكَ. وَيَكُونُ نَسْلُكَ كَثْرَابِ الْأَرْضِ، وَتَنُمُو غَرْبًا وَشَرْقًا وَشِمَالًا وَجَنُوبًا، وَيَتَبَارَكُ بِكَ جَمِيعُ عَشَائِرِ الْأَرْضِ وَبِنَسْلِكَ. وَأَنَا مَعَكَ وَأَحْفُظُكَ أَيُّنَمَا سَلَكَتَ، وَأُرْدُكَ إِلَى هَذَا الْبَلَدِ، لَا أَتْرُكَكَ إِلَى أَنْ أَفِي لَكَ بِمَا وَعَدْتُكَ. وَاسْتَيْقَظَ يَعْقُوفُ مِنْ نَوْمِهِ وَقَالَ: إِذَا نُورُ اللَّهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَأَنَا لَمْ أَعْلَمْ. فَخَافَ وَقَالَ: مَا أَخَوْفَ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَمَا هَذَا إِلَّا بَيْتُ اللَّهِ، وَهَذَا بَابُ السَّمَاءِ." (تبعاً لتفسير الحاخام سعاديا چاؤون)

لعلنا نلاحظ أن كلمة "هو ذا" قد تكررت أربع مرات في هذا الموقف، وتُقابلها كلمة "فهني" باللغة العبرية التي تمثّل لفظاً يُستخدم للتعبير عن المفاجأة. في الحقيقة لم يكن يعقوف جاهزاً لمثل هذا اللقاء، وهذا ما أكد عليه بنفسه حين قال: "نور الله في هذا الموضع وأنا لم أعلم". كما أن الفعل المُستخدم في بداية هذه الآيات كما جاء في اللغة العبرية "فأيفعا بمقوم" يحتمل معنى آخر، وهو معنى اللقاء غير المُتوقّع. ولاحقاً أصبحت كلمة "همقوم" (بمعنى المكان أو المقام) تعني الله في اللغة العبرية الحاخامية. لكن عبارة "فأيفعا بمقوم" قد تُفهم من منظور شعري بمعنى أن "يعقوف كان في لقاء غير مُتوقّع مع الله عزّ وجلّ". ولو أضفنا صراع يعقوف مع الملاك في الليل والمذكور في النصّ الأسبوعيّ التالي، فإن الإجابة على السؤال ستكون كاملة متكاملة: فيعقوف هو الشخصية التي مرّت بأعمق تجربة روحية بمفرده ليلاً في مواجهة المخاطر وقسوة البعد عن الوطن والأهل. لقد كان الشخص الذي التقى بالله عزّ وجلّ رغم أنه لم يتوقّع أبداً مثل هذا اللقاء، خاصة وأن تفكيره كان مُنشغلاً بالعديد من الأمور في ظلّ الذعر والخوف الذي كان يشعر به، بل كان على حافة اليأس والإحباط إن صحّ التعبير. لقد كان الرجل الذي أدرك في خضم تلك الرحلة بأن "نور الله في هذا الموضع وأنا لم أعلم"!

بالتالي أصبح يعقوف أباً ووالداً للشعب الذي حظي بأقرب لقاء مع الله عزّ وجلّ، هذا الشعب الذي وصفه موسى بأن الله عزّ وجلّ قد "كفاه في أرض البرية" تبعاً لما تذكره الآية العاشرة من المقطع الثاني والثلاثين من سفر التثنية.

لقد ظلّ الوجود اليهودي قائماً على الرغم مما مرّ به اليهود من النفي والشتات المُتكرر، وهذا بحد ذاته أمر استثنائي مُنقطع النظير، لكنهم في خضم ذلك الشتات كانوا يتساءلون دوماً: "كيف نُرنم تزيمة الله في أرض غريبة؟" تبعاً لما هو مذكور في الآية الرابعة من المقطع مئة وسبعة وثلاثون من سفر المزامير. لكنهم سرعان ما أدركوا بأن "الشخيناه" (أي الحضور الإلهي وسكينة الله عزّ وجلّ) كانت تُحيط بهم من كل جانب، وعلى الرغم من فقدانهم لكل شيء إلا أنّهم لم يفقدوا الصلة الروحانية بالله عزّ وجلّ. لقد أدركوا بأن "نور الله في هذا الموضع وأنا لم أعلم".

لقد منح أفرهام اليهود الجرأة على الوقوف في وجه أصنام وطواغيت كل زمان وعصر، كما منحهم يتسحق القدرة على التضحية بالنفس، والحال نفسه بالنسبة لنبيّ الله ورسوله موسى الذي علمهم كيف يُقاتلون بحماسة في سبيل تحقيق العدالة. لكن يعقوف علم اليهود أمراً مُختلفاً تماماً: لقد علمهم ماذا يفعلون في أوقات الوحدة، علمهم بأن الله لا زال معهم مانحاً إياهم الجرأة والأمل والقوة ليحلموا بَعْدِ مُشرق، وهذا ما عبّر عنه الملك دافيد/داوود بمُنتهى الجمال والبلاغة في سفر المزامير حين كان يبتهل إلى الله عزّ وجلّ مراراً وتكراراً مُتضرّعاً إليه من عمق الظلام الحالك، في وقت كان فيه وحيداً يائساً مُتألماً تتملكه مشاعر الذعر والخوف من كل جانب، حيث قال تبعاً للآيتين الثانية والثالثة من المقطع التاسع والستين من سفر المزامير:

"خَلّصني يا الله لأنّ الميآه قد دخلت إلى نفسي. غرقت في حمأة عميقة،
وليس مفرّ. دخلت إلى أعماق الميآه، والسيلُ غمرني.
تعبت من صراخي، يبس حلقى، كَلت عيْناي من انتظار إلهي."

والأمر نفسه تذكره الآية الأولى من المقطع مئة وثلاثون من سفر المزامير:

"مِنَ الْأَعْمَاقِ صَرَخْتُ إِلَيْكَ يَا رَبَّ".

أحياناً نمرّ بأعمق التجارب الروحية خلال أوقات لا نتوقعها أبداً، في أوقات نكون فيها قريبين جداً من اليأس والإحباط، وفي مثل هذه اللحظات تسقط الأقنعة التي نرتديها، ونكون في قمة ضعفنا ووهننا، وهذه اللحظات التي نكون فيها في قمة الانفتاح تجاه الله عز وجل، وهي اللحظات نفسها التي يكون الله عز وجل مُنْفِتِحاً تجاهنا، مصداقاً لما جاء في الآية الثامنة عشرة من المقطع الرابع والثلاثين من سفر المزامير والتي تقول: "قَرِيبٌ هُوَ اللَّهُ مِنْ مُنْكَسِرِي الْقُلُوبِ، وَيَخْلَصُ مُنْسَحِقِي الرُّوحِ"، وفي الآية السابعة عشرة من المقطع الواحد والخمسين: "دَبَّاحُ اللَّهِ هِيَ رُوحٌ مُنْكَسِرَةٌ. الْقَلْبُ الْمُنْكَسِرُ وَالْمُنْسَحِقُ يَا اللَّهُ لَا تَحْتَقِرْهُ". وفي الآية الثالثة من المقطع مئة وسبعة وأربعين: "سَبِّحُوا اللَّهَ، لِأَنَّ التَّرْنُمَ لِلَّهِ صَالِحٌ. لِأَنَّهُ مُلِدُّ، التَّسْبِيحُ لِأَنَّ".

وفي السياق نفسه كان الحاخام نَحمان من بريسلوف / براتسلاف يقول دوماً:

"يجب على المرء أن يبكي لأبيننا في السماوات مُتَضَرِّعاً بصوتٍ قَوِي نابع من أعماق قلبه، عندها سَيُنصِتُ اللَّهُ لِصَوْتِهِ وَيَسْتَجِيبُ لِتَضَرِّعَاتِهِ. وقد يكون هذا التضرُّعُ بحدِّ ذاته سبباً لإزالة الشكوك وإزاحة العقبات التي تحول بين المرء وعِبَادَتِهِ لِلَّهِ عز وجل (هَاشِم) 1".

في الحقيقة، فإننا لا نجدُ الله في دور العبادة والأماكن المقدَّسة فحسب، بل نجده أيضاً في خِصَمِّ رحلته نخوضُ غمارها في ليلةٍ من الليالي الحالكة بمفردنا، مصداقاً لما تذكره الآية الرابعة من المقطع الثالث والعشرين من سفر المزامير: "أَيْضاً إِذَا سِرْتُ فِي وَادِي ظِلِّ الْمَوْتِ لَا أَخَافُ شَرًّا، لِأَنَّكَ أَنْتَ مَعِي". لهذا فإن أحد أبرز التجارب الروحية التي نمرّ بها بل وأكثرها عمقاً تتمثل في شعورنا بأننا لَسْنَا وَحَدْنَا، وبأن الله عز وجل يُمسِكُ بيدنا وَيُظِلُّنَا بِحِمَايَتِهِ، ويندشِلُنَا حين نَسْقُطُ ويعفو عَنَّا حين نَفْسَلُ، وأن عُنْفَوَانَ محبته لنا كفيلاً بمداواة جراح أرواحنا.

لم يكن والدي - رحمه الله وطيب ذكره - رجلاً مُتعلِّماً، حيث لم يحظْ بفرصة التعليم عندما لجأ إلى بريطانيا وهو طفل صغير، فاضطرَّ لترك المدرسة منذُ نعومة أظافره، بالإضافة إلى أن فرصة الحصول على تعليم ديني يهودي كانت محدودة جداً بالنسبة له، وكان الكيفاح من أجل البقاء هو الهَمُّ الأوَّل لعائلي آنذاك. لكنني كنتُ أراه دوماً رافعاً رأسه مُفتخراً بيهوديته دون خوفٍ أو وجل، والسبب وراء ذلك الشعور يكمن في قراءته لسفر المزامير أثناء الصلاة، تلك الآيات التي كانت تمنحه الثقة العميقة بوجودِ الله إلى جانبه.

لقد منحه إيمانه - رغم بساطته - شعوراً عميقاً بالكرامة والقوة والإرادة، وهذا ما ورثه أبي عن يعقوف، وهذا ما ورثناه نحنُ اليهودُ عنه أيضاً، وحتى عندما نهوي فإننا نشعرُ بأن أيدي الله عز وجل

1. Rabbi Nahman of Bratslav ,Likkutei Maharar.2:46

تتلقّفنا لتحمينا من السقوط. وحتى حين يفقدُ البعضُ إيمانهُ بنا، وحينَ نفقدُ إيماننا وثقتنا بأنفسنا، فإن الله عزّ وجلّ لن يفقدَ ثقتهُ بنا أبداً. وحتى حين يتملّكنا شعورٌ عميقٌ بالوحدة، فإننا فعلياً لسنا بمُفردنا أبداً، فاللهُ عزّ وجلّ موجودٌ بجانبنا وفي أعماقنا، يحثنا على النهوضِ والمضيّ قُدماً لنُنجزَ ما هو مطلوبٌ مِنّا لإنجازه، ونُحقّق ما هو مطلوبٌ منا تحقيقه، تلك الغايات التي خُلِقنا كبشرٍ من أجل تحقيقها. وفي هذا الصدد أستذكرُ ما قاله مُعنيّ الجيل حينما كُنْتُ شاباً ليونارد كوهين² الذي قال في قصيدة anthem (أي النشيد الوطني): "يوجدُ صدعٌ في كل شيء، ومن خلال هذا الصدعِ يتسلّلُ التّور". إن القلبَ المُنكسرَ يُفسِحُ المجالَ لنورِ اللهِ حتى يدخلَ إليه، ليُصبح بعدها بوّابةً نحو السّماء.

2. ليونارد كوهين في قصيدته "النشيد الوطني".

فايشلاخ

هو النصّ الأسبوعي الثامن من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الرابعة من المقطع الثاني والثلاثين وينتهي بالآية الثالثة والأربعين من المقطع السادس والثلاثين.

الشُّعُورُ بِالْخَوْفِ

إنها واحدة من أكثر حلقات التوراة غموضاً، لكنها واحدة من أكثر الأحداث أهمية، كونها اللحظة التي مُنِح فيها اليهود اسمهم: بنو إسرائيل (أي بنو يعقوف/يعقوب). إنه إسرائيل الذي "لا يُسمّى اسمك أبداً يعقوف فقط، بل إسرائيل، لأنك ترأست عند الله وعند الناس وطقت ذلك" تبعاً لما هو مذكور في الآية الثامنة والعشرين من المقطع الثاني والثلاثين من سفر التكوين.

لقد كان يعقوف في قمة الدَّعر والخوف حين عَلِم بأن أخاه عيسف/عيسو قادم للقائه جالباً معه جيشاً قوامه أربعمئة رجل، وتبعاً لما تذكر التوراة في الآية السابعة من المقطع الثاني والثلاثين من نفس السفر: "فرجع الرُّسل إلى يعقوف قائلين: صرنا إلى أخيك، إلى عيسف وإذا به ماضياً تلقاءك، ومعه أربعمئة رجل". بالتالي قام يعقوف بالتحضير لهذه المواجهة عبر ثلاثة أمور: حاول استرضاء أخيه، وبدأ يتضرع داعياً لله عز وجل، ثم جهّز نفسه للحرب (تبعاً لما يذكره الحاخام شلومو يتسحقي في تفسيره للآية التاسعة)، فبدأ أولاً بإرسال هدية ثمينة جداً لأخيه عيسف كانت عبارة عن قطيع كبير من البقر والماشية في محاولة منه لاسترضائه، ثم بدأ يتضرع إلى الله عز وجل قائلاً: "أنقذني، فها أنا أصلي من أرض أخي" تبعاً لما هو مذكور في تفسير الآية الثانية عشرة من نفس المقطع ونفس السفر. وبعد ذلك بدأ التجهيز للحرب عبر تقسيمه لجماعته إلى مُعسكرين، على أمل أن ينجو قسم منهما على الأقل في حال نشبت الحرب مع عيسف.

لكن هذا لا ينفي حقيقة شعور يعقوف بالقلق الشديد، خاصة وأنه وحيدٌ يُصارعُ الغريب حتى مطلع الفجر. بصراحة فإن هوية هذا الغريب ظلت مُبهمة أيضاً، فالنصُّ التوراتي يصفه بأنه "رجل"، في حين يصفه النبي هوشع في سفره بأنه "ملاك" تبعاً لما تذكره الآية الخامسة من المقطع الثاني عشر، في حين وَضَح كبار حاخامات اليهود بأن هذا الغريب هو الملاك الحارس لعيسف،¹ بيد أن يعقوف كان يبدو مُتيقناً من أنه واجه الله عز وجل وجهاً لوجه*، مُطلقاً اسم "پنيئيل" (أي وجه الله) على المكان

1. بريشيت راباه، 77:3

* ملاحظة توضيحية من المُترجم: استناداً إلى ما جاء في سفر بريشيت (سفر التكوين) فقد مُنِح يعقوف/يعقوب اسمه الآخر إسرائيل بعد واقعة المواجهة مع الملاك، حيث نجى فيها ونال البركة من الملاك (تبعاً لما تذكره الآية التاسعة والعشرون من المقطع الثاني والثلاثين من سفر التكوين)

الذي حدثت فيه تلك المُواجهة، قائلاً: "فدعا يعقوف اسم المكان بنيئيل، قائلاً: لأني نظرت الله وجهاً لوجه، وَنَجِيَتِ نَفْسِي"، تبعاً لما تذكره الآية الثلاثون من المقطع الثاني والثلاثين من سفر التكوين.

بالتالي يوجد عدد من التفاسير المُختلفة لهذه الواقعة، لكن يوجد تفسيرٌ واحدٌ من بين تلك التفاسير أجدهُ أكثرها روعةً من حيثُ الأسلوب والمضمون، وهو التفسير الذي وضحهُ الحاخام شموئيل بن مئير (المعروف باسم راشبام من فرنسا، 1085م – 1158م) وهو حفيدُ الحاخام الكبير شلومو يتسحاق المعروف بالحاخام راشي. في الحقيقة يمتلكُ راشبام أسلوباً فذاً أصيلاً في التطرُق للتفاسير التوراتية،² حيث شعرَ بأنَّ كبار الحاخامات لم يَنجحوا في الوصول فعلياً إلى ما وصفهُ راشبام بأنه *عومقٍ بِشوتوه شيل مقرا* (بمعنى تبين الوجه البسيط للنصِّ التوراتي بمنتهى الوضوح والعُمق) خلال قراءتهم المعمقة للنصوص التوراتية لاستنباط التشريعات التوراتية وتأثير ذلك عليها.

لقد استشعرَ راشبام التوجُّه الذي كان يتبناه جدُّه أحياناً متأثراً بالتوجه المِدراشي للتفسير، حيث لم تكن قراءته للنص قراءة "بسيطة" كما يجب، موضَّحاً لنا بأنه لطالما ناقشَ فكرة البساطة مع جدِّه الحاخام راشي، والذي - أي الحاخام راشي - اعترف بأنه لو امتلكَ الوقت الكافي لكان سيضيفُ المزيدَ من التفاسير التوراتية على ضوء أفكاره وآرائه الجديدة التي يستنبطها من المستوى البسيط للنصوص كل يوم، لأنها الأفكار والآراء المُستنبطة من المستوى البسيط للنصوص تتأثَّر باختلاف مُجريات الحياة من زمنٍ لآخر. في الحقيقة فإن هذه الفكرة توضَّح لنا جانباً مُذهلاً من عقلية الحاخام راشي الذي يُعدُّ واحداً من أعظم مفسري التوراة في تاريخ الدراسات الدينية الحاخامية اليهودية.

إنَّ ما ذكرتهُ آنفاً هو بمثابة تمهيدٍ لكيفية قراءة الحاخام راشبام وتفسيره لما حدث في الليلة التي وقعت فيها تلك المُواجهة، تلك القراءة التي يعتبرها مثلاً على ما وصفهُ روبرت ألتر بأنه "المشهدُ النمطي"³، والذي يُقصدُ به حالة النمطية المُتكررة لعدد من الأحداث التي دُكرت في التناخ، على سبيل المثال مشهد تعرّف الرّجل على زوجةٍ مستقبلية في مُحيطٍ بئرٍ للماء، وهو مشهدٌ تكرر في ثلاثة مواقف مُختلفة في التوراة: حين التقى خادمُ أفرهام أليعيزر بزوجة يتسحق رفقه/ رفقة، وحين تعرّف يعقوف على زوجته راحيل، وحين التقى نبيُّ الله ورسوله موشيه بزوجته تسيبوره/ صفورة. ولنكون دقيقين أكثر فإنه يوجدُ بعض الاختلافات بين أحداث المواقف الثلاثة، لكن القواسم المُشتركة بينها كافيةٌ لتجعلنا نُدركُ أننا نتعاملُ مع عادةٍ يوجدُ إجماعٌ عليها حينها. وهناك نمطٌ آخرٌ تكررُ بضع مرّات في التناخ، وهو أن تُلد امرأةٌ عاقرٌ بطلاً من أبطال التاريخ اليهودي.

ويرى الحاخام راشبام في هذه النمطية وسيلة لفهم ما حدث مع يعقوف في تلك الليلة، وذلك عبر ربطها بحدثٍ آخر من أحداث التناخ، أو حدثين لنكون دقيقين أكثر: الحدثُ الأول هو قصة الرّسول يونا/ يونس، أما الحدثُ الثاني فهو قصة نبي الله ورسوله موشيه في طريقه للعودة إلى مصر،

2. يتوسع راشبام في توضيحه للتفسير في 37:2

3. انظر كتاب (The Art of Biblical Narrative) (فن الرواية التوراتية)

حيث تُخبرنا التوراة في الآية الرابعة والعشرين من المقطع الرابع من سفر الخروج التالي:

"ولما كان بطريقه، في المبيت، فاجأ ولده ملك الله فطلب قتله"، حيث أنقذت تسيبوره زوجها موشيه عندما "قطعت قلفة ابنها" امتثالاً لما يُمليه العهد الإبراهيمي مع الله عز وجل، تبعاً لما هو مذكور في الآيتين الخامسة والعشرين والسادسة والعشرين من نفس المقطع ونفس السفر.⁴

هذه القصة هي بمثابة المفتاح لفهم بقية القصص الأخرى، حين حاول النبي يونا التملص من تنفيذ مهمته متوجهاً إلى منطقة نينوى ليحذر أهلها بأن مدينتهم ستهلك في حال لم يتوبوا إلى الله عز وجل. وبالفعل توجه يونا إلى منطقة ترشيش عبر القارب، لكنه واجه في طريقه عاصفة شديدة أرسلها الله عز وجل لتغرق قاربه، فغرق النبي يونا في البحر وابتلعهُ حوتٌ ثم قذفهُ خارج جوفه لاحقاً وهو حي، حينها فقط أدرك استحالة الفرار من الله.

ويوضح الحاخام راشبام بأن الأمر نفسه ينطبق على النبي موشيه الذي كان مُتردداً في تنفيذ ما طلبه الله منه في قصة العليقة المشتعلة (الكلمة المذكورة في التوراة لوصف هذه المعجزة هي "سنيه"). وبشكل لا يدع مجالاً للشك، كان النبي موشيه يحاول المراوغة حتى بعد انطلاقه في الرحلة، الأمر الذي جعل الله عز وجل غاضباً منه. والأمر نفسه حدث بالنسبة ليعقوف، فتبعاً لتفسير راشبام فإنه كان خائفاً من مواجهة أخيه عيسف على الرغم من طمأنية الله عز وجل له، إذ لم يمتلك الجرأة الكافية للمواجهة ففر هارباً، لهذا أرسل الله ملاكاً إلى يعقوف ليمنعه من الهرب.

في الحقيقة إنه تفسير مُميز جداً ويحمل بين طياته مدلولات ومضامين في مُنتهى الرصانة والقوة، فها نحن نتحدث عن ثلاثة رجال عظماء وهم يعقوف وموشيه ويونا، لكنهم رغم عظمتهم إلا أنه كان يملكهم الخوف الشديد تبعاً لتفسير راشبام. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: الخوف من ماذا؟ خاصة وأن أياً منهم لم يكن جباناً. لقد كانوا خائفين بالدرجة الأولى من المهمة التي أوكلها الله عز وجل لهم، فموشيه كان يتحدث إلى الله عز وجل خلال واقعة العليقة المشتعلة قائلاً: مَنْ أكون أنا حتى أفعل هذا؟ لن يؤمن هؤلاء القوم بي أبداً، خاصة وأني لست رجلاً فصيحاً في الكلام. والحال نفسه بالنسبة للنبي يونا الذي كان متردداً جداً في حمل الرسالة التي أمره الله عز وجل أن يحملها لأعداء إسرائيل، ويعقوف هو الآخر قد تصرف بالمثل حين خاطب الله قائلاً: "أنا أقل من استحقاق الفضل والاحسان الذي صنعته مع عبدك" تبعاً لما تذكره الآية العاشرة من المقطع الثاني والثلاثين من سفر التكوين.

كذلك لم يكن يعقوف وموشيه ويونا وحدهم الذين تملكهم الخوف حين مروا بتجارب مماثلة تبعاً لما يذكره التناخ، فالنبي يشعياهو/أشعيا كان يتحدث بمُنتهى الذعر حين كان يُخاطب الله عز وجل قائلاً: "وَيْلٌ لِي! إني هلكت، لأني إنسان نجس الشفتين، وأنا ساكن بين شعب نجس الشفتين، لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود" تبعاً لما تذكره الآية الخامسة من المقطع السادس من سفر أشعيا.

4. راشبام في تفسيره لبريشيت 32:29. راشبام يُصمّنُ حادثة بلعام كقصة نمطية أخرى متكررة الحدوث.

والحال نفسه بالنسبة للنبي يرمياهو/ إرميا حين قال "إِنِّي لَا أَعْرِفُ أَنْ أَنْتَكَمَّ لِأَنِّي وَلَدٌ" تبعاً لما تذكره الآية السادسة من المقطع الأول من سفر إرمياء.

إن ما عبّروا عنه لم يكن خوفاً ملموساً بقدر ما كان خوفاً تملكهم نتيجة إحساسهم بالقصور وعدم امتلاكهم الكفاءة اللازمة للقيام بما طلب الله عزّ وجلّ منهم القيام به، وهذا ما يبدو في كلام موسى حين سأل الله قائلاً: "مَنْ أَكُونُ أَنَا لِأَقْوَدَ الْيَهُودَ؟"، كذلك هي نبرة الخوف ذاتها التي تبرز في كلمات الأنبياء والرسل حين كان يتساءل كل منهم قائلاً: "مَنْ أَكُونُ أَنَا لِأَحْمِلَ رِسَالَةَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟"، وهي أنها نبرة الخوف ذاتها التي تبدو في كلام يعقوف حين قال لله عزّ وجلّ: "مَنْ أَكُونُ أَنَا حَتَّى أَقِفَ فِي وَجْهِ أَخِي عَيْسَى، مَعَ الْعِلْمِ أَنِّي أَنَا مَنْ سَيُكْمِلُ مَسِيرَةَ الْعَهْدِ مَعَ اللَّهِ؟".

وفي بعض الأحيان نجد أن العظماء يمتلكون قدراً محدوداً من الثقة بالنفس، لأنهم يدركون تماماً ضخامة المسؤولية الملقاة على عاتقهم وشعورهم بأنهم لا يُذكرون أمام عظمة تلك المسؤولية. لكن الجرأة لا تعني بالضرورة عدم شعور الإنسان بالخوف، بل تعني القدرة على تجاوز ذلك الخوف. وإن صحّ هذا المبدأ بالنسبة للجرأة فيما يتعلّق بالمسائل المادية الملموسة، فالمبدأ نفسه ينطبق على الجرأة الأخلاقية والروحانية، وهنا أقتبس مقولة ثلاثم هذا السياق للكاتبة الأمريكية ماريان ويليامسون، حيث تقول:

"إنّ أكبر مخاوفنا هو شعورنا بالتقصص، شعورنا بأننا نمتلك قوّة تتخطى كل الحدود، وما يُخيفنا فعلاً هو النور لا الظلام. إننا نسأل أنفسنا باستمرار: من أنا حتى أمتلك هذا القدر من الذكاء والجمال والموهبة والروعة؟ لكن السؤال الذي يجب أن تسأله لنفسك: مَنْ أَنْتَ حَتَّى لَا تَمْتَلِكَ هَذِهِ الصِّفَاتِ؟ فَأَنْتَ ابْنُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَتَحْقِيقُكَ لِنَفْسِكَ وَإِمْكَانِيَاتِكَ لَنْ يَنْفَعِ الْعَالَمَ شَيْئاً، بَلْ إِنْ قِيَامَ الْمَرْءِ بِتَحْقِيقِ ذَاتِهِ وَقُدْرَاتِهِ لَنْ يَجْعَلَ الْمُحِيطِينَ بِهِ يَشْعُرُونَ بِالِاسْتِقْرَارِ أَوْ الْأَمَانِ، لِأَنَّ خُلُقَنَا لَنْ كُونَ بَرَاقِينَ مُشْرِقِينَ كَمَا الْأَطْفَالُ. لَقَدْ خُلِقْنَا لِنُجَسِّدَ عِظَمَةَ اللَّهِ الْمَوْجُودَةِ فِي أَعْمَاقِنَا، هَذِهِ الْعِظَمَةُ مَوْجُودَةٌ فِي أَعْمَالِ جَمِيعِ الْبَشَرِ دُونَ اسْتِثْنَاءٍ. وَحِينَ نُطَلِّقُ الْعِنَانَ لِهَذَا النُّورِ لِكَيْ يَكُونَ بَرَاقاً فَإِنَّا نَمْنَحُ الْإِذْنَ تَلْقَائِيّاً لِلْبَقِيَّةِ كَيْ يَفْعَلُوا الْأَمْرَ ذَاتَهُ، وَكَمَا تَحَرَّرْنَا مِنْ مَخَافِنَا فَإِنْ وَجُودُنَا سَيُؤَدِّي بِشَكْلِ تَلْقَائِيٍّ إِلَى تَحْرِيرِ الْآخَرِينَ مِنْ هَذِهِ الْمَخَافَةِ".⁵

ويكاد يكون شكسبير أفضل من تطرّق لهذه المسألة حين قال:

"لا تخش العظمة، فالبعض يولدون عظماء والبعض يسعون جاهداً ليكونوا عظماء، والبعض الآخر تُفرض عليهم العظمة".⁶

5. William Shakespeare , *Twelfth Night* ,act 2, scene 5

6. Marianne Williamson , *A Return to Love* (New York: HarperCollins, 1992), 190

إنني أشعر أحياناً بأن البعض يترك الديانة اليهودية تحديداً لهذا السبب، سواء أكان قرارهم ذلك وهم في حالة من الوعي أو اللاوعي، مُتسائلين بينهم وبين أنفسهم: من نحنُ لنكون الشاهدين على وجود الله عزّ وجلّ أمام العالم بأسره؟ من نحنُ لنكون المنارة لباقي أمم الأرض؟ من نحنُ لنكون قُدوة لهم؟ وإن كان آباؤنا الروحانيون مثل يعقوف وموشيه ويونا قد حاولوا الهرب، فماذا نقول أنا وأنت؟ بالتالي فإن هذا الشعور بالنقص وعدم القيمة هو واحدٌ من المشاعر التي لا بُدَّ وأن يشعر بها أحدنا خلال وقتٍ من الأوقات. لكن السبب في خَطأ هذا الشعور يكمنُ في كونه غير حقيقي، فلا بُدَّ وأن كل إنسانٍ يشعر بأنه غيرُ قادرٍ أو غير مؤهّل على القيام بما هو موكلٌ إليه في بداية الأمر، لكن ما يجعلنا عظماء هو امتلاكنا للجرأة الكافية التي تمكّننا من تجاوز هذا الشعور على وجه التحديد، فالقادة يتقدّمون في مجال القيادة كلّما قادوا، والكتّاب يتقدّمون في مجال الكتابة كلّما كتبوا، والمعلّمون يتقدّمون في مجال التعليم كلّما علّموا. وكلما تمكّننا من تجاوز ذلك الشعور بعدم القدرة وعدم الكفاءة على القيام بأمر ما، كلّما وجدنا أنفسنا نخوض غماره، مُكتسبين العظمة والرفعة أثناء القيام به.

وهناك عنوان لأحد الكتب المعروفة يقول "أشعر بالخوف وقم به بجميع الأحوال"⁷ (Feel the Fear and Do It Anyway) لهذا، إياك وأن تخش العظمة، فلأجلها واجه الله عزّ وجلّ يعقوف وموشيه ويونا ولم يسمَح لهم بالهرب. ولربّما لم نولد عظماء، لكن كوننا وُلدنا يهوداً - أو حين يعتنق أحداً ما اليهودية - فإن تلك العظمة تُصبح مفروضة علينا ولا مناص للهرب منها. وقد صدقت ماريان ويليامسون حين قالت بأن تحريرنا لأنفسنا من الخوف سيساعدنا على تحرير الآخرين، وهذا ما وجدنا نحنُ اليهودُ لأجله: لقد وجدنا لنمتلك الجرأة على أن نكون مُختلفين، لتتحدّى طواغيت كلّ عصر، لنكون مُتمسكين بعقيدتنا بينما نُحاول جاهدين أن نكون كالبركة التي تحلّ على غيرنا بغضّ النظر عن مُعتقداتهم. لهذا حَمَلنا - نحنُ اليهودُ - اسم يعقوف (يسرائيل) صاحب المكانة العظيمة عند الله بعد أن أثبت جدارته لاستحقاق تلك المكانة، فصارع الله والرجال وطاق ذلك.*

إن مهمتنا كيهودٍ ليست سهلة على الإطلاق، لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف لأي مهمة قيمة أن تكون سهلة؟ إننا عظماء بقدر عظمة التحديات التي نواجهها، وحتى لو شعرنا في بعض الأحيان بالرغبة في الهرب فإنه لا يجب علينا أن نمتعض من ذلك، فهذا هو الشعور الذي كان يختلج صدور العظماء أيضاً. بالتالي فإن الشعور بالخوف هو شعور مقبول وعاديّ جداً، لكن السماح له بالسيطرة علينا هو أمر غير مقبول أبداً، والله عزّ وجلّ يثقُ بنا حتى لو شعرنا الأفضلُ منّا بانعدام ثقتهم بأنفسهم.

7. Susan Jeffers ,(Feel the Fear and Do It Anyway) New York: Random House, 2017.

* ملاحظة توضيحية من المُترجم: استناداً إلى ما جاء في سفر بريشيت (سفر التكوين) فقد مُنح يعقوف/ يعقوب اسمه الآخر يسرائيل بعد واقعة المواجهة مع الملاك، حيث نجى فيها ونال البركة من الملاك (تبعاً لما تذكره الآية التاسعة والعشرون من المقطع الثاني والثلاثين من سفر التكوين

فأيشيف

هو النصّ الأسبوعي التاسع من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع السابع والثلاثين وينتهي بالآية الثالثة والعشرين من المقطع الأربعين

كيف نُغَيِّرُ العَالَمَ؟

توجد مقولة للحاخام موشيه/موسى بن ميمون تعتبر من أقوى المقولات وأكثرها تأثيراً في عالم المؤلفات الدينية، حيث قالها في سياق توضيح "هلخوت تشوفاه" (تشريعات وقوانين التوبة) تبعاً للشريعة اليهودية. وتبعاً لما فسره في هذه المقولة، فإن الحكم على العالم عموماً والإنسان خصوصاً مُقترنٌ بالصفة التي تتسم بها غالبية أفعالنا، فيقول في هذا الصدد:

"يجب على كلّ إنسان أن يُقيّم نفسه كلّ عامٍ على اعتبار أن أعماله - وأعمال البشر جميعاً - مقسومة إلى نصفين مُتكافئين، النصف الأول هو الأعمال الصالحة والآخر هو الأعمال الطالحة. بالتالي فإن أي عمل يُقدّم عليه الإنسان من شأنه أن يُخلّ بتوازن الصلاح والطلاق، لا في حياته فحسب، بل في حياة البشرية جمعاء.¹ (في حال ارتكب عملاً طالِحاً فإن كفة الميزان سترجح للأعمال الطالحة، وبهذا سيكون سبباً فيما يحل من خراب ودمار به وبغيره من البشر. وفي حال قام بأمرٍ صالح، فإن الكفة ستميل لصالح الأعمال الصالحة، الأمر الذي سيجلبُ الخير والتجاة له ولغيره من البشر).

بالتالي فإننا نستطيع دوماً أن نُحدِثَ فرقاً هائلاً في كل شيء، وهذا أحد الأسس التي يجب أن يستند عليها تفكيرنا كبشر. في الوقت نفسه، توجد بعض الأمور التي قد تبدو لنا غريبة إذا ما فكّرنا بها من مُنطلق المنظور الذي يبدو لنا العالم من خلاله، فجميعنا نعلم بأنه حين ينظر أحدنا لنفسه سيجد واحداً من أكثر من سبع مليارات إنسانٍ على سطح هذا الكوكب في وقتنا الحالي، بالتالي من الطبيعي أن يتبادر إليه هذا السؤال: ما هو الفرق الذي بإمكاننا أن أصنعه في هذا العالم؟ إن الإنسان ممّا يكاد يكون كالموجة في المحيط، أو كذرة رملٍ على شاطئ البحر، بل ولا يتجاوز في حجمه مقدار ذرة غبارٍ في هذا الكون السرمدي، فهل من المعقول أن يُغيّر فعلٌ واحدٌ من أفعالنا مسار حياتنا بأكمله، بل ومسار البشرية جمعاء؟ الإجابة هي نعم بحسب ما يُخبرنا هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة.

بالرجوع إلى قصة يعقوب/يعقوب وأبنائه وتطور أحداثها، فإننا سنجد أن حالة التوتر بين الأبناء كانت في تصاعدٍ مُستمرّ كاد يصل إلى مرحلة العنف. لقد كان يوسف هو الابن الحادي عشر من

1. Maimonides ,Mishneh Torah, Hilkhoh Teshuva 3:4

أصل اثني عشر ابناً ليعقوف، وكان ابنه المفضّل بين البقية، فأحبّه يعقوف أكثر من غيره لأنه كان الابن الذي أنجبه وهو طاعنٌ في السن. كما كان في الوقت نفسه ابن زوجته الأولى التي أحبّها جداً راحيل، لهذا كان يعقوف "يُحِبُّ يوسُفَ أكثر من الجميع" تبعاً لما تذكره الآية الثالثة من المقطع السابع والثلاثين من سفر التكوين. وكان باقي الأبناء يعلمون هذا جيداً، مما جعلهم مُمتعضينَ جداً من محبة أبيهم لأخيهم يوسف، الأمر الذي أشعل نار الحسدِ والغيرةِ في قلوبهم. لقد استفزّتهم أحلامُ يوسف وطموحاته بالعظّمة، كما أن رؤية يوسف وهو يرتدي الثوبَ المُطرّزَ المُميّزَ بالألوان والرسوم والذي منحه إياه والده يعقوف كان يجعلهم يستشيطنون غضباً كلّمًا رأوه.

ثم جاءت الفرصة التي يُحاول الأبناء اغتنامها للتخلّص من يوسف، حين كانوا يرعون الماشية بعيداً عن بيتهم، فينظرون ليوسف وهو قادمٌ من بعيد للاطمئنان عليهم بعد أن طلب منه والده القيام بذلك. حينها كانت مشاعر الغيرة والغضب في صدورهم قد بلغت أوجها، فقرّروا أن ينتقموا منه شرّ انتقام، انتقاماً ذا طابع عنيف. وعندما رأوه قادماً قالوا مُحدّثين بعضهم البعض: "هو ذا صاحبُ الأحلام جاء. فنعالوا الآن نقتله ونطرحه في بعض الآبار، ونقول وحشٌ رديءٌ أكله، ونُريه ما يكون من أحلامه" مثلما نُخبرنا الآياتان التاسعة عشرة والآية العِشرون من المقطع السابع والثلاثين من سفر التكوين.

لكن واحداً من بين الإخوة يعترض على ما ينوي باقي الإخوة القيام به: إنه رؤوفين/روبن، حيث أدرك أن ما هم مُقدّمون عليه كان الخطأ بعينه، لهذا امتنع عن المشاركة في مؤامرتهم. وخلال مرحلة معينة نُحدّثنا التوراة عن أمر استثنائي من خلال عبارة يتّضح لنا جلياً أثناء قراءة القصة بأنها لم تكن صحيحة إذا نظرنا لها من منظور حربي، فتقول التوراة في الآية الواحدة والعشرين من نفس السفر ونفس المقطع: "فسمِعهم رؤوفين، وخلصه من بين أيديهم، وقال لا نقتل نفساً".

إننا نعلّم جيداً بأن هذا ليس صحيحاً من خلال معرفتنا للأحداث التالية للقصة، فقد أدرك رؤوفين بأنه لا يستطيع بمفرده الوقوف في وجه إخوته، فتبادرت إلى ذهنه حيلة لإحباط مؤامرتهم مُقترحاً عليهم أن يرموه حياً في أحد الآبار ليموت فيه بدلاً من أن يقتلوه، وبهذه الطريقة لن يتحمّلوا المسؤولية المباشرة عن مقتله. في الحقيقة كان رؤوفين ينوي العودة إلى البئر بعد رحيل إخوته لكي يُنقذ يوسف، بالتالي عندما تقول التوراة "فسمِعهم رؤوفين، وخلصه من بين أيديهم" فهذا يعني أن الله عزّ وجلّ يعتبر "النّية الحسنة بمثابة العمل الصّالح"²، فرؤوفين كان ينوي فعلاً إنقاذ أخيه يوسف، لكنه لم يتمكن من ذلك لأنه عاد إلى البئر بعد فوات الأوان، فيوسف كان قد بيع للإسماعيليين كعبد. وفي هذا السياق يقول أحد تفاسير المِدرّاش:

"لو عزّ رؤوفين بأن الله عزّ وجلّ سيكتُب عنه مثلما جاء في الآية التوراتية "فسمِعهم رؤوفين وخلصه من بين أيديهم"، لكن سيحمل أخيه يوسف على كتفيه ليُعيده سالمًا إلى أبيه"³.

2. Tosefta , pe'ah 1:4

3. Tanhuma , Vayeshev , 13

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما معنى ذلك؟

فلنُفكّر قليلاً فيما كان سيحدث لو قام رؤوفين بإنقاذ يوسف من البئر: لن يكون يوسف عبداً يبتاعه أحد، ولن يذهب إلى أرض مصر، ولن يعيش في بيت بوتيفار (عزیز مصر تبعاً الرواية القرآنية) ولن تنجذب إليه زوجة بوتيفار، ولن يُلقى به في السجن بثُمة باطلة، ولن يتمكن من تفسير أحلام كبير السقاة وكبير الطباخين، بالتالي لن تكون أمامه فرصة لتفسير أحلام فرعون ولن يُفتح أمامه الباب ليكون وزيراً من كبار وزرائه، ولن يتمكن من جلب عائلته ليسكنوا أرض مصر.

ومن باب التأكيد على وقوع تلك الأحداث، فقد أخبر الله عزّ وجلّ أفرهام/إبراهيم سلفاً بما سيحدث مُستقبلاً، حين خاطبه في الآية الثالثة عشر من المقطع الخامس عشر من سفر التكوين والتي تقول: "فقال لأفرهام، اعلم علماً، أن نسلك سيكون غريباً، في بلد ليس لهم، فيستخدمونهم ويعذبونهم تماماً أربعمئة سنة". لقد أخبره بأن بني إسرائيل سيصبحون عبيداً (في مصر)، وهذا ما حدث بالفعل، لكن على الأقل لم يكن يحدث هذا لولا الخلافات والنزاعات بين بني إسرائيل أنفسهم، ولكان بالإمكان تجنّب صفحة العبودية التي شكّلت جانباً مُخجلاً من صفحات التاريخ اليهودي. لو كان رؤوفين يعلم ما نعلمه الآن، لو كان فقط بمقدوره قراءة التوراة! لكن يستحيل علينا قراءة وفهم مضمون كتاب يتحدّث عن عواقب أفعالنا على المدى البعيد، كما أنه ليس بمقدورنا أبداً معرفة تأثير تصرفاتنا على الآخرين.

وهناك قصة مؤثرة جداً أريد أن أستحضرها في هذا السياق، قصة تعود إلى عام 1966م، حين انتقل طفل أمريكي أسود من أصول أفريقية برفقة عائلته إلى أحد الأحياء التي يسكنها البيض فقط في مدينة واشنطن،⁴ وكان ذلك أمراً غير مسبوقٍ على الإطلاق آنذاك. جلسَ الطفل برفقة إخوته وأخواته على عتبات البيت مُنتظرين من سيأتي ليرحب بهم من الجيران وسُكّان ذلك الحيّ، لكن مع الأسف الشديد لم يأت أحد ليرحب بهم، فكان الجميع يمرون مُحدّقين بالأطفال غير مُكترئين بوجودهم أصلاً. لم يبتسم أحد في وجوههم حتى، ولم يُعربهم أحد أي انتباه.

ولوهلة بدأ الطفل يستحضر في مخيلته جميع القصص المرعبة التي سمعها عن المعاملة السيئة التي يتلقاها السود على يد الرّجل الأبيض، بدت له تلك القصص وكأنها حقيقة. وبعد بضع سنوات كتب هذا الطفل عن أيامه الأولى في البيت قائلاً: "كنتُ أعلم تماماً أنه غير مُرحّب بنا في هذا الحيّ، وكنتُ أعلم بأن وجودنا غير مرغوب به هنا، كنتُ أعلم أيضاً بأنه لن يكون لي أصدقاء هنا. كنتُ أدركُ تماماً أنه ما كان يجبُ علينا الرّحيل إلى هذا الحيّ".

في الوقت نفسه، وبينما كانت تختلجه تلك المشاعر السلبية، مرّت امرأة من سُكّان الحي من الشارع على الجهة المقابلة لبيته، فاقتربت من الطفل بابتسامة لطيفة قائلة له: "أهلاً وسهلاً بكم!"، وسُرعان ما دخلت إلى بيتها جالبةً لهم بعد بضع دقائق صينية من الحلويات وشطائر المربي والجبنّة

4. Stephen Carter ,*Civility* (New York: Basic Books, 1999) 61–75

وبعض المشروبات وقدمتها للأطفال تعبيراً عن ترحيبها بهم في الحيّ. يوضّح ذلك الطّفل بأن ما قامت به تلك المرأة قد غير حياتة إلى الأبد، لقد منحته تلك المرأة شعوراً بأنه ينتمي إلى هذا المكان بعد أن شعر لوهلة بأنه منبوذ ولا ينتمي له أبداً. لقد جعلته يشعر بأنه بمقدور الرجل الأسود أن يشعر وكأنه في بيته حتى وإن كان يعيش في حيّ للسكان البيض فقط، خاصة في ظلّ العلاقات العرقية المتوترة التي شهدتها الولايات المتحدة الأمريكية في تلك الحقبة الزمنية. في الحقيقة، لقد جعلته تلك المرأة يؤمن بإمكانية أن يطغى عمى الألوان على طبيعة العلاقات بين البشر. ومع مرور الوقت ازداد شعور ذلك الطّفل بالاحترام والتبجيل لتلك المرأة، لكن الحدث الذي لم يفارق ذاكرته أبداً هو قدومها إليهم وترحيبها بهم بمنتهى المحبة والعفوية، هذا الترحيب الذي هدم جداراً من الفصل بينهم، وحوّل الغرباء إلى أصدقاء.

وهذا الطّفل هو الكاتب والأديب ستيفن كارتر والذي أصبح لاحقاً بروفيسوراً في القانون في جامعة ييل الأمريكية، وكان من ضمن أعماله كتاب ألفه ليتحدّث عمّا حدث معه في ذلك اليوم بالتحديد، مُطلقاً عليه اسم (Civility). وعبر صفحات كتابه يوضّح بأن تلك المرأة تُدعى سارة كِستانباوم، والتي توقّيت بعمرٍ مبكّر مع الأسف الشديد، موضحاً بأن كون تلك المرأة يهودية مُتديّنة لم يكن من قبيل الصدفة، ف"تلك المُعاملة الحسنة هي جزءٌ أصيلٌ من العادات والتقاليد اليهودية، ويُطلق عليها مُصطلح "حيسيد" باللغة العبرية، ويُقصّد بها كل عملٍ يأتي من باب الكرم والكرامة والإحسان، هذا المبدأ المُتجذّر من حقيقة أن البشر مخلوقون بصورة الله عزّ وجلّ. إن تلك المُعاملة الحسنة هي جزء لا يتجزأ من مبدأ الحيسيد في الثقافة اليهودية. إنها بالفعل كذلك، لأن الحياة تتطلّب منّا أن نُعامل الآخرين مُعاملة حسنة، بما فيهم الغرباء عنّا حتى لو كان ذلك أمراً شاقاً بعض الشيء. ويُتابع ستيفن عبر صفحات كتابه قائلاً:

"لا زالَ مذاقُ شطائرِ المُربّي والجبنه في فمي حتى يومنا هذا، لا زلتُ أستشعرُ حلاوتها وانسيابها فوق لِساني حين أغلقُ عيني، هذا المذاقُ الساجِرُ في ظهيرة ذلك اليوم الصيفي الحار جعلني أدركُ بأن تصرفاً لطيفاً مُتواضعاً نابعاً من القلبِ كغليلٍ بأن يغيّر حياتنا إلى الأبد".

وتبعاً لما تذكره المشناه فإن حياةً واحدة تُعادلُ الكونَ بأكمله،⁵ وحين تُغيّر حياة إنسانٍ واحدٍ فإنك تُغيّر الكونَ بأسره، وهكذا نصنع الفرق: حياةً واحدة، يومٌ واحدٌ، تصرفٌ واحدٌ. إنه لمن الصعبِ علينا أن نعلمَ سلفاً مدى تأثير تصرفٍ معيّن من تصرفاتنا على الآخرين، وفي بعض الأحيان يستحيلُ علينا ذلك. والسيدة سارة كِستانباوم لم تحظْ بِفرصةِ قراءة الكتاب الذي تحدّث عن تأثير مُعاملتها الحسنة على الآخرين، تماماً مثلما حدثت مع رؤوفين الذي لم يحظْ بِفرصةِ قراءة الكتاب الذي تحدّث عن تأثير ما قام به على المدى البعيد، لكن سارة قامت بما قامت به ولم تتردّد للحظة، وهذا ما يجبُ علينا أن نكونَ عليه مثلما يوضّح لنا الحاخام موشيه بن ميمون، لأن كلّ تصرفٍ نقوم به من شأنه أن يُحدث اختلالاً في توازن حياةٍ أحدٍ ما، بل وفي حياتنا نحنُ أيضاً.

5. Mishna Sanhedrin 4:5 - original manuscript text

إننا كبشرٍ لسنا كائناتٍ معدومةً القيمة، نحنُ لسنا صِفرًا على اليسار، وبإمكاننا دوماً أن نُحدِثَ فَرْقاً في هذا العالم، وعندما نقومُ بهذا فإننا نُصبحُ بمثابة شُرَكَاءِ لله عزَّ وجلَّ على طريق الخَلاص، لأننا نجعلُ العالَمَ يقتربُ أكثرَ وأكثرَ من الصَّورة التي يجبُ أن يكون عليها بالِفعال.

مقيّس

هو النصّ الأسبوعي العاشر من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الحادي والأربعين وينتهي بالآية السابعة عشر من المقطع الرابع والأربعين.

لا تَقْنَطُوا من الانتظار

يوجد أمرٌ غير مألوفٍ على الإطلاق بين النصّ الأسبوعي السابق وهذا النصّ، إذ يبدو وكأنّ الأسبوع الفاصل بين النصّين هو جزءٌ من أجزاء القصة نفسها. بالتالي علينا أن نعود قليلاً إلى الوراء ونستذكر النصّ الأسبوعي الذي يحمل اسم "فايشيف" والذي يتحدّث عن طفولة يوسف، والذي لم يركّز على ما حدث بقدر ما ركّز على مَنْ كان وراء ما حدث. وفي مُستَهَلّ الحديث عن يوسف في هذا النصّ الأسبوعي، فإنه كان يوصفُ باستخدام أفعال يكون فيها مَجْهُولاً، خاصة خلال رحلة طفولته التي كانت تتخلّلها الكثير من الصعاب. بمعنى آخر، كان النصّ التوراتي يُركّز على من وقع عليه الفعل (المفعول به) أكثر من تركيزه على من قام بالفعل (الفاعل)، فقد كان يوسفُ مَوْضِعَ حُبِّ شديدٍ من قبل والده الذي مَنَحَهُ الثَّوبَ الْمُطَرَّرَ الْمُمَيَّزَ، من جهةٍ أُخرى كان مَوْضِعَ كَرِهٍ شديدٍ من قِبَلِ إِخْوَتِهِ الَّذِينَ كانوا يكرهونه ويغارون منه غيرَةً شديدة. ورأى يوسفُ في منامِهِ أحلاماً عديدة، لكننا لا نحلّمُ رغبةً في الحُلْمِ، بل نحلّمُ لأن تِلْكَ الرُؤى والمَناماتِ تشقُّ طريقها إلى عقلنا الباطن أثناء نومنا بشكل يصعب علينا فهمه.

لقد كان إخوته يرعون الغنم بعيداً عن بيتهم وبدأوا بالفعل بالتخطيط لقتله، ولاحقاً قاموا برميهِ في البئر، ثُمَّ قاموا ببيعِهِ للإسماعيليين ليصبح عبداً لهم، ومن ثمّ نشأ وترعرع في بيت بوتيفار ليتبوأ منصباً مرموقاً في الدولة. لكنّ النصّ التوراتي يذكر هذه القصة مؤكّداً على أنّ الفضل في هذا لا يعودُ ليوسف نفسه، بل إلى الله عزّ وجلّ، تبعاً لما هو مذكور في الآية الثانية والثالثة من المقطع التاسع والثلاثين من سفر التكوين: "وكانَ اللهُ معهُ، وكان رجلاً مُنَجِّحاً، وأقام في بيتِ مَولاهِ المصريّ. فلما رأى مَولاهُ أنّ اللهُ معهُ، وجميعُ ما يعملُهُ يُنَجِّحُهُ اللهُ في يده".

لكن زوجة بوتيفار حاولت إغواء يوسف ولم تنجح في ذلك، لكن حتّى في هذا الموقف تحدّث النصّ التوراتي عن يوسف بصيغة المجهول، فهو لم يُبادر لهذا الفعل بل هي التي قامت بذلك، لكن بنهاية المطاف "تعلّقت بِقَمِيصِهِ قائلةً لَهُ ضاحِجني، فترك قَمِيصَهُ في يدها وهرب وخرج إلى السّوق" مثلما تحدّثنا الآية الثانية عشر من نفس السفر ونفس المقطع. لكنها استخدمت مسألة الثوب لكي تُدينهُ فيما حدث، فأصبح يوسفُ أسيراً بعد أن اتّهموه بتهمة باطلة، خاصة وأن يوسف لم يكن بيده حيلةٌ ليُثبت براءته. لكن يوسف يعودُ مرّةً أُخرى من السجن ليكون قائداً وزعيماً، وهُنَا تُؤكِّدُ

التَّوْرَةُ مَرَّةً أُخْرَى بِأَنَّ الْفَضْلَ فِي ذَلِكَ يُنْسَبُ إِلَى الْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ، لَا إِلَى يُوسُفَ، تَبَعاً لَمَا تَذَكَّرَهُ الْآيَاتُ 21-23 مِنْ نَفْسِ السَّفْرِ وَنَفْسِ الْمَقْطَعِ وَالَّتِي تَقُولُ:

"فَكَانَ اللَّهُ مَعَهُ، وَمَيَّلَ لَهُ فَضْلاً، وَرَزَقَهُ حِطَاءً عَظِيماً عِنْدَ رَئِيسِ السِّجْنِ. حَتَّى جَعَلَ تَحْتَ يَدِهِ جَمِيعَ الْأَسْرَى الَّذِينَ فِي السِّجْنِ، وَجَمِيعَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ هُنَاكَ، هُوَ كَانَ يُدَبِّرُهُ".

لَقَدْ التَّقَى يُوسُفُ أَثْنَاءَ فَتْرَةِ سِجْنِهِ بِكَبِيرِ السَّقَاةِ وَكَبِيرِ الطَّبَّاخِينَ مِنْ حَاشِيَةِ فِرْعَوْنَ، وَهُنَاكَ تَرَاءتْ لَهُمْ أَحْلَامٌ أَثْنَاءَ مَنَامِهِمْ وَقَامَ يُوسُفُ بِتَفْسِيرِهَا، لَكِنْ فِي الْحَقِيقَةِ لَمْ يَكُنْ يُوسُفُ هُوَ الَّذِي يُفَسِّرُ لَهُمْ تِلْكَ الْأَحْلَامَ بَلْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُوَ الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ، تَبَعاً لَمَا تَذَكَّرَهُ الْآيَةُ الثَّامِنَةُ مِنَ الْمَقْطَعِ الْأَرْبَعِينَ مِنَ سَفْرِ التَّكْوِينِ: "قَالَ لَهُ رَأِينَا رُؤْيَا وَلَيْسَ لَهَا مُفَسِّرٌ، قَالَ لَهُمَا إِنَّ التَّفَاسِيرَ لِلَّهِ، لَكِنْ قُصَّوْهَا عَلَيَّ".

فِي الْحَقِيقَةِ، لَا يَوْجَدُ فِي التَّنَاحِ أَمْرٌ كَهَذَا عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَكَلَّ مَا تَعَرَّضَ لَهُ يُوسُفُ كَانَ نَتِيجَةَ لِفِعْلٍ قَامَ بِهِ شَخْصٌ آخَرَ: بَدَأَ مِنْ وَالِدِهِ وَإِخْوَتِهِ، مَرُوراً بِزَوْجَةِ سَيِّدِهِ بَوْتِيفَارَ وَرَئِيسِ السِّجْنِ، وَانْتِهَاءً بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ذَاتِهِ. بِصَرِيحِ الْعِبَارَةِ، لَقَدْ كَانَ يُوسُفُ كَالْكُرَّةِ الَّتِي تَتَقَادَفُهَا الْأَرْجُلُ مِنْ مَكَانٍ لِآخَرَ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَيُّ شَأْنٍ فِيمَا حَدَثَ. لَكِنْ تَتَوَالَى الْأَحْدَاثُ وَيُقَرَّرُ يُوسُفُ أَنْ يَخْتَارَ مَصِيرَهُ بِنَفْسِهِ هَذِهِ الْمَرَّةَ، فَطَلَبَ مِنْ كَبِيرِ الظَّهَائِرِ أَلَّا يَنْسَاهُ وَأَنْ يَذَكَّرَهُ أَمَامَ فِرْعَوْنَ عَقِبَ خُرُوجِهِ مِنَ السِّجْنِ، بَعْدَ أَنْ عَلِمَ بِأَنَّهُ سَيَعُودُ إِلَى مَنْصِبِهِ عَمَّا قَرِيبَ، وَذَلِكَ تَبَعاً لَمَا تَذَكَّرَهُ التَّوْرَةُ فِي نَفْسِ الْمَقْطَعِ فِي الْآيَتَيْنِ الرَّابِعَةِ عَشْرَةَ وَالْخَامِسَةِ عَشْرَةَ:

"إِلَى أَنْ تَذَكَّرَنِي مَعَكَ، إِذَا جَادَ لَكَ الْأَمْرُ، وَاصْنَعْ لِي مَعْرُوفاً، وَادْكُرْنِي عِنْدَ فِرْعَوْنَ وَأَخْرِجْنِي مِنْ هَذَا الْبَيْتِ لِأَنِّي سُرِقْتُ مِنْ بَلَدِ الْعِبْرَانِيِّينَ، وَهُنَا أَيْضاً لَمْ أَصْنَعْ شَيْئاً اسْتَحَقَّقْتُ أَنْ أَكُونَ بِسَبَبِهِ فِي الْحَبْسِ".

لَقَدْ وَقَعَ الظُّلْمُ مَرَّتَيْنِ عَلَى يُوسُفَ، لِهَذَا رَأَى بِأَنَّ كَبِيرَ الظَّهَائِرِ هُوَ فِرْصَتُهُ الْوَحِيدَةُ حَتَّى يَنَالَ حَرِيَّتَهُ. فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ فَإِنَّ نِهَايَةَ هَذَا النَّصِّ الْأَسْبُوعِيِّ تَتَحَدَّثُ عَنْ قَفْزَةٍ مَدْوِيَّةٍ وَمَخِيْبَةٍ لِأَمَالِ يُوسُفَ: "فَنَسِيَ رَئِيسُ السَّقَاةِ يُوسُفَ، وَلَمْ يَذَكَّرْهُ" تَبَعاً لَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنَ نَفْسِ الْمَقْطَعِ. لَقَدْ كَانَ لِهَذَا الْهَبُوطِ الْمَفَاجِئِ فِي الْأَحْدَاثِ وَقَعٌ شَدِيدٌ عَلَى الْقِصَّةِ، خَاصَّةً وَأَنَّ التَّوْرَةَ رَكَّزَتْ عَلَيْهِ بِاسْتِخْدَامِ الْفِعْلِ لَكِنْ بِطَرِيقَتَيْنِ إِحْدَاهُمَا مُثَبَّتَةٌ وَالْأُخْرَى مَنْفِيَّةٌ: الْأُولَى بِاسْتِخْدَامِ الْفِعْلِ "نَسِيَ"، وَالثَّانِيَةَ بِاسْتِخْدَامِ "لَمْ يَذَكَّرْهُ". إِنَّمَا نَسْتَشْعُرُ لَهْفَةَ الْإِنْتِظَارِ الَّتِي مَرَّ بِهَا يُوسُفُ وَهُوَ يَتَرَقَّبُ سَمَاعَ أَخْبَارِ جَيِّدَةٍ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، لَكِنْ لَا تَوْجَدُ أَخْبَارًا سَاوَةً تَلُوحُ فِي الْأَفْقِ، وَبَقَايَا الْأَمَلِ الَّتِي كَانَ يَمْتَلِكُهَا ذَهَبَتْ أَدْرَاجَ الرِّيَّاحِ، فَبَدَأَ يَتَمَلَّكُهُ شَعُورٌ بِأَنَّهُ لَنْ يُبْصَرَ نَوْرَ الْحَرِيَّةِ طَوِيلَةَ حَيَاتِهِ بِحَسَبِ مَا بَدَتْ لَهُ الْأُمُورُ فِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ.

وَحَتَّى نَتَمَكَّنَ مِنْ اسْتِيعَابِ قُوَّةِ هَذَا الْإِنْحِدَارِ الْمَدْوِيِّ فِي مَسَارِ الْأَحْدَاثِ، فَإِنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَذَكَّرَ بِأَنَّهُ أَصْبَحَ بِاسْتِطَاعَتِنَا أَنْ نَتَعَرَّفَ عَلَى أَحْدَاثِ قِصَّةٍ مَعِينَةٍ بِفَضْلِ ابْتِكَارِ الطَّبَاعَةِ، أَيُّ مَنْذُ أَنْ أَصْبَحَتْ الْكُتُبُ الْوَرَقِيَّةُ مُتَوَافِرَةً بَيْنَ أَيْدِينَا، وَلَوْلَا هَذَا لَمَا اسْتِطَعْنَا طَيِّ الصَّفْحَةِ الَّتِي نَقْرَأُهَا وَالذَّهَابَ

لِلصَّفْحَةِ التَّالِيَةِ حَتَّى نَتَعَرَّفَ عَلَى الْمَزِيدِ مِنْ أَحْدَاثِ أَيِّ قِصَّةٍ. وَعَلَى مَدَارِ قُرُونٍ طَوِيلَةٍ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ كِتَابٌ وَرَقِيَّةٌ مَطْبُوعَةٌ، وَالطَّرِيقَةُ الْوَحِيدَةُ لِمَعْرِفَةِ الْقِصَصِ التَّوْرَاتِيَّةِ كَانَتْ عَنْ طَرِيقِ الْإِسْتِمَاعِ إِلَى نِصُوصِهَا الْأُسْبُوعِيَّةِ أَسْبُوعًا تَلُو الْآخَرَ، وَمَنْ كَانُوا يَسْتَمْعُونَ لِقِصَّةِ يَوْسُفَ لِلْمَرَّةِ الْأُولَى كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِمُ الْإِنْتِظَارُ بِمُنْتَهَى اللَّهْفَةِ وَالتَّرَقُّبِ لِمُدَّةِ أَسْبُوعٍ كَامِلٍ لِمَعْرِفَةِ مَا سَيَحْدُثُ مَعَهُ وَكَيْفَ سَيَكُونُ مَصِيرُهُ.

بِالتَّالِيِ فَإِنَّ فِتْرَةَ الْأُسْبُوعِ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ قِرَاءَةِ هَذَا النَّصِّ التَّوْرَاتِيِّ وَالنَّصِّ الَّذِي سَبَقَهُ تُشْبِهُ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ حَالَةَ التَّرَقُّبِ وَاللَّهْفَةِ الَّتِي عَاشَهَا يَوْسُفُ فِي السِّجْنِ، تِلْكَ اللَّهْفَةُ الَّتِي اسْتَمَرَّتْ لِمُدَّةِ "سِنْتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ" بِحَسَبِ مَا تَخْبِرُنَا التَّوْرَةُ فِي بَدَايَةِ هَذَا النَّصِّ الْأُسْبُوعِيِّ. وَبَعْدَ انْتِهَاءِ السَّنَتَيْنِ، جَاءَتْ لِحِظَةٌ التَّغْيِيرِ الَّتِي بَدَأَتْ بِالْحُلُمِينَ الَّذِينَ رَأَوْهَا فَرَعُونَ فِي مَنَامِهِ، حِينَهَا لَمْ يَتِمَّكَّنْ أَيُّ مِنَ الْعَرَّافِينَ أَوْ مُفْسِرِي الْأَحْلَامِ الْمَوْجُودِينَ فِي حَاشِيَتِهِ مِنْ تَفْسِيرِهِمَا، الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَ كَبِيرَ الطَّهَاءِ يَتَذَكَّرُ أَمْرَ يَوْسُفَ عَلَى الْفُورِ، وَخِلَالَ سَوِيَعَاتٍ مَعْدُودَةٍ انْتَقَلَ يَوْسُفُ مِنْ قِمَّةِ الْحَضِيضِ إِلَى قِمَّةِ الْعَرْشِ، مِنْ أَسِيرٍ بَائِسٍ إِلَى وَزِيرٍ وَمُسْتَشَارٍ لِمَلِكِ أَعْظَمِ امْبِرَاطُورِيَّةٍ عَرَفَهَا التَّارِيخُ الْقَدِيمُ.

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يَطْرُقُ نَفْسَهُ هُنَا: مَا الْهَدَفُ مِنْ هَذَا التَّسْلِسِ الْإِسْتِثْنَائِيِّ فِي مَسَارِ الْأَحْدَاثِ؟ ثَمَّةَ أَمْرٌ فِي مُنْتَهَى الْأَهْمِيَّةِ هُنَا، لَكِنْ مَا هُوَ يَا تَرَى؟ بِاعْتِقَادِي فَإِنَّ الْأَمْرَ الْهَامَّ الَّذِي تُشِيرُ إِلَيْهِ هَذِهِ الْقِصَّةُ هُوَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَجِيبُ لِدَعَائِنَا دُونَ أَدْنَى شَيْءٍ، لَكِنَّهُ لَا يَسْتَجِيبُ لِأَدْعِيَّتِنَا فِي التَّوْقِيَّتِ وَلَا بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي نَعْتَقِدُ أَنَّهُ سَيَسْتَجِيبُ مِنْ خِلَالِهَا، فَيَوْسُفُ تَوَجَّهَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالِدَّعَاءِ طَالِبًا مِنْهُ أَنْ يُفَكَّ أَسْرَهُ، وَهَذَا بِالْفِعْلِ مَا حَدَثَ، لَكِنَّهُ لَمْ يَتَحَرَّرْ عَلَى الْفُورِ، وَلَمْ يَخْرُجْ مِنَ الْأَسْرِ لِأَنَّ كَبِيرَ الطَّهَاءِ أَوْفَى بِوَعْدِهِ الَّذِي قَطَعَهُ لِيَوْسُفَ.

كَمَا أَنَّ هَذِهِ الْقِصَّةَ تُعَلِّمُنَا مَبْدَأَ جَوْهَرِيًّا فِي طَبِيعَةِ الْعِلَاقَةِ بَيْنَ أَحْلَامِنَا وَإِنجَازَاتِنَا، فَيَوْسُفُ جَسَّدَ شَخْصِيَّةَ الْحَالِمِ الْكَبِيرِ فِي الْقِصَّةِ التَّوْرَاتِيَّةِ، وَجِزءٌ كَبِيرٌ مِنْ أَحْلَامِهِ قَدْ تَحَقَّقَ بِالْفِعْلِ، لَكِنْ تِلْكَ الْأَحْلَامُ لَمْ تَتَحَقَّقْ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي كَانَ يَتَوَقَّعُهَا هُوَ أَوْ أَيُّ شَخْصٍ آخَرَ، فَمَنْ يَقْرَأُ نِهَآيَةَ النَّصِّ الْأُسْبُوعِيِّ السَّابِقِ - حَيْثُ لَا زَالَ يَوْسُفُ أَسِيرًا - سَيَعْتَقِدُ بِأَنَّ أَحْلَامَ وَأَمَالَ يَوْسُفَ قَدْ انْتَهَتْ بِفِشْلِ ذُرْبِيعٍ جَدًّا، لَكِنْ عَلَيْنَا الْإِنْتِظَارَ لِأُسْبُوعٍ آخَرَ - بَيْنَمَا كَانَ عَلَيْهِ الْإِنْتِظَارُ لِمُدَّةِ سِنْتَيْنِ كَامِلَتَيْنِ - حَتَّى نَرَى التَّحَوُّلَ الدِّرَامَاتِيكِيَّ فِي مَسَارِ الْأَحْدَاثِ وَنَكْتَشِفُ بِأَنَّ أَحْلَامَهُ قَدْ تَحَقَّقَتْ بِالْفِعْلِ.

بِالتَّالِيِ لَا تَتَحَقَّقُ الْأَحْلَامُ دُونَ أَنْ يَبْذُلَ الْمَرْءُ مَنَّا جُهْدًا لِتَحْقِيقِهَا، وَهَذَا هُوَ الْمَبْدَأُ الْأَوَّلُ الَّتِي تَعَلَّمْنَا إِيَّاهُ هَذِهِ الْقِصَّةَ، وَالْأَمْثَلَةُ زَاخِرَةٌ وَعَدِيدَةٌ لِلتَّأَكِيدِ عَلَى هَذَا الْمَبْدَأِ: فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْقَذَ نُوحَ مِنَ الطُّوفَانِ، لَكِنْ كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَى نُوحٍ أَنْ يَبْنِيَ الْفُلَّكَ أَوَّلًا، وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَفْرَهَامَ/إِبْرَاهِيمَ بِأَرْضِ الْمِيْعَادِ، لَكِنْ كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ أَنْ يَشْتَرِيَ أَرْضَ مَغَارَةِ الْمَخْپِيلَةِ (الْحَرَمِ الْإِبْرَاهِيمِيَّ تَبْعًا لِلتَّسْمِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ لِلْمَكَانِ) حَتَّى يَدْفِنَ زَوْجَتَهُ سَارَةَ فِيهَا. وَالْحَالُ نَفْسُهُ بِالنِّسْبَةِ لِبْنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ وَعَدَهُمُ اللَّهُ بِهَذِهِ الْأَرْضِ، لَكِنْ كَانَ عَلَيْهِمْ خَوْضُ الْعَدِيدِ مِنَ الْمَعَارِكِ فِي سَبِيلِ الْحِصُولِ عَلَيْهَا. وَالْحَالُ نَفْسُهُ يَنْطَبِقُ أَيْضًا عَلَى يَوْسُفَ: فَقَدْ أَصْبَحَ قَائِدًا عَظِيمًا، تَمَامًا مِثْلَمَا رَأَى فِي أَحْلَامِهِ، لَكِنْ كَانَ يَتَوَجَّبُ عَلَيْهِ أَوْلًا أَنْ يَشْحَدَ مَهَارَاتِهِ وَقُدْرَاتِهِ الْبَدْنِيَّةَ وَالذَّهْنِيَّةَ فِي بَيْتِ پُوتِيفَارِ وَفِي السِّجْنِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى ذَلِكَ الْمَنْصَبِ.

وحتى عندما يؤكّد الله عزّ وجلّ لنا بأنّ أمراً ما سيحدث، فإنّ ذلك الأمر لن يحدث إن لم نبذل جهداً في سبيل حدوثه، فالوعدُ الإلهي ليسَ بديلاً للمسؤولية البشرية، بل على العكس تماماً، لأنّ الوعد الإلهي يتطلّب مسؤولية بشرية كبيرة لتحقيقه.

في الوقت نفسه، فإنّ الجهد لوحده غير كفيلاً بتحقيق الأحلام والوعود، لأننا بحاجة ماسة إلى "سيعاتا ديشمايا" (العون الإلهي من السماوات)، والبشرية بحاجة ماسة لأن تُدرَك بأننا نتكل في أفعالنا على قوىٍ خارجة تماماً عن سيطرتنا. ففي قصة يوسف سنجدُ أن بحثه عن الله وتضرّعه إليه في محنته كان أمراً استثنائياً جداً في التوراة، ولن نجد أحداً تضرّع إلى الله عزّ وجلّ بالطريقة التي تضرّع بها يوسف في سفر التكوين بأكمله، ومثلاً يوضّح الحاخام راشي في مستهلّ تفسيره للآية الثالثة من المقطع التاسع والثلاثين من سفر التكوين، فإنّ "اسم الله عزّ وجلّ لم يُفارق فمّ يوسف"، كما أن يوسف كان ينسبُ كل نجاحاته إلى الله عزّ وجلّ، مُدركاً بأنه لولا عونُ الله ومُساعدته له لما حدث ما حدث، وانطلاقاً من هذا التواضع أمام الله عزّ وجلّ يأتي الصبرُ على الشدائد والمحن.

إنّ الأشخاص الذين نجحوا في إنجاز وتحقيق أمور عظيمة هم في الحقيقة بمثابة مزيج استثنائي لشخصيات تلك القصة، فمن جهة تجدُ أنهم يعملون بجدّ ويبذلون قُصارى جهدهم في سبيل تحقيق ما يطمحون لتحقيقه عبر العمل والمثابرة. لكن من جهة ثانية تجدهم يؤمنون في قرارة أنفسهم بأنهم ليسوا وحدهم السبب الكامن وراء القدر الذي سمح بأن يُكتبَ النجاح لهذه الإنجازات، وبأنّ جُهدنا البشريّ لم يكن السبب الوحيد حتى تتحقّق تلك النتيجة. بالتالي فإننا نتضرّعُ إلى الله عزّ وجلّ بالدعاء، والله يَستجيبُ لدعائنا، لكنه لا يستجيبُ لنا دوماً بالطريقة التي نتوقعها أو في التوقيت الذي نتوقّعه. وبطبيعة الحال هنالك أحياناً أخرى يستجيبُ فيها الله عزّ وجلّ لدعائنا بجواب النفي: لا.

وفي هذا الموضوع يوضّح لنا التلمود (باب نيداه -70 ب) هذه النقطة ببساطة من خلال هذا التساؤل: ما الذي ينبغي عليك القيام به حتى تُصبح ثرياً؟ يُجيب التلمود: اعمل بجدّ وتصرّف بصدقٍ وأمانة. لكن التلمود يوضح لنا رداً على تعليق البعض بأن هنالك الكثيرين الذين قاموا بذلك بالفعل ولم يُصبحوا أثرياء، قائلاً: عليك التضرّع إلى الله عزّ وجلّ، فهو الغنيّ الذي يجودُ بخيره على البشر. وهُنَا تعاود صفحات التلمود طرح سؤالٍ آخر: إن كان هذا هو الواقع، فلماذا ينبغي علينا أن نعمل بجدّ إذن؟ فيجيب التلمود: لأنّ الدعاء دونما عملٍ ليس له أي قيمة، والعكس صحيح.

بالتالي، وحتى يتحقّق ما نصبو إليه فإننا بحاجة للجُهد البشريّ والفضل الإلهي على حدّ سواء، فهنالك مراحل من حياتنا علينا أن نتحلّى فيها بالصبر، في حين هنالك مواقف أخرى لا ينبغي علينا أن نكون كذلك: إذ لا يجبُ علينا أن نصبر على أنفسنا، في حين يجبُ علينا أن نصبر في انتظار حلول بركة الله عزّ وجلّ على مساعينا وجهودنا حتى تتحقّق. إن هذا الانتظار الذي يدوم لمدّة أسبوعٍ والذي يفصل بين المحاولة البائسة ليوسف للتحرر من سجنه، وبين نجاحه بنهاية المطاف في التحرر، هو درسٌ يُعلّمنا ضرورة تحقيق التوازن بين العمل والدعاء، وحين نبذل قُصارى جُهدنا لتحقيق أمرٍ ما فإنّ الله عزّ وجلّ يكتبُ لنا النجاح، لكن ليس بالضرورة في الوقت الذي نريده نحن، وإنما في الوقت الذي يراه الله مناسباً.

فَيَچاش

هو النصّ الأسبوعي الحادي عشر من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعيّ بالآية الثامنة عشرة من المقطع الرابع والأربعين وينتهي بالآية السابعة والعشرين من المقطع السابع والأربعين

إِعادَةُ الصِّباغَةِ

أطلق الحاخام الكبير موشيه/موسى بن ميمون على الإنسان المثالي لقب "روفيه نفاشوت" (أي مُعالِج الرّوح)،¹ أما في عصرنا الحديث فإننا نطلق على الأخصائيّ النفسيّ لقب "سايكوثيرابيست"، وهي كلمة تعود جذورها إلى الحضارة الإغريقية، حيث كانت عبارة "سايكو" تعني لديهم "الروح"، مُضافة إلى كلمة "ثيرابيا" والتي تعني "العلاج". لكن اللافِت للنظر هو عددُ اليهود الذين يُعتبرون رواداً لهذا المجال في التاريخ المُعاصر، وإن صحَّ التعبير يُمكننا القولُ بأن غالبية الرّواد الأوائل في مجال التحليل النفسي كانوا يهوداً، وعلى رأسهم سيغموند فرويد وألفريد أدلر وأوتو رانك وميلاني كلاين وغيرهم. وما كان مُلفتاً للنظر إلى حد كبير هو أن علم التحليل النَّفسي كان معروفاً بين النازيين الألمان على أنه "علم اليهود".

لاحقاً أضاف الكثيرُ من علماء النَّفس اليهود إلى هذا المجال، من أمثال سلومون آش صاحب نظرية الامتثال أو التَّبعية، ولورنس كولبرج الذي أضاف الكثير إلى علم النَّفس التَّنمويّ، وبرونو بيتلهام الذي أضاف الكثير إلى اختصاص علم نفس الأطفال، هذا عدا عن ليون فستنغر صاحب نظرية التنافر المعرفي في علم النَّفس، وهوارد غاردنر صاحب نظرية الذكاءات المتعدّدة، وبيتر سالوفي ودانيال جولمان أصحاب نظرية الذكاء العاطفي، فيما أضاف أبرهام ماسلو جانباً جديداً إلى علم التحفيز، تماماً مثلما أثرى والتر ميشيل بآرائه مجالَ صَبط النَّفس البشريّة من خلال اختبارهِ المعروف باسم "تجربة المارشميلو". هذا بالإضافة إلى دانيال كاهنمان وعاموس تفيرسكي الذين كان لهما بصمة عظيمة في النظرية الاحتمالية وعلم الاقتصاد السلوكي، فيما يُعدّ الباحثان جوناثان هايدت وجوشوا غرين من الرّواد المُعاصرين في مجال الأبحاث التجريبية لعلم المشاعر الأخلاقية، والقائمة تطول لذكر غيرهم من العلماء.

ومن وجهة نظري المتواضعة، فإن أكثرَ الإسهامات اليهوديّة في مجال علم النَّفس كان مصدرها هؤلاء العلماء الثلاثة: فيكتور فرانكل، وآرون تي بيك، ومارتن سليغمان. لقد وضع العالم المعروف فيكتور فرانكل الأسس للمنهجية المعروفة اليوم باسم "العلاج بالمعنى" في علم النفس، والتي تعتمدُ في

1. الحاخام موشيه بن ميمون، 4. Maimonides, Shemona Perakim, ch.

جوهرها على بحث الإنسان عن معنى لحياته. أما آرون تي بيك فكان واحداً من واضعي أسس أفضل العلاجات النفسية وأكثرها نجاعة والمعروف باسم العلاج المعرفي السلوكي. أما مارتن سليغمان فقد وضع أسس علم النفس الإيجابي، والذي لا يرى في علم النفس وسيلة لعلاج الاكتئاب فحسب، بل يرى فيه طريقة لتحقيق السعادة من خلال التفاؤل المكتسب.

في الحقيقة، جميع هذه النظريات والأفكار تمثل منهجيات وطرقاً مختلفة في علم النفس، إلا أنها تمتلك قاسماً مشتركاً على اختلافها، ألا وهو أنها جميعها تقوم على هذا المبدأ: حين نغيّر طريقة تفكيرنا فإننا سنغيّر طريقة شعورنا، وهذا مبدأ يعود في الأصل إلى الحاخام شنيؤور زلمان من ليادي أحد مؤسسي الحركة الحبادية الحسيدية اليهودية وصاحب كتاب "طنية" (Tanya). لقد كان هذا المبدأ بمثابة فكرٍ ثوريّ يجسد تناقضاً كبيراً مع باقي نظريات علم النفس البشرية، خاصة في ظلّ قناعة راسخة لدى البعض بأن صفاتنا وسماتنا كبشرٍ تُحددها العوامل الجينية، في حين كان يؤمن بعض آخر من العلماء بأن حياتنا العاطفية محكومة بتجارينا خلال مرحلة الطفولة وعوامل أخرى لا إرادية. وآخرون من أمثال العالم الروسي الشهير إيفان بافلوف ممن يؤمنون بأن السلوك الإنساني محكومٌ بقدرة الفرد على الاستجابة.

ولو فكّرنا معمّقاً في هذه النظريات جميعها لوجدنا أنها توضّح لنا بأن حُرّيّتنا الداخلية تُعتبر مُقيّدة ومحدودة جداً، وبأن هويّتنا ومشاعرنا هي مسائلٌ تُحددها عواملٌ معيّنة، ولا علاقة للوعي بهذه الأمور، فجاء فيكتور فرانكل ليُدحض هذه الاعتقادات ويُرينا جانباً مختلفاً جداً، خاصة وأنه استحضّر هذا الجانب خلال واحدة من أقسى وأصعب الظروف التي عرفتتها البشرية خلال اعتقاله في مُعسكر أوشفيتز النازي. وخلال تلك التجربة المريعة توصلَ فرانكل إلى قناعة مفادها أنّ النازيين سلبوا من المُعتقلين كل ما من شأنه أن يجعلهم من البشر: لقد سلبوا منهم ممتلكاتهم وملابسهم وشعرهم وأسماءهم. وقبل أن يتم اعتقاله في معسكر أوشفيتز، كان فرانكل طبيباً نفسياً مُتخصصاً في علاج المرضى الذين يُعانون من وجود ميولٍ لديهم للانتحار، لكن خلال تجربته في مُعسكر الموت النازي فقد كرس كامل قدراته وجهوده مُحاولاً أن يمنح الأسرى الموجودين معه رغبةً في الحياة، مُدركاً بأنهم إن فقدوا هذه الرغبة فإنهم سيلقون حتفهم عمّا قريب.

وخلال تلك التجربة القاسية، توصلَ فرانكل إلى فكرةٍ جوهريةٍ ذاع صيتها فيما بعد، فيقول موضّحاً هذه الفكرة:

"نحن الذين خُضنا تجربة مُعسكرات الموت والاعتقال النازية نتذكر تماماً من كانوا يخرجون من خيامهم حتى يُواسوا غيرهم من المُعتقلين، أولئك الذين ضحّوا بآخر كسرة خبز يمتلكونها ليقتات عليها غيرهم. ربما كان أمثال هؤلاء قليلين العدد، لكنهم شكّلوا دليلاً دامغاً على أنه بالإمكان سلب أي شيء من الإنسان إلا بقايا الحرّية الإنسانية، والقدرة على اختيار المرء للطريقة التي يتصرّف بها أيا كانت الظروف، قدرة الواحد منّا على اختيار أسلوبه هو".²

2. فيكتور فرانكل من كتاب "الإنسان يبحث عن معنى".

Viktor Frankl, Man's Search for Meaning: An Introduction to Logotherapy, translated by Ilse Lasch (Boston: Beacon Press, 1992), 75.

بالتالي، فإن ما صنع الفرق في حياة أولئك الأسرى وما جعلهم يمتلكون الرغبة في البقاء على قيد الحياة كان إيمانهم الراسخ بأنهم يمتلكون غايةً ومَهْمَةً يجبُ عليهم تنفيذها، وبأنهم لم يُحَقِّقوا بعدُ ما يجب عليهم تحقيقه، فصَارَ ينبغي عليهم أن يظلُّوا على قيد الحياة في الحاضر ليحَقِّقوا ما يجبُ عليهم تحقيقه مُستقبلاً. وقد توصلَ فرانكل إلى أن "توقُّعاتنا من الحياة ليست بتلك الأهمية، لكن ما تتوقَّعه الحياة مِنَّا هو المُهمُّ فعلاً"³. لقد كان هناك مُعتقلون في معسكرات الموت النازية ممن فقدوا الأمل لدرجة أنه لم يعد لديهم ما يتوقعونه من الحياة، وما قام به فرانكل هو أنه جعلهم يرونَ بأن "الحياة لا زالت تتوقع منهم القيام بأمر ما"، فعلى سبيل المثال لا الحصر كان هُنَاكَ أسيْرٌ له طفلٌ لا زال على قيد الحياة في دولةٍ أُخرى، وأخِرُ رأى بأنه يتوجب عليه تأليفُ كتبٍ ليس بإمكان أحدٍ سواه تأليفها. وعبر هذه السلسلة من النداءات المستقبلية لهم، تمكَّن فرانكل من مساعدتهم في اكتشاف غايتهم في الحياة حتى لو كانوا موجودين في وادي ظلِّ الموتِ نفسه.

لاحقاً بدأت هذه النقلة النوعية في الجانب العقلي لعلم النفس تنتشرُ شيئاً فشيئاً، خاصة في مجال العلاج السلوكي الإدراكي، فأصبح يُطلقُ على هذه النقلة مُصطلح "إعادة الصياغة". ومثلما بإمكان اللوحة الفنية أن تبدو لنا مُختلفة حين نضعها في إطارٍ مختلف، فهكذا هي الحياة أيضاً، لأن الحقائق والوقائع لا تتغير، بل إن ما يتغيَّرُ فعلاً هو الطريقة التي ننظرُ بها إلى تلك الحقائق. وفي هذا السياق يوضِّح فرانكل عبر كتاباته بأنه تمكَّن من البقاء على قيد الحياة في معسكر أوشفيتز لأنه أقنع نفسه بأنه موجودٌ في إحدى الجامعات ويُلقى مُحاضرة عن علمِ النَّفس في معسكرات الموت النازية، وما تعرَّضَ له قد تحوَّل لاحقاً إلى سلسلة من التوضيحات والتفسيرات للأفكار التي كان يطرحها أثناء تلك المُحاضرة، فيقول في هذا الصدد: "نجحْتُ عبر هذه المنهجية في الارتقاء إلى ما هو أسمى من ذلك الوضع المأساوي في معسكر الاعتقال، فوق تلك المعاناة التي كانت جزءاً من الحاضر حينها، لكنني كنتُ أنظر إليها وكأنها أصبحت جزءاً من الماضي"⁴. بالتالي فإن إعادة صياغة الأمور توضح لنا بأننا لسنا قادرين دوماً على تغيير الظروف المحيطة بنا، إلا أننا قادرون على تغيير المنظور الذي ننظرُ إلى تلك الظروف من خلاله، وهذا بحدِّ ذاته أمرٌ كفيلاً بأن يُغيِّر الطريقة التي نشعرُ بها.

لكن هذا الاكتشاف المُعاصر كان موجوداً أصلاً، لأن أوَّل إنسان قام بإعادة صياغة وتشكيل الظروف المحيطة به عبر التاريخ كان يوسف تبعاً لما تذكره الآيات في هذا النص الأسبوعي من نصوص التوراة. ولو عُدنا للوراء إلى ظروفِ قصَّة يوسف، سنجدُ أنه صارَ عبداً للإسماعيليين بعد أن باعه إخوته لهم، ثم فقد حرَّيته لمدة ثلاثة عشرة سنة، ثم انفصلَ عن عائلته لمدة اثنين وعشرين سنة، بالتالي لن يلوِّمَ أحدُ يوسف لو تملَّكه شعورٌ بالحقد على إخوته والرغبة في الانتقام منهم. لكن يوسف ارتقى بنفسه ليسمو فوق تلك المشاعر السلبية عبر إعادة صياغة وتشكيل مشاعره ليضعها في إطارٍ مُختلفٍ تماماً، وهذا ما نجده في كلماته التي قالها لإخوته عندما كشف لهم عن هويته الحقيقية، فيقول تبعاً لما تذكره الآيات 4-8 من المقطع الخامس والأربعين من سفر التكوين:

3. نفس المصدر صفحة 85

4. نفس المصدر صفحة 82

"حَتَّى قَالَ لَهُمْ تَقَدَّمُوا إِلَيَّ، فَتَقَدَّمُوا، فَقَالَ أَنَا أَخَوُكُمْ يَوْسُفَ الَّذِي بَعَثْتُمُونِي إِلَى مِصْرَ وَالآنَ لَا تَغْتَمُّوا. وَلَا يَشْتَدُّ عَلَيْكُمْ إِذْ بَعَثْتُمُونِي إِلَى هَهُنَا، فَإِنَّ اللَّهَ بَعَثَ بِي بَيْنَ يَدَيْكُمْ لِمَعِيشَةٍ. وَذَلِكَ إِنْ هَتَيْنِ سَنَتَا جُوعٍ قَدْ مَضَتَا فِي الْبَلَدِ، وَبَقِيَ خَمْسُ سَنِينَ لَيْسَ فِيهَا زَرْعٌ وَلَا حَصَادٌ. فَبَعَثَنِي اللَّهُ بَيْنَ يَدَيْكُمْ لِيُصَيِّرَ لَكُمْ بَقَاءً فِي الْأَرْضِ وَيُحْيِيَ لَكُمْ قَلْبَتَهُ عَظِيمَةً وَالآنَ لَيْسَ أَنْتُمْ بَعَثْتُمُونِي إِلَى هَهُنَا، بَلِ اللَّهُ، وَصَيَّرَنِي أَسْتَاذًا لِفِرْعَوْنَ وَسَيِّدًا لِجَمِيعِ آلِهِ وَسُلْطَانًا عَلَى جَمِيعِ بِلَادِ مِصْرَ"

وبعد مضي بضع سنوات، وعقب وفاة والده، وتبعاً للآيات 19-21 من المقطع الخمسين من سفر التكوين، كان هذا ما قاله يوسف لإخوته الذين خافوا من احتمالية انتقامه منهم:

"قَالَ لَهُمْ يَوْسُفَ لَا تَخَافُوا، فَإِنِّي أَتَقِي اللَّهَ فِيكُمْ. أَنْتُمْ قَدَّرْتُمْ عَلَيَّ شَرًّا، وَاللَّهُ قَدَّرَ لِي خَيْرًا لِأَجْلِ أَنْ يُصَنَعَ مَا تَرُونَهُ الْيَوْمَ، لِأَجْلِ أَنْ يَحْيَا قَوْمٌ كَثِيرُونَ. وَالآنَ لَا تَخَافُوا، أَنَا أُمُونُكُمْ أَنْتُمْ وَأَوْلَادُكُمْ"

لقد نجح يوسف في إعادة صياغة ماضيه بأكمله، إذ لم يعد ينظر لنفسه على أنه ضحية للظلم الذي اقترفه إخوته بحقه، بل أصبح يرى نفسه على أنه رجلٌ يحملُ مسؤولية مهمة الإنقاذ التي كلفه بها الله عزَّ وجلَّ، حيث اعتبر أن جميع الأمور التي مرَّ بها في الماضي كانت أموراً حتمية الوقوع حتى يتمكن من تحقيق مهمته في الحياة حينها: وهي أن ينقذ منطقة بأكملها من الهلاك خلال المجاعة من جهة، وأن ينقذ أفراد عائلته ويوفر لهم ملجأً آمناً من جهة أخرى.

إن تصرفاً واحداً يقوم على فكرة إعادة صياغة يوسف للظروف المحيطة به قد مكنته من المضي قدماً في الحياة دون أن تختلجُه مشاعر الغضب والحقد على ما وقع عليه من ظلم، ومنحته القدرة ليعفو ويصفح عن إخوته ويتصالح معهم. لقد أدَّى هذا السلوك إلى تحقيق حالة من التحوُّل الداخلي في نفس يوسف، تحوُّل الطاقة السلبية بداخله إلى طاقة إيجابية تُركِّز على المستقبل لا على الماضي. بالتالي كان يوسف - دون أن يعلم - رائد هذه النقلة النوعية العظيمة في مجال الطب النفسي والذي يُعتبر واحداً من أهم علوم التاريخ الحديث، مُظهراً القوَّة الكامنة في فكرة إعادة صياغة وتشكيل الطريقة التي ننظرُ بها إلى الظروف المحيطة بنا. فنحنُ لا نمتلك القدرة على تغيير الماضي، لكننا حين نغيِّرُ أسلوبنا في التفكير في أحداث الماضي فإننا نقوم فعلياً بتحدِّي المُستقبل. وبغضِّ النظر عن طبيعة الظروف المحيطة بنا، فإننا حين نقوم بإعادة صياغة منظورنا لها فإننا نقوم تلقائياً بتغيير ردود أفعالنا حيالها، الأمر الذي يمنحنا القوَّة للبقاء على قيد الحياة، كما يمنحنا الجرأة حتى نواصل إصرارنا على ذلك، والمرونة الكافية حتى نقف على أقدامنا مُجدِّداً لنمضي قدماً ونفتح صفحة جديدة من كتاب الحياة يملؤها النور بعد أن كُنَّا غارقين في عمق الظلام الحالك.

فِيحِي

هو النصّ الأسبوعي الثاني عشر والأخير من كتاب "بريشيت" (سفر التكوين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعيّ بالآية الثامنة والعشرين من المقطع السابع والأربعين وينتهي بالآية السادسة والعشرين من المقطع الخمسين.

عَنْ عَدَمِ التَّنْبُؤِ بِالْمُسْتَقْبَلِ

يَعْقُوفُ/يَعْقُوبُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ مِنْ حَيَاتِهِ مَا كَثُرَ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ يَلْفُظُ أَنْفَاسَهُ الْأَخِيرَةَ، لِهَذَا جَمَعَ أَبْنَاءَهُ حَتَّى يَبَارِكُهُمْ قَبْلَ أَنْ يَتَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، لَكِنَّ النَّصَّ التَّوْرَاتِيَّ يَبْدَأُ الْحَدِيثَ عَنْ هَذَا الْمَوْقِفِ بِطَرِيقَةٍ غَرِيبَةٍ وَشَبْهِ مَتَكَرَّرَةٍ، فَتَقُولُ الْآيَاتَانِ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ مِنَ الْمَقْطَعِ التَّاسِعِ وَالْأَرْبَعِينَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ:

"ثُمَّ دَعَا يَعْقُوفَ بَنِيهِ وَقَالَ اجْتَمِعُوا حَتَّى أُخْبِرْكُمْ بِمَا يُوَافِيكُمْ آخِرَ الْأَيَّامِ. اجْتَمِعُوا وَاسْمَعُوا ذَلِكَ يَا بَنِي يَعْقُوفَ، وَاقْبَلُوا مِنْ إِسْرَائِيلَ أَبِيكُمْ".

يَبْدُو وَكَأَنَّ الْآيَتَيْنِ تُكْرِرَانِ الْأَمْرَ نَفْسَهُ مَرَّتَيْنِ دُونَ وُجُودِ فَارِقٍ يُذَكِّرُ بَيْنَهُمَا، فِي الْعِبَارَةِ الْأُولَى يُشِيرُهُ يَعْقُوفُ "بِمَا يُوَافِيكُمْ آخِرَ الْأَيَّامِ" (آخِرَ الْأَيَّامِ يَقْصِدُ بِهَا نِهَآيَةَ الزَّمَانِ)، لَكِنَّ هَذَا غَيْرَ مَوْجُودٍ فِي الْعِبَارَةِ الثَّانِيَّةِ. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يُوَضِّحُ الْحَاخَامُ شَلُومُو يِتْسَحَاقِي (المعروف بالحاخام راشي) اسْتِنَاداً إِلَى التَّلْمُودِ¹ بَأَنَّ "يَعْقُوفَ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ لِأَبْنَائِهِ مَا سَيَحِلُّ بِهِمْ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، لَكِنَّ خِلَالَ مَحَاوَلَتِهِ تَلَكَّ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ أَيُّ حُضُورٍ إِلَهِي يَمُدُّهُ بِمَا يَقُولُ". بِالتَّالِي حَاوَلَ يَعْقُوفُ اسْتِقْرَاءَ الْمُسْتَقْبَلِ لَكِنَّهُ لَمْ يَنْجَحْ فِي ذَلِكَ.

وهذه ليست مجرد جُزئية عابرة في التّوراة، بل تُمَثِّلُ جُزءاً من الأساسيات التي تقوم عليها الروحانيّة اليهودية، فنحنُ اليهودُ نؤمنُ بأننا كبشرٍ عاجزون عن استقراء المستقبل والتنبؤ به، إلا أننا نحن من نصنع المستقبل من خلال اختياراتنا، فالقدر لم يكتب بعد، وباب أحداث المستقبل لا زال مفتوحاً على مصراعيه. إنها فكرة تُمَثِّلُ فرقاً واضحاً بين الحضارة اليهودية القديمة والحضارة الإغريقية القديمة، فالإغريق كانوا يؤمنون بالقدر (أو مُصطلح مويرا في اللغة اليونانية)، بل وكانوا يؤمنون بفكرة حتمية القدر الأعمى (أنانكي باللغة اليونانية). وتبعاً للأساطير اليونانية، عندما أخبرت العرافة بيثيا الملك لايوس بأنه سيكون له ابنٌ وأن هذا الابن هو الذي سيقتله (أي سيقتل الملك لايوس)، حينها قام بكل ما بوسعه حتى يمنع حدوث ذلك، وعندما وُلِدَ ابنه قام بصلبه على صخرة كبيرة مُثَبِّتاً قَدَمِيهِ

1. تفسير الحاخام شلومو يتسحاق (المعروف بالحاخام راشي) للآية الأولى من المقطع التاسع والأربعين من سفر التكوين (Genesis Rabba)

بالمسامير، لكن أحد الرعاة الذين مرّوا من هناك رأى الطفل وأنقذ حياته، لينشأ بعد ذلك في أحضان ملك ومملكة كورينثوس. ونظراً لوجود اختلال دائم في رجله أصبح يُعرف بعدها باسم أوديبوس (والتي تعني في اللغة اليونانية صاحب الأقدام المُنتفخة).

وبقية أحداث القصة معروفة لدى الجميع، فكلُّ ما تنبأت به العرّافة قد حَدَث بالفعل، وكلُّ ما قام به الملك لايوس لمنع ما تنبأت به العرّافة كان سبباً في حدوث ما تنبأت به، وفي اللحظة التي كُشِفَتْ فيها النّبوءاتُ فقد أُغْلِقَ باب القَدَرِ وجميع مُحاولات تغييره ذهبت هباءً منثوراً. في الحقيقة فإن هذه الأفكار تُشكل جوهرَ إحدى أعظم مساهمات الحضارة الإغريقية في الحضارة البشرية: إنها التراجيديا.

في الوقت نفسه، وعلى الرغم من قرونٍ طويلة من المعاناة التي مرّ بها اليهود، إلا أن اللغة العبرية التي كُتِبَ بها التَّنَاحُ لا تتضمنُ في ثناياها أي كلمة مُرادفة لمعنى التراجيديا، فالكلمة "أسون" في اللغة العبرية تعني الكارثة أو البلاء أو المصيبة، لكنها لا تعني بأي شكل من الأشكال التراجيديا بمفهومها الكلاسيكي، فالكلمة "تراجيديا" يُقصدُ بها حدثٌ دراميٌّ تتمخّضُ عنه نتائجٌ تعيسة، بحيث يدور الحدثُ حول بطلٍ مُعيّن يكون قَدْرُهُ أن يخوض تجربة سقوطٍ مُدوّ أو حتى تجربة مُدمّرةٍ بفعلِ أخطاءٍ يرتكبها هو شخصياً، أو نتيجةً لِصراعٍ مع قوّة عَظْمَى مثل القَدَرِ. والديانة اليهودية لا تتضمنُ كلماتٍ تصف هذا على الإطلاق، لأننا اليهودُ لا نُؤمنُ بفكرة القدر الأعمى ولا بحتميّة القدر. إننا أحرارٌ وبإمكاننا الاختيار دوماً، تماماً مثلما قال الكاتب اليهوديّ البولندي إسحق بشيفز سنجر: "إننا لا نملك أيّ خيارٍ آخرٍ سوى أن نكون أحراراً".²

كما أننا نادراً ما نجدُ نصوصاً أو شعائر دينية تؤمن بحتميّة القدر في الديانة اليهودية، وقلّما نجد مثل هذه الأفكار في المناسك والأدعية والصلوات، وهذا بالتحديد ما تؤكدُه أدعية وصلوات "ونيتانيه توكف" التي تُرددها في روش هَشَناه (رأس السنة اليهودية) ويوم كيبور (يوم الغفران). وحتى أثناء ترديدنا لهذه العبارة في هاتين المُناسبتين: "القَدَرُ يُكْتَبُ في رأس السنة ويُغْلَقُ في يوم الغفران، فَيُكْتَبُ مَنْ يحيى ومن يموت" إلا أننا نُردّدُ بعدها قائلين: "لكن التوبة (تشوقاه) والصلاة والصدقة من شأنها أن تمنع مصائب القدر". بالتالي لا يوجدُ قدرٌ لا يمكننا الاعتراض عليه، ولا يوجدُ حُكْمٌ لا يُمكننا التخفيف من حدّة سلبيته، وذلك عندما نُبيّنُ لله عزّ وجلّ توبتنا النصوحة وبأننا تغيّرنا قولاً وفِعْلاً. وهُنا نجدُ مثلاً حياً من كتاب التناخِ مصداقاً لهذه الفكرة:

وفي تلك الأيام كان حزقيا مريضاً جداً وكان على وشك أن يفارق الحياة، فجاءه النبيّ إشعياهُ ابنُ أموتس قائلاً له: "هذا ما يقوله الله عزّ وجلّ: تجهّزْ لأنك موشكٌ على الموتِ، إذ لن تشفى مما أنت فيه". حينها أدار حزقيا وجهه صوب الحائطِ مُتضرّعاً مُبتَهلاً إلى الله عزّ وجلّ، قائلاً: "تذكر يا ربّ كيف سرتُ في سبيلك بكل إيمانٍ مُخلصاً لك في عملي، مُكرّساً نفسي لكل

2. مُقتبسٌ بطريقةٍ مُختلفة كالتالي: "يجب علينا أن نُؤمنَ بالإرادة الحرة، ليس لدينا أي خيارٍ آخر".

ما تراه خيراً"، ثم بكى حزقيا بكاءً شديداً. وقبل أن يغادر النبي إشعيا بلاط الملك حزقيا، جاءه وحي من الله يقول له: "ارجع وقل لحزقيا، ملك شعبي، بأن هذا ما يقوله لك الله، ربك ورب أبيك داوود: "لقد سمعتُ دعاءك ورأيتُ دموعك، وسأشفيك". تبعاً لما تذكره الآيات 1-5 في المقطع العشرين من سفر الملوك الثاني، والآيات 1-5 من المقطع الثامن والثلاثين من سفر إشعيا.

بالتالي أخبر النبي إشعياهو/إشعيا الملك حزقياهو/حزقيا في بداية الأمر أنه لن يشفى من مرضه، لكن الله عز وجل شافاه وعافاه منه، وعاش خمسة عشر سنة بعد مرضه، فالله عز وجل سمع دعاءه وتضرعه ومنحه الحياة. ومن هذه القصة يوضح لنا التلمود عبرة هامة: "إياك أن تتوقف عن الدعاء حتى لو كان هنالك سيفٌ مُسلطٌ على رقبتك"³، لهذا نتوجه مُتضرعين بالدعاء إلى الله عز وجل ونحنُ غيرُ مُستسلمين للقدر.

في الوقت نفسه، يوجد فرقٌ شاسعٌ بين النبوءة والتنبؤ، فحين يتحقق ما نتنبأ به فهذا يعني نجاح التنبؤ، أما عندما تتحقق النبوءة فهذا يعني فشلها، لأن النبي يأتي إلى قومٍ مُحدراً إياهم من مغبةٍ اقرار عملٍ ما، فالنبي لا يقول لأحدٍ "سوف يحدثُ كذا وكذا"، بل يأتي إلى القوم قائلًا لهم: "سوف يحدثُ كذا وكذا إن لم تُغيروا كذا وكذا". بالتالي فإن النبي يُخاطبُ حُرِّية الاختيار التي يتمتع بها الإنسان، ولا يُخاطبُ حتمية القدر.

وخلال حضورِي لإحدى مُحاضرات الباحث الكبير في شؤون الإسلام برنارد لويس، وجّه له أحد الحضور سؤالاً حول تنبؤاته بعواقب إحدى السياسات الأمريكية المتعلقة بالتدخل الخارجي في بلدانٍ أخرى، أجاب برنارد إجابة رائعة قائلًا: "أنا مؤرخ، لهذا فإن تنبؤاتي تكون في سياق الماضي. أضف إلى ذلك أنني مؤرخٌ مُتقاعدٌ، بالتالي حين أتنبأ فإن تنبؤاتي تكون قديمة الطراز". في الحقيقة، فإن إجابته هذه تمثل في مضمونها إجابة يهودية بحته على سؤال كهذا.

وإذا ما نظرنا لقدراتنا العلمية في القرن الواحد والعشرين فإننا سنجدُ أننا نمتلك كمًّا هائلًا من المعرفة على كافة المستويات. فإذا نظرنا للأعلى سنجدُ كونًا شاسعًا يضم بين ثناياه مائة مليار مجرة، وفي كل مجرة مائة مليار نجمة وجرم سماوي. وإذا نظرنا للأسفل نجدُ جسم الإنسان الذي يحتوي على مئات التريليونات من الخلايا، وفي كل خلية نسختان مُتماثلتان من الخريطة الجينية لكل إنسان، والتي تحتوي على حوالي مليار رمز، ولو جمعناها في كتبٍ على هيئة حروفٍ لشكلت مكتبة تضم خمسة آلاف كتاب. لكن ورغم هذا القدر الهائل من المعرفة يظل هناك جانبٌ واحدٌ لن نتمكن من معرفته أبدًا: ماذا سيحدثُ لنا الغد؟ يقول الروائي الإنجليزي إل بي هارتلي في هذا السياق: الماضي يُشبهُ دولة أجنبية، لكن المُستقبل يُشبهُ دولةً لم يكتشفها أحدٌ بعد، لهذا السبب تفشلُ التنبؤات بالعادة.

كما ويوجدُ فرقٌ شاسعٌ بين الطبيعة بشكل عام وبين طبيعة الإنسان على وجه الخصوص، فالإنسان في حضارة بلاد الرافدين كان قادرًا على التنبؤ بحركة الكواكب تنبؤًا دقيقًا، والحال نفسه في

3. Berakhot 10a.

وقتنا الحالي، إذ ليس بإمكاننا التنبؤ بما سيقوم به البشر بالرغم من وجود إمكانيات هائلة لتشريح الدماغ البشري ودراسة النظام العصبي، لأن أفعال البشر دائماً ما تكون مُفاجئةً وغير متوقعةٍ بالنسبة لنا.

والسبب وراء ذلك هو أننا أحرارٌ، فنحن نختارُ ونرتكبُ الأخطاء ونتعلمُ ونتغيَّرُ ونكبرُ. ومن كان فاشلاً في المدرسة قد ينال جائزة نوبل مُستقبلاً، والقائد الذي خيَّب آمال الناس قد يُظهرُ خلال مرحلة معينة جُراته وحِكمته عندما تقع المآسي. وحتى رجل الأعمال الذي لا يرى سوى العمل في حياته قد يُقرّر خلال لحظةٍ معينة أن يلتفت للأخلاقيات ويُقرّر مساعدة الفقراء والمحتاجين بقية حياته. إنني أعرف شخصياً عدداً من الأشخاص الناجحين في حياتهم ممن أحبّتهم مُعلّموهم في المدارس وقالوا لهم بأنهم عديمو القيمة ولن يكون لهم أي قيمة أبداً. بالتالي فإننا نُخالف التوقعات دوماً، وهذا أمر لم يُفْلح العلم في تفسيره حتى الآن، وربما لن يُفْلح في تفسيره أبداً. في الوقت نفسه نجد مَنْ يؤمن بأن الحُرّيّة هي مجرد وَهم، لكنها في الحقيقة ليست كذلك، فهي التي تجعل الإنسان إنساناً.

إننا أحرارٌ لأننا لسنا مُجرد "مفعولٍ به"، بل نحنُ "الفاعلُ" إن صحَّ التعبير، وردودُ أفعالنا هي محصّلةٌ للمنظور الذي ننظر من خلاله للأمور، لا للجانب المادي لتلك الأمور فقط. كما بإمكاننا الاختيار بين التفاعل مع الأحداث من عدمه، فنحنُ لدينا عقلٌ لا مُجرد دماغ، ولدينا أفكار لا مُجرد أحاسيس، كما أننا نمتلك ردّ الفعل لكن بإمكاننا اختيار عدم الردّ. لهذا يوجد شيء ما بداخلنا لا يُمكننا اختزاله في الأسباب والنتائج المادية والملموسة فقط.

وقد تحدّث آباؤنا وأجدادنا عن هذه المسألة بمنتهى العمق والرّصانة، موضحين بأننا أحرارٌ لأنّ الله عزّ وجلّ حُرٌّ، لهذا خلقنا بصورته، وهذا هو المقصود من الكلمات الثلاثة التي قالها الله عزّ وجلّ لنبيّه ورسوله موشيه/موسى أثناء معجزة العليقة المُشتعلة، حيث سأل موشيه الله عن اسمه، فأجابه قائلاً: "إهييه أشير إهييه" (بمعنى أكونُ من أكونُ). وتُترجم هذه العبارة عادة على أنها "أنا مَنْ أنا"، لكن المعنى الحقيقي لها هو "أكونُ من أختارُ أن أكونُ"، بمعنى أن الله عزّ وجلّ هو إله الحُرّيّة الذي لا يُمكننا التنبؤ بشؤونه. ولنلاحظ بأنّ الله عزّ وجلّ في بداية مهمّة نبيّ الله ورسوله موشيه قد أمره أن يقودَ الشعب اليهودي من الاستعباد إلى الحُرّيّة، بالتالي أرادَ الله أن يكون بنو إسرائيل شهود عيانٍ على مدى قوّة وعنفوان الحُرّيّة.

لهذا، لا تؤمنوا بأن المُستقبل مكتوبٌ ومُقدّرٌ، لأنه ليس كذلك، فليس هنالك قَدَرٌ لا يُمكننا تغييره، وليس هنالك توقُّعٌ لا يُمكننا مُخالفته. كما أن السقوط والفسلّ ليس أمراً مُقدّراً علينا، والحال نفسه بالنسبة للنجاح. إننا لا نتنبأ بالمستقبل لأننا نحنُ من نصنعُ المُستقبل من خلال اختياراتنا وقوّة إرادتنا، ومن خلال إلحاحنا وإصرارنا على البقاء على قيد الحياة.

وأكبرُ دليلٍ على هذا هو الشعبُ اليهودي نفسه، فأوّل مرجع ذُكر فيه بنو إسرائيل خارج كتاب التناخ كان عبارة عن كتاباتٍ محفورة على أحد الأعمدة الفرعونية التي يعود تاريخها إلى عام 1225 قبل الميلاد، والتي تعود إلى عهد الفرعون مرنبتاح الرابع الذي جاء بعد رمسيس الثاني، حيث حُفِرَ على هذا العمود هذه العبارة: "يسرائيلُ انتهت، وزرعُها اندثر". وهذه العبارة تتضمن معنى الاندثار والفناء، وتُعبّرُ

عن المساعي الحثيثة للقضاء على اليهود ومسحهم من التاريخ الإنساني على يد أعدائهم، لكن اليهود صمدوا وظلّوا على قيد الحياة لقراءة أربعة آلاف عام. لقد ظلّوا شعباً يافعاً وقوياً رغم كل الظروف.

لهذا، عندما أراد يعقوف إخبار أبنائه عمّا سيحلّ بهم مُستقبلاً، انقطع الوحي الإلهي عنه، فأبناؤنا يُفاجئوننا مراراً وتكراراً تماماً كما نقوم نحنُ بمفاجأة الآخرين بأفعالنا وتصرفاتنا. إننا مخلوقون بصورة الله أحراراً، ونحنُ مُؤيّدون ببركته ونِعِمِه علينا، لهذا فإننا نمتلكُ الإمكانية والقابلية لكي نُصبح عظماء لدرجة يعجزُ فيها الآخرون بل ونعجزُ نحنُ أنفسنا عن التنبؤ بها.

شموت

שמות

شموت

هو النصّ الأسبوعي الأوّل من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الأوّل وينتهي بالآية الأولى من المقطع السادس.

كيف تتحوّل النّعمة إلى نعمة

يختتم سفر التكوين فصوله ومقاطعته بنهاية تطغى عليها ملامح الهدوء إلى حد ما، فهذا هو يعقوف/ يعقوب يعثر أخيراً على ابنه المفقود، فالتأم شمل العائلة من جديد. كما صَفَح يوسف عن إخوته، وعاش أبناء العائلة في كنفه وتحت حمايته بمنطقة غوشان التي كانت واحدة من أكثر أراضي مصر ازدهاراً آنذاك، فأصبَحوا يمتلكون المنازل والأماك والطعام ويتمتعون برغد العيش الهنيء بحماية أخيهم يوسف في ظلّ عرش فرعون. في الحقيقة، تبدو هذه الحُقة من حياة أبناء أفرهام/إبراهيم وكأنها إحدى الفترات الذهبية التي عاشتها عائلة أفرهام عبر تاريخها.

لكن سرعان ما تتبدّل الأحوال مثلما يحدث عادةً، فتُخبرنا التوراة في الآية الثامنة من المقطع الأوّل من سفر الخروج بالتالي: "وقام ملكٌ جديدٌ على مصر لم يُشاهد يوسف". وهُنا تنقلب الأمور رأساً على عقب نتيجة لتغيّر المناخ السياسي ووصول ملك فرعوني جديد إلى عرش مصر، بالتالي خرجت العائلة الإبراهيمية من كنف العائلة الحاكمة، وهُنا يقول الفرعون الجديد لمُستشاريه: "فقال لِقومه، هم ذا قومٌ إسرائيل أكثر وأعظم منّا"¹، وهُنا يستعمل اللقب "قوم" للمرة الأولى في التوراة لوصف لبني إسرائيل. "تعالوا نحتال لهم فلا يكثرون، ويكون إذا وافينا الحرب، انضافوا هم أيضاً على أعدائنا فيحاربوننا ويهربوننا من البلاد" تبعاً لما تُخبرنا به الآيات التاسعة والعاشر من نفس المقطع. وبتلك الكلمات يبدأ عصر الظلم الذي سيُلقي بظلاله على حياة بني إسرائيل في مصر: فالسُخرة تتحوّل إلى عبودية، والعبودية تتحوّل لاحقاً إلى محاولة للإبادة الجماعية.

إن هذه القصة محفورة في ذاكرتنا اليهودية ويتناقلها جيلٌ بعد الآخر حين يرويها الآباء للأبناء كل عام، كما أننا تُردّدُها بشكل مُختصرٍ يومياً من خلال صلواتنا، لأن هذه القصة هي جزءٌ من كونك يهودياً. لكن توجد عبارة واحدة تُشعّ بِبريقٍ سحرها من بين ثنايا هذه القصة: "وكان كلما عدّبوهم، كانوا يكثرُونَ وييسرون" مثلما تذكر الآية الثانية عشرة من نفس المقطع ونفس السفر. بعبارة أخرى، كلما تعرّض اليهود للظلم والعذاب كلما تشبّبوا أكثر بديانتهم اليهودية، وهذا الظلم جزءٌ من معنى أن يكون

1. لأول مرة في التاريخ المعاصر يظهر تلميح يشبه في محتواه الكتاب الروسي المزيّف "بروتوكولات حكماء صهيون". اتّسمت حياة اليهود في الشتات بالضعف، لكن دوماً كان يُنظر إليهم على أنهم أصحاب النفوذ والسلطة. وعند ترجمة هذا الأمر يُصبح السؤال كالتالي: كيف تمكّن اليهود من تجاوز المنزلة الوضيعة التي وضعناهم فيها؟

انبثقت حركة حسيديّة ضحّت الدماء في عروق الحياة الروحانية اليهودية من جديد عبر الشّعير والإنشاد والغناء. وعقب المحرقة التي تعدّ واحدة من أفظع المآسي التي عرفتها الإنسانية بأكملها المرء يهودياً، إذ كلما تعرّض اليهود للظلم كلما ازدادوا قوّةً وعُنفواناً، لأن اليهود قوم لا يصبرون على الشدائد فحسب، بل يزدهرن وتزداد شوكتهم أثناءها.

في الوقت نفسه، فإن التاريخ اليهودي لا يُمكنُ اختزاله في صبر اليهود على الظلم والشدائد ونجاتهم منها فقط (تلك المصائب والشدائد الكفيلة بأن تفتك بأقوام وشعوب أخرى)، بل يتضمّن هذا التاريخ أيضاً بناء اليهود لأنفسهم ووقوفهم على أرجلهم من جديد، فمع كل ظلمٍ يحلّ بهم يكتشفون أن لديهم مخزوناً من القوّة الروحانيّة الكفيلة بتجديد أشكال التعبير عن تجربتهم الجماعيّة، باعتبارهم قوماً يحملون الرّسالة الإلهيّة إلى العالم بأسره.

كما أن التاريخ اليهودي حافلٌ بالمآسي التي خلّفت وراءها أشكالاً جديدة من الإبداع، فعلى سبيل المثال جاء أعظم رُسل اليهود فصاحةً وبلاغةً عقب انقسام مملكة سليمان بعد وفاته، وأقصدُ هنا رُسل الله عاموس وهوشع ويشعياهو/ إشعياهو/ إرمياء. وعقب الخراب الأوّل الذي تعرّض له الهيكل اليهودي المقدّس وما تلاه من سبي بابلٍ لليهود، جاء عصرُ إحياء التوراة لتكون جزءاً من حياة الشعب اليهودي بأكمله، وذلك بفضل مجهود النبيّ يحزقييل/حزقيال (أو حسقييل) وعزرا ونحميا التي تكلّلت بإنشاء منظومة دراسية مُتكملة لدراسة التوراة في المدارس الدينية اليهودية. وعقب الخراب الثاني الذي تعرّض له الهيكل ظهر الأدب الحاخاميّ اليهودي الذي انتقل شفهيّاً من جيل لآخر، والذي تم تدوينه لاحقاً في كُتب المشناه وتفاسير المدارس والغمارا.

والحال نفسه عقب حُكم الصليبيين، فمن ثانياً ظلّهم انبثقت مدرسة صلاحية روحانيّة للفكر اليهودي الأشكنازيّ الحسيدي* في شمال أوروبا، وعقب انتشار محاكم التفتيش الإسبانية انبثقت حلقات الدراسة الصوفيّة اليهوديّة التي تميّزت بشعرها وأناشيدها وصلواتها في منطقة صغد، والتي كان يُطلق عليها حلقات القبالة اللوربانية نسبة إلى مؤسسها الحاخام يتسحق/إسحق لوريا. وعقب الفقر المدقع والظلم والاضطهاد الذي تعرّض له يهود شرق أوروبا، وُلدت دولة إسرائيل التي تُجسّد في وجودها أعظم إثباتٍ على الهوية اليهودية الجماعية بعد مضيّ أكثر من ألفي سنة على نفي اليهود وشتاتهم من هذه الأرض.

في الوقت نفسه، فإن كلمة "أزمة" في اللغة الصينيّة يُقابلها رسمٌ رمزيّ يعني أيضاً "الفرصة". لهذا فإن أي حضارة بشرية باستطاعتها رؤية النعمة الموجودة بين ثنايا النعمة ورؤية بصيص النور بين ثنايا الظلام الدامس بإمكانها البقاء واجتياز الأزمة ومصائب الدهر.

أما اللغة العبرية فتوضّح هذه الفكرة بطريقة أفضل بكثير، فكلمة أزمة أو مصيبة في اللغة العبرية هي "مشير"، لكنها في الوقت نفسه تحملُ معنىً آخر: "كُرسِيّ الولادة"، بحيثُ توجد دلالةٌ معنويّة

*ملاحظة توضيحية من المترجم: هذه الحركة الحسيديّة الأشكنازية ليست الحركة الحسيديّة المعروفة حالياً والتي ظهرت لاحقاً على يد الحاخام بعل شيمتوف. والحركة الحسيديّة الأشكنازية هي حركة تصوّفية تدعو إلى الزهد وظهرت في أرض ألمانيا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد.

محفورة في الوعي اليهودي مضمونها بأن الألم الذي يتمخض عن الشدائد والمصائب هو شكل من أشكال الألم الجماعي الذي لا يختلف في مقداره ونوعيته عن الألم الذي تشعر به المرأة خلال مخاض الولادة. هنالك شيء جديد سرى التور، وهذه هي الفكرة التي تنطلق منها عقلية اليهود الذين "كلما عذبوهم، كانوا يكثرون وييسرون".

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما هو سرّ قدرة اليهود على تحويل الضعف إلى قوة، والنعم إلى نعم، والظلام إلى نور؟ في الحقيقة يرجع سرّ هذه القدرة إلى اللحظة التي تحوّل فيها اسم يعقوف إلى "يسرائيل"، تلك اللحظة التي واجه فيها ملاك الله وحيداً في ظلمة الليل الحالك، ومع بزوغ فجر تلك الليلة توّسل الملاك إلى يعقوف طالباً منه أن يطلق سراحه، فقال له يعقوف: "فلما طلع الفجر قال أطلقني، لقد طلع الفجر، قال لا أطلقك دون تباركني" تبعاً للآية السادسة والعشرين من المقطع الثاني والثلاثين من سفر التكوين.

لقد كانت المواجهة بينهما مصدراً لصلابة اليهود واستعصائهم على أن يكسروا أو أن يهزموا، وهنا يكمن السرّ: ربّما نكون مرهقين منهكين لدرجة أننا نمضي قدماً في الحياة مترنحين تماماً كما كان يعقوف يترنح ويعرج بعد صراعه مع الملاك، لكننا لن نترك خصومنا قبل أن ننزِع منهم بركة أو نعمة ماء، ولاحقاً ستصبح هذه واحدة من المسلّمات الدائمة التي تُعبّر عن أحد الأسس التي تقوم عليها الهوية اليهودية، ومنها اكتسبوا اسمهم: شعب إسرائيل، الشعب الذي "لا يُسمّى اسمك يعقوب أبداً، بل إسرائيل، لأنك تصارعت مع الله ومع الناس وطقت ذلك" تبعاً لما تذكره الآية الثامنة والعشرون من نفس المقطع. إنهم باختصار قومٌ يزدادون قوةً وعنفواناً عقب كل صراع يخوضونه وعقب كل مأساة يمرّون بها.

وفي هذا السياق فقد ذكّرتني مقالة قرأتها في إحدى الصحف البريطانية في شهر أكتوبر/تشرين الأول عام 2015م بهذه الميزة الاستثنائية التي يتحلّى بها اليهود، فخلال تلك الفترة كانت دولة إسرائيل تتعرّض لموجةٍ عارمةٍ من الهجمات الإرهابية، حين كان الفلسطينيين يقتلون المدنيين الإسرائيليين العزل ويعتدون عليهم في الشوارع ومواقف الحافلات في شتى أنحاء البلاد، فتبدأ المقالة بالعبارات التالية: "إسرائيل دولةٌ مذهلة بالفعل، دولةٌ مفعمة بالحياة والنشاط، إنها كالمغناطيس الذي يجذب الموهبة والاستثمار: إنها باختصار حاضنةٌ للإبداع". ثم أتت المقالة على ذكر تفوّق إسرائيل على مستوى العالم في مجالات عديدة منها الفضاء والطاقة النظيفة وأنظمة الري والزراعة المتطورة والبرمجة والأمن الإلكتروني ومجال الأدوية والصيدلة، هذا عدا عن أنظمة الحماية والدفاع.² ويتابع كاتب المقال حديثه عن دولة إسرائيل قائلاً: "جميع هذه الإنجازات جاءت بفضل قوة العقلية الإسرائيلية، فهي دولة لا تمتلك الثروات الطبيعية، وهي في الوقت نفسه مُحاطةٌ بالدول المعادية لها من كل حدٍ وصوب. إن هذه الدولة هي مثالٌ حيٌّ على قوة التعليم التكنولوجي والهجرة والمهاجرين، والمنافع التي يجنيها نظام الخدمة العسكرية الفعال والمناسب". في الحقيقة، فإن الإنجازات اليهودية

2. Luke Johnson "Animal Spirits: Israel and Its Tribe of Risk-Taking Entrepreneurs", Sunday Times, October 4, 2015

لا تقتصر على هذه المجالات فحسب، فاليهود شعبٌ له باعٌ طويلٌ في تحقيق الإنجازات أينما حلّوا وفي أي وقتٍ منحوا الفرصة لذلك.

وبالعودة إلى المقالة، يتابع الكاتب تفسيراته للأسباب التي تقف خلف تلك الإنجازات اليهودية العظيمة قائلاً: "إنّ ترابط وقوة العائلة اليهودية، وشغف اليهود وحُبهم للتعليم، ورغبتهم في الاستقلالية والمخاطرة كأسلوب حياة في الوقت الحاضر بل وعبر التاريخ، جميعها أسبابٌ تقف خلف تلك الإنجازات العظيمة. لقد كانت منطقة بلاد الشام موطناً لأولى الحضارات البشرية التي مارست مهنة الزراعة والتجارة، وربما كان ذلك بمثابة البذرة التي عُرسَت في الجينات اليهودية منذ ذلك الحين".

وفي نهاية المقالة عَزَى الكاتب الأسباب التي تقف خلف تلك الإنجازات إلى ثقافة اليهود وطبيعة مجتمعاتهم، وفعلاً هنالك جانبٌ مُحدد من الجوانب الرئيسية للثقافة اليهودية يتعلق بهذا الأمر: إنه الاستجابة اليهودية على الأزمات والمصاعب وطريقة تعاملهم معها، فمن يحمل بين ثناياه عواطف يعقوف سيكون ردّه على كل مصيبة تحلّ به هو الآتي: "لا أطلقك دون أن تُباركني". لقد كان هذا تماماً حال اليهود حين جاؤوا إلى أرض إسرائيل ورأوا أرض النقب الصحراوية الجرداء القاحلة، فما كان منهم إلا أن بدأوا بابتكار الوسائل التي من شأنها أن تجعل الصحراء أرضاً خضراء مُزدهرة، وبدأوا بتشجير الأرض لتنمو وتمتد الغابات فيها بالشكل الذي نراه في وقتنا الحالي.

والحال نفسه فيما يتعلق بمواجهة جيوش أعدائها الذين يحيطون بها من كل حدٍ وصوب، حيث طوّر اليهود أشكالاً مختلفة من وسائل التكنولوجيا العسكرية المتقدمة والتي شكّلت رادعاً لتلك الجيوش، الأمر الذي أدى إلى سيادة نوع من السلام والاستقرار في المنطقة. كما أن الحروب والهجمات الإرهابية التي كانت تتعرض لها إسرائيل أجبرت الكوادر الطبية الإسرائيلية على تطوير أساليب ومهارات متفوّقة جداً على مستوى العالم للتعامل مع القضايا النفسية المتعلقة بالصدمة ومرحلة ما بعد الصدمة.

بالتالي وجدّ اليهود وسيلةً لتحويل النّعمة إلى نعمة، وهذا ما وصفه المؤرّخ بول جونسون بأسلوبٍ رائعٍ جداً حين قال:

"لقد أثبتّ اليهود جدارتهم خلال تاريخهم العريق والممتدّ لأكثر من أربعة آلاف عام، ولم يُثبتوا تلك الجدارة في البقاء على قيد الحياة رغم ما حلّ بهم من مآسي فحسب، بل أثبتوا جدارتهم أيضاً في قدرتهم الاستثنائية على التأقلم مع مختلف المجتمعات التي زجّهم فيها القدر، بالإضافة إلى قدرتهم على الاستفادة حتى من أقلّ الموارد التي أتاحتها لهم المجتمعات البشرية. لا يوجد شعبٌ آخر استطاع أن يُحول الفقر إلى غنى أو أن يكون مُنتجاً أو مُستغلاً للموارد والثروات بشكل يفيد البشرية جمعاء مثل اليهود، ولا يوجد شعبٌ آخر مثلهم نجح في تحويل مصائب الدهر إلى سببٍ للابتكار والإبداع".³

3. Paul Johnson, The History of the Jews (London: Weidenfeld and Nicolson, 1987), 58.

في الواقع، يوجدُ بعدان أحدهما روحانيٌّ والآخرُ عمليٌّ في مقدرة اليهودِ على تحويلِ لحظاتِ الأسى والتّعاسة إلى لحظاتِ ابتكارٍ وإبداع، حيثُ يبدو الأمرُ وكأنّ صوتاً من داخل أعماقنا يُخاطبنا قائلاً: "هذه الظروف المريرة العصبية التي تمرّ بها تعني وجودَ مهمّةٍ ينبغي عليك إنجازها، ومهارةٍ ينبغي عليك اكتسابها، وقوّةٍ ينبغي عليك تطويرها، ودرسٍ ينبغي عليك تعلّمه، وشرّ عليك التخلّص منه، ونورٍ عليك إفساح المجال له حتى ينطلق، ونعمةٍ ينبغي عليك اكتشافها، لهذا اخترتكم يا بني إسرائيل لتكونوا شاهداً حيّاً يُثبتُ للبشرية جمعاء أن بإمكان النعمة أن تتحوّل إلى نعمةٍ عظيمةٍ إذا كافحتم من أجل ذلك بعقيدة وإيمان راسخين".

وفي هذا العصر الذي يرتكبُ فيه البعضُ جرائمَ عُنفٍ دمويّةٍ باسم الله عزّ وجلّ، إله الرّحمة، فإن بني إسرائيل ظلّوا شاهداً حيّاً على أن مثل هذه الأعمال بعيدةٌ كل البعد عن الطريق المؤدّي إلى الله، وأن هذا ليسَ منهجَ أفرهام/إبراهيم للوصول إلى الله إلهاً وإله الحياة المقدّسة. وحينما نشعرُ بالضعف أمام الظروف العصبية التي نمرّ بها، مُتسائلين متى ستنتهي هذه الظروف، ينبغي علينا أن نتذكر هذه الكلمات: "وكانَ كُلُّما عَدُّبُوهُم، كانوا يَكْثُرُونَ وَييسِرُونَ". إننا قومٌ قد يصفهم البعضُ بأنهم مُنهكون أو مُرهقون أحياناً، لكننا شعبٌ لن يُهزَمَ أبداً، لأن طريقَ الله عزّ وجلّ هو الطريقُ الصحيح للحياة.

فأيرى

هو النصّ الأسبوعي الثاني من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الثانية من المقطع السادس وينتهي بالآية الخامسة والثلاثين من المقطع التاسع.

أرواحٌ في عالمٍ ماديّ

تتطرقُ التّوراةُ أحياناً إلى موضوعٍ في غاية الأهمية لكن بأسلوبٍ يجعلُ الأمرَ يبدو وكأنه موضوعٌ هامشي لا قيمة له، وهنالك مثالٌ مناسبٌ على مثل هذه الحالة في بداية هذا النصّ الأسبوعي. لقد قرأنا في النصّ الأسبوعيّ السابق كيف بعثَ اللهُ عزَّ وجلَّ نبيّه ورسوله موشيه/موسى ليقودَ بني إسرائيلَ نحو الحريّة، وكيف باءت مُحاولات موشيه بالفشل في بداية الأمر. في الوقت نفسه، لم يكتفِ فرعون بعدم سماحه لبني إسرائيل بالخروج من أرض مصر فحسب، بل جعل ظروفَ عملهم سيئة جداً، إذ كان ينبغي عليهم صنّع نفس الكمية من الطوب، لكن صار يتوجب عليهم أيضاً أن يصنعوا نفس الكمية ويجمعوا التبن بأنفسهم. لاحقاً بدأ بنو إسرائيل يشتكون إلى فرعون ثم إلى موشيه الذي بدوره بدأ يرفع شكواهم إلى الله عزَّ وجلَّ، تبعاً لما تخبرنا به الآية الثانية والعشرون من المقطع الخامس من سفر الخروج: "فرجع موشيه إلى الله قائلاً: يا ربّي، لِمَ أبلّيت هؤلاء القوم، ولمَ بعثت بي".

وفي بداية هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التّوراة يؤكّد اللهُ عزَّ وجلَّ لموشيه بأنّه سيُخرجُ بني إسرائيل من أرض مصر ويحرّرهم من العبودية، طالباً منه إيصالَ هذه الرّسالة لهم. ثم تأتي الآية التاسعة من المقطع السادس لتقول لنا الآتي: "ثمّ كلّم موشيه بني إسرائيل بذلك، ولم يقبلوا منه، من ضيقِ أرواحهم ومن خدمتهم الصعبة". في الحقيقة فإن الجزء المكتوب بخطٍ مائلٍ من الآية يبدو في غاية البساطة، فبني إسرائيل لم يكرثوا بما قاله موشيه لأنه أوصلَ إليهم الرّسالة الإلهية قبل أن يفعل أي شيء في سبيل تحسين أوضاع معيشتهم، لهذا كانوا مُنهمكين تماماً في الصّمود أمام تلك الظروف المعيشية القاسية ولم يكن لديهم الوقتُ لسماع وعودٍ طوباويّة خياليّة واهيةٍ بدت بالنسبة لهم وكأنها لا تستندُ على أي أساس واقعيّ. فكان من الواضح جداً بأن فشلَ موشيه في محاولته إيصال الرّسالة الإلهية إليهم في الماضي قد جعلهم مقتنعين بأنه سيفشلُ أيضاً في إيصالها مُستقبلاً.

لكن يوجدُ أمرٌ غامضٌ يجري في الكواليس، فعندما التقى موشيه بالله عزَّ وجلَّ خلال معجزة العليقة المُشتعلة، طلبَ اللهُ منه أن يقودَ قومه نحو الحريّة، لكن موشيه رفض ذلك انطلاقاً من اعتقاده بأن قومه لن يُصغوا إليه، فهو لم يكن رجلاً مُتحدّثاً أو فصيحاً، كما كانت لديه مشاكل في النطق، وتبعاً للآية الثلاثين من المقطع السادس من سفر الخروج، فقد كان موشيه رجلاً "ألثغ الفم"،

بالتالي كان يفتقد للجُرأة والفصاحة اللازمتين لمخاطبةِ قومه، كما لم يكن بإمكانه إقناعهم لأنه لم يكن قائداً ذا قُدرةٍ على الإلهام.

لكن سرعان ما يتّضح لنا بأن موشيه كان مُحققاً ومُخطئاً في الوقت نفسه: فقد كان مُحققاً بالنسبة لما قاله عن قومه وبأنهم لن يُصغوا إليه، لكنه كان مُخطئاً فيما يتعلّق بالسبب الكامن وراء عدم إصغائهم إليه وتجاهلهم لرسالته، فتجاهلُ بني إسرائيل لرسالة موشيه لم يكن سببه عدم تمتّعه بالشخصية القيادية، ولا ضعفُ مقدرته على مخاطبتهم والحديث معهم على الملأ، فالأسبابُ الكامنة وراء ذلك بعيدة كل البعد عن موشيه وشخصيته. في الحقيقة، لم يُصغ بنو إسرائيل لموشيه لسبب واحد: وهو "ضيق أرواحهم وخدمتهم الصعبة". بعبارة أخرى: إذا أردت أن تُحسن من الحالة الروحية لِقومٍ فإنه ينبغي عليك أولاً أن تُحسن حالتهم المادية، وهذه القاعدة تُمثّل جانباً من أهمّ الجوانب الإنسانية في الديانة اليهودية.

وقد أكّد الحاخام الكبير موشيه/موسى بن ميمون على هذه النقطة في كتابه الشهير "دلالة الحائرين"،¹ موضّحاً بأن التوراة لها غايتان رئيسيتان: الغاية الأولى هي سلامةُ الرّوح، والغاية الثانية هي سلامةُ الجسد. وبالنسبة لسلامة الرّوح فهي تمثّل جانباً روحانياً داخلياً، أما سلامةُ الجسد فتتطلبُ مُجتمعاً قوياً واقتصاداً مُزدهراً وسيادةً للقانون واقتساماً للأدوار والأعمال وتطويراً لحالة التبادل التجاري وغيرها من النواحي المادية الهامة في الحياة. بالتالي فإن سلامةُ الجسد تتحقّق حينما نلبي الاحتياجات المادية في حياتنا، لكن في الوقت نفسه لا يمكن لأحدنا أن يُلبّي هذه الاحتياجات وحيداً، فلكل منّا تخصصه في هذا العالم، لهذا نتبادل المهام والوظائف والأدوار، مما يجعلنا بحاجة إلى مجتمعٍ صالح وقويّ وعادلٍ حتى نلبي هذه الاحتياجات.

من ناحية أخرى، يوضّح الحاخام موشيه بن ميمون بأن الاحتياجات الروحية للإنسان تعتبر أسمى وأرقى بكثير من الاحتياجات والإنجازات المادية، لكن يجب علينا تلبية تلك الاحتياجات المادية أولاً لأنّ "الإنسان الذي يُعاني من الجوع والعطش أو البرد والحرارة لا يُمكنه استيعاب أي فكرة حتى لو قام آخرون بإيصالها له، بل وستكون عملية التفكير أكثر صعوبة عندما يمرّ المرء بظروفٍ مُماثلة". بمعنى آخر، عندما لا تُلبّي احتياجاتنا المادية الأساسية، فإنه سيكون من المستحيل علينا أن نرتقي ونسَمو روحياً. وهذا كان حالُ بني إسرائيل حينها، فعندما تكونُ ظروف العمل قاسية ومُرهِقة جداً فإن أرواحهم ستكون مُنكسرة جداً هي الأخرى، بالتالي لن يُصغي أيّ منهم لأي كلمة يقولها أي رسولٍ أو نبي، لهذا إذا أردت أن تُحسن من الحالة الروحية لِقومٍ ما، فإنه ينبغي عليك أولاً أن تُحسن حالتهم المادية.

وقد صيغت هذه الفكرة بأسلوب كلاسيكيّ في التاريخ المُعاصر على يد اثنين من علماء النفس اليهود من مدينة نيويورك، العالم أبرهام ماسلو (1908م - 1970م)، والعالم فريدريك هيرزبيرج (1923م - 2000م)، حيث تأثّر أبرهام ماسلو كثيراً بمسألة عجز الكثير من البشر عن تحقيق ما باستطاعتهم تحقيقه فعلاً، كما آمن بأنّ علم النفس لا يجب أن يُركّز على مسألة إيجاد العلاج المُلائم

1. كتاب الحاخام موسى/موشيه بن ميمون "دلالة الحائرين"، المجلد الثالث صفحة 27.

لكل مرضٍ نفسيّ فحسب، بل يجب أن يُركّز أيضاً على موضوع التقدّم الإيجابي للصحة النفسية، وهو ما آمن به مارتن سيلينغمان واضعُ أسس علم النفس الإيجابي. ومن الجدير بالذكر أن أبرهام ماسلو هو صاحبُ مُساهمة بارزة في التاريخ البشري، ألا وهي "هرمُ ماسلو للحاجات الإنسانية".

وباعتبارنا بشراً، فإننا لسنا مُجرد تشكيلة من الرغبات والشهوات فقط، بحيثُ يوجدُ تسلسلٌ واضحٌ لحاجاتنا الإنسانية، وهذا ما صنّفه ماسلو في المُستويات الخمسة من ذلك الهرم: **المُستوى الأول يتمثل في الحاجات الفسيولوجية** (الحاجات الجسدية والوظائفية) والتي تتمثل في الحاجة للطعام والمأوى وغيرها من الحاجات الأساسية للإنسان حتى يظلّ على قيد الحياة. **والمستوى الثاني يتعلّق بحاجة الإنسان للأمان**، فالإنسان بحاجة لحماية من الخطر الذي يتعرّض له من الآخرين. أما **المستوى الثالث فيتعلّق بالاحتياجات الاجتماعية**، والتي تتمثل في حاجة الإنسان للحُبّ والانتماء. **والمستوى الرابع يتعلّق بحاجة الإنسان للاعتراف والتقدير**، والذي يتمثل في تقدير المرء لذاته وشعوره بالتقدير والاعتراف من الآخرين. **والمستوى الذي يتربّع على عرش الحاجات الإنسانية جميعها هو تحقيق الذات**: أي تحقيق الإنسان لأقصى إمكانياته وطموحاته، بمعنى أن يصبح الشخص الذي يشعر به، والشخص الذي يجب عليه أن يكون عليه. وخلال سنوات حياته الأخيرة أضاف ماسلو مستوىً آخر إلى قمة ذلك الهرم: **الحاجة للارتقاء والسّموّ الذاتي**، ويقصدُ به حاجة الإنسان للسّموّ والارتقاء عبر الإيثار والعلو الروحانيّ.

وقد قام العالم فريدريك هيرزبيرج بتبسيط هذا الهرم عبر تقسيم جميع تلك المُستويات إلى قسمين اثنين: الحاجات المادية والحاجات الروحية، حيث أطلق على الحاجات المادية للإنسان اسم "حاجات آدم"، في حين أطلق على الحاجات الروحية اسم "حاجات أفرهام/إبراهيم".

كما كان فريدريك مُهتماً على نحو خاصٍ بالعوامل التي من شأنها تحفيزُ العُمّال من أجل العمل، وما توصل إليه نهاية خمسينيات القرن الماضي هو أن النقودَ والرواتبَ والحوافز المالية أياً كانت أشكالها ليست الحافز الوحيد للعمل (وهي بالمناسبة فكرة أعاد عالم الاقتصاد الأمريكي الإسرائيلي دان أرثيلي إحياءها مؤخراً). فالزيادة في الأجر ليست بالضرورة سبباً كافياً لجعلِ العُمّال والموظفين يعملون بطريقة أفضل أو بجهد أكبر ولا حتى بشكلٍ أكثر إبداعاً، لأن المال يحفزهم للقيام بذلك حتى مستوىً معيّن فقط، ولكن في مرحلة معينة يفقد المال تأثيره عليهم.

أما الحافزُ الحقيقي لجميع ما ذكرناه فهو وجود تحدٍّ معيّن يمنح العامل فرصةً للنمو والتطور والإبداع وإيجاد معنى في العمل الذي يقوم به، بمعنى آخر، فإن الحافز الحقيقي هو جعل المرء يستثمر مهاراته العُليا من أجل تحقيق غاية عُليا وهدفٍ سامٍ في حياته. إن المال يُلبّي "حاجات آدم"، في حين أن المعنى يُلبّي "حاجات أفرهام" في حياتنا.

وبناءً على هذه الأفكار يتّضح لنا وجودُ حقيقةٍ تنبّه لها اليهودُ والتزموا بها منذ الأزل، وكان التزامهم بها أكثر من التزام أي حضارة بشرية أو ديانة أخرى عرفها التاريخ. فالغالبية العُظمى من الديانات والمُعتقدات تقوم على أساس ثقافة القُبول والتسليم والخضوع، فعلى سبيل المثال لا الحصر يُعاني العالمُ من الفقر والجوع والأمراض لأن مشيئة الله عزّ وجلّ أرادت ذلك، فهذه هي سُنّة الحياة

التي خلقَ الله بها الكونَ وهذه هي مشيئته. وفي خِضَمِّ ذلكَ يُمكننا أن نجدَ السَّعادةَ والهناءَ والنَّشوةَ، لكن حتى نجدها ينبغي علينا أن نهزُبَ في خيالنا من هذه المآسي، فالبعض يفعلُ ذلكَ عن طريق التأمّل أو الانعزال والاعتكاف في بيتٍ للعبادة، والبعضُ مع الأسفِ يفعلُ ذلكَ عن طريق تعاطي المخدرات بأنواعها، في حين يجدُ البعضُ الآخرَ ضالته في الهروب من الواقع عبر انتظار النعيم الذي سيكون من نصيبه في الحياة الآخرة.

وبشكل عام يُمكننا القول بأن الأديان والمعتقدات الروحية تعتبر بمثابة مُسكّن يُساعدنا على احتمال الألم، لكن الديانة اليهودية ليست كذلك على الإطلاق، فعندما يتعلّق الأمر بالفقر والألم في هذا العالم، فإن دور الديانة اليهودية هو الاعتراضُ لا القَبول، لأن الله عزّ وجلّ لا يريدُ للبشر أن يكونوا جهلة أو فقراء أو مرضى أو جوعاً أو مُضطهدين أو مسلوبي الحقوق، فهم أولياؤه على هذه الأرض، بالتالي يريدُ منا أن نكونُ شركاءه في العملِ من أجل الخلاص. ولهذا السبب تحديداً نرى الكثير من اليهود قد أصبحوا أطباء يُحاربون المرض، ومحامين يُحاربون الظلم، ومعلّمين يُحاربون الجهل، وهو السبب ذاته الذي جعلهم رواداً في عالم الاقتصاد وجعلهم يحصدون العديد من جوائز نوبل، وهذا ما أشار إليه ميخائيل نوفاك في كتاباته مُقتبساً من كلام إرفنج كرستول:

"لطالما كان الفكر اليهودي في حالة انسجام تامّ مع العديد من الشؤون الحياتية الدنيوية، في حين أن الفكر المسيحيّ كان يركز على شؤون الحياة الآخرة ومرحلة ما بعد الموت. فالفكر اليهودي يقوم على توجّه واضح وصریح فيما يخصّ مسألة الملكية الخاصة، في حين أن الفكر الكاثوليكيّ المسيحيّ (المُستمدّ من الفكر القديم للقساوسة والرهبان) كان يُحاول باستمرار صرفَ انتباه أتباعه عن شؤون الحياة الدنيا والتركيز على شؤون الحياة الآخرة. ونتيجة لذلك، وتبعاً لتعاليم علمائهم ورُسُلهم وأنبيائهم، فقد شعرَ اليهود بأنهم موجودون في مكانهم المناسب على هذه الأرض في هذا العالم، بينما ظلّ الكاثوليك يشعرون بأنهم يعيشون في عالم مؤقت، وأن هذا العالم هو مُجرّد مكان للإغواءات الشيطانية، وبأنه مجرد مكانٍ يُشئتُ تركيزهم عن العمل الحقيقي الذي يتوجب عليهم القيام به، ألا وهو تحضيرُ أنفسهم للحياة الآخرة".²

إن الله عزّ وجلّ موجودٌ في هذا العالم أيضاً، لا في العالم الآخر فقط، لكن بالنسبة لنا نحنُ اليهودُ فإنه يتوجّب علينا أن نُشبع حاجاتنا الدنيوية أولاً حتى نرتقي روحياً. وبالنسبة لنا فإن أفرهام كان أكثر عظمةً من آدم، لكن في الوقت نفسه علينا ألا ننسى بأن آدم جاء إلى هذا العالم قبلَ مجيء أفرهام. وعندما يكون العالمُ الماديّ قاسياً فإن العالم الروحاني للبشر سيكونُ محطّماً مُنكسراً، وحينها سيكون من الصعب على البشر الإصغاء إلى ما يُريدنا الله عزّ وجلّ أن نُصغي إليه، حتى لو كان ذلك عن طريق أحدِ رُسُله أو أنبيائه مثل نبيّه موشيه. وهنا أستذكر ما قاله الحاخام الكبير ليفي يتسحق من بيردوتشيف في هذا السياق: "لا تُفكّر بالحالة الروحية لشخصٍ آخر ولا بالحاجة المادية لجسدك، بل فكّر بحالتك الروحية وبالحاجة المادية لشخصٍ آخر".

2. Michael Novak, *This Hemisphere of Liberty* (Washington, DC: American Enterprise Institute, 1990), p. 64

إن القضاء على الفقر وإيجاد علاج للأمراض وتطبيق القانون واحترام حقوق الإنسان جميعها أمورٌ روحانيّة بالدرجة الأولى، ولا تقلّ في أهميتها الروحانية عن الصلوات والأدعية ودراسة التوراة. ولأكونَ دقيقاً أكثر، فإن الصلوات والأدعية ودراسة التوراة هي أمورٌ تسمو في روحانيّتها فوق جميع ما ذكرته آنفاً، لكن جميع تلك الأمور تعتبرُ أموراً ضرورية جداً حتى تتحقّق الروحانية، فالبشرُ لن يصغوا لرسالة الله عزّ وجلّ حين تكون الأرواح مُنكبِرةً مُحطّمة، وحين تكون ظروف معيشتهم وعملهم قاسية جداً.

بوا

هو النصّ الأسبوعي الثالث من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع العاشر وينتهي بالآية السادسة عشرة من المقطع الثالث عشر.

الابنُ الرّوحِيّ

نَشَرَ الكاتِبُ الأمريكي المعروف بروس فيلر كتاباً من أكثر الكتب مبيعاً أطلق عليه اسم "أسرار العائلات السعيدة" (*The Secrets of Happy Families*)¹، وهو كتابٌ مُذهلٌ بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حيث يستندُ في طرحه إلى مجالات بحثٍ ودراساتٍ ضخمة مثل مجال حلّ الصراعات وحلّ المُشكلات وبناء الفريق وغيرها، وذلك حتى يُثبِت للأفراد إمكانية استخدام التقنيات والمهارات الإدارية في المنزل من أجل الحفاظ على تماسك ووحدة العائلة بشكل يَمُنح المساحة لأفرادها للنمو والتطور.

وفي ختام الكتاب يطرحُ بروس فيلر نُقطة لم تكن متوقّعة أبداً، لكنها في الوقت نفسه في غاية الأهمية، حيث يقول بأن أكبر وأهمّ عمل يُمكنك القيام به من أجل عائلتك هو في الحقيقة أكثر الأعمال بساطةً: عليك أن تَبني حِكايَةً تخصُّ عائلتك أنت بالذات". ويتابع مُسهباً حول هذه النقطة مُقتبساً من نتائج إحدى الدراسات التي أجرتها جامعة إموري والتي أظهرت بأنه كلما تعرّف الأبناء على حِكايَةِ وقصّة عائلتهم، "كلّما كان لديهم شعورٌ أكبر بالتحكّم والسيطرة على مناحي حياتهم، وقدّر أكبر من تحقيق الذات، وإيمانٌ أكبر بالاتّجاه الذي تسيرُ عليه العائلة".²

إنّ الحِكايَةَ الخاصّة بالعائلة تُساهمُ إلى حدٍّ كبيرٍ في خلق حالة من الترابط بين أفرادها برابطٍ يَرقي إلى ما هو أبعد من حدود الأفراد أنفسهم، كما ويساعدهم ذلك على خلقِ رابطٍ منطقيٍّ يُمكنهم من إدراك سبب وجودهم في هذا العالم الموجودِ قبل أن يأتوا إليه، وهذا بحدّ ذاته أمرٌ يمنحهم نقطة البداية لتشكيل هويّتهم على أساس متين. إن الحِكايَةَ الخاصّة بالعائلة تجعلُ كل فرد من أفرادها يقول بمُنتهى الثقة: هذا أنا، وهذه هي حِكايَتِي التي أعتبِرُ نفسيّ جزءاً منها، وهؤلاء هم أهلي الذين كانوا هنا قبل أن أولد من صُلبهم، وهذه هي جذوريّ الضاربة في عمق الأرض التي ستجعلني أنبثقُ منها كجذعٍ باسقيٍّ مُمتدٍ نحو عنان السماء.

1. Bruce Feiler, *The Secrets of Happy Families*, New York, William Morrow, 2013.

2. نفس المصدر، لكن بروز فيلر لا يذكر المصدر. لقراءة المزيد انظر هذا المصدر:

Bohanek, Jennifer G., Kelly A. Marin, Robyn Fivush, and Marshall P. Duke "Family Narrative Interaction and Children's Sense of Self". *Family Process*. 54-39 : (2006) 45.1

ولو تتبّعنا ما تذكره التوراة فإننا لن نجد أي جزء منها يؤكّد على تلك الفكرة مثل قصة موشيه/موسى في هذا النصّ الأسبوعي. وخلال أحداث القصة فإن الآفة العاشرة كانت على وشك أن تضرب أرض مصر، وموشيه يعلم تمام المعرفة بأن هذه هي الآفة الأخيرة، وهو يعلم أيضاً أن فرعون لن يسمح لبني إسرائيل بالخروج فحسب، بل سيدفعهم للخروج بأسرع وقت مُمكن بعد أن تحلّ الآفة العاشرة بأرض مصر.

بالتالي، وتبعاً لأوامر الله عزّ وجل، يبدأ موشيه بتحضير بني إسرائيل للمضي نحو الحُرّيّة، لكنه يقوم بذلك بأسلوبٍ فريدٍ ومُميّز جداً، فهو لا يُكلمهم عن الانعتاق من الحرية ولا يحدثهم عن كسر سلاسل العبوديّة، ولا يحدثهم حتى عن الرحلة الشاقّة التي تنتظرهم في الصحراء، ولا يحاول رفع معنوياتهم من خلال إخبارهم عن أرض الميعاد التي وعدّ الله عزّ وجلّ بها أفرهايم/إبراهيم، ويتسحق/إسحق، ويعقوب/يعقوب، تلك الأرض التي تفيض لبناً وعسلاً. إنّه يحدثهم فقط عن الأبناء، وهُنا يُكرّر موشيه الأسلوب ذاته ثلاث مراتٍ في النصّ التوراتي نفسه، حيث يقول في سفر الخروج في المقطع الثاني عشر في الآيتين 26 و27: "وإِذَا قَالَ لَكُمْ بَنُوكُمْ مَا هَذِهِ الصَّنَعَةُ. قُولُوا هُوَ ذَبْحُ إِرْتَاءِ لِلَّهِ، كَمَا أَرْتِي لِبِيوتِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمِصْرَ، إِذْ صَدَمَ الْمِصْرِيِّينَ وَخَلَصَ بِيوتَنَا"، ثم يُعاود تكرار الأسلوب نفسه في المقطع الثالث عشر في الآية الثامنة حين قال: "وَأخْبِرْ ابْنَكَ، فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قَائِلاً: هَذَا لِأَجْلِ مَا صَنَعَ اللَّهُ لِي فِي خُرُوجِي مِنْ مِصْرَ"، وفي الآية الرابعة عشر من نفس المقطع حين قال: "وَإِذَا سَأَلَكَ ابْنُكَ غَدًا قَائِلاً: مَا هَذَا؟ فَقُلْ لَهُ بِشِدَّةٍ يَدٍ أَخْرَجْنَا اللَّهُ مِنْ مِصْرَ".

وما قام به موشيه هو أمرٌ ينافي توقّعاتنا في قصّة كهذه، فبدلاً من أن يحدثهم عن الصباح الباكر، بدأ يحدثهم عن المُستقبل البعيد، وبدلاً من الاحتفال بتلك اللحظة العظيمة التي سيتحرّرون فيها من عبودية فرعون، ظلّ يوكّد لهم على أهمية أن تكون تلك اللحظة جزءاً من الذاكرة الجماعية لبني إسرائيل حتى الأزل. فعلياً، ما أراد موشيه هو أن تتناقل الأجيال اليهوديّة هذه الحكاية وتمزّرها من جيلٍ لآخر، لقد أراد للآباء اليهود أن يكونوا آباءً ومُعَلِّمين في الوقت نفسه، وأراد للأبناء اليهود أن يكونوا حُرّاساً على إرث الماضي من أجل جِماية مُستقبلهم. وبإلهامٍ إلهيٍّ من الله عزّ وجلّ، علّم موشيه بني إسرائيل درساً في مُنتهى الأهمية، وهو الدرسُ ذاته الذي أكّدت عليه الثقافة الصينية لكن بطريقةٍ مختلفة، فهنالكَ مثل صيني يقول: إذا أردت أن تزرعَ لِعَامٍ واحدٍ فازرعَ أُزْرًا، وإذا أردت أن تزرعَ لِعَقْدٍ فازرعَ شجرةً، وإذا أردت أن تزرعَ لِقَرْنٍ فعَلِّمَ طِفْلاً.

لقد عُرِفَ عن اليهود تاريخياً بأنهم يَضَعون التعليم على قمة سلّم أولوياتهم، وفي الوقت الذي كان الآخرون يُشَيِّدون فيه قِلاعاً وقصوراً، كان اليهودُ يَدشّنون مدارسَ ودوراً لدراسة وتعليم التوراة. لهذا حقّق اليهودُ إنجازاتٍ عظيمةً يَفخرون بها على المُستوى الجماعي: فاليهودُ كانوا يقرأون نُصوصهم الدينية في وقتٍ كان فيه العالمُ غارقاً في بَرَاثِن الجَهْل، أضف إلى ذلك السجّل اليهوديِّ الحافل بالإنجازات العلمية والفكرية والعدد الهائل من اليهود الذين كان لهم إسهامات عظيمة في تشكيل وصياغة العقلية الإنسانية المعاصرة، ناهيك عن سُمعة العقلية اليهودية المُشرّفة التي كانت موضع احترام في بعض الأوقات وموضع خوفٍ في أوقاتٍ أخرى، والتي يسخرُ منها البعضُ لأنها عقلية تقوم على الفِطنة والجدال والنقاش وتتصف بمقدرتها على رؤية كافة جوانب الخلاف أياً كان شكله.

في الوقت نفسه، لم تكن تلك هي الرسالة التي أراد موشيه إيصالها، فالله عزّ وجلّ لم يأمرنا قائلاً بأن عليكم أيها اليهود أن تحصدوا جائزة نوبل! بل ما أرادهُ فعلاً هو أن نقوم بتعليم حكاية الخروج من أرض مصر لأبنائنا، وأن نساعدهم في فهم ذاتهم وهويّتهم ومن أين جاؤوا وما الذي جعل آباءهم وأجدادهم مُميّزين عن باقي الأمم والشعوب، كما أردنا أن نُعلمهم عن تلك الأحداث التاريخية التي تشكّلت بسببها حياتهم وأحلامهم. لقد أردنا أن نمنح أبناءنا هويّة مُميّزة من خلال تحويل التاريخ إلى ذاكرة حيّة، بحيث تُصبح تلك الذاكرة بحدّ ذاتها مسؤولة مُلقاة على عاتق جميع الأجيال اليهودية. كما لم يُطلب من اليهود أن يكونوا شعباً من المُثقفين والمفكرين بقدر ما كان مطلوباً منهم أن يكونوا أبطالاً في قصة الخلاص والدراما المرتبطة بها، تماماً مثلما هو مطلوبٌ منهم أن يُلبّوا النداء الإلهي لجلبِ البركات والنعم إلى هذا العالم، وذلك من خلال أسلوب حياتهم وطريقة تقديسهم للحياة.

وخلال عصرنا الحاليّ، فإننا كالكثير من البشر في العالم الغربيّ نتجاهلُ هذا العنصر الروحيّ العميق في العملية التربوية والتعليمية، لهذا يُعتبرُ كتابُ "الابنُ الرّوحِيّ" (*The Spiritual Child*)³ والذي نشرته الباحثة الأمريكية ليسا ميلر مؤخراً واحداً من الأمور التي تُدركنا بهذه الحقيقة المنسية. والبروفيسورة ميلر هي أستاذة وباحثة في مجالي علم النفس والتعليم في جامعة كولومبيا الأمريكية، كما أنها تُشارك في تحرير المجلة الدورية التي تحمل اسم "الروحانية في التطبيق العملي" (*Spirituality in Clinical Practice*). والمتصّححُ لكتابتها سيجدُ أنه لا يتحدّث عن الديانة اليهودية ولا عن أي ديانة أخرى، بل يتحدث تحديداً عن أهمية تشجيع وتحفيز الآباء للجانب الروحيّ لدى أبنائهم.

إن الأطفال بطبيعتهم يمتلكون جانباً روحانياً، فهم في حالة ذهول دائمة من ضخامة هذا الكون ورحابته ومكاننا فيه. إنهم يتمتّعون بقدر كبير من الدهشة التي نشعرُ بها أثناء قراءتنا لبعض الآيات العظيمة في سفر المزامير. إنهم يعشقون القصص والأغاني والعادات والتقاليد والطقوس المُتكررة، كما أنهم يعشقون الأسلوب والطريقة التي توظّفُ بها تلك العادات والتقاليد كلاً من الوقت والعلاقات وأخلاقيات الحياة.

في الوقت نفسه، فإن الشكوكيين والمُلاحدين يسخرون دوماً من وصفِ الدين على أنه الطريقة التي ينظرُ بها الطفلُ إلى العالم، لكن سُخريتهم تلك هي بمثابة تأكيد على هذا الأمر البديهي، وهو أنّ المنظور الذي ينظرُ به الطفل إلى العالم هو منظورٌ ديني أساسه الفطرة والغريزة التي خُلِقَ عليها. وحين نُبعدُ أي طفلٍ عن تلك الفطرة السليمة عبر الاستهزاء بالدين وإبعاده عن العادات والتقاليد وجعله يُركّز فقط على إنجازهِ الأكاديمي وغيره من أشكال النجاح المادّي، فإن تصرفاتنا تلك ستجعله محروماً من أهمّ مُقومات السلامة العاطفية والنفسية للإنسان.

وهذا ما توضّحه الأستاذة ليسا ميلر من خلال أدلة مُذهلة يُثبتها البحث العلمي ذاته، إذ بيّنت نتائج البحث بأنّ الأطفال الذين ينشؤون ويتعرعون في بيوتٍ تسودها الأجواء الروحانية، يكونون أقلّ

3. Miller, Lisa .*The Spiritual Child: The New Science on Parenting for Health and Lifelong Thriving* ,New York, St Martin's Press, 2015.

عُرْضة للإصابة بالاكْتئاب والعرق في مُستنقع المخدّرات والكحول، كما أنهم أقلُّ عُنْفاً وعدوانيّة من غيرهم من الأطفال، وأكثر إحساساً بحميمية وعاطفيّة العلاقات الجنسيّة. كما وتلعّبُ الروحانيّة دوراً بارزاً في تحقيق الصّحة النفسيّة والجسديّة للأطفال، وهي بُعدٌ من الأبعادِ التي تُشكّل شخصيتهم وهويتهم وغايتهم من الحياة خلال مرحلة المراهقة والبلوغ. ناهيك أن سنوات المراهقة عادة ما تتخذُ طابع البحث في خضمّ العالم الروحاني. وعندما تكون هناك قواسمٌ مُشتركة تجمع بين جيل الأبناء وجيل الآباء والأجداد وتربطهم بما هو أكبر من ذلك، فإن هذا سيولّد قوّة داخلية عظيمة في داخل الأبناء.

ولو فكرنا في الأمر ملياً لوجدنا أن العلاقة التي تربطُ الأبناء بالآباء هي علاقةٌ تُشبهُ علاقتنا بالله عزّ وجل، خاصة من منظور الديانة اليهودية، لهذا نجدُ موشيه يُشدّدُ على أهمية طرح الأسئلة في أي عملية تعليمية من خلال تكراره لعبارة "وإذا سألك ابنك". كما أن طرح الأسئلة هي ميزة رئيسية تتسمّ بها طقوس وأجواء وجبة العشاء التي نتناولها ليلة عيد الفصح اليهودي، خاصة جُزئية "ما نِشتانا" (تعني هذه العبارة "ما الذي تغيّر؟" أو ما الذي يجعل هذه الليلة مختلفة عن غيرها من الليالي؟)، وهي جُزئية يتساءل من خلالها أبنائنا عمّا يميّزُ ليلة الفصح عن غيرها من الليالي والمناسبات.

إن الديانة اليهودية هي عقيدةٌ تقومُ أصلاً على أساس الجدل والنقاش والمُحاججة وطرح الأسئلة، وعبر التاريخ اليهودي كانت الشخصيات اليهودية العظيمة تطرحُ الأسئلة على الله عزّ وجلّ، كما كان حاخاماتُ المِشناه والمِدرّاش يتجادلون فيما بينهم ويختلفون في آرائهم ووجهات نظرهم مراراً وتكراراً. أما المُعتقدات المُتحرّرة التي لا تُشجّعُ أبنائنا على طرح الأسئلة، فهي مُعتقداتٌ لا تربي أبنائنا على أن يكونوا جاهزين للتعامل مع تعقيدات الحياة. إن أحد أهم الأفكار التي تُميّزُ الديانة اليهودية هو حالة الحذر الشديد التي ذكرت بها التوراة الدّعاء اليهودي الذي نُطلق عليه اسم "شَمع" (دُعاء اسمع يا إسرائيل)، فهذه الفقرة من الدّعاء: "أحبّ الله ربّك مُخلصاً بقلبك ونفسيك ووجدانك" قد جاءت قبل هذه الفقرة: "واحكِها لِبَنِيكَ"، وهذا الترتيبُ في الفقرتين لم يأت من فراغ، بل فيه حكمة عظيمة، لأنّ الأبوة تكون صالحة حين يرى الأبناء أن آباءهم يُحبّون فعلاً ما يقومون بتعليمه للأبناء.

بالتالي، وتبعاً لما يُظهرُ لنا هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة، فإن المشوار الطويل لبني إسرائيل نحو الحرية لم يكن موضوعاً تاريخياً ولا سياسياً ولا متعلّقاً بالمعجزات، بقدر ما كان يُجسّدُ علاقةً تربطُ الآباء بأبنائهم. إنّها الحكاية التي يرويها الآباء للأبناء من جيلٍ لآخر، إنّها الشعورُ بالحُضور الإلهي في حياتنا، إنّها المساحة التي تُفسحُها لنا من أجل الرقيّ والسموّ والدهشة والامتنان والتواضع والتعاطف والمحبة والغفران والرحمة، هذه القيم العظيمة التي تتجسّدُ في الطقوس والأناشيد والصلوات التي نُردّها في عيد الفصح من كل عام. إن هذه الطقوس والصلوات تمنحُ أبنائنا الثّقة والأمل، كما أنها تمنحهم شعوراً بالهوية والانتماء إلى مكانٍ معيّن من هذا الكون الشاسع. ولا يُمكننا بناءُ مُجتمعٍ سليم عندما تكون العواطف داخل العائلة غير سليمة، فهذا من شأنه أن يخلق جيلاً غاضباً تملؤه الصراعات الداخلية. إن الإيمان يبدأ فعلياً من العائلة، والأملُ يولدُ من كنفِ المنزل الذي يسكنه كل واحدٍ منّا.

بشلاح

هو النصّ الأسبوعي الرابع من كتاب "شموت" (سفر الخروج). ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية السابعة عشرة من المقطع الثالث عشر وينتهي بالآية السادسة عشرة من المقطع السابع عشر.

طاقةٌ مُتجدِّدةٌ

تُرجمت التّوراةُ إلى لغةٍ أُخرى لأول مرةٍ في التاريخ في القرن الثاني قبل الميلاد للغة اليونانية في مصر خلال عهد الملك بطليموس الثاني، وأطلق على تلك الترجمة حينها اسم "السبعينية" (باللغة العبرية تُرجمها هاشيفعيم)، نظراً لاشتراك سبعين عالم دينٍ في عملية الترجمة. ويوضّح لنا التلمود بأن كبار الحاخامات الذين ساهموا في الترجمة قد تعمّدوا عدم ترجمة بعض الأفكار بشكل صحيح، إيماناً منهم بأن الترجمة الحرفية لهذه الأفكار لن تنقل المعنى الدقيق للقارئ باللغة اليونانية، وأحد أبرز تلك الأفكار كانت هذه الآية التوراتية: "وأكمل الله في اليوم السابع خلقه الذي صنّع"، وعوضاً عن ترجمتها كما هي، قام المترجمون بترجمتها كالآتي: "وأكمل الله في اليوم السادس خلقه الذي صنّع".¹

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا ظنّ الحاخامات أنّ الإغريق سيعجزون عن فهم فكرة اليوم السابع؟ ولماذا سيتقبّلون فكرة أن الله عزّ وجلّ قد خلق الكون في ستة أيام، في حين سيعجزون عن تقبل فكرة خلقه للكون في سبعة أيام؟ في الحقيقة يبدو هذا الأمر محيراً بعض الشيء، لكن الإجابة عن هذه التساؤلات بسيطة للغاية: إنها تكمن في عدم مقدرة الإغريق على استيعاب فكرة أن اليوم السابع (يوم الشّبات باللغة العبرية) هو جزءٌ لا يتجزأ من عملية الخلق نفسها. فما هو الجزء الخلاق والإبداعي في مبدأ الرّاحة؟ وما الذي نُحقّقه حينما لا نصنع ولا نعمل ولا نقوم بأي عمل أياً كانت طبيعته؟ حقيقةً، يوجد بين أيدينا شهاداتٌ موثقة لعددٍ من الكُتّاب الإغريق ممّن عاصروا تلك الحقبة الزمنية والذين وضّحوا في كتاباتهم بأن أحد الأمور التي تدعو للسخرية في الديانة اليهودية هي يوم السّبت (الشّبات)، ففي واحدٍ من الأيام السبعة يمتنع اليهود عن العمل لأنهم قومٌ "كسالي" على حدّ تعبيرهم. بالتالي كان واضحاً بأن الإغريق قد عجزوا تماماً عن فهم واستيعاب وجود قيمة خاصة بهذا اليوم على وجه التّحديد.

لكن ليس من قبيل الصدفة أن تسقط إمبراطورية الإسكندر الأكبر (الذي كان إغريقي الأصل) بعد فترة وجيزة من قيامها، مثلما سقطت قبلها أثينا، تلك الدولة المدينة التي أنجبت بعضاً من أهم نوابغ المفكرين والأدباء في التاريخ. إن الحضارات البشرية لا تختلف عن البشر، فكلاهما يصل لمرحلة معينة يكون فيها مُنهكاً تماماً وغير قادر على الاستمرار، وهذا ما يحدث حين لا يكون لأحدنا يوم راحة

1. مجيلاه، الباب التاسع - أ Megillah 9a.

أو عطلة في برنامجه الأسبوعي، وهذا ما أكد عليه الأديب اليهودي أحاد هعام حين قال: "لم يُحافظ اليهود على يوم السبت (الشَّبات) بقدر ما حافظَ يوم السَّبْتِ عليهم". والمعنى هُنا: امنح نفسك قسطاً من الراحة ليومٍ واحدٍ من أيام الأسبوع ولن تصل إلى مرحلة تكون فيها مُنهكاً مُرهقاً غير قادر على الاستمرار.

في الواقع فإن فكرة يوم السبت اليهودي (الشَّبات) والتي نتطرَّق لها لأول مرة في هذا النصِّ الأسبوعي، تُعدّ منظومة تعليمية وتربوية عظيمة بحدِّ ذاتها، بل ومن أعظم المنظومات التعليمية والتربوية التي عرفها العالم، فقد غيَّرت المنظور الذي ينظرُ العالمُ من خلاله إلى الوقت. وخلال الحقبة الزمنية التي سبقت ظهور الديانة اليهودية، كان العالمُ يقيسُ الوقت إما بالاستناد إلى الشمس، حيث كانت السنة الشمسية تضم 365 يوماً تتوزَّع خلالها الفصول الأربعة، أو من خلال الاستناد إلى القمر، بحيثُ يضم كل شهر حوالي ثلاثين يوماً (كلمة شهر "month" باللغة الإنجليزية جاءت من كلمة قمر "moon"). لكن فكرة اليوم السابع انبثقت من رحم التَّوراة ثم انتشرت إلى كافة بقاع العالم من خلال الديانتين المسيحية والإسلامية، حيث استعارت كلتا الديانتان فكرة اليوم المقدَّس من كل أسبوع وصَبغته بصبغة مُختلفة ليُصبح يوم الأحد في المسيحية ويوم الجمعة في الإسلام. ولو فكَّرنا في الأمر ملياً، لوجدنا أننا نستطيعُ حسابَ السنوات بفضل وجودِ الشَّمس، ونستطيعُ حسابَ الشهور بفضل وجودِ القَمَر، ونستطيعُ حسابَ الأسابيع بفضل وجودِ اليهود.

إن الفرق الهائل الذي أحدثته فكرة وجود يوم السبت (الشَّبات) يتمثَّلُ في خلق حيِّزٍ للحرية في حياتنا ومجتمعاتنا ككلِّ، بحيث نرتاحُ في هذا اليوم لننتحِر من ضغوط العمل وأعبائه، ومن أوامرِ مُدراينا المُرهقة، ومن النَّداءات المُغرية لمُجتمعنا المُستهلكِ والتي تُشعِرنا بأننا سنُصبحُ في قَمَّة السعادة حين نُنفق نقودنا بطريقة معينة، بالتالي فإننا نتمتَّعُ في هذا اليوم بكامل حُرِّيِّتنا لنكونَ برفقة من نُحبُّهم.

وعلى الرغم من التغيير الجذري في مناحي الحياة بين الماضي والحاضر خاصة في عالمي الاقتصاد والصناعة، إلا أنَّ فكرة يوم السبت (الشَّبات) قد جدَّدت الغاية المناطة منها جيلاً تلو جيل. ففي عهدِ نبي الله ورسوله موشيه/موسى كانت فكرة الشَّبات تعني الانعتاق من عبودية فرعون، أما خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين فقد أصبحت فكرة الشَّبات تعني الانعتاق من ظروف العمل الشاقَّة والمُرهقة التي تمتد لساعاتٍ طويلة مُقابل أجورٍ زهيدة. وفي عصرنا الحالي، أصبحت فكرة الشَّبات تعني انعتاقنا من الهواتف الذكية والبريد الإلكتروني ومتطلَّبات الحياة العصرية التي تفرضُ علينا أن نكون في حالة انشغالٍ دائمٍ طوال اليوم.

وتُخبِّرنا الآيات التوراتية في هذا النصِّ الأسبوعي بأن الالتزام بتعاليم يوم السبت (الشَّبات) كان من أولى الوصايا التي تلقَّها اليهودُ على جبل سيناء، فبعد أن بدأ بنو إسرائيل يتذمرون من شُحِّ الطعام، أخبرهم الله عزَّ وجلَّ بأنه سيُزودهم بالَمَنِّ من السَّماء، لكن ينبغي عليهم أن يستريحوا وألا يقوموا بجمع المَنِّ في اليوم السابع، لهذا كان يزودهم الله بضعفِ الكمية من المَنِّ في اليوم السادس من كلِّ أسبوع. واستذكَّراً لهذا الحدث تحديداً، فإن عشاء ليلة دخول يوم السبت المقدَّس (الشَّبات) يتضمَّنُ ترتيل

أدعية وصلوات أثناء تناول قطعيتين من خُبز الخِلا (نوعٌ من أنواع الخُبز الذي يتناوله اليهود خصيصاً ليلة الشُّبَات).

كذلك فإن فكرة يوم الشُّبَات لم تكن بمثابة ثورة ثقافية فحسب، بل كانت أيضاً ثورةً مفاهيمية بكل ما تحمله الكلمة من معنى. ولطالما حلّم البشر بتحقيق عالمٍ مثاليٍّ عبر التاريخ، ومثل هذه الرؤى والأحلام يُطلقُ عليها "يوتوبيا" (أو أدبُ المدينة الفاضلة)، حيث جاء هذا المُصطلحُ الإغريقي من الكلمتين اليونانيتين "أو" والتي تعني "لا"، وكلمة "توبوس" والتي تعني "مكان"،² وتعني الكلمتان معاً أنه لا مكان لمثل هذه الأحلام والطموحات والأفكار المثالية في العالم الواقعي، باستثناء فكرة واحدة هي فكرة يوم السبت.

ولو فكّرنا في الأمر ملياً لوجدنا أن يوم الشُّبَات اليهودي هو بمثابة "يوتوبيا العصر" التي تحققت فعلاً، فخلال هذا اليوم من كل أسبوع ولمدة خمسة وعشرين ساعة متواصلة، فإننا نخلقُ لأنفسنا عالماً خاصاً بنا، عالماً يخلو من السّلم الوظيفي بِمدرائه وموظّفيه، يخلو من كل ما له علاقة بالبيع والشراء والسلطة والثروة والفقير، فلا عملٌ ولا إنتاجٌ ولا أزماتٌ سيرٌ ولا ضجيجٌ ولا صخبٌ للحياة. بصريح العبارة، إنّ يومَ السبت اليهودي هو "لحظة السكون في هذا العالم المُتقلّب"، إنه التهيئة الفاصلة بين نعمتين من نعمات سمفونية موسيقية، إنه الاستراحة الفاصلة التي نحتاجها كلما طوينا فصلاً من فصول كتاب حياتنا اليومية، إنّه كالمساحة الريفية الخضراء التي نراها بين مدينةٍ وأخرى، تلك المساحة التي نتنفسُ فيها نَفحاتِ الهواءِ العليلِ ونُعطرُ آذاننا فيها بزقزقة العصافير الشجيرة. إن الشُّبَات هو اليوتوبيا بالفعل، لكنها ليست بحاجة لأن تتحقق في نهاية الزمان كونها موجودة في كل أسبوع يمرّ من حياتنا في غمرة وقتنا الحالي.

وبمجرد خروج بني إسرائيل من أرض مصر، فقد أرادَ اللهُ عزَّ وجلَّ لهم أن يبدأوا فوراً بتعويد أنفسهم على الالتزام بتعاليم يوم الشُّبَات من كل أسبوع، باعتباره شكلاً من أشكال ممارسة الحرية، لأنَّ نيلَ الحُرِّيَّة الحقيقية في حِضْمِ أيام الأسبوع السبعة يتطلب وقتاً طويلاً قد يمتدّ لقرونٍ بل وربما لآلاف السنين. في المُقابل، فإن التوراة تنظرُ للعبودية على أنها أمرٌ غيرٌ مقبول أبداً،³ لكنها لم تُحرِّم العبودية حينها على الفور، لأن الناس لم يكونوا جاهزين فعلاً للانعتاق منها. والحال نفسه ينطبق على الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا، حيث لم يتم حظر العبودية فيهما حتى القرن التاسع عشر، مع العلم أن حظر العبودية فيهما لم يكن أمراً سهلاً على الإطلاق وتخللته العديد من الصراعات الداخلية. لكن

2. يرتبط هذا المصطلح بالكاتب والفيلسوف الإنجليزي السير توماس مور، والذي استخدمه عنواناً لكتابه سنة 1516م.

3. لقراءة المزيد حول عدم قبول التوراة للعبودية، بإمكان القراء الاطلاع على تحليل الحاخام ناحوم ل. رابينوفيتش لهذه المسألة في كتابه "سِكِّكٌ حديديةٌ جائزة على قلوبهم" ("مسيلوت بلقافام" باللغة العبرية) (معاليه أوديميم: معايبوت، 2015) في الصفحات 38-45. ويستند في تحليله لعدم قبول التوراة لمفهوم العبودية إلى الفكرة المركزية المتأصلة في كلِّ من التوراة المكتوبة والشفهية (المشناه)، والتي تقوم على أن الكرامة الوجودية للإنسان هي أمر مشترك بين جميع البشر، كون الله عزَّ وجلَّ قد خلق البشر بصورته، وهذه النظرة تتناقض بشكل واضح مع أفكار أفلاطون وسقراط. كما وقام الحاخام نحمان بتحليل آراء ووجهات نظر كبار حاخامات اليهود مثل الحاخام موشيه بن ميمون ومثيري حول الآية "ليكونوا لك عبيداً للأبد" (سفر اللاويين، المقطع الخامس والعشرين الآية السادسة والأربعون). لاحظ الاقتباس الذي يقتبسه من سفر أيوب: "إِنْ كُنْتُ رَقُضْتُ حَقَّ عَبْدِي وَأُمَّتِي فِي دَعْوَاهُمَا عَلَيَّ. فَمَاذَا كُنْتُ أَصْنَعُ حِينَ يَقُومُ اللهُ؟ وَإِذَا أَفْتَقَدْتُ، فِيمَاذَا أَجِيبُهُ؟ أَوْلَيْسَ صَانِعِي فِي البُظْنِ صَانِعُهُ، وَقَدْ صَوَّرْنَا وَاحِدٌ فِي الرَّجْمِ؟".

جُهوزية الناس للعيش بحرية صارت أمراً حتمياً بمجرد أن دخلت فكرة يوم الشُّبَّات حيز التنفيذ وصارت جزءاً أساسياً من حياتهم، فالعبيد القادرون على تحرير أنفسهم والعيش بحرية ليومٍ واحدٍ من أيام الأسبوع، سيكونون جاهزين بنهاية المطاف للوقوف على أقدامهم وتحطيم سلاسل العبودية.

إن النَّفس البشرية بحاجة ماسّة لكي تتنفس وترتاح وتحسّن، لهذا فإن أول قانون من قوانين الإدارة الناجحة للوقت هو ضرورة التفريق بين القضايا الهامة، والقضايا المُستعجلة بالغة الأهمية. وأثناء ضغوطات الحياة فإن القضايا الهامة تبدو وكأنها مُهملة لأننا نُعطي الأولوية للقيام بالأمر المُستعجلة، على الرغم من أن تلك القضايا المُهملة في أغلب الأحيان تكون أموراً فارقة بالنسبة لسعادتنا وإحساسنا بأننا نعيش الحياة كما يجب أن نُعاش، لهذا فإن يوم الشُّبَّات مُكرّس للاهتمام بتلك القضايا الهامة وغير العاجلة في حياتنا، مثل العائلة والأصدقاء والمُحيط الاجتماعي وشعورنا بالطهارة والقداسة وابتهاُلنا إلى الله عزّ وجلّ حامدين شاكرين له على نِعَمِهِ الموجودة في حياتنا، بالإضافة إلى قراءة التوراة التي تروي لنا عبر صفحاتها حِكَاية شعبنا اليهودي ورحلته الطويلة.

كما أن الإحساس بروحانيّة يوم الشُّبَّات يتجلّى فيما نُطلق عليه باللغة العبرية "شُلوم بايت"، أي السّلام والطمأنينة التي تحلّ في كل بيتٍ مُفعمٍ بالمحبة والحياة وبركة السكينة والحضور الإلهي (الشخينا بالعبرية) الذي نستشعره في نور الشموع والنبذ وحُبز الشُّبَّات المُميّز. إنّ الشُّبَّات هو بمثابة لوحة فنيّة مُتناهية الجمال، لوحة لم يرسمها فنانٌ مُبدعٌ مثل مايكل أنجلو أو ليوناردو دافنشي، بل لوحة بإمكان كل شخصٍ ممّا أن يرسمها لوحده: لوحة لجزيرة هادئة في وقتٍ تتلاطم فيه أمواج البحار في خضمّ هذا العالم المُضطرب.

وفي سياق الحديث عن الشُّبَّات، أتذكّر في أحد الأيام ندوةً نظّمها معهد إيليا للحوار بين الأديان، وشاركتُ بها بصُحبة الدالاي لاما، حيث عُقدت في منطقة أمريتسار شمالي الهند التي تعتبر أحد المدن المقدّسة للديانة السيخية، فيما كان عدد الحاضرين حوالي ألفي طالبٍ من الطّلاب السيخ. ومن ضمن الكلمات التي ألقاها المُتحدّثون في الندوة، كانت هناك كلمة لأحد الشخصيات الدينية السيخية البارزة، والذي وجّه كلامه للحضور قائلاً: "إن ما نحتاجه بالفعل هو ما يمتلكه اليهود، يوم السبت من كل أسبوع (الشُّبَّات)! تخيلوا أنّكم تُخصّصون يوماً من أيام الأسبوع ليكون مُكرّساً للعائلة والبيت والعلاقات الاجتماعية فقط". لقد استشعر هذا الرجل مدى روعة وجمال الشُّبَّات، في حين أننا نعيش هذه الروعة في حياتنا بالفعل.

لقد عجزَ الإغريق عن فهم مبدأ ينصّ على أن يوم الراحة هو جزء من عمليّة الخلق نفسها، وهذه حقيقةٌ بالفعل، لأن الكون لن يكون بهذا الإبداع الخلاق وسيكون ذابلاً مُترهلاً إذا خلا من يوم راحةٍ يستريح فيه الجسد، ويطمئن به العقل، وتسكن به الروح، وتتجدّد فيه أواصر المحبة والارتباط بالهوية. كما أن القُصور هو سمة لكل ما هو موجود في هذا الكون، فبنهاية المطاف سوف تفقد الأفكار والمبادئ والأنظمة طاقتها مع مرور الزمن، لكن الشعب اليهودي لم يفقد طاقته أبداً، بل ظلّ مُستمرّاً بنفس الحيوية والإبداع من الأزل وحتى يومنا هذا، والفضل في كل هذا يعودُ ليوم السبت المقدّس، فهو أعظم مصدر عرفته الإنسانيّة لتجديد الطاقة والحيوية في حياتنا، وهو اليوم الذي يمنحنا القوّة من أجل المضيّ قدماً في مسيرة الخلق والإبداع.

يَترو

هو النصّ الأسبوعي الخامس من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الثامن عشر وينتهي بالآية الثالثة والعشرين من المقطع العشرين.

أَن نَشْكُرَ قَبْلَ أَن نُفَكِّرَ

تعتبرُ الوصايا العشرة أشهرَ منظومة أخلاقية عبر التاريخ، وحتى وقتٍ قريبٍ كانت هذه الوصايا تُزيّنُ أروقة المحاكم ومجالس القضاء الأمريكية كما تُزيّنُ توابيتُ التوراة الكُنُسَ اليهودية. وقد وضعها الرّسام الهولندي الكبير رامبرانت على لوحةٍ فنيةٍ كلاسيكية تُحاكي صورةَ نبيّ الله ورسوله موشيه/موسى وهو على وشكٍ أن يكسرِ الألواح التي حُفرت عليها الوصايا بعد أن رأى قومه يعبدون العجل الذهبي. وكذلك الحال بالنسبة للفنان الإنجليزي جون روجرز هيربرت صاحب اللوحة الفنية الضخمة التي تُحاكي نزولَ موشيه من سفح الجبل، هذه اللوحة الفنية التي تُزيّنُ هي الأخرى جدران القاعة الرئيسية لمجلس اللوردات في المملكة المتحدة. إنّ هذين اللوحين الذين حُفرت عليهما الوصايا العشرة يُمثّلان رمزاً للقانون الأبدي تحت سيادة الله عزّ وجلّ وفي ظلّ عرشه.

ويجدُرُ بنا أن نتذكّر أيضاً بأن "الوصايا العشر" هي في الحقيقة ليست عشر وصايا، فالتوراة وصفتها بمصطلح "عسيريت هادفاريم" (بمعنى الكلمات العشر) بحسب ما تذكره الآية الثامنة والعشرون من المقطع الرابع والثلاثين من سفر الخروج. ثم جاءت التفاسير والشروح الدينية اللاحقة لتُطلق عليها لفظ "عسيريت هاديبروت" (بمعنى الألفاظ العشر). وبإمكاننا فهم هذه التوصيفات بشكل أفضل على ضوء الاكتشافات والوثائق التي عُثِرَ عليها في القرن العشرين، خاصة صُكوك الحُكم الحيتية المعروفة "بصكوك الولاية" والتي تعود إلى الفترة 1200-1400 ق.م، أي الفترة الزمنية ذاتها التي عاش فيها موشيه أثناء الخروج.

لقد كانت هذه الصكوك تتكوّن عادةً من شقين يوضّحان طبيعة القوانين المعمول بها، بحيث يضمّ الشقّ الأولُ ملخّصاً للخطوط العريضة لتلك القوانين، في حين يتمّ توضيحها بالتفصيل في الشقّ الثاني، وهذا بالضبط هو شكلُ العلاقة بين "الكلمات العشر" والوصايا المُفصّلة في النص التوراتي الأسبوعي الذي يحملُ عنوان "مشپاتيم" (بحسب ما وردَ في سفر الخروج في المقطعين 22 و23). وكلمة مشپاتيم هي كلمة عبرية تعني "الأحكام"، والكلمات العشر هي بمثابة الملخص الذي يوضّح الخطوط العريضة والمبادئ الأساسية للأحكام والقوانين.

وعادة ما يتمّ تصوير الوصايا على أنها موضوعة في لوحين اثنين شكلاً ومضموناً، بحيث يحتوي كل لوحٍ على مجموعةٍ مكوّنة من خمس وصايا، فتتناولُ المجموعة الأولى من الوصايا مسألة

العلاقة مع الله عز وجل، بما يشمل احترام وتكريم الوالدين باعتبارهما يُشبهان الله عز وجل كونهما السبب وراء وجودنا في هذا العالم. أما المجموعة الثانية من الوصايا فهي تناول مسألة العلاقة بيننا وبين بقية البشر.

لكن يوجد أساس منطقي آخر يتم تقسيمها على أساسه إلى ثلاث مجموعات: المجموعة الأولى مكوّنة من ثلاث وصايا وتختصّ بمبدأ وحدانية الله عز وجل وكونه المُشرِّع ومصدر التشريع لهذه القوانين، وهذه الوصايا هي: الله واحد، ولا إله سوى الله عز وجل، ولا تحليف زوراً باسم الله. أما المجموعة الثانية من الوصايا فهي تتعلّق بالخلق والتكوين، وهذه الوصايا هي: الحفظ على تعاليم وقوانين الشّبات (يوم السبت اليهودي المقدس)، وبز الوالدين، وتحريم القتل. فيوم الشّبات هو بمثابة تذكير لنا بالوقت الذي خُلِقَ فيه هذا الكون، ووالدانا هما اللذان أنجبانا لنكون خلقاً في هذا الكون، والقتل مُحَرَّمٌ لأننا بشرٌ مخلوقون بصورة الله عز وجل (تبعاً لما تذكره الآية السادسة من المقطع التاسع من سفر التكوين). أما المجموعة الثالثة من الوصايا فتتعلّق بالمنظومات الأساسية لوجود أي مجتمع: فُدسيّة الزواج، ونزاهة الملكية الخاصة، ومنظومة العدالة، وهذه الوصايا الثلاث هي: لا تزن، لا تسرق، لا تشهد زوراً. وحين لا نرى أيّاً من هذه المنظومات الثلاثة موجودة في المُجتمع سنجدُ الحرّية تختفي منه شيئاً فشيئاً.

إن الأساس الذي بُني عليه هذا التصنيف يُركِّز على غرابة الوصية العاشرة: "لا تتمنّ منزل صاحبك، لا تتمنّ زوجته، وعبدك وامته وثوره وحماره، وجميع ما له" بحسب ما تخبرنا الآية الرابعة عشرة من المقطع العشرين من سفر الخروج. وهذه الوصية تبدو في ظاهرها مُختلفة عن باقي الوصايا التي تتضمّن النهي عن القيام بأفعالٍ أو أقوالٍ مُحددة،¹ فالحسد والجشع والرغبة في امتلاك ما يمتلكه الآخرون هي مُجرد مشاعر وليست أفكاراً أو أقوالاً أو أفعالاً، وبالطبع لا يُمكننا السيطرة على مشاعرنا وعواطفنا في كثيرٍ من الأحيان، وقديماً كان توصفُ العواطف بأنها "شهوات" أو "رغبات"، تحديداً لأننا سلبيون في طبيعة علاقتنا بعواطفنا.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يُمكن أن تكون مشاعر الغيرة والحسد محظورة تماماً على البشر؟ لأنه من غير المنطقي أن يُحظر علينا القيام بأمرٍ خارج عن حدود سيطرتنا. في المقابل هنالك سؤال آخر يتعلق بهذه المسألة: لماذا تحتلّ مشاعر الغيرة تلك الأهمية على الرغم من أنها مجرد مشاعر لحظية تتناوبنا من وقتٍ لآخر ولا تُؤدي إلى إلحاق الأذى بالآخرين؟ هنا، وفي هذا الموضع بالتحديد، يبدو لي وكأنّ التوراة تُرسي مجموعةً من الأسس والقواعد والحقائق التي ننساها دائماً رغم إدراكنا لمدى خطورة نسيانها.

والحقيقة الأولى التي تُرسيها التوراة تتمثّل في أن إيماننا بأمرٍ مُعيّن يؤثّر جداً على مشاعرنا، هذه الحقيقة

1. من باب التأكيد، فقد وضح الحاخام موشيه بن ميمون بأن الوصية الأولى هي الإيمان بالله. في المقابل، وضح الحاخام موشيه بن نحمان بأن "الاهلاخوت جدولوت" (الأحكام الكبرى) بحسب فهمه لها تُعارض رأي الحاخام موشيه بن ميمون، وبأن الآية التوراتية التي تقول: "أنا الله إلهك ومُخرِجك من أرض مصر" هي ليست وصية بحد ذاتها، بل هي مُقدمة وفتحة للوصايا.

التي تُدْكَرنا بها أيضاً مبادئ العلاج النفسي السلوكي المعرفي، لأن ما نؤمن به يؤثر على ما نشعر به.² فعلى سبيل المثال لا الحصر، الأشخاص النرجسيون يشعرون فوراً بالإهانة عندما يظنون بأن شخصاً ما يتكلم عنهم بطريقة سيئة أو عندما يظنون بأن شخصاً ما يقلل من احترامهم ويسيء الأدب معهم، في حين أن الواقع يقول بأنه لا يوجد من يُعيرهم أي اهتمام أصلاً، بالتالي فإن اعتقادهم الخاطئ بأن أحداً ما يُسيء إليهم وُلد لديهم شعوراً بالسخط والغضب.

أما الحقيقة الثانية فتتمثل في أن مشاعر الغيرة والحسد هي الدافع الرئيسي للعنف في أي مجتمع، ففي مسرحية عطيل للكاتب الكبير شكسبير كانت الغيرة هي السبب الذي جعل ياچو يُضلل عطيل ويدفع ثمناً باهظاً. ولماذا نذهب بعيداً، فالغيرة هي السبب الذي دفع قاين/قابيل لقتل أخيه هبّل/هابيل، وهي السبب الذي جعل أفرهام/إبراهيم ومن بعده يتسحق/إسحق يشعرون بوجود خطر يُهدد حياتهما عندما أجبرتهما المجاعة على النزوح المؤقت من أرضهما، فعندما ذهبا إلى أرض مصر كانا يعتقدان بأن زواجهما من امرأتين فائقتي الجمال سيدب مشاعر الغيرة في قلوب حكام مصر، بالتالي سيقومون بقتلهما حتى يستحوذوا على زوجتيهما. والحال ذاته في قصة يوسف، فمع الأسف الشديد كانت مشاعر الغيرة والحسد الموجودة في قلوب إخوته هي الدافع الذي جعلهم يكرهونه ويحقدون عليه، فكانوا يغارون من المعاملة الحسنة التي يعاملها بها أبوهم يعقوف، وكانوا يغارون من الثوب المطرز الذي أعدّه خصيصاً ليوسف، هذا عدا عن غيرتهم الشديدة من أحلامه التي كان يرى فيها بأنه سيحكمهم في يوم من الأيام، الأمر الذي أدى بنهاية المطاف إلى قيامهم بالتخطيط لقتله والتآمر عليه ومن ثم بيعه.

وفي السياق ذاته يوضح المؤرخ الفرنسي الكبير رينيه جيرارد عبر كتابه "العنف والمقدس" (*Violence and the Sacred*)³ بأنّ الدافع الأساسي الذي يولد العنف هو شهوة التقليد، بمعنى الرغبة في امتلاك ما يمتلكه شخص آخر، والذي يعني الرغبة في أن يصبح هذا الشخص تماماً كالشخص الذي يُقلده. بالتالي فإن الغيرة والحسد هي مشاعر من شأنها أن تقود إلى التصرفات والسلوكيات التي نهت عنها باقي الوصايا: فهي تقود الناس لعبادة الأوثان والسرقة وشهادة الزور، بل وقد يصل الأمر إلى حدّ القتل أيضاً.⁴

واليهود على وجه الخصوص لديهم سبب عميق للخوف من غيرة الآخرين منهم، فالغيرة لعبت دوراً بارزاً في خلق ظاهرة مُعاداة السامية عبر مَرّ القرون، لأن غير اليهود كانت تتملكهم مشاعر الغيرة والحسد من قُدرة اليهود على النمو والازدهار رغم ما يحلّ بهم من مصائب، وهي الظاهرة الغريبة التي

2. كانت هذه الفكرة ولا زالت جوهرية في الفكر اليهودي، وهي موجودة في قلب فكر حركة الخباد تبعاً للحاخام شيننور زلمان صاحب الكتاب العظيم "تنيا". والرأي نفسه يوضحه الحاخام ابن عزرا بالنسبة لهذه الآية، موضحاً بأننا نشعر بالغيرة والحسد ممن نشعر بأن بمقدورنا الوصول إلى ما وصلوه، ولا نحسد من نعلم في قرارة أنفسنا باننا لن نستطيع تحقيق ما حققوه.

3. René Girard, *Violence and the Sacred* (Baltimore: John Hopkins University Press, 1979)

4. Schoeck's classic *Envy: A Theory of Social Behaviour* (New York: Harcourt, Brace & World, 1969). See also Joseph Epstein, *Envy* (New York: New York Public Library, 2003).

التوراة انتباهنا إليها في النص الأسبوعي الذي يحملُ عنوان "شموت" في الآية التي تقول: "وكانَ كَلِّما عَدَّبُوهُم، كانوا يَكثُرُونَ".

ومما لا شكَّ فيه بأن شعور اليهود بأنهم شعبُ الله المُختار كان سبباً آخر لتأجيج مشاعر الغيرة والحسد في صدور غير اليهود، على الرغم من أن كل شعبٍ عبر التاريخ - من ناحية نظرية - كان ينظرُ لنفسه على أنه شعبٌ مُختار⁵. بالتالي كان من الضروريّ جداً بالنسبة لنا نحنُ اليهودُ أن نحافظ على قدرٍ كبيرٍ جداً من التواضع بل والخضوع حتى لا تُستفزَّ مشاعر الغيرة والحسد في صدور الآخرين.

إن تحريم الغيرة والحسد لم يأت من فراغ، لأن الغيرة هي الدافعُ الأساسي في زعزعة وتخريب حالة الألفة والانسجام الاجتماعي بين البشر، هذا الانسجام الذي يُعتبرُ المقصدَ الرئيسي الذي تصبو إليه التوراة من خلال وصاياها العشر، فهذه الوصايا لا تقتصرُ على تحريم الغيرة والحسد فحسب، بل إنها تُساعدنا على الارتقاء بمشاعرنا وعواطفنا أيضاً، خاصة الوصايا الثلاث الأولى، لأنها تذكرنا بعظمة وجود الله عزَّ وجلَّ في التاريخ وفي وقتنا الحاضر، إضافة إلى الوصايا الثلاث التي تليها والتي تُذكرنا بالخليق وتُساعدنا كثيراً على الارتقاء بمشاعرنا إلى ما هو أسمى من الحسد والغيرة.

إننا موجودون في هذا الكون لأن الله عزَّ وجلَّ يريدُ لنا ذلك، كما أننا نمتلكُ في حياتنا ما يريدنا الله أن نمتلكه، فلماذا إذاً نشغل أنفسنا بما يمتلكه الآخرون؟ وإذا كانت أقصى آمالنا وطموحاتنا هي صورتنا في عيون الله عزَّ وجلَّ، فلماذا إذاً نطمحُ لامتلاك شيء معين فقط لأن شخصاً آخر يمتلكه؟ وعليه فإن مشاعر الغيرة والحسد تتولدُ في صدورنا حينما نتوقفُ عن النظر لأنفسنا من خلال علاقتنا بالله عزَّ وجلَّ، ونبدأ بالنظر لأنفسنا من خلال علاقتنا بالبشر، عندها تُشَقُّ مشاعر الخصومة والشقاق والجشع والحسد طريقها نحو عقولنا، الأمر الذي سيقودُ بنهاية المطاف إلى التّعاسة والبؤس.

وحين تكون سيارتُك الجديدة سبباً لشعوري بالغيرة منك، فإنني سأقومُ بشراء سيارة جديدة أعلى ثمناً من تلك التي تمتلكها أنت بالرغم من عدم حاجتي لها، وهذا ربما سيمنحني شعوراً بالسعادة والرضا عن نفسي لبضعة أيام حتى اكتشفَ بأنه يوجدُ جارٌ آخر من جيراني يمتلكُ سيارة أحدث وأعلى ثمناً من سيارتي، وستسيرُ حياتي على هذا المنوال. وحينما أرضي مشاعر الغيرة والحسد الموجودة بداخلي، فإنني فعلياً أقومُ بهذا الأمر على حساب استفزاز مشاعر الغيرة والحسد الموجودة بداخلي الآخرين، عبر دوامةٍ لا نهائية من الإنفاق الباهظ على أمور لا داعي لها في حياتي أو حياتك، بطريقة لا تختلف كثيراً عما يقوم به الأطفال، الأمر الذي تُعبّرُ عنه المقولة المعروفة: "الفائرُ هو الذي يمتلك أكبر قدرٍ من الألعاب عند وفاته"، فالكلمة المحورية في هذه الفكرة هي كلمة "الألعاب"، ومن هذا المنطلق وضعتُ الألعاب في رياض الأطفال، بالتالي يجبُ ألا يكونَ لمثل هذه الأفكار مكانٌ في حياة البالغين العاقلين.

5. Anthony Smith ,Chosen Peoples (Oxford: Oxford University Press, 2003)

في المُقابل، فإن نقيض الغيرة والحسد هو الشعور بالشكر والعرفان والامتنان، وفي هذا السياق يقول الأديب شمعون بن زوما حين سُئِلَ "مَنْ يَكُونُ الْغَيِّي؟"، فيجيب: "الغَيِّي هو من يَفْرَحُ بما يَمْلِكُ". كما يوجد تقليدٌ يهوديٌّ رائعٌ جداً يُمارَسُ بشكلٍ يوميٍّ، وهو في الحقيقة سلوكٌ من شأنه أن يُغَيِّرَ حياة المرءِ مِنَّا نحو الأفضل، يتمثّل في أولى الكلمات التي نَنطِقُها مُباشرةً بعد استيقاظنا من النوم، حيث نقولُ مُخاطبين الله عزَّ وجلَّ: "مُودِيهِ أَنِي لِفَانِيخَا" (بمعنى أحمَدُك يا الله يا ربَّ العرش العظيم).

إننا في الديانة اليهودية نشكُرُ قَبْلَ أَن نُفَكِّرُ، كما أن الشعور بالعرفان والامتنان هو نهجٌ بل وأسلوب حياة يهوديٍّ، وحتى لا ندعَ السعادة التي يشعُرُ بها الآخرون تَوَثَّرَ سَلْباً على سعادتنا فإننا نُطلِقُ من أعماقنا طاقةً إيجابيةً مهولةً تُحَوِّلُنَا بالشعور بالفرح بما نملك عِوضاً عن الانشغال والتفكير بما يملكه الآخرون، بالتالي نكونُ نحنُ أنفسنا وعلى طبيعتنا عِوضاً عن الانشغال بأن نُكونَ ما لسنا عليه فعلاً.

مِشپَاتِيم

هو النصّ الأسبوعي السادس من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الواحد والعشرين وينتهي بالآية الثامنة عشرة من المقطع الرابع والعشرين.

الطَّاعَةُ وَالسَّمْعُ

تظهر في هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة واحدة من أشهر الآيات التوراتية، وهي عبارةً لطالما اختزلت في ثناياها وصفاً للعقيدة اليهودية، إنها الآية السابعة من المقطع الرابع والعشرين من سفر الخروج، وهي تتضمن كلمتين فقط: "نعسي فَنَسْمَعُ"، والتي تعني حرفياً "سوف نعملُ فَنَسْمَعُ". والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: ما المغزى من هذه الآية؟ ولماذا يا ترى تحملُ هذا القدر من الأهمية؟

في الحقيقة هنالك تفسيران يُجيبان عن هذه الأسئلة، أحدهما تفسيرٌ قديمٌ والآخر تفسيرٌ مُعاصر. أما التفسيرُ القديم فيظهر في التلمود البابلي¹ في مستهلّ الحديث عن الحماسة الشديدة التي اتّصف بها بنو إسرائيل أثناء قبولهم للعهد مع الله عزّ وجلّ فوق سفح جبل سيناء. فعندما قالوا لِنبيّ الله ورسوله موسى/موشيه: "جميع ما قالَ اللهُ نصنع ونسمع" بحسب ما تذكر الآية الثامنة من المقطع التاسع من سفر الخروج. لقد كانوا يقولون له فعلياً بأنهم سيُطيعون أي شيء يأمرهم الله به، وهذا كان قبل أن يسمّعوا أي وصية من الوصايا، فعبارةً "سوف نسمع" تعني ضمناً أنّهم حتى تلك اللحظة لم يسمّعوا شيئاً من الوصايا ولا حتى الأحكام الشرعية التي جاءت مُفضّلةً لها والمذكورة في هذا النصّ الأسبوعي تحديداً. بالتالي تملكتهم حالة من اللهفة الشديدة والإقبال على طاعة الله عزّ وجلّ وقبول جميع أوامره ووصاياه حتى قبل أن يعلموا ما هي.²

في الوقت نفسه، فإن قراءة مقاطع التوراة على هذا الترتيب تعتبرُ صعبةً إلى حدٍ ما، أقصدُ القراءة التي تبناها الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف بالحاخام راشي) في تفسيره، لأنها قراءةٌ لا تستندُ إلى التسلسل الزمني للمقاطع وذلك تبعاً إلى القاعدة الدينية في التفسير والتي تقول بأنه "لا يوجد قبل أو بعد في التوراة". فالأحداث الواردة في المقطع الرابع والعشرين تبعاً لهذا التفسير ولهذا التسلسل الزمني قد جاءت قبل الأحداث الواردة في المقطع العشرين، أي قبل أن يتجلّى اللهُ عزّ وجلّ لموشيه فوق جبل سيناء وقبل نزول الوصايا العشر على بني إسرائيل.

1. باب الشبات – 88 أ حتى ب

2. بالتأكيد يوجد فرق واضح في التفاسير المتعلقة بمسألة الطاعة لدى بني إسرائيل. وبالاستناد إلى أحد تلك التفاسير فإن الله عزّ وجلّ قد علّق الجبل فوق رؤوسهم، لهذا لم يكن لديهم أي خيار آخر سوى قبول الوصايا والأوامر الإلهية (باب البات – 88 أ)

في المقابل، يختلف كلُّ من الحاخام بن عزرا والحاخام شموئيل بن مئير (المعروف بالحاخام "راشبايم") والحاخام موشيه/موسى بن نَحمان مع هذه القراءة، فهم يقرؤون هذه المقاطع تبعاً للتسلسل الزمني، وبالنسبة لهم فإنَّ آية "نعسي فَنَسَمَع" لا تعني "سوفَ نعملُ ثمَّ نَسَمَع"، بل تعني "سوفَ نعملُ ثمَّ نُطيع".

أما التفسيرُ الثاني فهو يُعتبر تفسيراً فكرياً يهودياً معاصراً لهذه الآية، وهو تفسيرٌ لا يتطرق للمعنى الواضح للنصِّ لكنه يُعتبر بالغ الأهمية. وتبعاً لهذا التفسير فإنَّ آية "نعسي فَنَسَمَع" تعني "سوفَ نعملُ وسوف نفهم".³ واستناداً إلى هذا التفسير، فإننا لن نتمكن من فهم الديانة اليهودية حتى نمارسها على أرض الواقع، أي عبر تنفيذ الوصايا التوراتية وتطبيق التعاليم اليهودية في شتى مناحي حياتنا، ففي بداية الأمر ينبغي علينا القيام بما هو مطلوبٌ منا القيامُ به،⁴ ولاحقاً يأتي الاستيعاب والفهم الكامل لما نقوم به من أفعال.

إن هذا التفسير يتضمن نقطة جوهرية جداً، فالعقلية اليهودية الغربية المعاصرة تميل لوضع الأمور ضمن ترتيبٍ مُعاكس لذلك، بحيث أننا نحاول فهم الواجبات التي سنلتزم بها قبل أن نلزم أنفسنا بها، وهذا أمرٌ بديهي ومقبول جداً عندما يتعلّق الأمر بتوقيع اتفاقية أو عند شراء هاتفٍ جديد أو ربما عند قيامنا بشراء اشتراكٍ شهريٍّ مُعين، لكن الأمر مختلفٌ تماماً عندما يتعلّق بالتزامٍ وُجوديٍّ في مُنتهى العمق، إذ لن نستطيع أحدنا أن يفهم معنى القيادة إلا إذا صار قائداً، ولن يكون بإمكان أحدنا فهم الزواج حتى يتزوَّج، والسبيلُ الوحيد لفهم مدى مُلائمة وظيفة معيّنة لنا هي عبر تجربتها وخوض غمارها لمدة زمنية معيّنة.

بالتالي حينما يكون المرءُ مُتردداً في مسألة اتخاذ القرار المتعلق بالالتزام من عدمه، سيجدُ أن قِطار الحياة قد فاته وهو لم يقرّر بعد،⁵ وعليه فإن الطريقة الوحيدة لفهم أسلوب ونمط حياةٍ مُعيّن تتمثّل في قبول المُجازفة المترتبة على تجربته وخوض غماره،⁶ واستناداً إلى ذلك فإن عبارة "نعسي فَنَسَمَع" تعني لنا: سوفَ نقوم بما ينبغي علينا القيام به من خلال تجربة موسّعة وإطلاعٍ عميقٍ، وبنهاية المطاف سوفَ نفهم ما نقوم به".

وقد اقترحتُ في مُقدّمة هذا الكتاب تفسيراً مُختلفاً لهذه الآية، استناداً إلى حقيقة أن بني إسرائيل أثناء تلقّيهم للوصايا قد دُكروا في ثلاثة مواضع مُختلفة في التوراة، مرّةً واحدةً قبل سماعهم

3. تحملُ هذه الكلمة المعنى نفسه في العبرية البابلية وفي قصة برج بابل، حين قال الله عز وجل: "ولنريك لغتهم حتى لا يفهم أحدهم لغة جاره".

4. هذه عبارة شهيرة مُقتبسة من مسرحية فاوست التراجيدية للكاتب الألماني فون غوته.

5. هنالك تشابه بين هذه الفكرة والفكرة التي طرحها برنارد وليامز في مقالته الشهيرة "الحظّ المعنوي" (Moral luck)، بمعنى أنه يوجد قراراتٌ معيّنة لا يُمكننا الحكم عليها بالصواب أو الخطأ حتى نتخذها ونخوضُ غمارها لنتمكن من الحكم عليها، وجميع هذه القرارات الوجودية تتضمن قدراً من المُخاطرة (في المقالة يستحضرُ برنارد مثلاً على تلك القرارات، وهو قرارُ جوجوين بترك وظيفته وعائلته والرحيل إلى جزيرة تاهيتي ليمارس الرسم).

6. بالمناسبة، هذا هو التوجّه الذي يُطلق عليه مبدأ "الفهم" في علم الاجتماع وعلم الإنسان، والذي يؤكّد على أنه لا يُمكننا فهم الثقافات بشكل تامٍ من بعيد، وأن السبيل الوحيد لفهمها هو العيش والانخراط فيها، وهذا أحد أبرز الاختلافات بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية.

للوصايا، ومزتين بعد سماعهم ومعرفتهم لها. لكن هنالك فرقٌ مُذهلٌ جداً في أسلوب التوراة عندما أتت على ذكر ردِّ فعلهم الأول والثاني من جهة، والطريقة التي أتت بها على ذكر رد فعلهم الثالث من جهة أخرى. وهذه هي مواضع الآيات الثلاثة التي أقصدها:

الموضع الأول: عندما ردَّ الناس جميعاً قائلين: "فأجابوا أجمعين وقالوا: جميع ما قال الله نصنع" (الآية الثامنة من المقطع التاسع عشر من سفر الخروج).

الموضع الثاني: عندما ذهب نبي الله ورسوله موشيه إلى بني إسرائيل وأخبرهم بكلام الله وشرائعه، ردوا جميعاً خلفه بصوت واحد: "فأجاب جميع القوم بصوت واحد وقالوا: جميع الكلام الذي أمر الله نصنع" (الآية الثالثة من المقطع الرابع والعشرين من سفر الخروج).

الموضع الثالث: عندما أخذ كتاب العهد (التوراة) وتلاه على بني إسرائيل، ردوا قائلين: "وقالوا جميع ما أمر الله نصنعه ونسمعه" (تبعاً للآية السابعة من المقطع الرابع والعشرين من سفر الخروج).

وقد ورد ذكر الردين الأول والثاني والذين يُركّزان على الفعل "نعسيه" (بمعنى سنّفعل) بطريقة تُشير إلى وجود حالة من الإجماع على ذلك، وهذا ما قام به بنو إسرائيل حينما عبّروا عن قبولهم جميعاً بصوت واحد. أما الموضع الثالث والذي لا يُركّز على الفعل "نعسيه" فقط، بل يُركّز أيضاً على الفعل "نسمع" (سوف نسمع) فقد ورد بطريقة لا تُشير إلى وجود حالة من الإجماع بينهم، لأن "السّمع" في هذا الموضع يحتمل معاني كثيرة، منها الإصغاء والانتباه والفهم والطاعة والاستيعاب والردّ والطاعة، بعبارة أخرى: إن مفهوم السّمع في هذا الموضع يُشير إلى البُعد الروحي الداخلي للعقيدة اليهودية.

وانطلاقاً من هذا الأساس فهناك نتائج تترتب عليها حالة السّمع تلك، فاليهود قومٌ يعملون أكثر من كونهم "يسمعون". كما توجد قاعدة أساسية في الديانة اليهودية تتعلق بالتشريعات اليهودية "الهلاخاه"، وهذه القاعدة تقول: عندما يتعلق الأمر بالأحكام الشرعية اليهودية فإنه يجب أن يكون لدينا حالة من الإجماع. في المُقابل، وبالرغم من وجود مبادئ وأسس واضحة للعقيدة اليهودية، إلا أنه عندما يتعلق الأمر بالروحانية اليهودية فإنه لا يوجد منهج أو توجهٌ مُحدّد وثابتٌ لذلك. لقد أنجبت اليهودية رُسلًا وأنبياءً وكهنةً ومُفكرين ومتصوّفين وفلاسفة وشُعراء لا حصرَ لهم، كما أن كتاب التناخ يتحدث دوماً بأساليب وأنماطٍ مُتعدّدة. أضف إلى ذلك أن النبي يشعياهو/إشعياهو لم يكن كالنبي يحزقييل/حزقييل (أو حسقييل)، وسفر الأمثال جاء استناداً إلى عقلياتٍ متنوّعة تختلف عن العقليات التي جاءت في سفر عاموس وسفر هوشع. والأهم من هذا كله فإن مُحتوى التوراة نفسه يتنوّع ما بين الأحكام الشرعية والقصص والروايات والتاريخ والرؤى الروحية وطقوس العبادة والصلوات. لهذا فإننا نجد معايير ثابتة وواضحة تُحدّد لنا كيف يجب أن تكون سلوكياتنا وتصرفاتنا كيهود، لكن لا توجد معايير ثابتة تفرض علينا كيف نُفكر أو كيف نشعر كيهود.

إننا نستشعر وجود الله عزّ وجلّ بطرقٍ مُختلفة، فالبعض يجده في الطبيعة، تماماً مثلما يذكر الشاعر الإنجليزي ويليام وردزورث عبر عددٍ من أبياته الشعرية حين قال:

"شُعورٌ سامٍ بأمرٍ عميقٍ
شعورٌ أعمقُ من أن يُصهرَ
يستقرّ في وهجِ شمسِ الغروبِ
وفي المحيطِ المُستديرِ
وفي الهواءِ العليلِ"⁷

في حين يستشعرُ البعضُ الآخرُ وجودَ اللهِ عزَّ وجلَّ في العواطفِ المُتبادلةِ بين البشرِ، عندما يشعرُ الإنسانُ بأنه يُحِبُّ ويُحَبُّ، وهذا ما عبّرَ عنه الحاخام الكبير عقيفا بن يوسف في حديثه عن الزواج، حين قال: "إنَّه حالة السكينة والحضور الإلهي (الشخينا بالعبرية) بين الزوج وزوجته". كما يستشعرُ آخرونُ وجودَ اللهِ عزَّ وجلَّ في نداءِ نُبويِّ كهذا النداء من سفر عاموس والذي ورد في الآية الرابعة والعشرين من المقطع الخامس: "وليُجرِ الحق كالمياه، والبر كنهر دائم". وآخرونُ يَستشعرونه في دراسة التوراة: "فنفرحُ بكلماتك في التوراة... فهي حياتنا وطول أيامنا، وبها سنتأملُ صباح مساء"⁸. وغيرهم يستشعرون وجوده في الصلوات والأدعية، حين يُدركون بأن الله عزَّ وجلَّ قريبٌ جداً من أولئك الذين يتضرَّعون إليه بقلبٍ صادق.

كما نجدُ من يستشعرُ وجودَ اللهِ عزَّ وجلَّ في الفرح والرقص والغناء، تماماً كما فعلَ الملكُ دافيد/داوودُ عندما أحضرَ تابوتَ العهدِ إلى أورشليم القدس. والبعضُ الآخرُ - أو حتى من ذكرناهم سابقاً خلال مراحل متقدِّمة من مراحل حياتهم - يستشعرون وجودَ اللهِ عزَّ وجلَّ في قَمَّةِ حزنهم وبكائهم وفي عمق انكسارهم وبؤسهم. وقد وجدَ اينشتاين اللهُ عزَّ وجلَّ في حالةِ "التناسق الرهيب" والنظام المُحكَّم والمعقد لهذا الكون، أما الحاخام أبراهام كوك فقد وجدَ اللهُ عزَّ وجلَّ في الانسجام الناتج عن الاختلاف. أما الحاخام يوسف دوف سولوفيتشيك فقد استشعرَ وجودَ اللهِ من خلال العزلة والاختلاء، في جو ترتقي فيه الكينونة الإنسانية لتصل إلى حدودِ الكينونة الإلهية.

بالتالي هنالك معايير واضحة ومُحددة للقيام بعملٍ ما، لكن هنالك طُرُق عديدة ومختلفة نُصغي من خلالها إلى الصوتِ الإلهيِّ وتعرَّفَ على وجوده المُقدس في حياتنا، عندما نُدركُ كم نحنُ متناهون في الصغر أمام هذا الكون الشاسع مُترامي الأطراف، فحين نشعرُ بعظمة هذا الكون نبدو وكأننا أمرٌ لا يُذكرُ مُقارنةً باتساع السماء وضخامة عدد النجوم والكواكب وتنوعها. لكننا في الوقت نفسه نُدركُ حجم عظمتنا حين نُدركُ بأن الله عزَّ وجلَّ قد خلقنا على صورته، ووضعنا هنا في هذا المكان تحديداً وفي هذا الزمان على وجه الخصوص وفي ظلِّ هذه الظروفِ والتعم التي أنعم بها علينا لسبب واحدٍ: إنها المُهمة التي أوكلها إلينا في حال أدركنا وجودها فعلاً.

7. مقتبس من الكاتب الإنجليزي ويليام ووردزورث:

Lines Composed a Few Miles Above Tintern Abbey, on Revisiting the Banks of the Wye during a Tour, July 13, "1798"

8. مقتبسة من الدعاء الذي نتلوه مولين وجوهنا صوبَ السماوات أثناء صلاة الغروب.

لهذا، بمقدورنا أن نجدَ الله عزَّ وجلَّ ونستشعر وجوده عندما نكونُ في القمَّة وفي القاعِ على حدِّ سواء، في الوحدة والاجتماع، في الحُب والخوف، عندما نشعرُ بالامتنان له تماماً مثلما نشعرُ بالحاجة إليه، في الظلام الخافت كما في الضوء الساطع. بإمكاننا أن نجدَ الله عزَّ وجلَّ عندما نبحثُ عنه بكل إخلاص وصدق، واللهُ يَجِدنا في أماكن وأزمنة لم يكن يخطرُ ببالنا أصلاً أنه سيجدنا فيها. وهذا هو الفرقُ الشاسع بين "نعسيه" و"نِشْمَع"، فنحنُ نقومُ بما أمرنا الله عزَّ وجلَّ بالقيام به "سويًا"، ونردُّ مُستجيبين لأوامره ووصاياه "بصوتٍ واحدٍ"، لكننا نسمعُ اللهَ ونُصغي لحضوره في حياتنا بطرق مُختلفة، لأن الله عزَّ وجلَّ واحدٌ أحد، أما نحنُ البشرُ فمختلفون، بالتالي لكل إنسانٍ طريقته الخاصة التي يجدُ بها الله عزَّ وجلَّ.

تروماه

هو النصّ الأسبوعي السابع من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الخامس والعشرين وينتهي بالآية التاسعة عشرة من المقطع السابع والعشرين.

هِبَةُ الْعَطَاءِ

يذكرُ هذا النصّ الأسبوعي من التوراة أوّل بيتٍ بناه بني إسرائيلُ لعبادة الله عزّ وجلّ، لكن فكرة بناء بيتٍ لله مليئة بالمُفارقات بل والتناقضات إن صحّ التعبير، إذ كيف نَبِيَّ بيتاً لله عزّ وجلّ وهو أعظّم من أي شيء بإمكاننا أن نتخيله؟ لقد طرح الملك شلومو/سليمان هذه الفكرة في أوّل خطاب ألقاه عقب بناء الهيكل اليهوديّ الأوّل، حيث قال: "هل يسكنُ الله حقاً على الأرض؟ هَيْذَا السَّمَاوَاتُ وَسَمَاءُ السَّمَاوَاتِ لَا تَسْعَكُ، فَكَمْ ضَيْلٌ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِي بَنَيْتُ!" تبعاً لما يذكره سفر الملوك في المقطع الثامن في الآية السابعة والعشرين. والحال ذاته مع النبي يشعياهو/إشعياء الذي طرح هذه الفكرة أيضاً مُتحدّثاً باسم الله عزّ وجلّ، حين قال: "السَّمَاوَاتُ كُرْسِيُّي، وَالْأَرْضُ مَوْطِي قَدَمِي. أَيْنَ الْبَيْتُ الَّذِي تَبْنُونَ لِي؟ وَأَيْنَ مَكَانٌ رَاحَتِي؟" تبعاً لما يذكره سفر إشعياء في المقطع السادس والستين في الآية الأولى.

بالتالي فإن فكرة بناء بيتٍ لله لم تكن مُستحيلة فحسب، بل هي غيرُ ضرورية أيضاً، لأنه بإمكاننا التواصل مع إله كلّ شيءٍ من أي مكان بمُنتهى اليُسْر والسلاسة، سواءً كان هذا المكان في قمة جبلٍ أو في أعماق جُبّ، وسواءً كان هذا المكانُ حياً فقيراً بائساً أو قلعةً مُحصنة يُرصعها الرخام والذهب.

لكن الإجابة على هذا التساؤل تكمنُ في الفكرة التالية - وهي فكرة جوهرية جداً في الديانة اليهودية-: إن الله عزّ وجلّ لا يتواجدُ في البناء، بل هو موجودٌ في البنايين، واللهُ غيرُ موجودٍ في الحجرة لكنه موجودٌ في قلبِ الإنسان، وهذا ما استنبطه كبار الحاخامات اليهود والمتصوّفون من الآية الثامنة في المقطع الخامس والعشرين من سفر الخروج، حين قال اللهُ عزّ وجلّ: "ويصنعون لي من جميع ذلك بيتاً مقدّساً، وأسكنُ نوري بينهم"، فقال "أسكنُ بينهم"، ولم يقل "بيتاً أسكنُ فيه".

لكن السؤال الذي يطرحُ نفسه هنا: لماذا طلبَ منّا اللهُ عزّ وجلّ أن نَبِيَّ له مكاناً مقدّساً للعبادة؟ في الحقيقة فإن الإجابة التي وضّحها غالبية المُفسرين اليهود والتي لمحت إليها التوراة أيضاً تمثّلت في الآتي: لقد أمرنا اللهُ ببناء بيت للعبادة تحديداً بعدما وقعت خطيئة العجل الذهبيّ، فقد صنع بنو إسرائيل هذا العجلَ بعد صعود موشيه/موسى إلى جبل سيناء وقضائه أربعين ليلة فوق سفحه حتى تنزّل عليه التوراة. بالتالي، عندما كان موشيه مُتواجداً بين بني إسرائيل، كانوا موقنين تماماً بأنه يتواصل مع الله عزّ وجلّ وبأن الله معه، لهذا كان اللهُ قريباً منهم تبعاً لذلك الاعتقاد. لكن بمجرد غياب موشيه

عنهم لفترة ستة أسابيع، أصابهم الذعر فجأة، وصاروا يتساءلون بين أنفسهم: من سيجسر هذه الهوة ويكون حلقة الوصل بيننا وبين الله عز وجل؟ وكيف بإمكانهم أن يتلقوا الأوامر الإلهية؟ وما هي حلقة الوصل التي ستكون بينهم وبين الله عز وجل أثناء غيابه؟

وانطلاقاً من هذه الحاجة، أمر الله عز وجل نبيه موسى قائلًا: "ويصنعون لي من جميع ذلك بيتاً مقدساً، وأسكن بينهم"، والكلمة الرئيسية في هذه الآية هي الفعل المُشْتَقُّ من الجذر العبري "ش.ك.خ.ن" (بمعنى سكن أو قطن)، والمُمَيِّز في هذا الموضوع هو أنه لم يسبق أن استُخِدِمَ هذا الفعل في التوراة في سياق الاتصال بالله عز وجل، لكنه أصبح لاحقاً كلمة رئيسية في الديانة اليهودية بحد ذاتها، فمن هذا الفعل جاءت كلمة "مِشكان" التي تعني بيت العبادة، وكلمة "شخيناه" التي تعني السكنينة والحضور الإلهي. في الوقت نفسه، فإن "القرب" هو معنى آخر يُضَافُ إلى المعنى الرئيسي للفعل "شخن"، فكلمة "شخين" في اللغة العبرية تعني الجار، أي الإنسان الذي يسكن بالقرب منك. لهذا، ما كان بنو إسرائيل بحاجة ماسة له هو الشعور بالقرب من الله عز وجل، تماماً كقرب أحدهم من جاره الذي يليه.

لقد حظي أجدادنا الأوائل بحالة من القرب من الله عز وجل، فالله تحدّث مع أفرهام/إبراهيم ويتسحاق/إسحاق ويعقوب/يعقوب وساره ورفقه/رفقة وراحيل وليئة عن قرب، كما يتحدّث الصديق إلى صديقه. وخلال ذلك أخبر الله عز وجل أفرهام وساره بأنه سيهبهما طفلاً، ووضّح لرفقه سبب معاناتها وألمها الشديد أثناء حملها، كما ظهر ليعقوب في أهم لحظات حياته طالباً منه ألا يجزع أو يخاف. في الوقت نفسه، فإن كل ما رآه بنو إسرائيل من الله عز وجل كان الآفات التي سلّطها على الفراعنة، ورأوه يشقّ البحر ويرسل لهم المنّ من السماء ويُخرج لهم الماء من الصخر، كما سمعوا نبرة الأوامر في صوته على جبل سيناء والذي كان أمراً شاقاً صعب الاحتمال بالنسبة لهم، لهذا توجّهوا إلى موسى قائلين: "تكلّم أنت معنا فنسمع، ولا يتكلّم الله معنا لئلا نموت" تبعاً لما يذكره سفر الخروج في الآية التاسعة عشر من المقطع العشرين. فقد تجلّى الله عز وجل لهم بمشاهدة طغت عليها ملامح القوّة الجبّارة والتور الساطع الذي من شأنه أن يُعمي الأبصار، والصوت الصاخب الكفيل بأن يصمّ الآذان.

لهذا، كانت مسألة الاتصال بالله عز وجل بمثابة تحدّ كبير ليس فقط أمام أجدادنا الأوائل بل أيضاً أمام اليهود فرداً فرداً، ويفترض البعض بأنه كان تحدياً إلهياً أيضاً، بالتالي قام الله عز وجل بما اصطلحت الصوفيّة اليهودية على تسميته "تسمتسوم" (بمعنى التقليل والتخفيف من حدّة الشيء)، أي قام الله عز وجل بالتخفيف من حدّة نوره الساطع وصخب صوته، فقام بحجب عظمتة خلف الغمام، وسمح للألزلية أن تُصبح نهائية.

لكن جميع هذه الأمور كانت الجانب اليسير، أمّا الجانب الذي كان في غاية الصعوبة لم تكن لنا علاقة به، ولا يتمحور حول الله عز وجل، بل تمثّل في السؤال التالي: كيف بإمكاننا أن نستشعر الوجود الإلهي؟ في الواقع، فإنه لا توجد أي صعوبة في ذلك عند الوقوف على قمة جبل الإفرست أو عند النظر إلى الأحدود العظيم، ففي منظر مهيب كهذا، فإن المؤمن وغير المؤمن معاً بإمكانهما استشعار عظمتة ورهبته عز وجل من فوق هذا الارتفاع الشاهق، وهذا ما تحدّث عنه عالم النفس الشهير أبرهام ماسلو

(الذي تحدثنا عنه في النص الأسبوعي "فايزي") في نظريته التي أطلق عليها "خبرات القمّة"، مُعتبراً أن تجربة كهذه تُشكّل جوهر اللقاء الروحاني بالله عزّ وجلّ.

لكن السؤال المُحير هنا: كيف بإمكانك أن تشعّر بوجودِ الله عزّ وجلّ في حياتك في خضمّ معمعة الحياة اليومية؟ كيف بإمكانك ذلك وأنت موجودٌ في القاع، لا من فوق قمّة جبل سيناء؟ كيف بإمكانك رؤية الله عزّ وجلّ عندما لا تكون مُحاطاً بالبرق الساطع والرعد الصاخب الذي رافق تجلّي الله عزّ وجلّ لبني إسرائيل، بل عندما تعيش يوماً عادياً كسائر الأيام؟ إنّ إجابة هذه الأسئلة هي السرّ الكامن في اسم هذا النص الأسبوعي من نصوص التوراة: تروماه، هذه الكلمة التي تعني المُساهمة، وهُنا يقول الله عزّ وجلّ مخاطباً موسى في الآية الثانية من المقطع الخامس والعشرين من سفر الخروج: "مر بني إسرائيل أن يأخذوا لي رفاعةً، من كل رجلٍ تسخو نفسه تأخذون رفيعتي". بصريح العبارة: إنّ الطريقة المثلى للقاء الله واستشعار وجوده في حياتنا هي العطاء.

إنّ العطاء سلوكٌ نابعٌ من إدراكنا بأن ما نُعطيه هو جزءٌ مما نتلقاه، والعطاء نفسه قد يقودُ الإنسان لإدراك هذه الحقيقة. كما أنّ العطاء يُمثّل شكلاً من أشكال الشكر والعرفان والامتنان، وهُنا يكمن الفرق في مدى وجودِ الله عزّ وجلّ من عدمه داخل العقل البشريّ، فعندما يكونُ الله حاضراً في حياتنا فإن هذا يعني إيماننا بأن كل ما نمتلكه هو مُلْكُ الله، فهو خالقُ الكونِ وخالقنا، وهو الذي وهبنا الحياة، وهو الذي نفخ في أرواحنا لتننفس هواء هذا العالم. وحين نُلقي نظرة على ما يحيط بنا من عظمة سنجد أنها غيضٌ من فيض كرم الله علينا: بدءاً من نور الشمس وذهبيّة الصخور مروراً بزقزقة العصفير وانتهاءً بخُصرة الأشجار. هذه هي العظمة التي نستشعرها حين نتلو تلك المقاطع من سفر المزامير يومياً والتي تتطرق إلى موضوع الخلق خلال صلاة الصباح. إنّ هذا الكون هو بمثابة معرضٍ فني نجد فيه نُحفه الفنّيّة الساحرة التي خلقها الله عزّ وجلّ في كل ركنٍ من أركانه، وعندما تكونُ الحياة هبة من الله، فإن سُكرنا وعِرفاننا لله على هذه الهبة يكون من خلال عطاينا وكرمنا مع الآخرين.

في المقابل، عندما لا تكونُ الحياة هبةً لأنه - من وجهة نظر البعض - لا يوجدُ واهبٌ لها أصلاً، وحين يكونُ هذا الكون موجوداً لا لسببٍ سوى بعض التذبذبات العشوائية في الفضاء الكميّ، وحين لا يوجدُ من يعلمُ أو يكتثُر بوجودنا في هذا الكون، وحين يخلو جسدُ الإنسان من كل شيء سوى بعض الرموز التي تشكّل خارطته الجينية، وحين يكون عقلُ الإنسان مُقتصرّاً على وجود نبضات كهربائية في الدماغ، وحين تكون منظومتنا الأخلاقية مبنية على أساس أنانيّ يقتصر على فكرة حفاظنا على بقائنا فقط، وحين تكون الروحانية مُجرّد "وهمٍ"، حينما تسود جميع تلك الأفكار فإن الشعور بالشكر والامتنان على هبة الحياة سيكون أمراً في غاية الصعوبة، لأنه لا توجدُ هبةٌ إنّ لم يكن هناك واهبٌ، وستكون تلك الهبة بمثابة أمر عشوائي حدث بالصدفة البحتة، فكيف للمزء أن يشعر بالعرفان والامتنان للصدفة؟

إنّ التوراة تُحدّثنا عن أمر بسيطٍ وعمليّ في الوقت نفسه: امْنَحْ وسوف تُصبح قادراً على رؤية الحياة كهبةٍ ومنحة. كما أنه ليسَ مطلوباً منك أن تكون قادراً على إثبات وجودِ الله عزّ وجلّ، بل ما هو مطلوبٌ منك هو أن تشعّر بالشكر والعرفان لأنك موجودٌ، والباقي يأتي لاحقاً.

وهكذا أصبح الله عزّ وجلّ قريباً من بني إسرائيل عبرَ بناء بيت مُقدّس للعبادة، ولم يكن السبب في ذلك القُربِ هو جودة الحجارة المُستخدمة في بنائه ولا حتى جودة الخشب أو المعادن أو الستائر الموجودة فيه، كما لم يكن السبب في ذلك لمعانُ الأحجار الكريمة الموجودة في اللوح الذي كان يرتديه كبيرُ الكهنة على صدره وظهره. كذلك لم يكن جمالُ البناء أو رائحة القرابين سبباً لذلك، لكنّ السببَ الكامنَ خلف ذلك القُرب هو أنه بُني بالعطايا والهباتِ حسب ما تذكرُ الآية الثانية في المقطع الخامس والعشرين: "من كل رجلٍ تسخو نفسه تأخذون رَفِيعتي". بالتالي يكونُ الله موجوداً وحاضراً عندما يتبرّع ويُعطي النَّاسُ من تلقاء أنفسهم لدعمِ بعضهم البعض وكذلك للقضايا المقدسة.

وعلى هذا الأساس مُنِح هذا النص التوراتي اسمه: تروماه، هذه الكلمة التي ترجمتها بمعنى "المُساهمة"، لكن المعنى الدقيق لهذه الكلمة يختلف قليلاً عن مجرد المُساهمة نظراً لعدم وجودِ مُرادفٍ لها يصفُ تلك الدقّة في المعنى. إن هذه الكلمة تعني "الرّفعة" التي تجنيها من مُساهمتك التي تقدّمها لأجل أمرٍ مُقدّس، بالتالي رفعت شيئاً فَمُنَحَك الرّفعة. بمعنى آخر، إن الوسيلة المثلى لرفع الحالة الروحانية تتمثّل في العطاء من باب شعور المرء بالعرفان والامتنان لما يتمتّع به من عطايا وهبات.

إن الله عزّ وجلّ لا يُسكُنُ البيوت ولا ججارتها، بل يسكنُ في أفئدة أولئك الذين يُعطون ويهبون بكل صدق وإخلاص.

تصفيه

هو النصّ الأسبوعي الثامن من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية العشرين من المقطع السابع والعشرين، وينتهي بالآية العاشرة من المقطع الثلاثين.

الإلهام والعمل الدؤوب

كان الموسيقيّ المعروف بيتهوفن يستيقظ من نومه مع بزوغ فجر النهار، ثمّ يحسّي فنجاناً من القهوة، لكنه كان مهووساً بالتفاصيل لدرجة أنّ كلّ فنجانٍ كان يجب أن يُطحن من ستين حبة قهوة، دون زيادةٍ أو نقصان، حيث كان يُحصيها بنفسه حبةً تلو الأخرى كلّ صباح. وبعد ذلك كان يجلسُ في مكتبه ليؤلّف المقاطع الموسيقيّة حتى الساعة الثانية أو الثالثة بعد الظهر. وبعد ذلك كان يخرجُ من بيته ليتمشّى مُصطحباً معه قلماً وبعض الأوراقِ حتّى يدوّن أي نغماتٍ قد تخطرُ بباله أثناء المشي. وفي كل ليلةٍ كان يتناولُ عشاءه ثم يحسّي زجاجة جعة ويُدخّن الغليون قليلاً، ثم يذهبُ إلى فراشه ليخلد إلى النوم الساعة العاشرة ليلاً كحدٍ أقصى.

وكان الكاتب والروائيّ الإنجليزي أنتوني ترولوب يعملُ خلال النهار في مكتبٍ للبريد، كما كان يدفعُ المال لشخصٍ مُعيّن حتى يوقظه كل يوم في تمام الساعة الخامسة صباحاً، ليكون بعدها بنصف ساعة كل يوم في مكتبه وينهمك في الكتابة لمدة ثلاث ساعاتٍ متواصلة، بحيث يُصارع الوقت ليُكتب بمعدّل مائتين وخمسين كلمة كلّ ربع ساعة، في حال أنهى إحدى رواياته قبل أن تنتهي الساعات الثلاثة المخصصة لها، كان يجلبُ ورقةً جديدة ويبدأ على الفور بكتابة روايةٍ جديدة، وبهذا الأسلوب نجح في تأليف ستة عشر كتاباً، عدا عن سبعة وأربعين رواية يحتوي كثير منها على ثلاث مجلّدات.

والحال نفسه بالنسبة للفيلسوف الألماني الكبير إيمانويل كانط والذي اشتُهر بروتيته الثابت طيلة فترة حياته، لهذا تحدّث عنه الشاعر هاينرش هاينه واصفاً روتين حياته قائلاً: "كان ينهضُ من النوم، يحسّي القهوة، يكتبُ ثم يُلقي المُحاضرات، يأكل ثم يتمسّى، كان يفعلُ جميع هذه الأمور في وقت مُحدّد، لدرجة أن الجيران كانوا يعلمون أن الساعة هي الثالثة والنصفُ بعد الظهر حين يخرجُ إيمانويل من بيته مُرتدياً معطفه الرماديّ حاملاً عصاه الإسبانيّة بيده".

في الحقيقة، لقد دُوّنت هذه التفاصيل الصغيرة من حياة أكثر من مئة وخمسين فيلسوفاً وفناناً ومُلحناً وكتيباً في كتابٍ لماسون كوري أطلق عليه اسم "طقوسُ فنية: كيف يعملُ المُبدعون" (Daily Rituals: How Great Minds Make Time, Find Inspiration, and Get to Work).¹

1. ماسون كوري، طُقوسُ يومية (New York: Knopf, 2013)

والغاية من هذا الكتاب بسيطة جداً: فالكتاب يُبين لنا بأن أكثر المبدعين كانوا ملتزمين بعبادات وطقوس يومية، ومن هذه التربة الخصبة نبتت ونمت بذور إبداعاتهم، وفي كثير من الأحيان كانوا يعملون بوظائف لم يكونوا بحاجة لها أصلاً، فكانوا يقومون بها لا لسبب سوى رغبتهم في إيجاد روتين ثابت لحياتهم اليومية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، نجد أن الشاعر الأمريكي والاس ستيفنز كان يشغل وظيفة محامي تأمين في شركة هارتفارد للتعويضات والتأمين على الحوادث، وظل في تلك الوظيفة حتى وفاته. وعندما سُئل عن ذلك، أجاب بأن الوظيفة هي أحد أفضل الأمور التي حظي بها في حياته، موضحاً بأن "الوظيفة الثابتة تُضيف الانضباط والانظام إلى حياة المرء".

في الوقت نفسه، فلننتبه إلى حجم المفارقة هنا، فهؤلاء جميعهم كانوا رواداً ومبدعين في اختصاصاتهم ومجالاتهم، ممن كان لهم الفضل في إحداث تغييرات مَهولة في تلك المجالات وأضافوا لها أفكاراً وجوانب مبتكرة، فكانوا المُحدثين الذين قاموا بما لم يُقَم به أحد من قبل، فغيروا شكل العالم وخاضوا غمار المجهول في شتى المجالات. لكن ورغم هذا كله نجد أنهم عاشوا حياةً تعتبر نقيضاً لهذا كُله: حياةً روتينية تملؤها الرتابة والطقوس والعادات اليومية الثابتة التي قد يصفها أحدنا بالمملة! فما الذي يُفسر هذا التناقض؟

في الواقع فإن الإجابة موجودة في هذه المقولة المعروفة – رغم شهرتها إلا أنه لا أحد يعرف من كان قائلها الأصلي – والتي تقول: "العبقريّة مزيجٌ يتكوّن من واحدٍ بالمائة من الإلهام، وتسعين بالمائة من العمل الدؤوب". وهذا بالفعل ما يحدث على أرض الواقع، فالاكتشافات العلمية الخلاقية والبحوث العلمية التي تشقّ دروباً جديدة في الحياة، والمنتجات التي تتربّع على عرش النجاح، والروايات الفدّة، والأفلام الحائزة على أهمّ الجوائز، جميع هذه الأمور هي نتاج لسنين عديدة وساعات طويلة من العمل المُضني للتركيز على أدقّ التفاصيل، بالتالي فإن العمل الدؤوب هو جزء لا يتجزأ من الإبداع والابتكار. في الوقت نفسه، فإن كلمة "عقوداه" في اللغة العبرية القديمة تعني العمل الشاق، كما يوجد لها معنى آخر وهو عبادة الله عزّ وجلّ، وكأنها تقول لنا بأن ما ينطبق على الفن والعلم والتجارة والصناعة، ينطبق على الحياة الروحانية أيضاً، لأن تحقيق أي قدر من السموّ الروحي في حياة الإنسان يتطلب جهداً مُستمراً وعبادات وطقوساً تُمارس بشكل يومي.

لهذا، فإننا نجد كبار حاخامات اليهود قد وضعوا نصب أعينهم فقرة استثنائية من فقرات الأجداد (جزء من المِدراش)، فاستنبطوا منها تصوّرهم حول "كلال جِدول بتوراه" (بمعنى مبدأ عظيم في التوراة). وفي هذا السياق يقول الحاخام الكبير بن عزاي بأن الآية الأولى من المقطع الخامس من سفر التكوين: "خَلَقَهُ اللهُ بِسَبْهِهِ" هي أعظم آية توراتية. في حين يوضّح الحاخام الكبير بن زوما بأن هنالك آية توراتية أخرى أكثر شمولاً، ألا وهي الآية الرابعة من المقطع السادس من سفر التثنية: "اسمع يا إسرائيل: اللهُ إلهنا رب واحد". أما الحاخام الكبير بن نانس فيرى أن هنالك آية أكثر شمولاً من ذلك وهي الآية الثامنة عشر من المقطع التاسع عشر من سفر اللاويين والتي تقول: "أحب جارك كما تُحب نفسك". أما الحاخام الكبير بن بازي فقد قال بأنه وجد آية تتضمن بين ثناياها مبدأ أكثر شمولاً واحتواءً من تلك الآيات، مُقتبساً الآية التاسعة والثلاثين من المقطع التاسع والعشرين من سفر الخروج والموجودة في هذا النصّ الأسبوعي من التوراة، والتي تقول: "أحدُهُما (الخِراف) بالغدادة

والآخر بين الغرويين"، بالتالي تتحدث هذه الآية عما نصفه اليوم بصلاة الشحاريت (صلاة الفجر) وصلاة المنحاه (صلاة الظهر أو العصر) وصلاة المعريف (صلاة المغرب). بصريح العبارة، فإن هذه الآية تتحدث عن الروتين اليومي، بالتالي فإن ما خلصت إليه تلك الفقرة من نص بن يازي: الشريعة تطابق ما يقوله بن يازي.²

والغاية مما قاله الحاخام بن يازي واضحة ووضوح الشمس في كبد السماء: إن جميع القيم والمثل العليا في هذا العالم، بدءاً من خلق الإنسان بصورة الله عز وجل والإيمان بوحدانيته ومحبة الجار وغيرها من القيم، جميعها بنهاية المطاف تندرج تحت سلوكيات الجسد التي تصبح مع مرور الوقت سلوكيات للفؤاد. فبإمكان أي منا أن يتذكر لحظة من لحظات العبقرية التي شعر بها عندما خطرت بباله فكرة عظيمة وخلاقة، أو عندما بنى تصوراً لمشروع سيغيّر حياته. لكن بعد مضي سنة أو أسبوعٍ وربّما يومٍ واحدٍ على ذلك الشعور، ستكون تلك الفكرة طي النسيان، وفي أحسن الحالات قد تصبح ذكرى من ذكرياتنا البعيدة.

كما أن الذين يُحدثون تغييراً في هذا العالم – أياً كان حجمه – هم أولئك الذين ينجحون بتحويل التجارب التي يكونون فيها في ذروة النجاح أو الفشل إلى نمط حياة روتيني، إنهم أولئك الذين ينتبهون لأدق التفاصيل ووضعا عملهم الدؤوب في إطار منضبط ومننظم، وجعلوا منه مساراً ثابتاً لحياتهم مع مرور الزمن.

إن عظمة العقيدة اليهودية تكمن في كونها تأخذ مثلاً وقيماً علياً ورؤى عظيمة - مثل صورة الله عز وجل والإيمان بالله الواحد ومحبة الجار - ثم تحوّلها إلى أنماط سلوكية في حياة البشر. كما أن الهلاخاه (قوانين الشريعة اليهودية) تتضمن مجموعة من السلوكيات الروتينية المنتظمة التي لا تختلف عن تلك التي اتبعتها المبدعون والعظماء، بحيث تُعيد هذه السلوكيات إعادة تشكيل دماغ الإنسان بطريقة تجعل حياته أكثر رتابة وانضباطاً، وتُغيّر الطريقة التي نشعر ونفكر وننصرف من خلالها.

كما أن الكثير من جوانب الديانة اليهودية قد تبدو لغير اليهود - ولبعض اليهود أحياناً - جوانب روتينية مُملة ومبتذلة ودنيوية تتكرّر طوال الوقت، بل وقد تبدو بأنها ديانة مهووسة بأدق التفاصيل، وبأنها تخلو من الدراما والإلهام في كثير من الأحيان. لكن، لو توقّفنا عند هذه الصفات جميعها وسألنا أنفسنا هذا السؤال: أليست هذه الأمور هي التي تتطلبها كتابة الرواية وتلحين المقطوعة الموسيقية وإخراج الفيلم السينمائي أو ربما إنتاج تطبيق الكتروني يكتسح الأسواق، أو تأسيس مصلحة تجارية قد تصل قيمتها لمليار دولار، وغيرها من الأعمال الضخمة؟ إن الأمر بنهاية المطاف يتعلّق بالعمل الدؤوب والتركيز الشديد والالتزام بروتين يوميّ مُحدّد، وهذه هي الأسس التي تنبع منها الأعمال العظيمة دائمة الوجود.

وبالنسبة لنا في العالم الغربيّ، فقد طوّرتنا وجهة نظر غريبة لمفهوم التجربة الدينية، ووجهة نظر

2. هذه الفقرة مُقتبسة من مقدمة تفسير "هاكوتيف" في "عاين يعقوف"، والتي تجمع جميع فقرات صلاة الهجداه في التلمود. كما أنها مُقتبسة من قبل مهارال في تفسير "نتيفوت عولام" في "أحافوت رينا" الجزء الأول.

تقول بأن التجربة الدينية تتمثل في ذلك الشعور الطافي الذي ينتاب المرء حينما يمر بموقف خارج عن إطار المألوف في التجارب الحياتية الاعتيادية، ذلك الإحساس الذي ينتاب المرء حينما يصعد قمة جبل شاهق وينظر للأسفل مثلاً، أو عندما ينجو بمعجزة من خطر معين، أو عندما يجد نفسه فجأة بين حشدٍ غفيرٍ من الناس الذين تغمرهم البهجة والسرور. إنها وجهة النظر التي وصفها عالم اللاهوت اللوثري الألماني رودولف أوتو (1869م - 1937م) حين وضح تعريفه لكلمة "مقدس"، حيث قال: "هي كلمة غامضة (mysterium) مُثيرةٌ للدُّعْر (tremendum) والدهشة (fascinans) في الآن نفسه". وهذا ما ينتابنا فعلاً في حضرة أمرٍ في منتهى العظمة والروعة، وجميعنا بالطبع نمتلك تجارب مماثلة.

لكن بنهاية المطاف تظل جميع تلك المواقف في نطاق "التجارب"، بمعنى أنها تستقر في ذاكرة المرء لفترة زمنية معينة، لكنها ليست جزءاً من حياتك اليومية، كما أن تلك التجارب لا تتداخل مع تركيبة شخصية كل منا ولا تؤثر على ما يقوم به المرء ولا على إنجازاته أو طموحاته. لهذا فإن الديانة اليهودية تُركز كثيراً على التغيير الداخلي للإنسان بحيث يُصبح مُبدعاً خلاقاً يصب إبداعه على أعظم أمرٍ لديه، ألا وهو حياته.³

والوصول إلى تلك المرحلة يتطلب روتيناً منتظماً من السلوكيات والعادات والطقوس اليومية: صلاة الشحاريت، وصلاة المنحاه، وصلاة المعريف، وطبيعة الطعام الذي نتناوله، وأسلوب حياتنا في العمل والبيت، وتناغم القداسة الذي يُعتبر بمثابة بُعدٍ ديني كهنوتي للديانة اليهودية، هذا البعد الذي يتلخص تحديداً في سفر اللاويين بالإضافة إلى هذا النص الأسبوعي من نصوص التوراة.

بالتالي يوجد للعادات والطقوس اليومية أثر كبير على حياة الإنسان، وهذا ما تُثبته الصور المقطعية والطبقية وصور الرنين المغناطيسي للدماغ، والتي تُظهر بشكلٍ جلي أن الطقوس الدينية والروحانية المُستمرّة تُعيد تشكيل الدماغ. إن هذا الروتين الديني اليومي يمنحنا قدراً من المرونة الداخلية ويجعلنا نشعر أكثر بالعرفان والامتنان، كما أنه يمنحنا ثقة أكبر في مصدر حياتنا ووجودنا، ويُعيد تشكيل هويتنا والأسلوب الذي نتصرف ونفكر من خلاله. لهذا فإن الروتين اليومي من العادات والطقوس الدينية بالنسبة للروحانية هو بمثابة التمرين اليومي للاعب التنس، وبمثابة الانضباط في حياة الزواي، بل وبمثابة الأسلوب الذي يقرأ به وارن بافت حسابات شركاته. إنها شرطٌ أساسي للإنجازات العظيمة، وهي أيضاً عبادة لله عز وجل، أي "عقوداه" بالعبرية، نفس الكلمة التي تعني أيضاً العمل الدؤوب.

وإن كنت تبحث عن الإلهام، فإنه ينبغي عليك أن تعمل جاهداً بشكلٍ يومي، وهذا العمل الدؤوب قد يمتد لسنة أو ربما طيلة حياتك، لأن هذا هو الطريق الذي يأتي عبره الإلهام. وفي هذا السياق أتذكر ما قاله أحد لاعبي رياضة الغولف حين سُئل عن سر نجاحه، فأجاب: "لقد كنتُ مَحْظُوظاً، لكن المضحك في الأمر هو أنني كلما تمرنتُ أكثر، كلما أصبحتُ مَحْظُوظاً أكثر". فكلما سعيت للوصول إلى قيم الروحانية، كلما احتجت عادات وطقوساً دينية يومية وروتينية من الشريعة اليهودية "الهالاخاه"، التي تعتبر الطريق اليهودي المؤدي إلى الله عز وجل.

3. فكرة طرحها الحاخام يوسف سولوفيتشيك في كتابه "هلاخيك مان" (بمعنى الإنسان المُلتزم بالشريعة اليهودية والتلمود).

كي تيسا

هو النصّ الأسبوعي التاسع من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الحادية عشرة من المقطع الثلاثين وينتهي بالآية الخامسة والثلاثين من المقطع الرابع والثلاثين

قُرْبُ اللَّهِ مِنَّا

كلّما تعمّقت أكثر في قراءة التوراة، كلّما أدركت حجم الغموض الذي يعترى المقطع الثالث والثلاثين من سفر الخروج، فهذا هو المقطع الموجود في منتصف قصّة العجل الذهبي، بين المقطع الثاني والثلاثين الذي يتحدّث عن الخطيئة التي ارتكبتها بنو إسرائيل حينها وعواقبها عليهم، والمقطع الرابع والثلاثين الذي أظهر الله عزّ وجلّ عبره "سُبله الثلاثة عشر للرحمة" لنبيّه ورسوله موشيه/موسى، بالإضافة إلى تطرّق هذا المقطع إلى تجديد عهد بني إسرائيل مع الله عزّ وجلّ، والحديث عن الزوج الجديد من ألواح العهد والتي كُسرَت سابقاً. ومن وجهة نظري، فإنني أؤمن بأن الغموض الذي يحيط بهذا المقطع هو بمثابة الإطار الذي يُحيط بالروحانيّة اليهودية.

في الحقيقة هنالك عدة أمور تجعل المقطع الثالث والثلاثين من سفر الخروج مقطّعاً محيراً إلى حدّ ما: أولاً، الغاية من هذا المقطع ليست واضحة، فما الذي يفعله موشيه تبعاً لما تذكره آيات هذا المقطع؟ وقد توجّه موشيه إلى الله عزّ وجلّ طالباً منه المغفرة لبني إسرائيل تبعاً لما يذكره المقطع السابق - أي الثاني والثلاثين - فيما واصل في المقطع الرابع والثلاثين الدّعاء مُجدداً طالباً من الله أن يغفر لهم مرة أخرى، بالتالي ما الذي كان يُحاول موشيه القيام به في المقطع الثاني والثلاثين؟

ثانياً: طلبات موشيه من الله عزّ وجلّ كانت في مُنتهى العرابة، فيقول مخاطباً الله عزّ وجلّ كما تذكر الآية الثالثة عشرة من المقطع الثالث والثلاثين "فَعَلَّمَنِي طَرِيقَكَ" والآية الثامنة عشرة "أرني مجدك (نورك)"، حيث يبدو موشيه من خلال هذه الطلبات وكأنّه يريد أن يخوض تجربة روحانية أو ربّما يريد من الله أن يُريه أموراً لم يُره إياها من قبل، ولا يبدو أبداً وكأنه يطلب المغفرة لأحد. بعبارة أخرى، إنها طلبات على المستوى الفردي لموشيه، لا على المستوى الجماعي لبني إسرائيل الذين يتحدّث بالنيابة عنهم. في الوقت نفسه، كيف لموشيه أن يطلب مثل هذه الطلبات من الله في وقت عصيب كهذا؟ وقت كان الله فيه غاضباً من بني إسرائيل الذين تتناهبهم حالة من الصدمة العميقة، وهم في حالة من الهرج والمرج والاضطراب، وفي ظل هذه الظروف العصيبة يبدو وكأن موشيه يطلب من الله دروس تقوية في الإيمان والعقيدة!

ثالثاً: يبدو وكأن المسار الزمني للقصة من هذا المقطع يسير إلى الوراء، في تناقض واضح مع الترتيب الزمني للأحداث، فعلى سبيل المثال لا الحصر تقول الآية الرابعة من هذا المقطع: "وَلَمْ يَضَعْ

أَحَدُ زَيْنَتِهِ عَلَيْهِ"، في حين تقول الآية التي تليها: "وَلَكِنِ الْآنَ اخْلَعْ زِينَتَكَ عَنكَ فَأَعْلَمْ مَاذَا أَصْنَعُ بِكَ". كذلك تقول الآية الرابعة عشر: "وَجْهِي يَسِيرُ فَأُرِيحُكَ"، في حين تقول الآية التي تليها: "إِنْ لَمْ يَسِرْ وَجْهَكَ فَلَا تُصْعِدْنَا مِنْ هَهُنَا"، وفي كلا المثالين يبدو وكأن الوقت يعودُ إلى الوراء، فالآيات التي ذُكرت لاحقاً (الآية الخامسة والآية الخامسة عشر) قد تم الردّ عليها بالفعل في الآيات التي سبقتها، فما هو التفسير المنطقيّ لذلك؟ باعتقادي فإن التوراة تُحاولُ لفت انتباهنا إلى أمرٍ مُعيّن من خلال ذلك، لكن ما هو هذا الأمرُ يا ترى؟

وما يزيدُ من ملامح الغموض هو حادثةُ العجل الذهبي نفسها، فهل كان هذا العجلُ وثناً، أم أنه لم يكن فعلاً كذلك؟ فالآياتُ توضّحُ لنا بأن بني إسرائيل "هذا ربك يا آل إسرائيل الذي أصعدك من بلد مصر" تبعاً لما تذكره الآية الرابعة من المقطع الثاني والثلاثين، لكنها في الوقت نفسه تذكرُ بأن بني إسرائيل قد أوجدوا هذا العجلَ لأنهم لم يعرفوا ماذا حلّ بموشيه، والسؤال الذي يطرحُ نفسه هنا: هل كان الهدفُ من صنْعِ العجل الذهبي هو إيجادُ بديلٍ لله عزّ وجلّ، أم بديلٍ لموشيه؟ بالتالي ماذا كانت الخطيئةُ التي ارتكبتها بنو إسرائيل؟ أضف إلى ذلك كلّ حالة الغموض الشديد التي تُحيطُ بالتسلسل الدقيق للأحداث والنصوص التي تتحدّث عن بناء "المشكان" (بيت العبادة) قبلَ وبعد التطرق لحادثة العجل الذهبي، وعليه ما هي العلاقة بين بناء بيت للعبادة وحادثة العجل الذهبي؟

في المقابل، وفي قلب هذا الغموض الذي يُخيّم على ملامح هذا المقطع، نجدُ جزئيةً مثيرةً للقلق في الآيات 7-11، حيثُ تُخبرنا هذه الآياتُ بأن موشيه أخذ خيمته من داخل المعسكر الذي يتواجد به بنو إسرائيل ونصبها خارجه، الأمر الذي يطرحُ تساؤلاً كبيراً عن مدى علاقة ما قام به موشيه بالموضوع المطروح بين أيدينا، خاصةً موضوعَ العلاقة بين الله عزّ وجلّ وبني إسرائيل بعد أن صنعوا العجلَ الذهبيّ. لكن أياً كانت الإجابة، فإنه لا يختلفُ مُختلفان على أن خروج موشيه من المعسكر وقيامه بنصب خيمته بعيداً عن بني إسرائيل هو أسوأ أمرٍ يقوم به في ظلّ هذه الظروف العصيبة، فالله عزّ وجلّ بيّن له "لأني لا أصعد مجدي (نوري) بينكم" تبعاً للآية الثالثة من المقطع الثالث والثلاثين، في الوقت الذي خيّم اليأسُ والهَمُّ والغمّ على بني إسرائيل، فقد "نأحوا ولم يصعُ أحدُ زينته عليه" تبعاً لما تُخبرنا به الآية الرابعة من هذا المقطع. بالتالي فإن خروج موشيه من المعسكر وتركه لبني إسرائيل هو أمرٌ سيُثبّتُ من معنوياتهم دون أدنى شك، وفي الأوقات العصيبة كهذه فإنه ينبغي على القائد أن يكون قريباً من شعبه، لا بعيداً عنهم.

هنالك أكثر من طريقةٍ لقراءةٍ وتفسيرٍ هذا النصّ الغامض، لكن بالنسبة لي يبدو هذا التفسير أكثرها إقناعاً وبساطةً في الوقت نفسه، حيثُ يقول هذا التفسير بأن موشيه كان يتوجّه إلى الله عزّ وجلّ بأكثر الأدعية جرأةً وشجاعةً، لدرجة أن التوراة نفسها لم توضح تلك الأدعية بشكل مباشر وصريح، لهذا كان علينا أن نستنبطها من السياق ومن أوجه الغرابة والتلميحات الموجودة بين آيات النصّ التوراتي نفسه.

كما يحتوي المقطع السابق آياتٍ تصفُ ضمناً حالة الاضطراب والهلع التي شعر بها بنو إسرائيل نتيجة غياب قائدهم موشيه، لدرجة أن الله عزّ وجلّ قد صمّن تلك الحالة في كلامه لموشيه، حين خاطبه قائلاً: "انزل، لأنه قد فسّد شعبك الذي أخرجته أنت من مصر" تبعاً لما تخبرنا به الآية

السابعة من المقطع الثاني والثلاثين. بالتالي يبدو وكأنّ غياب موسى أو عدم وجوده بين بني إسرائيل كانّ السبب وراء الخطيئة، إذ كان يتوجّب عليه أن يبقى بالقرب من قومه، وهذا ما أدركه موسى بعد نزوله من الجبل، فعاقب المخطئين منهم ثم بدأ يدعو مُتضرّعين إلى الله كي يغفر لهم، ويُمكننا القول بأنّ هذا كان الموضوع الرئيسي للمقطع الثاني والثلاثين.

لكن المقطع الثالث والثلاثين يُظهر لنا توجُّهاً جديداً لدى موسى بعد أن أنهى حالة الاضطراب لدى قومه وأعاد حالة من النظام والاستقرار بينهم، فخاطب الله عزّ وجلّ بكلماتٍ تبدو فعلياً وكأنه يقول له: إنّ قومي ليسوا بحاجة لأن أكون أنا بقربهم، بل هم بحاجة لقربك أنت، فأنا مُجرّد إنسانٍ حاضرٍ بين ظهراينهم اليوم، وخلال مرحلة معينة سأفنى من الوجود، لكنك أنت الدائم، أنت ربُّهم، لهذا يجب أن تكون أنت بالقرب منهم.

وعبر هذا الكلمات يبدو وكأنّ موسى يريد مخاطبة الله عزّ وجلّ قائلاً له: لقد استشعر بنو إسرائيل وجودك كقوةٍ رهيبةٍ خارقةٍ للطبيعة، استشعروا حضورك ورهبتك عندما أرسلت بلاءً تلو الآخر على أرض مصرٍ جاعلاً أعظم امبراطوريةٍ في العالم تجثو راکعةً على ركبتها أمام عظمتك وجبروتك. لقد استشعروا وجودك عندما انشقّ البحرُ أمامهم وانقلب كيان الطبيعة رأساً على عقب أمام مرأى ومسمع الجميع. وبمجرّد أن سمعوا صوتك على جبل سيناء، لم يكن بإمكانهم تحمّل عظمة صوتك المهيّب فقالوا (مخاطبين نبي الله موسى): "كلمنا أنت، ولا يكلمنا الله كي لا نهلك" (تبعاً للآية السادسة عشر من المقطع العشرين من سفر الخروج). لهذا، واستناداً إلى ما رآه موسى، فإن بني إسرائيل لم يكونوا بحاجة حقيقية لرؤية عظمة الله عزّ وجلّ، بقدر ما كانوا بحاجة للوجود بالقرب منه، ولم يكونوا بحاجة لرؤية الله في البرق والرعد في أعالي السماء، بل كانوا بحاجة لحضوره الدائم بين ظهراينهم في الوادي أسفل الجبل. ولهذا السبب تحديداً أخذ موسى خيمته ونصبها خارج المعسكر الذي يقيم به بنو إسرائيل، وكأنه يريد أن يقول لله عزّ وجلّ: قومي لا يحتاجون وجودي بينهم، بل يحتاجون وجودك أنت بينهم.

في الوقت نفسه كان موسى يُحاول جاهداً فهم الطبيعة الإلهية، إذ هل يُمكن لله عزّ وجلّ أن يكون بالقرب من قومه حينها؟ وهل من الممكن أن يُصبح تعالي الله عزّ وجلّ مُحايثاً ثابتة؟ (أن تظنّ حالة الارتقاء الروحيّ مُستقرة طوال الوقت) وهل من المُمكن أن يتواجد الله (الذي يتجاوز في عظّمته هذا الكون الشاسع) بطريقةٍ معقولة ومنطقية بحيث يستطيع البشر استيعابها دون الحاجة إلى مُعجزاتٍ خارقةٍ للطبيعة؟

وهنا يأتي الردّ الإلهي على تلك الأسئلة بطريقة فائقة التنظيم، فيوضّح الله عزّ وجلّ لموسى بأنه لن يستطيع أبداً فهم واستيعاب الأسلوب الإلهي، حيث يقول في الآية التاسعة عشر من المقطع الثالث والثلاثين: "وأرأف بمن أرأف، وأرحم من أرحم". إن هذه الآية تظهر لنا وجود عنصر من عناصر العدالة الإلهية يستعصي على البشر إدراكه تحت أي ظرف، فالبشر عاجزون بطبيعتهم عن فهم ما يجول بخاطر بعضهم البعض، فما بالك بقدرتهم على فهم ما يجول بخاطر الله عزّ وجلّ؟

أما النقطة الثانية من الردّ الإلهي على موشيه فتتمثلُ في الآية العشرين من المقطع الثالث والثلاثين، والتي تقول: "وَأَنْتَ لَا تُطِيقُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، فَلَا يَرَاهُ إِنْسَانٌ وَيَحْيِي"، بمعنى أن البشر عندما ينظرون لقضية معينة فإنهم يعجزون عن رؤية الصورة بأكملها، وفي أحسن الأحوال فإنك كأنسانٍ "تَنْظُرُ وَرَائِي، وَأَمَّا وَجْهِي فَلَا يُرَى" تبعاً لما ذكرته الآية الثالثة والعشرون من نفس المقطع. والمعنى من هذه الآية أن البشر لا يرونَ التدخّلَ الإلهي عبر التاريخ إلا بأثرٍ رجعيّ عندما يعودون بالزمن إلى الوراء، وفي هذا السياق فإنني أرى بأن ستيفن هوكينغ كان مُخطئاً،¹ فحتى لو نجح العلم في تفسير وتوضيح كل ما هو مُبهّم في هذا الكون، فإننا سنظلّ عاجزين عن فهم عقليّة الله عزّ وجلّ.

والنقطة الثالثة من الردّ الإلهي على موشيه تتمثلُ في قوله له: "بِمَكَانِكَ أَنْ تَرَى مَجْدِي (نوري)"، وهذا ما طلبَ موشيه رؤيته عندما أدركَ مدى عجزه عن فهم "طريقة" الله عزّ وجلّ، وأيضاً عندما أدركَ مدى عجزه عن رؤية "وجهه"، وهذه هي الرسالة التي أرادَ الله عزّ وجلّ إيصالها لموشيه عندما قال له: "أَصْعُكَ فِي نُقْرَةٍ مِنَ الصَّخْرَةِ" تبعاً للآية الثانية والعشرين من المقطع الثالث والثلاثين. لكن حتى تلك اللحظة فإننا كُنّا نجهلُ المقصود بكلمة "المجد" (أو النور)، إلا أننا سنُدرِكُ معناها في أواخر سفر الخروج، فالمقاطعُ 35-40 تصفُ عملية بناء بني إسرائيل للمِشْكَانِ (بيتِ العبادة في الصحراء)، وبعد استكمال بنائه نجدُ الآيات التالية:

"ثُمَّ غَطَّتِ الْعِمَامَةُ خَيْمَةَ الْجَمَاعَةِ وَمَلَأَ مَجْدَ (نور) اللَّهِ الْمَشْكَانَ. فَلَمْ يَقْدِرْ مُوسَى أَنْ يَدْخُلَ خَيْمَةَ الْجَمَاعَةِ، لِأَنَّ السَّحَابَةَ حَلَّتْ عَلَيْهَا وَبَهَاءُ اللَّهِ مَلَأَ الْمَشْكَانَ" (الآيات 34-35 من المقطع الأربعين).

وفي هذه اللحظة تحديداً سيكونُ بإمكاننا فهم هذه الحكمة من سلسلة الأحداث الدرامية التي بدأت بحادثة العجل الذهبي، فها هو موشيه يتضرّعُ إلى الله طالباً منه أن يكونَ بِقُرْبِ بني إسرائيل، حتى يكونَ بإمكانهم استشعارُ حضوره في حياتهم اليومية على نحوٍ مُنتظم، حضورٌ لا يقتصرُ على مظاهر الإعجاز والرهبة فحسب، بل يتعدى حدود ذلك ليصل إلى حد شعور بني إسرائيل بذلك الحضور الإلهي بين ظهرانيتهم في قلبِ المعسكر الذي يقيمون فيه. لهذا أمرَ الله عزّ وجلّ موشيه ببناء المشكان ووضّحَ له كيفية وتفاصيل بنائه، وهذا ما قصده الله عزّ وجلّ حين قال في الآية الثامنة من المقطع الخامس والعشرين: "وَيَصْنَعُونَ لِي مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بَيْتاً مُقَدَّساً، وَأَسْكُنُ (فِشْحَنِي) مَجْدِي (نوري) بَيْنَهُمْ" فكلمة مشكان التي يقصد بها بيت العبادة جاءت من الفعل العبري "شَحَن" (بمعنى سكن)، وكلمة "شخيناه" التي بدأت تظهر لاحقاً بعد عهد التناخ جاءت من الفعل نفسه أيضاً ويُقصد بها "السكينة والقرب"، حيث تطرّقنا لها في مستهلّ حديثنا عن النص الأسبوعي "ثُرُوماه".

بالتالي، واستناداً إلى هذا التوضيح (وهو بالمناسبة التوضيح نفسه الذي أقرّه الحاخام يهودا هاليفي/اللاوي² تبعاً لفهمه وتفسيره) فإن فكرة إقامة المشكان كانت رداً إلهياً على خطيئة العجل الذهبي، وبمثابة قبول من الله عزّ وجلّ لطلبِ موشيه بأن يكونَ قريباً من بني إسرائيل.

1. في إحدى عباراته الشهيرة الموجودة في خاتمة كتاب "تاريخ مُختصر للزمان" يقولُ بأننا لو وصلنا إلى فهمٍ علميٍّ كاملٍ ومُطلقٍ للنظام الكوني فإننا سنفهمُ عقليّة الله. (A Brief History of Time: Bantam Books, 1988, New York)

2. يهودا اللاوي (هاليفي)، الكوزاري (كتاب الخزري) 1:97

إننا عاجزون عن رؤية وجهِ الله عزَّ وجلَّ، كما أننا عاجزون عن فهم طريقةِ الله ومنهجه، لكن بإمكاننا أن نرى مجدَّ الله (نوره) عندما نَبني بيتاً لِعبادته في هذا العالم، وهذا شكلاً من أشكال الإعجاز المتواصل للروحانية اليهودية، فقبل مجيء اليهودية لم تكن أي ديانةٍ أخرى قادرة على تصوّر الذات الإلهية بهذه الرؤى المُختصرة والمُستلهمة من هيبتِه وجلالِه: فالله عزَّ وجلَّ أبعدُ من أبعدِ نجمة في هذا الكون، وهو أزلِّي بدرجة تفوق أزلية الزمَن. في المقابل، لا توجدُ أي ديانةٍ أخرى على وجه الأرض وضّحت مدى قُرْبِ الله متًا مثلما فعلت الديانة اليهودية، ومثلما يوضّح لنا كتاب التناخ فإن أنبياء اليهود كانوا يُناقشون الله عزَّ وجلَّ ويُجادِلونه، وتبعاً لسفر المزامير فإن الملك داوود/داوود كان يُخاطبُ الله عزَّ وجلَّ بقمّة الودِّ والقُرْب، أما التلمود فيُخبرنا بأن الله عزَّ وجلَّ يُصغي إلى النقاشات التي تجري بين كبار الحاخامات في شتى المواضيع، ويقبل ما يُجمعون عليه من أحكامٍ حتى لو كانت الأحكام مُخالفة للصوّت الإلهي. ومثلما يوضّح لنا الأنبياء، فإن علاقة الله عزَّ وجلَّ ببني إسرائيل تُشبهه علاقة الأب بابنه، أو علاقة الزوج بزوجته، والقارئ لكتاب نشيد الأُنشاد يجد تلك العلاقة بين مُحبين مُتيمين ببعضهما بعضاً. أضف إلى ذلك أن كتاب الزوهار – الذي يتضمّن أبردّ النصوص في عالم التصوّف اليهودي – يستخدمُ أكثر أساليب اللغة جُرأة في الحديث عن حالة الوَله والعشق الإلهي، والحال نفسه في قصيدة "يديد نيفيش" التي تُنسبُ إلى الحاخام القبالي إلبازر عزكري والذي عاش في منطقة صغد خلال القرن السادس عشر للميلاد.

في الواقع، فإن هذه الأمور تُجسّد أهم وأبرز الفروق بين الكُنُس وبيوت العبادة اليهودية من جهة، وبين الكاتدرائيات المسيحية التي وُجدت في فترة القرون الوسطى من جهةٍ أخرى، ففي الكاتدرائيات المرءُ بعظمةِ الله وصغرِ الإنسان، بينما في كُنُسٍ مثل كنيس ألتنويشول في براغ (أو الكنيس القديم الجديد والذي يُعتبر أقدم كنيسٍ يهوديٍّ في أوروبا) أو في كنيس الحاخام اسحق بن شلومو لوريا وحتى كنيس الحاخام يوسف كارو في صغد، يستشعر المرءُ مدى قُرْبِ الله عزَّ وجلَّ من البشر وقابليتهم وقدرتهم أن يكونوا عظماء. في الوقت نفسه، هنالك العديد من الأمم والشعوب التي تعبدُ الله عزَّ وجلَّ، لكن اليهود هم الشعبُ الوحيدُ الذي يعتبرُ نفسه من أقربِ الله المُقرّبين تبعاً لما تذكره الآية الثانية والعشرون من المقطع الرابع من سفر الخروج: "كذبا قال الله مُشرّفاً: ابني بكريٍ إسرائيل".

وإذا دققنا جيّداً وقرأنا ما هو موجودٌ بين السطور والآيات في المقطع الثالث والثلاثين من سفر الخروج، فإننا سنلاحظُ ظهورَ واحدةٍ من أكثر سماتِ الروحانية اليهودية تميّزاً وحيرةً، فلا يوجدُ مُعتقدٌ على وجه الأرض وقّرَ الله وبجلّه مثل الديانة اليهودية، تماماً مثلما لم يشعر أي معتقدٍ آخر بمدى قربِه من البشر مثلما شعرت بقربه اليهودية، وهذا ما حاول موشيه البحث عنه وتحقيقه في المقطع الثالث والثلاثين، عبر واحدةٍ من أكثر حواراته جُرأةً مع الله عزَّ وجلَّ.

فَيْقَهِيل

هو النصّ الأسبوعي العاشر من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الخامس والثلاثين وينتهي بالآية العشرين من المقطع الثامن والثلاثين.

الحَيوانُ الاجتماعيّ

يقومُ نبيّ الله ورسوله موسى/موشيه بعملٍ من أعمال الإصلاح ("تيكون" باللغة العبرية) بحسب ما تُخبرنا الآياتُ في بداية هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة، وذلك من أجل رأب الصدع العميق الذي أحدثته خطيئة العجل الذهبيّ. وتُشير التوراة إلى ما قام به موشيه من خلال استخدام نفس الكلمة في بداية الحديث عن خطيئة العجل الذهبي من جهة، والحديث عمّا يقوم به موشيه من إصلاح من جهة ثانية، وهذه الكلمة أصبحت في مُنتهى الأهمية في عالم الروحانيّة اليهودية، إنها كلمة مُشتقة من الفعل "قَهَل" باللغة العبرية، والذي يَعني جَمَعَ أو حَسَدَ، ومن هذا الجذر اشتقت كلمتا "قَهَل" و"قَهِيلاه"، أي المُجتمع، هذا المفهومُ الراسخُ في قلب حياتنا البشرية في الماضي والحاضر. وكما سَتَرى لاحقاً، فإن الأبحاث العلمية المُعاصرة قد أثبتت مدى القوّة الاستثنائية للمُجمعات والتنظيمات الاجتماعيّة في تشكيل وصياغة الحياة البشريّة.

ولنبداً بالجزئية الأولى، وهي القصة التوراتية التي تتطرّق لحادثة العجل الذهبيّ، حيث بدأت القصة بهذه الكلمات من الآية الأولى من المقطع الثاني والثلاثين من سفر الخروج: "فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ أَنَّ مُوشِيَه تَأخَّرَ فِي النُّزُولِ مِنْ فَوْقِ الْجَبَلِ، تَجَوَّقُوا (فَيْقَهِيل) حَوْلَ أَهَارُونَ". وفي بداية هذا النصّ الأسبوعي من التوراة بدأ موشيه العمل على تجديد العهد بين بني إسرائيل والله عزّ وجلّ، بحيثُ يعيدون تكريسهم والتزامهم بتعاليم الله، خاصة بعد أن جَلَبَ موشيه اللّوحين الجديدين وبعد أن نال بنو إسرائيل مغفرة الله، تبعاً لما تُخبرنا به الآية الأولى من المقطع الخامس والثلاثين من سفر الخروج: "ثَمَّ جَمَعَ مُوشِيَه بَنِي إِسْرَائِيلَ (فَيْقَهِيل)". بصريح العبارة، لقد ارتكب بنو إسرائيل تلك الخطيئة كمُجتمع بأكمله، وها هم يُعيدون بناء أنفسهم كمُجتمع بأكمله أيضاً، وهذا يُدكرنا بالروحانيّة اليهودية التي تعتبر روحانيّة جماعيّة قبل كلّ شيءٍ آخر.

ولنلاحظ ما يقوم به موشيه في هذا المقطع بالتحديد: إنّه يلفت انتباه بني إسرائيل إلى الركيّزتين الأساسيتين لبناء المُجتمع في الديانة اليهودية، فالركيزة الأولى في عنصر الزمان، والأخرى في عنصر المكان. أما الركيزة الأولى المُتعلّقة بالزمان فهي تتمثّل في يوم السبت اليهوديّ المُقدّس (السّبات)، في حين أن الركيزة الثانية المُتعلّقة بالمكان فهي تتمثّل في "المِسكان"، أي بيت العبادة الذي كان بمثابة حجر الأساس لفكرة بناء الهيكل اليهوديّ المُقدّس، والذي تحوّل لاحقاً (بعد الخراب الثاني للهيكل) إلى فكرة الكنيس اليهوديّ. فهذه هي المواضع التي نرى فيها "القَهِيلاه" (المُجتمع) أكثر ما يكون: أولاً في

يوم الشّبات اليهودي، عندما نضع جانباً هواتنا المحمولة وشهواتنا ومساثلنا الشخصية جانباً ونلتزم بتعاليم هذا اليوم كمجتمعٍ بأكمله، وثانياً في الكنيس اليهودي الذي يُعدُّ بمثابة البيت والحاضنة للمجتمع اليهودي.

في المُقابل، فإن الديانة اليهودية تولى اهتماماً كبيراً بالفرد، وتعتبر أنّ حياة كل إنسان تُعادِلُ الكونَ بأكمله. وعلى الرغم من أن جميع البشر مخلوقون بصورة الله عزّ وجلّ إلا أنه يوجد العديد من أوجه الاختلاف بينهم، لهذا تنظر اليهودية لكل إنسان على أنه كيانٌ فريدٌ مُتميزٌ لا يُمكن لأي إنسانٍ آخر أن يحلّ محله. لكن عبارة "لا خير" قد ظهرت أول مرة في التوراة في سفر التكوين، تحديداً في المقطع الثاني من الآية الثامنة عشرة والتي تقول: "لا خير في بقاء آدم لوحده"، ومن هذا المنطلق فإن التوراة تتمحور حول شكل ومضمون الاجتماع البشري، فهي تُقدّر الإنسان على المستوى الفردي، لكنها لا تُشجّع الانفراد ولا النزعة الفردية.

نجد أن الديانة اليهودية هي مُعتقدٌ يقوم بالأساس على مبدأ التجمّع والاجتماع، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد أن أقدس الصلوات اليهودية لا تتمّ إلا بمشاركة عشرة رجال على الأقل (مفهوم يُشار إليه بمصطلح مِنيان باللغة العبرية) في صورة يتجلّى فيها الحد الأدنى لقيام المجتمع، ذلك لأننا عندما نُصلي فنحن نُؤدّي صلواتنا كمجتمعٍ بأكمله. وفي هذا السياق أستذكر نظرية "أنا وأنت" للفيلسوف اليهودي المعروف مارتن بوبر، والتي تُخالف تماماً الفلسفة اليهودية القائمة على مبدأ "نحن وأنت". بالتالي، وبالعودة إلى جُزئية العجل الذهبي، فإن موشيه كان يدشن الأسس لبناء مجتمعٍ بأكمله من خلال ركيزتي الزمان والمكان، تكفيراً عن الخطيئة الجماعية التي ارتكبتها بنو إسرائيل.

وقد أصبحت فكرة بناء المجتمع من أبرز الفروق الجوهرية بين الثقافة التقليدية والثقافة المُعاصرة في الغرب، هذا الفرق البارز الذي يُمكننا إيجاده عبر الاستدلال بما جاء في ثلاث كتبٍ بارزةٍ تتطرّق للمجتمع الأمريكي. فالكتاب الأول هو "الحشد المُنفرد" (*The Lonely Crowd*) والذي قام بتأليفه كل من ديفيد ريسمان وناثان غلازر ورعوثيل ديني عام 1950م، بحيث تطرّق هذا الكتاب إلى التغيّر في شخصيات وطباع الأمريكيين. والكتاب الثاني هو "أن تلعب بولينج لوحدهك" (*Bowling Alone*) للمؤلف والمُحاضر الجامعي في جامعة هارفرد روبرت بِنَم، والذي نشره عام 2000م مُتطرّقاً إلى ظاهرة انصراف الأمريكيين عن ممارسة لعبة البولينج مُجتمعين، ومُمارستها فرادى، الأمر الذي أدى إلى انخفاض عدد الأمريكيين الذين يشتركون في نوادي وبطولات لعبة البولينج بشكل عام. أما الكتاب الثالث فهو "الوحدة الجماعية" (*Alone Together*) لأستاذة الدراسات الاجتماعية في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا (MIT) شيري توركل، والذي نشرته عام 2011م مُتطرّقة لتأثير الهواتف الذكية وشبكات التواصل الاجتماعي على حياة البشر.

ولنتدبّر جيّداً في عناوين تلك الكتب. إنها تتطرّق للنزعة البشرية المتزايدة نحو الانطواء والوحدة ووصولها إلى مراحل متقدّمة في ظلّ حالة الانكسار والانحلال التي تعيشها المُجتمعات البشرية في الحياة المُعاصرة. وفي هذا السياق يوضّح عالم الاجتماع الأمريكي روبرت بيل بأن "البيئة الاجتماعية لا تتضرّر نتيجة الحروب والإبادات الجماعية والظلم السياسي فحسب، بل تتضرّر أيضاً نتيجة تحطّم

الأواصر والروابط الممتينة التي تربط البشر ببعضهم البعض، الأمر الذي يتركهم في حالة من الوحدة والخوف والجزع".¹

لهذا نجد أن الموضوعين الرئيسيين في هذا النص الأسبوعي من نصوص التوراة والذي يحمل اسم "فَيَقْهِيلُ" (أي موضوع يوم السَّبات، وموضوع بناء بيت العبادة اليهودي "المشكان" والذي تحوّل لاحقاً إلى الهيكل، ومن ثم تحوّل في وقتنا الحالي إلى الكنيس بعد خراب الهيكل) يُشكّلان موضوعين حديثين يتلاءمان مع روح العصر بكل ما تحمله الكلمة من معنى. فهما الترياق لكل داءٍ يؤدي إلى إضعاف وتفكك المجتمعات البشرية، ومن شأنهما المساعدة في استعادة "الأواصر والروابط الممتينة التي تربط البشر ببعضهم البعض"، لأنهما ببساطة يُعيدان ارتباطنا بالمجتمع الذي نعيش فيه.

وبالنسبة لموضوع يوم السبت اليهودي، نجد أن الفيلسوف السياسي الأمريكي مايكل والزر من جامعة برينستون يلفت انتباهنا إلى الفرق بين فكرة "العطلة أو الإجازة الاعتيادية، وفكرة "المُناسبة الدينية" (تحديداً الفرق بين يوم العطلة أو الإجازة العادية، وبين عطلة يوم السبت اليهودي).² فمفهوم العطلة أو الإجازة الخاصة هو مفهوم حديث الظهور نوعاً ما، ويؤرّخ مايكل والزر فترة ظهوره إلى سبعينيات القرن التاسع عشر، وهو مفهوم فرديّ (أو ربّما عائليّ) في جوهره، موصّحاً بأن "من يحصل على يوم عطلة أو إجازة يذهب أينما يحلو له ويفعل ما يرغب به، لكنّ يوم السبت اليهودي هو نقيض لذلك: فهو يومٌ لا يرتبط بالفرد، بل يرتبط بالجماعة والمجتمع في جوهره"، وهذا أيضاً ما تُخبرنا به الآية الرابعة عشر من المقطع الخامس من سفر التثنية والتي تقول: "واليومُ السابعُ يومٌ لله ربّك، فلا تعمل شيئاً من الصنائع، أنتَ وابنك وابنتك وعبدك وأمّتك، وثورك وحمارك وسائر بهائمك، وضيّفك الذي في بيتك لكي يسّريح، عبدك وأمّتك مثلك".

إنّ يوم السبت (السَّبات) هو يوم عامٌّ ومن حقّ الجميع، في حين أن يوم الإجازة هو كالسلعة التي نحن بحاجة لشرائها حتى نحصل عليها، خلافاً ليوم السبت الذي لسنا بحاجة لشرائه حتى نتمتّع به، فهو يومٌ متناخٍ لكل إنسانٍ دون تمييز: لأنه "يومٌ يحظى به الجميع، ويستمتع به الجميع". إننا حين نأخذ يوم إجازة فإننا نتمتّع به على المستوى الفردي أو على المستوى العائلي في أحسن الأحوال، أما يوم السَّبات فهو يوم نحتفل به ونُحييه كمجتمعٍ بأكمله. والأمر نفسه ينطبق على فكرة الكنيس اليهودي، وهي بالمناسبة فكرة فريدة في عصرها، لهذا اقتبستها الديانتان المسيحية والإسلامية من خلال بناء الكنيسة والمسجد.

وبالعودة إلى كتاب "أن تلعب البولينج لوحديك" (Bowling Alone)، فإننا نجد أن مؤلفه روبرت بتنم يوضّح بين صفحات الكتاب حالة التحوّل الاجتماعي بين الأمريكيين وكيف أصبحوا يميلون أكثر للانطواء والفرديّة، وهذا على حدّ تعبيره يُشكل خسارة في "رأس المال الاجتماعي"، ويعني ذلك

1. Robert Bellah et al., *Habits of the Heart: Individualism and Commitment in American Life* (Berkeley: University of California Press, 1985), 284.

2. Michael Walzer, *Spheres of Justice* (Oxford: Blackwell, 1983), 190–96.

فُقداناً للروابط والأواصر التي تربطنا ببعضنا البعض على شكل مسؤولية جماعية من أجل تحقيق المصلحة العامة.

وبعد مضيّ عقدٍ من الزمنِ قام روبرت بتّم بإعادة النظر في نظريّته،³ موضّحاً بأن رأس المال الاجتماعي لا زال موجوداً بالفعل في الكُنُس اليهوديّة والكنائس المسيحية، مُشيراً إلى أن التواجد المُنتظم في بيوت العبادة - بحسب ما أظهرت نتائجُ بحثه - يزيدُ من حجم مُساهمة الفردِ وتبرّعه لصالح الأعمال الخيرية، ومشاركته في الأعمال التطوّعية، مثل تبرّعه بالدم أو قضاائه وقتاً أكثر لمساندة من يشعرون بالاكْتئاب، أو القيام عن الكُرسِيّ لإفساح المجال لشخصٍ آخر كي يجلس، ومساعدة شخصٍ ما في العثور على وظيفة، وغيرها من السلوكيات والأعمال التي تندرجُ تحت إطار العمل الخيري والمتحصّر والأخلاقيّ.

إن أجواء الروحانيّة الجماعيّة تطغى على طباع من يرتادون دور العبادة أكثر من غيرهم، لهذا فإن الحضور المُنتظم إلى دور العبادة هو أكثرُ عاملٍ يُساعدنا على التنبؤ بحجم الإيثار لدى الفرد، فهو يُساعدنا أكثر من أي عاملٍ آخر من العوامل المُتعارف عليها لقياس الأمور مثل الجنس أو التعليم أو معدل الدخل أو العرق أو المستوى التعليمي أو الحالة الاجتماعيّة أو المُعتقد أو العُمُر وغيرها. لكن أكثرُ العوامل أهميّة - تبعاً لدراسته - كان انتماء الفرد إلى مُجتمعٍ دينيٍّ مُعيّن، بغضّ النظر عمّا يؤمنُ به ذلك الفرد. كما أظهرت الدراسة أيضاً أن المُلحد الذي يذهبُ بانتظام إلى دارٍ من دور العبادة (ربما ليصطحب زوجته أو أبناءه) تزدادُ رغبته في التطوّع لخدمة مطاعم الفقراء (أو التّكايا)، بدرجة تفوقُ رغبة المؤمن المُلتزم الذي يُصليّ وحيداً، بالتالي فإن العامل الرئيسي في كل ذلك هو المُجتمع قبل أي عاملٍ آخر.

وقد يكونُ هذا واحداً من أبرز أدوار الدين في الحياة العمليّة: إنه الحِفاظ على المُجتمعات البشريّة وإبقاؤها على قيد الحياة. فغالبيتنا بحاجة ماسّة إلى الارتباط بمُجتمعٍ ما، لأننا - نحنُ البشرُ - حيواناتٌ اجتماعية بطبعنا، لدرجة أن بعضَ علماء الأحياء قد وضحوا خلال دراسات أجريت حديثاً بأن الازدياد الكبير في حجم الدماغ البشريّ مُقارنة بالكائنات الأخرى هدفه تمكيننا من توسيع شبكة علاقاتنا الاجتماعيّة. وعليه ليس العقل وحده هو ما يُميّزنا عن غيرنا من الحيوانات، بل إن الفرق الأساسي بيننا هو إمكانيّتنا وقدرتنا نحنُ البشرُ على الحياة في مُجتمعاتٍ كبيرة، ومثلما وضّحت التوراة فإنّه "لا خير في بقاء آدمٍ لوحده".

كما أظهرت دراسة أخرى حديثاً وجودَ علاقةٍ قويّة بين الجماعة التي يرتبطُ بها المرءُ من جهة، وبين ما يفعله في الحاضر وما سيفعله في المستقبل من جهةٍ أخرى. ففي عام 2009م قام الباحثان نيكولاس كريستاكيس وجيمس فولر بإجراء تحليل إحصائيٍّ لعينةٍ بحثيّة ضمّت 5124 شخصاً وعلاقتهم بـ 53,228 شخصاً ممن يُعتبرون أصدقاءهم وأفراداً من عائلاتهم وزملائهم في العمل. وقد جدّت الدراسة أن مُمارسة أحد الأصدقاء للتدخين تزيدُ من احتمالية ممارسة الفرد للتدخين بنسبة

3. Robert Putnam and David E. Campbell, *American Grace: How Religion Divides and Unites Us* (New York: Simon & Schuster, 2010)

36%، والحال نفسه ينطبق على شُرب الكحول والنحافة والبدانة وغيرها من الأنماط السلوكية.⁴ وعليه فإنه لا يوجد أدنى شك بأن تصرفاتنا ترتبط ارتباطاً عميقاً بتصرفات الأشخاص المحيطين بنا.

وفي دراسةٍ أُخرى أجريت على مجموعة من طلبة كلية دارتموث عام 2000م، فقد أظهرت النتائج بأن إقامة الطالب الذي يشارك السكن مع طالبٍ يتمتع بسلوكيات دراسية جيدة سيزيد من احتمالية تحسّن الأداء الأكاديمي للطالب الآخر المُقيم معه. في حين أظهرت دراسةً أُخرى في جامعة برينستون عام 2006م بأنه في حال وجود ابنٍ أو ابنةٍ لدى أحد إخوتك أو أخواتك، فإنّ هذا سيزيد من رغبتك في إنجاب طفلٍ بنسبة 15% خلال السنتين القادمتين. بالتالي يوجد شكلٌ من أشكال "العدوى الاجتماعية" بين البشر، فنحنُ نتأثرُ كثيراً بأصدقائنا، وهذا ما أكّد عليه أيضاً الحاخام الكبير موشيه/موسى بن ميمون في كتابه "مِشناه تورا" الذي وَصَح فيه رؤيته ووجهات نظره في منظومة القوانين والتشريعات اليهودية.⁵

وبالعودة إلى نبيّه الله ورسوله موشيه وموضوع هذا النص التوراتي الأسبوعي "فَيْقَهِيل"، فإن وضعه للمُجتمع في قلب الحياة الدينية اليهودية، ومنحه للمُجتمع مساحةً زمانية ومكانية في الحياة (من خلال يوم الشّبات كيومٍ مُقدّس والكنيس كبيتٍ للعبادة) يُظهر لنا حجم القوّة والطاقة الإيجابية التي يتمتّع بها المُجتمع، تماماً مثلما أظهر لنا حجم الطاقة السلبية التي أحدثها وجودُ العجل الذهبي في حياتهم. لهذا فإنّ الروحانية اليهودية في أغلب جوانبها هي روحانية جماعية، ومن وجهة نظري الخاصة فإنه يُمكننا أن نختزل تعريف العقيدة اليهودية بهذه العبارة: إنّها الخَلاصُ من العزلة.

4. Nicholas Christakis and James H. Fowler, *Connected: The Surprising Power of Our Social Networks and How They Shape Our Lives* (New York: Little, Brown, 2009).

5. See Maimonides, *Mishneh Torah*, Hilkhhot Deot 6:1

انظر كتاب الحاخام موسى بن ميمون "مِشناه تورا"، باب "هليخت ديعوت" 1:6

يقودي

هو النصّ الأسبوعي الحادي عشر والأخير من كتاب "شموت" (سفر الخروج) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعيّ بالآية الحادية والعشرين من المقطع الثامن والثلاثين وينتهي بالآية الثامنة والثلاثين من المقطع الأربعين.

لا تتوقف وواصل المسير

لقد أصبح الجلوسُ آفةً لا تختلفُ كثيراً عن آفةِ التدخين، وهذا ما توضّحه النصائحُ الصحيّة المعاصرة. وحينَ تُمضي الكثير من الوقتِ جالساً خلف المكتب أو أمام شاشة الحاسوب فإنك ستكونُ عرضةً للعديد من المشاكل الصحيّة. كما صنّفت منظمة الصحة العالمية الخمولَ وقلة النشاط البدنيّ على أنها رابعُ أخطر ظاهرةٍ صحيّة بعدَ ظاهرةِ السمنة، وهذا ما حدّر منه الدكتور جيمس لفاين أحد أبرز الأطباء على مستوى العالم في هذا المجال حين قال: "لقد صرنا نقتلُ أنفسنا بالجلوس حتى الموت".

والسببُ وراء ذلك يكمنُ في أننا لم نُخلق كي نظلّ في حالةٍ من السكون والخمول، فأجسادنا خُلقت للحركة والوقوف والمشي والركض. وفي حال لم نَقم بممارسة أنشطة بدنيّة بشكل مُنتظم في حياتنا فإننا سنُصبحُ عرضةً للكثير من الأمراض والعِلل، والسؤال الذي يطرحُ نفسه هنا: هل ينطبقُ هذا الأمرُ على الروح والعقل أيضاً؟

وللإجابة على هذا السؤال، فلنلاحظ هذا التسلسل المُذهلَ في الأفعال المُستخدمة في الآية الأولى من المقطع الأول من سفر المزامير، والتي تقول: "طوبى للرجل الذي لا يمشي في طريق الأشرار، وفي طريق الخطأ لا يقف، وفي مجلس المُستهزئين لا يجلس". إن هذه الآية تختزلُ في طياتها ملامح الحياة التعيسة التي قد يعيشها المرء ضمن الأخلاقيات والقيم الخاطئة، ولنلاحظ كيف أن الإنسان الطالح يبدأ مشواره بالمشي، ثم الوقوف ثم الجلوس، وهذا يوضّح لنا كيف أن الحياة الخاطئة توصلنا لمرحلةٍ نكونُ فيها مشلولي الحركة تماماً.

وهذه هي الفكرة التي توكّد عليها الصلاة اليهودية المعروفة باسم "هليل" (صلاة التمجيد) والتي من ضمنها الآيات 4-8 من المقطع 115 من سفر المزامير، حيث تقول:

"أصنامهم ذهبٌ وفضةٌ من صنَعِ النَّاسِ، لها أفواهٌ ولا تتكلّم، ولها أعينٌ ولا تُبصر، لها آذانٌ ولا تسمع، ولها أنوفٌ ولا تشمُّ، لها أيديٌ ولا تلمس، ولها أرجلٌ ولا تمشي، ولا تنطقُ بحناجرها. مثلها يكونُ صانعوها وكلُّ من يتكلّم عليها".

بصريح العبارة: إن كنت تعيش من أجل أشياء عديمة الحياة فإنك ستصبح عديم القيمة مثلها. لكن الحال مختلف تماماً في بيت الله عز وجل، فاليهود قوم مفعمون بالنشاط والحيوية ولا يجلسون إلا في بيت الله، والحياء اليهودية بدأت فعلياً بالحركة والترحال عبر رحلتين مصيريتين: الأولى هي رحلة أفرهام/إبراهيم من بلاد الرافدين، والثانية هي رحلة خروج موشيه/موسى من أرض مصر. وهذا ما يقوله الله عز وجل مخاطباً أفرهام في هذا السياق: "أنا الله القدير، سير أمامي، وكن كاملاً"، مثلما تُخبرنا الآية الأولى من المقطع السابع عشر من سفر التكوين.

فعندما كان أفرهام يبلغ من العمر تسعاً وتسعين عاماً، وبعد أن تطهر واختن امتثالاً لعهد مع الله عز وجل، رأى من بعيد ثلاثة غرباء "فهرع راجضاً ليلتقي بهم" (مثلما نخبرنا الآية الثانية من المقطع الثامن عشر من سفر التكوين). وفي الآية الأولى من المقطع السابع والثلاثين من سفر التكوين فقد "سكن (فأيشيف) يعقوف في أرض غربية أبيه"، فإن الفعل المستخدم في النص العبري هو الفعل "فأيشيف"، والذي يعني "استقر" و"جلس". وهُنا يعلّق الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف بالحاخام راشي) على هذه الآية مُقتبساً تفسيرات كبار الحاخامات قائلاً: "لقد كان يعقوف/يعقوب يُحاولُ البحث عن الهدوء والسكينة، لكن على الفور بدأ يواجه المتاعب التي أحاطت بابنه يوسف". والمقصود هنا بأن الرجال الصالحين لا يُمضون حياتهم في حالة من السكون والركود، لهذا فهم لا يحظون بحياة هادئة أبداً.

إن فكرة الحركة والحيوية قلما توصف بهذا التلميح في التوراة مثلما نراها في هذا النص الأسبوعي بل وفي سفر الخروج عموماً. وتبعاً لآيات هذا السفر فإن بني إسرائيل كانوا قد أنهوا تجميع وبناء المشكان (بيت العبادة)، والآيات الختامية من سفر الخروج تُوضّح لنا طبيعة العلاقة بين المشكان و"عمام المجد" الذي ظهر بداخل خيمة الاجتماع (تبعاً لما هو مذكور في الآيتين 34 و35 من المقطع الأربعين من سفر الخروج).

ويتضح لنا من هذه الآيات أيضاً بأن المشكان قد تم تصميمه وبنائه ليكون مُنقلًا،¹ بحيث يكون بالإمكان تفكيك أجزائه ليحملها بنو إسرائيل معهم أثناء انتقالهم للمحطة التالية من رحلتهم. وعندما حان وقت المسير، انتقل العمام من خيمة الاجتماع إلى خارج المعسكر الذي يُقيم فيه بني إسرائيل، فكان يُرشدُهم إلى الطريق الذي يجب عليهم اتباعه، وهذا ما توضّحه لنا التوراة تبعاً للمقطع الأربعين من سفر الخروج في الآيات 36-38:

"وعندما ارتفع العمام عن المشكان، كان بنو إسرائيل يرتحلون في جميع رحلاتهم. وإن لم يرتفع العمام لا يرتحلون إلى يوم ارتفاعها. لأن العمام كان على المكان نهاراً، وكانت فيها نارٌ ليلاً، أمام عيون بني إسرائيل في جميع رحلاتهم".

1. هذا أيضاً ينطبق على تابوت العهد، فقد كان يُحمل باستخدام عصي تمر عبر حلقات موجودة على جوانب التابوت، وكان يُحظر على بني إسرائيل إزالة تلك العصي حتى عندما كانوا ينصبون خيامهم للاستراحة أثناء المسير (تبعاً لما تذكره الآية الخامسة عشر من المقطع الخامس والعشرين من سفر الخروج). بالتالي كان يجب أن يكون تابوت العهد جاهزاً للحمل في أي لحظة يبدوون فيها بالمسير. لقراءة المزيد يمكنكم قراءة تفسير الحاخام سامسون رافائيل هيرش حول هذه النقطة.

فلننتبه للفرق الشاسع بين الموضوعين الذين ذُكرت فيهما عبارة "في جميع رحلاتهم"، ففي الموضوع الأول كان المعنى المقصود هو المعنى الحرفي للعبارة، بمعنى أن ارتفاع الغمام كان بمثابة علامة لبني إسرائيل لكي يبدأوا المسير إلى المرحلة القادمة من ترحالهم. في المقابل، فإن المعنى المقصود في الموضوع الثاني لا يمكن أن يكون هو المعنى الحرفي لها، فالغمام لم يكن فوق المشكان "في جميع رحلاتهم"، بل على العكس تماماً، لأن الغمام كان يرتفع فقط عندما كانوا ينصبون الخيام ويتوقفون عن المسير، وخلال الرحلة نفسها كان الغمام يسبقهم باستمرار. وقد تنبّه الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف بالحاخام راشي) إلى هذه النقطة، فتطرّق لها قائلاً:

"لقد كان المكان الذي نَصَبُوا فيه الخيام يُدعى "مَسَاع" (والذي يحمل أيضاً معنى الرحلة) ... لأن كل مكان كانوا ينصبون فيه خيامهم كان بمثابة نُقطة البداية لرحلة جديدة، لهذا استُخِدِمَت كلمة "رحلات" بصيغة الجمع".

صحيح أنه يوجد جانبٌ لغوي لهذه الكلمة، لكن الرسالة من وراء استخدام هذه الكلمة هي رسالة هامة جداً، وهذا ما يوضّحه لنا الحاخام راشي بعددٍ من الكلمات المُختصرة التي تصفُ حقيقة الهوية اليهودية، حيث يقول: "أن تكون يهودياً، يعني أن تكون دائم الترحال". لهذا، فإن اليهودية ليست وجهةً أو نقطة وصول، بل هي الرحلة بحد ذاتها، لدرجة أن المكان الذي كان يتوقف فيه اليهود من أجل الاستراحة كان يُطلق عليه "مَسَاع" هو الآخر (بمعنى رحلة). كما أن آباءنا وأجدادنا الأوائل لم يكونوا يسكنون البيوت، بل كانوا يسكنون الخيام،² وأول موضعٍ ذكرت فيه التوراة أن واحداً من آبائنا يسكن بيتاً هو بحد ذاته إثباتٌ لهذه النقطة، وهذا الموضوع هو الآية السابعة عشر من المقطع الثالث والثلاثين من سفر التكوين التي تقول: "وأما يعقوفُ فارتحل إلى سكوت، وبني لنفسه بيتاً، وصنع لماشيته مظلاتٍ (سكوت)، لهذا دعا اسم المكان سكوت".

إن الآية التوراتية التي ذكرتها للتوّ هي آيةٌ مُذهلةٌ بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فيعقوفُ هو أول فردٍ في العائلة الإبراهيمية يبني لنفسه بيتاً، لكنه في الوقت نفسه لا يُطلق على هذا المكان اسم "بيت" (مثل كلمتي بيت إيل وبيت لحم وغيرها) بل يُطلق على ذلك المكان اسم "مظلة" لماشيته. بالتالي يبدو الأمر وكأن يعقوف - سواء كان يعي هذا أم لا - قد بدأ يدرك بأن حياة العهد مع الله عز وجل تعني أن تكون مستعداً دوماً للسفر والترحال والمضي قدماً.

ولو هله قد يعتقد البعض بأن حياة الترحال كانت تنطبق فقط على بني إسرائيل قبل عبورهم الأردن ودخولهم أرض الميعاد، لكن التوراة تُخبرنا بالعكس، مصداقاً لما تذكره الآية الثالثة والعشرون من المقطع الخامس والعشرين من سفر اللاويين: "الأرض لا تُباع أبداً، لأنّ لي الأرض، وأنتم غرباء نزلت عندي". بمعنى آخر، تُبين لنا هذه الآية بأننا حين نتصرف وكأنّ وجودنا في أرض الميعاد أصبح مضموناً فإن إقامتنا فيها ستكون مؤقتة، وحين نتصرف على أساس أن وجودنا فيها هو أمرٌ مؤقت، حينها تصبح إقامتنا فيها دائمة. وفي ظلّ حالة المدّ والجزر في هذا العالم المتغيّر مع تقلّب الأزمنة، فإن كلام الله عزّ

2. لاحظ بأن لوط قد أقام لنفسه بيتاً في سدوم (بحسب الآية الثانية من المقطع التاسع عشر من سفر التكوين)، والحال نفسه بالنسبة لخاله لغان (تبعاً للآية الثالثة والعشرين من المقطع الرابع والعشرين من سفر التكوين).

وجلّ هو الأمر الوحيد الثابت والدائم في الحياة. وفي هذا السياق أستذكر آيةً من الآيات المؤثرة من سفر المزامير، وهي بالمناسبة إحدى الآيات المُفضَّلة للفيلسوف اليهودي الفرنسي إيمانويل ليفيناس، وهي الآية التاسعة عشر من المقطع 119، والتي تقول: "غريبٌ أنا في الأرض، فلا تُخفِ عني وصاياك".

بالتالي حين تكون يهودياً فهذا يعني أن تكون دائماً المسير والترحال، وأن تكون في حالة استعداد دائم لتبدأ المرحلة القادمة من مراحل الرحلة اليهودية بمعناها الحرفي والمجازي. وتبعاً لإحدى المقولات الإنجليزية فإن "بيت المرء هو قصره"، أما بيت اليهودي فهو الخيمة والمشكان (بيت العبادة) والسكاه (المظلة)، لأننا ندرك تماماً أن الوجود على الأرض هو أمر مؤقت، لهذا تجدنا نُقدّر كل لحظة مُتجددة من لحظات حياتنا.

وفي هذا السياق أستذكر قصة حياة رجلٍ يهودي بريطاني اعتبره صديقاً مقرباً، وهو اللورد جورج وايدنفلد، والذي وافته المنية قبل بضع سنوات عن عمر يناهز ستة وتسعين عاماً. كان جورج كاتباً وناشراً إضافة إلى كونه شخصيةً أوروبية بارزة وموضع ثقةٍ من الجميع، بالإضافة إلى كونه مُقاتلاً شرساً من أجل السلام وُصهيوياً مُخضرمًا، حيث شغل بين عامي 1949-1950م منصب رئيس مجلس الوزراء الإسرائيلي والمستشار السياسي للرئيس حاييم وايزمان (أول رئيس لدولة إسرائيل). وقبل أن يتوفى قام بمساعدة حوالي عشرين ألف لاجئٍ سوريٍّ مسيحيٍّ في الهرب من تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، وهو أمرٌ يعكس شخصيته المُفعمة بالنشاط والحيوية حتى آخر لحظة من لحظات حياته.

وخلال مُقابله أجرتها معه صحيفة *التايمز* (كان يبلغ من العمر اثنين وتسعين عاماً حينها) وجّه له الصحفي هذا السؤال: "إن أغلب الناس في سنّ التسعين يكونون في حالة من التأني والترث، بينما تبدو أنت وكأنك في عجلةٍ من أمرك في هذا السنّ، فكيف تُفسّر ذلك؟"، فأجاب جورج قائلاً: "عندما تبلغ من العمر اثنين وتسعين عاماً فإنك ترى باب الحياة وهو يُغلق أمامك رويداً رويداً، لهذا ليس لدي الكثير من الوقت لأضيّعه قبل أن يُغلق هذا الباب تماماً. بالتالي كلّما تقدّمت في العُمر كلّما ازداد العمل الذي ينبغي عليّ أن أنجزه". إن كلمات جورج هذه هي بمثابة وصفةٍ فعّالة تُبقي الروح في حالةٍ من الشباب الدائم مهما تقدّم المرء في العُمر.

إن أرواحنا لا تختلف عن أجسادنا فيما يتعلّق بحاجة كليهما للنشاط والحيوية الدائمة، لأننا خُلِقنا للحركة والمشى والسفر كي نبحت ونتعلّم ونُكافح ونتقدّم، مُدركين بأننا بنهاية المطاف لن ننجح في إكمال كلّ مشوارٍ نبدأه، لكن هذا لا يعني أن نقف مكاننا مكتوفي الأيدي. وفي الديانة اليهودية، وتبعاً لما يُبيّنه لنا سفر الخروج في آياته الأخيرة، فإنّ المكان الذي نُعسكرُ به مؤقتاً يُدعى "رحلة" في اللغة العبرية، وهذا لا ينطبق فقط على أي رحلةٍ ماديةٍ فحسب، بل ينطبق أيضاً على أي رحلةٍ روحانيةٍ أيضاً. بالتالي فإن حالة الجلوس والركود لا تختلف في صهرها على صحتنا عن ظاهرة التدخين.

فَيَقْرَأُ: سَفْرَ اللّٰوِيّينَ

فَيَقْرَأُ

وَيَقْرَأُ

فَيَقْرَأ

هُوَ النَّصُّ الْأَسْبُوعِي الْأَوَّلُ مَن كِتَابِ "فَيَقْرَأ" (أَي سِيفَر اللّاوِيَيْنِ)، وَهَذَا السِّفَرُ يَحْمَلُ نَفْسَ الْعَنْوَانِ الَّذِي يَحْمَلُهُ النَّصُّ الْأَسْبُوعِي لِأَنَّهَا الْكَلِمَةُ الَّتِي تَبْدَأُ بِهَا الْآيَةُ الْأُولَى مَن السِّفَرِ. يَبْدَأُ هَذَا النَّصُّ الْأَسْبُوعِي بِالْمَقْطَعِ الْأَوَّلِ وَيُنْتَهِي بِالْآيَةِ السَّادِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مَن الْمَقْطَعِ الْخَامِسِ.

الْبَحْثُ عَن مَعْنَى لِلْحَيَاةِ

تَوَكَّدُ بِنُودِ إِعْلَانِ اسْتِقْلَالِ الْوَلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ عَلَى الْحَقِّ الرَّاسِخِ لِلْإِنْسَانِ فِي الْحَيَاةِ وَالْحُرِيَّةِ وَالْبَحْثِ عَن السَّعَادَةِ، كَمَا بَدَأَتْ تَنْتَشِرُ مُؤَخَّرًا مِائَتُ الْكُتُبِ وَالْمَوْالِفَاتِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَن السَّعَادَةِ وَالزَّفَاهِ، خَاصَّةً بَعْدَ الْأَعْمَالِ الرَّيَادِيَّةِ وَالنَّظَرِيَّاتِ الْعَظِيمَةِ لِعَالَمِ النَّفْسِ مَارْتِنِ سِيلِيغْمَانِ فِي مَجَالِ عِلْمِ النَّفْسِ الْإِجْبَائِيِّ. مَعَ ذَلِكَ، هُنَاكَ أَمْرٌ جَوْهَرِيٌّ يَتَعَلَّقُ بِإِحْسَاسِ أَحَدِنَا بِأَنَّهُ يَعِيشُ حَيَاةً جَيِّدَةً كَمَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُعَاشَ: إِنَّهُ مَعْنَى الْحَيَاةِ. رَيَّمَا يَبْدُو لَنَا الْأَمْرُ وَكَأَنَّ السَّعَادَةَ وَمَعْنَى الْحَيَاةِ هُمَا مَفْهُومَانِ مُتَشَابِهَانِ، حَيْثُ أَنَّنَا نَفْتَرِضُ غَالِبًا بِأَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي تَمَكَّنَ مَن الْعَثُورِ عَلَى مَعْنَى لِحْيَاتِهِ هُوَ إِنْسَانٌ سَعِيدٌ، وَبِأَنَّ الْإِنْسَانَ السَّعِيدَ هُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي نَجَحَ فِي الْعَثُورِ عَلَى مَعْنَى لِحْيَاتِهِ. لَكِنِ الْحَقِيقَةُ تَقُولُ بِأَنَّ السَّعَادَةَ وَمَعْنَى الْحَيَاةِ هُمَا مَفْهُومَانِ غَيْرِ مُتَشَابِهَانِ، وَلَيْسَ بِالضَّرُورَةِ وَجُودَ حَالَةٍ مَن التَّدَاخُلِ وَالْقَوَاسِمِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنِ الْمَفْهُومَيْنِ.

إِنَّ السَّعَادَةَ مَسْأَلَةٌ تَرْتَبِطُ كَثِيرًا بِإِشْبَاعِ الْحَاجَاتِ وَالرَّغْبَاتِ، فِي حِينِ أَنْ فِكْرَةَ الْمَعْنَى مَن الْحَيَاةِ هِيَ نَقِيضُ ذَلِكَ، فَهِيَ تَتَعَلَّقُ بِالْهَدَفِ وَالْغَايَةِ مَن الْحَيَاةِ، خَاصَّةً مَن خِلَالِ الْمُسَاهَمَةِ بِشَكْلِ إِجْبَائِيٍّ فِي حَيَاةِ الْآخَرِينَ. كَمَا أَنَّ السَّعَادَةَ هِيَ إِحْسَاسٌ آتِيٌّ نَشْعُرُ بِهِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ، فِي حِينِ أَنْ وَجُودَ مَعْنَى لِحْيَاةِ يَتَمَحَوَّرُ حَوْلَ طَرِيقَةِ تَقْيِيمِ الْمَرَّةِ لِحْيَاتِهِ فِي الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ.

كَمَا أَنَّ السَّعَادَةَ غَالِبًا مَا تَرْتَبِطُ بِالْأَخْذِ، فِي حِينِ أَنْ مَعْنَى الْحَيَاةِ يَرْتَبِطُ بِالْعَطَاءِ. نَاهِيكَ عَن أَنَّ الْإِنْسَانَ الَّذِي يُعَانِي مَن الْقَلْقِ الدَّائِمِ وَالتَّوْتَرِ الشَّدِيدِ لَيْسَ إِنْسَانًا سَعِيدًا عَلَى الْإِطْلَاقِ، لَكِنِ لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنَّهُ لَا يَمْتَلِكُ مَعْنَى لِحْيَاتِهِ. وَإِن تَجَارِبْنَا التَّعْيِيسَةَ فِي الْمَاضِي تُقَلِّلُ مَن مَدَى شَعُورِنَا بِالسَّعَادَةِ فِي الْوَقْتِ الْحَاضِرِ، لَكِنِ فِي الْكَثِيرِ مَن الْأَحْيَانِ نَجِدُ الْبَشَرَ يَرِيطُونَ لِحِظَاتِ التَّعَاسَةِ تِلْكَ بِإِجَادِ مَعْنَى لِحْيَاتِهِمْ. وَالْأَهَمُّ مَن هَذَا كُلِّهِ أَنَّ السَّعَادَةَ لَيْسَتْ حِكْرًا عَلَى الْبَشَرِ، فَالْحَيَوَانَاتُ تَشْعُرُ بِالْقَنَاعَةِ وَالرِّضَا حِينِ تُشْبِعُ حَاجَاتِهَا وَرَغْبَاتِهَا، لَكِنَّ وَجُودَ مَعْنَى لِحْيَاةِ هُوَ بِالطَّبَعِ ظَاهِرَةٌ بَشَرِيَّةٌ بَحْتَةٍ، وَهِيَ ظَاهِرَةٌ تَرْتَبِطُ ارْتِبَاطًا وَثِيقًا بِثَقَافَةِ الْبَشَرِ أَكْثَرَ مَن ارْتِبَاطِهَا بِطَبِيعَتِهِمْ. ثُمَّ إِنَّ وَجُودَ مَعْنَى لِحْيَاةِ الْإِنْسَانِ هُوَ أَمْرٌ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْدَاثِ وَالتَّجَارِبِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا، بِقَدْرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِطَرِيقَةِ رُؤْيَتِهِ وَتَحْلِيلِهِ وَتَفْسِيرِهِ لِتِلْكَ الْأَحْدَاثِ وَالتَّجَارِبِ. وَعَلَيْهِ يُمَكِّنُنَا الْقَوْلُ بِأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكُونُ سَعِيدًا دُونَ وَجُودِ مَعْنَى لِحْيَاتِهِ، وَمِنِ الْمُمْكِنِ أَيْضًا أَنَّ يَمْتَلِكُ مَعْنَى لِحْيَاتِهِ الَّتِي تَخْلُو مَن السَّعَادَةِ، حَتَّى لَوْ كَانَ يَمُرُّ بِأَوْقَاتٍ تَطْفِي عَلَيْهَا مَلَامِحُ

الظلام والألم. 1

وفي هذا السياق أستاذكُ مقالاً قرأتها في مجلة الأتلانتيك تحت عنوان: "يوجدُ في الحياةِ أمورٌ أعظمُ من مُجرّدِ شعوركِ بالسعادة"،² حيثُ توضّحُ كاتبَةُ المقالةِ إميلي سميث بأن رحلةَ البَحْثِ عَن السَّعادةِ ستكوُنُ نتيجتُها أن يعيشَ المرءُ حياةً سطحيّةً أنانيّةً محورُها هو الذات فقط، لكن ما يجعلُ رحلةَ البَحْثِ عَن معنَى للحياةِ مُختلفةً عَن رحلةِ البَحْثِ عَن السعادةِ هو أنها تهدفُ لإيجادِ أمرٍ يتجاوزُ حدودَ الذاتِ بكثيرٍ.

في الحقيقة، لا يوجدُ شخصٌ ساهمَ في موضوعِ البَحْثِ عَن معنَى للحياةِ مثل العالمِ وطبيبِ النَّفسِ الراحل فيكتور فرانكل، والذي اقتبسُ الكثيرُ من أفكاره خلال هذه المقالات التي تتناول مسألة الروحانيّة.³ وعلى الرغم من السنوات الثلاثة التي أمضاها فيكتور فرانكل في مُعسكرِ أوشفيتز النازي، إلا أنه ظلَّ على قيدِ الحياةِ وقام بمُساعدةِ الكثيرين على البقاء على قيدِ الحياةِ أيضاً، وذلك عبر مُساعدتهم في العثورِ على معنَى لحياتهم حتى لو كان ذلك وسط الجحيمِ نفسه، إيماناً منه بأن من يفقد الرغبة في الحياةِ في مُعسكرات الموت النازية فإن مصيره سيكوُنُ الموت لا محالة. وقد كانت تجربته هذه بمثابة الحاضنة التي تشكّلت فيها أفكاره، والتي تمخّصت عنها منهجية جديدة من مناهج علم النفس، حيثُ وضعَ أسسها في كتابه "الإنسانُ يبحُثُ عَن معنَى" ونشره عام 1946م. وقد استغرقَ تأليفُ هذا الكتاب تسعة أيام فقط، وبيع منه أكثر من عشرة ملايين نسخة في كافة أنحاء العالم، كما تمّ تصنيفه على أنه واحدٌ من أكثر الكُتُبِ المؤثرة على مستوى العالم خلال القرن العشرين.

كما كان فيكتور فرانكل يقولُ دائماً بأن الطريقَ لإيجادِ معنَى للحياةِ لا يبدأ بالتساؤل عمّا نريدهُ من الحياةِ، بل بالتساؤل عمّا نريدهُ الحياةِ مِنّا. موضّحاً بأن كل إنسانٍ مِنّا يُشكّلُ كياناً فريداً في مواهبه وقدراته وإمكانياته ومهاراته وفي الظروف المعيشية المُحيطة به، لهذا يوجدُ لكلِّ إنسانٍ مِنّا دورٌ لا يُمكنُ لأي إنسانٍ آخر أن يقومَ به. في الوقت نفسه، فإن حقيقةَ تميّزنا عن غيرنا لا تجعلنا أفضل من الآخرين، وحينَ نُؤمنُ بأنك موجودٌ في هذه الحياةِ لسببٍ مُعيّنٍ فإن هذا يفرضُ عليك القيامَ بـ "تيكون" (أي إصلاح) أمرٍ ما في هذا العالم، أمرٌ لا يستطيعُ أحدٌ آخرُ إصلاحه غيرك، فهناك بصيصُ نورٍ محبوس لا يُمكنُ لأحدٍ أن يُحرره سواك، وهُنالك أعمالٌ خيرٍ وسخاءٍ وكَرَمٍ وجُرأةٍ لا يُمكنُ لأحدٍ القيامَ بها سواك، حتى البسمة الرقيقةُ وعبارات التشجيع في بعض الأحيان لا يُمكنُ لأحد أن يقولها سواك، وهذا لأنك موجودٌ في حياة شخصٍ آخر في هذا الزمان وهذا المكان على وجه التحديد.

كما اعتادَ فيكتور فرانكل على ترديد هذه العبارة: "الحياةُ هي عَمَلٌ كَلَّفنا بالقيام به"، موضّحاً بأنّ "الإنسان المُتديّن، خلاف الإنسان غير المتديّن، لا ينظرُ لحياته على أنها مُجرد واجبٍ عليه القيامُ

1. أنظر أيضاً:

Roy F. Baumeister, Kathleen D. Vohs, Jennifer Aaker, and Emily N. Garbinsky, "Some Key Differences between a Happy Life and a Meaningful Life," *Journal of Positive Psychology*, vol. 8, issue 6 (2013): 505–162. إميلي سميث: مقالة بعنوان: "There's More to Life Than Being Happy," *The Atlantic*, Jan. 9, 2013

3. راجع هذه المقالة المنشورة سابقاً حول النص الأسبوعي "وَيَعَّاش"، إعادة الصياغة.

به فحسب، بل هي مهمّة ينبغي عليه تنفيذها، لأنّه يدرك تماماً أن ثمة مصدر يحثّه على تأدية تلك المهمة، هذا المصدر الذي لطالما وُصِفَ منذ آلاف السنين على أنّه الله عزّ وجلّ⁴. ومن هنا تبرزُ أهميّة السّفَرِ الثالث من أسفار التوراة الخمسة، وأهميّة الاسم الذي يحمله النص الأسبوعي من نصوص التوراة على وجه الخصوص: "فَيَقْرَأُ"، بمعنى "ثُمَّ دَعَا".

إن هذه العبارة الموجودة في الآية الأولى من المقطع الأول من سفر اللاويين هي عبارة عَصِيَّةٌ على الفهم إلى حدٍ ما، وعادةً ما تُترجمُ حرفياً كالاتي: "وَدَعَا اللهُ مُوشِيَه (مُوسَى) وَكَلَّمَهُ مِنْ خِيْمَةِ الْجَمْعِ...". حيثُ يبدو للوهلة الأولى بأن الفعل "دَعَا" ليس له أي لزوم على الإطلاق، لأنه متبوع بالفعل "وَكَلَّمَهُ"، فما هي الحاجةُ لإضافة الفعل "دَعَا" في هذه الآية إذا كانَ اللهُ عزّ وجلّ يُكَلِّمُ مُوشِيَه أصلاً؟ يقول الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف اختصاراً بلقب راشي) في مُستهلّ تفسيره لهذه الآية:

"في كلّ مرة كان يتواصلُ اللهُ عزّ وجلّ فيها مع مُوشِيَه (سواء كان هذا التواصل على شكل عبارة "ثم قال"، أو "ثم أمر") كانت الآية تبدأ بعبارة تُشير إلى نداء اللهُ لمُوشِيَه باسمه"⁵.

والنداءُ يحملُ في طياته معنى التّحَبُّبِ والتودّد إلى المُنادى عليه، وهو الأسلوبُ الذي يتخذه ملائكة الطاعة في كلامهم تبعاً لما يذكره سفر يشعياهو/إشعيا في الآية الثالثة من المقطع السادس والتي تبدأ بعبارة: "وهذا نادى ذاك وقال..".

بالتالي وبحسب ما يوضّح لنا الحاخام راشي فإنّ "فَيَقْرَأُ" تعني النداءُ بأسلوبٍ مُحبِّبٍ لتلبية أمرٍ ما، وهذا هو مصدرٌ أحدٍ أبرز المبادئ في الفكر الغربي: إنّه مبدأ النداءِ أو التّكليف، حيثُ يُقصدُ بهذا المبدأ أن اختيار المرء لمهنته ووظيفته جاء من مُنطلقٍ أنها تُناديه لأدائها، لا بسبب رغبته في أدائها أو لأنها تجلبُ له مَنافعٌ مُعيّنة.

وفي الكتاب اليهودي المقدس (التناخ) توجدُ نداءاتٌ عديدة مُماثلة لهذا النداء، فهناك نداءٌ لأفْرَهام/إبراهيم حتى يترك أرضه وعائلته (تبعاً للآية الأولى من المقطع الثاني عشر من سفر التكوين)، وهناك أيضاً نداءٌ لمُوشِيَه جاءه من قلب العليقة المُشتعلة (تبعاً للآية الرابعة من المقطع الثالث من سفر الخروج)، ونداءٌ آخرٌ للنبي يشعياهو حين رأى اللهُ عزّ وجلّ خلال منامٍ غامضٍ يبدو فيه مُتوجّهاً ومُحاطاً بالملائكة التي تُنادي عليه (أي على النبي يشعياهو) تبعاً لما تذكره الآية الثامنة من المقطع السادس من سفر إشعيا:

"ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ اللهِ قَائِلاً: مَنْ أُرْسِلُ؟ وَمَنْ يَذْهَبُ مِنْ أَجْلِنَا؟ فَقُلْتُ: هَا أَنَا، أُرْسِلْنِي"

وبالإضافة إلى هذه النداءات جميعها، نجدُ قصّةً مؤثرة جداً حدّثت مع الشاب شموئيل/صموئيل الذي أصبح نبياً في وقت لاحق وطلبت منه والدته حنه/حنا بأن يُكرّس نفسه لعبادة اللهُ عزّ وجلّ في أحد بيوت العبادة في منطقة شيلوه، فكان حينها مُساعداً للكاهن اليهودي عيلي/عالي. وفي أحد الأيام هرعَ شموئيل صوب الكاهن عيلي مُعتقداً بأنّه يُنادي عليه، لكن الكاهن عيلي قال له بأنه لم يُناديه أبداً،

4. Viktor Frankl, *The Doctor and the Soul: from Psychotherapy to Logotherapy* (New York: A. A. Knopf, 1965), 13

5. تبعاً لتفسير الحاخام راشي للآية الأولى من المقطع الأول من سفر اللاويين.

وتكرّر هذا الموقف مرّةً ثانية وثالثة، وعندها فقط أدرك شموئيل بأن هذا هو نداءُ الله عزّ وجلّ له، فوضّح له الكاهن عيلي بأنّه في المرة القادمة التي يسمّع فيها هذا النداء عليه أن يردّ قائلاً: "لبيتك يا الله، عبدك يُصغي إليك". بالتالي لم يخطر ببال شموئيل - الذي كان شاباً يافعاً حينها - بأن هذا النداء ربّما يكون نداءً إلهياً لتكليفه بأداء أمرٍ ما. لكنه كان بالفعل نداءً إلهياً، ولهذا بدأ مهمّته في أوّل الأمر نبياً ثم قاضياً، ثم مُنصّباً لأوّل ملكين من ملوك إسرائيل: الملك شاؤول والملك دافيد/داوود (تبعاً لما يذكره سفر صموئيل الأوّل في المقطع الثالث).

بالتالي، عندما نرى أمراً خاطئاً بحاجةٍ للتصحيح، أو داءً بحاجةٍ للدواء، أو حاجةً بحاجةٍ للإشباع، ونشعرُ بأنّها تُنادينا للقيام بها، حينها فقط نقترّب من ذلك الزمن الذي عاش به الأنبياء والصالحون الذين لبّوا "فَيَقْرَأ" نداءً الله عزّ وجلّ. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا تظهر كلمة "فَيَقْرَأ" تحديداً في بداية هذا السّفر الذي يتوسّط أسفار التوراة الخمسة؟ السبب واضحٌ وبسيطٌ جداً: لأنّ هذا السّفر يتحدّث عن القرابين، وعن النداء الإلهي الذي يطلب منّا التضحية، فنحن نُقدّم التضحيات حين نشعرُ بأن التضحية جزءٌ من عملٍ كلفنا به، أو حين تكون جزءاً من نداءٍ طلب منّا تلبيته.

وفي سياق الأبدية، يتملّكنا شعورٌ في بعض الأحيان بأننا معدومو القيمة، وبأن وجودنا في هذا الكون لا يتعدى وجود قطرة ماءٍ من محيطٍ أو ذرة رملٍ من رمال شاطئ البحر، أو حتى ذرة غبارٍ في هذا الكون الشاسع. لكن علينا أن نتذكر في لحظات كهذه بأننا موجودون هنا لأن الله عزّ وجلّ أراد لنا ذلك، لأنه كلفنا بعملٍ ويريد منّا أن نقوم به على أكمل وجه، والبحث عن معنى لحياتنا هو ضالة هذا العمل. فكلّ منّا له كيانٌ فريدٌ يميزه عن غيره، بل حتى التوائم المتشابهة تختلف جينياً عن بعضها البعض.

لهذا هنالك أمورٌ ينبغي على إنسانٍ مُحدّدٍ القيام بها، لأنه هو بالذات، لا لأنه شخصٌ آخر، ولأنه وُجد في زمانٍ محدّدٍ ومكانٍ محدّدٍ في ظروفٍ محدّدة. لقد كلف الله عزّ وجلّ كل إنسانٍ منّا بمهمةٍ خاصّة، وربّما تكون هذه المهمة على شكل عملٍ يقوم به، أو إحسانٍ يُظهره تجاه الآخرين، أو محبةٍ يتشاركها مع غيره، أو وحدةٍ يُهونها على صاحبها، أو ألمٍ يخفّفه على من يعاني منه، أو حياةٍ مُحظّمةٍ بحاجة لمن يصلحها.

كما أن تحديد هذه المهمة الإلهية الموكلة إلى كل فردٍ منّا وتلبية النداء الإلهي الذي تختزله عبارة "فَيَقْرَأ" يُمثّل واحداً من أصعب التحديات الروحانية التي يواجها كلّ إنسان. والسؤال المطروح هنا: كيف بإمكاننا أن نعرف تلك المهمة الإلهية التي أوكلها الله عزّ وجلّ لنا؟ لقد وضّحت إجابة هذا السؤال عبر صفحات كتاب لي نشرته قبل بضع سنواتٍ تحت عنوان "To Heal a Fractured World" (إصلاح عالمٍ مُحظّم)، وحتى يومنا هذا لا زلتُ مُقتنعاً بالإجابة التي يُمكنني اختزالها في العبارة التالية: إن نقطة الالتقاء بين الأمور التي نرغب بالقيام بها مع الأمور التي يجب علينا القيام بها، هي النقطة التي يريدنا الله عزّ وجلّ أن نكون موجودين فيها.

تساف

هو النصُّ الأسبوعي الثاني من كتاب "فَيَقْرَأ" (أي سفر اللاويين)، ويبدأ وهذا النصُّ الأسبوعي من الآية الأولى في المقطع السادس، وَيَنْتَهِ بِالآية السادسة والثلاثين من المقطع الثامن.

المعنى الحقيقي للتَّضحية

توجدُ عدَّة أسباب تجعلُ مسألة التَّضحية بالحيواناتِ واحدةً من أصعبِ وأعقدِ المسائل التي تحدَّثت عنها التوراة، والسببُ الأوَّل يكمنُ في أن اليهود والديانة اليهودية قد قُدِّر لَهُم البقاء والاستمرارُ لأكثر من ألفي عام دون تقديم الأضاحي والقربان (أي منذ الخراب الثاني للهيكَل). والسبب الثاني هو أن جميع أنبياء اليهود كانوا يَنْتَقِدون مسألة التَّضحية (على الأقل من ناحية نظرية) وعلى رأسهم النبي يرمياهو/إرمياء الذي عبَّر عن ذلك في عديدٍ من المواقف، أهمها الموقف الموجود في نصِّ "الهفتراه" المأخوذ من سفر إرمياء والمرافق لهذا النصِّ الأسبوعي الذي يحملُ عنوان "تساف" (الهفتراه هي نصوص مُكَمَّلة للنصوص التوراتية الأسبوعية تؤخِّدُ من الكتاب اليهوديِّ المقدَّس التناخ).¹ ولم يسعَ أي نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل إلى إنهاءِ ظاهرةِ التَّضحية والقربان، لكنهم في الوقت نفسه كانوا شديدي الانتقاد والتزمتم مع أولئك الذين يُقدِّمون القربان لله عزَّ وجلَّ بينما يقومون بتصرفات مُسيئة ومشينة مثل استغلال البشر وغيرها.

بالتالي ما كان يُورِّقُ الأنبياء ويشغل بالهم، بل ويُغضب الله عزَّ وجلَّ الذي تُقدِّم هذه الأضاحي والقربان باسمه، هو الخشيةُ من أن يسودَ اعتقادٌ بين البشر بأن هذه القربان التي تُقدِّم إلى الله هي بمثابة "رَشوة"! بِمعنى أن يظنَّ البشرُ بأنهم كلما زادوا من سخائهم وكرمهم في تقديم الأضاحي والقربان لله، كلما تغاضى الله عن جرائمهم وخطاياهم وسيئاتهم، وهذه فكرة تتناقضُ كُلياً مع المُعتقدات اليهودية. لقد كان الحُكم الملكيِّ وظاهرة تقديم القربان من ضمن أقلِّ الأمور التي تُميِّز اليهودية في تلك الأزمنة، لأنَّ كل مُعتقِدٍ قديمٍ في تلك الحُقبه كان له مذبْحُ خاصُّ به تُقدِّم من خلاله القربان والأضاحي.

وهنا يبرزُ النجاحُ الاستثنائيُّ لكبارِ حاخامات اليهود الذين تمكَّنوا بمنتهى البساطة والسلاسة من إيجاد بدائلٍ لتقديم الأضاحي والقربان، خاصة هذه البدائل الثلاثة: الصَّلوات، والدراسة، وتقديم "التَّسَدِّقاه" (الصَّدَقَة حسبَ المفهوم اليهودي لا تعني التصدُّقُ بالمال فقط، بل يُقصدُ بها تحقيق العدالة الاجتماعية للفقراء والمحتاجين عموماً). وبالنسبة للصَّلوات اليهودية، هنالك ثلاث صلوات مُحدَّدة حلَّت محلَّ الأضاحي والقربان التي تُقدِّم لله عزَّ وجلَّ بشكلٍ دوريٍّ: صلاةُ الشَّحاريت (بمعنى الصلاة التي تُؤدَّى وقت الصباح) وصلاةُ المِنْحاه (الصلاة التي تُؤدَّى خلال فترة الظهر أو بعد الظهر) وصلاةُ الموساف (وهي صلاة إضافية تُضافُ إلى الصَّلوات الاعتيادية التي يؤديها اليهود في يوم السبت

1. تقول الآية الثانية والعشرون من المقطع السابع من سفر إرمياء: "لأنِّي لم أكلَمُ آبَاءكم ولم أوصيهم يوم أخرجتهم من أرض مصر من جهة ذبيحة أو محرقة"، وهي آية استثنائية جداً علق عليها كل من الحاخام راشي والحاخام ديفيد قمخي (المعروف باسم راداك) بالإضافة إلى الحاخام موشيه/موسى بن ميمون في كتابه "دلالة الحائرين" في المجلد الثالث ص 32.

والأعياد الدينية وبداية كل شهر). وبالنسبة للبدل الثاني وهو الدراسة، فإن من يدرس قوانين وتشريعات تقديم الأضاحي والقرايين لله عز وجل فهو كمن يُقدِّمها. أما البدل الأخير وهو تقديم الصدقات، فيعني أن المرء حين يتبرع لأعمال الخير - وهو عمل يُعتبر بمثابة تضحية مالية - فإنه يعترف ضمناً بأن جميع ممتلكاته هي ملك لله عز وجل.

وبالرغم من أننا نُصلي لله ونتضرع إليه في صلواتنا اليومية كي يُعيد بناء الهيكل اليهودي المقدس ونُعيد تقديم القرايين، إلا أن مبدأ تقديم الأضاحي والقرايين لا يزال صعب الفهم إلى حد ما. وفي هذا السياق، ظهرت الكثير من النظريات لعلماء النفس وعلماء الأنثروبولوجيا (علم أصل الإنسان) والباحثين والدارسين في التناخ، إلا أن أغلب تلك النظريات مبنية على أساس ضعيف يفترض بأن مبدأ تقديم الأضاحي والقرايين هو المبدأ نفسه في كافة الثقافات الإنسانية، لهذا تظل جميع تلك الأبحاث التي قامت على هذا الأساس ضعيفةً وركيكةً للغاية، حيث يتوجب على الباحث الذي يدرس سلوكاً معيناً أن يضعه ضمن سياق الثقافة التي يُمارس فيها هذا السلوك، لا بمعزل عنها.

لكن الأسئلة التي تطرح نفسها هنا: ما هو معنى تقديم الأضاحي والقرايين من وجهة نظر مُعتقدٍ ديني يعتبر الله عز وجل بأنه الخالق والمالك لكل شيء؟ وما هي أهمية تقديم الأضاحي والقرايين بالنسبة للديانة اليهودية؟ ولماذا ظلت موجودة حتى يومنا هذا؟ إن الإجابة عن هذه الأسئلة بسيطة للغاية على الرغم من أنها لا تتطرق للتفاصيل المتعلقة بكل شكل من أشكال القرايين: وهي أننا نُحب من نقوم بالتضحية من أجله. ولهذا السبب تحديداً، عندما كان بنو إسرائيل مُزارعين وفلاحين وزعاة أغنام، فقد كانوا يُعبرون عن حُبهم لله عز وجل عبر تقديمهم جزءاً من رزقهم قرباناً له، فكانوا يجودون بباكورة محاصيلهم الزراعية والحبوب والمواشي والأغنام لهذه الغاية. إن المحبة تعني الشكر، ومحبتك تعني البذل والعطاء تجاه من تُحب،² لهذا فإن التضحية هي بمثابة تصميم استعراضي راقص لترنيمه المحبة.

وهذا بطبيعة الحال ينطبق على الكثير من جوانب حياتنا، فالزّوجان اللذان يعيشان حياة سعيدة هانئة يُضحّي كل منهما من أجل الآخر طوال الوقت، والآباء يُقدّمون تضحياتٍ جسيمة من أجل أبنائهم، ومن يُلبون نداء الواجب لعلاج إنسانٍ مريضٍ أو لمُساعدة شخصٍ فقيرٍ، أو زُيماً لمحاربة الظلم وإحقاق العدل وإنصاف المُستضعفين، فجميع هؤلاء يُضحون بوظائف وأعمال تعود عليهم بالدخل الوفير امتثالاً لمبادئهم التي يحملونها. وخلال الفترة التي بزغت فيها فكرة القومية صارت الشعوب تُضحّي من أجل أوطانها، وفي المُجتمعات القويّة المتماسكة يُقدّم الأفراد تضحيات جسيمة من أجل من هم بحاجة إلى العون والمساعدة.

بالتالي فإن التضحية هي كالمادة اللاصقة في العلاقات الاجتماعية، لأنها بمثابة الصلّة التي تربط كل إنسانٍ بالآخر. ولهذا السبب تحديداً نجد أن تقديم الأضاحي والقرايين كان أمراً في غاية الأهمية في عهد التناخ (بالطبع لم يكن تقديم الأضاحي والقرايين بنفس الدرجة أو الطريقة التي يتم تقديمها في مُعتقدات أخرى في تلك الحقبة)، لأنّ المحبة هي بمثابة القلب النابض في الديانة اليهودية، وهذا ما تؤكّد عليه التوراة في الآية الخامسة من المقطع السادس من سفر التثنية: "أحبّ الله إلهك من كلِّ"

2. الفعل أحب باللغة العبرية جاء من الجذر (أ.ه.ف.)، وهو جذر له علاقة بالجذر (ه.ف.ه) والجذر (ي.ه.ف) القريب من الفعل (وهب) في اللغة العربية، وجميعها جذورٌ تحمل في طياتها معنى الهبة والعطاء.

قلبك، وبكلّ وُجْدَانِكَ وبكلّ ما أوتيت من قوّة". بالتالي كان دافع اليهود من وراء تقديم القرابين هو محبة الله عزّ وجلّ، في حين كان دافع الآخرين هو الخوف من آلهتهم.

كما أننا نرى عمق الارتباط بين التضحية والمحبة في اللغة العبرية نفسها، وذلك من خلال الكلمة العبرية المُستخدمة لتقديم الأضاحي والقرابين "قربان" والتي جاءت من الفعل "لَهَكْرِيف"، هذا الفعل الذي يعني اقترب أو قرب في اللغة العبرية. كما أن لفظ الجلالة الذي يصفُ الله عادةً عندما يرتبطُ الموضوع بتقديم الأضاحي والقرابين هو اسمه الصريح (وهو بالمناسبة لفظ لا يلفظه اليهود من باب التوقير والإجلال للذات الإلهية في اليهودية)، وهو أيضاً لفظ الجلالة الذي يُستخدم في التوراة عندما يتعلّق الأمر بمحبة الله عزّ وجلّ ورحمته وعطفه، فلا نرى اللفظة الأخرى للجلالة "إلوهيم" لأنها تظهرُ عندما يتعلّق الأمر بعدالة الله وبعبده عناً أيضاً. كما أن لفظ الجلالة "إلوهيم" ظهر خمس مراتٍ فقط في سفر اللاويين بأكمله، ودائماً ما كان يظهرُ في سياق الحديث عن أقوام وأمم أخرى، في حين أن لفظ الجلالة ظهر 209 مرّات. ومثلما رأينا في النصّ الأسبوعيّ السابق، فإن عنوان النصّ نفسه "فَيَقْرَأ" يعني النداء بكلّ محبة، وأينما توجد المحبة يجب أن تكون هناك تضحية.

وعندما ندرك حقيقة ارتباط المحبة بالتضحية، فإننا سنتمكّن من إدراك مدى ارتباط حياتنا في القرن الحادي والعشرين بمفهوم التضحية، فالكثير من المبادئ والأفكار في العصر الحديث مثل فكرة الدولة الديمقراطية الليبرالية وفكرة الاقتصاد المبني على السوق الحرّ، هي جميعها أفكار ومبادئ مبنية على أساس نظرية الاختيار العقلاني (نموذج الفاعل العقلاني) التي تفترض أن الإنسان يقوم بكل ما بوسعه من أجل تحقيق أقصى قدرٍ من المنفعة الذاتية. وفي هذا السياق يوضح الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز من خلال آرائه في مسألة العقد الاجتماعي، بأن تنازل الفرد عن قدر من حقوقه لصالح سلطة مركزية معينة من شأنه أن يساهم في سيادة القانون وتحقيق المصلحة العامة وحماية المجتمع. كما ويوضّح عالم الاقتصاد الأسكتلندي آدم سميث بأنه في حال كان كل فرد يسعى للحصول على أقصى قدر من المنفعة في مبدأ اقتصاد السوق، فإن المحصلة النهائية تتمثل في زيادة ونمو الثروات العامة.

أضف إلى هذا كله أنّ الكثير من أفكار ومبادئ الاقتصاد المعاصر والسياسة الحديثة قد بُنيت على أساس البحث العقلاني عن المنافع الذاتية. ولا يوجد ما هو سيءٌ في هذه الأفكار المعاصرة التي كانت دافعاً وراء العديد من الأمور الجيدة حينها، فكانت على سبيل المثال دافعاً لإحلال السلام في أوروبا بعد أن شهدت قروناً من الحروب والصراعات المُضنية، كما ساهمت الديمقراطيات المعاصرة وأفكار الاقتصاد السوقيّ الحديثة مساهمةً كبيرة في استغلال الطموحات الذاتية والفردية لمحاربة الطموحات الهدامة التي أدّت بنهاية المطاف إلى ظهور العنّف.³

كما أنّ حقيقة ارتكاز المبادئ السياسية والاقتصادية على المصالح الذاتية والمنافع الشخصية لا ينفي حقيقة أن المجتمعات الصغيرة والتجمعات الإنسانية المحدودة قد ظلّت باقية على قيد الحياة نتيجة ما تحلّت به من إثارة وتضحية، لهذا كان نظاماً جيداً جداً ولم يكن بتلك الدرجة من السوء.

لكن وفي وقتنا الحالي، أي بعد مرور عدة قرونٍ على عهد الديمقراطيات المعاصرة وأفكار الاقتصاد السوقيّ الحرّ، فقد أصبحت فكرة ارتباط التضحية بالمحبة تتضاءل شيئاً فشيئاً من مناحي

3. النصّ الأصلي موجود تحت هذا العنوان:

A. O. Hirschman, *The Passions and the Interests* (Princeton University Press, 1977)

حياتنا المُختلفة، حيث نرى ذلك جلياً في العلاقات الاجتماعية على وجه التحديد. ولو أخذنا العالم الغربي على سبيل المثال لوجدنا أن عدد الأشخاص المُقبلين على الزواج يتضاءلُ تدريجياً، وحتى أولئك الذين يُقدِّمون على الزواج فإن نصفهم تقريباً ينتهي بهم المطاف بالطلاق. كما أصبحت المُجتمعات البشرية الأصيلة في أوروبا تندثرُ شيئاً فشيئاً نتيجة لهذا السبب، فحتى يُحافظ مجتمع معين على تركيبته السكانية الأصيلة يجب أن يكون معدل الولادة فيه 2.1 طفل لكل أنثى، في حين أن معدل الولادة في أوروبا عام 2015م كان 1.55 لكل أنثى، والمعدل كان أقل من ذلك في إسبانيا ووصل إلى 1.27 طفل لكل أنثى، في حين أن ألمانيا سجّلت أقلّ معدل ولادة على مستوى العالم.⁴ والسبب الوحيد الذي يجعل الحالة الديمغرافية في أوروبا مُستقرة إلى حد ما هو معدلات الهجرة المرتفعة.

بالتالي، حين ينعدم مفهوم التضحية من المجتمع فإن استقرار العلاقات الزوجية سوف يتزعزع عاجلاً أم آجلاً، الأمر الذي سيؤدي إلى شيخوخة ذلك المجتمع ومن ثم فنائه. وفي هذا السياق تحدّث الحاخام الراحل اللورد عمانويل جاكوبوفيتش الذي شغل منصب كبير حاخامات اليهود في المملكة المتحدة قبل أن أتولاه أنا، قائلاً: يذكر لنا كتاب التلمود بأنه حين يُطلق الرجل زوجته الأولى فإن "المذبح يذرفُ دمعاً على ذلك" (باب جيتين 90-ب)، والسؤال المطروح هنا: ما هي العلاقة بين المذبح والزواج؟ يوضّح لنا الحاخام عمانويل الإجابة قائلاً: كلاهما مرتبط بالتضحية، فالزواج يفشل حين لا يُضحّي الزوجان من أجل بعضهما البعض.

لقد ظلّت العقيدة اليهودية باقيةً على قيد الحياة بالرغم من التضحيات الجسيمة التي قدّمها اليهود عبر مَرّ التاريخ، وفي هذا السياق يُعبّر الشاعر اليهودي يهوذا اللاوي (يهودَه هاليقي) عن ذهوله الشديد من حقيقة بقاء اليهود وصمودهم في وجه كافة الظروف العصبية التي عصفت بهم، في حين كان باستطاعتهم أن يوفروا على أنفسهم هذا العناء وأن يستمتعوا بحياة هائلة رغيدة لو أنهم "نطقوا كلمة خفيفة جداً على اللسان" باعتناقهم ديانات أخرى.⁵ والعكس صحيح أيضاً في هذه الحالة، إذ يُمكننا القول أن واحداً من أهم أسباب بقاء العقيدة اليهودية واستمرارها هو تلك التضحيات الجسيمة التي قدّمها اليهود، فعندما يُضحّي الإنسان في سبيل قيمه ومبادئه فإنها تظلّ باقيةً، والتضحية هي تعبير عميق عن العشق والمحبة.

في الوقت نفسه، ليست جميع التضحيات التي يُقدّمها البشر مُقدّسة، ففي يومنا هذا نجد الانتحاريين يُدّسون اسم الله عزّ وجلّ بل ويُدّسون قداسة التضحية عندما يُفجرون أجسادهم ويضحون بحياتهم وحيات ضحايا تلك العمليات الانتحارية.⁶

بالتالي فإن فكرة تقديم الأضاحي والقربان التي تنصّ عليها التوراة قد تكون سبباً يمنع البشر من تقديم غيرهم من البشر كقربان وأضاحي خلال الصراعات والحروب العنيفة. كما أن مبدأ التضحية كان ولا زال موجوداً في الديانة اليهودية لأن التضحية هي بمثابة الهدية التي تُقدّمها من أعماق قلوبنا لأولئك الذين نُحبُّهم.

4. مجلة ذا أوبزيرفر بتاريخ 2015/8/15 - *The Observer*

5. يهوذا اللاوي (يهودا هاليقي)، الحزاري 4:23

6. انظر كتاب الحاخام جوناثان ساكس الذي يحمل عنوان "ليس باسم الله: مواجهة العنف الديني" - (New York: Schocken Books, 2017)

شُميني

هو النصُّ الأسبوعي الثالث من كتاب "فَيِّقرا" (أي سِفْر اللّاوِيّين)، وهذا النصُّ الأسبوعي يبدأ من الآية الأولى من المقطع التاسع، وينتهي بِالآية السابعة والأربعين من المقطع الحادي عشر.

مَخاطِرُ الحَماسة الزَّائدة

إن التَّنقيبَ في تاريخ المُفردات اللُّغويّة من شأنه أن يكشفَ حقائق لا تَقِلُّ في أهميتها عن الحقائق التي يكشفها التَّنقيبُ عن الآثار التاريخية لِمدينة قديمة، ولناخذ الكلمة الإنجليزية "enthusiasm" على سبيل المثال، فهي كلمة تُعني حالة الحَماسة أو الوَلع الشديد حيال أمرٍ ما. وتبعاً لِمفهومنا المُعاصر لها فإنها كلمة تحملُ مدلولاتٍ إيجابية، إذ تُعرّفها أحد قواميس اللغة الإنجليزية على أنها "شُعورٌ بالاندفاع سببه الميلُ لموضوع أو نشاطٍ مُعيّن، وحالة اللّهُفة للانخراط والمشاركة فيه". ومن يَتملّكُهم الشعور بالحَماسة تجاه أمرٍ ما فإنهم يَتصفونَ بالشغفِ والعُنفوان والإثارة حيال ذلك الأمر، كما أن الحَماسة هي صِفةٌ من صِفات القائد العظيم أو المُعلّم الناجح، الأمرُ الذي يجعلُ الناس يَتبعونهم ويسيروا على خطاهم بكل شغف، لهذا حين تُريدُ أن تكونَ مؤثراً على الآخرين فما عليك إلا أن تُنمّي الشُعورَ بالحَماسة لديهم تجاه قضيةٍ معيّنة.

لكن كلمة "enthusiasm" لم تكن تحملُ هذه الدلالة الإيجابية في الماضي، حيثُ كانت تُستخدمُ في أوّل الأمر لوصفِ الشخص الذي يمسه الجنُّ أو الشيطان، وكانت تُستخدمُ خلال القرن السابع عشر لوصفِ الطوائف المسيحية البروتستانتية المتشدّدة والمتمردة في إنجلترا، كما وكانت تُستخدمُ عموماً لوصفِ الحركة البيورتانية (التطهيرية) المسيحية التي شاركت في الحرب الأهلية حينها. بالتالي كانت هذه الكلمة بمثابة مُرادفٍ لوصفِ حالة التطرّف والتعصّب والتشدد الديني، وكان يُنظرُ لها على أنها كلمة ترتبطُ بحالة من اللاعقلانية وعدم الاستقرار والخطر الداهم.

وقد كتبَ الفيلسوف الأسكتلندي ديفيد هيوم (1711م – 1776م) مقالةً في قَمّة الروعة عن دلالة هذه الكلمة،¹ موضّحاً في بداية مقالته بأن "فسادَ أفضل الأشياءِ يُؤدّي إلى ظُهورِ الأسوأ"، وهذه الفكرة تنطبقُ تماماً على موضوع الدّين، موضّحاً وجودَ طريقين يُؤدّيان إلى خُروج أي دينٍ عن مساره الصحيح: الطريقُ الأوّل هو طريقُ الخرافاتِ والسحر والشعوذة، والطريقُ الثاني هو طريقُ الحَماسة الدينية الزَّائدة.

في الحَقِيقَة إنهما طريقان مُختلفان تماماً، فاتّباعُ طريقِ الشعوذة والخرافات مَصدُرُه الجهل والخوف، لأننا أحياناً نشعرُ بحالة من الذعر والخوف دون وجود أسباب حقيقيّة أو منطقيّة لذلك،

1. ديفيد هيوم (1742-1754) *Essays Moral, Political, and Literary*

بالتالي نلجأ في مثل هذه المواقف إلى علاجاتٍ غير منطقيةٍ لِطمأننةِ تلك المخاوف اللامنطقية. أما حالةُ الحماسة والاندفاع فهي تقفُ على النقيضِ من ذلك، لأن مصدرها هو الثقة الزائدة، فالشخصُ المُتحمّسُ دينياً - على سبيل المثال- يكونُ في حالةٍ من النشوةِ الدينية التي تجعلهُ يعتقدُ بأنه يتلقَى الوحي والإلهام من الله مُباشرةً، مما يجعلهُ يتجاهل القُيودَ التي يُملِها عليه العقلُ والمنطقُ.

كما ويوضّحُ ديفيد هيوم بأن "حالة الحماسة الدينية الزائدة تجعلُ المرءَ يعتقدُ بأنه صار مُحوّلاً بالاقترابِ من الإله دون أي وساطةٍ بشرية"، بِمعنى أن الإنسان الذي يقَعُ تحت تأثير الحماسة الدينية يكونُ في قِمةٍ نشوتهٍ لدرجةٍ تجعلهُ يشعرُ وكأنه يستطيعُ تجاوزَ كافة القوانين والشرائح التي يخضعُ لها رجال الدين عادةً. ويتابع موضحاً بأن "الإنسان المُتعصّبُ دينياً يُقدّسُ نفسه ويُضفي على شخصيته طابعاً مُقدّساً يفوق طابعَ القداسة الذي قد تُضفيه المؤسسات الدينية الرسمية على أي إنسانٍ". بِمعنى آخر، فإن هذا الإنسان المُتحمّسُ دينياً يرى بأن القوانين والتشريعات تسري على الأشخاص العاديين ولا تسري عليه، فهو يعلمُ ما لا يعلمهُ الجميع باعتباره أقرب إلى الله حسب اعتقاده، وهذا أمرٌ في غاية الخطورة على حدّ تعبير ديفيد هيوم.

ومن هذا المُنطلق، فقد بدأت تتضحُ لنا الصورة فيما يتعلّقُ بالخطيئة التي ارتكبتها كُلُّ من نَدّاف وأفيهو بحسب ما يذكره هذا النصُّ الأسبوعي من نصوص التوراة، حيث مات كلاهما (وهما أكبرُ أبناء أهارون/هارون) بحسب ما تذكره آياتُ هذا النصِّ الأسبوعي، لكن التوراة تولي اهتماماً كبيراً بحادثة موتهما وتتطرّقُ لها في أربع مواضع على الأقل (الموضع الأول والثاني هما في سفر اللاويين في المقطع العاشر الآيات الأولى والثانية بالإضافة إلى المقطع السادس عشر في الآية الأولى، والموضع الثالث موجود في سفر العدد في المقطع الثالث الآية الرابعة، والموضع الرابع موجود في السفر نفسه في المقطع السادس والعشرين في الآية إحدى وستين). في الحقيقة كان موتهما أمراً صادمًا جداً بل وفي قمة المأساوية، بالإضافة إلى أنّ حادثة موتهما كانت في نفس اليوم الذي بدأت فيه تآدية المناسك الدينية في المشكان، أي في مُناسبةٍ يُفترضُ أن تكونَ من أعظم المناسبات التي شهدها التاريخ اليهودي.

كما أن حاخامات اليهود كانوا في حالة ذهول شديد من هول ما حدث حينها، إذ يذكرُ لنا سفر اللاويين في المقطع العاشر في الآيتين الأولى والثانية ما يلي: "ثُمَّ أَخَذَ بَنُو أَهَارُونَ: نَدّاف وأفيهو، كُلُّ وَاحِدٍ مِجْمَرَتَهُ، وَصَيَّرَا عَلَيَّهَا بُخُورًا، وَقَرَّبَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، نَارًا غَرِيبَةً، مَا لَمْ يَأْمُرْهُمْ بِهَا. فَخَرَجَتْ نَارٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَأَكَلَتْهُمَا، وَمَاتَا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ". في الوقت نفسه، شعر كبار حاخامات اليهود أثناء تطرّقهم لدراسة وتفسير موت نَدّاف وأفيهو بحتمية وجود أسباب أخرى تقفُ وراء عقاب الله لهما بهذه الطريقة، بِمعنى أنه لا بُدَّ وأنهما ارتكبا خطيئة أخرى أو أنه يوجد خللٌ مُعينٌ في تصرفاتهما لتبرير وتفسير هذا العقاب الإلهي القاسي الذي حلَّ بهما.

وعند ربطِ عددٍ من الأحداث والآيات التوراتية ببعضها البعض، فقد وضح بعض كبار الحاخامات بأن خطيئتهما كانت تجاوزَ أحد أهمّ الخطوط الحمراء، ألا وهي دخولهما إلى منطقة في

غاية من المشكان، أي منطقة قُدس الأقداس.² في حين اعتقد البعض بأن خطيئتهما قد تكون الأحكام الدينية التي كانا يُطلقانها دون استشارة موسى وأهارون، أو ربما انتهاكهما حرمة منطقة قُدس الأقداس ودخولهما إليهما وهم سُكاري أو ربما دون ارتداء ثوبِ القداسة الذي أمرا بارتدائه، ولعلّ خطيئتهما - بحسب تفسير بعض الحاخامات - كانت دخولهما منطقة قُدس الأقداس دون أن يتطهرا بغسل أنفسهما في حوض الماء المُخصّص لهذا الغرض، ولعلّها تكون حالة العجرفة والغرور التي شعرا بها لدرجة أنهما لم يتزوّجا لاعتقادهما بعدم وجود امرأة ترتقي إلى منزلتهما، أو لعلّها تكون رغبتهما الجامحة في قيادة بني إسرائيل لدرجة أنهما لم يرغبوا بالانتظار حتى وفاة موسى وأخيه الكاهن أهارون.

في الوقت نفسه، رأى بعض الحاخامات أن الخطيئة التي ارتكبتها كلاهما لم تقع في ذلك اليوم، بل ارتكبا تلك الخطيئة قبل بضعة شهورٍ أثناء وجودهما على جبل سيناء، إذ يوضح لنا النصّ التوراتي بأن نَداف وأفيهو برفقة سبعين رجلٍ مُسنين من رجال بني إسرائيل قد صعدوا إلى قمة جبل سيناء ثمّ "نظروا نور إله إسرائيل، ومن دونه. كصنعة بيضاء المهاء وكذات السماء في النقاء. وعلى نقباء بني إسرائيل لم يبعث آفة. فنظروا نور الله وعاشوا، وأكلوا وشربوا" تبعاً لما تذكره الآيتان العاشرة والحادية عشرة من المقطع الرابع والعشرين من سفر الخروج. بالتالي استحقاق عقاب الله عزّ وجلّ لأنهما لم يُغمضا عيونهما رهبةً من نوره، ولأنّهما شرباً وتناولاً طعاماً مُتجاهلين موقفاً كهذا الموقف بهذه الدرجة العظيمة من الزهبة والقداسة، لكنّ فقد أجّل الله عزّ وجلّ عقابهما حتى لا يتسبب ذلك بأي حزنٍ أو أسى في تلك اللحظة العظيمة التي عقّد الله عزّ وجلّ فيها عهدهُ مع بني إسرائيل.³

لكن وبجميع الأحوال تظلّ تلك تفسيراتٍ مدارشية تحملُ في طياتها قدراً من الصحة والمصدقية والأهمية ولا يمكنُ تجاهلها، لكنها بعيدة عما ذكرته الآية التوراتية بهذا الصدد، فقد اقتربت ثلاث مواضع من أصل أربعة جاءت على ذكر حادثة موتهما بما قاما به حين أشعلا "ناراً غريبة" في المشكان. بصريح العبارة، لقد كانت خطيئتهما أنهما قاما بأمر لم يُؤمرا بالقيام به، رغم أنّ الدافع وراء قيامهما نابغ من نوايا حسنة، لهذا خاطب موسى أخيه أهارون بعد موتهما مباشرة قائلاً له: "ابنك أقرب إلى الله مِنِّي ومنك"⁴ بحسب الروايات المدارشية في تفسيرها لما قاله الله عزّ وجلّ في الآية الثالثة من المقطع العاشر من سفر اللاويين: "هَذَا مَا تَكَلَّمُ بِهِ اللَّهُ قَائِلاً: فِي الْقَرِيبِينَ مِنِّي أَتَقَدَّسُ، وَأَمَامَ جَمِيعِ الشَّعْبِ أَتَمَجِّدُ".

في الوقت نفسه فإن الأصل التاريخي لكلمة "enthusiasm" يُساعدنا كثيراً على فهم حادثة موت نَداف وأفيهو، فقد كانت لديهما "حماسة" دينية، لكنها ليست الحماسة بمفهومها الإيجابي في العصر الحديث، بل الحماسة الدينية بمفهومها القديم في القرنين السابع عشر والثامن عشر للميلاد،

2. يستند هذا التفسير إلى ما هو مذكور في الآية الأولى من المقطع السادس عشر من سفر اللاويين، والتي توضح بأن أبناء أهارون اقتربوا أكثر مما يجب عبر دخولهما لمنطقة قُدس الأقداس في المشكان.

3. عوقب الرجال السبعون لاجقاً، لِقراءة المزيد يُرجى قراءة تفسير الحاخام راشي للآية العاشرة من المقطع الرابع والعشرين من سفر الخروج.

4. لقراءة المزيد يُرجى قراءة: (Midrash Aggadah (Midrash Buber)

حين كانت "الحماسة" تملؤ صُدورَ المتحمّسين بالشغفِ الدينيّ لدرجة وصلت بهم إلى الاعتقاد بأنّ الله عزّ وجلّ كان يوحى لهم بما يجب عليهم القيام به من أجل الدّفاع عن القوانين والتشريعات الدينية والعهد الإلهي.

بالتالي كانوا على درجة معينة من القداسة، لكنهم في الوقت نفسه كانوا في مُنتهى الخطر، حيث يرى ديفيد هيوم هذا الشكل من الحماسة على أنه النقيض المُطلق لعقلية الكهنة، موضحاً بأن "أصحاب تلك الحماسة الدينية لم يكونوا خاضعين لقيود رجال الدين، وأظهروا قدراً كبيراً من الاستقلالية في عبادتهم بالتزامن مع ازدرائهم للطرق الخاصة بتأدية الشعائر والمناسك الدينية".

ومن هذا المنطلق، فقد أدرك الكهنة القوّة الكامنة والخطر المُحتمل لما هو مقدّس، لهذا ينبغي أن تكون الأماكن والأوقات والطقوس الدينية المُقدّسة مُحاطة بقوانين وتعليمات صارمة جداً، بنفس الدرجة من الصرامة التي تُحيط بالتعليمات والقوانين الواجب اتباعها في المنشآت النووية. وفي هذا السياق، فلنتذكّر ما وقع في حادثي تشرنوبل في أوكرانيا 1986م وفوكوشيما في اليابان سنة 2011م، حين أدّى الاستهتار بتلك التعليمات الصارمة إلى وقوع كوارثٍ مُروعةٍ يمتدّ تأثيرها على المدى البعيد.

وربّما يبدو لنا بأن جلب "نارٍ غريبة" إلى داخل المشكان المُقدّس هو ذنب بسيط، لكن تصرّفاً ذاتياً داخل إطارٍ دينيٍّ مقدّسٍ كهذا سيُسبّب انتهاكاً لمنظومة القوانين والتشريعات المُقدّسة، الأمر الذي قد يتنامى مع الوقت مُسبباً فجوة كبيرة في تلك المنظومة.

ورغم أن الحماسة الدينية قد تبدو غير مؤذية في العديد من مظاهرها، إلا أنها قد تتحوّل بسرعة البرق إلى عصبيةٍ وتطرفٍ وعُنفٍ مصدره الدين نفسه، وهذا تحدّياً ما حدث في أوروبا خلال الحروب الدينية في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وهو الواقع نفسه الذي تشهده بعض الأديان في يومنا الحالي. ويوضّح ديفيد هيوم في هذا الصدد قائلاً: "المُتحمّسون دينياً يرفضون إملاءات العقل والمنطق والأخلاق كمرجعية لهم، والمُتعضّب والمُختلّ عقلياً هو في حالةٍ من العمى التي تجعله يستسلم للأفكار المتطرفة"، ذلك لأنه يعتقد بأنه يستقبل الوحي مُباشرةً من الله، لكن ما يحدث فعلياً هو أنه يحيط نفسه بقدر عالٍ من الغضبِ المسعور والأهمية الذاتية لنفسه.

وقد أصبحنا نعلم في عصرنا الحالي على نحوٍ مُفصلٍ بأن الدماغ البشريّ مكونٌ من نظامين مُختلفين، وهذا ما يُصنّفه دانيال كانمان على أنه "التفكير السريع والتفكير البطيء". فنظام التفكير السريع (أو الجهاز العصبي الطرفي في الدماغ) يُعطي أولوية للعواطف، خاصة في حالة الخوف والذعر. في حين أن نظام التفكير البطيء (أو قشرة الفصّ الجبهي في الدماغ) هو نظام عقلائيّ منطقيّ تداوليّ قادرٌ على التفكير في العواقب التي قد تخلفها بعض السلوكيات على المدى البعيد. وليس من قبيل الصدفة أن يحظى الإنسان بهذين النظامين في الوقت نفسه، فلن يُكتب لنا البقاء على قيد الحياة دون ردود الأفعال الفطرية أو الغريزية استجابة للمخاطر المُحدقة بنا والتي يولّدها نظام التفكير السريع. ودون وجود نظام التفكير البطيء فإننا سنجد أنفسنا مع مرور الزمن مُنخرطين في أفعال وسلوكيات مُدّمرة للذات والغير على حدٍ سواء. بالتالي فإن السعادة على المستوى الفردي وبقاء الحضارات على قيد الحياة تعتمد كثيراً على وجود حالة من التوازن الدقيق بين النظامين.

ونظراً لأن الحياة الدينية قد تكون سبباً في تحفيز مثل هذه العواطف، فإنها بحاجة ماسة لتفرض قيوداً صارمة فيما يخص القوانين والتشريعات والمناسك الدينية وكافة مظاهر العبادة - المُعقَّدة أصلاً -، وذلك حتى يتم احتواء اللهب الكامن في كل ديانة ليحل محلّه النور الروحاني الذي يُعتبر غيضاً من فيض عظمة الله عزّ وجلّ. وفي حال لم يتحقّق ذلك، فإن هذا النور قد يتحوّل إلى لهيب مُستعرٍ مثل لهيب جهنّم، لهبٌ يحرق الأخضر واليابس ويحصد أرواح البشر بلا هوادة. وبالنسبة لنا في الغرب، فقد تمكّنا من كبح جماح الحَماسة لدرجة أنه لم يعد يُنظر لها سوى كقوّة إيجابية. لكن بجميع الأحوال، لا يجب علينا أن ننسى بأنها لم تكن كذلك طيلة الوقت، ولهذا السبب فإن الديانة اليهودية تضمّ عدداً كبيراً من القوانين والتشريعات، وهي تولى انتباهاً كبيراً إلى أدقّ التفاصيل، فكّما اقتربنا أكثر من الله عزّ وجلّ، كلّما احتجنا لتلك التفاصيل.

تَزْرِيعٌ - مِصْرَاعٌ

هُوَ نَصٌّ مَكُونٌ مِنْ نَصِّينِ اثْنَيْنِ هُمَا النِّصَّ الرَّابِعَ وَالخَامِسَ مِنَ النُّصُوصِ الْأُسْبُوعِيِّ مِنْ كِتَابِ "فَيْقِرَا" (أَيَّ سِفْرِ اللّٰوِيِّينَ)، وَهُمَا يُقْرَأَانِ فِي الْأُسْبُوعِ نَفْسَهُ لِأَنَّ كِلَا النِّصِّينِ يَتَطَرَّقَانِ إِلَى الْقِصَّةِ الْكَامِلَةِ لِمَوْضُوعِ الْمَرَضِ الْغَامِضِ الَّذِي أُطْلِقَتْ عَلَيْهِ التَّوْرَةُ وَصَفَ "التَّصَارِعَاتِ"، وَهُوَ مَرَضٌ يَجْعَلُ مَنْ يَصَابُ بِهِ غَيْرَ طَاهِرٍ مِنْ نَاحِيَةِ رُوحَانِيَّةٍ. يَبْدَأُ نَصُّ "تَزْرِيعٌ" مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَقْطَعِ الثَّانِي عَشَرَ، وَيَنْتَهِي بِالْآيَةِ التَّاسِعَةِ وَالخَمْسِينَ مِنَ الْمَقْطَعِ الثَّلَاثِ عَشَرَ. أَمَّا نَصُّ "مِصْرَاعٌ" فَيَبْدَأُ مِنَ الْآيَةِ الْأُولَى مِنَ الْمَقْطَعِ الرَّابِعِ عَشَرَ، وَيَنْتَهِي بِالْآيَةِ الثَّلَاثَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنَ الْمَقْطَعِ الْخَامِسِ عَشَرَ.

قُوَّةُ التَّشْهِيرِ بِالْآخِرِينَ

بتاريخ العشرين من ديسمبر/كانون الأول من سنة 2013م، كانت هناك فتاة تُدعى جستين ساكو جالسة بانتظار رحلتها المتوجهة إلى أفريقيا في مطار هيثرو الدولي، وحتى تُضَيِّعَ بعض الوقت إلى أن يحين موعدُ الرحلة، نشرت تغريدة لها على موقع تويتر، وكانت تلك التغريدة تحمل في طياتها نوعاً من التشكيك في مخاطر الإصابة بمرض الإيدز. لم يكن هناك تفاعلٌ مع تغريدتها في البداية، لكن ما إن أقلعت الطائرة وحطت في وجهتها حتى اشتعلت عاصفة من التعليقات وردود الأفعال على التغريدة التي نشرتها. فبعد هبوط الطائرة وانتهاء الرحلة التي استغرقت أحد عشر ساعة، اكتشفت بأنها أصبحت حديث الناس على مستوى العالم، وعلى مدى أحد عشر يوماً قام مستخدمو محرك البحث جوجل بالبحث عن اسمها أكثر من مليون مرة، حيثُ وصفها رواد مواقع التواصل الاجتماعي بالعنصرية، ولاحقاً تم تسريحها من عملها. بالتالي تحوّلت بين ليلة وضحاها إلى إنسانةٍ منبوذة تماماً.¹

من ناحية عملية، يبدو وكأنّ وسائل التواصل الاجتماعي على وشك أن تعيد إلى حياتنا ظاهرة اجتماعية قديمة جداً: إنها ظاهرةُ التَّشْهِيرِ بِالْمُذَنْبِ وَفُضْحِهِ وَإِهَانَتِهِ عَلَى الْمَلَأِ. وهناك كتابان يتطرّقان لهذه المسألة، الكتاب الأول هو "إِذَا أَصْبَحْتَ مَفْضُوحاً" (So You've Been Publicly Shamed) للكاتب والصحفي جون رونسون، أما الكتاب الثاني فهو "هل يوجد أيُّ داعٍ للفضيحة؟" (Is Shame Necessary) للكاتبة جنيفر جاكيه،² التي تعتقد بأن الفضيحة والتشهير بالمُذنب أمرٌ جيدٌ، ومن شأنه أن يجعلَ هيئات الدولة ومؤسساتها وأجهزتها تتصرّف بقدرٍ أعلى من المسؤولية على سبيل المثال. في المقابل يتطرّق الكاتب جون رونسون إلى مخاطر وتداعيات هذه الظاهرة، حيثُ تبدأ عملية التشهير بشخصٍ معين وفضحه على الملأ نتيجة قيامه بفعلٍ معيّن في مجتمع يُعتبر جزءاً منه، ثم تتفاقم الأمور ليصل مُستوى التشهير إلى شبكة عالمية تضم عدداً ضخماً من الأشخاص الذين لا يعرفونه ولا يعرفهم ويجهلون السِّيَاقَ الَّذِي حَدِثَتْ بِهِ تِلْكَ الْفِعْلَةُ، بالتالي تُصْبِحُ الْمَسْأَلَةُ وَكَانَ حَشْداً غفيراً من الناس يقومون بشنقٍ مُتَمِّمٍ مُعَيَّنٍ قَبْلَ إِخْضَاعِهِ لِمَحَاكِمَةٍ عَادِلَةٍ.

وعلى أي حال، كانت هذه مُقدمةً من شأنها أن تُساعدنا على فهم الظاهرة المُحيرة التي تطرّق

1. جون رونسون في كتاب 63-86, (London: Picador, 2015) *So You've Been Publicly Shamed*
2. جنيفر جاكيه في كتاب (London: Allen Lane, 2015) *Is Shame Necessary? New Uses for an Old Tool*

لها هذا النصُّ الأسبوعي من نصوص التوراة بالإضافة إلى النص السابق أيضاً: إنها ظاهرة "تَصَارَعَات" بالعبرية، حيثُ تُرجمت هذه الكلمة إلى "مرض الجذام" أو "البَرَص"، في حين ترجمها آخرون على أنها مرضٌ جلديٌّ أو طفحٌ مُعدي. في الوقت نفسه، هنالك إشكالية كبيرة جداً تتعلقُ بربطها بأي مرض من الأمراض الجلدية المعروفة وذلك لعدة أسباب: السبب الأول هو أن أعراض "التصارات" لا تُشبه أعراض مرض الجذام (أو حسب ما هو معروف بمرض هاندسون)، والسبب الثاني هو أن "التصارات" لا تظهرُ على البشر فحسب، بل تظهرُ أيضاً على جدران البيوت والأثاث والملابس، ولا يوجدُ أي مرض أو داء يفعلُ ذلك. أضف إلى ذلك أن التوراة هي كتابٌ دينيٌّ يتطرَّق للقضايا المقدسة والتشريعات والقوانين الدينية، وليست كتاباً طبياً، وحتى لو افترضنا أن التوراة تتطرَّق للمسائل الطبية، فإن طريقة انتشار "التصارات" آنذاك لا تتشابه مع طريقة انتشار أي مرضٍ آخر في حال كانت "التصارات" مرضاً مُعدياً، مثلما وضح الحاخام ديفيد تسفي هوفمان في أحد دروسه الدينية. والسبب الأخير هو أن "التصارات" بحسب وصفها المذكور في التوراة هي حالةٌ لا تجلبُ المرضَ لمن يُصاب بها، لكنها تجعله غير طاهرٍ "طُمَاه" (طُمَاه كلمة عبرية تصفُ حالة التَّجاسة وعدم الطهارة)، وحالة عدم الطهارة تختلفُ كلياً عن حالة الإصابة بالمرض.

وقد نجح كبار حاخامات اليهود في فكِّ شيفرة هذا الغموض المُحيط بظاهرة "التصارات" المذكورة في هذا النصِّ الأسبوعي، وذلك عبر ربط هذه الحادثة بحوادث ومواقف أخرى ذكرتها التوراة لأشخاص ظهرت عليهم "التصارات"، وعلى رأسهم النَّبِيُّ مِريَام/مَرْيَم (شقيقة موشيه\موسى وأهارون\هارون) التي ظهرت عليها عندما تكلمت عن أخيها موشيه كلاماً سيئاً، بحسب ما تذكر الآيات 1-15 من المقطع الثاني عشر من سفر العدد. والحادثة الثانية هي إصابة موشيه نفسه بـ "التصارات" أثناء معجزة العليقة المُشتعلة عندما خاطب الله عزَّ وجلَّ قائلاً له بأن بني إسرائيل لن يؤمنوا به (أي بالله)، فصارت يدهُ "جذمةً بيضاء كالثلج" (بحسب ما تذكر الآية السادسة من المقطع الرابع في سفر الخروج). بالتالي اعتبر كبار حاخامات أن ظهور "التصارات" هو عقابٌ إلهيٌّ على ما يُسمى في الديانة اليهودية بـ "لشون هَراع"، بمعنى الغيبة والنميمة والكلام عن الآخرين بطريقة سيئة أو بطريقة فيها احتقارٌ أو ازدراءٌ لهم.

في الحقيقة، فإنَّ هذا التفسير قد ساعد كثيراً على فهم السبب الكامن وراء ظهور أعراض التصارات (مثل ظهور العفن واختلاف اللون) على جدران البيوت والأثاث والملابس بالإضافة إلى ظهورها على جلد المصاب، حيثُ كان ظهورها بمثابة تسلسل تدريجي يبدأ بالتحذير وينتهي بالعقاب. لقد أراد الله عزَّ وجلَّ من خلال هذا التدرج في العقاب أن يُرسل تحذيراً لمن يرتكبُ إثم الغيبة والنميمة عبر إرسال إشارة له تتمثل في ظهور العفن على جدران بيته، وفي حال توقَّف عن الغيبة والنميمة فإن الأمور ستتوقف عند هذا الحد، لكن في حال لم يتوقف فإن العفن سيواصلُ الظهور على أثاث بيته، ثم ملابسه، وأخيراً على بشرته. والسؤال الذي يطرحُ نفسه هنا: لماذا هذا العقابُ تحديداً للغيبة والنميمة؟ ولماذا اعتُبرت الغيبة والنميمة بهذه الخطورة لدرجة أن عقابها ظهرَ على مرتكبها بهذه

*ملاحظة توضيحية من المُترجم: بيّن كبار حاخامات اليهود وجود سبعة أسبابٍ قد تؤدي إلى إصابة المرء بـ "التصارات"، وهذه الأسباب هي: لشون هَراع، والقَتْل، واليَمِين الكاذب، وإقامة العلاقات الجنسية المُحزّمة، والتكبرُ، والسَّرقة، والخسَد (باب غراخين 16 - أ). في المقابل، تُركِّز التفاسير المِدرashiّة على أن "التصارات" هي عقابٌ إلهيٌّ لمن يرتكبُ "لشون هَراع" مثلما أكّد الكثير من المفسرين اليهود.

الطريقة الغريبة؟ ولماذا حُصِّصَ لها هذا العِقَابُ على وجه التحديد؟

لقد فرّقت عالمة الأنثروبولوجيا روث بِنْدِكْت خلال كتابها "الأقحوان والسيف" بين نوعين من الثقافة: ثقافة الذنب وثقافة الشرف، وقد كان لها الفضل في التعريف بالفروق البارزة بين الثقافتين.³ إن الثقافة اليونانية القديمة هي ثقافة تقوم على أساس الشرف والعار، تماماً كما هو الحال في الثقافة اليابانية. أما اليهودية والأديان التي تأثرت بها (وعلى رأسها المذهب المسيحي الكالفييني) هي أديان تقوم على ثقافة الذنب، والفرق بين الثقافتين شاسع جداً، فما تركز عليه ثقافة الشرف هو حكم الآخرين على الفرد ونظرتهم له، والالتزام بأخلاقيات وضوابط هذا النوع من الثقافة يعني الالتزام بالقوانين العامة والأدوار والتوقعات المطلوبة من الفرد.

بمعنى أن الفرد في هذه الثقافة يفعل ما يتوقع الآخرون منه أن يفعله، وهو أن يلتزم بما يطلبه منه المجتمع الذي تسود فيه هذه الثقافة، وفي حال فشل الفرد بالالتزام بما يجب عليه الالتزام به فإن المجتمع يعاقبه من خلال نبذِه وفضحه والتشهير به على الملأ، هذا عدا عن إهانته والسخرية منه ومقاطعته. أما في ثقافة الذنب فالحال مختلف تماماً، لأن ما تركز عليه هذه الثقافة ليس له علاقة بالطريقة التي يراك الناس بها، بل تركز على ما يُمليه عليك ضميرك. والالتزام بأخلاقيات ثقافة الذنب يعني التصرف انطلاقاً من الوازع الداخلي والأخلاقيات الذاتية النابعة من الفرد ذاته ومن الآخرين أحياناً، والتي تقوم على مبدأ "افعل هذا" و "لا تفعل هذا"، والمهم بنهاية المطاف هو قدره المرء الذي ينتمي لهذه الثقافة على التفريق بين الخطأ والصواب.

أما بالنسبة للأفراد الذين ينتمون لثقافة الشرف فإنهم موجهون من قبل الآخرين، وما يكثرثون به فعلاً هو شكلهم في عيون الآخرين، أو حسب ما صار متعارفاً عليه في وقتنا الحالي بـ "صورتهم" في عيون الآخرين. في حين أن الأفراد الذين ينتمون لثقافة الذنب هم موجهون من ذاتهم فقط، لا من الآخرين، وما يكثرثون به فعلاً هو صورتهم في عيون أنفسهم خلال لحظات الصدق مع النفس، وحتى لو كانت صورتهم أمام المجتمع صورة حسنة، فإنهم حين يرتكبون ذنباً معيناً فهم يشعرون بحالة من الاضطراب وعدم الارتياح لدرجة قد تُورِّق مَضْجَعهم ليلاً، تماماً مثلما قال شكسبير في مسرحيته ريتشارد الثالث: "إِنَّ لَصَمِيرِي أَلْفَ لِسَانٍ، وَكُلُّ لِسَانٍ يَخِي قِصَّةً: وَكُلُّ قِصَّةٍ تَنْطِقُ بِأَيِّ شَرِيرٍ".⁴ بمعنى آخر، فإن العار الذي يشعر به المرء في ثقافة الشرف هو بمثابة إهانة بالنسبة له، في حين أن الذنب الذي يشعر به المرء في ثقافة الذنب هو عذاب نفسي في حد ذاته.

إن ثقافة الذنب في الديانة اليهودية نابعة من فهمها العميق لطبيعة العلاقة بين الله والبشرية، فالديانة اليهودية لا تنظر للفرد على أنه مُمْتَلٌ واقفٌ على خشبة المسرح أمام جمهور المجتمع، وليس هذا الجمهور هو الذي يحكم عليه أو يُقيّم أداءه، لأنه بإمكاننا أن نخدع المجتمع، لكن ليس بإمكاننا أن نخدع الله عزّ وجلّ، فالتظاهر والأنفة والأقنعة وتقمّص الشخصيات وعمليات التجميل للصورة التي يظهر بها الفرد في المجتمع جميعها أمورٌ ليس لها أي قيمة في العلاقة مع الله عزّ وجلّ، وهذا ما تؤكد عليه الآية السابعة من المقطع السادس عشر من سفر شموئيل الأول:

3. لقراءة المزيد حول موضوع ثقافة الشرف وثقافة الذنب بإمكانكم قراءة مقالة "فن الإصغاء" التي تتطرق للنص الأسبوعي "بريشيت"، الموجودة في بداية الكتاب.

4. وليام شكسبير في مسرحيته "ريتشارد الثالث"، الفصل الخامس، المشهد الثالث.

"لَا تَنْظُرُ إِلَى مَنَظَرِهِ وَطُولِ قَامَتِهِ لِأَنَّ قَدْ رَفَضْتَهُ. لِأَنَّهُ لَيْسَ كَمَا يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ. لِأَنَّ الْإِنْسَانَ يَنْظُرُ إِلَى الْعَيْنَيْنِ، وَأَمَّا اللَّهُ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ إِلَى الْقَلْبِ".

وعليه فإن ثقافة الشرف هي ثقافة جماعية تقوم على انضباط الفرد وامتناله لما يُمليه عليه المُجتمع، في حين أن ثقافة الذنب هي نقيض ذلك، فَالثقافة اليهودية باعتبارها أحدَ أبرز النماذج على هذه الثقافة تُركّز على الفرد ودوره في العلاقة مع الله عزّ وجلّ، وليس من المهم في هذه الثقافة أن يلتزم المرء بالضوابط والإملاءات التي تفرضها عليه ثقافة العصر، بل المهم هو أن يفعل الصواب ويلتزم بالعدل وإحقاق الحقّ.

إنّ ظاهرة "التصارعات" والأحكام المحيطة بها تجعلها أمراً في غاية الذهول، وتبعاً لتفسيرات كبار الحاخامات فهي تُجسّد ظاهرة نادرة جداً في التوراة لأنها عقابٌ عن طريق الفضح والتشهير على الملأ، أي العقاب الخاص بثقافة الشرف، لا بثقافة الذنب. كما أن ظهور العفن واختلاف الألوان على جدران منزل المُعاقب هو بمثابة إشارة عامة لذنوب خاص، وكأنها إشارة لكل من سكن أو زار هذا المنزل تقول لهم: "هناك أمور سيئة جداً قيلت في هذا المكان". وشيئاً فشيئاً تبدأ تلك الإشارات بالاقتراب من المُذنب نفسه، فتبدأ بالظهور بالقرب من كُرسِيّه وسريره ثم على ثيابه وأخيراً على بَشْرته، لينتهي به المطافُ فيُصبح غيرَ طاهرٍ بحسب ما نُخبرنا الآيات 45-46 من المقطع الثالث عشر من سفر اللاويين:

"وَالْأَبْرَصُ الَّذِي فِيهِ الصَّرْبَةُ، تَكُونُ ثِيَابُهُ مَشْفُوقَةً، وَرَأْسُهُ يَكُونُ مَكْشُوفًا، وَيُعْطَى شَارِبِيّه، وَيُنَادَى: نَجِسٌ، نَجِسٌ. كُلَّ الْأَيَّامِ الَّتِي تَكُونُ الصَّرْبَةُ فِيهِ يَكُونُ نَجِسًا، إِنَّهُ نَجِسٌ، يُقِيمُ وَحْدَهُ، خَارِجَ الْمُعَسْكَرِ يَكُونُ مُقَامَهُ".

ولو فكّرنا في الآيتين السابقتين لوجدنا أنّهما تختزلان في طيّاتهما التعبيرات النموذجية للفضح والتشهير: أولاً، وصمة العار، بمعنى العلامات الظاهرة التي تُظهر للملأ بأن هذا الشخص ارتكب أمراً مُعيباً أو مُشيناً (وفي هذا السياق فإن العلامات هي الملابس الممزقة والشعر المكشوف الأشعث... إلخ). ثانياً، النَبْدُ والمُقَاطعة، وهذا يتمثل في الإقصاء المؤقت من المشاركة في الأعمال الاعتيادية للمُجتمع، وهو أمر لا يتعلّق بإصابة المُذنب بمرضٍ معيّن بقدر ما يتعلّق بحالة الرّفص الاجتماعي لهذا المُذنب.

إنّ هذه النقاط تُصعّب من عملية فهم مسألة "التصارعات" في البداية، لأنها ومثلما ذكرنا سابقاً واحدة من الحوادث النادرة التي تتعلّق بالتشهير بالمُذنب وفضحه على الملأ بالرغم من أن الثقافة اليهودية هي ثقافة من ثقافات الذنب وليست من ثقافات الشرف والعار.⁵ لكن في المُقابل، لا بدّ للعقاب أن يكون بهذا الشكل، ليس لأن المُجتمع هو الذي عبّر عن رفضه لمن يرتكب الغيبة والنميمة، بل لأنّ الله عزّ وجلّ هو الذي أراد أن يُرسل رسالةً للمُجتمع طالباً منه القيام بذلك.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا هذا العقاب تحديداً لذنوب "أشون هراع" (الغيبة والنميمة)؟ الإجابة باختصار تتمثل في أنّ الكلام هو الذي يجعل المُجتمع مُترابطاً، حيث

5. هنالك موضع آخر مُشابه تبعاً لما يذكره الحاخام يوحنا بن زكاي، وهو وسم أذن العبد الذي يرفض أن يكون حُرّاً بعد أن تنتهي مدة عبوديته، بحسب ما تذكر الآية السادسة من المقطع الواحد والعشرين من سفر الخروج. لقراءة المزيد حول هذه النقطة بإمكانكم قراءة تفسير الحاخام راشي في باب القيدوشين، 22 - ب.

وَضَحَّ عُلَمَاءُ الأَنْثْرُوبُولُوجِيَا (عِلْمُ الْإِنْسَانِ) بِأَنَّ اللِّغَاتِ ظَهَرَتْ وَتَطَوَّرَتْ بَيْنَ الْبَشَرِ تَحْدِيداً مِنْ أَجْلِ تَقْوِيَةِ الأَوَاصِرِ وَالْعِلَاقَاتِ الَّتِي تَرْبِطُهُمْ بِبَعْضِهِمُ الْبَعْضَ، الأَمْرُ الَّذِي سَيُمْكِنُهُمْ مِنَ الْمُسَاهِمَةِ سَوِيّاً فِي بِنَاءِ مُجْتَمَعَاتٍ أَكْبَرَ مِنْ تِلْكَ الَّتِي تَبْنِيهَا سَائِرُ الْحَيَوَانَاتِ الأُخْرَى. وَمَا يُضْفِي طَابِعَ الْإِسْتِقْرَارِ عَلَى عَمَلِيَةِ الْبِنَاءِ تِلْكَ هُوَ وَجُودُ الثَّقَّةِ بَيْنَ أَوْلَادِ المُجْتَمَعِ، بِالتَّالِيِ تَشْجِيعُ الْفَرْدِ عَلَى التَّضْحِيَةِ مِنْ أَجْلِ الْغَيْرِ حِينَ يَعْلَمُ فِي قَرَارِهِ نَفْسَهُ أَنَّ بَاقِي أَوْلَادِ المُجْتَمَعِ مُسْتَعِدُونَ لِلتَّضْحِيَةِ بِالمِثْلِ حَيْثُ يَتَطَلَّبُ الأَمْرُ ذَلِكَ.

وَإِنِّطَاقاً مِنْ هَذِهِ الْفِكْرَةِ، فَإِنَّا نَجِدُ الْخَطَرَ المُدْمِرَ الْكَامِنَ فِي "لَشُونِ هَرَاعٍ" (الْغِيْبَةِ وَالنَّمِيْمَةِ): إِنَّهَا تُقَوِّضُ وَتُزْعِزُ حَالَةَ الثَّقَّةِ بَيْنَ أَوْلَادِ المُجْتَمَعِ الْوَاحِدِ، وَتَجْعَلُهُمْ فِي حَالَةٍ مِنَ الشَّكِّ وَالرِّيْبَةِ حِيَالِ بَعْضِهِمُ الْبَعْضَ، كَمَا أَنَّهَا تُضْعِفُ الرُّوَابِطَ الَّتِي تَجْعَلُ الْمَجْمُوعَةَ الْوَاحِدَةَ مَتَمَاسِكَةً وَقَوِيَّةً. وَفِي حَالٍ لَمْ يَوْضِعْ حَدًّا يُعَالِجُ ظَاهِرَةَ "لَشُونِ هَرَاعٍ" فَإِنَّهَا سَتُدْمِرُ أَيَّ مَجْمُوعَةٍ تَظْهَرُ فِيهَا، سَوَاءٌ كَانَتْ فَرِيْقاً أَوْ عَائِلَةً أَوْ مُجْتَمِعاً أَوْ حَتَّى شَعْباً بِأَكْمَلِهِ. مَعَ الأَخْذِ بِعَيْنِ الْإِعْتِبَارِ أَنَّ الْغِيْبَةَ وَالنَّمِيْمَةَ تَرْتَكِرُ عَلَى مَيِّزَةٍ خَبِيْثَةٍ جَدّاً، وَهِيَ اسْتِخْدَامُهَا لِقُوَّةِ اللِّغَةِ مِنْ أَجْلِ إِضْعَافِ السَّبَبِ الرَّئِيسِيِّ وَرَاءَ وَجُودِ اللِّغَةِ، أَلَا وَهُوَ الثَّقَّةُ الَّتِي تَجْعَلُ الرُّوَابِطَ الْاجْتِمَاعِيَّةَ بَيْنَ الأَفْرَادِ فِي حَالَةٍ مِنَ الثَّبَاتِ وَالْإِسْتِقْرَارِ.

لِهَذَا كَانَ الْعِقَابُ لِمَنْ يَقُومُ بِالْغِيْبَةِ وَالنَّمِيْمَةِ "لَشُونِ هَرَاعٍ" هُوَ الْإِقْصَاءُ الْمُؤَقَّتُ لِمَرْتَكِبِهَا مِنَ المُجْتَمَعِ عِبْرَ التَّشْهِيرِ بِهِ عَلَى الْمَلَأِ (مِنْ خِلَالِ الْعِلَامَاتِ الَّتِي تَظْهَرُ عَلَى جِدْرَانِ مَنْزِلِهِ وَأَثَاثِهِ وَمَلَابِسِهِ وَبَشَرَتِهِ)، ثُمَّ إِظْهَارُ وَصْمَةِ الْعَارِ عَلَى مَلَامِحِهِ (مِنْ خِلَالِ مَلَابِسِهِ الْمُمَرَّقَةِ وَشَعْرِهِ الْأَشْعَثِ وَغَيْرِهَا)، وَأَخِيراً النَّبْذُ وَالْمُقَاطَعَةُ (مِنْ خِلَالِ إِجْبَارِهِ عَلَى الْعَيْشِ خَارِجَ الْمُعْسَكَرِ الَّذِي أَقَامَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ). فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، مِنَ الصَّعْبِ جَدّاً بَلَّ وَرَبَّمَا مِنَ الْمَسْتَحِيلِ أَنَّ يُعَاقَبَ النَّمَامُ الْخَبِيثُ مِنْ خِلَالِ مَنْظُومَةِ الْقَوَانِينِ وَالتَّشْرِيعَاتِ الْمَعْمُولِ بِهَا فِي الْمَحَاكِمِ، وَيَسْتَحِيلُ أَيْضاً عِقَابُهُ عِبْرَ تَأْنِيْبِ الضَّمِيرِ (آلِيَةُ الْعِقَابِ فِي ثِقَافَةِ الذَّنْبِ)، فَالْمَحَاكِمُ قَدْ تُعَاقَبُ مِنْ يُدَانَ بِالتَّشْهِيرِ مِثْلاً (أَوْ حَسَبِ مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ بِمِصْطَلَحِ "مُوتْسِي شِيم رَاعٍ")، لِأَنَّ التَّشْهِيرَ مَبْنِيٌّ عَلَى إِسْنَادِ إِتِهَامَاتٍ بَاطِلَةٍ بِحَقِّ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ، فِي حِينٍ أَنَّ تَهْمَةَ الْغِيْبَةِ وَالنَّمِيْمَةِ فَضْفَاضَةٌ إِلَى حَدِّ مَا وَقَدْ تُرْتَكَبُ بِطَرِيقَةِ التَّلْمِيْحِ وَالْإِيْحَاءِ، بِالتَّالِيِ مِنَ السَّهْلِ جَدّاً تَشْوِيهِ سُمْعَةِ أَيِّ شَخْصٍ عِبْرَ نَشْرِ الأَكَاذِيْبِ عَنْهُ، وَمَنْ يُتَّهَمُ بِنَشْرِ الأَكَاذِيْبِ وَ "لَشُونِ هَرَاعٍ" بِحَقِّ ذَلِكَ الشَّخْصِ سَيَكُونُ بِإِمْكَانِهِ بِكُلِّ سَهُولَةٍ أَنْ يَتَمَلَّصَ مِنَ الأَمْرِ قَائِلاً: "أَنَا لَمْ أَقُلْ ذَلِكَ"، أَوْ "لَمْ أَقْصِدُ أَنْ أَقُولَ ذَلِكَ، وَحَتَّى إِنْ قُلْتُ ذَلِكَ فَإِنِّي لَمْ أَقُلْ أَمراً مَغْلُوطاً".

لِهَذَا فَإِنَّ أَفْضَلَ طَرِيقَةَ لِلتَّعَامُلِ مَعَ مَنْ يُسَمِّمُونَ وَيُدْمِرُونَ الْعِلَاقَاتِ الْاجْتِمَاعِيَّةَ بَيْنَ الْبَشَرِ بِهَذَا الشَّكْلِ هُوَ تَحْدِيدُهُمْ أَوَّلًا، ثُمَّ فَضْحُهُمْ ثَانِيًا، وَإِقْصَاؤُهُمْ وَنَبْذُهُمْ ثَالِثًا. وَتَبَعاً لِكِبَارِ حَاخِمَاتِ الْيَهُودِ، فَإِنَّ هَذَا بِالضَّبِطِ مَا فَعَلْتَهُ "تِصَارَاعَاتٍ" بِمُنْتَهَى الْإِعْجَازِ فِي السَّابِقِ. فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، فَإِنَّ هَذِهِ الظَّاهِرَةَ لَمْ تُعَدْ مَوْجُودَةً فِي وَقْتِنَا الْحَالِيِ بِالشَّكْلِ الَّذِي وَصِفْتُ بِهِ فِي التَّوْرَةِ، إِلَّا أَنَّ مَا نَشْهَدُهُ حَالِيًا مِنْ اسْتِخْدَامِ الْإِنْتَرْنِتِ وَوَسَائِلِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِي كَأَدْوَاتٍ لِلْفُضْحِ وَالتَّشْهِيرِ بِالْأَخْرِينِ عَلَى الْمَلَأِ، يُظْهَرُ لَنَا قُوَّةَ ثِقَافَةِ الشَّرْفِ مِنْ جِهَةٍ، وَمَخَاطِرُهَا مِنْ جِهَةٍ ثَانِيَّةٍ. فَالتَّوْرَةُ نَادِرًا مَا اسْتِخْدَمَتْ هَذَا الأَسْلُوبَ، وَحَتَّى حِينَ تَحَدَّثَتْ عَنْ "المِصْرَاعِ" (أَيَّ الشَّخْصِ المُصَابِ بِالتَّصَارِعَاتِ) فَقَدْ وَصَّحَتْ بِأَنَّ الْعِقَابَ جَاءَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا مِنَ المُجْتَمَعِ، لَكِنَّ الْعِبْرَةَ مِنْهَا تَطَّلُ بِأَقْيَسٍ حَتَّى يَوْمِنَا هَذَا، فَالْغِيْبَةُ وَالنَّمِيْمَةُ الْخَبِيْثَةُ "لَشُونِ هَرَاعٍ" تُزْعِزُ الْعِلَاقَاتِ الْبَشَرِيَّةَ وَتُؤَدِّيْ إِلَى تَفْكَكِ الرُّوَابِطِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَفُقْدَانِ الثَّقَّةِ بَيْنَ النَّاسِ، لِهَذَا يَسْتَحِقُّ مُرْتَكِبُهَا أَنْ يُشَهَّرَ بِهِ وَيُفْضَحَ عَلَى الْمَلَأِ حَتَّى يَكُونَ عِبْرَةً لِمَنْ اعْتَبَرَ.

لِهَذَا، إِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَغْتَابَ النَّاسَ، وَابْتَعِدْ قَدْرَ المُسْتِطَاعِ عَمَّنْ يَسِيرُونَ فِي دَرَبِ الْغِيْبَةِ وَالنَّمِيْمَةِ.

أَحْرِي مُوثُ

هو النصُّ الأسبوعي السادس من كتاب "فَيْقِرَا" (أي سفر اللاويين)، وهذا النصُّ الأسبوعي يبدأ من الآية الأولى من المقطع السادس عشر، وينتهي بالآية الثلاثين من المقطع الثامن عشر.

الجُرْأَةُ عَلَى الاعْتِرَافِ بِالْخَطَأِ

في مُستهلِّ حديثي عن موضوع هذا النصِّ الأسبوعيِّ من نصوص التوراة، أريدُ أن أستحضرَ زيارةَ السفير الأمريكي في بريطانيا فيليب ليدر لي قبل بضعة سنوات، فخلال تلك الزيارة تجاذبنا أطراف الحديث وحدثني عن مشروع بادِرٍ إليه هوَ وزوجته عام 1981م، حيثُ أدركوا حينها بأن الكثير من أبناء جيلهم أصبَحوا ينبوؤون مناصبَ مرموقة وحساسة في الدولة، ورَبَّما يكونُ من المُجدي أن يلتقوا مع بعضهم البعض بشكلٍ دوريٍّ لإقامة جلسات حوارٍ ونقاشٍ يتشاركون ويتبادلون فيها الأفكار ويستمعون للخبرات والتجارب ويطبقون علاقات صداقة بينهم، إضافة إلى التفكير بشكلٍ جماعيٍّ في التحدّيات التي قد تواجههم في السنوات القادمة. وبالفعل، بدأ السِّفيرُ وزوجته بهذا المشروع وأطلقوا عليه اسم "Renaissance Weekends" (بمعنى لقاءات خلال نهايات الأسبوع من أجل تحقيق النهضة)، وهذه اللقاءات لا زالت مُستمرة حتى وقت كتابة هذه المقالة. لكن كان أكثر جانبٍ مُثيرٍ للاهتمام من وجهة نظري - بحسب ما أخبرني السِّفير - هو ما اكتشفهُ السفير وزوجته عن المشاركين في المشروع، فرغم أنهُم جميعهم أشخاصٌ مُميّزون واستثنائيّون في مهاراتهم وقدراتهم، لكن يوجدُ قاسمٌ مُشترك يجمع بينهم جميعاً، ألا وهو صعوبة اعترافهم بالأخطاء التي يرتكبونها.

لقد أدركَ السِّفيرُ وزوجته وجود أمرٍ في غاية الأهمية ينبغي عليهم التعرف عليه، حيثُ يتوجَّبُ على القادة على وجه الخصوص أن يتمتّعوا بالقدرة على الاعتراف بأخطائهم عندما يرتكبونها ومن ثمَّ ينبغي عليهم تصحيحها. ومن هذا المُنطلق خطرت ببال السفير وزوجته فكرةٌ ذكيّة جداً، حيثُ خصّصوا فقرةً مُحددة من اللقاءات التي تُعقد في نهاية كلِّ أسبوع بحيثُ تتحدّث فيها شخصية بارزة في مجالٍ معيّن، وأطلقوا على هذه الفقرة عنوان "My biggest blooper" (بمعنى أكبرُ خطأ فاضح ارتكبته). وكوني بريطانياً لا أمريكياً، فإنني لم أفهم معنى كلمة "blooper"، لهذا كنتُ مضطراً للبحث عن ترجمةٍ لهذه الكلمة، فوجدتُ أنها تعني "الخطأ الفاضح" أو الخطأ المُشين"، بمعنى آخر فإن هذه الكلمة تعني حدوثُ أمرٍ لم يكن يجب أن يحدث، فيشعرُ مُرتكبه بالخجل من الاعترافِ بأنّه قام به.

في الحقيقة فإن هذه الفكرة على وجه التحديد تمثّلُ جوهر "يوم كيפור" (يومُ الغُفران) في الديانة اليهودية، وحينَ نعود إلى حُقبة بيت المقدس (الهيكل اليهودي) وكذلك زمن المشكان، فإننا نجدُ أن كبير الكهنة كان يقوم في يوم الغفران بالتكفير عن خطاياهِ أولاً، ثم عن خطايا "عائلته وأسرته المُقرّبة"، ثم عن خطايا بني إسرائيل كافة. ومنذ اللحظة التي دُمّر فيها الهيكل اليهودي لم يعد لدينا

كبيرٌ للكهنَةِ، ولم نَعُدْ نُمارِسُ الشعائرَ والمناسِكَ الدينيَّةِ التي كانت تُتَّبَعُ في يومٍ عظيمٍ كيومِ الغُفرانِ، لكننا لا زِلنا نَمِلُكَ المُناسِبَةَ نفسِها ولا زِلنا نَمْتَلِكُ القُدْرَةَ على الاعْتِرَافِ بخطايانا ونحنُ متضَرِّعونَ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ طالِبِينَ مِنْهُ الغُفرانِ. وحينَ نرى النَّاسَ من حولنا يعترفونَ بذنوبهم وأخطائهم فإنه سيُصبحُ من السهلِ علينا أن نَفعلَ ذلك، وإذا كان أكبرُ الكهنَةِ أو أبرَزُ شخصيَّةٍ دينيَّةٍ قادِرًا على الاعْتِرَافِ بخطاياهم وذنوبهم فهذا يَعني أن أي إنسانٍ آخرَ بمقدوره القيامُ بذلك.

وقد وضحْتُ عبرَ مقالةٍ أُخرى مُرتبطةٍ بهذا السياقِ (أعني مُقدمةُ كُتَيْبِ الأدعيةِ والصلواتِ الخاصَّةِ بيومِ الغُفرانِ) بأنَّ الانتقالَ من أوَّلِ يومِ غُفرانٍ شَهِدَهُ التاريخُ اليهوديُّ إلى يومِ الغُفرانِ القادمِ من السنةِ التَّاليةِ يُمثَلُ نقلَةً نوعيَّةً وهامَّةً في عالمِ الروحانيَّةِ اليهوديَّةِ، فأوَّلُ يومِ غُفرانٍ في التاريخِ اليهوديِّ كان بمثابةَ تَتويجٍ لجهودِ نبيِّ الله ورسوله موشيه/موسى من أجلِ نيلِ المغفرةِ الإلهيَّةِ لخطيئةِ بني إسرائيلِ في حادثةِ العجلِ الذهبيِّ، وذلكَ تبعاً لما تُخبرنا به المقاطعُ 32-34 من سفرِ الخروجِ، حيثُ بدأ موشيه التضرُّعُ إلى الله في السابعِ عشرَ من شهرِ تموزِ تبعاً للتقويمِ اليهوديِّ، وانتهى في العاشرِ من شهرِ تِشْرِيهِ، وفي هذا اليومِ نَزَلَ موشيه عن قَمَّةِ جبلِ سيناءِ مُصطحباً معه الزوجَ الثاني من ألواحِ العَهْدِ (بعد أن كسرَ الزوجَ الأوَّلِ في المرةِ السَّابِقةِ) والتي كانت بمثابةَ موافقةٍ إلهيَّةٍ على تجديدِ العَهْدِ مع بني إسرائيلِ، لهذا فإنَّ تاريخَ العاشرِ من شهرِ تِشْرِيهِ هو تاريخُ حُلُولِ عيدِ الغُفرانِ الذي يُحييهِ اليهودُ في كلِّ عامٍ. وهذا كان أوَّلُ عيدِ غُفرانٍ شَهِدَهُ التاريخُ اليهوديُّ، أما يومِ الغُفرانِ التَّالي في السنةِ التَّاليةِ فقد تضمَّنَ سلسلةً من المناسِكَ والشعائرِ الدينيَّةِ التي وضحها المقطعُ السادسُ عشرَ من سفرِ اللّٰوِيِّينَ، والتي أُقيمتَ جميعها في المشكانِ بِرِئاسةِ أهَارونَ/هارونِ باعتباره الكاهنِ الأكبرِ لبني إسرائيلِ آنذاك.

إنَّ الفرقَ بينَ اليوميِّينَ شاسِعٌ جدًّا، فموشيه تصرَّفَ انطلاقيًّا من كونه نبيًّا ورسولاً لله عَزَّ وَجَلَّ، أما أهَارونَ فتصرَّفَ باعتباره كاهنًا. كما أن موشيه كان يَرْتَجِلُ مُتَّبَعًا قلبه وعقله في مُستَهلِّ رَدوده على الله عَزَّ وَجَلَّ، أما أهَارونَ فقد كان يَتَّبِعُ مناسِكَ وشعائرَ دينيَّةٍ مُحددةٍ ودقيقةٍ جدًّا، وكلُّ تَفْصِيلَةٍ من تفاصيلِ تلكِ الشعائرِ كانت منسَّقةً ومُخطَّطًا لها من قبل. أضفَ إلى ذلكَ أن لقاءَ موشيه مع الله عَزَّ وَجَلَّ كان لغايةٍ مُحددةٍ، فكانَ هذا اللقاءُ بمثابةَ دراما نادرةِ الحدوثِ والتكرارِ بينَ السماواتِ والأرضِ، أما أهَارونَ فكانَ في موقفٍ مُختلفٍ تمامًا، فالقوانينُ والتعليماتُ التي كان يَتَّبِعها لم تتغيَّرَ أبدًا وكانت تتكرَّرُ في كلِّ عامٍ وتنتقلُ من جيلٍ لآخرٍ خلالَ فترةِ وجودِ الهيكلِ اليهوديِّ.

في الوقتِ نفسه، فإن دُعَاءَ موشيه وتضرُّعَهُ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ بالنيابةِ عن بني إسرائيلِ كان يَتَّسِمُ بالجُرْأَةِ والجَسَارَةِ، وهي سماتٌ وصفها كبارُ حاخاماتِ اليهودِ بعبارَةِ "حوتسپا كلاپيه شَمَايا" (بمعنى الجُرْأَةُ صَوْبَ السَّمَاوَاتِ)، وذلكَ لأنَّ هذا اللقاءَ قد بَلَغَ ذُرْوَتَهُ بعد أن قالَ موشيه هذه العباراتِ مُخاطِبًا الله عَزَّ وَجَلَّ: "وَالآنَ إِنَّ عَقْرَتَ خَطِيئَتِهِمْ، وَإِلَّا فَاْمُنَحْنِي مِنْ دِيوَانِكَ الَّذِي كَتَبْتَهُ، فَاسْتَرِيحْ" تبعاً لما تذكرهُ الآيَةُ الثَّانية والثلاثين من المقطعِ الثاني والثلاثين من سفرِ الخروجِ. في المُقابلِ، نجدُ أن أهَارونَ كان يُوَدِّي تلكَ المناسِكَ في حالةٍ تتسَّمُ بالخُضوعِ والتواضِعِ والاعْتِرَافِ بالذنبِ، لهذا كانت هناكَ مناسِكَ للتطهيرِ وتقديمِ القرابينِ وتكفيرِ عن خَطَايَاهُ هو شخصيًّا وخطايا عائلته وأسرته المُقَرَّبَةِ بالإضافة إلى خطايا بني إسرائيلِ كاقَّة.

بالتالي فقد كان الانتقال من أول يوم عُفْرَانٍ شَهْدُهُ التاريخ اليهوديَّ إلى يوم العُفْرَانِ القادم من السنة التالية بمثابة حدثٍ كلاسيكي وصفهُ عالم الاجتماع والفيلسوف المعروف ماكس وِبر ضمنَ مبدأ "روتينية الكاريزما"، بِمَعْنَى أَنْ نَأْخُذَ لِحْظَةً فَرِيدَةً أَوْ مَوْقِفًا نَادِرًا ثُمَّ نُتَرْجِمُهُ إِلَى عَادَةٍ تُصْبِحُ تَجْرِبَةً مِنْ تَجَارِبِ الذَّرْوَةِ الَّتِي تُشَكِّلُ جُزْءًا رَئِيسِيًّا مِنْ حَيَاتِنَا. وَمِنْ خِلَالِ دِرَاسَتِنَا لِلتَّوْرَةِ فَإِنَّا لَنْ نَجِدَ الْكَثِيرَ مِنَ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَحْظِي بِهَذَا الْقَدْرِ مِنَ الْجِدَّةِ وَالْإِتَارَةِ مِثْلَ مَوْقِفِ الْحَوَارِ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُوشِيهِ فَوْقَ جَبَلِ سِينَاءٍ عَقِبَ خَطِيئَةِ الْعَجَلِ الذَّهْبِيِّ، لَكِنْ السُّؤَالُ الَّذِي يَطْرُقُ نَفْسَهُ هُنَا: كَيْفَ يُمَكِّنُنَا أَنْ نُنَالَ الْمَغْفِرَةَ الْإِلَهِيَّةَ لِخَطَايَانَا فِي ظِلِّ وَاقِعٍ لَيْسَ فِيهِ مُوشِيهِ وَلَا أَنْبِيَاءَ وَلَا رُسُلَ وَلَا حَتَّى أَيْ اتِّصَالَ مُبَاشِرٍ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟

فِي الْوَاقِعِ هُنَاكَ الْكَثِيرُ مِنَ اللَّحْظَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي غَيَّرَتْ وَلَا زَالَتْ تُغَيِّرُ مَجْرَى التَّارِيخِ، لَكِنْ مَا يُغَيِّرُنَا نَحْنُ الْبَشَرُ هُوَ السَّلُوكِيَّاتُ الْعِتْيَادِيَّةُ الْبَسِيطَةُ الَّتِي نَقُومُ بِهَا عَلَى نَحْوِ مُنْتَظَمٍ مِرَارًا وَتَكَرَّرًا، وَحِينَهَا تَحْدُثُ حَالَةٌ مِنْ إِعَادَةِ التَّهْيِئَةِ لِلدِّمَاغِ بِحَيْثُ تَتَغَيَّرُ عَادَاتُنَا وَسَّلُوكِيَاتُنَا وَمَشَاعِرُنَا أَيْضًا، لِهَذَا فَإِنَّا نِنْتَاجُ لِتِلْكَ الْعَادَاتِ وَالسَّلُوكِيَّاتِ وَالطَّقُوسِ الَّتِي نُمَارِسُهَا فِي حَيَاتِنَا عَلَى نَحْوِ مُنْتَظَمٍ.

وَبِالْعُودَةِ إِلَى قِصَّةِ لِقَاءِ مُوشِيهِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمُحَاوَلَتِهِ التَّشَفُّعَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ، فَإِنَّ هَذَا الْمَوْقِفَ لَمْ يَكُنْ بَحْدِ ذَاتِهِ كَفِيْلًا بِاسْتِحْضَارِ أَجْوَاءِ حَقِيقَةِ التَّوْبَةِ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ. وَبِالرَّغْمِ مِنْ أَنَّ مُوشِيَهُ قَدْ أَظْهَرَ لَهُمْ طَبِيعَةَ ذَنْبِهِمْ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ بَيْنَ أَيْدِينَا أَيْ دَلِيلٌ يُثَبِّتُ أَنَّهُمْ قَدْ اسْتَوْعَبُوا فِعْلًا حِجْمَ الذَّنْبِ الَّذِي اقْتَرَفُوهُ. فِي الْمُقَابِلِ، فَإِنَّ مَا قَامَ بِهِ أَهَارُونَ كَانَ مُخْتَلَفًا تَمَامًا، لِأَنَّ الْمَنَاسِكَ وَالشَّعَائِرَ الَّتِي كَانَ يُؤَدِّيهَا كَانَتْ تَتَضَمَّنُ الْعِتْرَافَ بِالذَّنُوبِ وَالتَّوْبَةَ وَالبَحْثَ عَنِ الطَّهَارَةِ الرُّوحِيَّةِ، كَمَا أَنَّ تِلْكَ الْمَنَاسِكَ وَالشَّعَائِرَ كَانَتْ تَتَضَمَّنُ اعْتِرَافًا صَرِيحًا وَصَادِقًا لِلذَّنُوبِ وَالخَطَايَا الَّتِي اقْتَرَفَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ، وَالْأَهَمُّ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنَّ الْعِتْرَافَ يَبْدَأُ بِالخَطَايَا الَّتِي اقْتَرَفَهَا كَبِيرُ الْكُهَنَةِ نَفْسَهُ.

وَمِنْ هَذَا الْمُنْتَلَقِ، فَقَدْ تَرَكَ يَوْمَ الْعُفْرَانِ بِصَمَّةً كَبِيرَةً أَدَّتْ إِلَى خَلْقِ ثِقَافَةٍ لَا يَخْجَلُ فِيهَا النَّاسُ مِنَ الْعِتْرَافِ بِأَخْطَائِهِمْ، وَلَا يَشْعُرُ أَحَدُهُمْ بِالخَجَلِ حِينَ يَقُولُ: "لَقَدْ أَخْطَأْتُ، لَقَدْ أذْنَبْتُ، لَقَدْ عَصَيْتُ"، وَذَلِكَ عِبْرَ امْتِدَادِ فِكْرَةِ يَوْمِ الْغُفْرَانِ مِنْ خِلَالِ سِلْسَلَةٍ مِنَ الصَّلَوَاتِ وَالْأَدْعِيَةِ الْيَهُودِيَّةِ الَّتِي يُرَدِّدُهَا الْيَهُودُ عَلَى مِدَارِ الْعَامِ، مِثْلَ دُعَاءِ "تَحْنُونَ" (الابْتِهَالِ وَالتَّضَرُّعِ) وَدُعَاءِ "فِيدُوي" (دُعَاءِ الْعِتْرَافِ بِالذَّنْبِ) وَدُعَاءِ "سَلِيحُوت" (دُعَاءِ طَلْبِ الْمَغْفِرَةِ). وَفِي يَوْمِ الْعُفْرَانِ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ فَإِنَّا نَضَعُ الْمَعَاصِي وَالْآثَامَ وَالخَطَايَا الَّتِي ارْتَكَبْنَاهَا فِي قَائِمَتَيْنِ ائْتِنَتَيْنِ مُرْتَبَتَيْنِ تَبَعًا لِلتَّرْتِيبِ الْهَجَائِيِّ، بِحَيْثُ يَشْمَلُ كُلُّ حَرْفٍ مِنَ حُرُوفِ اللَّغَةِ ذَنْبًا مُعَيَّنًا، فَتَبْدَأُ الْقَائِمَةُ الْأُولَى بِهَذِهِ الْعِبَارَاتِ: "أَشْمُنُو" (بِمَعْنَى أَخْطَأْنَا)، ثُمَّ "بَعْدُنُو" (بِمَعْنَى خَدَعْنَا أَوْ خُنَّا)، فِي حِينَ تَبْدَأُ الْقَائِمَةُ الثَّانِيَّةُ بِعِبَارَةِ "عَالَ حَيْطِ شِخْطَانُو" (بِمَعْنَى عَلَى الْخَطِيئَةِ الَّتِي اقْتَرَفْنَاهَا).

وَبِالْعُودَةِ إِلَى السَّفِيرِ الْأَمْرِيكِيِّ فِيلِيْبِ لِيْدَرِ، فَقَدْ أَدْرَكَ بِأَنَّ قُدْرَةَ الْبَشَرِ عَلَى الْعِتْرَافِ بِذُنُوبِهِمْ وَأَخْطَائِهِمْ لَيْسَتْ أَمْرًا عِتْيَادِيًّا، لِأَنَّ حِينَ نَرْتَكِبُ خَطَاً مُعَيَّنًا فَإِنَّا نَبْدَأُ بِاخْتِلَاقِ الْأَعْذَارِ وَالْمُبَرَّرَاتِ، بَلْ وَنُنَكِّرُ ارْتِكَابَنَا لِذَلِكَ وَنُحَاوِلُ إِقْنَاءَ اللُّومِ عَلَى الْآخَرِينَ. وَقَدْ تَطَرَّقَتْ مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْكُتُبِ لِلْحَدِيثِ عَنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مُؤَخَّرًا، مِنْهَا كِتَابُ "التَّفَكِيرِ دَاخِلَ صَنْدُوقِ أُسُودِ: الْحَقَائِقُ الصَّادِمَةُ حَوْلَ النِّجَاحِ، وَلِمَاذَا لَا يَتَعَلَّمُ الْبَشَرُ أَبَدًا مِنْ أَخْطَائِهِمْ" (Black Box Thinking: The Surprising Truth About)

ماتيو سيّد، وكتاب "أن تكون مُخطئاً: مُغامرات على هوامش الخطأ" (*Success and Why Some People Never Learn from Their Mistakes Being Wrong*) للكاتب البريطاني
 أخطاء ارتكبت لكّي لسْتُ من ارتكبتها " (*Mistakes Were Made, But Not By Me*) للكاتب
 تفرّيس وعالم النفس الأمريكي إبيوت أرونسون.

وبالنسبة للسياسيين فإنهم يجدون الاعتراف بالذنب وبارتكاب الأخطاء أمراً صعباً جداً، والحال
 نفسه بالنسبة للكثير من العاملين في المجال الصحيّ، فالأخطاء الطبية (التي بالإمكان تفاديها) تتسبّب
 في أكثر من 400,000 وفاة كل عام في الولايات المتحدة الأمريكية لوحدها. والحال نفسه ينطبق على
 البنوك والمصارف وخبراء الاقتصاد، حيث أن الأزمة المالية العالمية التي وقعت سنة 2008م قد تنبأ
 بوقوعها رجل الأعمال الأمريكي وارن بافت منذ عام 2002، لكن الأزمة المالية وقعت بالفعل بالرغم
 من تحذيراته وتحذيرات العديد من خبراء الاقتصاد بأن الازدياد الهائل في القروض السكنية وزيادة قيمة
 الديون المرتبطة بتلك القروض ستؤدّيان إلى حالة عدم استقرار مالي.

كما ويتطرّق الكاتبان تفرّيس وإبيوت أرونسون إلى أحداث مشابهة تتعلّق بأداء الشرطة، فعندما
 يشتبهون بشخصٍ معينٍ لا توجد أدلة لإدانته فإنهم يمتنعون عن الاعتراف بأن هذا الشخص بريء ولا
 توجد أدلة تُثبت إدانته، وعلى هذا المنوال تسير الكثير من جوانب حياتنا، خاصة وأن الاستراتيجيات
 التي يتبناها البشر للتملّص من الاعتراف بالذنب وارتكاب الأخطاء لا حصر لها، فيقول البعض متهزّباً من
 المسؤولية: "هذا لم يكن خطأي"، وقد يقول البعض الآخر: "هذا كان أفضل ما يمكن القيام به في ظلّ
 ظروف كهذه"، في حين قد يُبرّر البعض قائلًا: "لم يكن بالإمكان تجنّب ذلك تبعاً للمعطيات التي كانت
 بين أيدينا في ذلك الوقت". وهناك من يقوم بتحميل مسؤولية الخطأ لغيره مُدّعياً بأنه استند إلى
 معلومات خاطئة أدّت إلى وقوع ذلك الخطأ، أو ربّما وجه له أحد استشارة خاطئة مما أدى إلى وقوع
 هذا الخطأ، والقائمة تطول بالأعذار التي يختلقها البشر للتملّص من الاعتراف بأخطائهم، بدءاً
 بالتضليل، مروراً بالإنكار، وانتهاءً بتصوير أنفسهم على أنهم ضحايا.

بالتالي فإننا نحن البشر نمتلك قدرة هائلة على تفسير الحقائق بطريقة تتناسب مع التبريرات
 والأعذار التي نخترقها حين نرتكب الأخطاء، وفي هذا السياق يتطرّق كبار الحاخامات لهذه المسألة (في
 موضوع تشريعات الطهارة) موضحين بأن "لا أحد يستطيع رؤية أخطائه وعيوبه" (تبعاً لما هو مذكور
 في المِشناه، باب نِغعيم 2:5). إننا في الحقيقة مُحامون بارعون للدفاع عن أنفسنا عندما يتعلّق الأمر
 بمسألة تقدير الذات، وقلة هم البشر الذين يتمتعون بالجرأة الكافية ليقولوا: "لقد أخطأت" ("خطأتي"
 باللغة العبرية)، هذه العبارة التي قالها كبير الكهنة سابقاً، وقالها أيضاً الملك دافيد/داوود بعد أن واجهه
 النبي ناتان/ناتان بخطيئته التي ارتكبتها في تدخّله في قضية أورياه/أوريا الحثي وبتاشيفع/بثشبع (تبعاً لما
 هو مذكور في سفر سموئيل الثاني 12:13).

بالتالي فإنّ الديانة اليهودية تُقودنا إلى اكتساب القدرة على الاعتراف بأخطائنا من خلال ثلاث طرق
 رئيسية:

أولاً: من خلال مساعدتنا على إدراك حقيقة أن الله عزّ وجلّ يَغْفِرُ الذنوب والخطايا، كما أنه لا يطلبُ منا ألا نُذنبَ أو نخطئ، لأنه يعلمُ مُسبقاً أن القُدرة على الاختيار هي هِبَةٌ مَنَحْنَا إياها وقد يُساء استخدامها أحياناً، بالتالي فإن ما يطلبه منا هو أن نَعْتَرِفَ بِأخطائنا ونَتَعَلَّمَ منها ثم نقوم بتصحيحها وعدم ارتكابها مرّة أخرى.

ثانياً: تَفْصِلُ الديانةُ اليهودية بشكلٍ تامٍ بين "الخطيئة" (الفعل) وبين "المُخْطِئ" (الفاعل)، إذ بإمكاننا دوماً أن نُدِينَنَ ونستنكر الخطيئة دون أن نفقد الثقة بمرتكبها أو نتخلّى عنه.

ثالثاً: إن الهالة الروحانية التي يجلبها يوم الغُفران تمتدّ على مدار السنة، وتُساعدُ على خلق ثقافة تقوُّمٍ على الصّدق، بحيث لا يخجلُ الفردُ من الاعتراف بالأخطاء والذنوب التي ارتكبها. وعلى الرغم من أن يوم الغُفران يركّزُ على الذنوب والخطايا التي ارتكبها الإنسانُ بحقّ الله عزّ وجلّ، إلا أنّ مُجرّدَ قراءةٍ سريعةٍ لقائمتي الاعتراف التي يقرأها اليهود في هذا العيد، أي قائمة "أشمنو" وقائمة "عال حيط شحطانو"، ستجعلنا ندركُ بأن غالبية الذنوب التي نَعْتَرِفُ بارتكابها تتعلّقُ بعلاقتنا مع الآخرين، لا مع الله فقط.

لهذا، فإنّ ما أدركه السّفير الأمريكي فيليب ليدرٍ لاحقاً حول أبناء جيله رفيعي المكانة، هو في الحقيقة أمرٌ تحدّثت عنه الديانة اليهودية وتطرّقت إليه منذ زمنٍ طويل، حيثُ أنّ رؤيةٍ عليّة القومٍ ونُخبته يعترفون بذنوبهم وأخطائهم تؤثّرُ بعمقٍ شديدٍ على باقي أبناء المُجتمع. وقد كان أوّل يهوديّ يعترفُ بِخطأه وذنبه كان يهوده/يهودا، حين اتّهم تمار تهمّةً باطلّةً بالزنا، وحين اكتشف أنها بريئة من هذه التهمة قال: "هَيَّ أَبْرُ مَيَّ" (تبعاً لما تذكره الآية السادسة والعشرون من المقطع الثامن والثلاثين من سفر التكوين). ومِمّا لا شكّ فيه أن هذا الأمر لم يأتِ من باب الصدفة، لأن كلمة "يهودَه" تأتي من نفس الجذر العبريّ لكلمة "فيدوي"، بمعنى أن تسميتنا باليهود "يهوديم" جاءت انطلاقاً من امتلاكنا للجُرْأَةُ الكافية على الاعتراف بأخطائنا وذنوبنا*، خاصة وأنّ النقد الذاتي الصادق هو أحد أبرز مظاهر العظّمة في عالم الروحانيّة بشكل عام، وفي الديانة اليهودية على وجه الخصوص.

*ملاحظة توضيحية من المترجم: الإسمان "يهودَه" و"يهوديم" أيضاً مشتقان من الفعل "هودَه" باللغة العبرية والذي يَحْمَلُ معنى الحمد والاعتراف بالذنب، تبعاً لما تذكره الآية الخامسة والثلاثون من المقطع التاسع والعشرين من سفر التكوين والتي تقول: "وَحَمَلْتُ أيضاً، وولدتُ ابناً، وقالت هذه المرّة أشكُرُ الله، لذلك أسمتهُ يهودَه، ووقفت عن الولد".

قدوشيم

هو النصُّ الأسبوعي السابع من كتاب "فَيَقْرَأ" (أي سفر اللاويين)، وهذا النصُّ الأسبوعي يبدأ من الآية الأولى من المقطع التاسع عشر، وينتهي بِالآية السابعة والعشرين من المقطع العشرين.

في خِصَمِ البحثِ عن الهوية اليهودية

تجاوزتُ قبل بضعة أيام مع أحد المُثقفين والمفكرين اليهود، وأثناء الحوار تطرّقنا لمسألةٍ تظهرُ عادة في مثل هذه النقاشات، ألا وهي طبيعةُ الهوية اليهودية: مَنْ نحنُ؟ وما الذي يجعلنا يهوداً؟ في الواقع فإن هذه القضية كانت ولا زالت موضع نقاشٍ جادٍّ ومتواصلٍ -منذ القرن التاسع عشر. وحتى تلك الفترة كان السّوادُ الأعظمُ من اليهود يعلمون جيّداً مَنْ هُم، وبأنهم ورثةُ أمةٍ عريقةٍ عقّدت عهداً مع الله عزَّ وجلَّ في صحراء سيناء منذ الأزل، وبأنهم رغم المدِّ والجَزْرِ في مدى نجاحهم أو فشلهم في الالتزام بذلك العهد إلا أنّهم ظلّوا شعبَ الله الذي بذلَ فُصارى جهده للالتزام به.

لكن كانَ هذا الأمرُ مصدرَ إزعاجٍ للآخرين، فالإغريق كانوا يعتقدون بأنهم أسمى عِرْقٍ عرفته البشرية، لدرجة أنهم كانوا يستعملون مُصطلح "البرابرة" لوصفِ غير الإغريق، مع العلم أن استخدام هذه الكلمة لم يأت من فراغ، بل استُعملت عن قصدٍ لأنّها تُحاكي صوتَ ثغاء الماشية. والحال نفسه ينطبقُ على الحضارة الرومانية، حين كان ينظرُ الرومانُ لأنفسهم على أنهم أرقى وأسمى من باقي البشر. والحال نفسه ينطبق على المسلمين والمسيحيين الذين ينظرون لأنفسهم (بطرقٍ مُختلفة) على أنّهم شعبُ الله المُختار فعلاً، وليسَ اليهود. ونتيجة لهذه الاعتقادات كانت هناك قرونٌ طويلة من الظلم والاضطهاد الذي تعرّضَ له اليهود، لهذا لم يتردّدوا أبداً في قبولهم لأن يُصبحوا مواطنين في الدول الأوروبية العلمانية حديثة التأسيس حينها، وفي خِصَمِ ذلك تخلى عددٌ لا بأس به من اليهود عن إيمانهم بالله وتوقّفوا عن ممارسة شعائرهم الدينية، لكن تخليهم عن دينهم لم يكن سبباً كافياً ليُصبحوا من "غير اليهود" من وجهة نظر الأوروبيين.

لكن ما الذي يعنيه تخلي اليهود عن ديانتهم آنذاك؟ إنه يعني ببساطة أنّهم لم يعودوا مُلتزمين دينياً لأن كثيراً منهم لم يعودوا يؤمنون بالله عزَّ وجلَّ، لكن رغم ذلك ظلَّ يُنظرُ إليهم على أنّهم يهود، بالتالي أصبَحَت مسألة اليهودية ترتبطُ بالعِرْقِ اليهودي أكثرَ من ارتباطها بالديانة اليهودية. وفي هذا السياقِ أستذكِرُ قصة حياة بينجامين دِزرائيلي¹ الذي حوّلَهُ والدهُ إلى الديانة المسيحية عندما كان طفلاً، لكن هذا لم يَمْنَعهُ من رؤية نفسه من خلال هذا المنظور، أي أنه يعتبرُ نفسه يهودي العِرْق لا الديانة، فيقول في أحد كتاباته: "العِرْقُ ثمَّ العِرْق، هذه هي الحقيقةُ الوحيدة ولا يوجدُ سواها". وحينَ قام السياسي الإيرلندي دانيال أوكونل بالسُّخرية من بنجامين، ردَّ عليه قائلاً: "نعم، أنا يهودي. وعندما

1. شغل بنجامين دِزرائيلي منصب رئيس الوزراء في بريطانيا مرتين، الأولى عام 1868م، والثانية بين العامين 1874م - 1880م.

كان أجدادُ هذا السيدِ المُحترم يعيشون كالهمجِ والرَّعاعِ في جزيرةٍ نائيةٍ، كان أجدادي كهنةً في هيكلِ الملكِ شلومو/سليمان".

لكن المُشكلة ظَلَّت قائمة، وحالة الكراهية والعِداءِ ضدَّ اليهودِ لم تتبدَّل على الرغمِ من مظاهرِ التحرُّرِ والتنويرِ والعقلانيةِ والعِلْمِ التي كَانَتْ تبدو عليها أوروبا آنذاك. وربَّما بإمكاننا في الوقتِ الحاليّ أنْ ننظرَ لحالة الكراهية من منظورِ بعيدٍ عن الدين، لأنَّ اليهودِ (وحتى أوروبا نفسها) لم يعتبروا الدين حينها أساساً للهوية، بالتالي صار العِرْقُ هو المصدرُ وراءَ حالة الكراهية والعِداءِ ضدَّ اليهودِ، ونتيجةً لذلك ظهر في سبعينيات القرن التاسع عشر مُصطلحٌ جديدٌ لوصف هذه الظاهرة، ألا وهو مُصطلحُ "مُعَاداة السَّامية"، وهذه كانت نُقطة تحوُّلٍ بالغة الخطورة، فحينَ كان يُنظرُ إلى اليهودِ من منظورِ ديني كان - على الأقل - بإمكان المسيحيين أن يُحاولوا إجبارَ اليهودِ على اعتناق المسيحية، بِمعنى أنه يوجد هامشٌ لتجنُّب الكراهية والعِداءِ عبر تغيير الدين، لكن لا يوجدُ أي هامشٍ لتغيير العِرْقِ بأي شكلٍ من الأشكال، بالتالي لا مَنَاصَ أبداً من الاضطهاد. وفي هذه الحالة أصبحت مُعاداة السامية تُتطلبُ طردَ اليهودِ من أوروبا.

وعقب انتهاء المحرقة اليهودية (الهولوكوست) أصبح من غير اللائقِ استخدام لفظه "العِرْق" في المُجتمعات الغربية، لكن الهوية اليهودية العلمانية ظَلَّت موجودة هناك، ومن الواضح أنه لا يوجدُ أي توصيفٍ آخَرَ لها سوى باستخدام فكرة العِرْقِ. في الوقت نفسه، تم استحداث مُصطلح جديد ليحلَّ محلَّ مُصطلح "العِرْق"، ألا وهو مُصطلحُ "المجموعة الإثنية"، والذي لا يختلف كثيراً عن مُصطلح "العِرْق" تبعاً لمفهومه في القرن التاسع عشر.

وتُعرَّف موسوعة ويكيبيديا المجموعة الإثنية على أنها "فئةٌ من الناس الذين يُعرِّفون أنفسهم على أساس عددٍ من العوامل المُشتركة بينهم، مثل السِّلَفِ والتجارب الاجتماعية والثقافية والوطنية وغيرها". لكن المُشكلة في أنَّ مُصطلح "الجماعة الإثنية" يتعلَّقُ بالمكان الذي جننا منه، لا بالمكان الذي سنذهبُ إليه، فهو مرتبِّطٌ أيضاً بالثقافة والطعام والذكريات التي تحمل في طياتها معنًى للأبناء أكثر مما تحمله للأبناء.

لكن وبجميع الأحوال فإنه يستحيلُ وضعُ جميع اليهودِ ضمن مجموعةٍ إثنية واحدة لأن اليهودِ ينتمون لمجموعاتٍ إثنية مُختلفة، فعلى سبيل المثال لا يمكنُ وضع اليهودِ الأشكناز وإخوتهم من اليهودِ السفرديين ضمن المجموعة الإثنية ذاتها، تماماً مثلما يستحيلُ علينا وضع اليهودِ السفرديين واليهودِ الشرقيين (المزراحيين) في نفس المجموعة الإثنية، لأنَّ اليهودِ السفرديين انحدروا من عائلات عاشت في منطقة إسبانيا والبرتغال، في حين ينحدر اليهودِ المِزراحيّون من عائلات عاشت في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. أضف إلى ذلك نقطة هامة جداً: إنَّ ما يُعتقَدُ بأنه يتعلَّقُ "بالإثنية اليهودية" ليس له علاقةٌ بها أصلاً، فلو عدنا للخلف لوجدنا الكثير من الأمور التي اكتسبها اليهودِ نتيجة وجودهم في مجتمعات وثقافات غير يهودية، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجدُ لدى اليهودِ أزياء بولندية وموسيقى روسية وأصناف طعام شمال أفريقية، هذا عدا عن اللهجات اللغوية المُختلطة مثل اللهجة اليهودية الألمانية المعروفة باليديشية، واللهجة اليهودية الإسبانية المعروفة باللادينو. بالتالي فإن تصنيف "المجموعة الإثنية" لا ينطبقُ على اليهودِ بأي شكلٍ من الأشكال، لأنَّ الكثير من مُحدِّدات هذا المُصطلح لا تنطبقُ على اليهودِ أصلاً، بل هي جَوَانِبُ مُستعارة من ثقافات ومُجتمعات أُخرى، وربَّما أُلصقت باليهودِ لأنها ليست معروفة الأصل.

إنَّ اليهودية ليست إثنية، واليهود ليسوا بمجموعة إثنية، ولو توجَّه أحدنا إلى الحائط الغربي (المعروف لدى المسلمين بحائط البُرَاق أو حائط المَبكى، أو كوتل باللغة العبرية) في أورشليم القدس، لَوَجَدَ تنوعاً لليهود من كل شكلٍ ولونٍ وثقافةٍ عرفتها البشرية، فتجدُ يهوداً من إثيوبيا (وهم اليهود المعروفون باسم بيتا إسرائيل) ويهوداً من الهند (وهم اليهود الذين يُعرَفون أنفسهم باسم بيتي إسرائيل) ويهوداً من بُوخارى ومن وسط آسيا، ويهوداً عراقيين وبرابرة وأكراد وليبيين ويمينيين (والمعروفين باسم اليهود التيمنيم)، هذا بالإضافة إلى اليهود الأمريكيين الذين جاؤوا من روسيا، ويهود جنوب أفريقيا الذين جاؤوا من ليتوانيا، واليهود الإنجليز الذين جاؤوا من الأقلية الألمانية اليهودية في بولندا، وغيرهم الكثير. وكُلُّ جماعةٍ من هؤلاء تتميز بطابعٍ يميّزها عن غيرها سواءً في الزي أو الموسيقى والطعام والعادات والتقاليد، هذا عدا عن العقد الاجتماعي الذي يختلفُ من مُجتمعٍ لآخر. بصريح العبارة: اليهودية ليست "مجموعة إثنية" واحدة ولا يُمكن لجميع اليهود أن يندرجوا تحت هذا التصنيف، بل هي مزيجٌ من المجموعات الإثنية المختلفة والمتعددة تبعاً لمُحددات مُصطلح "المجموعة الإثنية".

والأهم من هذا كُلُّه هو أن "المجموعة الإثنية" تندثرُ من الوجود خلال مرحلة معينة، ولو كان اليهود فعلاً مجموعة إثنية لكانَ مصيرهم مشابهاً لباقي المجموعات الإثنية واندثروا من الوجود مع مرور الزمن. ولنأخذ مثلاً على ذلك جيل الأحفاد الذي انحدر من آباء وأجداد المهاجرين الإيرلنديين والبولنديين والألمان والنرويجيين الذين قَدِموا إلى أمريكا في أوّل الأمر، حيثُ اندمجوا بشكلٍ كاملٍ في المُجتمع الأمريكي مما أدى إلى انصهار الروابط التي تربطهم بمُجتمعاتهم السابقة. كما أن وجود "المجموعة الإثنية" لا يدوم لأكثر من ثلاثة أجيال في حال حافظَ جيلُ الأحفاد من المهاجرين على العادات والتقاليد ونمط الحياة الخاص بالآباء والأجداد، ثم تبدأ المجموعة الإثنية بالاندثار من الوجود شيئاً فشيئاً لعدم وجود سبب يمنع ذلك. ومن هذا المُنتلق، لو كان اليهودُ مجردَ مجموعة إثنية لاندثروا من الوجود منذ زمن طويل، تماماً مثلما اندثرت الكنعانيون والفرزيون واليبوسيون وغيرهم من المجموعات الإثنية التي لا يعلم عن وجودها سابقاً سوى طلبة وعلماء التاريخ والآثار، خاصة وأن تلك المجموعات وغيرها لم تترك أي بصمة حضارية في الغرب.

وفي عام 2000م، اقترح معهدُ يهوديٍّ بريطاني للبحوث أن يتم تعريف اليهود في بريطانيا على أنهم "مجموعة إثنية"، وبأنهم ليسوا مجموعة أو طائفة دينية. حينها جاء الردُّ من الصحفيِّ البريطاني أندرو مار - مع العلم أنه ليس يهودياً - فقال مُعقِّباً على هذا الاقتراح:

"هذا وصفٌ سطحيٌّ لا يختلفُ عن وصف تجمُّع للمياه الضحلة التي كُلمّا تعمّقت بها كُلمّا اكتشفت مدى صِحّالتها، فاليهودُ قومٌ لطالما حملوا في جُعبتهم قصصاً لا تُنسى، ولديهم كتابهم المُقدَّس الذي يُعتبر واحداً من أعظم الكُتب المُبدعة التي عرفها العالم الروحي الإنساني. ولطالما كانوا ضحيةً لأسوأ جانب من جوانب الحداثة، ومرآةً تعكسُ لنا حالة ما وصلَ إليه الغربُ من هوسٍ وجُنون. والأهم من هذا كله أنّهم قومٌ حافظوا على ثقافتهم ووجودهم وتسلسلهم الجينيّ منذ عهد الرومان حتى الألفية الثانية للميلاد، فحافظوا على تماسكهم وازدهارهم وسط حالةٍ من الحِقْدِ والعِداء الأوروبي لهم، هذا الحِقْدُ الذي فاق كُلَّ التصوِّرات وتخطى كُلَّ الحُدود. إنَّ حِكَاية اليهود وحياتهم بعد التناخ وجُهودهم الجماعية، جميع هذه الأمور شكَّلت جزءاً من تحدٍٍ مهول لتقوية وبناء أجيالٍ يهودية أنجبت نُخبَةً من العباقرة في أوروبا وأمريكا. وبعيداً عن مجال الرسم ورَقصة الموريس الإنجليزية وموسيقى الراب، فإننا

قلّما نجدُ مجالاً آخر من مجالات الحياة الغربية التي لم ينجح فيها اليهود أو لم يتركوا بصمتهم عليها عبر مَرِّ التاريخ. وبالنسبة لغير اليهود الذين لا يؤمنون بفكرة اختيار الله للشعب اليهودي، فإنه ينبغي عليهم أن ينظروا ويتعلّموا كيف أن أجيالاً يهودية عاشت عكس التيار، مُحافظَة على عاداتها وتقاليدها ونمط حياتها وعملها الدؤوب، لتنجب في النهاية عقليات فذة مثل أينشتاين ولودفيغ فيتغنشتاين وليون تروتسكي وأبناء عائلة سيف وغيرهم الكثير من العظماء... بصريح العبارة، لقد كان اليهود ولا زالوا قوماً مُميّزين، وساهموا كثيراً في إثراء هذا العالم بل وتحديده أيضاً".²

في الحقيقة لم يكن الصحفي البريطاني أندرو مار يهودياً ولا حتى شخصاً مُتديّناً، لكن هذا الاقتباس الذي اقتبسته من حديثه يُمهّد لنا الطريق للحديث عن موضوع هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة، هذا النصّ الذي يحتوي على واحدة من أهم الآيات في الديانة اليهودية، وهي الآية الثانية من المقطع التاسع عشر من سفر اللاويين: "مُرْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقُلْ لَهُمْ أَنْ يَكُونُوا مُقَدَّسِينَ، لِأَنِّي اللَّهُ رَبُّكُمْ الْقُدُّوسُ". إنها آية توضّح أن اليهود كانوا ولا زالوا يلبّون نداء القداسة الإلهية، لكن ما الذي يعنيه هذا النداء على وجه التحديد؟

يُجيبنا الحاخام شلومو يتسحاق (المعروف بالحاخام راشي) على هذا السؤال من خلال تفسيره للآية في إطار السياق الذي جاءت ضمنه، فالمقطع السابق من سفر اللاويين يتحدّث عن العلاقات الجنسية المحرّمة، كما أن المقطع اللاحق يتطرّق لهذا الموضوع أيضاً، ومن هذا المنطلق يُبين لنا الحاخام راشي كيف أنه يجب علينا أن نكون في قيمة الحذر وألا نستجيب لإغواءات وإغراءات تلك العلاقات الجنسية المحرّمة.

في الوقت نفسه نجدُ الحاخام موشيه/موسى بن نحمان يتوسّع أكثر في التفسير، موضّحاً بأن التوراة تُحرّم أفعالاً معينة وتُحلّل أفعالاً أخرى، وعندما تقول الآية "كونوا مُقَدَّسِينَ" فهذا يعني أن يضبط الإنسان نفسه حتى أثناء ممارسة الأفعال المُحلّلة، بمعنى لا يجب على الإنسان أن يكون شرهاً جداً في تناول الطعام حتى لو كان طعاماً مُحلّلاً، كذلك لا يجب عليه أن يُسرف في شرب الكحول حتى لو كان يشربُ نبيذاً عليه ختم الكوشير اليهودي (النبيذ الحلال تبعاً للتشريعات اليهودية). بالتالي يختزل لنا الحاخام موشيه بن نحمان هذا المبدأ بكلمات مُختصرة قائلاً: "لا تَكُنْ وَغداً وتستغلّ ما حلّته التوراة" (باللغة العبرية نَقال بريشوت هاتوراه).

وهذان تفسيران للآية ضمن سياقٍ مُحدد، بمعنى أنهما يوضّحان المعنى المقصود للآية ضمن السياق المُباشر لها، لكن من الواضح بالنسبة لنا أن هذه الآية تتضمن معنى آخر يتخطى حدود ذلك السياق، والمقطع التوراتي بحد ذاته يُخبرنا عن هذا المعنى، فهذه الآية تُخبرنا بأنك حين تكون مُقدّساً فهذا يعني أن تُحبّ جارك والغريب عنك، والقداسة تُعني ألا تسرقَ وألا تكذبَ أو تخدع الآخرين، وتُعني ألا تتوانى عن إنقاذ حياة الآخرين حين تكون حياتهم في خطر، وألا تستهزئ بالأصمّ ولا تضع العقبات في طريق الكفيف، وألا تُهينَ الآخرين أو تستغلّهم حتى لو كانوا أنفسهم يجهلون ما تقوم به، فإن كانوا لا يعلمون بما تفعله بحقهم فإنّ الله عزّ وجلّ يعلم ذلك تمام المعرفة. كما أنّ القداسة تُعني ألا تزرع حقلك ببذورٍ مُختلفة، وألا تُهجنَ بهائمك، وألا ترتدي ملابس مصنوعة من مزيج الصوف والكتان.

2. المصدر: أندرو ماز، مجلة (The observer) بتاريخ الرابع عشر من أيار سنة 2000م.

بصريح العبارة، إن القداسة تعني (ضمن مفهومنا المعاصر لها) أن نحترم خصوصية واستقامة كل بيئة مُحيطَة بنا، وألا نُطِيع الإِملَاءات التي تُفرض علينا من قبل طواغيت العصر، خاصة وأنه يوجد طواغيت في كل زمان وفي كل مكان. إن القداسة تعني أيضاً أن تكون صادقاً ونزيهاً في عملك، وأن تكون عادلاً ومُنصفاً مع موظفيك وعمالك، وأن تُعطي جزءاً من أرباحك التي أنعم الله عليك بها للآخرين (والتي كانت قديماً جزءاً من المحاصيل الزراعية). إنها تعني أيضاً ألا تُكره الآخرين حين يُخطئون بحقك، وِعوضاً عن ذلك واجههم ووضّح لهم الخطأ الذي ارتكبه وكيف جعلك تتألم، وامنحهم فرصة للاعتذار وإصلاح ما يجب إصلاحه، ثم سامحهم.

والأهم من هذا كله، فعبارة "كونوا مُقدسين" تعني أن تملكوا الجرأة على أن تكونوا مُختلفين، وهذا هو الجذر اللغوي الذي جاءت منه كلمة "قدوش" باللغة العبرية، فهذا الجذر يحمل معنى الخصوصية والتميز والاختلاف، مصداقاً لما قاله الله عز وجل: "لَأَنِّي اللَّهُ رَبُّكُمْ الْقُدُّوسُ"، خاصة وأن هذه العبارة المميزة تتضمن واحدة من أكثر الأفكار مُخالفة لما هو متوقع في النصوص الدينية جميعها. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف يمكننا أن نكون مثل الله عز وجل؟ فالله دائم ونحن زائلون، والله عز وجل أبدي ونحن هالكون، وهو يتخطى في عظمتة الكون بأسره بينما نحن لا نتعدى كوننا ذرة مُتناهية الصغر فيه. لكن وبالرغم من هذا فإن التوراة تؤكد لنا أنه بإمكاننا أن نكون مثل الله عز وجل من خلال جانب مُعين.

إن الله عز وجل موجود في هذا العالم، وهذا العالم والكون بأسره لا يملك الله عز وجل، لهذا يطلب الله منا أن نكون موجودين في هذا العالم دون أن يملكنا الكون، فنحن لا نعبد الطبيعة ولا نتبع "آخر الصيحات"، ولا نتبع تصرفات البشر لمجرد أن جميع البشر يتصرفون بهذه الطريقة. إننا قوم لا يُطيعون طاعة عمياء، بل نحن نرفض دوماً على لحن مُختلف. إننا لا نعيش في الحاضر بقدر ما نستذكر آباءنا وأجدادنا وماضيهم، وذلك حتى نساعد أنفسنا في بناء مُستقبل مُزدهر. وليس من باب الصدفة أن كلمة "قدوش" في اللغة العبرية تحمل أيضاً معنى الزواج (قيدوشين)، لأن الزواج يعني أن نكون مُخلصين لبعضنا البعض، تماماً مثلما بين الله عز وجل لنا بأنه سيكون بجانبنا طالما كُنّا مُخلصين له، حتى في أصعب الأوقات وأقسى الظروف.

بالتالي، أن تكون مُقدساً يعني أن تكون شاهداً على الوجود الإلهي في حياتنا وحياة شعبنا. إن بني إسرائيل هم الشعب الذي يُعتبر بحد ذاته شاهداً حياً على وجود من هو أبعد من حدود ذاتهم. وأن تكون يهودياً يعني أن تكون واعياً ومُدرِكاً لمعنى الوجود الإلهي الذي لا يمكننا رؤيته لكن بإمكاننا استشعاره كعنفوانٍ كامنٍ بداخلنا، هذا العنفوان الذي يفرض علينا أن نتحلى بالجرأة والعدل والكرم خارج حدود ذاتنا. كما أن التقاليد والطقوس الدينية اليهودية تقوم على هذا المبدأ بالأساس: إنها بمثابة تذكير دائم لنا بالوجود الإلهي في حياتنا. وبالرغم من أنه يوجد "مجموعة إثنية" ينتمي لها كل فرد من البشرية، إلا أن الله عز وجل أمر شعباً مُحدداً على وجه الخصوص أن يكون مُقدساً، وهذا بالنسبة لي هو معنى أن يكون المرء يهودياً.

إِمْور

هو النصُّ الأسبوعي الثامن من كتاب "فَيَقْرَأ" (أي سفر اللاويين) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الحادي والعشرين، وينتهي بالآية الثالثة والعشرين من المقطع الرابع والعشرين.

أَوْقَاتٌ مُقَدَّسَةٌ

يحتوي هذا النصُّ الأسبوعي من نصوص التوراة والذي يحمل عنوان "إِمْور" على مقطعٍ مُخَصَّصٍ للحديث عن الأعياد الدينية اليهودية المُمْتَدَّة على مدار العام. وبشكل عام تحتوي التوراة على خمس مواضع مُتَشَابِهَةٍ تَطَرَّقَتْ للحديث عن هذا الموضوع: اثنان منها يتحدَّثان باختصار عن ثلاثة أعياد دينية يهودية تُوَدَّى مناسِكُها بالذهابِ مشياً إلى "بيت هامقداش" (الهيكل)، وهذان الموضعان هما الآيات 14-17 من المقطع الثالث والعشرين من سفر الخروج، بالإضافة إلى الآيات الثامنة عشر والآيات 22-23 من المقطع الرابع والثلاثين من السفر نفسه، بحيث تَطَرَّقَتْ هذه الآيات للحديث عن عيد الفصح (بَيْسَح) وعيد الأسابيع (شَفْوَعوت) وعيد العرش أو عيد المظليّات (السُّكوت). لكن هذه الآيات لا تُوضِّحُ التواريخ المُحدَّدة لهذه الأعياد، بل تُوضِّحُ توقيتها اعتماداً على دورة حياة الطبيعة والنباتات في أرض إسرائيل، كما أنها لا تذكر أي وصايا أو تعليماتٍ مُحددة تتعلَّقُ بالمناسِكِ والشعائر الواجب تأديتها في هذه الأعياد.

بذلك يتبقَّى لدينا ثلاثة مواضع أُخرى في التوراة تَطَرَّقَتْ للحديث عن هذه الأعياد، واحدٌ منها في هذا النصِّ الأسبوعي من نصوص التوراة، وآخرٌ في المقاطع 28-29 من سفر العدد، والأخيرٌ موجودٌ في المقطع السادس عشر من سفر التثنية. واللافتُ للنظر هو الاختلاف في أسلوبِ الحديث عن الأعياد في كلِّ موضع، فالتوراة ليست وثيقة تجميعية لتفاصيل موضوعٍ ما (مثلما يراها بعض النُقَّاد)، بل هي كتابٌ يضم بين ثناياه وُجُوهاتٍ نظريَّةٍ ونواحيَّ مُتعددةٍ لِنقاشِ موضوعٍ مُحدد، أي أنها تُناقشُ موضوعاً مُحدداً من عدة زوايا، وهذه واحدة من الخصائص المُميِّزة للتوراة بشكل عام.

وبالنسبة للموضع الذي يتحدَّثُ عن الأعياد الدينية بإسهابٍ في سفر العدد، فإنَّه يُرَكِّزُ على عدد من القرايين الإضافية (يُطلق عليها مُساف باللغة العبرية) والتي تُقدِّمُ في الأيام المُقدَّسة والأعياد الدينية، بما فيها يوم السبت اليهودي المُقدس (الشَّبات) بالإضافة إلى أوَّل يومٍ من كلِّ شهرٍ ("روش حوديش" باللغة العبرية). وتتبعُ قدسيَّةُ هذه الأوقاتِ تحديداً لارتباطها بالهيكل اليهودي المُقدَّس الذي بدأ ببيتِ عِبادةٍ مُنْتَقَلٍ (مِشكان) ثم تحوَّل إلى الهيكل، وبعد خرابِ الهيكل أصبح الكنيسُ اليهودي يحلُّ محلَّه.

أما بالنسبة للموضع المذكور في سفر التثنية فهو يتطرَّقُ للحديث عن المُجتمع اليهودي، إذ يقومُ نبي الله ورسوله موسى/موشيه في آخر أيامِ حياتِهِ بتعريفِ الجيل الجديد من اليهود بأصلهم

والمكان الذي جاؤوا منه والأرض التي هم ذاهبون إليها، بالإضافة إلى طبيعة المُجتمع الذي يتوجَّب عليهم بناؤه في أرض إسرائيل، حيث ينبغي أن يُقام المُجتمع على أساسٍ مُخالفٍ كُلياً للذي كان عليه في مصر، أي على أساس تحقيق العدل والحرية والكرامة الإنسانية. أضف إلى ذلك أن واحداً من أبرز المواضيع التي تطرَّق لها سفرُ التثنية هو التأكيد على مركزية إقامة بيتٍ للعبادة "في المكان الذي يَخْتاره اللهُ" تبعاً لما تذكره الآية الثامنة عشر من المقطع الثاني عشر، هذا المكان الذي اتَّضح لاحقاً بأنه أورشليم القدس. وبما أن وحدة اليهود هي انعكاسٌ لوحدة الله عزَّ وجلَّ، فإن هذه الوحدة لن تتحقَّق في حال كان لكل سبطٍ من أسباط اليهود هيكلٌ أو مكانٌ عبادةٍ خاصٌ بكلِّ سبط. لهذا نجد أن سفر التثنية يتطرَّق لهذه الأعياد الدينية فقط: عيد الفصح (بيسح) وعيد الأسابيع (شَفُوعوت) وعيد العرش أو عيد المظليات (سُكوت)، بينما لا يتحدَّث عن مُناسبة رأس السنة اليهودية ("روش هَشناه" باللغة العبرية) ولا حتى يوم الغفران (يوم كيبور)، لأن الأعياد الثلاثة التي تطرَّق لها تتضمنُ شعائر دينية وفرائضَ يجبُ أن تُقام في الهيكل والذهاب إليه سَيراً على الأقدام ("علياه لريجل" بحسب وصفها في التوراة).

كذلك فإننا نجد أن سفر التثنية يتحدَّث على موضوع الشمولية واحتواء أفراد المُجتمع اليهودي بنفس القدر من التَّركيز، تبعاً لما تذكره الآية التاسعة والعشرون من المقطع الرابع عشر من هذا السفر: "فَيَأْتِي اللّٰوِيُّ، لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ قِسْمٌ وَلَا نَصِيبٌ مَعَكَ، وَالْعَرِيبُ وَالْيَتِيمُ وَالْأَرْمَلَةُ الَّذِينَ فِي أَبْوَابِكَ، وَيَأْكُلُونَ وَيَشْبَعُونَ، لِكِي يُبَارِكَك اللهُ إِلَهَكَ فِي كُلِّ عَمَلٍ تَعْمَلُهُ"، مع العلم أن التَّركيز على هذا الأمر لم يظهر بهذا القدر في مواضع أخرى من التوراة سوى في هذا السفر. كما أن هذا السفر لا يركِّز كثيراً على الروحانية الفردية بقدر ما يركِّز على بناء مُجتمعٍ يحترِّمُ الوجودَ الإلهي عبر احترام جميع البشر، خاصةً الفئات المُهمَّشة.

بالتالي فإن فكرة عبادة الله عزَّ وجلَّ وسط حالةٍ من اللامبالاة وعدم الاكتراث بالآخرين هي فكرة بعيدة كل البعد عن الرؤية التي يؤكِّد عليها سفر التثنية فيما يتعلَّق ببناء المُجتمع، والحال نفسه ينطبق على هذا النصِّ الأسبوعي من نصوص التوراة، كونه نصّاً مُميّزاً جداً ويتطرَّق لهذا الموضوع على وجه التحديد. فخِلافاً لسفر الخروج وسفر التثنية، نجد أن هذا النصِّ الأسبوعي يتحدَّث عن مُناسبة رأس السنة اليهودية (روش هَشناه باللغة العبرية) بالإضافة إلى يوم الغفران (يوم كيبور). في الوقت نفسه فإنه يوضِّح لنا عدداً من الوصايا والتعليمات (المُتشفوت) الواجبُ اتِّباعها في الأعياد الدينية، خاصة في عيد السُّكوت (عيد العرش أو عيد المظلات)، فهذا هو الموضع الوحيد في التوراة الذي يذكُر أصنافَ النباتات الأربعة الواجبُ استخدامها كجزءٍ من شعائر هذا العيد (أربع مينييم باللغة العبرية)، هذا بالإضافة إلى شعيرةٍ خاصةٍ بهذا العيد وهي قضاءُ الوقت طيلة اليوم داخل العريشة أو المظلية التي تُبنى خارج البيت كجزءٍ من طُقوس هذا العيد (كلمة عريشة تعني "سوكاه" باللغة العبرية، وقد جاءت تسمية عيد "السُّكوت" بهذا الاسم نسبة إلى هذه العرائش التي تُبنى خارج البيت).

لكن أكثر الأمور اللافتة للنظر في هذا النصِّ الأسبوعي هو أنه تحدَّث عن يوم السبت اليهودي (الشَّبات) وكأنه جزءٌ من هذه الأعياد الدينية. صحيحُ بأن يوم السبت اليهودي هو يومٌ مُقدسٌ، لكن ما

بَدَأَ لِي غَرِيبًا هُوَ الْأَسْلُوبُ الَّذِي تَحَدَّثَ بِهِ هَذَا الْمَقْطَعُ عَنْ يَوْمِ الشَّبَاتِ، حَيْثُ يُكَلِّمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُوسِيَهُ قَائِلًا لَهُ:

"مَرَّ بِي يِسْرَائِيلَ وَقُلْتُ لَهُمْ: مَوَاسِمُ اللَّهِ (مَوْعَدِي) الَّتِي فِيهَا تُنَادُونَ (تَقْرَأُوا) مَحَافِلَ مُّقَدَّسَةٍ (مِقْرَأِي قُودِيش). هَذِهِ هِيَ مَوَاسِمِي (مَوْعَدَاي) سِتَّةَ أَيَّامٍ يُعْمَلُ عَمَلٌ، وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتُ عَظْلَةٍ مَحْفَلٌ مُّقَدَّسٌ (مِقْرَأُ قُودِيش). عَمَلًا لَا تَعْمَلُوا. إِنَّهُ سَبْتُ لِلَّهِ فِي جَمِيعِ مَسَاكِنِكُمْ"، تَبِعًا لِمَا تَذَكَّرَهُ الْآيَاتُ 1-3 مِنَ الْمَقْطَعِ الثَّلَاثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِفْرِ اللّٰوِيِّينَ.

لَكِنْ تَبَدُّو الْآيَةَ الرَّابِعَةَ مِنْ هَذَا الْمَقْطَعِ وَكَأَنَّهَا فَاصِلَةٌ بَيْنَ الْمَوَاضِيْعِ، حَيْثُ تَبَدُّو وَكَأَنَّهَا تَحَدَّثُ عَنْ هَذَا الْمَوْضُوعِ مِنَ الْبَدَايَةِ مَرَّةً أُخْرَى، حَيْثُ تَقُولُ:

"هَذِهِ مَوَاسِمُ اللَّهِ (مَوْعَدِي) الْمَحَافِلُ الْمُّقَدَّسَةُ (مِقْرَأِي قُودِيش) الَّتِي تُنَادُونَ بِهَا (تَقْرَأُوا) فِي أَوْقَاتِهَا (بِمَوْعَدَام)".

فِي الْحَقِيقَةِ فَإِنَّ تَرْكِيبَةَ هَذَا النَّصِّ الَّتِي تَحْمِلُ بَدَايَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ لِنَفْسِ الْمَوْضُوعِ قَدْ حَيَّرَتْ الْمُفَسِّرِينَ، وَمَا يَزِيدُ الطِّينَ بِلَّةً هُوَ حَقِيقَةُ أَنَّ هَذَا النَّصَّ الْأَسْبُوعِي يَصِفُ يَوْمَ السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ فِي الْعِبْرِيَّةِ بِكَلِمَةِ "مَوْعِيد" (بِمَعْنَى مَوْعِدٍ مُّحَدَّدٍ)، وَبِعِبَارَةِ "مِقْرَأُ قُودِيش" (بِمَعْنَى اجْتِمَاعٍ مُّقَدَّسٍ)، وَهَذِهِ أَوْصَافٌ لَا تَظْهَرُ فِي أَيِّ مَوْضِعٍ آخَرَ فِي التَّوْرَةِ سِوَى فِي هَذَا النَّصِّ الْأَسْبُوعِي. وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يَتَسَاءَلُ الْحَاخَامُ شَلُومُو يِتْسَحَاقِي (الْمَعْرُوفُ اخْتِصَارًا بِالْحَاخَامِ رَاشِي) قَائِلًا: "مَا عِلَاقَةُ يَوْمِ السَّبْتِ الْيَهُودِيِّ بِبَاقِي الْأَعْيَادِ الدِّينِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ؟" فَالْأَعْيَادُ الدِّينِيَّةُ تَتَكَرَّرُ مَرَّةً وَاحِدَةً كُلَّ عَامٍ، فِي حِينٍ أَنَّ يَوْمَ السَّبْتِ الْيَهُودِيِّ يَتَكَرَّرُ مَرَّةً كُلَّ أُسْبُوعٍ. نَاهِيكَ عَنْ أَنَّ الْأَعْيَادَ الدِّينِيَّةَ الْيَهُودِيَّةَ تَسْتَنِدُّ إِلَى تَقْوِيمٍ سَنَوِيٍّ مَرْجِعِيَّتُهُ هُوَ مَجْلِسٌ أَوْ مَحْكَمَةٌ شَرْعِيَّةٌ يَهُودِيَّةٌ (بَيْتُ دِينَ بِاللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ)، وَهَذَا هُوَ الْمَقْصُودُ مِنَ الْعِبَارَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ "الْمَحَافِلُ الْمُّقَدَّسَةُ الَّتِي تُنَادُونَ بِهَا فِي أَوْقَاتِهَا".

فِي الْمُقَابِلِ، فَإِنَّ يَوْمَ السَّبْتِ لَا يَسْتَنِدُ إِلَى أَيِّ مَرْجِعِيَّةٍ مِنْ مَجْلِسٍ أَوْ مَحْكَمَةٍ شَرْعِيَّةٍ يَهُودِيَّةٍ، كَمَا أَنَّهُ لَا يَسْتَنِدُ إِلَى التَّقْوِيمِ الشَّمْسِيِّ أَوِ الْقَمَرِيِّ، هَذَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَنَّ قَدَاسَةَ هَذَا الْيَوْمِ مَصْدَرُهَا هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَبَدَأَتْ مِنْذُ فَجْرِ التَّارِيخِ. بِالتَّالِيِ فَإِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْأَعْيَادِ الدِّينِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ وَيَوْمِ السَّبْتِ الْيَهُودِيِّ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَتَحْتَ عُنْوَانٍ وَاحِدٍ هُوَ أَمْرٌ غَيْرُ مَنْطِقِيٍّ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لِأَنَّ يَوْمَ السَّبْتِ "مَوْعِدِيم" شَيْءٌ، وَالْأَعْيَادُ الدِّينِيَّةُ "مِقْرَأِي قُودِيش" شَيْءٌ مُخْتَلَفٌ تَمَامًا، فَمَا الْعِلَاقَةُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ؟

يَجِبُ الْحَاخَامُ شَلُومُو يِتْسَحَاقِي (الْمَعْرُوفُ اخْتِصَارًا بِالْحَاخَامِ رَاشِي) بِأَنَّ الْحِكْمَةَ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ هِيَ التَّأَكِيدُ عَلَى قَدْسِيَّةِ الْأَعْيَادِ الدِّينِيَّةِ، مَوْضِحًا بِأَنَّ "مَنْ يَنْتَهِكُ حُرْمَةَ الْأَعْيَادِ الدِّينِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ هُوَ كَمَنْ يَنْتَهِكُ حُرْمَةَ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُّقَدَّسِ (الشَّبَاتِ)، وَمَنْ يُحَافِظُ عَلَيْهَا كَمَنْ يُحَافِظُ عَلَيْهِ". وَالفِكْرَةُ الَّتِي يَرِيدُ أَنْ يُبَيِّنَهَا لَنَا الْحَاخَامُ رَاشِي تَتَمَثَّلُ فِي الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِأَنَّهُمْ يَحْتَرِمُونَ يَوْمَ السَّبْتِ الْيَهُودِيِّ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ لِأَنَّهُ اِكْتَسَبَ قَدْسِيَّتَهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِي حِينٍ أَنَّ الْأَعْيَادَ الْيَهُودِيَّةَ لَا تَحْظِي بِتِلْكَ الدَّرَجَةِ مِنَ الْقَدْسِيَّةِ، لِهَذَا يُسْمَحُ لَنَا بِالْقِيَامِ بَعْدَ مِنَ الْأَعْمَالِ مِثْلِ الطَّبْخِ وَنَقْلِ الْأَشْيَاءِ الثَّقِيلَةِ مِنْ مَكَانٍ لِآخَرَ (وَهِيَ أَعْمَالٌ يُحْرَمُ الْقِيَامُ بِهَا فِي يَوْمِ الشَّبَاتِ)، خَاصَّةً وَأَنَّ هَذِهِ الْأَعْيَادَ الدِّينِيَّةَ تَسْتَنِدُّ إِلَى

مجهودٍ بشريٍّ في تحديدها كل عام. لكن إقحام يوم السبت اليهودي في خِصَمِّ الحديث عن باقي الأعياد الدينية اليهودية هو أمرٌ يدحضُ هذه الفِكرة.

وَيُيَيِّنُ لنا الحاخام موشيه/موسى بن نَحمان تفسيراً مُختلفاً تماماً لهذه المسألة، موضِّحاً بأن يوم السبت اليهودي (السَّبات) مذكورٌ قبل الأعياد اليهودية، بنفس الطريقة التي ذُكر بها السَّبات قبل أن تُذكر تعليماتُ موشيه لبني إسرائيل فيما يخصُّ بناء بيت العبادة (المِشكان)، وذلك للتأكيد على هذه النقطة الهامة: إنَّ الأمر الإلهي المُتعلِّق ببناء المِشكان لا يعلو في قدسيته على قدسيَّة يوم السَّبات، والحال نفسه ينطبق على الأعياد اليهودية التي لا تَعلو في قدسيَّتها على قدسيَّة يوم السَّبات. لهذا فإن قيامنا بعدد من الأعمال مثل الطبخ ونَقْل الأشياء الثقيلة من مكانٍ لآخر خلال الأعياد الدينية، لا يَعني أنه يُسمح لنا القيامُ بهذه الأعمال حين يهَلَّ عيدٌ دينيٌّ مُعينٌ في يوم السَّبت.

لكن أكثر التفسيراتِ جُرأةً لهذه المسألة جاء على يد الحاخام إيليا بن شلومو زلمان (المعروف بالحاخام چاؤون من فيلنيوس)، حيث وَضَّحَ بأن هذه الآية "وَأَمَّا الْيَوْمُ السَّابِعُ فَفِيهِ سَبْتُ عَظْلَةٍ مَحْفَلٌ مُقَدَّسٌ" لا تَنْطَبِقُ على أيَّام الأسبوع، بل تَنْطَبِقُ على أيام السنة، حيثُ توجدُ سبعة أعيادٍ دينية ذُكرت تحديداً في هذا النص الأسبوعي من نصوص التوراة: اليومُ الأول والأخير من عيد الفِصح (پيسح)، ويومٌ واحدٌ من أيام عيد الشَّفوعوت (عيد الأسابيع)، ورأسُ السنة اليهودية، ويومُ الغُفران، واليومُ الأوَّل من أيام عيد السُّكوت (عيد العرش) وأخيراً عيدُ شميني عتسيريت (وهو ثامنٌ وآخر أيام عيد العرش). وخلال ستَّة أعيادٍ من هذه المُناسبات فإنه يُسمحُ لنا بالقيامُ بأعمالٍ مثل الطبخ ونَقْل الأشياء الثقيلة من مكانٍ لآخر وغيرها، في حين أنه في العيد السَّابع، أي عيد الغُفران، يُحظرُ علينا القيامُ بمثل هذه الأعمال، لأنَّهُ "سَبْتُ السُّبوتِ" (تبعاً لما تذكرهُ الآية الثانية والثلاثون). كما وتستخدمُ التوراة تعبيرين مُختلفين للحديث عن الأعمال المَحظورة خلال الأعياد الدينية بشكل عام، والأعمال المَحظورة في "سَبْتُ السُّبوتِ" على وجهِ الحُصوص، فالأول هو "مِليخيت عَفوداه" بِمعنى الأعمال الشاقَّة أو المُرهقة، والثاني هو "مَلخاه" بِمعنى العمل، بغضِّ النظر إن كان مُرهقاً أم لا. بالتالي فإن يوم الغُفران بالنسبة لِلسنة هو بمثابة يوم السَّبت بالنسبة للأسبوع.

إن قِراءة الحاخام إيليا بن شلومو زلمان، أي الحاخام چاؤون من فيلنيوس، وتفسيره لهذه المسألة يُتيح لنا رؤية جانبٍ آخر لها، وهو وجودُ نمطيةٍ للوقتِ المُقدَّس، وهذا ما أطلقْتُ عليه مُصطلح "فراكتال" (أو الجُزئيات) في مقدمة السُّدور-كتيب الصلوات،¹ بِمعنى وجود النمط ذاته لكن في مُستوياتٍ مُختلفة المقدار. بِمعنى أن تركيبة الأسبوع المكوَّنة من ست أيامٍ متبوعة باليوم السابع، هي انعكاسٌ لتركيبه العام بأكمله والذي يتضمن ستة أعيادٍ دينية ذاتِ قدسيَّة أفلٍ من التي يتمتعُ بها العيدُ السَّابع، ألا وهو يوم الغُفران (يوم كيبور) والذي يتمتع بأقصى درجاتِ القدسيَّة. ومثلما سنرى في المقطع الخامس والعشرين من سفر اللاويين، فإن نفسَ النمطِ سيتكرَّرُ لكن على مستوى أعلى: إذ ستكونُ هناك ستُّ سنواتٍ عادية تتلوها سنةٌ سابعةٌ مميَّزة وهي سنةٌ "شميتاه" (بمعنى سنةُ الإعفاء أو الإعتاق التي لا تُزرعُ فيها الأرض).

1. المصدر هو كتيبُ الصلوات والأدعية اليهودية (منشور من قبل دار كورين للنشر)

وفي كل مرة ترغبُ فيها التوراة بالتأكيد على أهمية القدسية لأمرٍ مُعَيَّنٍ فإنها تستخدمُ الأرقام والعدد سبعة على نحوٍ منتظمٍ، كما أن كلمة "قودش" تظهر اثنتي عشر مرة على الأقل في المقطع الثالث والعشرين من سفر اللاويين). بالتالي لا توجدُ سبعُ أيّامٍ مُّقَدَّسَةٍ في التقويم السنوي فحسب، بل يوجدُ سبعُ فقراتٍ في هذا المقطع أيضاً. وكلمة "سبعة" تظهرُ على نحوٍ مُتكرّرٍ (أكثر من ثمانية عشرة مرة)، كما تتكرّرُ كلمة "شبات" (يوم السبت) بشكلٍ أو بآخر من خلال التعبيرات المُختلفة المُستخدمة للحديث عن هذا اليوم خمسةً عشرة مرة في هذا المقطع، أما كلمة "حصاد" فتتكرّرُ سبع مرات.

وعلى أية حال، يبدو بالنسبة لي وكأن المقطع الثالث والعشرين من سفر اللاويين يحملُ بين ثناياه مسألةً أُخرى، مسألةً في مُنتهى العمق الروحيّ. وحتى نتطرّق لهذه المسألة علينا أن نعودَ إلى الوراء قليلاً ونستذكر ما تحدّثنا عنه خلال النص الأسبوعي الذي يحمل عنوان "كي تيسا"، في المقالة التي تحمل عنوان "قُربُ الله مِنّا"، تحديداً حين ناقشنا مسألة بناء بيت العبادة في الصحراء (المشكان) لأن موسىه شعرَ بحاجة بني إسرائيل بأن يكون الله قريباً منهم، حيثُ أرادوا أن يستشعروا وجوده بينهم بطريقة تختلفُ عن وجوده فوق قمّة الجبل، بين ثناياهم داخل المُعسكر، لا كقوّة عظيمة ومُرعبة تهزّم أعتى الإمبراطوريات وتشقّ البحر نصفين، بل أرادوا أن يستشعروا حضوره الدائم في حياتهم. ومن هذا المُنطلق منحَ الله عزّ وجلّ بني إسرائيل المشكانَ وأمرهم بأداء المناسك الدينية فيه، مثلما توضّح لنا المقاطع 25-40 من سفر الخروج، وسفر اللاويين عموماً.

ولهذا السبب فإن مجموعة الأعياد الدينية اليهودية المذكورة في سفر اللاويين لا تُركّزُ على البُعد الاجتماعي الذي يركّزُ عليه سفر التثنية، ولا حتى على البُعد المُتعلّقٍ بالقربان التي يركّزُ عليها سفر العدد، لكنها تُركّزُ على البُعد الروحيّ المُتعلق بالقُرب والمواجهة واللقاء بين الله عزّ وجلّ وباقي البشر. وهذا يُفسّرُ لنا لماذا نجدُ في هذا المقطع تحديداً كلمتين هامتين جداً: الأولى هي كلمة "موعيد" (بمعنى الموعد المُحدّد)، والثانية هي "ميقرا قوديش" (بمعنى الاجتماع المُقدّس)، وهاتان الكلمتان تحمّلان في طيّاتهما عمقاً أكثر من الذي يُبديه ظاهرهما.

إن كلمة "موعيد" لا تحمّلُ معنى الموعد المُحدّد فحسب، حيثُ أننا نجدُ هذه الكلمة في عبارة "أوهيل موعيد" في التوراة، والتي يُقصدُ بها خيمة الاجتماع في الهيكل المُقدّس، بالتالي إن كانت عبارة "أوهيل موعيد" تعني مكان اللقاء بين الله عزّ وجلّ والبشر، فإن "موعادييم" (الأعياد الدينية) تُمثّلُ الزمانَ لهذا اللقاء المُقدّس. ولا نجدُ تعبيراً عن هذه الفكرة أفضل من الذي نجدهُ في الأنشودة الروحانية التي نُنشدها يوم السبت (الشبات) والتي تحمل اسم "يديد نيفيش" (بمعنى شقيقُ الروح) تحديداً في البيت التالي: هَلُمّي أيتها الروح فقدَ حانَ موعدُ اللقاء. وفي هذه الأنشودة تُستخدمُ كلمة "موعيد" بمعنى الموعد الغرامي بين الأحبة في مكانٍ وزمانٍ مُعيّنين.

أما بالنسبة للعبارة الثانية "ميقرا قوديش" فقد جاءت من نفس الجذر الذي جاء منه عنوان هذا السفر، أي كلمة "فايقرا"، والتي تعني "أن تُنادى بكل محبة". إنّ "ميقرا قوديش" ليست مُجرّد يومٍ مقدّسٍ فحسب، بل هي تعني اللقاء الذي نودّي علينا لحضوره بمُنتهى المحبة والمودة من قبل الله الواحد الذي يُقربنا منه على الدوام.

كَمَا أَنَّ قَدْرًا كَبِيرًا مِنْ سَفَرِ اللّٰوِيِّينَ يَتَحَدَّثُ عَنْ قُدْسِيَّةِ مَكَانِ الْعِبَادَةِ (الْمَشْكَنَ)، وَبَعْضُ مَا جَاءَ فِيهِ يَتَطَرَّقُ لِقُدْسِيَّةِ الْأَشْخَاصِ (أَيِ الْكَهَنَةِ) وَقُدْسِيَّةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَمُومًا كَوْنَهُمْ "أَبْنَاءُ لِمَمْلَكَةِ الْكَهَنَةِ". لَكِنْ فِي الْمَقْطَعِ الثَّلَاثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ هَذَا السَّفَرِ نَجِدُ التَّوْرَةَ تَنْتَقِلُ مِنَ الْحَدِيثِ عَنِ قُدْسِيَّةِ الْوَقْتِ عُمُومًا إِلَى قُدْسِيَّةِ الْأَوْقَاتِ الْمُقَدَّسَةِ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ.

إِنَّمَا كَائِنَاتٌ رُوحِيَّةٌ وَمَادِيَّةٌ فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ، لَكِنَّمَا لَا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَنْظُرَ فِي نَفْسِ الدَّرَجَةِ مِنَ الرُّوحَانِيَّةِ وَالقُرْبِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ طِيلَةَ الْوَقْتِ، لِهَذَا نَجِدُ أَوْقَاتًا دِينِيَّةً مُقَدَّسَةً بِالإِضَافَةِ إِلَى الْأَوْقَاتِ الْعَادِيَّةِ (لِلتَّفْرِيقِ بَيْنِ الْحَيَاةِ الدِّينِيَّةِ وَالْعِلْمَانِيَّةِ). لَكِنْ يَوْجَدُ يَوْمٌ مُّحَدَّدٌ مِنْ أَيَّامِ السَّبْعَةِ نَتَوَقَّفُ فِيهِ عَنِ الْعَمَلِ لِنَدْخُلَ حَضْرَةَ الْوُجُودِ الإِلَهِيِّ لِخَالِقِ هَذَا الْكُونِ. وَالْحَالُ نَفْسُهُ خِلَالَ أَيَّامٍ مُّعَيَّنَةٍ مِنَ الْعَامِ حِينَ نَحْتَفِلُ بِالأَعْيَادِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي أَمَرَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي هُوَ الإِلَهُ الْمُتَجَلِّي فِي التَّارِيخِ أَنْ نَحْتَفِلَ بِهَا فِي مَوَاقِيتٍ مُّحَدَّدَةٍ. لَكِنْ قُدْسِيَّةُ يَوْمِ السَّبْتِ مَصْدَرُهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ذَاتَهُ، وَحَدَّدَهَا حِينَ خَلَقَ هَذَا الْكُونَ الْعَظِيمَ لُوَحْدِهِ، أَمَا قُدْسِيَّةُ الأَعْيَادِ الدِّينِيَّةِ فَجُزْءٌ مِنْهَا مُرْتَبِطٌ بِالْبَشَرِ (كَوْنَهُمْ يَحْدُدُونَ التَّقْوِيمَ السَّنَوِيَّ فِي كُلِّ عَامٍ)، لِأَنَّ التَّارِيخَ هُوَ بِمِثَابَةِ عَمَلٍ مُّشْتَرِكٍ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَبَيْنَ الْبَشَرِ، لَكِنْ بِنَهَايَةِ الْمَطَافِ نَجِدُ وَجْهَيْنِ لِلشَّبْهِ بَيْنَ يَوْمِ السَّبْتِ الْمُقَدَّسِ (الشَّبَاتِ) وَالأَعْيَادِ الدِّينِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ: فَهُمَا يُمَثِّلَانِ "مَوْعِيدًا" (مَوْعِدًا) مُّحَدَّدًا، وَكِلَاهُمَا يُمَثِّلَانِ الْوَقْتِ الَّذِي نَشْعُرُ فِيهِ بِوُجُودِ نِدَاءِ إِلَهِي يَجِبُ عَلَيْنَا تَلْبِيَّتَهُ، بِحَيْثُ نَكُونُ بِمِثَابَةِ ضُيُوفٍ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ (مِيقَرَا قُودِيش).

لَقَدْ وَهَبَنَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْعَالَمَ الْمَادِيَّ الَّذِي يَتَوَجَّبُ عَلَيْنَا الْاسْتِغْرَاقُ فِيهِ، لَكِنْ الْيَوْمَ السَّابِعُ مِنْ كُلِّ أُسْبُوعٍ، وَالأَيَّامِ السَّبْعَةِ مِنْ كُلِّ عَامٍ، هِيَ الأَيَّامُ الَّتِي مَنَحَهَا اللَّهُ لَنَا عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ لِنَبْتَعِدَ عَنِ هَذَا الْاسْتِغْرَاقِ الْمَادِيِّ وَنَسْتَشْعُرَ مَدَى قُرْبِهِ وَسَكِينَتِهِ (شَخِينَاهُ بِاللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ). بِمَعْنَى آخَرَ، إِنَّهَا الأَيَّامُ الْمُحَدَّدَةُ الَّتِي يُعْمَرُنَا فِيهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِنُورِ مَحَبَّتِهِ.

بهار

هو النصّ الأسبوعيّ التاسع من كتاب "فَيَقْرَأ" (أي سفر اللاويين) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الخامس والعشرين وينتهي بالآية الثانية من المقطع السادس والعشرين.

الإحساس بالانتماء للعائلة

لقد تَطَرَّقْتُ في مقالة النصّ الأسبوعي "قدوشيم" (والتي تحملُ عنوان "في خِصْمِ البحثِ عن الهوية اليهودية") إلى مسألة اليهودية، وأنها تتخطى حدود كونها "مجموعة إثنية" لتصل إلى كونها نداءً للقداسة. في الوقت نفسه يوجد بُعدٌ عرقيٌّ لليهودية نوصّحه ببساطة من خلال طرفةٍ كانت رائجة في ثمانينيات القرن الماضي حول أحد الدعايات التجارية في مدينة نيويورك، حين كانت هناك لافتاتٌ ضخمةٌ مُعلّقة في كافة أرجاء المدينة تُرَوِّجُ لمصرفٍ تشيس منهاين الأمريكي (Chase Manhattan Bank)، فكان مكتوباً على تلك اليافطات: "لديك صديقٌ في مصرفٍ تشيس منهاين"، فجاء رجلٌ إسرائيليٌّ وكتب أسفل إحداها: "لكن لديك مشيحوها (عائلة) في البنك الوطني الإسرائيلي".

واليهود هم عائلةٌ واحدةٌ وممتدة، وهذه حقيقةٌ يُدركها كلُّ يهوديٍّ ويؤكدُ عليها بل ويثبتها هذا النصّ الأسبوعيّ من نصوص التوراة، حيثُ نجدُ طابع العائلة طاغياً على آياتِ هذا النصّ كونه يتطرّقُ لعدد من القوانين والتشريعات الاجتماعية، خاصة في الآيات التالية:

الآية الرابعة عشر من المقطع الخامس والعشرين من سفر اللاويين: "فمتي بعت أخاك مبيعاً، أو اشتريت من يد أخيك، فلا يغبن أحدكم أخاه".

الآية الخامسة والعشرين من نفس المقطع ونفس السفر: "إذا افتقر أخوك وباع ملكه، يأتي وليه الأقرب إليه ويفك مبيع أخيه".

الآيات 35-36 من نفس المقطع ونفس السفر: "وإذا افتقر أخوك وقصرت يده عنك، اعضده غريباً أو أجنبياً يعيش معك. لا تأخذ منه عينه ولا ربا، وخف، حتى يعيش أخوك معك".

الآية التاسعة والثلاثين من نفس المقطع ونفس السفر: "وإذا افتقر أخوك وبيع لك، فلا تستعبده استعباد عبداً".

إن كلمة "أخوك" المذكورة في الآيات السابقة لا يُقصدُ بها حرفياً معنى الأخوة، فقد تحمّل معنى آخر وهو القرابة، لكن غالباً ما تحمّل في هذا السياق معنى "أخوك اليهودي". ولو فكّرنا في استخدام كلمة أخ في هذا السياق لوجدناه أسلوباً مُميّزاً في النظرة إلى المجتمع وإلى مسؤولياتنا تجاه الآخرين، فنحن اليهود لسنا مجرد مواطنين ينتمون للدولة نفسها أو مجرد أتباع للدين نفسه، بل نحن

أفراد عائلة كبيرة وممتدة. وسواءً كان أحدنا يهودياً بالوراثة أو بالاعتناق فإننا نظلّ أبناء أفرهام/إبراهيم وساره، كما أننا نتشارك أغلب فترات التاريخ نفسه، وأعيادنا الدينية هي بمثابة إحياء للذكريات ذاتها. كما أننا صُهرنا جميعاً في بوثقة المعاناة ذاتها، لهذا فإن طبيعة العلاقة بيننا تتجاوز حدود الصداقة وتصل إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير: إننا عائلة واحدة (مَشْبوَحاه باللهجة اليديشية).

كما أن مبدأ العائلة هو بالطبع أحد أهم المبادئ الموجودة في صميم اليهودية، ولناخذ سفر التكوين باعتباره أول سفرٍ من أسفار التوراة لنوضح هذه النقطة، فهذا السفر لم يتطرق للحديث عن الدين أو التعاليم الدينية، ولم يتطرق إلى الجدل حول قضية الوثنية وعبادة الأصنام، بل هو يتطرق أساساً إلى موضوع العائلة: الأزواج والزوجات والأبناء والبنات والإخوة والأخوات.

كذلك فإننا نجدُ الله عزَّ وجلَّ يُعرِّفُ علاقته مع بني إسرائيل من منظور العائلة خلال مواقف حاسمة في نصوص التوراة، حيثُ يأمرُ موشيه/موسى بالتوجه إلى فرعون وأن يقولَ له بالنيابة عنه (أي بالنيابة عن الله عزَّ وجلَّ): "يسرائيلُ ابني البكرُ" تبعاً لما تذكره الآية الثانية والعشرون من المقطع الرابع من سفر الخروج. وعندما بيّن موشيه لبني إسرائيل لماذا يجبُ عليهم أن يكونوا شعباً مقدساً، خاطبهم قائلاً: "أنتم أبناء الله إلهكم، فلا تُنجسوا أنفسكم" تبعاً لما تذكره الآية الأولى من المقطع الرابع عشر من سفر التثنية. بالتالي عندما يكونُ الله بمثابة الأب بالنسبة لنا، فهذا يعني أننا إخوة وأخوات لبعضنا البعض، والعلاقة التي تجمعنا تمتدُّ إلى ما هو أبعد من ذلك ليرتبط بصميم هويتنا اليهودية.

كما سارَ أنبياءُ اليهود على نفس المنوال، إذ يُعبّرُ أحد المقاطع في سفر هوشيع/هوشع عن الله بطريقةٍ وكأنه أبٌ يُعلمُ ابنه الصغير ويأخذ بيده ليعلمه المشي تدريجياً، حيثُ تقول: "لَمَّا كَانَ يِسْرَائِيلُ غَلامًا أَحْبَبْتُهُ، وَمِنْ مِصْرَ دَعَوْتُ ابْنِي... كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ذَهَبُوا مِنْ أَمَامِهِمْ يَدْبَحُونَ لِلْبَعْلِيمِ، وَيُبْخَرُونَ لِلتَّمَائِيلِ الْمُنْحَوْتَةِ. وَأَنَا دَرَجْتُ أَفْرَايمَ/أفرايم مُمَسِكًا إِيَّاهُمْ بِأَذْرُعِهِمْ فَلَمْ يَعْرِفُوا أَنِّي سَفَيْتُهُمْ... كُنْتُ أَجْذِبُهُمْ بِحَبَالِ الْبَشْرِ، بِرُبُطِ الْمَحَبَّةِ، وَكُنْتُ لَهُمْ كَمَنْ يَرْفَعُ النَّيْرَ عَنِ أَعْنَاقِهِمْ، وَمَدَدْتُ إِلَيْهِ مَطْعَمًا إِيَّاهُ" تبعاً لما تذكره الآيات 1-4 من المقطع الحادي عشر من سفر هوشع.

والحال نفسه ينطبق على كبار حاخامات اليهود، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجدُ الحاخام الكبير عقيفا بن يوسف يستخدم عبارة "أفينو ملكينو" (أبانا ومَلِكنا) والتي تُعتبرُ واحدة من أشهر العبارات التي تُردّد في الأدعية اليهودية، وهو تعبيرٌ مُحدّد ومقصودٌ في مخاطبة الله عزَّ وجلَّ، لأنه المُسَرَّعُ والقاضي وصاحب الملك والسُلطان، لكنه قبل هذا كُلّه والدنا ونحنُ أبناءه، ولهذا السبب تحديداً تجدنا نؤمنُ بأن رحمة الله عزَّ وجلَّ دائماً تتغلَّب على عدله الحازم.

وقد تحدّث الحاخام الكبير موشيه/موسى بن ميمون عن مبدأ العائلة اليهودية الممتدة مُعبّراً بمُنتهى العُنفوان عن هذه العلاقة في خِصَم حديثه عن تشريعات التبرع والإحسانِ وفعل الخير، حيثُ يقول:

"إنَّ الشعبَ اليهوديَّ بأكمله، وجميع من تربطهم صلةٌ باليهود، يُعتبرون كالإخوة، مصداقاً لما تقوله الآية الأولى من المقطع الرابع عشر من سفر التثنية: "أنتم أبناء الله إلهكم، فلا تُنجسوا

أنفسكم". وحين لا يرحم الأخ إخوته، فمن ذا الذي سيرحمهم إذا؟ بمن يستجير اليهودي البائس؟ هل يستجير بغير اليهود الذين يكرهونه ويلاحقونه دوماً؟ لا يستجير اليهودي إلا بأخيه اليهودي"¹.

كما أن عاطفة الأخوة واللحمة والتعاضد بين أبناء العائلة الواحدة موجودة في صميم مبدأ "كول إسرائيل عريشيم زيه بزیه" (بمعنى أن كل يهودي يتحمل مسؤولية تجاه أخيه اليهودي) تماماً مثلما وضح الحاخام شمعون بار يوحاي حين قال: "إذا تألم يهودي فإن سائر اليهود يتألمون لألمه"². والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا قامت اليهودية بالاحتذاء بنموذج العائلة؟

في الواقع فإن جزءاً من الإجابة على هذا السؤال يتعلق باختيار الله عز وجل لليهود، فهو لم يختار نخبة من الصالحين أو حتى فئة قريبة منهم منزلة، بل اختار عائلة محددة امتدت ونمت مع مرور الزمن، هذه العائلة التي بدأت بأقربهم وساره ومن انحدر من نسلهما. في الوقت نفسه فإن العائلة تُعتبر أقوى أداة حاضنة للاستمرارية والمضي قدماً، وبالنسبة لليهود فإن ما كان مطلوباً منهم تغييره لم يكن ليتحقق خلال فترة جيل واحد دون أدنى شك، الشيء الذي يعني أن العائلة لها أهمية خاصة من ناحية تعليمية وتربوية، وهذا ما تُذكرنا به الآية السابعة من المقطع السادس من سفر التثنية: "وقصصها على أولادك، وتكلم بها حين تجلس في بيتك"، الأمر الذي يعني استكمال القصة اليهودية وحمل الرسالة من جيل لآخر، وهذا ما يتجلى تحديداً أثناء تناولنا لوجبة الطعام الخاصة التي نتناولها عشية عيد الفصح وما يُرافقها من قراءة لأدعية وصلوات محددة تُتلى في هذه المناسبة (سيدير).

كما يوجد سبب آخر لاختيار العائلة كنموذج لبناء الهوية اليهودية، وهو أن الشعور بالانتماء للعائلة يُعتبر من أقوى الروابط الأخلاقية التي تجمع البشر. وفي هذا السياق أستذكر مقولة مشهورة للعالم البريطاني جون بوردون ساندرسون هولدين حين سُئل عما إذا كان سيقفز في النهر ويُخاطر بحياته من أجل إنقاذ أخيه الذي يغرق، فأجاب قائلاً: "كلا، لن أفعل ذلك. لكني كنت سأفعل ذلك لو رأيت اثنين من إخوتي أو ثمانية من أبناء عمومي يغرقون". والفكرة التي أراد جون هولدين إيصالها هي أننا نُشبه أشقاءنا بنسبة خمسين بالمائة فيما يتعلق بالجينات التي نحملها، ونتشابه مع أبناء عمومتنا في هذه الجينات بنسبة الثمن تقريباً، والمخاطرة بالحياة من أجل إنقاذهم تعني ضمان تمرير جيناتنا للجيل القادم. إن هذا المبدأ المعروف بـ"اصطفاء القرابة" هو واحد من أبرز مظاهر الإيثار في حياة المرء، وبفضله يتولد لدى الإنسان وازع أخلاقي داخلي.

ولا تَقِفُ أهمية هذا المبدأ عند حدود علم الأحياء والبيولوجيا فحسب، بل تتعدى حدود ذلك لتصل إلى عالم النظريات السياسية، وفي هذا السياق يوضح المفكر السياسي الإيرلندي إدموند بيرك (1729 – 1797م) قائلاً: "إن انتماءك لمجموعة صغيرة تتفرع من مجموعة أكبر، ومحبتك لهذه الجماعة الصغيرة التي تنتمي للمجتمع، هما بمثابة المبدأ الجوهرية الذي تنطلق منه محبتك للمجتمع عموماً. إنها بمثابة الرابط الأولي الذي تنطلق منه سلسلة محبتنا لبلادنا وللإنسانية عموماً"³.

1. Maimonides, Mishneh Torah, Hilkhoh Matnot Aniyim 10:2. – "مشي توراها" – "هلخوت متنون عنيبم"

2. Mekhilta DeRabbi Shimon bar Yoḥai on Exodus 19:6

3. Edmund Burke, *Reflections on the French Revolution* (The Harvard Classics, 1909–14)

الحياة، فإن من يَفُفُ في وجه الظلم لن يكون بمُفْرده أبداً".⁴

بالتالي فإنّ العائلة القوية والمتماسكة هي الأساس الذي تقوم عليه المُجتمعات الحرة، لأنّ قوّة العائلة وتماسكها يولّدان حالة من الإيثار الذي يمتدّ إلى خارج نطاق العائلة، ليصل إلى الأصدقاء والجيران والمُجتمع ثمّ إلى الشَّعبِ بأكمله. وقد كان هذا الشعور بالانتماء للعائلة بمثابة السبب وراء بقاء اليهود في حالة التّزام تامّ بواجباتهم المُشتركة تجاه بعضهم البعض بالرغم من شتاتهم في كافة أرجاء العالم. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل لازالت هذه الحالة موجودة في وقتنا الحالي؟

في الواقع فإنّ الانقسامات التي يشهدها العالم اليهودي حالياً قد تكون عميقة أحياناً، والمُهاجرات بين فئة وأخرى قد تكون قاسية جداً لدرجة أن أحداً لا يُصدّق بأن مثل هذه المُهاجرات تحدث على أرض الواقع. وهذا ما عبّر عنه مارتن بوبر خلال خمسينيات القرن الماضي حين وضح بأنّ الحالة المعهودة لارتباط اليهود ببعضهم البعض لم تُعد موجودة، كما أن "كنيست إسرائيل" (بمعنى وحدة الأمة أمام الله عزّ وجلّ) لم يعد لها وجودٌ هي الأخرى. بمعنى آخر، فإنّ الانقسامات بين اليهود المتدينين والعلمانيين، واليهود الأرثوذكس وغير الأرثوذكس، واليهود الصهاينة وغير الصهاينة، جميعها انقسامات سبّبت صدعاً قد يكون من الصعب رأبهُ، على حد تعبير بوبر.

لكن من وجهة نظري فإنه من غير اللائق أن نُعمّم مثل هذه الأفكار، تحديداً بسبب جوهرية الانتماء للعائلة في علاقة اليهود ببعضهم البعض، فلو احتدّ النقاش بينك وبين صاحبك فإنك قد تجده خارج حياتك في اليوم التالي، لكن مهما احتدّ النقاش والجدل بينك وبين أخيك فإن رابطة الأخوة ستظلّ موجودة مهما حصل. كما أن سفر التكوين يتحدث عن الكثير من الخلافات والنزاعات بين الإخوة والأشقاء، لكنها لا تحمل جميعها النهاية نفسها. ففي قصة قايين/قابيل وهبّل/هابيل ينتهي المطاف بمقتل هبّل، بينما في قصة يسحق/إسحق وأخيه يشمعييل/إسماعيل نجد أنّهما وضعا خلافتهما جانباً ثمّ وقفا بجانب بعضهما البعض على قبر أبيهما أفرهام. والحال نفسه بالنسبة لقصة يعقوب/يعقوب وأخيه عيسف/عيسو، حيث تبلغ أحداث قصتهما ذروتها عندما يلتقيان ببعضهما البعض ويحضن كل منهما الآخر رغم الفراق الطويل بينهما، ثم يذهب كل منهما في طريقه. والحال نفسه بالنسبة لقصة يوسف وإخوته، والتي تبدأ بحالة من العداوة وتنتهي بالمسامحة والتصالح بين الإخوة.

بعبارة أخرى، بإمكان شمل العائلة أن يلتئم أياً كانت الظروف التي تفرّق بين أبنائها، والشعب اليهودي يظلّ بمثابة عائلة كبيرة ممتدة وموحّدة على الرغم من الانقسامات التي نشهدها تارة بعبارة أخرى، بإمكان شمل العائلة أن يلتئم أياً كانت الظروف هنا وتارة هناك وبالرغم من طبيعة شخصياتهم المُحبّة للنقاش والجدال، خاصة في ظلّ وجود رابطٍ آخر يجمعهم، ألا وهو رابط المصير المُشترك. ومثلما يؤكّد لنا هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة، فإنه عندما ينهار أحد إخوتنا يتوجّب علينا أن نمدّ له يد العون حتى ينهض ويقف على قدميه مُجدداً.

4. Alexis de Tocqueville, "Principal Causes Which Tend to Maintain the Democratic Republic in the United States"

بِحُوقُوتاي

هو النصُّ الأسبوعي العاشر والأخير من كتاب "فَيَقْرَأ" (أي سفر اللاويين)، وهذا النصُّ الأسبوعي يبدأ بالآية الثالثة من المقطع السادس والعشرين، وينتهي بالآية الرابعة والثلاثين من المقطع السابع والعشرين.

الوُجْهَةُ الصَّحِيحَةُ

تمتلكُ الهواتفُ الذكيةُ القُدْرَةَ على أداءِ أمورٍ مُذهلةٍ بالفعل، وأحدُ الأمثلةِ على تطبيقاتها الرائعة هو تطبيق ويز (Waze)، هذا التطبيقُ الإسرائيليُّ لتَحديدِ المساراتِ والطرقِ والمواقعِ والذي تبنّته شركة جوجل مؤخراً. لكن هنالك أمورٌ يعجزُ عن القيام بها حتى تطبيق ويز نفسه، فهو يُساعدك على إيجادِ المسارِ المُناسبِ للوصولِ إلى وُجْهَةٍ معينة، لكنه لا يُساعدك على تحديدِ الوُجْهَةِ نفسها، فهذا أمرٌ يجبُ على الإنسان نفسه أن يُقرره.

إنّ اتخاذِ الوُجْهَةِ النهائيةِ للمكان الذي نريد أن نكون فيه هو أحدُ أصعبِ القرارات التي نَتَّخِذُها في الحياة، وبدون معرفةٍ للغايةِ والمحطةِ النهائيةِ لَوُجْهَتنا فإنّ حياتنا ستكون تائهةً هائمةً، وحين نجهلُ أين نريد الذهاب فإننا لن نذهب إلى أي مكان بغض النظر عن مدى سرعتنا في السفر. لكن وبالرغم من أننا نجد أناساً يُمضون شهوراً طويلاً في التخطيط لقضاء بعض أيام العُطلة، إلا أنهم لا يُمضون يوماً واحداً للتخطيط للحياة، فهم ببساطة يتركون الأمورَ تسيرُ بطريقة عَشوائية وليكن ما يكن.

وهذا تحديداً هو موضوعُ هذا النصِّ الأسبوعي من نصوص التوراة، وهو موضوعٌ ينطبقُ على شعبٍ بأكمله، لا على الأفرادِ فحسب. لقد وضعَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذا القرار الحاسم من خلال نبيِّهِ ورسوله موسى/موسى، حين قال:

"إِذَا سَلَكَتُمْ فِي فَرَاثِي وَحَفِظْتُمْ وَصَايَايَ وَعَمِلْتُمْ بِهَا، أُعْطِي مَطَرَكُمْ فِي حِينِهِ، وَنُعْطِي الأَرْضُ غَلَّتَهَا، وَنُعْطِي أَشْجَارُ الحَقْلِ أَثْمَارَهَا، وَيَلْحَقُ دِرَاسُكُمْ بِالْقَطَافِ وَيَلْحَقُ القِطَافُ بِالرَّزْعِ، فَتَأْكُلُونَ خُبْرَكُمْ لِلشَّبَعِ وَتَسْكُنُونَ فِي أَرْضِكُمْ آمِنِينَ. وَأَجْعَلُ سَلامًا فِي الأَرْضِ، فَتَنَامُونَ وَلَيْسَ مَنْ يُزْعِجُكُمْ. وَأَبِيدُ الوُحُوشَ الرَّدِيئَةَ مِنَ الأَرْضِ، وَلَا يَعْبُرُ سَيْفٌ فِي أَرْضِكُمْ"، بحسب ما تُخبرنا الآيات 3-6 من المقطع السادس والعشرين من سفر اللاويين.

لكن من جهةٍ أُخرى، بحسب ما تُخبرنا الآية الرابعة عشر، إن "لم تسمعوا لي وتعملوا جميع هذه الوصايا" ستقع الكوارثُ وتحلُّ المصائبُ. كما أن اللعنات والمصائب المذكورة بالتفصيل في هذه الآيات تجعلها من أكثر نصوص التناخ رعباً، خاصةً وأنها تتحدثُ عن كوارثٍ ستحلُّ على مستوى شعبٍ بأكمله، مما يجعلها مملوءةً بمشاعر اليأس والإحباط. في الوقت نفسه فإن النص نفسه - بما

يحتويه من نِعْمٍ وَنِقْمٍ - يحتمل القراءة بطريقة طبيعية اعتيادية أو بطريقة تفوق حدود الطبيعة. فحين نقرأه بالأسلوب الاعتيادي فإن قَدْرَ بني إسرائيل - على الأقل في عهد التَّنَاح - كان نتيجةً مُباشرةً لِمدى ولائهم وإخلاصهم للتوراة من عدمه، حيث كان الله عزَّ وجلَّ يتدخَّل عبر مراحل التاريخ المُختلفة حتى يُكافئ الصَّالِحَ ويعاقب الطَّالِحَ، وما حلَّ ببني إسرائيل سواء كان مجاعة أم جفافاً أم هزيمة عسكرية جميعها نتائج لما اقترفوه من معاصي، في حين أن كل عامٍ سالمٍ ومُثمرٍ كان نتيجةً لطاعتهم لله عزَّ وجلَّ، وهكذا فهم أنبياء اليهود ورسولهم التاريخ اليهودي.

في الوقت نفسه توجدُ طريقةً أكثر اعتيادية وطبيعية للقراءة، تقومُ على فكرة أن التدخَّل الإلهي يكون من خلالنا نحنُ البشر على المستوى الداخلي أكثر منه على المستوى الخارجي. بمعنى أن وجودَ بني إسرائيل في أرض إسرائيل سيكون محفوفاً بالمخاطر القادمة من دول الأعداء والإمبراطوريات المُحيطة بهم والتي قد تكون أعظم وأكثر قوةً من بني إسرائيل، كما سيكونون عُرضةً لمخاطر الفيضانات والجفاف وغيرها من الكوارث الطبيعية، لأن أرض إسرائيل - خلافاً لمنطقة دلتا النيل وأرض الفُرات - لا تحتوي على ثروات مائية طبيعية دائمة أو مستقرة. لهذا، سيكون بنو إسرائيل في حالة نظر دائمٍ إلى الله عزَّ وجلَّ في عالي سماواته، وهذه حقيقةٌ يُدركها اليهودُ جيداً بما فيهم العِلْمانيون وغير المتدينين، وهذا ما عبر عنه ديفيد بن غوريون أول رئيس وزراء إسرائيلي حين قال: "في إسرائيل، حتى تكون واقعياً فإنه ينبغي عليك أن تؤمن بحدوث المُعجزات".

بالتالي، وانطلاقاً من هذه المنهجية في القراءة، فإن أسلوب الحياة الذي وضعته التوراة لنا يعتبر منهجاً فريداً ومميزاً انطلاقاً من كونه طبيعياً واعتيادياً أكثر من كونه خارقاً للطبيعة. إنه النهج القائم على إرشاد الله عزَّ وجلَّ لنا، لكن ليس كإله يُخطط استراتيجياً عبر التاريخ، بل كإله يُرشدنا إلى نهج الحياة الذي يُريدنا أن نتبعه حتى نحظى بنعمه وبركاته. والتوراة تُعدُّ بمثابة مجموعة التعليمات الحياتية التي وضعها صانع هذه الحياة وخالقها، وهذا ما قصده كبار الحاخامات عندما تحدَّثوا عن بداية الزمان والتكوين قائلين: "لقد نظرَ الله عزَّ وجلَّ إلى التوراة، ثم خلقَ هذا العالم". كما أن الحياة ضمن تعاليم التوراة - انطلاقاً من هذا المنظور - تعني تعاونَ الإنسان مع القوى التي من شأنها أن تجعله ينمو ويزدهر، خاصة في حالة مثل حالة بني إسرائيل، أي شعبٌ صغيرٌ العدد يُحيطُ به الأعداء من كل جانب.

لكنَّ ما كان مُميزاً جداً في رؤية التوراة للمُجتمع هو اهتمامها بالفرد على وجه الخصوص، وبأن العدالة هي قيمةٌ ساميةٌ وهامةٌ جداً في هذا السياق، بالتالي لا يجب أن يكون المجتمع مبنياً بطريقة يحظى فيها الغنيُّ بمعاملة خاصة في حين يُترك الفقيرُ غارقاً في فقره وبأسه. وحينما يتعلَّق الأمر بالاحتفالات والمناسبات الجماعية فإنها يجب أن تشمل الجميع وعلى رأسهم الأيتام والأرامل والغُرباء، أضف إلى ذلك أنه لكل منهم نصيبٌ من حصاد الحبوب والخضار والفواكه والمزروعات عموماً. كما يجب أن يُعامل الموظفون والعُمَّال بكل عدلٍ وإنصاف، وحتى عندما وُجدَ عبيدٌ في تلك الحقبة، فإن يوماً من أيام الأسبوع السبعة كان بمثابة يوم عطلة يستطيعون فيه تنفَسَ هواء الحرية الذي يستمتع به أسيادهم. بالتالي يوجدُ لكل شخصٍ حصّةٌ ونصيبٌ في هذا المُجتمع، الأمر الذي يجعلهم يُدافعون عن أرضهم وبلدهم حتى لو كلّفهم ذلك أرواحهم.

كما أن بني إسرائيل لم يكونوا بمثابة جيشٍ شَكَّلَهُ أحدُ الحُكَّامِ حتى يُقوموا بحماية عرشه والدفاع عنه هو شخصياً، ولهذا السبب كانوا قادرين على إلحاق الهزائم بالأعداء والجيوش التي كانت تفوقهم عدداً وقوةً. أضف إلى ذلك أنهم كانوا يمتلكون بوصلة توضح لهم غايتهم ووجهتهم في المضي قدماً، وهذا هو المعنى الحقيقي للكلمة الرئيسية التي تردت في سياق الحديث عن المصائب واللعنات التي قد تحلّ ببني إسرائيل، إنها كلمة "قيري"، وهي كلمة تتكرّر سبع مراتٍ في هذا النصّ الأسبوعي، في حين لا تظهر في أي موضعٍ آخر في التناخ بأكمله، حيث تقول الآيات 23-24 من المقطع السادس والعشرين من سفر اللاويين: "وَأَنْ لَمْ تَتَأَدَّبُوا مِنِّي بِذَلِكَ، بَلْ سَلَكْتُمْ مَعِيَ بِالْخِلَافِ (قيري)، فَإِنِّي أَسَلُّكُمْ مَعَكُمْ بِالْخِلَافِ، وَأَصْرِيكُمْ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ حَسَبَ خَطَايَاكُمْ".

وهناك عدّة تفسيراتٍ لكلمة "قيري" الواردة في هذه الآيات، فتبعاً لترجمة أنكلوس فإنها تعني "بمُنْتَهَى العِناد"، في حين أن الحاخام سعاديا چاؤون وضح بأنها تعني "على نحوٍ ثوريٍّ"، أما الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف باسم الحاخام راشي) فقد وضح بأنها تعني "المعاملة الفردية لكل مسألة"، وآخرون فسروا هذه الكلمة بمعنى "بصعوبة" أو "بمُنْتَهَى الحِقد". لكن كان للحاخام موشيه/موسى بن ميمون تفسيرٌ مختلفٌ ومُرتبِّطٌ بالكلمة العبرية "مقريه" (والتي تعني الصدفة)، وهو تفسيرٌ كان له انعكاسٌ وتأثيرٌ جُزئيٌّ على تفسيرات الحاخام راشي والحاخام راشبام وبين عيزرا والحاخام حيزقوني وغيرهم. وتبعاً لتفسير الحاخام موشيه بن ميمون فإن تلك الآية تعني: "إذا كنتم تؤمنون بأن ما يحدث لكم هو نتاج الصدفة، فالله عزّ وجلّ يقول لكم بأنه سوف يترككم للصدفة".

وعبر هذا التفسير نجد أن سفر اللاويين قد خُتِمَ تماماً كما بدأ، أي أن قَدَرَ اليهودِ محصور بين الكلمتين "مِقْرَأ" (التي تعني النداء المُحَبَّب) والكلمة "مِقْرِيه" (التي تعني الصدفة)، بمعنى أن حياتهم محصورة بين رؤية الحياة على أنها نداءٌ وعملٌ له وجهةٌ مُحددة، ورؤيتها على أنها مجرد حدثٍ عبثيٍّ وعشوائيٍّ يُحيط بنا دون أي غاية أو هدف.¹

إنّ الحال نفسه ينطبق على الفرد والمُجتمع ككلّ: فإن كنت ترى أن ما يحدث معك هو من باب الصدفة فإن مصيرك وقدرك سيكون محكوماً بهذه الصدفة، وهذا ما قصده كبار الحاخامات عندما قالوا: "في كلّ موضعٍ في التوراة نجد فيه كلمة "فَلتَكُنْ أو فَلَيتَكُنْ"، فإنها بمثابة تمهيدٍ لمصيبة تلوح في الأفق" (تبعاً لما هو مذكور في باب المِجِيلَاة 10ب). بالتالي فإنك في كل مرة تترك الأحداث تسير بعشوائيةٍ وعبثيةٍ فإنك ستجد نفسك عُرضةً لأهواء وتقلباتِ القَدَر، بل وأهواء وتقلباتِ الآخرين أيضاً.

لكن حين تؤمن بأنك موجودٌ هنا لغايةٍ مُحددةٍ فإن حياتك ستسيرُ باتجاه هذه الغاية، بحيث ستتركز عليها طاقاتك وسيتولد لديك إحساسٌ بوجود مهمةٍ لك، مما سيمنحك القوة للقيام بأمرٍ مُميّزة جداً في سبيل تحقيق هذه الغاية، وهذه هي الفكرة التي يقوم عليها وجودُ اليهود في العالم، فهم لم يؤمنوا أبداً بأن هذا الكون محكومٌ بالصدفة مثلما كان يعتقدُ البشرُ في الماضي ومثلما يؤمنُ المُلحدون في عصرنا الحالي، إذ هل كانت الصدفةُ هي السبب الكامن وراء الاهتزاز العشوائي في الفراغ

1. انظر المقالة السابقة التي تحمل عنوان "البحث عن معنى للحياة" التي تناقش النص التوراتي الأسبوعي "فَيَقْرَأ".

الكمّي الذي أدى إلى الانفجار الأعظم والذي كان السبب في وجود هذا الكون؟ أم أن الصدفة هي التي جعلت هذا الكون محكوماً بستة ثوابت رياضية على وجه التحديد؟ (وهي العوامل الستة اللازمة لتكوين النجوم والكواكب والعناصر الكيميائية الضرورية لظهور الحياة). أم أن الصدفة هي التي جعلت الحياة تتكوّن أساساً من العناصر غير الحيّة؟ أم أن الصدفة هي التي جعلت كائناً واحداً من بين مئات ملايين أنواع الكائنات الحية، وهو النوع البشري، قادراً على أن يتساءل قائلاً "لماذا"؟

بالتالي وانطلاقاً من هذه النظرة، فإنه لا يوجد ما يدعو للتناقض على الإطلاق، كما أنها نظرة تتوافق مع العلوم والحقائق العلمية التي نعرفها أو التي سنكتشفها لاحقاً. ومن منظور هؤلاء فإن الكون هو مُجرّد "قيري"، أي أنه مُجرّد صدفة، والحقيقة أنه يوجد الكثيرون الذين يؤمنون بهذه الفكرة التي لا تحمل في طياتها أي "لماذا"، لا على مستوى الأفراد ولا على مستوى الجماعات، فهذا الكون جاء من باب الصدفة ووجودنا في هذا الكون لا يتعدى كونه حادثاً عرضياً تبعاً لفهمهم. لكن اليهود يؤمنون بعكس ذلك، وبعقائدي لا يوجد أحدٌ عبّر عن هذا الإيمان اليهودي الراسخ مثل المؤرّخ المسيحي الكاثوليكي بول جونسون حين قال:

"لا يوجد قومٌ آمنوا بكل حزم وإصرار بأن لهذا العالم وللبنية جمعاء غايةً مُحددةً كاليهود، فمُنذُ مرحلة مُتقدمة من مراحل وجودهم الجماعي آمنوا بأنهم وجدوا خطة إلهية مُعينة وضعها الله عزّ وجلّ للجنس البشري، هذه الخطة التي كان المجتمع اليهودي بمثابة العينة التجريبية لها. وقد أدوا دورهم في هذه الخطة الإلهية بمنتهى البراعة والدقّة، كما تمسّكوا بها بمنتهى البطولة والإصرار بالرغم من المعاناة الشديدة التي تعرّضوا لها. والكثير منهم لا زالوا مُتشبّثين بهذا الاعتقاد، والبعض الآخر قاموا بتحويله إلى جهود بروميثية (نسبةً إلى بروميثيوس في الميثولوجيا الإغريقية الذي ضحّى بنفسه من أجل البشر) لتحسين حال الإنسانية بكافة الوسائل البشريّة المُتاحة. بالتالي أصبحت الرؤية اليهودية بمثابة نموذجٍ لخطّ أسمى للبشرية، خطّ إلهية وبشرية على حد سواء، الأمر الذي يجعل اليهود في قلب المحاولات الخالدة لمنح البشر شرف إيجاد المعنى والغاية من وجودهم".²

إن أولئك الذين يُحدِثون التغيير في العالم هم الذين يؤمنون بوجود غاية مُحددة لهذه الحياة، وبأن هذه الحياة لها مسارٌ ووجهة مُحددة، فهم يعرفون أين يذهبون تحديداً وما الذي يرغبون في تحقيقه وإنجازه، وبالنسبة للديانة اليهودية فإن غايتها واضحةٌ وُضوح الشمس: أن تُبَيّن لصحراء البشرية أين توجد الواحة التي يتعايش فيها العدلُ مع الحرية، وتنتصر فيها العدالة عندما نهتمُّ بشأن الفقراء والمساكين ونمدُّ يدنا لمن يحتاج العون، وعندما ننسبُ أخطاءنا إلى أنفسنا بينما ننسبُ نجاحنا وإنجازاتنا إلى الله عزّ وجلّ، وعندما نُقدّر هذه الحياة باعتبارها هبة من الله فنفعل كل ما بوسعنا لتقديسها.

بصريح العبارة، إن غاية اليهودية هي النقيض التام للعنف والوحشية التي يرتكبها المتدينون المتطرفون باسم الله عزّ وجلّ. وحتى تُحقّق هذه الغاية فإنه يتوجّب علينا أن نستشعر وجود الغاية

2. Paul Johnson " ,Prologue "to A History of the Jews (London: Weidenfeld and Nicolson), 19

الجماعية من وجودنا والمتمثلة في الخيار الذي طرحه موسى على بني إسرائيل بالنيابة عن الله عز وجل: "مِقْرًا" أم "مِقْرِيهِ"؟ بمعنى هل جاءت هذه الحياة بمحض الصدفة؟ أم أنها نداءٌ إلهيٌّ من الله للوصول إلى الجمال الروحاني والأخلاقي الذي من شأنه أن يقودنا للخلاص من همجية السعي وراء القوة والسلطة؟ باختصارٍ شديد، تتلخَّصُ غاية اليهود في هذه العبارة: "أن يَمْنَحُوا الْبَشَرَ شَرَفَ وَكِرَامَةً يُجَادِ الْمَعْنَى وَالْغَايَةَ لَوْجُودِهِمْ".

بِمَدْبَار: سِفْر الْعَدَد

بِمَدْبَار

بِمَدْبَار

بِمَدْبَار

هو النصُّ الأسبوعي الأوَّل من كتاب "بِمَدْبَار" (أي سِفْرُ الْعَدَدِ)، وهذا النَّصُّ الأسبوعي يحمل نفس العنوان الذي يحمله اسم هذا الكتاب. يبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الأول وينتهي بالآية العشرين من المقطع الرابع.

صَوْتُ السُّكُونِ

البشر في العالم حتى يعترضوا على قبولها، ويُمكن ربطُ هذا التفسيرِ بأحد المُعتقدات الحاخامية التي تقولُ بأن الله عزَّ وجلَّ قد عَرَضَ التَّوراةَ على جميع الشعوب والأقوام الأخرى (قبل أن يعرضها على اليهود يُقرأ هذا النصُّ الأسبوعي من نصوص التوراة عادةً خلال يوم السبت (الشَّبات) الذي يسبقُ حلول عيد الشفوعوت (عيد الأسابيع)، لهذا ربط كبار الحاخامات بين الأمرين، فَعِيدُ الشفوعوت يمثِّلُ الفترة الزمنية التي منَحنا اللهُ فيها التوراة، وكلمة "بِمَدْبَار" تعني "في الصحراء" في اللغة العبرية. لكن السؤال الذي يطرحُ نفسه هُنا: ما العلاقة بين الصحراء والتوراة، بين الخلاء المُقْفِر وكلام الله عزَّ وجلَّ؟

لقد وضع كبار الحاخامات عدة تفاسير لهذا الأمر، فمن وجهة نظر الـ"مخيلتاه" فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد منحنا التوراةَ نهاراً جهاًراً وعلى الملأ، وفي أرضٍ لا تعودُ ملكيتها لأحد، لأنه لو منحنا التوراةَ في أرض إسرائيل لقال اليهودُ لباقي البشر: "ليسَ لكم أي نصيبٍ فيها". لهذا فإن من يريدُ أن يقبلَ التوراةَ فالخيارُ متروكٌ له لأن التوراةَ ليست حِكراً على أحد.¹ وهناك تفسيرٌ آخر يقولُ بأنه في حال منح اللهُ التوراةَ لليهود فوق أرض إسرائيل، لكانَ هذا عُذراً لباقي) لكنهم رفضوا، فكانوا يختلقون الأعذار والحجج لعدم قبولها.² كما فسَّرَ البعضُ هذا الأمر على أن الخلاء لا يُكَلِّفُ أحداً شيئاً لدخوله، والحال نفسه ينطبق على التوراة التي لا تُكَلِّفُ أحداً أي شيءٍ لِقَبُولِها، ذلك لأنها منحةُ اللهِ التي وهبنا إياها.³

لكن هنالك تفسيرٌ يحمل في طياته سبباً أكثر روحانية، وهو أن الصحراء هي أرضُ الصمِّتِ والهدوءِ والسُّكُونِ، إذ ليس بها أي مظهر بصريٍّ من شأنه أن يُشَدَّتْ انتباهك، ولا يوجدُ بها أي ضجيجٍ في الأفقٍ من شأنه أن يُعَكِّرَ صفو الهدوء. في الوقت نفسه، لا بدَّ أن نُبيِّنَ بأن الصحراء لم تُكُنْ هادئةً عندما منح اللهُ التوراةَ لبني إسرائيل، فكان البرقُ والرَّعدُ وصوتُ الشوفار (وهو البوق المصنوع من قرن الأيل أو الكبش)، فبدأ الحال حينها وكأنَّ أركانَ الأرض ترتجفُ من هول هذا الموقف. لكن في وقتٍ لاحقٍ عندما وقفت النبي إيلياهو/إلياس على الجبلِ نفسه بعد مواجهته لأنبياءِ بَعْل، فقد وجدَ اللهُ في صوتٍ خافتٍ ولم يجده في النار أو العواصفِ أو الزلازل، ووجدَه تحديداً في "قُلْ دُمَامَاهُ دَقَاهُ" أي "الصوت الخافت المنخفض" (بحسب ما يذكرُ سفر الملوك الأول في المقطع التاسع عشر في الآيات 9-12).

1. المصدر: Baḥodesh, Yitro, Mekhilta, 1

2. نفس المصدر، ص 5

3. نفس المصدر.

إِنِّي أُعَرِّفُ هَذَا الصَّوْتِ عَلَى أَنَّهُ الصَّوْتُ الَّذِي بِإِمْكَانِكَ سَمَاعُهُ فَقَطْ إِذَا كُنْتَ مُصْغِيًّا. فِي خِصْمِ سُّكُونِ "الْمَدْبَارِ" (يَعْنِي الصَّحْرَاءَ) يُمَكِّنُكَ سَمَاعٌ مِنْ يَتَحَدَّثُ إِلَيْكَ وَيُخَاطِبُكَ ("مَدَائِيرُ" بِاللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ)، كَمَا يُمَكِّنُكَ سَمَاعُ صَوْتِ الْمَوْضُوعِ أَوْ الشَّخْصِ الَّذِي يَدُورُ حَوْلَهُ الْحَدِيثِ (مَدْوَابَرُ بِاللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ). وَحَتَّى تَتَمَكَّنَ مِنْ سَمَاعِ صَوْتِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّهُ يَنْبَغِي عَلَيْكَ أَنْ تَجِدَ السُّكُونَ الْمُصْغِيَّ بَيْنَ ثَنَائِيَا رُوحِكَ.

وَفِي هَذَا السِّيَاقِ أُسْتَذَكَّرُ أَحَدَ الْأَفْلَامِ الْوِثَائِقِيَّةِ الَّتِي بَثَّهَا التِّلْفِيزِيُونُ الْبَرِيطَانِي قَبْلَ سِنَوَاتٍ عَدِيدَةٍ، وَهُوَ فِيلْمٌ يَتَطَرَّقُ إِلَى أَعْظَمِ الدِّيَانَاتِ فِي الْعَالَمِ وَيَحْمِلُ اسْمَ "الْبَحْثُ الطَّوِيلُ" (The Long Search).⁴ وَعِنْدَمَا تَطَرَّقَ الْفِيلْمُ لِلدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ، بَدَأَ الْمَذِيْعُ رُونَالْدُ آيْرُ مُنْدَهَشًا مِنْ هَوْلِ الْإِرْيَاكِ الَّذِي رَأَاهُ، خَاصَّةً تِلْكَ الْأَصْوَاتِ الْعَالِيَةِ الَّتِي سَمِعَهَا حِينَ كَانَ الطَّلَبَةُ يُجَادِلُونَ وَيُنَاقِشُونَ بَعْضَهُمُ الْبَعْضَ فِي حَلَقَاتِ الدِّرَاسَةِ فِي الْمَدَارِسِ الدِّيْنِيَّةِ الْيَهُودِيَّةِ "بَيْتْ هَامْدِرَاش". وَهُنَا يُوْجِهُ الْمَذِيْعُ سُؤَالَاً لِلْبُرُوفِيسُورِ الْيَهُودِيِّ الْأَمْرِيكِيِّ الْحَائِزِ عَلَى جَائِزَةِ نُوبَلِ إِيْلِي فِيزِيلِ (وَهُوَ بِالْمُنَاسَبَةِ أَحَدُ النَّاجِيْنَ مِنْ الْمَحْرَقَةِ النَّازِيَّةِ) تَعْقِيْبًا عَلَى هَذَا الْمَشْهَدِ قَائِلًا: "هَلْ يَوْجَدُ أَيُّ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالٍ مِنَ الْهُدُوءِ فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ؟"، فَيَجِيبُهُ الْبُرُوفِيسُورُ قَائِلًا: "الْيَهُودِيَّةُ مَلِيئَةٌ بِالْهُدُوءِ... لَكِنَّا لَا نَتَحَدَّثُ عَنْهُ".

إِنَّ الدِّيَانَةَ الْيَهُودِيَّةَ هِيَ عَقِيدَةٌ مَعْنُويَّةٌ تَمْلُؤُهَا كَلِمَاتُ الْقُدَاسَةِ، وَعَبَّرَ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ خَلْقَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ هَذَا الْكُونِ، تَمَامًا مِثْلَمَا نُخْبِرُنَا الْآيَةَ السَّابِعَةَ مِنَ الْمَقْطَعِ الثَّانِي مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ: "وَقَالَ اللَّهُ لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ". وَتَبَعًا لِتَرْجُومِ (أَي تَرْجَمَةِ) أَنْكَلُوسِ، فَإِنَّ قُدْرَتَنَا عَلَى الْكَلَامِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُنَا بَشَرًا، فَقَدْ تُرْجِمَتْ فِيهِ الْآيَةُ السَّابِعَةَ مِنَ الْمَقْطَعِ الثَّانِي مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ "صَارَ نَفْسًا حَيَّةً" إِلَى "صَارَ نَفْسًا نَاطِقَةً". إِنَّ الْكَلِمَاتِ تَخْلُقُ وَتَصْنَعُ الْكَثِيرَ، وَعَبْرَهَا يَتَمُّ التَّوَاصُلُ بَيْنَ الْبَشَرِ، وَعِلَاقَاتُنَا الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِسَلْبِيَّاتِهَا وَإِجَابِيَّاتِهَا تَتَشَكَّلُ عِبْرَ اللُّغَاتِ، لِهَذَا نَجِدُ الْيَهُودِيَّةَ تُؤَلِّيْهِمْ أَهْتِمَامًا كَبِيرًا لِمَدَى قُوَّةِ وَتَأْثِيرِ الْكَلِمَاتِ سِوَاءِ فِي بِنَاءِ الْعَالَمِ أَوْ هَدْمِهِ.

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ، نَجِدُ أَنَّ الصَّمْتَ فِي الْكِتَابِ الْيَهُودِيِّ الْمَقْدَسِ (التَّنَاحِ) يَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهِ مَدْلُولَاتٍ سَلْبِيَّةٍ بِالْعَادَةِ، إِذْ تَوْضِحُ التَّوْرَةُ كَيْفَ "كَانَ أَهَارُونُ/هَارُونُ صَامِتًا" عَقِبَ وَفَاةِ ابْنِيهِ نَدَّافَ وَأَقْيَهُو (بِحَسَبِ مَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْمَقْطَعِ الْعَاشِرِ مِنْ سِفْرِ اللَّوِيَّيْنَ).

وَحَالَةٌ مُشَابِهَةٌ مِنَ الصَّمْتِ مَذْكُورَةٌ فِي سِفْرِ الْمَزَامِيرِ فِي الْمَقْطَعِ 115: "لَيْسَ الْأَمْوَاتُ يَسْبُحُونَ اللَّهَ، وَلَا مَنْ يَنْحَدِرُ إِلَى أَرْضِ السُّكُوتِ". وَالْحَالُ نَفْسُهُ يَنْطَبِقُ عَلَى مَا تَذَكَّرَهُ الْآيَةُ الثَّلَاثَةُ عَشَرَ مِنَ الْمَقْطَعِ الثَّانِي مِنْ سِفْرِ إِيُوفَ/أَيُوبِ وَالَّتِي تَقُولُ: "وَقَعَدُوا مَعَهُ عَلَى الْأَرْضِ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَسَبَعَ لَيَالٍ، وَلَمْ يُكَلِّمَهُ أَحَدٌ بِكَلِمَةٍ، لِأَنَّهُمْ رَأَوْا أَنَّ كَاتِبَهُ كَانَتْ عَظِيمَةً".

لَكِن لَّا يُمَكِّنُنَا التَّعْمِيمُ وَالْقَوْلُ بِأَنَّ جَمِيعَ حَالَاتِ وَمَوَاضِعِ الصَّمْتِ فِي التَّوْرَةِ تَحْمِلُ فِي طَيَّاتِهَا مَدْلُولَاتٍ سَلْبِيَّةٍ أَوْ حَزِينَةٍ، حَيْثُ نُخْبِرُنَا الْآيَةَ الثَّانِيَّةَ مِنَ الْمَقْطَعِ الْخَامِسِ وَالسَّتِينَ مِنْ سِفْرِ الْمَزَامِيرِ: "لَكَ الصَّمْتُ يُسَبِّحُ يَا اللَّهُ"، بِمَعْنَى أَنَّهُ حِينَ تَتَمَلَّكُنَا حَالَةٌ مِنَ الرَّهْبَةِ أَمَامَ عَظْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَحَابَةِ كُونِهِ وَأَبْدِيَّةِ زَمَانِهِ، فَإِنَّ أَعْمَاقَ مَشَاعِرِنَا وَعَوَاطِفِنَا تَكُونُ فِي حَالَةٍ مِنَ الصَّمْتِ أَمَامَ تِلْكَ الْعَظْمَةِ لِأَنَّهَا

4. تِلْفِيزِيُونِ الْبِي بي سي الْبَرِيطَانِي. عُرِضَ هَذَا الْفِيلْمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ سَنَةَ 1977م.

تعجُّزٌ عن التعبيرِ بالكلماتِ عمَّا نراه. كما كانَ كبارُ الحاخاماتِ يُقدِّرونَ جداً حالة الصمِّ والسكونِ، ووصفوها بأنها "سياجُ الحكمة" (تبعاً لما هو مذكور في كتابِ مِشناه أوث 3:13). بمعنى آخر، كان كبارُ الحاخاماتِ يؤمنون بأنه إن كانَ الكلامُ يُعادلُ قِرشاً فإن الصمِّ يُعادلُ قِرشين (تبعاً لما يذكرُ التلمود في مجيلاه، باب 18 أ). وفي هذا السياقُ يقولُ الحاخامُ شمعون بن غامليل: "لقد أمضيتُ طيلةَ حياتي بين الحكماء، ولم أجد شيئاً أعظمَ من الصمِّ" (تبعاً لما هو مذكور في كتابِ مِشناه أوث 1:17).

أضِف إلى ذلك أن تأدية الشعائر والمناسك والصلوات التي كان يؤديها الكهنة في الهيكل اليهودي المقدَّس كانت جميعها مُحاطة بالصمِّ، حيث كان اللاويون يُنشِدون الأناشيدَ في باحات الهيكل، في حين لم يكن الكهنة يُنشِدون أو يتحدَّثون إطلاقاً عندما كانوا يُقدِّمون القرابين لله عزَّ وجل، خلافاً لنظرائهم من رجال الدين في المُعتقدات القديمة. وفي هذا السياق يوضحُ الباحثُ والمؤرِّخُ يسرائيل كنول حالة "صمِّ المقدَّس"، وهو الأمر ذاته الذي ما يؤكد عليه كتابُ الرِّوهار (الذي يُعتبر مرجعاً للقبلاه والتصوِّف اليهودي)، مُعتبراً أن هذا الصمِّ هو بمثابة الوَسَطِ الذي يُبنى فيه الهيكلان السماوي والأرضي (ج 1 ص 2).

كما يوجدُ الكثير من اليهود الذين صَقَلوا مهارةَ الصمِّ باعتبارها أسلوباً لتحقيق الانضباطِ الروحيِّ، ومنهم أتباعُ حركة اليهودية الحسيدية من براتسلاف، والذين ينتهجون أسلوبَ التأمل والتفكير في البراري. وهناك مجموعاتٌ أخرى تنتهجُ أسلوباً يُدعى تَعْنِيَت ديبور (الصيامَ عن الحديث)، بمعنى الامتناع عن الكلام. أضِف إلى ذلك أن واحدة من أهم الصلوات اليهودية وهي صلاةُ الوقوف (صلاةُ العميداه باللغة العبرية) توصفُ بأنها تَفِيلاه بِإِلحاش (الصلاة الصامتة) وذلك لأنها لا تُؤدَّى جَهراً بل يُؤديها المُصلون في قرارة أنفسهم، فهي صلاةٌ يعودُ أصلها إلى حنا/حنه التي كانت تُصَلِّي في قرارة نفسها محرَّكةً شفيتها فقط في صمِّ وهي تدعو الله عزَّ وجلَّ ليرزُقها بطفل تبعاً لما تذكره الآية الثالثة عشر من المقطع الأول من سفر صموئيل الأول: "كانت تتكلمُ في قلبها، وشَفَتها فَقَطَّت حَرَكان، وصوتُها لم يُسَمِعْ".

إنَّ الله عزَّ وجلَّ يَسْمَعُ بكاءنا حتى ولو كان بكاءً صامتاً، ففي القِصَّة الحزينة التي تتحدَّثُ عن ساره وطلبها من زوجها أفرهام/إبراهيم أن يطردَ هجار/هاجر وابنها، نجدُ أن التوراة تُحدِّثنا بأنها كانت تبكي عندما بدأت المياه تَجري تحت قدمي ابنها الصغير يشمَعثيل/إسماعيل بينما هو على وشك أن يفارق الحياة.

بالتالي سَمِعَ اللهُ عزَّ وجلَّ "صوتَ الرضيع" بحسب ما تُخبرنا الآيات 16-17 من المقطع الحادي والعشرين من سفر التكوين. وفي وقتٍ سابقٍ عندما جاء الملائكة لزيارة أفرهام ليُخبروه بأن زوجته ساره ستحمل قريباً، كانت ساره تضحك في قرارة نفسها، لكن الله عزَّ وجلَّ سَمِعَ صوت ضحكها رغم أنها كانت تضحك بصمِّ، مثلما تُخبرنا الآيات 12-13 من المقطع الثامن عشر من سفر التكوين. بالتالي فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يُنصِتُ إلى أفكارنا حتى لو لم نُعبِّر عنها بالكلام جَهراً.

إن الصمت الذي تتحدّث عنه الديانة اليهودية هو "صمْتُ الإصغاء"، فالإصغاء واحدٌ من أسمى وأرقى الفنون الدينية على الإطلاق، لأنه يعني أن تُفسِّح المجال للآخرين حتى يتكلّموا ويُسمَعوا. ومثلاً وضّحت سابقاً في مستهلّ شرحي لكتاب من كتب الأدعية والصلوات اليهودية (سيدور) 5، فإنّه لا توجد كلمة إنجليزية ترادف تماماً الفعل العبري "ش.م.ع"، لأنه فعل يحمل في طياته عدداً من المعاني، ومنها معنى الاستماع والإصغاء والانتباه والفهم والاستيعاب والردّ أيضاً. وهذا الفعل كان أحد أبرز العناصر الموجودة في العهد بين الله عزّ وجلّ وبني إسرائيل في جبل سيناء، حين ردّد بنو إسرائيل مرّتين قائلين: "جميع ما أمر الله نقبله ونفعله ونسمعه" تبعاً لما تذكره الآية السابعة من المقطع الرابع والعشرين من سفر الخروج، بالتالي كان الفعل "نسمع" بمعانيه الأربعة وهي الإصغاء والسمع والانتباه والتحدّث هو التصرف الديني الرئيسي في هذا الموضوع.

وعليه نجد أن الديانة اليهودية ليست مجرد ديانة أفعالٍ وأقوال، بل هي أيضاً ديانةً إصغاء واستماع، لأن الإيمان الحقيقي يتمثّل في القدرة على الإصغاء للموسيقى الكامنة وراء الضجيج، وخير مثال عليها هي الموسيقى الصامتة للسموات والتي يتحدّث عنها سفر المزامير عبر آياته في المقطع التاسع عشر، هذه الآيات التي تقول:

"السَّمَاوَاتُ تُحَدِّثُ بِمَجْدِ اللَّهِ، وَالْفَلَكَ يُخْبِرُ بِعَمَلِ يَدَيْهِ
يَوْمٌ إِلَى يَوْمٍ يُذِيعُ كَلَامًا، وَلَيْلٌ إِلَى لَيْلٍ يُبْدِي عِلْمًا
لَا قَوْلَ وَلَا كَلَامَ، لَا يُسْمَعُ صَوْتُهُمْ
فِي كُلِّ الْأَرْضِ خَرَجَ مِنْطِقُهُمْ، وَإِلَى أَقْصَى الْمَسْكُونَةِ كَلِمَاتُهُمْ"

في الحقيقة كان هذا هو صوت التاريخ الذي التفت له الأنبياء، وهو صوت الأوامر والوصايا التي أصغى لها بنو إسرائيل فوق جبل سيناء، وهو الصوت ذاته الذي يواصل مخاطبتنا عبر مرّ الزمان. إنني أشعر أحياناً بأن البشر في العصر الحديث يجدون إشكالية في مبدأ "التوراة المنزلّة من السماء"، ليس بسبب الاكتشافات الأثرية والتاريخية التي تُثبت ذلك دون أدنى شك، بل لأنهم فقدوا القدرة على الإصغاء إلى صوت العلوّ والرقّي الروحاني، هذا الصوت الذي يتعدّى كونه مجرد صوتٍ بشريّ.

ومن المذهل أيضاً أن نجد بأن عالماً مثل سيغموند فرويد قد استوحى منهجيته للتحليل النفسي من وحي شكلٍ من أشكال الروحانيّة في اليهودية، بالرغم من حالة المدّ والجزر في علاقته بديانته اليهودية، وهو نفسه من أطلق على هذه المنهجية اسم "العلاج بالكلام"، رغم أنها في الحقيقة تعني "العلاج بالاستماع"، وهذه هي المنهجية التي تعتمد عليها معظم أساليب العلاج النفسي الفعالة بشكل عام.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل يمتلك عالمنا اليهودي آذاناً صاغيةً في وقتنا الحالي؟ هل يُصغي الأزواج لبعضهم البعض؟ هل نُصغي كأباءٍ لأبنائنا؟ هل نُصغي كقادةٍ للمخاوف الكامنة في صدور

5. كتاب صلوات وأدعية نشرته دار كورين للطباعة والنشر (Koren Shalem Siddur).

أولئك الذين نطمح لأن نقودهم؟ هل نمتلك القدرة على استيعاب مشاعر الألم التي يشعُر بها من يعتقدون بأنهم في حالة إقصاءٍ من مجتمعاتهم؟ هل بإمكاننا أن ندعي حقاً بأننا نُصغي إلى الصوت الإلهي بينما نحن غير قادرين على الإصغاء إلى صوت إخوتنا البشر؟

وفي ختام هذه المقالة، أريد أن أستذكر بعضاً من أبيات قصيدة للشاعر البريطاني ويستن هيو أودن التي قالها في ذكرى وفاة ويليام بتلر بيتس، حيث كتب قائلاً:

"فجر النبع الشافي
في صحارى القلب
وعلم الإنسان الحرّ
كيف يُسبحُ بالحمد في سجن أيامه"

إننا بحاجة ماسة من وقتٍ لآخر للابتعاد عن الصخب والضجيج الذي يحدثه عالمنا الاجتماعي لكي نخلق في قلوبنا حالة من الصمت والسكون الذي يشبه سُكون الصحراء، فمن خلال هذا الصمت سيُصبح بمقدورنا الإصغاء جيداً إلى "قُلْ ذَمَامَاهُ دَقَاهُ"، أي الصوت الخافت لله عزّ وجلّ، ذلك الصوت الذي يقول لنا دوماً بأنه يوجد من يُحبّنا ويصغي إلينا، وبأنه عزّ وجلّ يحتضننا في رحاب حضنه الأزلي، وبأننا لسنا وحيدين أيّاً كانت الظروف.⁶

6. المزيد عن موضوع الإصغاء، يُرجى الرجوع للمقالة الأولى (نصّ بريشيت) الموجودة في هذا الكتاب والتي تحمل عنوان "فنّ الإصغاء"، بالإضافة إلى المقالة التي تحمل عنوان "روحانيّة الإصغاء" (نصّ عيقف).

ناسوا

هو النصُّ الأسبوعي الثاني من كتاب "بمدبار" (أي سفر العدد) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الواحدة والعشرين من المقطع الرابع، وينتهي بالآية التاسعة والثمانين من المقطع السابع.

نعمة المحبة

يُعتبرُ نصُّ "ناسوا" أطول نصِّ أسبوعيٍّ من نصوص التوراة، ويبلغُ مُجمَل عدد الآيات فيه مئة وستة وسبعين آية. لكن بضعاً من آياته تحظى بأهمية خاصة كونها من أكثر الآيات عاطفيّةً، بالإضافة إلى تأثيرها العظيم عبر مرّ التاريخ، وهي آياتٌ قصيرةٌ يكادُ يكونُ يعرفها كلُّ يهوديٍّ، خاصةً آيات بركة الكهنة، وهذه الآيات هي 23-27 من المقطع السادس من سفر العدد، والتي تقول:

"ثُمَّ كَلَّمَ اللهُ مُوسَى وَمُوشِيَهُ/مُوسَى تَكْلِيمًا، مَرَّ أَهَارُونَ/هَارُونَ وَبَنِيهِ وَقَالَ لَهُمْ هَكَذَا تُبَارِكُونَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: يُبَارِكُكَ اللهُ وَيَحْفَظُكَ، وَيُضِيءُ وَجْهَهُ إِلَيْكَ وَيَرَأُفُكَ، وَيُقْبَلُ بِقَصْدِهِ عَلَيْكَ وَيُصَيِّرُ لَكَ سَلَامًا. وَلِيَتْلُوا اسْمِي عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَنَا سَأُبَارِكُهُمْ".

إن الآيات السابقة تُعدّ من أقدمِ الأدعية التي دوّنتها كُتُب الأدعية اليهودية، وكان يُردّدها الكهنة في بيت هامقداش (الهيكل اليهودي المقدس) قديماً، في وقتنا الحالي يُردّدها من انحدر من نسل عائلات كبار أولئك الكهنة خلال القراءة المُتكررة لصلاة العميداه (صلاة الوقوف) داخل أرض إسرائيل، وتُردّد أيضاً في غالبية الأعياد الدينية خارج أرض إسرائيل. أضف إلى ذلك أن الآباء يُردّدون هذه الآيات لمباركة أبنائهم ليلة السبت اليهودي المقدّس (ليلة الشّبات) من كل أسبوع، كما أنها تُردّد أمام العرسان أثناء وجودهم تحت عريشة "الحوياه" (الحوياه هي عريشة صغيرة يقفُ تحتها العريسُ والعروسُ كجزء من تقاليد الزواج في اليهودية وتُقامُ هذه العريشة على أربعة أعمدة). بمعنى آخر، إن هذه المجموعة من الآيات تُعتبرُ من أروع الأدعية اليهودية على الإطلاق.

كما وأننا نجدُ هذه الآيات مكتوبةً في أقدم الكتب والنصوص الدينية التوراتية التي ظلّت موجودة حتى يومنا هذا، ففي عام 1979م كان عالم الآثار الإسرائيلي غافريل باركاي يبحثُ ويتفحصُ الكهوف القديمة التي كانت تُستخدم كمقبرة خارج أسوار مدينة أورشليم القدس في منطقة كيتيف هينوم والمُقام عليها مركزُ تراث مناحيم بيجين حالياً. وأثناء ذلك البحثُ عثرَ طفلٌ يبلغُ الثالثة عشر من عمره (والذي كان يُساعدُ غافريل في عمله) على سردابٍ مخفيٍّ أسفل أرضية أحد الكهوف، وبعد الدخول إليه عثرت مجموعة الباحثين على عددٍ من الآثار القديمة التي يعودُ تاريخها إلى أكثر من ألف عام، وكان من ضمنها لفيفتان فضّيتان مُتناهيتان في الصغر لا يتجاوز طول الواحدة منها ثلاث سنتيمترات. وقد كانت هاتان اللفيفتان في مُنتهى الهشاشة لدرجة أن عملية فتحهما استغرقت ثلاث نوات من العمل الدؤوب لإيجاد طريقة لفتحهما دون أن تتفتتا. وبنهاية المطاف نجحت عملية

فتحهما واتضح أنهما تحتويان على عدد من التّمائم (قميعوت باللغة العبرية) التي تتضمنُ نصوصاً وأدعية من بينها دعاءُ بركة الكهنة. وقد أثبتَ البحثُ العلميُّ بأن هاتين اللَّفيفتين يعود تاريخهما تحديداً إلى القرن السادس قبل الميلاد، وهي الحُقبَة الزمنية التي ظهر فيها النبي يرمياهو/إرمياء بالإضافة إلى أنها شهدت آخر أيام الهيكل اليهوديِّ الأول في أورشليم القدس قبل أن يتم هدمه، كما أنها تعتبرُ أقدمَ بأربعمائة سنة من أقدم مخطوطات دينية توراتية تمَّ العثور عليها حتى ذلك الوقت، والمعروفة باسم مخطوطات البحر الميت. وقد تم وضعُ هاتين اللَّفيفتين في متحف إسرائيل حالياً بحيث تعتبران شاهداً حياً على العلاقة العريقة التي تربطُ اليهود بأرض إسرائيل منذ الأزل، هذا عدا عن كونها شاهداً بحد ذاته على استمرارية وتواصل الديانة اليهودية حتى يومنا هذا.

وبالعودة إلى بركة الكهنة، فإنَّ ما يمنحُ هذا الدعاء قوته وتأثيره هو بساطته وعظمته في الآن نفسه، حيثُ تحمل كلمات الدعاء إيقاعاً قوياً في تركيبه كلماتها، فالآية الأولى تتضمنُ ثلاث كلمات، والآية الثانية تتضمن خمس كلمات، أما الآية الثالثة فتتضمن سبع كلمات، وفي كل آية نجدُ أن الكلمة الثانية منها هي كلمة "الله" (أو الاسم الصريحُ وغير الملفوظ لله عزَّ وجل تبعاً للديانة اليهودية). كما تشيرُ الأجزاء الأولى من الآيات الثلاثة إلى بعضٍ من الأمور التي يختصُّ بها الله عز وجل، ألا وهي "يُبارِكُكُ"، "ويُضيءُ وجهه إليك"، "ويُقبَلُ عليك"، أما الأجزاء الثانية منها فتصِفُ تأثيرَ البركة علينا بما تمنحنا إياه من شعورٍ بالأمان والسلام والرافة.

في الوقت نفسه نجدُ أن هذه الآيات تتخذُ منحىً يسيرُ باتجاه داخليٍّ أكثر منه خارجياً، بمَعنى أننا نجدُ الآية الأولى التي تقول "يُبارِكُكُ اللهُ ويحفظُكُ" تتطَرَّقُ إلى البركاتِ الماديةِ تبعاً لتفسيرات كبار المفسرين اليهود، أي مُباركة الاحتياجات المادية للبشر مثل البقاء والصحة الجسدية وغيرها. أما الآية الثانية التي تقول "ويُضيءُ وجهه إليك ويرأفُكُ" فإنها تتطَرَّقُ إلى البركة المعنوية والأخلاقية، خاصة كلمة "حين" العبرية التي تعني الرافعة، لأنها قيمة أخلاقية نُظهرها في تعاملنا مع غيرنا من البشر. بالتالي تتجاوز هذه الآية الطابعَ الشخصيَّ إلى حدِّ ما، فنحنُ نطلبُ من الله عزَّ وجلَّ في هذه الآية أن يمنحنا بعضاً من رافته حتى نتمكنَ نحنُ البشرُ من العيش مع بعضنا البعض دون خصامٍ أو ربّما غيرَةٍ تقودان بنهاية المطاف إلى تسميم العلاقات الاجتماعية بيننا.

أما الآية الثالثة فهي أكثر آية يطغى عليها الطابعُ الداخلي بين باقي الآيات، وفي هذا السياق أستذكرُ قصةً جميلة تتحدث عن جماعةٍ من الناس كانوا يقفون فوق إحدى التلال المُحاذية للبحر لرؤية باخرة ضخمة كانت ستمرُّ من تلك المنطقة، ومن بين الواقفين كان هناك صبيٌّ يلوِّحُ بيديه بقوة عندما رأى الباخرة، فسأله أحد الرجال الواقفين لماذا يفعل ذلك، فأجابه الصبي قائلاً: "أنا ألوّحُ بيدي حتى يراني الرّبُّانُ السفينة فيلوّحُ لي بيديه هو الآخر"، فردَّ عليه الرجل مُتسائلاً: "لكن الباخرة بعيدة جداً وهنالك أشخاصٌ آخرون كثيرون غيرك واقفون هنا، فما الذي سيجعل الرّبُّان يراك أنت على وجه التحديد؟" فأجابه الصبيُّ بكل ثقة: "إن الرّبُّان هو والدي، سيبحثُ عني بين الواقفين هنا".

في الحقيقة فإن هذه القصة توصِّحُ لنا المقصود من الآية "ويُضيءُ وجهه إليك ويرأفُكُ"، إذ يوجد على سطح هذا الكوكب سبع مليارات إنسان، ومن الطبيعي أن يجول هذا السؤال بخاطرنا: ما الذي يُميِّزُ كل إنسان ويجعله أكثر من مُجرّد وجهٍ في هذا العدد الغفير من البشر؟ ما الذي يجعلنا نشعرُ

بأن حَجْمنا يتجاوز مُجرد قطرة ماءٍ من بحر أو حبة رملٍ من إحدى الشُّطآن؟ إن ما يجعلنا نشعرُ بذلك هو إيماننا بأننا أبناءُ الله عزَّ وجلَّ بأنه والدُّنا الذي يُقبَلُ بوجهه إلينا لأنه يعتني بنا ويكثرُ بحالنا فعلاً.

إن الله عزَّ وجلَّ إله أفرهام/ إبراهيم يتجاوزُ كونه مجرد قوّة من قوى الطبيعة، بل ويتجاوزُ في كينونته جميع قوى الطبيعة مُجمعة، فعلى سبيل المثال لا تتوقّفُ أعاصيرُ التسونامي مُكترثةً بمن سيكونُ ضحيّتها، ولا توجدُ أي أسباب شخصية تجعلُ الزلازل تستهدفُ إنساناً دون غيره. ومن هنا نجدُ أن كلمة "إلوهيم" تعني "قوّة القوى، وسبب الأسباب، والحالة الكليّة لجميع القوانين العلمية القابلة للاكتشاف". بالتالي فهي تتطرقُ إلى جوانبٍ تتعدى البعد الشخصي من كينونة الله عزَّ وجلَّ، كما أنها تنسبُ إليه العدلَ على وجه الخصوص، لأن العدلَ قيمة أساسية تتعدى حدود المستوى الشخصي.

لكن لفظُ الجلالة الذي نستخدمه للإشارة إلى الله عزَّ وجلَّ في الديانة اليهودية هو "هاشيم" (بمعنى الاسم باللغة العبرية وهي لفظة تُستخدم عوضاً عن اللفظ الصريح وغير الملفوظ لله عزَّ وجلَّ في اليهودية) وهي لفظة مُستخدمة أيضاً في دُعاء بركة الكهنة وتُستخدم في غالبية النصوص المُتعلقة بالكهنة، وهو أيضاً اللفظ الذي نستخدمه في حديثنا عن الله حين ينظر لنا على المستوى الفردي لا الجماعي، حين ينظرُ إلى كلِّ منا حسب بُنيته الفريدة من الآمال والمخاوف والهبات والإمكانات التي تُميّزُ كلَّ إنسان عن الآخر.

إن لفظُ الجلالة "هاشيم" يتطرقُ إلى جانبٍ آخر من جوانب الله عزَّ وجلَّ، فهو الجانبُ الذي يسمحُ لنا باستخدام كلمة "أنت"، لأنه الإله الذي يتحدّثُ إلينا ويصغي لنا حين نتحدّثُ إليه، لكن كيف يتم ذلك؟ بصراحة لا أحد يعلمُ هذا إلا الله، لكن هذا التواصلُ بحد ذاته يُشكّلُ موضوعاً مركزيّاً في العقيدة اليهودية.

إن استخدامنا لهذا اللفظ "هاشيم" في مخاطبة الله عزَّ وجلَّ هو بمثابة تأكيدٍ راقٍ على أهميتنا نحنُ بين بقيّة الأشياء الأخرى، فنحنُ نحتملُ حيزاً خاصاً من الأهمية كأفرادٍ لأن الله عزَّ وجلَّ يأبه بنا ويهمّه أمرنا تماماً كما يأبه الأب بامر ابنه. وليس من باب المصادفة أن تكون هذه الفكرة سبباً يجعلُ دُعاء بركة الكهنة بصيغة المُفرد، وذلك تأكيداً على أن الله لا يُبارِكنا على المستوى الجماعي كبشرٍ فحسب، بل يُبارِكنا أيضاً على المستوى الفردي، وتبعاً لمقولة أحد كبار الحاخامات فإنّ حياةً واحدة تُعادِلُ الكونَ بأسره.¹

بالتالي فإن هذا ما تعنيه الآية الثالثة والأخيرة بالضبط، فإدراكنا بأن يُقبَلُ الله بوجهه على كل إنسانٍ منّا مُخاطباً كلِّ فردٍ بميزاته التي تجعله يُتميّزُ في هذا الحشد الهائل من البشر، تُعتبرُ أعظم مصدرٍ للسلام والطمأنينة للإنسان. والكثير من التصرفات كالمنافسة والخصومة والعُنف وعدم الانصياع للقانون مصدرها هو أننا نريدُ أن نُثبتَ أهميتنا وبأننا لنا أهمية معينة، كما قد يكونُ مصدرها أننا نريدُ أن نُثبتَ للجميع بأننا أقوى أو أكثر ثروةً أو نجاحاً من غيرنا.

1. المصدر: ميشناه سنهدرين 4:5

وحيث يقوم الإنسان بهذه التصرفات حتى يبث الرعب والخوف في صدر غيره من البشر أو ربّما لجعلهم ينصاعون لرغباته وأوامره، أو ربّما ليشعر هو بدور الجلاد ويجعلهم ضحايا أو عبيداً له، فإن هذا يعني فشلاً إيمانياً وروحانياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فالإيمانُ يعني الاعتقاد الجازم بأن الله عزّ وجلّ يكثرُ بي ويأبه بأمرِي، وأني موجودٌ هنا على وجه التحديد لأن الله عزّ وجلّ يريدُ ذلك، وبأن الرّوح التي وهبني إياها هي رُوحٌ طاهرة نقيّة، وحتى عندما أتصرّف كذلك الصبيّ الذي يُلوّح بيده لربّان الباخرة فإنني أعلمُ علم اليقين بأن الله عزّ وجلّ يبحُثُ عني ويلوّح لي كما أُلوّح له، وهذا بالفعل هو أعظم مصدر للسلام والطمأنينة الداخلية. إننا لسنا بحاجة لإثبات أنفسنا حتى ننال عطايا الله عزّ وجلّ وهباته ونعمه، وما يجب علينا القيام به حتى ننالها هو الإدراك الحقيقيّ بأن الله "يقبلُ بوجهه علينا"، وعندما نكون في حالة سلام داخليّ مع أنفسنا فإنه سيكون بمقدورنا أن نصنع السلام حول العالم.

بالتالي يُصبحُ دعاء بركة الكهنة أطولَ وأكثر عمقاً، بدءاً بالبركة التي تحلُّ على المظاهر المادية والخارجية، مروراً بالبركة التي تحلُّ على المستوى الشخصي والتمثلة بالرأفة والرحمة، وانتهاءً بأكثر تلك البركات عمقاً في منحها الداخلي وهي السلام النفسي الذي نستشعره حين نعلم علم اليقين بأن الله عزّ وجلّ يرانا ويصغي إلينا ويحتضننا بين ذراعيه دوماً.

لكن توجدُ جُزئيةٌ أخرى من دعاء بركة الكهنة تجعله دعاءً مميزاً جداً، وهو الدعاء الذي أضافهُ الكهنة ليردّده قبل تنفيذ أي من وصايا التوراة (متزفاً باللغة العبرية)، هذا الدعاء الذي يقول: "بوركت يا الله، يا مَنْ قدّسنا بقداسة أهارون وأمّرتنا أن نُبارك بني إسرائيل بِكُلِّ مَحَبَّةٍ (بأهافاه)"، والعبارة الأخيرة "بكلِّ مَحَبَّةٍ" تعتبرُ عبارة استثنائية في هذا الدعاء، كونها لا تُظهرُ في أي دعاء آخر يتعلّق بتنفيذ وصيّة من الوصايا التوراتية، لذا يبدو وجودها هنا تحديداً أمراً غير منطقيّ أبداً، لأنه يُفترض بنا أن نُنفذ وصايا التوراة ونلتزم بها جميعها بِكُلِّ مَحَبَّةٍ (بالرغم من أن الله عزّ وجلّ يتقبّل أعمالنا والتزامنا بوصاياها حتى لو خلى ذلك من المحبة). لكن وبجميع الأحوال فإن وجودَ دُعاء مُحدد مُقتَرِنٍ بالقيام بأمرٍ مُعيّن يُظهرُ مدى الرّغبةِ وصدق النية في القيام بذلك العمل.

وفي هذا السياق، كانت هنالك حالة من النقاش والجدال الحادّ بين الحاخامات حول مسألة الـ"كافانا" (النية) وأهميّتها في الالتزام بتنفيذ الوصايا التوراتية.² لكن سواء كان لها أهمية أم لا، فإنه ومثلما ذكرنا سابقاً فإن ترديد دُعاء مُعيّن قبل القيام بالوصيّة يُشيرُ إلى وجودِ النية للقيام بذلك. في المُقابل، ينبغي علينا أن نُفرّق بين النية من جهة، والعواطف من جهة أخرى. لكن المُهم هو ترديد الكهنة لذلك الدعاء، والله عزّ وجلّ سيتكفّل بالباقي، لكن السؤال الذي يطرحُ نفسه هنا: ما هو الفرق الذي ستُحدثه تأديته لذلك "بكلِّ مَحَبَّةٍ" من عدمه؟

في الواقع كان هذا السؤال مُحيراً للكثير من المُفسرين الذي حاولوا جاهداً الإجابة عنه، فقال بعضهم بأن توجيه الكهنة لوجههم صوب الناس عند مباركتهم بهذا الدعاء تعني أنهم يريدون مثل

2. المصدر: روش هاشناه، 28 - أ

الكروثيم (أو الشيروبيم) وهي الملائكة التي رُمز إليها في الأشكال الموجودة فوق تابوت العهد) في المشكان (بيت العبادة)، فكلّ منهم يَصَوَّبُ وجهه تجاه الآخر كدلالة على المحبة. في حين عَيَّرَ مُفسِّرونَ آخرونَ ترتيبَ الجُمَلِ في الدعاء لِتَصْبُحَ كالتالي: "الذي قَدَّسنا بقداسة أهارون، وبكل محبة أمرنا أن نُبارك بني إسرائيل"، بِمَعْنَى أن المحبة في هذا الترتيب تعود إلى الله عزّ وجل، وليس للكهنة.

لكن أياً كان التفسيرُ الصحيح فإنني أعتقدُ بأن التفسيرَ المُلائم هو التالي: لقد بيّنت التوراة بمُنتهى الوضوح بأن الله عزّ وجلّ هو الذي يُبارك رغم أن الكهنة هم الذين يُردّدون الدعاء، تبعاً لما هو مذكور في الجزء الأخير منه والذي يقول: "وليتلو اسمي على بني إسرائيل وأنا سأباركهم". وبالعادة عندما نقوم بتنفيذ وصية معينة من وصايا التوراة (ميتسفاه) فإننا عملياً نقوم بفعل مُعيّن، لكن عندما يُردّد الكهنة هذا الدعاء فإنهم فعلياً لا يقومون بتنفيذ الأمر بأنفسهم أو من أجل أنفسهم، بل هم فعلياً بمثابة قناة يُمرّرُ الله عزّ وجلّ عبرها بركاته إلى حياتنا هذا العالم.

والمحبة هي الأمر الوحيد الذي يصف ما يقوم به الكهنة عملياً، فالمحبة تعني ألا تُركّز على ذاتنا بل نجعل تركيزنا على الآخرين، والمحبة هي الإيثار في أبهى صورته، ووحدته الإيثار يجعل الإنسان منا كلقناة التي تُمرّرُ عبرها قوة عظيمة كهذه. والمحبة "تُحرّكُ الشمس وبقية النجوم من مكانها" مثلما قال الشاعر الإيطالي العريق دانتي أليغييري³، ولا شك في أن المحبة قادرة على بث حياة جديدة في هذا العالم.

لهذا فإننا حتى نُبارك الآخرين علينا أن نتصّف بالمحبة أولاً، وحتى ننال البركة فإنه ينبغي علينا أن نعلم علم اليقين بأن الله عزّ وجلّ الذي يتجاوز في عظمته هذا الكون الشاسع يُحبّنا ويأبه بنا، وبأنه يُقبِلُ بوجهه علينا كما يُقبِلُ الأب بوجهه على أبنائه، ومعرفة هذه الحقيقة تقودنا إلى حالة من السلام الداخلي والطمأنينة الروحانية دون أدنى شك.

3. الشاعر دانتي أليغييري في شعره الملحمي "الكوميديا الإلهية"، مشهد براديسو 33.

بيهاعلوتخا

هو النصُّ الأسبوعي الثالث من كتاب "بِمَدْبَار" (أي سفر العدد). يبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الثامن، وينتهي بالآية السادسة عشر من المقطع الثاني عشر.

مِن اليأسِ إلى الأمل

إنني لا أبالغ أبداً حين أقول بأن جزءاً من هذا النصِّ الأسبوعيِّ كان بمثابة مُنقذٍ لحياتي خلال فترة معينة، إذ لا يوجد منصبٌ قياديٌّ هيئٌ أبداً، لا سيما حين يتعلَّقُ هذا المنصبُ بقيادة اليهود. والقيادةُ الروحيةُ هي أصعبُ أنواع القيادة على الإطلاق، فعادة ما نرى القادة الروحيين يتمتَّعون بشخصيات هادئة مُتفائلة مُستبشرة، لكن خلف الكواليس تجد بداخلنا عاصفة من المشاعر والعواطف المُختلفة حين نرى عمق الانقسام بين الناس، أو حين ندرك مدى تعقيد بعض المشكلات التي نواجهها ومدى هشاشة الأرضية التي نقف عليها في بعض الأحيان. ربّما نمُرُ جميعاً بمثل هذه التجارب خلال مرحلة معينة من مراحل حياتنا، حين نُدرك مكان وجودنا مقارنةً بالمكان الذي نريدُ أن نكون فيه في خضمِّ عجزنا عن إيجاد مسارٍ بين المكانين، وهذا بمثابة بدايةٍ تُمهِّد لحالةٍ من اليأس والإحباط.

وفي كل وقتٍ تملكتني هذه المشاعر كنتُ أعودُ إلى ذلك الموقفِ البائس الذي تطرَّق إليه هذا النصُّ الأسبوعي، عندما شَعَرَ نبيُّ الله ورسوله موشيه/موسى بأنه في قَمَّةِ يأسِهِ وإحباطِهِ، والمُسبَّبُ لحالةِ اليأس التي شعر بها كان يبدو سخيلاً للوهلة الأولى، وهو أن قومه كانوا يُمارسون نشاطهم المفضل: التذمُّر من الطعام! لقد سادت بينهم حالة من الحنين الخادع الذي جعلهم يشتاقدون لمذاق السمك والخيار والبطيخ والكزَّاث والبصل والثوم الذي كانوا ينعمون به في أرض مصر، بمعنى آخر: لقد اختفت تجربةُ العبودية تماماً من ذاكرتهم، والأمر الوحيد الذي كانوا يذكرونه من تلك التجربة هو الطعام فقط، وبالطبع يُمكننا تفهِّم مشاعر الغضبِ والسخطِ التي شعر بها الله عزَّ وجلَّ تجاههم نتيجة ذلك (تبعاً لما تذكره الآية العاشرة من المقطع الحادي عشر من سفر العدد). في الوقت نفسه كان موشيه أكثر غضباً، بل كان في حالة انهيارٍ عاطفيٍّ تام إن صحَّ التعبير، لهذا خاطب الله عزَّ وجلَّ قائلاً:

"فَقَالَ مُوشِيهِ لِلَّهِ: لِمَاذَا أَسَأْتَ إِلَيَّ عَبْدِكَ؟ وَلِمَاذَا لَمْ أَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْكَ حَتَّى أَنْكَ وَصَعْتَ ثِقْلَ جَمِيعِ هَذَا الشَّعْبِ عَلَيَّ؟ لَعَلِّي حَبَلْتُ بِجَمِيعِ هَذَا الشَّعْبِ؟ أَوْ لَعَلِّي وَلَدْتُهُ، حَتَّى تَقُولَ لِي أَحْمِلُهُ فِي حِضْنِكَ كَمَا يَحْمِلُ الْمَرْبِيُّ الرَّضِيعَ... مِنْ أَيْنَ لِي لَحْمٌ حَتَّى أُعْطِيَ جَمِيعَ هَذَا الشَّعْبِ؟ لِأَنَّهُمْ يَبْكُونَ عَلَيَّ قَائِلِينَ: أَعْطِنَا لَحْمًا لِنَأْكُلَ. لَا أَقْدِرُ أَنَا وَحْدِي أَنْ أَحْمِلَ جَمِيعَ هَذَا الشَّعْبِ لِأَنَّهُ ثَقِيلٌ عَلَيَّ. فَإِنْ كُنْتَ تَفْعَلُ بِي هَكَذَا، فَاقْتُلْنِي قَتْلًا إِنْ وَجَدْتَ نِعْمَةً فِي

عَيْنَيْكَ، فَلَا أَرَى بِلَيْتِي" (تبعاً لما تذكره الآيات 11-15 من المقطع الحادي عشر من سفر العدد).

إنني أرى قمة اليأس والإحباط في تلك الكلمات، لهذا كنتُ دوماً أعودُ إلى هذا الجزء تحديداً في كل مرة كنتُ أشعر فيها بشعورٍ مُماثل لأقول لنفسي: "إذا لم أصل لمرحلة اليأس والإحباط التي وصل لها موسىه فأنا لا زلتُ بخير". وبطريقة أو بأخرى، فإن مجرد معرفة أن أعظم قائد يهودي عبر التاريخ قد مرّ بتجربة بهذا العمق من الظلام هو أمرٌ مُشجّع بحد ذاته، لأنه يقول لك ببساطة أن شعورك بالفشل لا يعني بالضرورة أنك فشلت فعلاً، بل ما يعنيه أنك لم تنجح بعد. بالتالي لا تعني تلك التجربة بأنك شخصٌ فاشل، بل تعني النقيض من ذلك، لأن الفشل لا يُرافِقُ أولئك الذين يتخذون قراراً بالمجازفة، وبالطبع فإن الرغبة في المُجازفة هي أمرٌ ضروريٌ جداً حين يطمح المرء لإحداث تغيير إيجابي في العالم حتى لو كان هذا التغيير ضئيلاً.

لكن الأمر المُذهل فعلاً في التناخ هو الأسلوب الذي ينتهجه لتوثيق ليالي الظلام الروحيّ الحالك في حياة واحدٍ من أعظم أبطال الروحانية. فالقارئ لهذا النص يجد أن موسىه لم يكن الشخص الوحيد الذي يدعو الله عزّ وجلّ طالباً منه الموت، بل يوجد ثلاث أشخاص آخرين فعلوا الأمر: الأول هو النبي إيلياهو/إلياس تبعاً لما تذكره الآية الرابعة من المقطع التاسع عشر من سفر الملوك الأول، والثاني هو النبي يرمياهو/إرمياء تبعاً لما تذكره الآيات 7-18 من المقطع العشرين من سفر إرمياء، والثالث هو النبي يونا/يونس تبعاً لما تذكره الآية الثالثة من المقطع الرابع من سفر يونا.¹

كما يوضح سفر المزامير العديد من المواقف التي تطفئ عليها ملامح اليأس والإحباط، خاصة تلك المتعلقة بالملك دافيد/ داوود، فمثلما تقول الآية الثانية من المقطع الثاني والعشرين: **إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي**، والحال نفسه ينطبق على الآية الأولى من المقطع المائة والثلاثين والتي تقول: **"من الأعماق صرخت إليك يا الله"**، أضف إلى ذلك مثلاً آخر وهو الآيات 5-7 من المقطع الثامن والثمانين والتي تقول: **"بين الأموات فراشي مثل القتلَى المُضطجعين في القبر، الذين لا نذكرهم بعد، وهم من يدك انقطعوا... وضعتني في الجب الأسفل، في ظلمات، في أعماق. عليّ استقر غضبك، وبكل تياراتك دللتني"**.

بالتالي فإن الرسالة التي يريد التناخ أن يوصلها لنا من خلال تلك القصص هي رسالة تحررية بل وثورية بكل ما تحمله الكلمة من معنى، فاليهودية ليست وصفة للرخاء والهناء في الحياة، كما أنها ليست ضماناً للمرء بأنها ستكفّ عنه الألم أو الأسى، وهي بالطبع ليست مرحلة الـ **"apatheia"** (حالة ذهنية لا تضطرب فيها المشاعر أبداً) التي تحدت عنها الفلسفة الرواقية. ثم إن اليهودية ليست طريقاً نحو الـ **"nirvana"** أي إطفاء لهيب المشاعر عبر تدمير الذات. في الحقيقة توجد جوانب روحانية جميلة لهذه الأمور سألقة الذكر، ويوجد لكل منها مُرادف أو شبيه في الجوانب الصوفية للروحانية اليهودية، لكنها بعيدة كل البعد عن عالم الأبطال التي تحدت عنه التناخ. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا؟

1. بالطبع ينطبق الأمر على أيوف/ أيوب أيضاً، لكنه لم يكن نبياً. وبالاستناد إلى الكثير من المفسرين اليهود فإنه لم يكن يهودياً، لكن كتابه يتطرق لقضية أخرى، وهي لماذا تحدت الأمور السيئة في حياة الأشخاص الصالحين؟ وأنها قضية تتعلق بالله عز وجل، لا بالبشر.

إن السبب واضح جداً، وهو أن اليهودية هي الدين والمعتقد لأولئك الذين يطمحون لتغيير العالم، وهذا أمر استثنائي جداً في تاريخ الأديان عموماً، لأن غالبية الأديان والمعتقدات تتمحور حول قبول العالم كما هو، في حين أن اليهودية هي بمثابة اعتراض على هذا العالم تحت شعار الحال الذي يجب أن يكون عليه هذا العالم. لذا فإن تكون يهودياً يعني أن تسعى لإحداث تغيير معين، يعني أن تُغيّر حياة الآخرين للأفضل، وأن تكون سبباً في شفاء الآلام التي يُخلفها عالمنا المُحطّم. لكن مع الأسف الشديد نجد أن البشر لا يُحبّون التغيير، لهذا نجد أشخاصاً مثل موسى والملك داوود والنبي إيليا والنبي يرمياهو وغيرهم كانوا يعيشون حياة شاقّة جداً.

وبالعودة إلى قصة موسى فإنه بإمكاننا رؤية السبب المحدد الذي قاده نحو اليأس والإحباط، خاصة وأنه واجه تحدياً مُماثلاً في السابق، وهذا ما يوضحه لنا سفر الخروج حين تدمر بنو إسرائيل من الأمر نفسه تبعاً لما تذكره الآية الثالثة من المقطع السادس عشر والتي تقول:

"وَقَالَ لَهُمَا بَنُو إِسْرَائِيلَ: لَيْتَنَا مِتْنَا بِيَدِ اللَّهِ فِي أَرْضِ مِصْرَ، إِذْ كُنَّا جَالِسِينَ عِنْدَ قُدُورِ اللَّحْمِ نَأْكُلُ خُبْزاً لِلشَّبَعِ. فَإِنَّكُمْ أَخْرَجْتُمَانَا إِلَى هَذَا الْقَفْرِ لِكَيْ نَمِيتَا كُلَّ هَذَا الْجُمْهُورِ بِالْجُوعِ".

وخلال هذا الموقف لم يكن موسى في حالة من الانهيار لأن الناس كانوا جوعاً، فكانوا فعلاً بحاجة ماسة للطعام، وهذا أمر مشروع بالطبع. لكنهم ومنذ ذلك الموقف مروا بتجربتين بارزتين جداً، وهما تجربة تجلّي الله عز وجل فوق قمة جبل سيناء، والثانية هي بناء مكان العبادة المقدس في الصحراء (المشكان). وخلال هاتين التجربتين نجد أن بني إسرائيل قد اقتربوا من الله عز وجل أكثر من أي شعب آخر، كما أنهم لم يكونوا جوعاً أبداً، لأن فحوى شكواهم لم تكن عدم وجود الطعام، فالله عز وجل بعث لهم بالمن، لكن شكواهم وتدمرهم كان أساسها حالة الملل من تناول نفس الطعام مراراً وتكراراً تبعاً لما تذكره الآية السادسة من المقطع الحادي عشر من سفر العدد: "والآن قد يبست نفسنا، ليس شيء يُعيننا سوى هذا المن!". بمعنى آخر، فقد وصل بنو إسرائيل إلى قيمة الروحانية، لكنهم ظلوا في حالة من التمرد وإنكار الجميل وظلوا يفكرون بعقليّاتٍ محدودة الأفق، تماماً كما كانوا في السابق.²

لقد كانت هذه الحالة هي السبب الذي جعل موسى يشعر وكأن مهمته فشلت فشلاً ذريعاً، وبأن هذا الفشل سيكون رفيق دربه لاحقاً. فمهمته تتلخص في مساعدة بني إسرائيل على بناء مجتمعٍ مُخالفٍ تماماً للمجتمع الذي عاشوا فيه عندما كانوا في مصر، مجتمع يُحررهم بدلاً من أن يظلمهم، ويمنحهم الكرامة بدلاً من العبودية، لكن لم يكن يبدو هذا التغيير ظاهراً على بني إسرائيل خلال تلك المرحلة، بل كان الواقع أسوأ بكثيرٍ من ذلك، لأنهم سلّموا أنفسهم لمشاعر الحنين الخادع لمظاهر سخيفة من مظاهر حياتهم في مصر والتي تتمثل في السمك والخيار والثوم وباقي الأمور التي ذكرناها سابقاً. وحينها أدرك موسى سهولة إخراج بني إسرائيل من مصر، ومدى صعوبة إخراج

2. لاحظ بأن النصّ ينسبُ الشكوى والتدمر لما وصفه النص بعبارة "أسفسوف" (بحسب ما يذكر سفر العدد في المقطع الحادي عشر الآية الرابعة)، والتي وضح بعض المفسرين بأنه تعني الأشخاص من غير اليهود الذين لحقوا بني إسرائيل أثناء خروجهم من مصر وانضموا إليهم رغم أنهم لم يكونوا منهم.

مصر من بني إسرائيل، مُفترِضاً افتراضاً منطقياً يقولُ بأنه إن لم يكن هنالك تغيير حقيقي لدى قومه خلال تلك المرحلة فهذا يعني أنهم لن يتغيروا أبداً، الأمر الذي جعل موشيه وكأنه يتجرع كأس الهزيمة، بالتالي لم يكن هنالك أي معنى للمضي قُدماً في تلك المهمة.

وهنا يتدخلُ الله عزّ وجلّ بطمئنة موشيه، ففي بداية الأمر طلب منه أن يجمع سبعين شيخاً من شيوخ بني إسرائيل حتى يُشاركوه عبءَ ومسؤولية القيادة، ثم طلب منه ألا يقلق بشأن الطعام، لأن بني إسرائيل سيحظون عمّا قريب بالكثير من اللحوم والتي جاءت على شكل فوج هائل من طيور السمّان.

كما أنّ قمة الروعة في هذه القصة تتمثل في أحداثها القادمة، أي حين يظهرُ موشيه وكأنه تغيّر كلياً، فحين خاطبه يهوشوع/ يوشع بن نون موضحاً له بأن قيادته لبني إسرائيل محفوفة بالتحديات، أجابه موشيه قائلاً: "هل تغار أنت لي؟ يا ليت كلّ شعب الرب كانوا أنبياء إذا جعل الرب روحه عليهم" تبعاً لما تذكره الآية التاسعة والعشرون من المقطع الحادي عشر من سفر العدد. وفي المقطع اللاحق لهذا المقطع يبدو موشيه في قمة الرّصانة والهدوء حين كان أخوه وأخته يوجّهان له الانتقادات. وحين عاقب الله عزّ وجلّ شقيقته النبيّة مريم/مريم، كان موشيه يدعو الله بالنيابة عنها، وفي هذا الموضع تحديداً نجد الوصف الذي وصفه بها التناخ، حيث تقول الآية الثالثة من المقطع الثاني عشر من سفر العدد: "وأما موشيه فكان حليماً جداً أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض".

وتوضّح لنا التوراة وصفاً مميزاً جداً للديناميكية النفسية للخروج من الأزمات العاطفية، مُبينة لنا بأنه من المهم جداً في بداية الأمر ألا نكون لوحدينا أثناء شعورنا باليأس والإحباط، ففي قصة موشيه كان الله عزّ وجلّ بمثابة المُطمئن له، فكان الله هو الذي انتشل موشيه من قمة يأسه وإحباطه مُخاطباً المخاوف التي سيطرت عليه، موضحاً له بأنه لن يكون بمفرده في المستقبل أثناء قيادة بني إسرائيل، بل سيكون هناك آخرون يؤازرونه في هذه المهمة. ثم يُخبره الله عزّ وجلّ ألا يقلق حيال تدمير بني إسرائيل من الطعام، لأنهم سيحظون عمّا قريب بلحمٍ وفيرٍ لدرجة أنهم سيمرضون منه، بالتالي لن يتدمروا من مسألة الطعام أبداً بعد ذلك.

إن هذه المبادئ الأساسية هي التي قصدها كبار الحاخامات حين قالوا: "لا يُمكن للأسير إعتاق نفسه بنفسه" (تبعاً للبراحوت 5-ب). بالتالي فإننا بحاجة ليدٍ تنتشلنا من عمق يأسنا وإحباطنا ولا يمكننا أن نفعل ذلك بمفردنا، ولهذا السبب تحديداً نجد أن اليهودية تُصرّ دوماً على عدم ترك الإنسان وحيداً حين يكون في قمة ضعفه ووهنه، والأمثلة زاخرة وعديدة على هذا المبدأ، مثل التأكيد على أهمية زيارة المريض ومواساة ذوي الميت، والتأكيد على زيارة من ليس لهم أحد (الغريب واليتيم والأرملة) أثناء الأعياد والمناسبات الدينية، هذا بالإضافة إلى تأكيد اليهودية على مسألة الضيافة ووصفها بأنها "تكاد تكون أعظم من السكنية (شخيناه)" (تبعاً لباب الشبات 127-أ). ونظراً لأن حالة الاكتئاب تجعل المرء مُعزلاً عن غيره من البشر، فإن البقاء وحيداً سيزيد من عمق اليأس والإحباط، وفي قصة موشيه ربما لا يبدو من الواضح شكل المساعدة التي قدّمها له الشيوخ السبعون، إلا أن وجودهم بجانبه كان جزءاً من مساعدتهم له في الخروج من حالة اليأس والإحباط دون أدنى شك.

والأمر الثاني الذي توضحه لنا التوراة هو أن الخروج من حالة اليأس والإحباط هو بمثابة تجربة تترك أثراً كبيراً على شخصية المرء، ففي تلك المرحلة التي تكون الذات موجودة في الحضيض حيث يُدرك الإنسان بأن هذا العالم لا يتمحور حول الذات، بل يتمحور حول الغير وحول القيم والمبادئ والإحساس بوجود مهمة وغاية في هذه الحياة، فالمهم في نهاية المطاف هو القضية وليس الشخص، وهذا هو المعنى الحقيقي للتواضع. وفي هذا السياق أستذكر مقولة تُنسب للكاتب الإيرلندي سي إس لويس: "إن التواضع لا يعني التقليل من الذات، بل يعني التقليل من التفكير في الذات".

لهذا عندما يمر المرء بتجربة مماثلة من الإحباط واليأس مهما كانت قسوتها، فإنه سيصبح أقوى بكثير مما مضى حين يخرج منها، وسيصل لدرجة من القوة والرصانة التي قد لا يُصدقها هو نفسه، لأنه أدرك أن عليه ألا يضع ذاته على المحك، ووصل لقناعة بأنه لا يجب أن يفكر انطلاقاً من مركزية ذاته على الإطلاق، وهذا ما عبّر عنه الحاخام يوحنا حين قال: "العظمة تكمن في التواضع"³، بمعنى أن العظمة في الحياة تبدأ حين تمضي قداماً نحو الخارج تجاه الآخرين ومعاناتهم، وبأن معاناتهم تعني لك الكثير أكثر من معاناتك نفسها. كما أن ميزة العظمة تكمن في احتوائها على القوة واللين في الوقت نفسه، فهاتان هما أعظم قوتين للشفاء في الحياة البشرية.

لقد كان موشيه يعتقد بأنه فشل في مهمته، وهذه لحظة تستوجب منا الوقوف عندها في كل مرة نعتقد بأننا فاشلون، لكن رحلة خروجه من اليأس والإحباط وانتقاله لمرحلة القوة النابعة من عدم تركيزه على ذاته هي واحدة من أعظم الروايات النفسية في التوراة، وهي بمثابة درسٍ صالحٍ لكل زمانٍ وكل مكانٍ حول كيفية بناء واستحضار الأمل.

3. المصدر: Ekev, Pesikta Zutrata.

شلاح

هو النصُّ الأسبوعي الرابع من كتاب "بِمَدْبَار" (أي سِفْر العَدَد) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الثالث عشر، وينتهي بالآية الحادية والأربعين من المقطع الخامس عشر.

نوعان من الخوف

هُنالِكَ واحدٌ من أروع الدروس الدينية التي سمعتها للحاخام مناحيم مَنِدِل شنيؤورسون من لوبافتش حولَ قِصَّة العُيونِ الذين أرسلهم موشيه/موسى إلى أرضِ إسرائيل والمذكورة في هذا النصِّ الأسبوعي من نصوص التوراة، وهو من وجهة نظري واحد من أعظم الدروس التي سمعتها في حياتي وأكثرها قوَّة وتأثيراً، بل وأعتبره أحد أكثر الدروس الدينية التي من شأنها أن تغيِّر حياة الإنسان تغييراً جذرياً. وقد طرح الحاخام خلال درسه سؤالاً بديهيّاً جداً: كيف لعشرةٍ من العيون أن يعودوا إلى موشيه جالين معهم أخباراً من أرض إسرائيل بهذا القدر من الإحباط والخيبة والروح الانهزامية؟ كيف لهم أن يتجرأوا على القول بأنه ليس بمقدورنا الانتصار عليهم، وبأن الأقوام الأخرى هناك تفوقنا قوَّة وأنَّ مُدْنهم مُحَصَّنة وأنهم عمالقة إذا ما قارننا أنفسنا بهم؟ (تبعاً لما يصفهم سِفْر العَدَد في المقطع الآتية الثامنة والعشرين من المقطع الثالث عشر).

وهؤلاء العيون رأوا بأنفسهم كيف أرسل الله عزَّ وجلَّ الآفات والكوارث على الفراعنة في أرض مصر، هؤلاء القوم الذين ينتمون لواحدة من أعظم الإمبراطوريات وأطولها عُمرًا في التاريخ القديم، فهزمتها الله وجعلها تجثو على ركبتيها مُتَجَرِّعة كأس الهزيمة رغم قوَّة جيشها وامتلاكه أعتى التقنيات العسكرية تطوَّراً في ذلك الوقت وهي العربات التي تجرّها الخيول، لكن الله عزوجلَّ أغرقها في البحر عقب عبور بني إسرائيل إلى الضفة المقابلة. بوقد كانَّ الفراعنة أقوى بكثير من الكنعانيين واليبوسيين وباقي الممالك والأقوام الذين كانوا سيواجهون بني إسرائيل فور دخولهم لأرض الميعاد. عدا عن أن هزيمة الفراعنة لم يكن قد مرَّ عليها فترةٌ زمنية طويلة، لأنها حدثت قبل حوالي عام من تكليفهم بهذه المهمة، فكيف مُسِحَّت من ذاكرتهم بهذه السرعة؟

والأهم من هذا كله هو أن هؤلاء العيون كانوا يُدركون تماماً (بعيداً عن المقارنة التي رأوا فيها أنفسهم أقزاماً مقارنة بعمالقة الأقوام في أرض إسرائيل) بأن باقي الأقوام والشعوب كانت تُهابُ بني إسرائيل بعد ما حدث مع الفراعنة، وفي هذا السياق تذكرُ لنا الآيات 14-16 من المقطع الخامس عشر من سفر الخروج ما قاله بنو إسرائيل لأنفسهم وإنشادهم أنشودة البحر، حيث تقول الآيات:

"سَمِعَتِ الْأُمَّمُ فَرَجَرَتْ، وَأَخَذَ الطَّلُقُ سُكَّانَ فِلَسْطِينَ، حِينَئِذٍ دُهَشَ صِنَادِيدُ أَدُومَ، وَأَجْلَاءُ مَوَّابٍ أَخَذَتْهُمُ الرَّعْدَةُ، وَمَا جَمِيعُ سُكَّانِ كَنْعَانَ. فَلْتَقِعْ عَلَيْهِمُ الْهَيْبَةَ وَالْفَزْعَ بَعْظَمٍ قُدْرَتِكَ يَسْكُنُونَ كَالْحِجَارَةِ"

وَيُمْكِنُنَا الْجَزْمُ بِأَنَّ بَاقِيَ الْأَقْوَامِ وَالشُّعُوبِ كَانَتْ تَهَابُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَخْشَاهُمْ، فَلِمَاذَا إِذَا كَانَ الْعُيُونُ خَائِفِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَقْوَامِ؟ خَاصَّةً - بِحَسَبِ مَا وَضَّحَ الْحَاخَامُ فِي دَرْسِهِ - بِأَنَّ هَؤُلَاءِ الْعُيُونِ لَمْ يَكُونُوا مُجْرَدَ أَشْخَاصٍ عَادِيَيْنِ، بَلْ كَانُوا "رُؤُوسَ بَنِي إِسْرَائِيلِ" بِحَسَبِ مَا تُصِفُهُمُ التَّوْرَةُ فِي الْآيَةِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْمَقْطَعِ الثَّلَاثِ عَشَرَ مِنْ سِفْرِ الْعَدَدِ. بِمَعْنَى آخَرَ، لَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الْعُيُونُ قَادَةً مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِمْ، وَلَيْسَ مِنَ الْمُنْطَقِيِّ أَيْدَاءً أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لِلْخَوْفِ بِهَذِهِ السَّهُولَةِ.

وَبِالرَّغْمِ مِنْ وَضُوحِ السُّؤَالِ وَصِرَاحَتِهِ الْمُبَاشِرَةِ إِلَّا أَنْ إِجَابَةَ الْحَاخَامِ كَانَتْ غَيْرَ مَتَوَقَّعَةٍ عَلَيَّ الْإِطْلَاقِ، حِينَ وَضَّحَ بِأَنَّ الْعُيُونَ لَمْ يَكُونُوا خَائِفِينَ مِنَ الْفِشْلِ بِقَدْرِ مَا كَانُوا خَائِفِينَ مِنَ النِّجَاحِ! وَلِتَوْضِيحِ هَذِهِ النِّقْطَةِ طَرَحَ الْحَاخَامُ هَذَا السُّؤَالَ: كَيْفَ كَانَتْ حَيَاتُهُمْ قَبْلَ دُخُولِ أَرْضِ إِسْرَائِيلِ؟ وَالْإِجَابَةُ كَانَتْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَتَمَتَّعُونَ بِتَنَاوُلِ الْمَنِّ، وَيَشْرَبُونَ الْمَاءَ الْعَذْبَ مِنْ بئرٍ كَانَتْ بِمَثَابَةِ الْمُعْجِزَةِ فِي الصَّحْرَاءِ، مُحَاطِينَ بِغَمَامِ الْمَجْدِ مَاكْثِينَ فِي الْمُعْسَكَرِ حَوْلِ الْمِشْكَانِ (بَيْتِ الْعِبَادَةِ)، وَكَانَتْ تَمْلُؤُهُمْ وَتَحِيظُ بِهِمُ الْإِشْخِينَاةَ (السَّكِينَةَ الْإِلَهِيَّةَ) طَيِّلَةَ الْوَقْتِ، مِمَّا جَعَلَهُمْ أَقْرَبَ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. ثُمَّ طَرَحَ الْحَاخَامُ السُّؤَالَ التَّالِيَّ: كَيْفَ كَانَ سَيَكُونُ حَالُهُمْ بَعْدَ دُخُولِهِمْ لِأَرْضِ إِسْرَائِيلِ؟ بِالتَّأَكِيدِ سَيَتَوَجَّبُ عَلَيْهِمْ خَوْضُ الْمَعَارِكِ وَبِنَاءُ جَيْشٍ وَتَأْسِيسُ اقْتِصَادٍ قَوِيٍّ بِالإِضَافَةِ إِلَى فِلَاحَةِ الْأَرْضِ، وَسَطِّ الْقَلْقِ الدَّائِمِ مِنْ اِحْتِمَالِيَّةِ هَطُولِ الْمَطْرِ مِنْ عَدَمِهِ، وَغَيْرِهَا مِنْ آلَافِ الْقَضَايَا الَّتِي تُرَافِقُ حَيَاتَنَا فِي هَذَا الْعَالَمِ.

ثُمَّ طَرَحَ الْحَاخَامُ سُؤَالَ آخَرَ: مَا الَّذِي سَيَحْدُثُ لِحَالَةِ قُرْبِهِمْ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟ وَأَجَابَ بِأَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مُنْغَمَسِينَ تَمَامًا فِي مَشَاغِلِ الْحَيَاةِ وَمُتَطَلِبَاتِهَا الْمَادِيَّةِ، فَبَيْنَمَا يُمْكِنُهُمْ هُنَا، أَيَّ فِي الصَّحْرَاءِ، إِمْضَاءُ حَيَاتِهِمْ فِي تَعَلُّمِ التَّوْرَةِ وَهُمْ مُحَاطُونَ بِالْعِنَايَةِ الْإِلَهِيَّةِ، لِهَذَا سَيَكُونُونَ بَعْدَ دُخُولِهِمْ أَرْضَ إِسْرَائِيلِ مُجْرَدِ قَوْمٍ كَسَائِرِ الْأَقْوَامِ الْبَشَرِيَّةِ الْآخَرَى، وَلَنْ يَكُونُوا بِذَلِكَ الْقُرْبِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا فِي السَّابِقِ، بَلْ مُنْشَغَلِينَ بِنَفْسِ الْهَمُومِ الْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي يَنْشَغَلُ بِهَا أَيُّ شَعْبٍ آخَرَ.

وَعَلَيْهِ فَقَدْ كَانَ الْعُيُونُ خَائِفِينَ مِنَ النِّجَاحِ لَا مِنَ الْفِشْلِ، وَخَطَأَهُمْ فِي طَرِيقَةِ التَّفَكِيرِ هَذِهِ لَا يَخْتَلِفُ عَنِ الْخَطَأِ الَّذِي يَرْتَكِبُهُ أَكْثَرُ رِجَالِ الدِّينِ قَدَاسَةً، فَهَمُّ كَانُوا يَرِيدُونَ الْبَقَاءَ فِي أَقْرَبِ مَكَانٍ مُمَكِّنٍ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَكِنْ مَا كَانُوا عَاجِزِينَ عَنِ اسْتِعَابِهِ وَفَهْمِهِ هُوَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرِيدُ "أَنْ يُقِيمَ فِي الْعَوَالِمِ الدُّنْيَا"، أَيَّ أَنْ يَكُونَ حَاضِرًا فِي كُلِّ مَنَاحِي حَيَاتِنَا، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ إِحْدَى مَقُولَاتِ الْحَرَكَةِ الْيَهُودِيَّةِ الْحَسِيدِيَّةِ. وَهُنَا يَكْمُنُ أَحَدُ أَبْرَزِ الْفُرُوقِ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالدِّيَانَاتِ الْآخَرَى، فَبَيْنَمَا تَسْعَى الدِّيَانَاتُ الْآخَرَى إِلَى إِعْلَاءِ الْبَشَرِ نَحْوَ السَّمَاوَاتِ، تَسْعَى الْيَهُودِيَّةُ إِلَى إِنْزَالِ السَّمَاوَاتِ إِلَى الْبَشَرِ.

وَالْقَارِئُ لِنُصُوصِ التَّوْرَةِ سَيَجِدُ أَنَّ قَدْرًا كَبِيرًا مِنْهَا لَا يَقُومُ بِالْأَسَاسِ عَلَى الْجَوَانِبِ الدِّينِيَّةِ بِقَدْرِ مَا يَتَطَرَّقُ إِلَى الْمَسَائِلِ الدُّنْيَوِيَّةِ، مِثْلَ الْعَمَلِ وَالزَّرَاعَةِ وَقَوَانِينِ الْعَدَالَةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْإِقْرَاضِ وَالدِّينِ وَتَمَلُّكِ الْأَرْضِ وَغَيْرِهَا. كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الصَّعْبِ أَيْدَاءً أَنْ يَخُوضَ الْمَرْءُ تَجْرِبَةً دِينِيَّةً رُوحَانِيَّةً عَمِيقَةً فِي

قلب الصحراء أو في دير أو في أشرم (بيت عبادة هندي)، الأمر الذي يجعل الأديان تمتلك بيوتاً للعبادة بهدف الابتعاد عن ضغوطات ومتاعب الحياة اليومية. وحتى في الديانة اليهودية كانت هناك طائفة تسكن منطقة قمران القريبة من البحر الميت (والذين تعرّفنا عليهم بعد اكتشاف مخطوطات البحر الميت مؤخراً) تمتلك داراً للعبادة، وغيرها من الطوائف تُحاول أتباع النهج نفسه، بالتالي لا غرابة على الإطلاق في أتباع مثل هذا النهج.

لكن في الوقت نفسه فإن هذا ليس جزءاً من مهمة الديانة اليهودية في هذا العالم، لأن الله عز وجل أراد لبني إسرائيل أن يبنوا مجتمعاً يكون قُدوةً لغيره من المجتمعات البشرية، مُجتمع لا يُعامل فيه البشر مُعاملة العبيد، ولا يوجد فيه قُداسةً للقوانين والتشريعات والحكام بدرجة القداسة الإلهية، مُجتمع تُصان فيه الكرامة الإنسانية ولا تُميّز فيه القوانين بين الغني والفقير، فلا يُترك أحد بمفرده، ولا مكانة لأحد فوق القانون، والأهم من هذه كله هو ألا يكون أي جانب من جوانب الحياة خالياً من الأخلاق والمثل والقيم. في المُقابل، فإن تحقيق هذه الأمور يتطلب وجود مُجتمع فعلي، ووجود هذا المُجتمع يتطلب أرضاً واقتصاداً وجيشاً وحقولاً ومزارع وعمّالاً وأعمالاً وإقداماً على القيام بكل هذا. وبالنسبة للديانة اليهودية فقد أصبح تحقيق هذه الأمور بمثابة طُرُقٍ لجلب السكينة الإلهية (شخيناها) واستحضارها في كل مساحةٍ من المساحات المُشتركة في حياتنا الجماعية.

ومرة أخرى أكرّر بأن العيون كانوا خائفين من النجاح لا من الفشل، وبأن خطأهم في طريقة التفكير هذه لا يختلف عن الخطأ الذي يرتكبه أكثر رجال الدين قُداسةً، لكنه في نهاية المطاف كان خطأ، وهو الأمر ذاته الذي شكّل أكبر تحدٍ روحي في أعظم حدثٍ شهده التاريخ اليهودي منذ أكثر من ألفي عام: إنّه عودة اليهود إلى أرض ودولة إسرائيل. لهذا أكاد أجزم أنه لم توجد في الماضي ولا في الحاضر أي حركة سياسية تحمل معها هذا الكم الهائل من الأحلام والطموحات مثل الحركة الصهيونية، حيث يرى المُتديّنون أن عودة اليهود إلى أرض إسرائيل هي بمثابة تحقيق للنبوءات، في حين يراها اليهود العلمانيون إنجازاً حققوه حين عادوا لأرضهم وكتبوا التاريخ بأيديهم. كما رأى البعض هذه العودة من منظور تولستوي على أنه إعادة للتواصل بين الأرض وترباها، بينما رآه آخرون من منظور نيتشه على أنه تأكيدٌ للتمازج بين الإرادة والقوة، وهناك آخرون يعتبرونها بمثابة إيجاد ملجأ للنجاة من مُعاداة السامية الأوروبية، وآخرون ينظرون إليها على أنها أول زهرة تتفتح في حقل الخلاص المسياني (قدوم المسيح المُخلص). ومن هذا المنطلق يُمكننا القول بأن كل مفكر صهيوني كانت له رؤيته الطوباوية المثالية، ولمرحلة معينة يُمكننا القول بأنها جميعها تحمل درجةً كبيرة من الصّحة.

في الوقت نفسه كان بنو إسرائيل أبسط من هذه الأفكار بكثير، فاليهود عموماً واجهوا خلال الأربعة آلاف عام المُنصرمة من تاريخهم شتى أشكال الظروف الحياتية في كافة المناطق التي تواجدوا فيها، بدءاً بالآلام المُساوية وانتهاءً بالنصر المؤرّر. لكن ورغم جميع هذه الظروف كان هنالك مكاناً واحداً طُلب منهم التوجّه إليه منذ فجر التاريخ، وذلك حتى يبنوا مُجتمعهم على أُسس من القيم والمثل العليا، مُجتمع يكون مُختلفاً عن المجتمعات المُجاورة له بحيث يكونون فيه قُدوةً لغيرهم في كيفية تسخير الاقتصاد والمنظومة التعليمية ومنظومة العدالة الاجتماعية كأدواتٍ من أجل تحقيق الحُضور الإلهي والسكينة الإلهية (شخيناها) وجلبها إلى العالم الدنيوي.

بمعنى آخر، لن يكون من الصعب على المرء أن يجد الله عز وجل في الصحراء حين لا يأكل من عرق جبينه وحين يتكل على الله ليحارب بالنيابة عنه، وبحسب ما يُبين لنا الحاخام مناحيم مندِل فقد كان العيون العشرة يسعون بالفعل للعيش بهذا النمط الاتكالي في الحياة، مُبيناً بأن الله لا يريد منا أن نكون كذلك، بل يريدنا أن نكون أكثر تفاعلاً مع هذا العالم الدنيوي، ف يريد منا أن نكون سبباً في شفاء العليل وإطعام الجائع، وأن نحارب الظلم بكل ما أوتي القانون من قوة، وأن نُكافح الجهل ونُحاربه من

خلال التعليم. إن الله عز وجل يريد منا أن نُبين للبشر كيف تكون محبة الجار والغريب، تماماً مثلما بيّن الحاخام عقيفا في هذا السياق حين قال: "المحبة هي الإنسانية، لأن كل إنسان منا مخلوق بصورة الله عز وجل" (مِشناه أفوت 3:14).

لذا يُمكننا القول بأن الروحانية اليهودية موجودة في قلب الحياة ذاتها، حياة المجتمعات البشرية والمؤسسات الموجودة فيها. وحتى نتكّن من بناء هذا المجتمع فإنه ينبغي علينا مُحاربة نوعين من المخاوف: الخوف من الفشل والخوف من النجاح. والخوف من الفشل هو أمر اعتيادي ومألوف بين البشر، لكن الخوف من النجاح أمرٌ نادرٌ جداً، لكن هذا لا يعني أنه ليس سبباً من أسباب الضعف في بعض الأحيان. والأمر المشترك بين النوعين هو أن مصدرهما يكمن في حالة التردد عندما يتعلّق الأمر بالمخاطرة، والإيمان بحد ذاته يُمثّل الجرأة على المخاطرة، فهو لا يعني اليقين بل يعني القدرة على الحياة مع اللاتيقين. بمعنى آخر، إن الإيمان يتمثل في قدرتنا على الإصغاء إلى الله عز وجل حين وهو يخاطبنا كما خاطب أفرهام/إبراهيم قائلًا له: "سر ألامي" مثلما تذكر الآية الأولى من المقطع السابع عشر من سفر التكوين.

لقد عاش الحاخام مناحيم مندِل مُتمثلاً للتعاليم والدروس التي كان يُعلّمها لغيره، فبعث الكثير من الرُّسل إلى كل بقعة من بقاع هذا العالم يتواجد فيها اليهود، وهكذا نجح في بناء حياة يهودية كما يجب أن تكون. وقد كان يُدرِك تماماً بأنه يطلب من تلامذته وتابعيه أن يُقدّموا على المُخاطرة عبر التوجه إلى أماكن تتواجد فيها تحدّيات من كل شكل ولون، لكنه كان يؤمنُ بهم وباللّه عز وجل وبالمهمّة اليهودية التي يجب أن يكون مكانها الصحيح في الحياة العامة، هذه المساحة التي نتشارك فيها مُعتقدنا مع الآخرين إلى حدٍ كبير وبأشكالٍ عمليّة مُتعددة.

بالتالي لم تكن مُغادرة الصحراء والتوجّه إلى عالمٍ آخر مليءً بالتعقيدات والتحدّيات والإغراءات أمراً سهلاً على الإطلاق، لكن هذا ما يريده الله عز وجل منا، إنه يُريدنا أن نستحضر روحانيته في طريقة إدارتنا للاقتصاد ومنظومة العدالة الاجتماعية ومنظومة الجيش والقضاء والرعاية الصحيّة، وذلك حتى نُداوي جراح هذا العالم ونجلب ولو قدرًا بسيطاً من قبس النور الإلهي إلى مواضع مُعتادة على الغرق في الظلام الدامس.

قورح

هو النصُّ الأسبوعي الخامس من كتاب "بِمَدبار" (أي سِفر العدد). يبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع السادس عشر وينتهي بالآية الثانية والثلاثين من المقطع الثامن عشر.

السّياسة وتَسلسُلُ المناصبِ في أنظمةِ الحُكم: قصةٌ لا نهايةَ لها

لقد كان صِراعاً كلاسيكياً اعتيادياً على السُّلطة، والأمرُ الوحيدُ الذي يُميز هذا الصِّراع عن دراما الصِّراعات السّياسية الاعتيادية التي تُحدثُ في أيِّ بلاطٍ ملكيٍّ أو في قاعات البرلمانات المُغلقة وأروقة صُنْع القرار والسّياسة هو أنه حَدَثَ في حديقة حيوانات برغرز في مدينة آرنبم الهولندية، والشخصياتُ المُتصارعة على الحُكم كانتُ ذُكور الشِّمبانزي.

وقد تطرَّق باحث علم السلوك الحيواني الهولندي فرانسيسكوس دي فال إلى هذا الصِّراع وأجرى دراسة حوله تحمل عنوان "سياسة الشِّمبانزي (*Chimpanzee Politics*)"،¹ وهي إحدى الدراسات التي يُمكن اعتبارها مرجعاً في سياق الحديث عن مسألة الصِّراع على السُّلطة والحُكم. توضَّح هذه الدراسة حالة المواجهة بين قرد شِمبانزي يُدعى يروين والذي كان مُهيمناً على بقية القطيع (الذكر ألفا تبعاً للاصطلاح العلمي) من جهة، وبين قرد شِمبانزي يافع يُدعى لوي من جهة أخرى. حيث لم يكن بمقدور لوي أن يطيح بِحُكم يروين بمُفرده، لهذا شكَّل تحالفاً برفقة قرد شِمبانزي يافع آخر يُدعى نيكي. وبنهاية المطاف ينجح لوي في الإطاحة بيروين والسيطرة على مقاليد الحُكم.

وقد كان لوي يؤدي مهامه كقائد الشِمبانزي على أكمل وجه، فقد حافظ على السُّلم الأهلي داخل القطيع، وكان نصيراً للمُهمّشين والمُستضعفين، لهذا حظي باحترام الجميع. كما لاحظت إناث الشِمبانزي المهارات القيادية التي يتمتع بها لوي، لهذا كانت تُنظِّفه وتُتلافه وتعتني به باستمرار، كما وكانت تسمح له باللعب مع أطفالها الصغار. في المُقابل، نجدُ أن يروين لم يكن سيّجني شيئاً من مُعارضة حُكم لوي، فقد كان كبيراً في العُمر لدرجة لا تخوّله باسترجاع منصب الذكر ألفا، لكن بالرغم من ذلك فقد قرّر يروين الانضمام إلى القوّة التي شكّلها نيكي. لكن فجأة تنقلب الأمور رأساً على عَقِب حين يقومان بمُباغته لوي في إحدى الليالي وقتله، وهكذا نجح القائدُ المخلوع في الانتقام مِن أطاح به. إن هذه القصة تُذكّرني بقصة مُماثلة للحاخام هِلل كنتُ قد قرأتها في المُشناه في كتاب دُروب آبائنا

1. المصدر: فرانسيس دي فال - (*Chimpanzee Politics*, Frans de Waal) (London: Cape, 1982)

الخاصات (أفوت 2:6)، حين رأى في أحد الأيام جُمجمة تطفو على سطح الماء، فقال وهو يُخاطبها: "لقد غرقت لأنك أغرقت غيرك، ومن أغرقوك سيكون مصيرهم الغرق هم الآخرون". واللافت للنظر أن صراع قورود الشمبانزي يُشبهه إلى حدٍ كبير الصراعات بين البشر للسيطرة على مقاليد السُّلطة والحكم، وهذا ما جعلَ النائبَ الجمهوريِّ والمُتحدث باسم البرلمان الأمريكي نيوت جنجريتش يضعُ دراسةً فرانسيس دي فال هذه من ضمن خمس وعشرين كتاباً أوصى الجيل الشاب من نواب الكونغرس الجمهوريين الأمريكيين بقراءتها.²

وبالعودة إلى النصِّ الأسبوعي من نصوص التوراة (والذي تطرَّق إلى صِراعٍ مُماثل على السُّلطة) فإننا نجدُ أن قورح كان يحمل فكرًا سياسياً ميكافيلياً بحتاً، كونه أدرك القواعد الأساسية الثلاثة للإطاحة بخصمك، حيث ينبغي عليك أولاً أن تكتسب شعبيةً بين أبناء قومك من خلال اللعب على وترِ حالة الغضب والسخط التي يشعرون بها، بحيث تجعلهم يشعرون وكأنك تقف في صفهم ضد القائد الحالي. فقال مخاطباً موشيه/موسى وشقيقه أهارون/هارون: "كفاكماً! إنَّ جميعَ القوم مُقدَّسون وفي وسطهم الله، فما بالكما تترفعان على جماعة الله؟"، تبعاً لما تذكره الآية الثالثة من المقطع السادس عشر من سفر العدد.

أما القاعدة الثانية فتقول بأنه ينبغي عليك أن تُقيم تحالفاً ضدَّ خصمك، وعلى الرغم من أن قورح نفسه كان ينحدر من نسل اللاويين إلا أن مصدر تدمره وانزعاجه هو أن موشيه قام بتنصيب أخيه أهارون ليكون كبير الكهنة، بالتالي بدا جلياً أن قورح كان يعتقد بأنه هو من يستحق هذا المنصب باعتباره ابن عم موشيه وأهارون (والد قورح هو يتسهار شقيق عمرام/عمران والد موشيه وأهارون)، ورأى أنه ليس من العدل أن تُهيمن عائلة واحدة على أهم منصبين قياديين لدى بني إسرائيل آنذاك.

لكن قورح لم يكن يحظى بذلك القدر من الدعم من قبل أبناء سبطه، سبط اللاويين، لأنهم لن يكسبوا شيئاً من الإطاحة بأهارون، لهذا لجأ قورح إلى إقامة تحالفٍ مع مجموعةٍ أخرى من بني إسرائيل الساخطين على هذا الوضع، وهما داتان وأفيرام واللذان ينحدران من سبط الرؤوفيين (سبط روبين)، بالإضافة إلى مئتين وخمسين شخصاً من عليّة القوم، وهذا ما تُخبرنا به الآية الثانية من المقطع السادس عشر من السفر نفسه والتي تقول: "يقاومون موشيه مع قوم من بني إسرائيل، مئتان وخمسون رؤساء الجماعة". بالتالي كان يستغلُّ حالة الغضب والسخط التي شعر بها أبناء سبط رؤوفين لأنهم لم يحظوا بأي منصبٍ قيادي في المجتمع رغم أنهم ينحدرون من نسل الابن البكر ليعقوب/ يعقوب.

وتبعاً لما يذكره الحاخام ابن عزرا فإن المئتين وخمسين رجلاً الذين ينتمون لعلية القوم والذين تحالفوا مع قورح كانوا ساخطين وغازبين لأن قيادة مجتمع بني إسرائيل أصبحت بيد سبط واحد من الأسباط الاثني عشر بعد حادثة العجل الذهبي، وهو سبط اللاويين لوحدهم. لكن بنهاية المطاف لم

2. كتبت هذه المقالة خلال الفترة اللاحقة للتصويت على خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي (المعروف بالبريكزيت)، حيث احتد الصراع على من سيتولى زمام الحكم في بريطانيا بين الحزبين الرئيسيين فيها. لكني أترك المجال أمام القارئ ليتخيل أي مثال آخر للمنافسة بين طرفين كمثال على قصة قورح أو قصة سياسة الشمبانزي.

يُكتب لهذا الانقلاب النجاح لأن أطماع المشاركين فيه مُختلفة ولن ترضيهم نتيجته مهما كانت. لكن ذلك لم يمنعمهم أبداً من تكوين تحالفات آثمة، فالنَّاقِمون والساخطون يركِّزون أهدافهم على الإطاحة بالنظام القائم والقائد الحالي أكثر من التركيز على التفكير بتنفيذ خطة عملية ببناء للإصلاح، وتبعاً لما يُخبرنا به الحاخامات فإن "الكراهية تهزُم العقلانية"³. لهذا فإنَّ شعور المرء بأن كرامته مُهانة وبأنه الأجدر بأن يحظى بشرفٍ تولِّي منصبٍ مُعيَّن هي أمور لها عواقب كارثية تقود إلى أفعالٍ تُدمِّر الذات، لكن هذه خصلة كانت ولا زالت تُميِّز المُجتمعات البشرية منذ الأزل.

أما القاعدة الثالثة فهي اختيار لحظة الضعف لمن تُريد الإطاحة به، وفي هذا السياق يوضح لنا الحاخام موشيه/موسى بن نَحمان بأن قورح بدأ يتمرّد مباشرة بعد قصة العيون والقرار الذي تمَّ اتّخاذه عقب ذلك، وهو أن الجيل القادم هو الذي سيدخل إلى أرض إسرائيل، وليس الجيل الحالي. وطالما ظلَّ شعور بني إسرائيل قائماً بأنهم متوجّهون إلى تلك الأرض - رغم شكوايهم وتدمرهم الشديد - إلا أنه بنهاية المطاف لم يكن هنالك أي سبب واقعي يجعلهم يشاركون في تمرد من هذا القبيل، بالتالي كان السبب في مشاركتهم هو إدراكهم بأنهم لن يعيشوا ليعبروا نهر الأردن ويدخلوا أرض إسرائيل بعد ذلك القرار. بصريح العبارة، لم يعد لديهم ما يخسرونه بعد الآن، بالتالي ما الذي يمنعمهم من المشاركة في هذا التمرد؟

ومن هذا المُنتلق فإننا لا نجد فرقا كبيرا بين سياسة الشمبازي وسياسة البشر عندما يتعلّق الأمر بالحكم والسلطة. وقد بيّنت الديانة اليهودية بأن الكائنات البشرية هي مزيج من النفس البهيمية (نيفيش بهيميت بالعبرية) والنفس الإلهية (نيفيش إلهيت بالعبرية) تبعاً لما جاء في كتاب زوهر والذي يُعتبر من أبرز كُتب التصوّف والقبالة اليهودية. فنحن البشر كائنات لا ينفصل فيها العقل عن الجسد، ذلك لأننا نمتلك غرائز جسدية مُدونة في جينات كل إنسان.

ويتحدث العلماء في العصر الحالي عن ثلاثة أنظمة مُختلفة يتكوّن منها العقل: النظام الأول هو نظام "عقلية الزواحف" والذي يُعتبر مسؤولاً عن ردود الفعل الأولية لأحداث الكرّ والفَرّ. والنظام الثاني هو نظام "عقلية القرد" والذي يُعتبر مسؤولاً عن الجانب الاجتماعي والعاطفي ومسألة تقبل مسألة التسلسل في أي منظومة. والنظام الثالث والأخير هو "عقلية الإنسان" والمتمثل في الجبهة الأمامية للدماغ، ويتصف بأنه انفعالي وبطيء وقادر على التفكير في عواقب كل تصرّف من تصرّفاتة. وهذا الأمر يُثبت بأن اليهود وغيرهم آخرون من أمثال أفلاطون وأرسطو قد أدركوا هذا الحقيقة منذ وقت طويل، وأن مسرح حياة الإنسان هو نتاج لعملية التفاعل بين هذه العقلية الثلاثة.

ويوضح فرانسيس دي قال عبر صفحات كتابه الأخير بأن "منظومة الحكم بين قروود الشمبازي تتخلّل جميع جوانب حياتهم". فبالنسبة لإنات الشمبازي فإن مسألة الحكم مُسلّم بها وليست سبباً لاندلاع الصراع بينها على الإطلاق، لكنها السبب لاندلاع الصراعات بين الذكور الذين يعتبرون أن "السلطة قابلة دوماً للانتزاع"، وبضرورة "القتال من أجل انتزاعها وحمايتها من الخصوم بكل قوّة". بالتالي فإن قروود الشمبازي الذكور تُصنّف على أنها "من أتباع الفكر السياسي الميكافيلي" إن صحَّ

التعبير،⁴ لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا: ماذا عننا نحن البشر، هل نندرج تحت هذا التصنيف أيضاً؟

في الحقيقة هذا ليس سؤالاً بسيطاً على الإطلاق، ويكاد يكون أحد أهم الأسئلة التي يجب الإجابة عنها إذا أرادت البشرية أن تحافظ على وجودها مستقبلاً. وهنا يتفق علماء الأنثروبولوجيا (علم النوع الإنساني) بأن الإنسان البدائي القديم الذي عاش في حُقبة الصيد والالتقاط كان يعيش في حالة من مساواة بشكل عام، إذ كان لكل فرد دورٌ يؤديه في المجموعة، وكانت مهمتهم الرئيسية هي البقاء على قيد الحياة وتجنُّب الحيوانات المفترسة. ولم يكن تراكم الثروة في تلك الحقبة أمراً معروفاً بعد، لكنه ظهر مع تطوُّر الإنسان البدائي إلى مرحلة الزراعة والتجارة والتحصُّر وبناء المدن، عندها بدأت تظهر فكرة الأنظمة الحاكمة التي تحكم المجتمعات البشرية. وعادةً كان يوجد حاكمٌ واحدٌ يتمتع بسلطة مطلقة لتلك المنظومة وتُحيط به نُخبةٌ حاكمة من المتعلمين، أما بالنسبة للشعب فكان يتم استغلاله ليُشكل القوة العاملة لبناء المجتمع والجيش المتنفذ الذي يحمي نظام الحكم.

ومن هنا تدخل الديانة اليهودية إلى هذا العالم لتعرض على هذه الهيكلية النمطية للمجتمعات البشرية. وهذا ما سنراه في بداية أول مقطع من مقاطع التوراة حينما خلق الله عز وجل الإنسان بصورته، بمعنى أننا نحن البشر نُشكل جزئيات دقيقة ومتساوية من الكيان الإلهي العظيم. وقد تبادر إلى ذهن الحاخامات هذا السؤال الهام: لماذا خلق الله عز وجل آدم بمفرده دون غيره؟ (بمعنى لم يخلق ذكراً آخر غيره في البداية)، فيجيبنا المشناه في مقطع سنهدرين (4:5) قائلاً: "حتى لا يقول أحدٌ كان جدِّي أعظم من جدِّك".

وهناك نبرةٌ تبدو فيها حالة المساواة في كلامٍ موشيه مع يهوشوع/ يوشع بن نون حين قال له: "هل تغارُّ لي؟ ليت صار جميع أمة الله أنبياءً، وأن أجعل من روحه (نوره ونبوءته) عليهم" تبعاً لما تذكر الآية التاسعة والعشرين من المقطع الحادي عشر من سفر العدد. في المقابل، لن نتحقق المثاليات ولا الأخلاقيات التي جاءت بها اليهودية بين ليلةٍ وضحاها، هذه الأخلاقيات التي تتضمن المساواة والنباتية وإلغاء العبودية وغيرها، وربما يستغرق تحقيقها قرناً طويلاً قد تمتد لآلاف السنين، خاصة وأن هذه المثاليات لم تتحقق بعد في الكثير من جوانب الحياة اليهودية.

وكلاهما قادتا بنهاية المطاف إلى حالةٍ من التوتر والانقسام الذي لا مناص منه. كما ظلَّت إسرائيل في عهد التناخ موجودة كمملكة موحدة لفترة ثلاث أجيال من الملوك فقط،⁵ ثم انقسمت إلى مملكتين. كما كانت منظومة الكهنة سبباً في خلق حالة الانقسام خلال فترة الهيكل اليهودي الثاني، وأدت إلى حالة انقسام طائفي بين اليهود الصدوقيين والبيتوسيين وباقي الطوائف الأخرى، وقصة قورح

4. Frans de Waal, *Are We Smart Enough to Know How Smart Animals Are ?* (New York: Norton, 2016), 168

5. عقب التصويت على خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي كان هنالك سؤال مطروح بجديّة على الطاولة حول ما إذا كانت ستظل المملكة المتحدة، مُتحدةً فعلاً.

هي خيرٌ مثالٍ يوضِّحُ لنا بأنه أينما تواجدت منظومة للحُكم فإنها ستكونُ مصحوبة بحالةٍ من المنافسة على من سيتولَّى منصب "الذكر ألفا".

وهناك سؤال يطرحُ نفسه هُنا: هل تُعتبرُ مسألة منظومة الحُكم أمراً حتمياً لا مناص منه في الحضارات البشرية؟ يبدو الحاخام موشيه/موسى بن ميمون وكأنه يوافقُ على حتمية ذلك، فمن وجهة نظره تُعتبرُ منظومة الحُكم أداة إيجابية، وبأنها ليست مُجرّد امتياز لمن يجلس على عرشها. في حين أن الحاخام يتسحق أبرابانيل يختلفُ معه ويعترضُ على حتمية وجود منظومة الحُكم في المُجتمعات البشرية، فهناك نصوصٌ من كتاباته تشيرُ إلى أن نظام الحُكم الفوضوي الطوباوي يقوم على فكرة عدم حُكم أي شخصٍ للآخر في العالم المثالي، وبأنه يجبُ علينا الاعتراف بمنظومة السيادة المطلقة لله عزّ وجل وحده.

وحيثما نضعُ قصة قورح وقصة فرانسيس دي فال التي تُحاكي مسلسل (House of Cards) لكن بنسخة شّمبازية،⁶ فإننا نستنتجُ بأنه أينما وُجدت منظومة للحُكم فإنه سيرافقها صراعات حول تولّي قيادة المنظومة أو منصب "الذكر ألفا"، ونتيجة ذلك تتلخّصُ فيما وصفه الفيلسوف الإنجليزي توماس هوبز بأنه "رغبةٌ أبديةٌ ومُتواصلةٌ للسعي وراء السُلطة، وهي رغبةٌ لا يُنهىها سوى الموت".⁷

لهذا السبب لا يولي الحاخامات اهتماماً كبيراً لمنظومة الحُكم الملكية أو منظومة الكهنة (التاج) بقدر ما يولون اهتماماً للنقيض من تلك المنظومات ألا وهي منظومة تاج التوراة (والتي تعني دراسة التوراة وتعلمها واتباع تعاليمها)، هذه المنظومة التي يُمكن لأي شخصٍ أياً كان أن يتولى قيادتها، ولا تقود المنافسة فيها إلى الصراعات بل إلى المزيد من الحكمة،⁸ بل حتى السماوات عندما ترى حينها الحاخامات وهُم يتنافسون ويختلفون في دراسة التوراة فإنها تقول لهم: "هذا الكلام وذاك الكلام هو كلامُ الله الحي".⁹

إن قصة قورح تُكرر نفسها في كل جيلٍ، والترياق الشافي لهذه الظاهرة يتمثّل في التعمّق في دراسة عالم التوراة الذي يُشكل بديلاً لمنظومات الحُكم تلك، لأن التوراة تسعى خلف الحقيقة ولا تلهث وراء السُلطة، كما أنها تطمحُ لأن تكونَ جميعَ أخلاقياتها ومُثلها أصواتاً حاضرةً في الحوار المُقدّس في هذا العالم.

6. Michael Dobbs ,*House of Cards* (New York: Harper Collins, 1989)

7. Thomas Hobbes ,*Leviathan* ,(1651) pt. 1, ch. 11

8. Bava Batra 21a

9, Eruvin 13b; Gittin 6b

حوقات

هو النصُّ الأسبوعي السادس من كتاب "بمِدار" (أي سفر العدد). يبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع التاسع عشر وينتهي بالآية الأولى من المقطع الثاني والعشرين.

الخروج من الحزن على رحيل الأحبة

كانت وفاة والدي - طيبَ الله ذكركه - فاجعةً أليمة طَحَنَت من رُحى عُمري سنتين حتى خرجتُ منها، وحتى يومنا هذا، وبالرغم من مرور عشرين سنة على رحيله، إلا أنني ما زلتُ أتساءل لِمَاذَا سَبَّب لي رحيله هذا الحجم من الألم، فهو لم يكن صغيراً في السن، كما لم تكن وفاته مفاجئة وهو على مشارف الثمانين من عمره، وقد خضع خلال عامه الأخير لخمس عمليات جراحية كانت كل واحدة منها تُنهكه أكثر من سابقتها. والأهم من هذا كله هو أنني - باعتباري حاخاماً - كنتُ مُعتاداً على تأدية الصلوات في الجنازات وتعزية ومواساة ذوي المتوفين، بالتالي كنتُ أعي تماماً حجم الحزن والأسى الذي يُخلفه الموت.

كما كان كبار الحاخامات ينتقدون ذوي المتوفين الذين يُفِرطون ويُطيلون فترة الحداد والحزن على فقيدهم،¹ موصِّحين بأن الله عز وجل بنفسه يصفهم قائلاً: "هل رحمتكم تفوق رحمتي؟". وفي هذا السياق يوضِّح الحاخام موشيه/موسى بن ميمون قائلاً:

لا ينبغي على الإنسان أن يُفِرط في حزنه وأساها على فراق الميت، مصداقاً لِمَا تذكره الآية العاشرة من المقطع الثاني والعشرين من سفر يرمياهو/إرمياء والتي تقول: "لا تَبْكوا ميّتاً ولا تندبوه، ابكوا مَنْ يَمضي لأنه لا يرجع". بالتالي لا ينبغي الإفراط في العويل والنواح على الميت، فالموت هو سُنّة الحياة، وأحمقٌ هو الذي يُفِرط في حُزنه على سُنّة من سُنن الحياة.²

وتبعاً للديانة اليهودية فإن فترة الحزن والحداد على الميت لا يجب أن تتجاوز سنة كأقصى حدّ (مع بعض الاستثناءات المحدودة)، لكن معرفتي لهذه الأمور لم تُساعدني على تخطيِ محنتي التي خلفها فراق والدي، خاصة وأننا لا نمتلك القدرة دوماً على التحكم بعواطفنا، وتعازي الآخرين ومواساتهم لا تساعدك في التحضير للألم الذي سيصيبك عقب وفاة شخصٍ عزيزٍ على قلبك. والشريعة اليهودية تختصُّ بتوضيح المراسم المادية والملموسة لما يجب علينا القيام به في الجنازات، لكنها لا تتطرَّق إلى العاطفة، وحتى عندما تتطرَّق للحديث عنها (مثل الوصايا التي تأمرنا بالمحبة ونبذ

1. المصدر: Moed Katan 27b

2. المصدر: الحاخام موشيه/موسى بن ميمون، كتاب مشنيه تورا، هيلخوت أفيل (شرايح المُعزّين) 13:11

الكراهية) فإن الهلاخاه (الشريعة الدينية اليهودية) عادةً ما تُترجم العواطف إلى أفعال وتصرفات استناداً إلى فرضية يطرحها "سفر هحينوخ" (كتاب التربية لحاخام مجهول الهوية من العصور الوسطى) والتي تنص على أن "القلب يتبع الفعل"³.

لقد كنتُ أشعرُ بوجود فجوة وجودية سوداء وفراغ عميق يُسيطر على صميم ذاتي، لدرجة أنه قتل أحاسيسي وجعلني أفقد النوم والتركيز، وكان يبدو لي الأمر وكأنّ الحياة تجري في مكانٍ آخر بعيد عني، وكأنني أشاهد فيلماً سينمائياً يخلو من أي صوتٍ وأي موضوع. وبنهاية المطاف تمكنتُ من تجاوز هذه الحالة المزاجية الصعبة، لكنني خلال فترة سيطرتها عليّ ارتكبتُ عدداً من أفضح الأخطاء التي اقتصرتها في حياتي، وحديثي في هذه المقالة عن تجربتي الشخصية هو بمثابة مقدمة للدخول في موضوع هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة والذي يحمل عنوان "حوقات".

لقد تطرّق هذا النصّ إلى عدد من المواقف الصعبة التي مرّ بها بنو إسرائيل حينها، لكن أصعبها كان تدمرهم من نقص الماء، أضف إلى ذلك المعصية التي ارتكبتها موشيه/موسى، فعلى الرغم من أنّ الله عزّ وجلّ كان قد أخرج لهم الماء العذب من الصخرة إلا أنه عاقب موشيه/موسى عقاباً شديداً لا يُحتمل، مصداقاً لما تذكره الآية الثانية عشر من المقطع العشرين من سفر العدد والتي تقول: "إنكما لم تُقدّساني أمام بني إسرائيل، لذلك لا تدخلوا هؤلاء القوم إلى الأرض التي وهبتموها إياها".

وفي هذا السياق يختلف كبار المفسرين اليهود على ماهية المعصية التي ارتكبتها موشيه: هل كانت معصيته هي خروجه عن طوره ومخاطبته لبني إسرائيل بعبارة "اسمعوا أيها العاصون"؟ (تبعاً لما تذكره الآية العاشرة)، أم تمثلت المعصية في أسلوبه في الحديث عن معجزة إخراج الماء من الصخرة، بحيث جعل الأمر يبدو وكأنه هو وشقيقه أهارون/هارون هما اللذان أخرجوا الماء من الصخرة، وليس الله عزّ وجلّ؟ (عندما قالوا "أمن هذا الصخر نخرج لكم ماء؟" تبعاً لنفس الآية)

لكن الأمر المحيّر هو سبب خروج موشيه عن طوره، خاصة وأنه واجه مشكلة مُماثلة في السابق لكن لم يسبق له أن خرج عن طوره بهذه الطريقة أبداً، حيثُ يذكر لنا سفر الخروج في المقطع الخامس عشر كيف أن بني إسرائيل كانوا يتدمرون من أن الماء غير صالح للشرب عندما كانوا في منطقة ماراه. ويذكر لنا المقطع السابع عشر من السفر نفسه بأن بني إسرائيل كانوا يشكون من قلة الماء عندما كانوا في منطقة مسّاه ومريفاه، فأمر الله عزّ وجلّ موشيه بأن يأخذ عصاه ويضرب بها الصخرة، بالتالي عندما أمره الله عزّ وجلّ قائلاً: "خذ العصا.. وقولا على الصخر بحضرتهم" (بحسب ما تذكر الآية الثامنة من هذا المقطع) فإن هذا لا يعني أن موشيه قد اقترب جرماً عظيماً عندما افترض بأن الله يريد منه أن يضرب الصخرة بدلاً من أن يوجه كلماتها إليها فقط، وهذا ما قاله الله عزّ وجلّ لموشيه في الحادثة السابقة. بالتالي يمكننا القول بأن موشيه كان يتبع الخطوات نفسها التي أمره الله باتّباعها في المرة السابقة، ولماذا أصلاً طلب الله عزّ وجلّ من موشيه أن يأخذ عصاه إن لم تكن لتلك الغاية؟

3. المصدر: سفر هحينوخ (التربية الدينية اليهودية)، الوصية السادسة عشر (يقصد به كتاب التربية والتعليم، وهو نصّ يهودي حاخامي يُناقش بأسلوب مُمنهج وصايا التوراة البالغ عددها 613 وصية، نُشر هذا الكتاب في القرن الثالث عشر للميلاد في إسبانيا).

كما أن ترتيب وتسلسل الأحداث هو أمرٌ آخرُ يصعبُ فهمه فعلاً، لأن الله عزّ وجلّ كان قد وضح لموشيه ماذا يفعلُ تحديداً، فقام موشيه بجمع بني إسرائيل، ثم تكلم مع الصخرة فانفجرت منها عينُ الماء، وهذه الأحداثُ جميعها وقعت قبل كلام موشيه المُحتدّ مع قومه والذي ابتدأه بعبارة "اسمعوا أيها العاصون". وربما بإمكاننا أن نتفهم شعور المرء بحالة من عدم الاتزان أثناء مواجهة مُشكلة تبدو وكأنها مُستعصية، والحال نفسه مرّ به موشيه في وقتٍ سابقٍ عندما تذرّ بنو إسرائيل من قلة اللحوم. لكن ما هو غيرُ منطقيّ أبداً هو أن تكونَ في حالةٍ من عدم الاتزان عندما يوضح الله لك ما ينبغي عليك القيام به حتى تحلّ هذه المشكلة مثلما وضح لهما تبعاً لنفس الآية: "وقولا على الصخرة بحضرتهم.. فتخرجاً لهم ماءً من الصخر، اسقهم وبهائمهم". بمعنى آخر، لقد حصلَ موشيه على الحلّ، فلماذا ظلّ مُرتبكاً من المشكلة؟

بصراحة، لم أتمكن من فهم هذا الموقف حتى توفّي والذي رحمه الله. فلنسال أنفسنا هذا السؤال: ما الذي حدثَ مباشرةً قبل قصة الماء النابع من الصخرة؟ تذكرُ لنا الآية الأولى من المقطع العشرين هذا الحدث: "ثم ماتت هناك ميريّام/مريم"، وعندها فقط تذكرُ لنا موضوع نقص الماء. وفي هذا السياق يوضح أحدُ التفاسير القديمة بأن بني إسرائيل ظلّوا ينعمون بمُعجزة وجود مصدرٍ للماء العذب حتى وفاة النبيّة ميريّام شقيقة موشيه، وبعد وفاتها جفّ هذا المصدرُ تماماً.

وعلى أي حال يبدو من وجهة نظري أن السبب الرئيسيّ لجفاف الماء لا يكمنُ في موت النبيّة ميريّام بقدر ما يكمنُ في حالة عدم الاتزان التي تسبّب بها موتهَا لموشيه. فقد كانت شقيقته الكبرى التي اعتنّت به عندما كان طفلاً رضيعاً، وهي التي وضعتُه في التابوت ليُجرى به نهر النيل، وهي التي تقدّمت صوب ابنة فرعون بمنتهى الإقدام والجرأة واقترحت عليها أن تكونَ مُرضعته امرأةٍ عبرية، الأمر الذي أعاد موشيه إلى أحضان والدته مما كان ضماناً له كي يترعرع وهو يعلم هويته الحقيقية والقوم الذين ينتمي إليهم فعلاً، بالتالي فهو مدينٌ لشقيقته كونها السبب في حفاظه على هويته. في الوقت نفسه، لولا وجودها لما كان موشيه بمثابة الوسيط بين الله عزّ وجلّ وبين بني إسرائيل، ولولاها لم يكن ليصبح الرسول والمُحرّر والمُشرّع لقومه. لهذا فإنّ فقدانها لها لم يكن مجرد فراقٍ بين شقيقٍ وشقيقته فحسب، بل كان بمثابة خسارته للعمود الفقريّ الذي يستندُ عليه في حياته.

وعندما يكون المرءُ مفجوعاً بوفاة عزيزٍ عليه فإنه يفقد السيطرة على مشاعره، فيجدُ نفسه غاضباً رغم أن حالته تتطلّب الهدوء، ويضربُ في حين يتوجّب عليه أن يتكلم، ويتكلم حين يتوجب عليه أن يصمت. وحتى حين يبيّنُ الله عزّ وجلّ ما يُريد منك القيام به بطريقة واضحة ومباشرة فإنك لا تُصغي جيّداً له، لأنك تسمعُ الكلمات ولا تستوعبها.

وفي هذا السياق يطرحُ الحاخام موشيه/موسى بن ميمون سؤالاً هاماً: كيف يجهلُ يعقوف/يعقوب حقيقة بقاء ابنه يوسف حياً رغم أنه نبيّ؟ فيجيبُ موضحاً بأن يعقوف كان في حالة حُزن شديدٍ على فراق ابنه يوسف، والشخينا (السكينة أو الحضور الإلهي) لا تكونُ حاضرة بين ظهرانينا عندما نكونُ في مثل هذه الحالة.⁴ لهذا لم يكن موشيه بجانب الصخرة نبياً بقدر ما كان إنساناً

4. الحاخام موشيه/موسى بن ميمون، شمونا پراکیم 7، استناداً إلى پساخیم 117 - أ

قبل أيّ اعتبارٍ آخر، حيث سيطر عليه الحزن والأسى الشديد عليه مما جعل تصرفاته خارجة عن نطاق سيطرته رغم كونه واحداً من أعظم الأنبياء.

إنّ هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة يتطرّق على وجه الخصوص إلى موضوع الموت، والفكرة التي يُسلط الضوء عليها تتمثل في أنّ الله عزّ وجلّ دائمٌ أبديّ ونحن مخلوقات فانية زائلة، وهذا ما نستذكره أثناء تأديتنا دعاء "أنتنّيه توقيف" التي نوّديها في مناسبة رأس السنة اليهودية (روش هسناه) ويوم الغفران (يوم كيپور)، هذا الدعاء الذي يصفنا على أننا البشر نُشبهه "شظايا الفخار المتناثرة، ونصلة العُشبة الرفيعة، والزهرة الباهتة. إننا كالظللّ والسحابة ونسمة الريح المارّة". فنحن البشرُ خُلِقنا من التراب وإليه عائدون، لكن الله عزّ وجلّ أبديّ سرمديّ دائمٌ الوجود.

وخلال مرحلة مُعينة تحوّل تركيزُ قصّة موسى والصخرة التي خرج منها الماء إلى موضوع المعصية والعقاب، تبعاً لما تذكره الآية: "إنكما لم تُقدّساني أمام بني إسرائيل، لذلك لا تُدخلا هؤلاء القوم إلى الأرض التي وهبْتهم إياها". ولربّما نجهلُ حقيقة ماذا كانت المعصية التي ارتكبتها موسى تحديداً ولماذا خلّفت هذا العقاب الشديد، لكن على الأقلّ فإننا على دراية تامة بمسرح الأحداث والخلفية التي وقعت في سياقها.

كما يبدو لي وكأنه يوجدُ قصّة أخرى في باطنِ القصة ذاتها، تماماً كما هو الحال مع العديد من القصص التوراتية عادةً، لكن هذه القصة المُبطنة تختلفُ كلياً عن القصة الظاهرة، خاصة لو نظرنا إلى أحداثها: فهذا النصّ يتطرّق لموضوع الوفاة والفُقدان وخسارة الأحبة، ثم تموتُ النبية ميريّام، ولاجقاً يُخبّرُ الله عزّ وجلّ كلاً من موسى وأهارون بأنهما لن يعيشا حتى يشهدا دخولَ بني إسرائيل إلى أرض الميعاد، ثم يتوفّى أهارون ويُقيمُ القومُ عليه حداداً لثلاثين يوماً.

لقد كان موسى وشقيقه أهارون أعظم ثنائيّ قياديّ عرفهُ التاريخ اليهوديّ، فكان موسى أعظم الأنبياء وأهارون أول كبيرٍ للكهنة، لكن شقيقتهم ميريّام فافتهم كثيراً في عظمتها.⁵ بالتالي فإن العبرة التي يوضحها لنا هذا النصّ الأسبوعي هو أن لكل منا نهر أردن لن يعبره، وأرض ميعادٍ لن يدخلها لأن تلك هي "مهمّة لمن يأتي بعدك ليكملها" (بحسب ما تذكره المشناه في أفوت 2:16). كما ويبيّن لنا هذا النصّ أيضاً بأن مصيرَ الإنسان هو الزوالُ مهما بلغت عظمتها، لهذا تبدأ بالحديث عن طقوس حرق البقرة الحمراء وخلط رمادها بالزعر والارز والقُرْمز ثم إذابته هذا المزيج كاملاً في مياهٍ جارئة عذبة، ورشّ المياه على من لامسوا جثة الميت حتى يتطهروا قبل دخولهم مكان العبادة المقدس.

في الوقت نفسه فإنّ نجاسة الموت هي حقيقة جوهرية في الديانة اليهودية، وبالنسبة للكثير من الديانات والمعتقدات عبر مَرّ التاريخ فإن الحياة الآخرة تعتبرُ حقيقة أكثر من الحياة الدنيا ذاتها، فالآلهة تتواجد في الحياة الآخرة مثلما كان يعتقد المصريون، وفيها يتواجد آباؤنا وأجدادنا مثلما كان يؤمن الإغريق والرومان وغيرهم من الحضارات البدائية. وفي الحياة الآخرة يوجدُ العدلُ تبعاً للمسيحيين، وفيها توجدُ الجنة مثلما يعتقدُ الكثير من المسلمين.

5. هنالك الكثير من التفاسير المِدراشية المتعلقة بموضوع النبية ميريّام وإيمانها وجُراتها ونظرتها الثاقبة للأمر.

ومسألة الحياة بعد الموت والبعث هما مسألتان رئيسيتان وغير قابلتان للنقاش في العقيدة اليهودية، لكننا في المقابل نجد حالة من الصمت المدقع والواضح في كتاب التناخ عندما يتعلّق الموضوعُ بهذين الأمرين، لأن "الأموات لا يُمجدون الله" تبعاً لما يذكره سفر المزامير في الآية السابعة عشر من المقطع 115. لهذا ينصبُّ تركيز التناخ على مسألة إيجاد الله عزّ وجلّ في الحياة على هذا الكوكب بغضّ النظر عن حقيقة وحتمية الموت، لأن الله يوجد في الحياة بمخاطرها وحزنها وأسائها. ولربّما نتجاوز مُجرد كوننا "تراباً أو رماداً" بحسب ما تُخبرنا الآية السابعة والعشرون من المقطع الثامن عشر من سفر التكوين على لسان أفرهام/إبراهيم. في الوقت نفسه فإن الحياة هي بمثابة نبع لا نهاية له من "المياه الجارية" العذبة، وهذا ما يرمزُ له الطقسُ المُتعلّقُ بالبقرة الحمراء.

بالتالي نرى أن التوراة تمزجُ بين التشريع والقصة المُتعلقة بها بمنتهى الحداقة والذكاء، فيأتي التشريعُ قبل وقوع الحدث، لأن الله عزّ وجلّ يمنحنا الدواء قبل أن يوقع بنا الداء. فها نحن نجدُ موشيه وأخيه أهارون في قمة حُزنهما على فراق شقيقتهما، وللحظةٍ معينة يفقدُ موشيه سيطرته على نفسه، فيذكرهما الله عزّ وجلّ بأنه سيتوقّاهما قبل دخول بني إسرائيل لأرض الميعاد. في المُقابل يوضّح لنا الحاخام موشيه/موسى بن ميمون بأن هذه هي "سنة الحياة"، فنحنُ أرواحٌ تسكنُ أجساداً، ونحنُ بشرٌ من لحمٍ ودمٍ ونتقدم في العمر ونهرم ونفقدُ الأحباء. وخلال فراقهم نحاول الحفاظ على اتزاننا ظاهرياً، لكننا داخلياً نذرفُ الدمع من أعماق قلوبنا. إلا أن الحياة تستمر وما نبدأه نحنُ يكمله الآخرون، وأحبّائنا الذين رحلوا يعيشون بداخلنا تماماً مثلما نعيشُ نحنُ داخل نفوس أحبائنا. والمحبةُ ليست أقلّ قوّة من الموت،⁶ لكن عملنا الصالح لا يموتُ أبداً.⁷

6. أناشودة الأناشيد 8:6

7. أنظر سفر الأمثال 10:2 و11:4

بلاق

هو النصُّ الأسبوعي السابع من كتاب "بِمَدْبَار" (أي سِفر العدد) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الثانية من المقطع الثاني والعشرين وينتهي بالآية التاسعة من المقطع الخامس والعشرين.

ما الذي يُضحكُ اللهَ عزَّ وجلَّ؟

هنالك مقولة قديمة تقول بأن الله يضحكُ عندما يرانا ونحن نُخطِّط للمستقبل.¹ في الوقت نفسه، إن كان التناحُ هو مُرشدنا ودليلنا فإن ما يُضحكُ اللهَ عزَّ وجلَّ فعلاً هو الأوهام البشرية بالعظمة. فمن منظورٍ إلهي، أي من أعالي السماوات، فإن قمة السخافة تكمنُ في اعتقادِ البشر بأنهم آلهة، وهنالك عدد من الأمثلة في التوراة على هذا الأمر، وأحد أهمها هو عندما تجمَّع عدد من الرجال في منطقة شنعار للتخطيط من أجل بناء مدينة فيها برجٌ بابل، تبعاً لما تذكره الآية الرابعة من المقطع الحادي عشر من سفر التكوين والتي تقول: "هَلَمْ نَبْنِي لَأَنْفُسِنَا بُرْجاً رَأْسَهُ فِي السَّمَاءِ". وهنالك عدد من الآثار التاريخية التي تُثبت بناءهم فعلاً لهذا البرج، إذ يوجد عدد من الأبراج التي بُنيت في بلاد ما بين النهرين (هذه الأبراج التي تعرف باسم زقورة) بما فيها معبد مردوخ في بابل والتي وُجد فيها أحافير تدعي وصول تلك الأبراج والأهرامات إلى السماء.²

وكانت الفكرة السائدة حينها بأن البُنيان المُرتفع - أو كما سُميت بالجبال بشريّة الصُّنع - ستسمحُ للبشر بالقفز إلى المكان الذي تتواجدُ فيه الآلهة لأنهم كانوا يطمحون للوجود بقربها والتواصل معها، فكانت الأقاليم التي بُنيت في بلاد ما بين النهرين من بين أوائل المواقع التي عرفت الحضارات البشرية التي تحاول تنفيذ هذه الفكرة، فشكَّلت بذلك نقطة تحوُّل مهولة في تاريخ الحياة البشرية على وجه الأرض.

وقبل أن يكون هنالك زراعة كانَ البشرُ يعيشون في حالة خوفٍ دائمٍ من الطبيعة، فكانوا يخافون من الحيوانات المفترسة وغيرها من الكائنات والجماعات بالإضافة إلى خوفهم الشديد من تقلبات الجو البارد والحر والجفاف وإيجاد الطعام من عدمه، نظراً لأن مصيرهم كان مُرتبطاً بعوامل خارجة عن سيطرتهم.

وبعد انتشار الحيوانات الأليفة والقابلة للترويض بالإضافة إلى بدء ظهور مرحلة الزراعة، حينها فقط بدأ البشرُ يتجمعون في تجمعات سكانية كالقرى والبلدات، ولاجئاً في المُدن ثم الإمبراطوريات، بالتالي كانت تلك المرحلة بمثابة المرحلة التي أعادت حالة التوازن بين الطبيعة والثقافة البشرية، ولأول

1. المصدر: "Life is what happens while you are making other plans" The John Lennon version is:
2. يوصف برج بابل في قصة الخلق البابلية بكلمة "إيساكيل"، والتي تعني منزلاً برأسٍ مرفوع. وقد قام كل من الملكين نبوخذ نصر ونبوبولصّر بإعادة ترميم هذا البرج، وهناك مخطوطات توضح لنا بأنهما كانا يحاولان "رفع قمة البرج" قدر المستطاع حتى يصل إلى السماوات.
Nahum Sarna, *Understanding Genesis*, 73 (New York: Schocken Books)

مرة في التاريخ أصبح البشر غير مُجبرين على التكيف مع البيئة المُحيطة بهم، بل أصبح بإمكانهم تكيف البيئة لثناسيتهم. وفي هذه المرحلة بدأ البشر - خاصة الحُكَّام والزعماء - ينظرون إلى أنفسهم على أنهم آلهة أو أشباهُ آلهة على الأرض، أو ربّما بشرٌ يتمتعون بسُلطة من شأنها التأثير على الإله.

وخير دليل على هذا الأمر هو البناء استناداً إلى مقاييس مهولة: فأهرامُ بابل وغيرها من الأقاليم التي بنتها حضارة ما بين النهرين وأهرام مصر جميعها تبين حقيقة ذلك، فقد بُنيت على أرض مستوية بين نهري دجلة والفرات وعلى ضفاف نهر النيل، ثم بدأ البناء يرتفع بشكلٍ شاهقٍ ليعلو أكثر وأكثر عن مُستوى مُحيطه. وحتى الهرمُ الكبير في منطقة الجيزة في مصر - والذي بُني قبل ولادة أفرهام/إبراهيم - كان ضخماً وشاهق الارتفاع لدرجة أنه صُنّف كأعلى بناء صنعته البشرية على كوكب الأرض على مدى أربعة آلاف سنة.

بالتالي فإن توجه البشر لمحاولة بناء "جبال اصطناعية" تُبنى بأيدي بشرية هو أمرٌ جعل من قاموا بالبناء يشعرون بأنهم اكتسبوا بعض القوى الإلهية، وبأنهم بنوا درجاً يقودُ إلى السماوات. لكن الآية التوراتية الخامسة من المقطع الحادي عشر من سفر التكوين تقول الآتي فيما يتعلّق ببناء البرج (المجدل): "فأوردَ اللهُ أَمْراً مُؤجَّلاً، لِيَنْظُرَ القريّةَ والمجدلَ الذي أخذَ بنو آدمَ في بنائها".

توضّح هذه الآية بأن الله كان يضحكُ ساخراً مما حدث، فالبشرُ على وجه الأرض كانوا يعتقدون بأنهم قد وصلوا فعلاً إلى حدود السماء، لكن من منظور الله عزَّ وجلَّ كانت تلك الأبنية مُتناهية في الصغر لدرجة أنه كان ينزلُ إلى الأرض حتى يراها من شدّة صغرها. وقد أدركنا مدى صغر حجم هذه الأبنية - مهما بلغ ارتفاعها - عندما تمكّن الإنسان من الطيران وصار بإمكانه النظرُ إليها من ارتفاع يصل إلى ثلاثين ألف قدمٍ عن مستوى سطح الأرض.

وحتى يُنهيَ اللهُ عزَّ وجلَّ حالة العناد التي تملكت البشر حينها، "سَتَّتْ (بَلْبَلٌ) اللهُ لُغَةَ أَهْلِ الأَرْضِ" تبعاً لما تذكره الآية التاسعة من المقطع والسفر نفسه، فلم يعد بمقدور أحدهم أن يفهم الآخر لاختلاف اللغات بينهم، بالتالي تحوّل مشروع الوصول إلى الآلهة عبر البناء الشاهق إلى حالة أشبه بالكوميديا الفرنسية. وربّما يمكننا تصوّرُ هذا الموقف عن طريق تخيل مُراقبٍ للعمال يطلبُ من العامل أن يناوله طوبة، وبدلاً من ذلك يُناوله المطرقة! أو حينما يقول للعامل أن يذهب يميناً فيذهب العامل يساراً. بالتالي فشل هذا المشروع بأكمله بسبب عدم إمكانية التفاهم أو التواصل فيما بينهم، فكانوا يعتقدون أن بإمكانهم الصعود والوصول إلى السماوات في حين لم يكن بمقدور أحدهم أن يفهم ما يريدُهُ الشخصُ الواقفُ بجانبه.

ومن هذه النقطة صار البرج الذي لم يُستكمل بناؤه بمثابة رمزٍ لحتمية فشل الطموحات التي يُحرّكها الغرور، فقد نقدَ عمالُ البناء حينها ما كانوا يطمحون لبنائه، لكن ليس بالطريقة التي كانوا يريدونها، لأنهم كانوا يطمحون أن "يصنعوا لأنفسهم اسماً" تبعاً لما تذكره الآية الرابعة من نفس المقطع ونفس السفر. وقد نجحوا في ذلك فعلاً، لكن بدلاً من أن يسطع نجمهم باعتبارهم أول بشر نجحوا في الوصول إلى السماء، اختفى نجمُ بابل وتحوّل إلى مُجرد هذيان لا قيمة له ورمزاً للبلبل، بمعنى آخر، تحوّلت الغطرسةُ والعجرفةُ إلى نقمة.

أما المثال الثاني على هذا الأمر فكان في مصر خلال الحقبة التي ضربَ اللهُ عز وجل فيها مصرَ بالآفات، وحينها حوّلَ موشيه/موسى وشقيقه أهارون/هارون نَهْرَ النيلِ إلى دماء، وملأوا أرضَ مصر بالضفادع. وتبعاً لما يذكره النص التوراتي فإن سَحْرَةَ الفراعنة قاموا بالشيء نفسه حتى يُثبِتوا أنهم يتمتعون بالقوى الخارقة نفسها، كما كان همُّهم الأول والأخير هو أن يُظهروا للجميع بأن بإمكانهم القيام بما يقومُ به العبرانيون. بالتالي لم يكونوا يدركون بأنهم يجعلون الأمور تزداد سوءاً بدلاً من أن يجعلوها تتجه نحو الأفضل، لأن القُدرة الحقيقية تعني أن يُعيدوا الدماء إلى سابق عهدها كما كانت في السابق، أي ماءً في النيل، وأن يجعلوا الضفادع تختفي بدلاً من أن يجعلوها تنتشر أكثر وأكثر.

لهذا نسمعُ الضحكة الإلهية عندما حلّت الآفة الثالثة على وجه الخصوص، أي عندما تفسّى القملُ بينهم. ففي المرة الأولى فشل السَحْرَةُ في تقليد تلك الآفة، فتجرّعوا كأس الهزيمة وتوجّهوا إلى فرعون قائلين: "إنها يدُ الله!". والجُزءُ المُضحِكُ في الموضوع هو أن رمزَ القوّة بالنسبة للفراعنة كان البناء الشاهق الذي تمثّل في الأهرام والمعابد والقلاع والتماثيل التي بنوها بكثافة آنذاك، فأراهم الله عز وجل قُوّته وجبروت عظمته من خلال أصغر الحشرات حجماً، فهي حشرة رغم عدم رؤيتها بالعين المجردة أحياناً إلا أن تأثيرها مؤلّمٌ جداً. بالتالي تحوّلت العجرفة إلى نُقمة على أصحابها مرة أخرى. ومن كانوا ينظرون لأنفسهم على أنهم صِغارٌ كانوا فعلياً الكبار في عين موشيه، وأما من كانوا يتواضعون أمامه فكانوا في الحقيقة همُ العُظماء.

في الوقت نفسه، فإن ما حدث يُفسّرُ خلافَ ما كانت عليه قِصّة بلعام والحمارة المُتكلّمة، وهي بالمناسبة ليست قِصّة من وحي الخيال، كما أنها ليست مُعجزة أيضاً، لكن ذاع صيتها بسبب نظرة المؤايين وقوم مدين لبلعام، ولربّما إلى حدٍ معين بسبب الطريقة التي كان ينظرُ بها لنفسه. وتبدأ القِصّة حين قام بلاق ملكُ مؤاب وقادة مُدين بإرسال وفدٍ إلى بلعام طالبين منه أن يُنزل اللعنة على بني إسرائيل، تبعاً لما تذكره الآية السادسة من المقطع الثاني والعشرين من سفر العدد والتي تقول: "والآن فتعالِ العنة لي، إذ هم أعظمُ مني، فلعلّي أستطيعُ أن أحاربه واطردهُ من البلد، لأني أعلمُ أن من تباركهُ مُباركٌ، ومن تلعنه يُلعنُ".

وقد كان هذا الطلبُ مبنياً على فهمٍ وثقّي لقداسة رجال الدين، فكانوا يظنونهُ حكيماً يُداوي الأمراض وساجراً وصانعاً للمعجزات وشخصاً قادراً على التحكّم بالقوى الخارقة للطبيعة، في حين أن التوراة تنظرُ إليه نظرة مُختلفة تماماً، لأن الله عزَّ وجل هو الذي يُباركُ ويلعنُ، وليس البشر، وذلك مصداقاً لما تُخبرنا به الآية الثالثة من المقطع الثاني عشر من سفر التكوين والتي تقول في مستهل حديث الله مع أفرهام: "وأباركُ مُباركيك، وألعنُ لاعنيك"، وهو الأمر ذاته الذي تؤكد عليه الآية السابعة والعشرون من المقطع السادس من سفر العدد حيث تقول: "فَيَجْعَلُونَ اسمي على بني إسرائيل، وأنا أباركهم". ومُجرّد التفكير بتشغيل رجل الدين حتى يلعنُ أحداً يهيئُ الأمر للافتراض بأن الله عزَّ وجلَّ يقبلُ الرشوة!

لكن تظنّ هذه القصة مُحيرة إلى حدٍ ما، فالله عزَّ وجلَّ يطلبُ من بلعام ألا يذهب، والمَلِكُ بلاق يبعثُ وفداً مرة أخرى حاملاً معه عرضاً أكثر إغراءً من العرض السابق، فيطلبُ اللهُ عزَّ وجلَّ من بلعام أن يذهب معهم وأن يقولَ لهم الكلام الذي يأمرُهُ به فقط. وفي صباح اليوم التالي يستعدّ بلعام

للذهاب مع وفدِ المؤابيين، لكن النصَّ يوضِّحُ لنا بأن الله كان "غاضباً" جداً بسبب ذهابه معهم (تبعاً لما تذكره الآية الثانية والعشرون من المقطع الثاني والعشرين من سفر العدد). وهُنَا يظهر دور الحمارة المُتكلِّمة في هذه القصة، حيثُ ترى الحمارة ملاكاً يعترضُ طريقها، فتتوجَّه صوب أحد الحقول لكن بلعام يضربها ويُجبرها على العودة إلى الطريق. لكن الملاك ظلَّ يعترضُ طريق الحمارة، فتصطدمُ بالحائطِ مما أدى إلى إصابة قدم بلعام، فيقوم بضربها مرةً أُخرى، لكنها تقفُ مكانها هذه المرة رافضة المسير، وهذه هي اللحظة التي تبدأ فيها الحمارة بالكلام، ثم ينظرُ بلعام إلى الأعلى فيرى ملاكاً لم يكن قادراً على رؤيته من قبل. والسؤال الذي يطرحُ نفسه هُنَا: لماذا يطلبُ الله عز وجل من بلعام ألا يذهب، ثم يأمره بالذهاب، وعندما يذهبُ يشعُرُ بالغضب نتيجة ذلك؟

مما لا شكَّ فيه بأن الله عزَّ وجلَّ قادرٌ على قراءة ما يجول في خاطر بلعام، بالتالي كان على دراية تامة بأن بلعام أرادَ فعلاً إنزال اللعنة ببني إسرائيل. ونحنُ نعلم ذلك لأن بلعام ألحق الأذى ببني إسرائيل بعد مُحاولته الأولى لإنزال اللعنة بهم، حيثُ نصَّحَ أهلَ مَدِينِ بَانَ يستخدموا نساءهم لإغواء بني إسرائيل حتى يضلُّوا عن الطريق، الأمر الذي من شأنه أن يجلبَ غضبَ الله عزَّ وجلَّ عليهم (تبعاً لما تُخبرنا به الآية السادسة عشر من المقطع الحادي والثلاثين من سفر العدد). بَمَعْنَى آخِرٍ، لم يَكُنْ بلعام أبداً صديقاً لبني إسرائيل.

لكن قصَّة الحمارة المُتكلِّمة هي مثالٌ آخر على المواقف التي تُضحِكُ اللهَ عزَّ وجلَّ، فهي قصة لرجل امتلك سُمعة بأنه يمتلك قوياً خارقة للطبيعة، فكان الناس يعتقدون بأنه قادرٌ على أن يُبارك البشرَ ويلعنهم إذا شاء. لكن تُخبرنا القصة التوراتية بأمرٍ مُختلفٍ تماماً، وهو أن الله من خلال ما حدث قد أرسل رسالتين مُختلفتين إحداهما للمؤابيين وأهل مَدِينِ والثانية لبلعام نفسه، حيثُ أظهر للمؤابيين وأهل مَدِينِ بَانَ بني إسرائيل هم قومٌ مُباركون لا ملعونون، وكلِّما حاولتم أن تلعنوهم كلِّما أصبحوا مُباركين أكثر وأكثر، بل وستُصبحون أنتم الملعونين، وهذه حقيقة راسخة في يومنا الحالي تماماً كما كانت في السابق، إذ لطالما وجدت الكثير من الحركات حول العالم والتي تُحاول أن تلعن دولة إسرائيل وشعبها، لكن كلِّما زاد الشرُّ في قلوب أعداء بني إسرائيل، كلِّما زادت عظمة وقوة إسرائيل دولةً وشعباً، وكلِّما زادوا من شرِّهم كلِّما جلبوا لأنفسهم الهلاك والدمار.

كما كانت هنالك رسالة شديدة اللهجة أرادَ أن يوجِّهها الله عزَّ وجلَّ لبلعام نفسه، رسالة مفادها التالي: إن كنتَ تظنُّ أنك قادرٌ على التحكُّم بالله عزَّ وجلَّ فإن الله سيُريك كيف يُحوِّلُ حمارةً إلى نبيَّةٍ ونبياً إلى حمار، فحمارتُكَ ستري الملاك الذي تعجزُ أنت نفسك عن رؤيته، لهذا كان بلعام مُجبِراً على الاعتراف بهذه الحقيقة قائلاً: "كيف ألعنُ من لم يلعنه اللهُ؟ وكيف أشتُم من لم يَشْتُمهُ اللهُ؟" تبعاً لما تذكره الآية الثامنة من المقطع الثالث والعشرين من سفر العدد.

بالتالي تتحوَّلُ العجرفة دائماً إلى نقمةٍ في عالمٍ ينشغلُ قاداته بأعمال لا نهائية تسعى لتضخيم صورتهم ومكانتهم. في الوقت نفسه يوجد لبني إسرائيل كتابٌ ديني مقدَّسٌ ساهم بشكلٍ كبيرٍ في نجاحهم ونسب هذه النجاحات إلى الله عز وجل، وكامل فشلهم إلى أنفسهم فقط، الأمر الذي لم يُضعفهم أبداً، بل جعل منهم قوَّة استثنائية لا يُستهان بها.

ومن هذا المنطلق فإن الأمر ذاته ينطبق علينا على المستوى الفردي، وهُنَا أُستذكر مرة أخرى قصة لصديقٍ عزيزٍ فارَّقَ الحياةَ قبلَ فترةٍ، وقيلَ عنه بأنهُ "كان يصبُّ تركيزه على الله عز وجل لدرجة أنه نسي نفسه تماماً". أما عَبْدَةُ الأوثان من أمثال بلعام فلا زالوا يرفضون تعلم الدرس الذي يجبُ علينا جميعاً تعلمه: وهو أن ما يجب يكون محور اهتمامنا فعلاً ليس أن يفعلَ اللهُ ما نريده نحن، بل أن نفعل ما يريدهُ اللهُ عزَّ وجلَّ منّا. لهذا يضحكُ اللهُ ساخرًا من أولئك الذين يعتقدون بأنهم أشباه آلهة ويمتلكون قوة الإله وسلطته، والعكسُ صحيحٌ أيضاً: لأننا كلما تواضعنا كلما ازددنا عظمة.

پنحاس

هو النصُّ الأسبوعي الثامنُ من كتاب "بِمَدْبَارٍ" (أي سِفْرِ الْعَدَدِ). يبدأ هذا النصُّ الأسبوعيُّ بِالآيَةِ الْعَاشِرَةِ من المقطع الخامس والعشرين وينتهي بِالآيَةِ الْأُولَى من المقطع الثلاثين.

خَيْبَةُ أَمَلِ مَوْشِيهِ

إِنَّهَا قِصَّةٌ لِذِعَةِ خَفِيَّةٍ كَشَفَ كِبَارُ الْحَاخَامَاتِ النِقَابَ عَنْهَا بَيْنَ ثَنَائِيَا هَذَا النَّصِّ الْأَسْبُوعِيِّ مِنْ نصوص التوراة والذي يحمل اسم "پنحاس"، فها هو موشيه/موسى يشعرُ باقترابِ أَجَلِهِ بعد وفاة شقيقته ميريام/مريم وشقيقه أهارون/هارون. لهذا رفعَ يديه إلى الله عزَّ وجلَّ مُتَضَرِّعاً طَالِباً مِنْهُ أَنْ يُنْصَبَ شَخْصاً لِيُخْلِفَهُ وَيَقُودَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِهِ، فيقول تبعاً لما تذكره الآيتان السادسة عشرة والسابعة عشرة من المقطع السابع والعشرين من سِفْرِ الْعَدَدِ:

"إِنْ شِئْتَ يَا رَبِّ، يَا إِلَهَ أَرْوَاحِ كُلِّ الْبَشَرِ، فَاسْتَخْلِفْ رَجُلًا عَلَى الْجَمَاعَةِ. يَخْرُجُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَدْخُلُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيُدْخِلُهُمْ وَلَا تَبْقَى جَمَاعَةٌ لِلَّهِ، كَالْغَنَمِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا رَاعٍ"

وهناك سؤالٌ يطرحُ نفسه بقوة هنا: لِمَاذَا تَظْهَرُ هَذِهِ الْقِصَّةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ؟ إِذْ كَانَ يَجِبُ أَنْ تَظْهَرَ قَبْلَ سَبْعَةِ مَقَاطِعَ فِي الْمَرْحَلَةِ الَّتِي أَخْبَرَ اللَّهُ فِيهَا مَوْشِيهِ وَشَقِيْقَهُ أَهَارُونَ بِأَنَّهُ سَيَتَوَقَّأُهَا قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَا أَرْضَ إِسْرَائِيلِ. وَلرَبْمَا سَيَكُونُ مِنَ الْأَنْسَبِ أَنْ تَظْهَرَ هَذِهِ الْقِصَّةُ بَعْدَ فِتْرَةٍ وَجِيْزَةٍ مِنْ قِرَاءَتِنَا عَنْ وَفَاةِ أَهَارُونَ. بِالتَّالِيِ اسْتَشْعَرَ الْحَاخَامَاتِ وَجُودَ نَقْطَتَيْنِ فِيهِمَا تَلْمِيْحٌ لِلْقِصَّةِ الْخَفِيَّةِ الْكَامِنَةِ بَيْنَ ثَنَائِيَا هَذَا النَّصِّ الْأَسْبُوعِيِّ. النِّقْطَةُ الْأُولَى تَتَمَثَّلُ فِي ظُهُورِ هَذِهِ الْقِصَّةِ مُبَاشَرَةً بَعْدَ حَدِيثِ التَّوْرَةِ عَنْ قِصَّةِ بَنَاتِ صُلْفَحَادٍ وَمُطَالِبَتِهِنَّ بِحَصَّتِهِنَّ مِمَّا كَانَ يَمْلِكُهُ وَالدهنَّ مِنْ أَرْضِ، فَكَانَ هَذَا هُوَ الْأَمْرُ الَّذِي جَعَلَ مَوْشِيهِ يَطْلُبُ هَذَا الطَّلِبَ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. يَقُولُ الْمِدْرَاشُ فِي هَذَا الصِّدْدِ:

"مَا الَّذِي جَعَلَ مَوْشِيهِ يَطْلُبُ هَذَا الطَّلِبَ بَعْدَ أَنْ تَمَّ تَحْدِيدُ آليَةِ وَأَوْلِيَةِ الْمِيرَاثِ؟ إِنَّهُ هَذَا السَّبَبُ عَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ: فَبَعْدَ أَنْ وَرَثَتْ بَنَاتُ صُلْفَحَادٍ أَبِيَهُمَا بَدَأَ مَوْشِيهِ بِالتَّفْكِيرِ مَلِيًّا فِي الْأَمْرِ قَائِلًا لِنَفْسِهِ: لَقَدْ جَاءَ الْوَقْتُ الْمُنَاسِبُ لِكِي أَتَقَدَّمَ بِطَلْبِي، وَإِنْ كَانَ يَحِقُّ لِلْبَنَاتِ أَنْ يَرْتُنَّ فَبِالتَّأَكِيدِ يَحِقُّ لِابْنَائِي أَنْ يَرْتُوا مَجْدِي مِنْ بَعْدِي" (تبعاً لما يذكره كتاب بِمَدْبَارِ رَابَا 14:21).

أما النِّقْطَةُ الثَّانِيَةُ الَّتِي اسْتَدَلَّ مِنْ خِلَالِهَا الْحَاخَامَاتُ عَلَى الْقِصَّةِ الْخَفِيَّةِ بَيْنَ ثَنَائِيَا هَذَا النَّصِّ تَمَثَّلَتْ فِي كَلَامِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ حِينَمَا خَاطَبَ مَوْشِيهِ مُبَاشَرَةً قَبْلَ أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ تَنْصِيْبَ خَلْفٍ لَهُ، إِذْ تَقُولُ الْآيَتَانِ الثَّانِيَةُ عَشْرَةَ وَالثَّلَاثَةُ عَشْرَةَ مِنْ الْمَقْطَعِ السَّابِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِفْرِ الْعَدَدِ:

"وَلَمَّا قَالَ اللَّهُ لِمُوشِيهِ: اصْعَدْ إِلَى جَبَلِ الْعُقَارِيمِ هَذَا وَاَنْظُرِ الْبَلَدَ الَّذِي أَنَا مُعْطِيهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ. فَإِذَا أَبْصَرْتَهُ انْضَمَّ إِلَى قَوْمِكَ أَنْتَ أَيْضًا كَمَا انْضَمَّ أَهَارُونَ أَخُوكَ"

يَبْدُو وَكَانَ الْكَلِمَاتُ الْمَكْتُوبَةُ بِالْخَطِّ الْمَائِلِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ لَا صَّرُورَةَ لَهَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَخْبَرَ مُوشِيَهُ بِأَنَّهُ سَيَتَوَقَّاهُ قَرِيبًا، فَلَمَّا ذَا يُضَيِّفُ فِي كَلَامِهِ لَهُ "كَمَا انْضَمَّ أَهَارُونَ أَخُوكَ"؛ لَكِنْ الْمِدْرَاشُ يُوَضِّحُ هَذِهِ النِّقْطَةَ بِالْآيَةِ: هَذِهِ الْعِبَارَةُ تُبَيِّنُ لَنَا أَنَّ مُوشِيَهُ أَرَادَ أَنْ يَمُوتَ مِيتَةَ أَخِيهِ أَهَارُونَ. وَيُضَيِّفُ الْحَاخَامُ أَفْرَاهَامَ شَمُوئِيلَ بِنِيَامِينَ سُوْفِيرَ (الْمَعْرُوفُ بِلِقَبِّ "كُتَّافِ سُوْفِيرِ") فِي سِيَاقِ تَوْضِيحِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ قَائِلًا: لَقَدْ حَظِيَ أَهَارُونَ بِامْتِيَازٍ يَتَمَثَّلُ فِي مَعْرِفَتِهِ أَنَّ أَبْنَاءَهُ سَوْفَ يَسِيرُونَ عَلَى خُطَاهُ، فَقَدْ تَمَّ تَنْصِيْبُ ابْنِهِ الْإِعَازَارَ كَكَبِيرٍ لِلْكَهْنَةِ قَبْلَ وَفَاتِهِ، وَحَتَّى يَوْمِنَا هَذَا فَإِنَّ مَنْ يَنْحَدِرُونَ مُبَاشَرَةً مِنْ نَسْلِ أَهَارُونَ يُعْتَبَرُونَ بِمَثَابَةِ الْكَهْنَةِ وَيَتَوَجَّبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَّبِعُوا قَوَانِينَ دِينِيَّةً مُحَدَّدَةً رَغْمَ أَنَّهُمْ لَا يَخْدِمُونَ كَالْكَهْنَةِ فِي الْوَقْتِ الْحَالِي. هَذَا الْأَمْرُ جَعَلَ مُوشِيَهُ مُتَلَهِّفًا جَدًّا لِرُؤْيَا وَاحِدٍ مِنْ أَبْنَائِهِ (عِرْشُومُ أَوْ إِبِلْعِيْزِر) يَحِلُّ مَكَانَهُ فِي قِيَادَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، لَكِنْ هَذَا لَمْ يَحْدُثْ، وَهُنَا نَجِدُ الْقِصَّةَ الْخَفِيَّةَ وَالْكَامِنَةَ فِي بَاطِنِ الْقِصَّةِ الظَّاهِرَةِ.

لَقَدْ كَانَتْ هُنَالِكَ عَوَاقِبُ كَارِثِيَّةٍ لِهَذَا الْأَمْرِ، حَيْثُ نَقَرْنَا فِي سِفْرِ الْقُضَاةِ قِصَّةً لِرَجُلٍ يُدْعَى مِيخَا/مِيخَا (وَهُوَ مُؤَسَّسٌ لِأَحَدِ الطَّوَائِفِ الْوِثْنِيَّةِ فِي أَرْضِ أَفْرَايِمَ)، فَقَامَ بِتَعْيِينِ رَجُلٍ مِنْ سِبْطِ الْلَاوِيِّينَ لِيَخْدِمَ فِي الضَّرِيحِ التَّابِعِ لِتِلْكَ الطَّائِفَةِ. ثُمَّ تَذَكَّرَ الْقِصَّةَ عِدَّةً مِنَ الرِّجَالِ مِنْ سِبْطِ دَانَ كَانُوا قَدْ رَحَلُوا صَوْبَ الشَّمَالِ بَحْثًا عَنْ أَرْضٍ مُلَائِمَةٍ لَهُمْ، وَفِي خِصْمٍ بَحْثُهُمْ تَوَجَّهُوا إِلَى بَيْتِ مِيخَا وَوَضَعُوا يَدَهُمْ عَلَى أَوْثَانِهِ وَأَصْنَامِهِ وَاللَّاوِيِّ الَّذِي نَجَحُوا فِي إِقْنَاعِهِ بِأَنَّهُمْ سَيَقُومُونَ بِتَنْصِيْبِهِ كَاهِنًا عَلَيْهِمْ، قَائِلِينَ لَهُ: "اذهبْ مَعْنَا وَكُنْ لَنَا أَبًا وَكَاهِنًا. أَهْوُ خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَكُونَ كَاهِنًا لِبَيْتِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، أَمْ أَنْ تَكُونَ كَاهِنًا لِسِبْطِ مَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؟" (تَبَعًا لِمَا تَذَكَرَهُ الْآيَةُ التَّاسِعَةُ عَشْرَ مِنَ الْمَقْطَعِ الثَّامِنِ عَشْرَ مِنْ سِفْرِ الْقُضَاةِ).

وَفَقَطَ فِي نِهَايَةِ الْقِصَّةِ تُخْبِرُنَا الْآيَةُ الثَّلَاثُونَ بِاسْمِ ذَلِكَ الْلَاوِيِّ: إِنَّهُ يَهُوْتَانُ بْنُ عِرْشُومِ بْنِ مُوشِيهِ: "وَكَانَ يَهُوْتَانُ بْنُ عِرْشُومِ بْنِ مَدَشِيهِ هُوَ وَبَنُوهُ كَهَنَةً لِسِبْطِ الدَّانِيِّينَ إِلَى سَبْيِ الْأَرْضِ". وَنُلاِحِظُ فِي هَذَا النَّصِّ إِضَافَةَ حَرْفِ النُّونِ إِلَى اسْمِ مُوشِيهِ، بِالتَّالِي يُقْرَأُ "مَدَشِيهِ"، وَلَيْسَ مُوشِيهِ، فَأُضَيِّفُ حَرْفَ النُّونِ عَلَى شَكْلِ رَمِزٍ صَغِيرٍ فَوْقَ حَرْفِ الشَّيْنِ فِي النَّصِّ الْعِبْرِيِّ، وَهَذَا أَمْرٌ قَلَّمَا نَرَاهُ فِي النَّصِّ التَّوْرَاتِيِّ، فَيَقُولُ التَّلْمُودُ فِي سِيَاقِ تَفْسِيرِ هَذَا الْأَمْرِ بِأَنَّهُ تَمَّتْ إِضَافَةُ النُّونِ حَتَّى لَا يَتَلَطَّحَ اسْمُ نَبِيِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مُوشِيهِ بِالْعَمَلِ الَّذِي قَامَ بِهِ حَفِيدُهُ حِينَ أَصْبَحَ كَاهِنًا لِمُعْتَقِدٍ وَثَنِيٍّ.

وَالسُّؤَالُ الَّذِي يَطْرُقُ نَفْسَهُ هُنَا: كَيْفَ بِمَقْدُورِنَا تَفْسِيرُ فَشْلِ مُوشِيهِ الْوَاضِحِ فِيمَا قَامَ بِهِ أَبْنَاؤُهُ وَأَحْفَادُهُ؟ يُجِيبُ عِدَّةٌ مِنَ كِبَارِ الْحَاخَامَاتِ مَوْضِحِينَ بِأَنَّ هَذَا الْفَشْلَ يَتَعَلَّقُ بِحَقِيقَةِ ابْتِعَادِهِ عَنْ عَائِلَتِهِ لِسِنَوَاتٍ طَوِيلَةٍ، حَيْثُ كَانَ مُوشِيهِ يَسْكُنُ فِي مَنطِقَةٍ مَدِينَةٍ بِصَحْبَةِ حَمَاهُ يَتْرُو/يَثْرُونَ (رَعُوئِيلَ) الَّذِي كَانَ كَاهِنًا لِمُعْتَقِدٍ وَثَنِيٍّ آنَ ذَاكَ، بِالتَّالِي كَانَ لِهَذَا التَّأثيرِ الْوِثْنِيِّ الْمَدِينِيِّ انْعِكَاسٌ وَتَأثيرٌ مَلْمُوسٌ عَلَى الْجِيلِ الثَّلَاثِ مِنْ نَسْلِ مُوشِيهِ، فَبَدَأَ هَذَا التَّأثيرُ جَلِيًّا فِي حَيَاةِ حَفِيدِهِ يَهُوْتَانِ.

وهُنَالِكَ طَرِحُ بَدِيلٌ لِلْإِجَابَةِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ يَتِمَّتْ فِي التَّلْمِيحِ تَارَةً هُنَا وَتَارَةً هُنَاكَ بِأَنَّ مُوشِيَهُ نَفْسَهُ كَانَ مُنْشَغِلاً وَمُنْهَمَكاً فِي قِيَادَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِدَرَجَةِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَمْلِكُ الْوَقْتَ لِلْعَمَلِ عَلَى التَّرْبِيَةِ الرُّوحِيَةِ الْلازِمَةِ لِأَبْنَائِهِ. وَهُنَالِكَ أَمْثَلَةٌ تَدْعُمُ هَذَا الطَّرْحَ، فَعَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ، عِنْدَمَا جَاءَ يَتْرُو لَزِيَارَةَ مُوشِيَهُ بَعْدَ مُعْجَزَةِ انْشِقَاقِ الْبَحْرِ، جَاءَ مُصْطَحِباً مَعَهُ ابْنَتَهُ تَسِيْپُورَاهُ/ صَفُورَةَ زَوْجَةَ مُوشِيَهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَى أَبْنَائِهِ الْاِثْنَيْنِ، بِالتَّالِيِ لَمْ يَكُنْ مَوْجُوداً مَعَهُمْ حَتَّى تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

كَمَا نَجِدُ عِدداً آخَرَ مِنَ الْحَاخَامَاتِ يَذْهَبُونَ إِلَى مَا هُوَ أْبَعَدُ مِنْ ذَلِكَ لِلْإِجَابَةِ عَلَى هَذَا السُّؤَالِ، وَذَلِكَ عِبْرَ التَّأَمُّلِ مِلياً فِي السَّبَبِ الَّذِي جَعَلَ شَقِيْقَتَهُ مِيرِيَامَ وَشَقِيْقَهُ أَهَارُونَ يَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ بِطَرِيقَةٍ سَلْبِيَةِ. وَتَبَعاً لِتَوْضِيْحِ عِدَدٍ مِنَ كِبَارِ الْحَاخَامَاتِ فَإِنَّ السَّبَبَ الَّذِي جَعَلَهُمْ يَتَكَلَّمُونَ عَنْ شَقِيْقِهِمْ مُوشِيَهُ بِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ هُوَ ابْتِعَادُهُ عَنِ زَوْجَتِهِ وَغِيَابِهِ الْجَسَدِيِّ عَنْهَا، حَيْثُ اضْطُرَّ لِذَلِكَ لِأَنَّ طَبِيعَةَ دَوْرِهِ تُمْلِي عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ فِي حَالَةٍ مِنَ الطَّهَارَةِ الدَّائِمَةِ طَوِيلَةَ الْوَقْتِ، إِذْ مِنَ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَوْ يَتَكَلَّمَ هُوَ إِلَى اللهِ فِي آيَةٍ لِحْظَةٍ*. بِعِبَارَةٍ أُخْرَى، كَانَ أَهَارُونَ وَمِيرِيَامُ يَتَذَمَّرَانِ مِنْ حَقِيقَةِ إِهْمَالِ مُوشِيَهُ لِعَائِلَتِهِ.

وهُنَالِكَ تَفْسِيرٌ ثَالِثٌ لِلْإِجَابَةِ عَلَى السُّؤَالِ يَتَعَلَّقُ بِطَبِيعَةِ مَنَظُومَةِ الْقِيَادَةِ نَفْسِهَا، حَيْثُ أَنَّ مَنَظُومَةَ الْحُكْمِ الْبِيْرُوقْرَاطِيَةِ (مِصْطَلَحٌ سِيَاسِيٌّ يَعْنِي سُلْطَةَ الْمَكَاتِبِ) تَنْتَقِلُ فِيهَا السُّلْطَةُ مِنَ الْأَبِّ إِلَى الْإِبْنِ بِالْوَرَاثَةِ، وَالْحَالُ نَفْسُهُ يَنْطَبِقُ عَلَى مَنَظُومَةِ الْحُكْمِ الْمَلِكِيَةِ وَالْأَرْسْتَقْرَاطِيَةِ وَعِدَدٌ مِنَ أَنْظِمَةِ الْحُكْمِ الدِّيْنِيَةِ مِثْلَ مَنَظُومَةِ الْكَهَنَةِ. فِي الْمُقَابِلِ، نَجِدُ أَنَّ مَنَظُومَةَ الْحُكْمِ الْكَارِيزْمَاتِيَّةِ هِيَ مَنَظُومَةٌ لَا تَنْتَقِلُ فِيهَا السُّلْطَةُ بِشَكْلِ تَلْقَائِيٍّ بَيْنَ الْأَجْيَالِ لِأَنَّهَا تَقُومُ عَلَى مَبْدَأِ تَدَاوُلِ السُّلْطَاتِ وَانْتِقَالِهَا مِنْ شَخْصٍ لِآخَرَ عَلَى أَسَاسِ الْأَفْضَلِيَّةِ، لَا عَلَى أَسَاسِ صِلَةِ الْقَرَابَةِ أَوْ الْوَرَاثَةِ. وَهُنَا نَجِدُ أَنَّ مُوشِيَهُ كَانَ نَبِيّاً، وَالنَّبُوَّةُ تَعْتَمِدُ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ عَلَى الصِّفَاتِ الشَّخْصِيَّةِ لِلنَّبِيِّ نَفْسِهِ، وَلِهَذَا السَّبَبِ تَحْدِيداً نَجِدُ أَنَّ الْمَلَكِيَّةَ وَالْكَهَنُوتَ فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ هُمَا مَنَظُومَتَانِ تَنْتَقِلَانِ بِالتَّبَعِيَّةِ بَيْنَ الذَّكُورِ، خِلَافاً لِلنَّبُوَّةِ الَّتِي لَيْسَتْ حِكْراً لِلذَّكُورِ دُونَ الْإِنَاثِ، خَاصَّةً وَأَنَّ التَّارِيخَ الْيَهُودِيَّ شَهِدَ وَجُودَ نَبِيَّاتٍ وَأَنْبِيَاءٍ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ. بِالتَّالِيِ فَإِنَّ مَا حَدَّثَ مَعَ نَسْلِ مُوشِيهِ لَمْ يَكُنْ امْرَأً اسْتِثْنَائِيّاً أَوْ غَيْرَ مَأْلُوفٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ، لِأَنَّ قِلَّةَ قَلِيلَةٍ مِنَ الشَّخْصِيَّاتِ الْقِيَادِيَّةِ الْكَارِيزْمَاتِيَّةِ يُنْجِبُونَ أَبْنَاءَ يَحْمِلُونَ صِفَاتِ كَارِيزْمَاتِيَّةٍ مُؤَثَّرَةً كَأَبَائِهِمْ.

وهُنَالِكَ تَفْسِيرٌ رَابِعٌ لِلْإِجَابَةِ عَلَى السُّؤَالِ لَكِنَّهُ كَانَ مُخْتَلِفاً كُلياً عَنِ الْبَقِيَّةِ، حَيْثُ وَصَّحَ عِدَدٌ مِنَ كِبَارِ الْحَاخَامَاتِ بِأَنَّهُ مِنْ نَاحِيَةِ نَظْرِيَّةٍ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَنْتَقِلَ تَاجُ التَّوْرَةِ (دِرَاسَةُ التَّوْرَةِ وَالْحَيَاةِ ضَمَّنَ تَعَالِيْمِهَا) مِنَ الْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ بِالْوَرَاثَةِ، خِلَافاً لِمَنَظُومَةِ الْمَلَكِيَّةِ وَالْكَهَنُوتِ. فَتَاجُ التَّوْرَةِ – تَبَعاً لِتَفْسِيرِهِمْ – يَحْمِلُهُ كُلُّ مَنْ اخْتَارَ وَضَعَهُ وَاتَّبَعَ نَهْجَ التَّوْرَةِ وَاللِّتْزَامَ بِوَصَايَاهَا وَتَحَمَّلَ مَسْئُولِيَّاتِهَا، وَهَذَا مَا تُخْبِرُنَا بِهِ الْآيَةُ الرَّابِعَةُ مِنَ الْمَقْطَعِ الثَّلَاثِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ سِفْرِ التَّثْنِيَّةِ: "اللَّهُمَّ الَّذِي أَمَرَ لَنَا مُوشِيَهُ بِالتَّوْرَةِ، فَجَعَلَهَا وَرَاثَةً لِحُوقَةِ يَعْقُوفَ/يَعْقُوبَ"، بِمَعْنَى أَنَّ تَاجَ التَّوْرَةِ هُوَ مُلْكٌ لِلْجَمِيعِ وَلَيْسَ حِكْراً عَلَى نُخْبَةٍ مَعِينَةٍ، وَفِي هَذَا السِّيَاقِ يُوَضِّحُ التَّلْمُودُ مَا يَلِي:

*مُلاحِظَةُ تَوْضِيْحِيَّةٍ مِنَ الْمُتَرَجِّمِ: هَذِهِ الْعَادَةُ مَذْكُورَةٌ فِي سِفْرِ الْخُرُوجِ فِي الْمَقْطَعِ التَّاسِعِ عَشَرَ الْآيَةَ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ، عِنْدَمَا كَانَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَهَيِّئُ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِلْيَوْمِ الَّذِي سَيَسْتَقْبِلُونَ فِيهِ التَّوْرَةَ أَسْفَلَ جَبَلِ سَيْنَاءَ. تَقُولُ الْآيَةُ: "وَقَالَ لَهُمْ كُونُوا مُسْتَعِدِّينَ لِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ وَلَا تَقْرَبُوا امْرَأَةً".

إِيَّاكُمْ وإِهْمَالُ أَبْنَاءِ الْفُقَرَاءِ، فَمِنْهُمْ وَبِهِمْ تَسْتَمِرُّ التَّوْرَةُ... لِمَاذَا نَرَى إِنجَابَ عُلَمَاءَ لِلدِّينِ مِنْ نَسْلِ الْفُقَرَاءِ وَكَأَنَّهُ أَمْرٌ فِي مُنْتَهَى الْغَرَابَةِ؟
يقول الحاخام يوسف: التوراة ليست حِكراً على أَحَدٍ حتى لا يُقال بأنهم ورثوا التوراة عن آبائهم. كما يوضِّحُ الحاخام شيشْت ابن الحاخام إيدي قائلًا: حتى لا يكونَ هذا سبباً في الغطرسة تجاه المُجتمع.
ثم يقولُ الحاخام مار زوترا: حَتَّى لا يكونَ لِأَحَدٍ سَطْوَةٌ على أَحَدٍ في المُجتمع.
ويقولُ الحاخام آشي قائلًا: لأنهم يَنْعَتُونَ غَيْرَهُمْ بِالْحَمِيرِ.
وأخيراً يُضيفُ الحاخام رابيننا قائلًا: لأنهم لا يُكَلِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنَاءَ تِلَاوَةِ الدِّعَاءِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُتْلَى قَبْلَ قِرَاءَةِ وَدِرَاسَةِ التَّوْرَةِ (تبعاً لما هو مذكور في باب نَدَارِيم 81 أ)

بعبارة أخرى، فإن عدم انتقال "تاج التوراة" بالوراثة هو مبدأ مُتعمَّد في الديانة اليهودية، والهدف منه ألا تُصبح التوراة بمثابة امتيازٍ للأغنياء أو لنخبة معينة دون غيرها. ورَبِّمَا يكون السبب أيضاً هو أن انتقال تاج التوراة بالوراثة قد يجعلُ أبناء كبار العلماء ضامنين لِإرثِ آبائهم الديني. وقد يكونُ السبب هو أن الانتقال بالوراثة سيؤدِّي إلى خلقِ حالةٍ من الغطرسة على الآخرين بل وازدرائهم. ولعلَّ السبب يكون كامناً في أن هذا الانتقال الوراثي قد يجعلُ دراسة التوراة نفسها صَنْعَةً فِكْرِيَّةً بدلاً من أن تكونَ مُمارَسَةً رُوحَانِيَّةً* (لأنهم لا يُكَلِّفُونَ أَنْفُسَهُمْ عَنَاءَ تِلَاوَةِ الدِّعَاءِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُتْلَى قَبْلَ قِرَاءَةِ وَدِرَاسَةِ التَّوْرَةِ).

لكن وبجميع الأحوال هنالك سببٌ خامسٌ يستحقُّ أن يُؤخَذَ بعين الاعتبار، وهو أن بعض الشخصيات العظيمة في التاريخ اليهودي لم يُكتب لهم النجاحُ مع جميع أبنائهم، فنجدُ أن أفرهام/إبراهيم قام بإبعاد ابنه يشمعييل / اسماعيل عنه، ويتسحاق/إسحق وزوجته رفقته/رفقة أنجبا عيسف/عيسو. أضف إلى ذلك أن أبناء يعقوف الاثني عشر قد حافظوا على اليهودية باستثناء ثلاثة منهم حَيَّبُوا آمَالَ آبِيهِمْ، وَهُمْ رُوؤِفْنِ/رويين وشمعون وليثي/لاوي، فيقولُ يعقوف في مستهل حديثه عن ابنه رُوؤِفْنِ وشمعون: "فِي عَصَبَتَيْهِمَا لَمْ تَدْخُلْ نَفْسِي، وَفِي تَجَوِّقَيْهِمَا لَمْ تَجْتَمِعْ ذَاتِي" تبعاً لما تذكره الآية السادسة من المقطع التاسع والأربعين من سفر التكوين. وحين نفكر في أمر يعقوف فإنَّ ظاهر القصة يوحي بمحاولته أن ينأى بنفسه عنهم،¹ لكننا في المُقابل نجدُ أن القادة العظامَ الثلاثة لبني إسرائيل موشيه وأهارون وميريام هم من أبناء ليثي.

وَلتَزِيدَكُم مِنَ الشَّعْرِ بَيْتًا، نَرَى أَنَّ الْمَلِكَ شَلُومُو/سُلَيْمَانَ أَنْجَبَ رَحْفَعَامَ/رَحْبَعَامَ الَّذِي أَدَّتْ

1. لاحظ بأن الحاخام شلومو يتسحاقي (المعروف بالحاخام راشي) يُفسِّرُ اللعنةَ موضعاً بأنها كانت تقتصرُ على زمري الذي ينحدرُ من نسل شمعون، وقوَرِحَ الَّذِي ينحدرُ من نسل ليثي.

*ملاحظة توضيحية من المترجم: يُردِّدُ اليهودُ أدعيةً وصلوات تُبارِكُ اللهُ عز وجل قبل القيام بأمور معينة، وأحدُ هذه الأمور هي قراءةُ ودراسةُ التوراة. لكننا نجدُ في بعض الأحيان أن الذين يتوجب عليهم ترديد هذه الأدعية لا يقومون بذلك، ومنهمُ أبناءُ علماء الدين والذين يتجاهلون هذه الأدعية والصلوات بالرغم من أن ترديدها يعدُّ واجباً عليهم، والسبب هو شعورهم بعدم وجودِ صلة رُوحَانِيَّةٍ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَهُمْ بِالْكَادِ يَتَّبِعُونَ آبَاءَهُمْ مِنْ بَابِ الرُّوتَيْنِ لَيْسَ إِلا. ولهذا السبب نجدُ ان تاج التوراة لا ينتقلُ بالوراثة.

المُدْمَرَةُ إِلَى إِحْدَاثِ تَقْسِيمِ مَمْلَكَةِ إِسْرَائِيلِ إِلَى مَمْلَكَتَيْنِ. وَيُضَافُ إِلَيْهِ الْمَلِكُ حَزْقِيَاهُو/حَزْقِيَا أَحَدُ الْمُلُوكِ الْعُظْمَاءِ لِمَمْلَكَةِ يَهُودَه وَوَالِدُ مَدَشِيَه الَّذِي يُصَنَّفُ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدٌ مِنْ أَسْوَأِ الْمُلُوكِ. بِالتَّالِي، لَيْسَ بِالضَّرُورَةِ أَنْ يَنْجَحَ جَمِيعُ الْآبَاءِ مَعَ أَبْنَائِهِمْ طِيلَةَ الْوَقْتِ.

والسؤال المطروح هنا: كيف لعكس ذلك أن يحدث؟ فكل منّا يتمتع بالحرية التي تجعلنا - خلال مرحلة معينة وسياق معين - نختر من نكون، فلا الجينات ولا التربية تضمنان أن يكون الولد بالصورة التي يُريدها والده. كما أنه ليس من الصواب أبداً أن يفرض الآباء رغباتهم على أبنائهم حين وصولهم سنّ البلوغ. وفي كثير من الأحيان نجد أن هذا الأمر يصبّ في مصلحة الأبناء، فأقربهم لم يكن عابداً للأوثان مثل والده تيرح/تارح، ومدشيه الذي يعدّ مثلاً بارزاً على ملوك الشرّ هو جدّ يوشياهو/يوشيا الذي يعدّ واحداً من أفضل الملوك.

بالتالي فإننا نتعامل مع حقائق في غاية الأهمية في هذا الموضوع، فاليهودية تضع البيت والأبوة والتربية والتعليم في قلب قيمها وأخلاقياتها، وأحد أولى مهامنا هو ضمان معرفة وإدراك أبنائنا للإرث الديني المقبلين على محبته.

لكننا نفشل في ذلك أحياناً، فأبناؤنا قد يشقون لأنفسهم طريقاً مختلفاً عن طريقنا، وحين يحدث مثل هذا الأمر فإنه لا يجب أن يتملكننا شعور عميق بالذنب، إذ ليس بالضرورة أن ينجح جميع الآباء مع جميع أبنائهم، فحتى أقربهم وموشيه والملك دافيد/داوود والملك شلومو أنفسهم لم ينجحوا في ذلك، وحتى الله عزّ وجلّ ذاته لم ينجح في ذلك، تبعاً لما تُخبرنا به الآية الثانية من المقطع الأول من سفر إشعياء والتي تقول: "اسمعي أيتها السماوات وأصغي أيتها الأرض لأنّ الله يتكلّم: ربّيتُ بنين ونشأتهم، أما هم فعصوني".

وبالعودة إلى قصة موشيه فإننا نجد عاملين اثنين كان لهما الفضل في إنقاذ أبنائه من مأساة كهذه، فسفر أخبار الأيام الأول يُشير في الآية السادسة عشرة من المقطع الثالث والعشرين وفي الآية العشرين من المقطع الرابع والعشرين إلى ابن غرشوم باسم "شقوثيل" أو "شوفائيل" بدلاً من يهوئنان، هذا الاسم الذي ترجمته الحاخامات بعبارة "العودة إلى الله". بمعنى آخر، لقد تاب يهوئنان في نهاية المطاف وعاد إلى الله عزّ وجلّ وتوقّف عن عبادة الأوثان ليصبح يهودياً مؤمناً من جديد، الأمر الذي يدلّ على أنه مهما ابتعد الابن فإن الزمن قد يكون كفيلاً بعودته إلى مساره الصحيح.

أما العامل الثاني فهو مذكور كتلميح في الأنساب التي ذكرها سفر العدد في المقطع الثالث، فهو يبدأ بهذه الكلمات: "وهذه أسماء بني أهارون وموشيه..."، لكن الآيات تمضي وتأتي على ذكر قائمة تضم أبناء أهارون فقط، وفي هذا السياق يوضّح الحاخامات بأن موشيه هو صاحب الفضل في تعليم وتربية أبناء أهارون، لهذا وُصِفوا في الآيات بأنهم أبنائه، لأن "الأتباع" يوصفون على أنهم "أبناء" في كثير من الأحيان.²

2. أنظر تفسير الحاخام راشي للآية الأولى من المقطع الثالث من سفر العدد.

وقد لا يكون لأحدنا أبناءً أصلاً، وحتى عندما يكون لنا أبناءً فإننا قد نجدُهم يتبعون مساراً مُختلفاً (ربّما بشكلٍ مؤقتٍ) بالرغم من مساعينا الحثيثة للحيلولة دون حدوث ذلك. لكن في نهاية المطاف بإمكاننا أن نترك إرثاً حياً ومُستمرّاً حتى بعد موتنا، إرثٌ قد يكون مُشابهاً لما تركه لنا موشيه: أي تعليمٍ وتَشجيعِ الجيل القادم من الأبناء والتّيسير عليه. والبعض الآخر قد يترك خلفه إرثاً كالذي تحدّث عنه الحاخامات حين قالوا بأن "النسل الحقيقي للصالحين يتمثّل في أعمالهم الصالحة".³

لهذا يجب علينا أن نشعر بالامتنان لله عزّ وجلّ حين نرى أبناءنا وهم يسرون على خُطانا، وعندما يتفوّقون علينا فإن شعورنا بالامتنان والشكر لله عزّ وجلّ يجب أن يزداد أكثر وأكثر. لكن عندما يختارون مساراً مُختلفاً عن مسارنا فإنه يجب علينا أن نتحلّى بالصبر، مُدركين بأن أعظم شخص عرفه التاريخ اليهودي قد مرّ بتجربةٍ مُماثلةٍ، لهذا لا يجب علينا أن نفقد الأمل، خاصة حين نعلم أن حفيد موشيه قد عاد إلى المسار الذي بدأه جدّه بنهاية المطاف. وفي الكلمات الختامية لأواخر الأنبياء نجد أن النبيّ ملاخي/ملاخي قد تنبأ بأن الله عز وجلّ خلال وقتٍ مُعينٍ سوف "تقبلُ أفئدة الآباء على أبنائهم، وأفئدة الأبناء على آبائهم" بحسب ما تذكره الآية الرابعة والعشرون من المقطع الثالث من سفر ملاخي. لهذا لا بُدّ للمُجافي أن يعود حتى يلتئم الشملُ بكل إيمانٍ ومحبةٍ.

3. أنظر تفسير الحاخام راشي للآية التاسعة من المقطع السادس من سفر التكوين.

مَطَّوت

هو النصُّ الأسبوعي التَّاسِع من كتاب "بِمَدْبَار" (أي سفر العدد). يبدأ هذا النصُّ الأسبوعيُّ بِالآيةِ الثَّانِيَةِ من المقطع الثلاثين وَيَنْتَهِي بِالآيةِ الثَّانِيَةِ والأربعين من المقطع الثاني والثلاثين.

الوَفَاءُ بِالوَعْدِ

يَسْتَهْلُ نصُّ مَطَّوت من نصوص التوراة آياته بالحديث عن تشريعات النَّذْر والقَسَم (اليمين). لكن ما الذي يفعله نصُّ كهذا في ختام كتاب بِمَدْبَار (سفر العدد) خاصة وأن بني إسرائيل على وشك الوصول إلى المحطة النهائية من رحلتهم إلى أرض الميعاد؟

إنَّ النَّذورَ والأَيِّمانَ هي في الحقيقة تكليفٌ تصنعه الكلمات، إنها التزاماتٌ للقيام بأمرٍ معين أو الامتناع عن القيام بأمرٍ معين. كما أن "نِذْر" (النَّذر باللغة العبرية) يُوَثِّرُ على حالة الشيء، بِمعنى أنني حين أنذرُ نذراً بالأنا تناول طعاماً معيناً فإن هذا الطعام يُصْبِحُ حالياً مُحَرَّماً عَلَيَّ. أما اليمينُ "شَفوعاه" فيُوَثِّرُ على الشخص لا على الشيء، بِمعنى أنّ ما صار مُحَرَّماً في هذه الحالة هو قيامي بتناول الطعام، لا الطعام نفسه. لكن كلا المَعْنَيَيْنِ (النذر واليمين) يجتمعان في كلمة واحدة: وهذا هو المعنى الجَوْهَرِيُّ لكلمة "إِسَار" باللغة العبرية والتي تعني الالتزام والارتباط والتعهد.

ومثلما توجدُ حُرْمَةٌ للوفاء بالنذور والالتزام بالأيمان، فإنَّ التَّحَلُّلَ مِنْهَا له حُرْمَةٌ وشروطٌ مُلْزِمَةٌ هو الآخر، كما لا يمكن لأحدٍ أن يتحلَّلَ من نذوره وأيمانه لوحده، وهُنَا يضعُ هذا النصُّ الأسبوعيُّ من نصوص التوراة بعضاً من التشريعاتِ الأساسية للقيام بذلك، في حين أن بقية التشريعاتِ المُتعلِّقة بهذا الأمر موجودةٌ في التوراة الشَّفوية (والتي يُعتَقَدُ أنها جُزءٌ لا يَتَجَرَّأُ من التوراة). بالتالي نجد أن اليهودية تأخذُ مسألة الالتزامِ الشفهية على محمل الجد لدرجة أنّ "كُل نيدري" (أحد طرق التَّحَلُّلِ من النَّذور والأيمان) هو منسك هامٌّ من المناسك التي نوَدِّبُها في بداية أقدس يومٍ في السنة وهو يوم كيبور (يوم الغفران).

والسَّبَبُ الظاهريُّ لوجودِ تشريعاتِ النَّذورِ والأيمانِ في هذا الموضع يكمنُ في أنّ الجُزءَ السابقَ لهذا النصِّ الأسبوعي من التوراة قد تطرَّقَ لمسألة القرايين اليهودية الجماعية. لكن اليهود كأفرادٍ قَدَّمُوا القرايين أيضاً لأنهم في بعض الأحيان ألزَمُوا أنفسهم بذلك، وفي أحيان أخرى كانوا يقدّمونها لأنهم اختاروا القيام بذلك طواعيةً، بالتالي فإن تشريعات تقديم القرايين طواعيةً تنطبق عليهم أيضاً.

لكن يوجدُ سببٌ أعمقُ وراء ذلك، فبنو إسرائيل يقتربون من أرض الميعاد، وكانوا على وشك البدء ببناء مُجتمعٍ لا مثيل له آنذاك، مُجتمعٌ حُرٌّ قائمٌ على العهدِ بينهم وبين الله عزَّ وجلَّ. وفي هذا

المُجْتَمَع لا يَجِبُ أن تَكُونَ سِيَادَةُ القَانُونِ مَحْمِيَّةً بالقُوَّة، بل يَجِبُ أن تَكُونَ مَحْمِيَّةً بِاحْتِرَامِ أَفْرَادِ المُجْتَمَعِ لِالْتِزَامَاتِهِمُ الأَخْلَاقِيَّةِ، وبِاخْتِيَارِهِمُ الطَّوْعِيَّ حِينَ قَبِلُوا بِطَاعَةِ مَا يَأْمُرُهُمُ بِهِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

إِنَّ المُجْتَمَعِ القَائِمَ عَلَى هَذَا العَهْدِ هُوَ مُجْتَمَعٌ تَوْجَدُ فِيهِ حُرْمَةٌ وَقَدَاسَةٌ للكَلِمَةِ، وَهَذَا المَبْدَأُ رَاسِخٌ فِي صَمِيمِ العَقِيدَةِ اليَهُودِيَّةِ كقَاعِدَةٍ لِلحُرِّيَّةِ الجَمَاعِيَّةِ وَكدَسْتَوْرٍ لِلتَحَرُّرِ. وَهَذَا المَبْدَأُ بِحَاجَةٍ إِلَى تَفْسِيرٍ، فَكَلَّ مُجْتَمَعٌ بِحَاجَةٍ إِلَى قَوَانِينٍ، لِأَنَّهُ حِينَ يَخْلُو مِنَ القَوَانِينِ سَتَعُمُّ فِيهِ الفَوْضَى. عَمُومًا، تَوْجَدُ ثَلَاثُ أَسْبَابٍ تَجْعَلُ البَشَرَ يَلْتَزِمُونَ بِالقَوَانِينِ: السَّبَبُ الأَوَّلُ هُوَ مَعْرِفَتُهُمْ بِأَنَّهُمْ سَيُعَاقَبُونَ فِي حَالِ لَمْ يَلْتَزِمُوا بِهَا، وَفِي هَذِهِ الحَالَةِ يُمَكِّنُنَا وَصْفُ مِثْلِ هَذَا المُجْتَمَعِ بِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى أَسَاسِ القُوَّةِ وَالسُّلْطَةِ. أَمَّا السَّبَبُ الثَّانِي فَهُوَ أَنَّ الِاتِّزَامَ بِالقَانُونِ يَصُبُّ فِي مَصْلَحَتِهِمْ، وَفِي هَذِهِ الحَالَةِ يُمَكِّنُنَا وَصْفُ مِثْلِ هَذَا المُجْتَمَعِ بِأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَى أَسَاسِ المَصْلَحَةِ الذَّاتِيَّةِ. لَكِنِ كَلَّا المُجْتَمَعِينَ يَوْجَدُ لَهُ سَلْبِيَّاتٌ، فَالسُّلْطَةُ تُفْسِدُ البَشَرَ، وَالسَّيُّ وَرَاءَ المَصْلَحَةِ الذَّاتِيَّةِ يُفْسِدُ البَشَرَ هُوَ الأَخْر.

وَحِينَ تَكُونُ السُّلْطَةُ فَاسِدَةً فَإِنَّ هَذَا سَيُؤَدِي إِلَى فُقْدَانِ الحُرِّيَّةِ، وَعِنْدَمَا يَطْغَى السَّيُّ وَرَاءَ المَصَالِحِ الذَّاتِيَّةِ عَلَى المُجْتَمَعِ فَإِنَّ هَذَا سَيُؤَدِي إِلَى فُقْدَانِ التَّمَاسِكِ الاجْتِمَاعِيِّ. وَعِنْدَمَا يَكْتَرُّ البَشَرُ بِأَنفُسِهِمْ لَا بِالأَخْرِينَ فَإِنَّ النَاجِحَ سَيَنْمُو وَيَزْدَهَرُ فِي حِينَ سَيُعَانِي البَقِيَّةُ، عِنْدَهَا سَيَتَنَحَى العَدْلُ وَالتَّرَاحُمُ جَانِبًا لِيَحِلَّ مَكَانَهُمَا الطَّمَعُ وَالاسْتِغْلَالُ.

لَكِنِ التَّوْرَةُ تُبَيِّنُ لَنَا طَرِيقًا أَوْ سَبَبًا ثَالِثًا يَجْعَلُ النَّاسَ يَلْتَزِمُونَ بِالقَوَانِينِ، وَهُوَ أَنَّهُمْ اخْتَارُوا طَّوَاعِيَّةً أَنْ يَلْتَزِمُوا بِهَا. وَالأَفْرَادُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ يَنْتَمُونَ لِمُجْتَمَعٍ لَا يَقُومُ عَلَى القُوَّةِ وَالسُّلْطَةِ أَوْ السَّيِّ وَرَاءَ المَصْلَحَةِ الذَّاتِيَّةِ، بَلْ يَقُومُ عَلَى أَسَاسِ الاخْتِيَارِ الحُرِّ لِالْتِّزَامِ بِالوَاجِبَاتِ الأَخْلَاقِيَّةِ، فَالتَّوْرَةُ هِيَ القِصَّةُ الَّتِي تَبِينُ لَنَا كَيْفَ جَاءَ بَنُو إِسْرَائِيلَ بِهَذِهِ الفِكْرَةَ الخَلَاقَةَ: فِكْرَةَ سِيَاسَةِ العَهْدِ.

وَلِسُخْرِيَّةِ القَدْرِ فَإِنَّ فَرِيدْرِيكَ نَيْتْشَةَ - الَّتِي يُعْتَبَرُ مِنْ أَكْبَرِ مُنْتَقِدِي الدِّيَانَةِ اليَهُودِيَّةِ - كَانَ الشَّخْصَ الَّتِي رَأَى أَنَّ قُدْرَتَنَا كَبَشْرٍ عَلَى إِلْزَامِ أَنْفُسِنَا بِالوَعُودِ عَنِ طَرِيقِ الكَلِمَاتِ الَّتِي نَقَطَعُهَا تَعْتَبَرُ أَسَاسًا لِلأَخْلَاقِيَّاتِ وَللحُرِّيَّةِ الإِنْسَانِيَّةِ، وَهَذَا مَا عَبَّرَ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ "فِي جَنِيَالُوجِيَا الأَخْلَاقِ" (On the Genealogy of Morality): حِينَ قَالَ:

"أَلَيْسَتْ تَرْبِيَةُ حَيَوَانَ يَمْتَارُ بِالقُدْرَةِ عَلَى إِطْلَاقِ الوَعُودِ هِيَ مَهْمَةٌ مُتَنَاقِضَةٌ أَخَذَتْهَا الطَّبِيعَةُ عَلَى عَاقِبَتِهَا بِالنَّسْبَةِ لِلنَّوْعِ البَشَرِيِّ؟ أَلَيْسَتْ هَذِهِ هِيَ الإِشْكَالِيَّةُ الحَقِيقِيَّةُ لِلبَشَرِ؟"

وَيَمْتَارُ النَّوْعُ البَشَرِيُّ عَنِ سَائِرِ الحَيَوَانَاتِ الأُخْرَى بِقُدْرَتِهِ عَلَى اسْتِخْدَامِ اللُّغَةِ وَهَذَا أَمْرٌ بَدِيهِيٌّ وَمَعْرُوفٌ. فِي الوَقْتِ نَفْسِهِ، فَإِنَّ مَا رَأَهُ نَيْتْشَةَ هُوَ أَنَّنَا نَسْتَحْدِمُ اللُّغَةَ بِطَرِيقٍ عَدِيدَةٍ وَمُخْتَلِفَةٍ، فَنَحْنُ نَسْتَحْدِمُهَا لِعَرَضِ الوَصْفِ وَالتَّوَاصُلِ وَالتَّصْنِيفِ وَالتَّفْسِيرِ وَغَيْرِهَا مِنَ الأَغْرَاضِ. بِالتَّالِيِ فَإِنَّ اللُّغَةَ فِي هَذَا السِّيَاقِ هِيَ بِمَثَابَةِ انْعِكَاسٍ لِلوَاقِعِ وَتَرْجُمَةٌ لِمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنْ إِشَارَاتٍ وَرَمُوزٍ وَصُورٍ.

لَكِنِ بِإِمْكَانِنَا اسْتِخْدَامَ اللُّغَةِ بِطَرِيقَةٍ مُخْتَلِفَةٍ تَمَامًا، لَا لَوْصَفِ أَمْرٍ مَعِينٍ بَلْ لِإِلْزَامِ أَنْفُسِنَا بِشَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ السَّلُوكِ مُسْتَقْبَلًا. فَعَلَى سَبِيلِ المِثَالِ، عِنْدَمَا يَقِفُ العَرِيسُ تَحْتَ "الحَوِيَّاهِ" (الحَوِيَّاهِ هِيَ عَرِيشَةٌ صَغِيرَةٌ يَقِفُ تَحْتِهَا العَرِيسُ وَالعَرُوسُ كجِزءٍ مِنْ تَقَالِيدِ الزَّوْجِ فِي اليَهُودِيَّةِ وَتُقَامُ هَذِهِ العَرِيشَةُ

على أربعة أعمدة) ويقولُ لعروسه: "أنتِ مُقدَّسةٌ بالنسبة لي" فهو لا يَصِفُ الزَّوْجَ لأنه يتزوَّجُ فعلياً، بل هو يُلْزِمُ نفسه بعددٍ من الالتزاماتِ تَجاةَ المرأةِ التي اختارها لتكونَ زوجةً له، وهذا ما يُطلقُ عليه الفلاسفة في وقتنا الحالي مُصطلح (Performative Utterance) أي الكلام الأدايِّ، وهذا ما اعتبره نيتشه أمراً أساسياً بالنسبة للإنسان، فعبر عن هذا قائلاً:

حَتَّى نَمْتَلِكَ قَدراً مِنَ السَّيْطَرَةِ عَلَى المُسْتَقْبَلِ، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي عَلَى الْإِنْسَانِ أَوَّلًا أَنْ يَتَعَلَّمَ كَيْفَ يُفَرِّقُ بَيْنَ مَا يَحْدُثُ بِالصَّدْفَةِ وَبَيْنَ مَا يَحْدُثُ عَمْدًا... وَقَبْلَ أَنْ يَقُومَ بِهَذَا يَنْبَغِي عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ - حَتَّى فِي نَظَرَتِهِ لِنَفْسِهِ - مُسْتَقِرًّا وَمَوْضِعَ ثِقَةٍ وَأَنْ يَرَى الضَّرُورَةَ فِيمَا يَقُومُ بِهِ مِنْ أَفْعَالٍ، وَذَلِكَ حَتَّى يُحَاسِبَ عَن مُسْتَقْبَلِهِ حِينَ يُلْزِمُ نَفْسَهُ بِوَعْدٍ مَا.

وحيثُ نُلْزِمُ أنْفُسَنَا بكلماتٍ مُعينة فإننا نستخدمُ اللغةَ حتى نصنعَ أمراً، لا لِنَصِفَهُ، لأننا حينها نصنعُ مُستقبلاً مُنظماً من فوضى الغرائزِ والشهواتِ البشرية. وما يجعلُ البشرَ فريدينَ من نوعهم ليسَ استخدامهم للغة، فهنالكَ حيواناتٌ أخرى تستخدمُ أشكالاً مُختلفة من أشكالِ اللغة، فالدلافينُ تفعلُ ذلك، والحالُ نفسه ينطبقُ على الحيواناتِ التي تنتمي لعائلةِ الرئيسيات، وحتى النَّحْلُ يُوَدِّي رقصاتٍ مُعقدة ليُرسلَ من خلالها معلوماتٍ لمجموعاتٍ أخرى من النحل.

لكن ما يجعلنا كبشرٍ فريدينَ من نوعنا هو أننا نستخدمُ اللغةَ لِنُزِمَ أنْفُسَنَا بسلوكنا المُستقبلي حتى نتمكن من بناء رابطة الثقة المتبادلة مع غيرنا من البشر، وخيرُ مثالٍ على هذه الرابطة هو قطعُ الوعودِ والزواجِ، وهنالكَ مثالٌ ثالثٌ - وهو أمرٌ تمتازُ به اليهودية دون غيرها - يتمثل فيما يفهمه المُجتمعُ على أنه عهدٌ مكوّنٌ من مجموعة وعودٍ مُشتركة ومُتبادلة بين الشعبِ اليهوديِّ والله عزَّ وجلَّ. إن استخدامنا للغة على هذا النحو، لا يوصفُ أمرٌ موجودٍ بالفعل بل لِصْنَعِ أمرٍ لم يكن موجوداً من قبل، هو الاستخدامُ الذي يربطنا بالله عزَّ وجلَّ، فالله استخدمَ الكلماتَ لِيجلبَ الكونَ الطبيعي إلى الوجود، مصداقاً لما تُخبرنا به آياتُ التوراة: "قالَ اللهُ... فكانَ".

إننا نستخدمُ الكلماتَ لنجلبَ كوناً اجتماعياً إلى الوجود، وما تُخبرنا به التوراة هو أن الكلماتَ من شأنها أن تصنعَ أمراً معيناً لأن الكلماتَ مُقدَّسةٌ ومُلزِمةٌ لمن ينطقُ بها. وعندما نُلْزِمنا الكلماتَ بأمرٍ معين فإن هذا هو ما يُولدُ الثقة، والثقة بالنسبة للمجتمع هي كالتنبؤ بالنسبة للطبيعة: إنها أساسُ النظامِ المُخالِفِ للفوضى.

إن الأنظمة الاجتماعية في المُجتمع الحُرِّ تقوم على أساسِ الثقة، والثقة تُعني أن نلتزمَ بكلماتنا، وأن نَنطقَ بما سنقومُ به فعلاً. وأن نُلْزِمَ أنْفُسَنَا بما نقطعه من نذورٍ وأيمانٍ ووعودٍ أو أي التزامٍ شفهيٍّ آخر. وهذا يعني أننا سوف نفي بهذه الالتزاماتِ إلا في حالة وجودِ ظروفٍ قاهرةٍ وغير متوقعة تحولُ دون ذلك.

وحيثُ تتحطَّمُ روابطُ الثقة فإن العلاقاتَ الاجتماعية تتحطَّمُ هي الأخرى، وعندها سيُصبحُ المُجتمعُ مُعتمداً على جهاتٍ تنفيذ القانونِ أو غيرها من أشكالِ استخدامِ القوَّة. وحيثُ يتمُّ الإفراطُ في استخدامِ القوَّة فإن المُجتمعَ لن يكونَ حُرّاً على الإطلاق. والطريقة الوحيدة التي تجعلُ البشرَ الأحرارَ

يصنعون روابط بينهم تقوم على أساس التعاضد والتعاون دون الاستعانة بالقوة تكون عبر احترام الالتزامات الشفهية التي يلزمون أنفسهم بها.

إن الحرية بحاجة للثقة، والثقة بحاجة إلى بشر يلتزمون بكلماتهم، والالتزام بالكلمة يعني معاملة الكلمة على أنها أمر مقدس، وبأن النذور والأيمان لها حرمة يجب أن تُصان. وفقط في ظل ظروف محددة وقاهرة بإمكان الإنسان أن يكون في حِلِّ مِمَّا يقطعهُ من وعودٍ ونذورٍ وأيمان. ولهذا السبب تحديداً نفهم الحكمة من وراء تذكير بني إسرائيل بهذه الخاصية المقدسة للنذور والأيمان بمجرد اقترابهم من الأرض المقدسة، ففيها المجتمع الحر الذي ينبغي عليهم إقامته.

وقد يكون الإغواء بعدم الإيفاء بالوعد طاغياً ومسيطرًا عليك، خاصة إن كان عدم الإيفاء بهذا الوعد يصب في مصلحتك، ولهذا السبب تحديداً نجد أن الإيمان بالله عز وجل أمر أساسي جداً، فالله يسمع ويعلم ما يجول بخاطرنا من أفكار وما يصدُرُ عنا من أقوال أو أفعال، وهو الذي سيحاسبنا عن الالتزامات التي نلزم أنفسنا بها. ولربما يبدو لنا الأمر غريباً في وقتنا الحالي حين نجد أن الفيلسوف الإنجليزي الذي عاش في القرن السابع عشر جون لوك والمعروف عنه بأنه أب للتسامح والليبرالية كان يعتقد بأنه لا يجب أن تُمنح الجنسية للملحدين، إيماناً منه بأن عدم إيمانهم بالله لا يجعلهم موضع ثقة بأنهم سوف يحترمون كلمتهم.

بالتالي، فإن ظهور تشريعات النذور والإيمان في ختام سفر العدد بالتزامن مع اقتراب بني إسرائيل من دخول الأرض المقدسة لم يكن من قبيل الصدفة، والعبرة من ذلك لا تزال قائمة حتى يومنا هذا، فالمجتمع الحر يقوم على أساس الثقة، والثقة تقوم على أساس الالتزام بالكلمة، وهكذا يُمكن للبشر أن يقتدوا بالله عز وجل في استخدامه اللغة للخلق. فالكلمات تخلق الالتزامات الأخلاقية، والالتزامات الأخلاقية حين يتم الالتزام بها بمنتهى المسؤولية واحترامها بمنتهى الإخلاص فإنها تخلق القدرة والإمكانية لبناء مجتمع حر. لهذا يجب علينا أن نقوم بما قلنا أننا سنقوم به، وحين نفشل في الالتزام بكلماتنا وبالوفاء بوعدنا فإننا بنهاية المطاف سنفقد حريتنا.

مَسْعِيّ

هو النصُّ الأسبوعي العاشرُ والأخيرُ من كتاب "بِمَدْبَارٍ" (أي سفر العدد) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعيّ بالآية الأولى من المقطع الثالث والثلاثين وينتهي بالآية الثالثة عشرة من المقطع السادس والثلاثين.

التعقيدُ في مسألة حقوق الإنسان

يختتمُ سفر بِمَدْبَارٍ (سفر العدد)* آياته بطريقة غريبة بالفعل، حيث نقرأ في نصٍ سابقٍ من نصوصه الأسبوعية وهو نصُّ بِنحاسٍ عَن بناتِ صِلفحادٍ عندما جِئنا إلى موشيه/موسى مُطالباتٍ بحقِّ أساسه العدلُ وحقوق الإنسان.¹ فوالدهنَّ توقاهُ اللهُ ولم يكن له أبناء ذكور، والميراثُ في حالة تقسيم الأرض يذهبُ عادة للذكور، لكن لم يكن هنالك أبناء ذكورٍ لَصِلفحاد. ومما لا شك فيه بأنه يستحقُّ أن ينال نصيبه من الأرض، وبناته هُنَّ الوريثاتُ الوحيداتُ له، واستناداً إلى أحقيتهنَّ في ذلك نساء لَن "لِمَ يَنْقُصُ اسمُ أبينا من بين عشيرته؟ إذ ليسَ له ابنٌ، فأعطينا نَحلةً فيما بين أعمامنا" تبعاً لما تذكره الآية الرابعة من المقطع السابع والعشرين من سفر العدد.

في الوقت نفسه، لم يتلقَ موشيه أي إرشادات بخصوص قضية كهذه، فتوجّه إلى الله عزَّ وجلَّ مباشرة ليسأله عن ذلك، وحكم اللهُ لصالح البنات تبعاً لما تذكره الآية السابعة من المقطع والسفر نفسه حين قال: "نعم قالت بنات صِلفحاد، أعطِهِنَّ حَوزَ نَحلةٍ فيما بين أعمامهنَّ، وانقل نَحلةً أبيهنَّ لهُنَّ" ثُمَّ بيّن اللهُ عزَّ وجلَّ لِموشيه مزيداً من الإرشادات التي تتعلق بتوزيع الميراث، وهكذا تتوالى أحداثُ القصة بالانتقال إلى الحديث عن قضايا أخرى.

وهنا فقط، أي في ختام هذا السفر، تتطرَّقُ التوراةُ لحدثٍ ظَهَرَ مُباشرةً من صُلب أحداث هذا الموقف. فكبارُ قبيلة مَنشيه بن يوسف والتي ينتمي إليها صِلفحاد جاؤوا حاملين هذه الشكوى: إن كانت الأرضُ ستذهبُ لبناتِ صِلفحاد ثم تزوجنَ برجالٍ من قبيلةٍ أخرى فإن الأرض ستذهبُ بنهاية المطاف إلى أزواجهن وستصبح ملكاً لقبيلة أزواجهن، لذا فإنَّ الأرضَ التي مُنِحَت في بداية الأمر لقبيلة مَنشيه قد يخسرون ملكيتها للأبد. فتوجّه موشيه إلى الله عزَّ وجلَّ حاملاً معه هذه القضية مرةً أخرى،

1. كلمة "حقوق" بالطبع خارجة عن سياقها الزمني لتاريخ استخدامها، فهذه الفكرة لم تكن موجودة حتى القرن السابع عشر للميلاد. ومع هذا فإنه ليس من الخطأ أن نرى فكرة الحقوق موجودة في مطالب البنات حين سألن: "لِمَ يَنْقُصُ اسمُ أبينا من بين عشيرته؟" (تبعاً لما تذكره الآية الرابعة من المقطع السابع والعشرين من سفر العدد).

* ملاحظة توضيحية من المترجم: الحاخام سعديا چاؤون الذي قام بترجمة التوراة إلى اللغة العربية يُطلق على هذا السفر اسم "سفر التعداد" وليس "سفر العدد" الذي تبنته الترجمة المسيحية للغة العربية، لأن هذا السفر يتطرَّقُ لمسألة إحصاء بني إسرائيل وتعدادهم السكاني.

فبين له الله خلاً بسيطاً لها: تستحقُّ بناتِ صِلفحادِ قطعة الأرض، وقبيلته تستحقها أيضاً، لهذا إن أردنَّ أن يحفظن بملكيتها فإنه ينبغي عليهنَّ الزَّواجُ من رجال قبيلتهنَّ، وهذه الطريقة كفيلةٌ باحترام مطالبِ الجهتين في الوقت نفسه. وفي هذه الحالة تكونُ البناتُ قد خسرنَ بعضاً من حرّيتهنَّ في اختيار أزواجهنَّ، لكنهنَّ لم يخسرنَ حقهنَّ في الأرض.

إنَّ القصتين مرتبطنان ببعضهما البعض إلى حدٍ كبير، فكلا القصتين تستخدمان المصطلحات والمُفردات ذاتها، إذ تذكر القصتان بأنَّ بناتِ صِلفحادِ وكبار القبيلة قد "اقتربوا"، والفعل الذي يصف احتمالية خسارتهما هو ذاته مذکورٌ في القصتين: "يَجْرَاع"، بمعنى انتقص، وفي كلا القصتين يرُدُّ الله عزَّ وجلَّ باستخدام التعبير ذاته تبعاً لما تذكره الآية السابعة من المقطع السابع والعشرين والآية الخامسة من المقطع السادس والثلاثين: "كين... دوفروت/دوفريم" بمعنى أن كلا الجانبين مُحِقُّ. 2 فلماذا إذاً نرى كلا الواقعتين في مكانين مُنفصلين في النصِّ التوراتي؟ لماذا يختتم سفر العدد آياته بطريقة تبدو وكأنَّ الأمور تنقلبُ رأساً على عقب؟ وما هي علاقة هذه القصة بالوقتِ الحاضر؟

إنَّ سفر العددِ هو كتابٌ يتعلَّقُ بالأفراد، فيبدأ بالإحصاءِ والتَّعداد، لكن غايته من ذلك لا تتعلَّقُ بتزويدنا بالأرقام الحقيقية لتعدادِ بني إسرائيل آنذاك بقدر ما تتعلَّقُ بأنَّ "يرفعا" "بُيوت آباؤهم" (عبارة توراتية تعني حساب كل فرد) بحسب ما تذكر الآياتان الثانية والثانية والعشرون من المقطع الرابع، هذا التعبير الاستثنائي الذي تستخدمه التوراة لتوصِلَ رسالة بأنَّ الله عزَّ وجلَّ حين يأمرهم بالتَّعداد فهو يريدُ لبني إسرائيل أن يدركوا بأنه يوجد لكل فردٍ منهم قيمةٌ وأهمية.

ويركِّز سفر العدد أيضاً على سيكولوجية الأفراد، حيث نقرأ عبر آياته حالة اليأس والإحباط التي تملكَّت موشيه في أكثر من موقف: عندما وَجَّه شقيقه أهارون/هارون وشقيقته ميريام/مريم الانتقادات له، وعندما عاد العيونُ دون أن تكونَ لديهم الجرأة على جلبِ أخبارٍ إيجابية، بالإضافة إلى الموقفِ الذي ظهرت فيه مجموعة من الساخطين بقيادة قورح والذين لم يكونوا راضين عن قيادة موشيه لبني إسرائيل. كما نقرأ أيضاً بين ثنايا هذا السفرِ عن يهوشوع/يوشع بن نون وكليف/كالب بن يفونيه وإلداد وميداد، وداتان وأقيرام، وزمري وبنحاس وبالاق وبلعام وغيرهم.

وهذا التركيز على الأفراد يبلغُ ذرَّوته في دُعاء موشيه لله "إله أرواح كلِّ البشر" حتى يُعيِّن رجلاً يخلفه تبعاً لما تذكره الآية السادسة عشرة من المقطع السابع والعشرين، حيثُ فهمه كبارُ الحاخامات ومنهم الحاخام شلومو يتسحقي (المعروف بالحاخام راشي) على أنه يريدُ أن يُنصَّب قائداً يتعامل مع كل فردٍ من بني إسرائيل على أنه فردٌ بحدِّ ذاته، وتكونُ علاقته بقومه مبنية على أساس تميّزهم وفرديتهم التي تمتعوا بها.

وهذا هو السياقُ لمطلَبِ بناتِ صِلفحادِ، فقد كُنَّ يُطالبنَ بحقوقهنَّ كأفرادٍ، وهذا مَطْلَبٌ عادلٌ بالطبع. ومثلما بيَّن كثيرٌ من الحاخاماتِ والمُفسرين فإنَّ سلوكِ النساءِ خلال سنين الرحلة في الصحراء

2. هذان الجزءان قد يكونان المصدر لقصة الحاخام الذي سمع طرفي خلافٍ زوجي وقال للزوج والزوجة: كلاهما مُحِقٌّ. فيوجِّه أحد أتباع الحاخام سؤالاً له: "كيف يكون كلاهما مُحِقّاً؟" فيجيبه الحاخام: "أنت مُحِقٌّ أيضاً".

كان سلوكاً نموذجياً مثالياً، في حين كان سلوك الرجال هو النقيض من ذلك، فالرجال لا النساء هم الذين قدّموا الذهب لبناء العجل الذهبي، كما أن العيون كانوا من الرجال لا من النساء. وهُنَاكَ تعليقٌ شهيرٌ للحاخام كلي يقار (الحاخام شلومو إفرام لونتشتيتس 1550م - 1619م) يرى فيه أن موشيه لو بعث بعيون من النساء لا من الرجال لجلبن له أخباراً جيّدة.³ وانطلاقاً من عدالة قضيتهن فقد أكد الله عزّ وجلّ على حقوقهنّ الفردية.

لكن المجتمع ليس مبنياً على أساس الأفراد وحسب، ومثلما يُبيّن لنا سفر القضاة فإن الفردية هي الاسم الآخر للقوضى مصداقاً لما تذكره الآية السادسة من المقطع السابع عشر والآية الخامسة والعشرين من المقطع الحادي والعشرين: "وفي تلك الأيام لم يكن ملكٌ في إسرائيل، فكان كل واحد يفعل ما يحسن في عينيه". بالتالي هنالك إصرارٌ بين ثنانيا سفر العدد على مركزية دور القبائل باعتبارها الحاضنة المنظمة للحياة اليهودية. فبنو إسرائيل كان يتم إحصاؤهم قبيلةً قبيلةً، كما أن التوراة تُبيّن الترتيب المُحدّد لتوزيع وترتيب تخيمهم حول المشكان (بيت العبادة) والترتيبات المُحدّدة للترحال.

وفي النصّ الأسبوعي الذي يحمل عنوان "نسوا" نرى بأسلوبٍ مُطوّلٍ كيف أن التوراة تأتي مراراً وتكراراً على ذكر الهبات التي منحتها كل قبيلة خلال بناء المشكان، مع العلم بأن جميع القبائل قد منحت القدر نفسه من الهبات. كما أن تقسيم القبائل لم يكن أمراً من باب الصدفة فيما يتعلق ببناء إسرائيل كمجتمع، تماماً كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية التي تقوم تركيبها السياسية أساساً على مبدأ الاتحاد الفدرالي بين الولايات (التي كان عددها ثلاثة عشرة في البداية ثم أصبحت خمسين ولاية مع مرور الزمن). بمعنى آخر، كان مجتمع إسرائيل بمثابة اتحاد فدرالي بين القبائل (إلى أن تم تنصيب ملكٍ عليهم).

كما أن وجود أمرٍ مشابه لفكرة القبائل يعتبر مسألة ضرورية جداً للمجتمع الحر.⁴ ودولة إسرائيل الحديثة بُنيت على أساس التنوع والتعددية في المجموعات الإثنية، ففيها اليهود الأشكنازيون والسفرديون واليهود القادمون من شرق ووسط وغرب أوروبا، وغيرهم من إسبانيا والبرتغال والبلدان العربية وروسيا وإثيوبيا والقارة الأمريكية وجنوب أفريقيا، وأستراليا وغيرها من المناطق. كما تجد بينهم اليهود الحسيديين وعلماء وطلاب اليشيفا (المدارس الدينية اليهودية)، ومنهم "المُعاصرون" ومنهم "التقليديون"، ومنهم العلمانيون ومنهم أيضاً الذين يعتبرون أنفسهم ينتمون للثقافة اليهودية فقط.

ولكل منّا سلسلة من الهويات التي تنبع بشكلٍ جزئي من خلفيّة العائلة، وبشكلٍ جزئي من طبيعة الوظيفة ومن عامل المكان والمجتمع الذي ننتمي إليه. إنّ هذه "التركيبة الوسطية" التي تفوق مستوى الفرد وتقل عن مستوى الدولة هي الحاضنة التي تنمو فيها تفاعلاتنا المُعقّدة والواضحة والمباشرة مع هوياتنا في إطار العائلة والأصدقاء والجيران والزملاء، وهذه بدورها تُشكّل ما يُعرّف بشكلٍ جماعي على أنه المجتمع المدني، والمجتمع المدني ضروري جداً من أجل الحرية.⁵

3. المصدر: Kli Yakar on Numbers 13:2

4. المصدر الذي نُشر مؤخراً: Tribe: On Homecoming and Belonging, Sebastian Junger (Fourth Estate, 2016)

5. هذا هو الطرح الذي كان أبرز من طرحه ويّنه إدموند بيرك وألكسيس دي توكفيل.

لهذا، يجبُ على المُجتمع أن يخلِقَ حيِّزاً للهويّاتِ الجماعية بجانبِ الحقوقِ الفردية. والمثالُ الكلاسيكي الذي أَسْتَحْضِرُهُ لتوضيحِ عكسِ هذه الفكرة يعود إلى بداية الثورة الفرنسية، فخلال مُجرياتِ الحديثِ والنقاشِ في المؤتمرِ الثوري الفرنسي سنة 1789م، أصدر كونت كليرمونت تونير البيان المعروف الذي جاء فيه: "سنمنحُ كل شيءٍ لليهودِ كأفرادٍ، ولن نمنحهمُ أي شيءٍ كـ"شعب"، فإن أصَرَ اليهودُ على تعريفِ أنفسهم على أنهم شعب وجماعة فرعية تعيشُ داخل الجمهورية "فَسَوْفَ نَكُونُ مُجْبَرِينَ على طردِهم"، على حدِّ تعبيرِ الكونت.

وفي البداية كان يبدو هذا أمراً منطقياً ومعقولاً، حيثُ عُرضَ على اليهود حينها حقوقُ مدنية في الدولة العلمانية الجديدة. لكن الأمر كان بعيداً كُلُّ البُعد عن ذلك، لأن هذا يعني تخليهم عن هويّتهم الجماعية كيهود في الإطار العام للدولة، بمعنى أنه لا يجبُ أن تَقِفَ أي هوية دينية أو عرقية بين الفردِ والدولة. ولم يكن من قبيل المصادفة أن فرنسا بعد مضيِّ قرنٍ من الزمان قد أصبحت واحدة من معاقلِ مُعاداة السامية الأوروبية، هذه الظاهرة التي بدأت بالكتاب الماكر الذي أصدره إدوارد درومون (*La France Juive*, 1886) (فرنسا اليهودية) وبلغت أوجها خلال أحداثِ مُحاكمة دريفوس. وبمجرّد سماع ثيودور هرتزل للحشد الباريسيِّ الساخط وهو يصرخ "الموت لليهود" فقد أدركَ بأنه ليس هنالك أي قُبُولٍ لليهود كمواطنين في أوروبا بالرغم من كل المحاولات للتظاهر بذلك. ومن هنا وجدَ اليهودُ أنفسهم يُعاملون على أنهم أبناءُ قبيلة في أوروبا التي ادَّعت بأنها أنهت نظام القبائل، فكانت التحررية في أوروبا تعترفُ بحقوق الأفراد لكنها لا تعترفُ بحقوقهم الجماعية.

وفي هذا السياق يوضِّحُ عالم السلوك الحيواني المُتخصِّصُ في الرئيسيات فرانس دي فال هذه النقطة جيداً (والذي تحدّثنا عن عمله مع قرود الشمبانزي في مقالة النصِّ الأسبوعي الذي يحمل عنوان قورح)، مُبيّناً بأن الثقافة الغربية الحديثة ككلّ قد قامت على أساس مبدأ الاختيار والاستقلالية للأفراد. لكننا فعلياً لسنا كذلك، فنحنُ نرتبطُ ارتباطاً وثيقاً بعائلاتنا وأصدقائنا وجيراننا وتحالفاتنا وأبناء ديننا وعرقنا. ويتابع فرانس قائلاً:

"إنَّ اهْتِمَامَ الأخلاقياتِ بالحقوقِ الفردية على وجه الخصوص يميلُ إلى تجاهلِ العلاقة والاحتياجات والاستقلالياتِ المُتبادلة التي ميّزت وجودنا منذ الأزل. إنها أخلاقياتٌ باردة تخلقُ فجوة بين البشر مُلقية كل فردٍ منهم في زاوية ضيقة من زوايا الكون. إنَّ بروزَ مثل هذه الصورة للمجتمع في عقول كبار المُفكرين هو أمرٌ في مُنتهى الغموض".⁶

وهذه على وجه التحديد هي الفكرة التي تريد أن توصِّلها التوراة عندما قَسَّمت قِصَّة بنات صِلفحاد إلى جزأين. فالجزء الأول الذي ذُكِرَ في نصِّ پنحاس يتعلّقُ بالحقوقِ الفردية، أي حقوق بنات صِلفحاد في قطعة الأرض. أما الجزء الثاني الذي ذُكِرَ في ختام السِّفر فهو يتعلّقُ بحقوقِ الجماعة، وفي هذه الحالة كان حقّ قبيلة مِثْشيه في أراضيها. والتوراة تُوكِّدُ على أحقية الطرفين لأن كليهما ضروري في المُجتمع الحُرِّ.

6. Frans de Waal, *Good Natured* (Harvard University Press, 1996), 167

إن الكثير من القضايا التي تبدو شديدة التعقيد في الحياة اليهودية المعاصرة قد ظهرت بسبب كون اليهود، خاصة في الغرب، قد اعتادوا على ثقافة سيادة الحقوق الفردية على كل شيء. إذ يجب علينا أن نحيا كما نريد، وأن نمارس حقنا في العبادة كما نريد، وأن نُعرِّف أنفسنا كما نُريد. لكن الثقافة القائمة على الحقوق الفردية فقط ستؤدِّي إلى إضعاف العائلات والمُجتمعات والتقاليد والانتماءات بالإضافة إلى المعايير المُشتركة للاحترام والانضباط.

وبالرغم من التركيز الشديد على قيمة الفرد، إلا أنَّ اليهودية تُؤكِّدُ على قيمة تلك المنظومات التي تُحافظُ على هويَّاتنا وتحميها كأفراد في الجماعات التي كَوَّنَتْهُمْ. إننا نتمتَّعُ بحقوقِ كأفراد، لكننا نتمتع بالهوية بسبب كوننا أفراداً من قبائل. وإن احترام الأمرين هو مسألة حَسَّاسة وصعبة لكنها ضروريَّة جداً، وسِفْر العدد يختتم آياته بتعليمنا كيف نقومُ بذلك.

دقاريم

דברים

دقاريم

هو النصُّ الأسبوعي الأول من كتاب "دقاريم" (أي سفر التثنية)، وهذا النصُّ الأسبوعي يحمل نفس العنوان الذي يحمله هذا السفر. يبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الأول وينتهي بالآية الثانية والعشرين من المقطع الثالث.

حتى المائة والعشرين: أن تتقدم في العمر وتظل شاباً

أقيم احتفالاً تقليدياً في قصر بكنغهام بتاريخ السابع والعشرين من شهر آذار/مارس عام 2012م بمناسبة اليوبيل الماسي على تنصيب الملكة. وخلال الحفل ألقى عددٌ من الشخصيات ومُمثلي مؤسسات المملكة المتحدة خطابات لتجديد ولائهم للملكة وشكرها على خدماتها للبلاد، ومن بين هؤلاء كان مجلسُ مُمثلي يهود بريطانيا. ومن ضمن الخطاب الذي ألقاه رئيس المجلس آنذاك فيثيان واينمان كانت العبارة اليهودية التقليدية التي تقال في مناسبة كهذه: "حتى تبلغ من العمر مائة وعشرين عاماً".*

بدأت الملكة مُستمعة بما سمعته لكنها نظرت إلى الأمير فيليب نظرةً تملؤها الحيرة والتساؤل، فكلاهما لم يسمع هذه العبارة من قبل. لاحقاً توجهُ الأمير إلينا بالسؤال عن فحوى هذه العبارة فوضّحناها له، فالرقم مائة وعشرون هو الحدُّ الأقصى للعمر الطبيعي للإنسان بحسب ما يذكر سفر التكوين في الآية الثالثة من المقطع السادس. وهذا الرقم مُرتبطٌ بشكل خاصٍ بعمرٍ موشيه/موسى بحسب ما تذكره لنا الآية السابعة من المقطع الرابع والثلاثين من سفر التثنية: "وكان موشيه ابن مائة وعشرين سنة حين مات، لم تدمس عينه ولم تزل رطبته". وقد مثَّل موشيه نموذجاً للتقدم في العمر مع الاحتفاظ بالصحة والحيوية، والحال نفسه ينطبق على أفرهام/إبراهيم الذي تمتع بشخصية وظروفٍ مُختلفة عن ظروف وشخصية موشيه. وقد أصبح التقدم في عُمر البشر تحدياً بارزاً للكثير منا، إذ كيف نتقدم في العمر ونظلُّ بحيوية الشباب في الوقت نفسه؟

ويكاد يكون البحثُ المعروف باسم جرانث (Grant Study) أكثر دراسةً مُطوّلةً تبحثُ بعمقٍ في إجابة هذا السؤال، والتي بدأت منذ عام 1938م بتتبع حياة 268 طالباً من طلاب جامعة هارفرد لمدة ثمانية عقودٍ تقريباً، وذلك في محاولةٍ لفهم الخصائص التي من شأنها أن تُساهم في ازدهار الإنسان، بدءاً من طبيعة الشخصية ومروراً بالذكاء والصحة وانتهاءً بالعادات والعلاقات الاجتماعية.

* ملاحظة توضيحية من المترجم: هنالك عبارة شائعة تُقال في أعياد الميلاد وهي "عقبال مائة وعشرين سنة" أو "عقبال مئة سنة".

وعلى مدار ثلاثة عقود كان مشروع البحث تحت إشراف عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي جورج فايلانت صاحب كتابي " Aging Well " و " Triumphs of Experience " والذي تطرّق لهذا الموضوع بأسلوبٍ رائع جداً.¹

ومن بين الأبعاد الكثيرة المتعلقة بالتقدّم في العمر والبقاء بصحة وحيوية، نجد أن جورج فايلانت يتطرّق إلى بُعدين اثنين يتعلّقان بقصّة موشيه. أما البعدُ الأولُ فيُطلَقُ عليه مُصطلح "generativity"²، ويقصدُ به الاكتراثُ بالأجيال القادمة، ويقتبسُ تعريفاً لهذا المصطلح من البروفيسور الأمريكي جون كوتر يقول فيه: "إنه يعني استثمار الفرد في مظاهر حياتية وعملية بحيث تظلّ باقية حتى بعد وفاة هذا الفرد"³. وبعد أن نبي لأنفسنا عملاً جيداً وسُمعة طيبة ونُكوّن شبكة من العلاقات (بغضّ النظر إن كنا في ريعان الشباب أو في سنّ الشيخوخة حينها) فإن أمامنا خيارين لا ثالث لهما: إما أن نَقِفَ مكاننا في حالة من الجمود والركود، أو أن نَمْضِي قُدماً عبر إعادة ما منحنا إياه الآخرون في مُحيطنا ومُجتمعنا للجيل القادم. لهذا فإن اكتراثنا بالأجيال القادمة عادة ما يكون على شكل القيام بمشاريع جديدة غالباً ما تكون من باب التطوُّع، أو على شكل تعلّم مهاراتٍ جديدة أو غيرها، لكن أياً كان شكلها فإنها تُعبّر عن الانفتاح صوب الأجيال القادمة والاكتراث بأمرها.

أما البعد الثاني المُتعلّق بموشيه فيُطلَقُ عليه مُصطلح "keeper of the meaning"، ويقصدُ به الحكمة التي يكتسبها المرء مع الزمن، وهو أمرٌ تُقدّره المُجتمعات التقليدية أكثر من مُجتمعات الحداثة وما بعد الحداثة. ف"الشيوخ" المذكورون في كتاب التناخ مثلاً كانوا رجالاً ذوي قدر وقيمة نظراً لتجربتهم وخبرتهم الطويلة في الحياة، وهذا ما تُخبرنا به الآية السابعة من المقطع الثاني والثلاثين من سفر التثنية: "بل اذكُر أَيّامَ الدهرِ وتفهم سنين جيلٍ وجيل، اسأل أباك، يُخبرك، أشياخك ويقولون لك" والآية الثانية عشرة من المقطع الثاني عشر من سفر أيوب: "الشَّيبُ حِكْمَةٌ، وطولُ الأيام فَهْمٌ".

فإنّ انطباقَ هذا المُصطلح على شخصٍ معيّن يعني أنه شخصٌ يَمُرُّ قيَم وأخلاقيات الماضي إلى المُستقبل. فالتقدّم في العُمُر يَجلبُ معه التروي والتريث والانعزال، الأمر الذي يجعلنا ننأى بأنفسنا عن كثير من الأمور وألاً نأبه بها، مثل الحالة المزاجية العامة أو آخر الصّراعات المارقة أو تخبُّط البشر وجنونهم. إننا بحاجة لتلك الحكمة خاصة في زمنٍ كزمننا الذي يمضي فيه الوقت بلمح البصر، هذا الزمن الذي يُحقق فيه البشر نجاحاتهم الكُبرى رغم أنهم لا زالوا شباباً يافعين.

ولو ألقينا نظرةً على مهن وأعمال بعض الشخصيات المعروفة في وقتنا الحالي مثل بيل غيتس ولاري بايج وسيرجي برين ومارك زوكربيرغ لرأينا أنهم خلال مرحلة معينة من مراحل حياتهم توجّهوا إلى

1. George Vaillant, *Aging Well* (Boston: Little, Brown, 2003); *Triumphs of Experience* (Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, 2012).

2. هذا المُصطلح مُستوحى من أعمال إريك إريكسون، والذي اعتبره ونقيضه (أي الركود والجمود) جزءاً من مراحل التطور الثمانية في الحياة.

مُرشدِين ومُستشارين أكبر منهم سناً حتى يوجّهوهم جيّداً للتجديف بين الأمواج العاتية التي تُضربُ سفينة نجاحاتهم. بالتالي فإن عبارة "عسيه ليخا راف" (المذكورة في المِشناه في مقطع أفوت 1:6، 16) والتي تعني "جد لنفسك معلماً" كانت ولا زالت نصيحة في مُنتهى الأهمية.³

إنّ المُذهِلَ في سفر التثنية – والذي وُضِعَ بأكمله في الشهر الأخير من حياة موشيه – هو كيفية إظهاره للقائد الذي ظلّ يتحلّى بالدافعية والحماسة رغم كِبَره في السن، وبأنه قائدٌ يهتمّ بالأجيال القادمة من قومه ويُصبو لتمرير الحكمة التي اكتسبها في الماضي إلى المستقبل. فلربّما كان من الأسهل بالنسبة لموشيه أن يتنخّى جانباً ويكتفي بالجلوس في عالمه الخاص على أطلال ذكريات الماضي المليء بالإنجازات في الحياة الاستثنائية التي عاشها، خاصة وأنه الشّخص الذي اختاره الله عزّ وجلّ ليقود قوماً من الاستعباد إلى الحُرّية واضعاً إياهم على عتبات الأرض المقدسة. ولربّما كان بإمكانه أن يستسلم ويغرق في مُستنقع الفشل كونه لم يتمكّن من الدخول بنفسه إلى الأرض التي أمضى أربعين سنة في قيادة القوم الذين سيدخلونها. ولا بد لأحدنا أن التقى بأشخاصٍ مُستغرقين بحقيقة فشلهم في نيل التقدير الذي يستحقونه أو الذي أنجزوه، أو لفشلهم في تحقيق النجاح الذي كانوا يحلمون بتحقيقه عندما كانوا شباباً.

لكن موشيه لم يفعل أيّاً من هذه الأمور، بل صَبَّ اهتمامه خلال أيامه الأخيرة على الجيل القادم وباشّر بأداء دور جديد، فهو لم يُعد بعد الآن موشيه المُحرَّر ولا المُسرَّع، بل أصبح كما جاء في السيرة اليهودية "موشيه رابينو" أي مُعلِّمنا موشيه، وهذا كان بشكلٍ أو بآخر أعظم إنجازٍ له. لهذا بدأ يُحدِّثُ الجيل الشاب من بني إسرائيل عن هويّتهم ومصيرهم والمكان الذي جاؤوا منه، كما منحهم التشريعات والقوانين لكن بأسلوبٍ جديد هذه المرة، حيث لم يُعد التركيز على اللقاء الإلهي مثلما كان في سفر الخروج، ولا على القرايين مثلما كان في سفر اللاويين، بل انصبّ التركيز هذه المرة على التشريعات والقوانين في سياقها الاجتماعي. فحدّثهم عن العدل والاهتمام بالفقراء والمساكين والعُمال بالإضافة إلى أهمية محبة الغريب. كما وضع الأسس التي تقوم عليها العقيدة اليهودية في هذا السّفر بطريقة منهجية أكثر من أي سفر آخر من أسفار التناخ.

كما أخبرهم عن محبة الله عزّ وجلّ لأبائهم وأجدادهم، وحثّهم على مُقابلة هذه المحبة بالمثل وبكامل قُدرتهم ومن أعماق قلوبهم وأرواحهم ووجدانهم (مثلما تذكر الآية الخامسة من المقطع السادس من سفر التثنية). ثم جدّد العهد مع بني إسرائيل عبر تذكيرهم بالنعم التي سيُنعم الله عليهم بها إذا حافظوا على إيمانهم به، وبالنعم التي ستحلُّ عليهم إذا لم يُحافظوا على هذا الإيمان، وعلمهم الأنشودة العظيمة من النص الأسبوعي "هأزينو" (بمعنى اسمعوا) ومَنَحَ بركته للقبائل وهو يحتضِر على فراش الموت.

3. John Kotre, *Outliving the Self: Generativity and the Interpretation of Lives* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1984), 10

بالتالي أظهر موشيه لقومه المعنى الحقيقي للاكتراث بالجيل المُستقبلي، تاركاً خلفه إرثاً سيظلّ حياً بعد وفاته. كما بين لهم معنى أن ينقل المرء حكمة الماضي إلى المُستقبل عبر استحضار ما أوتي من حكمة في الماضي ليمنحها للجيل القادم كنتاج لتجربته الطويلة. وعبر تجربته الشخصية بين لهم كيف يُمكن للمرء أن يتقدّم في العمر ويظلّ بحيوية الشباب.

وفي ختام سفر التثنية نجد الآيات التوراتية، تحديداً الآية السابعة من المقطع الرابع والثلاثين، تصف موشيه بأنه "لم تدمس عينه ولم تزل رطبتة" رغم بلوغه مائة وعشرين عاماً. وببساطة كنتُ أعتقد أن هاتين العبارتين هما صفتان مُنفصلتان، لكن سرعان ما اكتشفتُ أن إحداهما تُفسّر الأخرى. فقد كان موشيه في كامل حيويته لأنّ نور عينه لم يدمس، بمعنى أنه لم يتخلّ أبداً عن القيم والمبادئ التي التزم بها في شبابه، فلم يفقد شغفه لتحقيق العدل ولا مسؤولياته تجاه الحرية.

إنه لمن السهل جداً على المرء أن يتخلّى عن مبادئه وقيمه عندما يُدرك مدى صعوبة إحداث التغيير حتى لو كان في أصغر مكانٍ في هذا العالم، لكنه عندما يتخلّى عن مبادئه وقيمه فإنه يُصبح شخصاً مُتهكماً كئيباً ومخدولاً، وهذا بحد ذاته شكلٌ من أشكال الموت الروحاني. أما بالنسبة لأولئك الذين لا يتخلّون عن مبادئهم وقيمهم ولا يستسلمون أبداً، و "لا يَنقادون بسهولة إلى عتمة الليل"،⁴ والذين لا يزالون يرون عالماً من الإمكانيات في كل ما يُحيط بهم فيُشجّعون الآخرين ويشدّون من أزر الذين سيأتون من بعدهم، هؤلاء هم الذين يُحافظون على لياقتهم الروحانية فعلاً.

وهناك أناسٌ يقومون بأفضل أعمالهم في سنّ الشَّبَاب، فعلى سبيل المثال لا الحصر نجد فليكس مندلسون قد ألّف مقطوعته الموسيقية التي تحمل عنوان "أوكتيت" وهو في سنّ السادسة عشرة، ومقطوعته الموسيقية الافتتاحية "حلمٌ في منتصف ليلة صيفية" بعد عام من ذلك، وهي أعظم مقطوعات موسيقية كتبت على يد موسيقيّ شابٍ صغيرٍ بهذا العمر. كما أن جورج أورسن ويلز كان في أوج عظّمته في عالم المسرح والإذاعة وهو يبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً عقب تأليفه المسلسل الدرامي الأمريكي "المواطن كين" (Citizen Kane)، والذي يُعدُّ أكثر عملٍ فنيّ حقق قفزةً نوعيةً في تاريخ السينما.

في الوقت نفسه، نجد الكثيرين ممن كان يتحسّن أدائهم كلّما تقدّموا في العمر، فعلى سبيل المثال نجد أنّ موزارت وبتهوفن كانا عباقرة منذ نعومة أظافرهما، لكنهما ألّفا أعظم مقاطعهما الموسيقية خلال آخر سنوات حياتهما. وكلود مونيه رسم سلسلة لوحاته الفنية البرّاقة التي تحمل عنوان "زنابق الماء" الموجودة في حديقته في بلدة جيفرني وهو في الثمانينيات من عمره. وجوزيبي فيردي كان يبلغ من العمر خمسة وثمانين عاماً عندما ألّف معزوفة الأوبرا الشهيرة فالستاف. وبنجامين فرانكلين كان يبلغ من العمر ثمانية وسبعين عاماً حين ابتكر النظارات ثنائية البؤرة. والمهندس المعماري فرانك لويد رايت أنهى تصميمه لمتحف سولومون غاغينهام وهو بعمر الثانية والتسعين. والحال نفسه ينطبق على ميكيلانجيلو وتيتيان وهنري ماتيس وبيكاسو، حيث ظلّوا بنفس القدر من الإبداع في

4. البيت الأول من قصيدة ديلان توماس التي تحمل هذا العنوان.

عقدهم التاسع. أضف إليهم جوديث كير التي هاجرت إلى بريطانيا في الوقت الذي صعد فيه هتلر إلى سدة الحكم سنة 1933م، فكتبت قصة الأطفال الكلاسيكية الشهيرة "النمر الذي جاء ليحتسي الشاي" (*The Tiger Who Came to Tea*) والتي نالت مؤخراً أول جائزة أدبية لها وهي بعمر الثالثة والتسعين. وهنا يوضّح البروفيسور الأمريكي ديفيد غالينسون عبر صفحات كتابه "شيوخ كبار وعباقره صغار" (*Old Masters and Young Geniuses*) بأن أصحاب الإبداعات النظرية ينجحون بإنجاز أفضل أعمالهم وهم صغار في السن، بينما أصحاب الإبداعات التجريبية العملية الذين يتعلمون من خلال المحاولة والخطأ فهم ينجحون بإنجاز أفضل أعمالهم كلما تقدّموا في السن.⁵

وهناك أمرٌ مؤثّرٌ جداً في رؤية موشيه وهو على مشارف المائة والعشرين عاماً لكنه يتطلّع إلى المستقبل والماضي على حدٍ سواء حتى يُشارك الجيل الشاب ما اكتسبه من حكمة، وفي تعليمه لنا بأن الجسم قد يهرم لكن الروح بإمكانها أن تظل يافعة حتى يبلغ المرء عُمر المائة والعشرين "عَد مِئاه فِعْسِرِيم" إذا حافظنا على مبادئنا وقيمنا، وقدّمنا للمجتمع ما قدّمه لنا، وشاركنا حِكمَتنا مع مَنْ سيأتون بعدنا، بحيث نكون مصدر إلهامٍ لهم حتى يُكْمِلوا ما لم نَنجُحْ نحنُ بِإِكمالِه.

5. David Galenson ,*Old Masters and Young Geniuses* (Princeton: Princeton University Press, 2007).

فَاتْحَنَنْ

هو النصُّ الأسبوعي الثاني من كتاب "دفاريم" (أي سفر التثنية) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الثالثة والعشرين من المقطع الثالث وينتهي بالآية الحادية عشرة من المقطع السابع.

قُوَّةُ ال "لِمَاذَا"

يطرُحُ المُحاضرُ الأمريكي سيمون سينك عدداً من الأسئلة خلال أحد عروض TED talk التي تحظى بنسبة عالية من المشاهدات حول العالم، فيقول: كيف يستطيع القادة العظماء إلهام الناس للقيام بأي شيء؟¹ وما الذي يجعلُ أشخاصاً مثل مارتن لوثر كينغ وستيف جوبز يتميزون عن باقي أقرانهم من أبناء جيلهم والذين قد لا يقلُّون في موهبتهم أو قدرتهم أو كفاءتهم عن هذين الرجلين؟ ثم يستطرِدُ مُجيباً: إن غالبية الناس يسألون "ماذا\ما"، وبعضهم يسألُ "كيف"، في حين أنَّ القادة العظماء هم من يبدؤون بـ "لماذا"، وهذا ما يجعلهم قادةً وصُنَّاعَ تَغْيِيرٍ.²

وهذه المُحاضرة لسيمون سينك كانت عن عالم الريادة والأعمال والقيادة السياسية، لكن أكثر الأمثلة قُوَّةً في محاضرته كانت أمثلة دينية بشكلٍ مُباشرٍ أو غير مُباشرٍ. ولقد ناقشتُ في كتابي "الشراكة العظيمة" (*The Great Partnership*)³ موضوع العقيدة الإبراهيمية التوحيدية وأن ما يجعلها مُختلفة عن غيرها من العقائد هو أنها تؤمنُ بوجود إجاباتٍ للأسئلة التي تبدأ بـ "لماذا". فالكونُ والحياةُ البشرية ليست أموراً عديمة المعنى، كما أنها لم تأتِ من قبيل الصدفة. ومثلما وضح فرويد وأينشتاين ولودفيغ فيتغنشتاين فإنَّ العقيدة الدينية هي العقيدة القائمة على وجود معنى للحياة.

وقلِّمًا نجدُ هذه الفكرة بهذا العنفوان والتركيز مثلما نراه في نصِّ فَاتْحَنَنْ، إذ أن قَدراً كبيراً من الديانة اليهودية يتمحور حول الأسئلة التي تبدأ بـ "ما/ماذا": ما هو المسموح وما هو المحظور؟ ما هو المُقدَّسُ الديني وما هو الدُّنيوي؟ وهناك قدرٌ كبيرٌ أيضاً من الديانة اليهودية يتمحور حول الأسئلة التي تبدأ بـ "كيف": كيف نتعلم؟ كيف نُصَلِّي؟ وكيف نزهُرُ في علاقتنا بالله عزوجلّ وبغيرنا من البشر؟ في الوقت نفسه، يوجد قدرٌ قليلٌ نسبياً من الديانة اليهودية يتطرَّقُ إلى إجابة الأسئلة التي تبدأ بـ "لماذا".

وفي نصِّ فَاتْحَنَنْ الذي نتطرَّقُ له في هذه المقالة فإننا نرى أن موسى/موشيه يتكلَّمُ بأكثر الكلمات إلهاماً فيما يتعلقُ بالسبب الكامن وراء الوجود اليهودي، وهذا ما جعله القائد المُغَيِّرُ فعلاً،

1. https://www.youtube.com/watch?v=u4ZoJKF_VuA.

2. For a more detailed account, see the book based on the talk: Simon Sinek, *Start with Why: How Great Leaders Inspire Everyone to Take Action* (New York: Portfolio, 2009).

3. Jonathan Sacks, *The Great Partnership: Science, Religion, and the Search for Meaning* (New York: Schocken Books, 2012).

وهذا أمرٌ كان له أثر عميق على وجودنا في هذا المكان وفي هذا الزمان.

وحتى نستشعر مدى غرابة الكلمات التي استخدمها موشيه فإنه ينبغي علينا أولاً أن نستذكر عدداً من الحقائق، فبنو إسرائيل لا زالوا موجودين في الصحراء ولم يدخلوا إلى أرض الميعاد بعد. كما لم يكن لديهم أي تفوق عسكري على الأقوام التي سيجاربنونها، ثم إن عشرةً من العيون الاثني عشر ظلّوا مُصهّرين على مدار أربعين عاماً على حقيقة استحالة دخولهم أرض الميعاد. وفي عالمٍ من الإمبراطوريات والأقوام والشعوب والقلاع المُحصنة، كان بنو إسرائيل يظهرّون أمام غيرهم وكأنهم قومٌ بؤساء لا يمتلكون الجدارة للقتال ولا يختلفون عن سائر القبائل الأخرى التي كانت ترتحل من مكان لآخر في آسيا وأفريقيا قديماً. وباستثناء طقوسهم الدينية المميزة، فإن عدداً محدوداً من المهتمين بأمرهم في تلك الحقبة كانوا قادرين على رؤية أوجه الاختلاف التي تميّزهم عن اليبوسيين والفرزيين والمدياتيين والمؤابيين وغيرهم من الأقوام التي عاشت على تلك البقعة من منطقة الشرق الأوسط.

لكن في هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة نجد موشيه يوضّح حقيقةً راسخة مفادها بأن ما مرّ به بنو إسرائيل سيُلهِم العالم ويغيّره بنهاية المطاف، ولنُصغ جيداً إلى أسلوبه في الحديث حين يقول:

"والآن فاسأل عن الأيام الأوائل التي سلّفت من قبلك، من يوم خلق الله آدم على الأرض ومن طرف السماء إلى طرفها، هل كان قُطٌ مثل هذا الأمر العظيم أو سُمِعَ مثله؟ هل سمعت أمةً صوتَ الله مُكلّمها من وسط النار كما سمعته أنت، فعاشت؟ أو رفع الله لها علماً بان ظهر فتخلص له أمة من بين أخرى، بأعلام وآيات وبراهين وملحمة ويدٍ شديدة وذراع ممدودة ومخاوف عظيمة، كما صنع الله ربكم بمصر بحضرتكم؟" (مثلما تخبرنا الآيات 32-34 من المقطع الرابع من سفر التثنية)

بالتالي كان موشيه على قناعة تامة بأن التاريخ اليهودي كان وسيظلّ تاريخاً فريداً. وفي عصر الإمبراطوريات نجد هذه الجماعة الصغيرة المُستضعفة قد تحرّرت ونجحت في كسر سلاسل العبودية حين تحررت من ظلم واحدة من أعتى الإمبراطوريات التي عرفتها البشرية، لكنهم لم يتحرروا بفضل قوتهم بل كان بفضل جبروت الله عزّ وجلّ ذاته. وهنا تظهرُ الفكرة الأولى التي أراد موشيه أن يُسلّط الضوء عليها: تميّز التاريخ اليهودي باعتباره رواية للخلاص، أما النقطة الثانية فكانت في تميّز التجلي الإلهي لبني إسرائيل، حيث يقول:

"أي أمةٍ كبيرةٍ لها إلهٌ قريبٌ منها كالله ربنا، متى دعوناه. وأي أمةٍ كبيرةٍ لها رسومٌ وأحكام عادلة كجميع هذه التوراة التي أنا أتلوها عليكم اليوم؟" (مثلما تخبرنا الآيتان 7-8 من نفس المقطع ونفس السفر).

لقد كانت هنالك آلهة لباقي الأقوام، آلهة تضرّعوا لها وقدّموا لها القرابين ونسبوا إليها نجاحاتهم العسكرية في الحروب. لكن لم يوجد أبداً أي قومٍ رأوا الله عزّ وجلّ كحاكمهم ومصدر تشريعهم. وفي حالات أخرى فإن القانون كان بمثابة مرسوم يُصدره الملك، أو ربما (كما في القرون المُعاصرة) صار

القانون مصدره رغبة الناس وإرادتهم. أما في حالة بني إسرائيل فالوضع مُختلف تماماً، إذ حتى عندما كان هنالك ملكٌ يحكمهم فإنه لم يكن يتمتع بأيّ سلطة تشريعية. وبمنتهى التميّز لم يكن يُنظرُ إلى الله عزّ وجلّ على أنه قُوَّةُ عُظْمَى فحسب، بل يُنظرُ إليه على أنه المهندس المعماري الذي يُصمّم المجتمع، والمُوزع لألحان موسيقى العدالة والرحمة والحرية والكرامة فيه. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا؟

يُجيبُ نبيه الله ورسوله موشيه في ختام هذا المقطع بالتالي: "وذلك بعد ما أحبّ آباءك واختارَ نسلهم من بعدهم" مثلما تُخبرنا الآية السابعة والثلاثون من المقطع الرابع من سفر التثنية. بمعنى آخر، لقد أحبّ الله عزّ وجلّ أفرهام/إبراهيم، كما أن أفرهام على وجه الخصوص كان مُحبّاً جداً لله. ثمّ أحبّ الله أبناء أفرهام ومن انحدر من نسله ونسلهم لأنهم أبناؤه، فوعد الله عزّ وجلّ إبراهيم بأن يحميهم ويحفظهم ويباركهم.

لكننا نجدُ أن موشيه قد بيّن إجابة مُختلفة لهذا السؤال في موضعٍ سابق، إجابة لا تتناقضُ مع الإجابة المذكورة في الموضع اللاحق لكنها مُختلفة عنها قليلاً، حيث يقول:

"انظروا قد علمتكم رُسوماً وأحكاماً كما أمرني الله ربي، لتصنعوها في البلد الذي أنتم ذاهبون إليه لتحوزوه. فاحفظوها واعملوا بها لأنها حكمتكم وفهمكم بحضرة الأمم، إذ إن سمعوا هذه الرسوم يقولون يقيناً أن هذا القبيل الكبير شعبٌ حكيمٌ فهميمٌ" (تبعاً لما تذكر الآيات 5-6 من نفس المقطع ونفس السفر).

لكن لماذا يكثرُ الله عزّ وجلّ وموشيه بأهمية رؤية الأقوام الأخرى لمدى حكمة وفهم القوانين التوراتية من عدمها؟ إنّ اليهودية هي بمثابة قصة حُبّ كانت ولا زالت قائمةً بين الله عزّ وجلّ وشعبٍ مُحدّد، وهي علاقة عاصِفة في الكثير من الأحيان إلا أنها هادئة وعادةً ما تكون مُبهجة، إنها علاقة ذاتية تقوم على القرب والحميمية. بالتالي ما صلةُ بقية الشعوب بهذه العلاقة؟

في الحقيقة توجدُ صلةً لبقية شعوب الأرض بهذه العلاقة، فاليهودية لم يكن يُقصدُ بها اليهود وحدهم. وفي بداية كلام الله عزّ وجلّ مع أفرهام نجده يقول له في الآية الثالثة من المقطع الثاني عشر من سفر التكوين: "وأباركُ مباركيك، وألعنُ شاتميك، ويتباركُ بك جميع عشائر الأرض". بالتالي ينبغي على اليهود أن يكونوا مصدرراً للبركة لبقية شعوب وأقوام الأرض. كما أن الله عزّ وجلّ هو ربُّ الإنسانية جمعاء، ففي سفر التكوين يُخاطبُ آدم وحفاه/حواء وقاين/قابيل ونوح ليقيمَ العهد مع جميع البشرِ قبل أن يُقيمَ عهداً مع أفرهام. وفي أرض مصر نجدُ يوسف يتحدثُ عن الله عزّ وجلّ باستمرار، سواء عندما كان قابعاً في السجن أو عندما سكن بيت پوتيفار أو قصر فرعون، لأنه أراد للمصريين أن يعلموا بأنه ليس له فضلٌ فيما حدث معه، وبأنه مُجرد خليفةٍ لله ربّ إسرائيل. بالتالي لا نرى هنا ما يُشيرُ بأنّ الله عزّ وجلّ ليس مُكثرثاً لبقية شعوب الأرض.

وتبين لنا الآية الخامسة من المقطع السابع من سفر الخروج كيف أن الله عزّ وجلّ تحدّث بعد ذلك خلال فترة حياة موشيه بأنه سيُظهر آياته ومُعجزاته حتى "يعلم المصريون أني الله". ثم أمر

يرمياهو/إرمياء بأن يكون "نبياً لباقي الشعوب". كما بعث يوناه/يونس إلى الأشوريين في نينوى، وأرسل عاموس ليعبث رسالة توبيخه إلى بقية الشعوب قبل أن يبعث برسالة توبيخه إلى إسرائيل. وفي أحد أروع النبوءات التي يذكرها التناخ، نجد أن الله قد أرسل نبيه يشعياهو/إشعيا برسالة مفادها بأنه سيأتي زمنٌ يُباركُ الله فيه أعداء إسرائيل، تبعاً لما تذكره الآية السادسة والعشرون من المقطع التاسع عشر من سفر إشعيا: "بِهَا يُبَارِكُ رَبُّ الْجُنُودِ قَائِلاً: مُبَارِكُ شَعْبِي مِصْرَ، وَعَمَلُ يَدَيِ أَشُورَ، وَمِيرَاثِي إِسْرَائِيلَ".

وعليه، فإن الله عز وجلّ يأبه ويكثرُ بالبشرية جمعاء، ومن هذا المنطلقِ فإن ما نقومُ به كيهودٍ يصنعُ فرقاً في البشرية بأكملها، ليس فقط من ناحية روحية بل من ناحية وجوب أن نكونُ مثلاً ونموذجاً لمعنى محبتنا لله عزّ وجلّ ومحبتته لنا، فتَنظُرُ بقية شعوب الأرض إلى اليهود لِيَسْتَشْعِرُوا وجود قُوَّةِ عَظْمَى في حياتهم عبر التاريخ، وهذا ما عبّر عنه الأديب الراحل ميلتون هملفارب حين قال:

كُلُّ يَهُودِيٍّ يَعْلَمُ جَيِّدًا كَمَ أَنَّهُ إِنْسَانٌ عَادِيٌّ جَدًّا، لَكِنِ إِذَا نَظَرْنَا لِحَيَاتِنَا الْجَمَاعِيَّةِ كِيَهُودٍ فَإِنَّا نَبْدُو وَكَأَنَّنا مَوْجُودُونَ وَسَطَ أُمُورٍ عَظِيمَةٍ غَيْرِ قَابِلَةٍ لِلتَّفْسِيرِ... إِنْ عَدَدَ الْيَهُودَ فِي الْعَالَمِ لَا يَتَجَاوَزُ الْعَدَدَ النَّاتِجَ عَنِ خَطَا إِحْصَائِيٍّ صَغِيرٍ فِي تَعْدَادِ سُكَّانِ الصِّينِ، لَكِنَّا نَظَلُّ أَعْظَمَ مِنْ عَدَدِنَا بِكَثِيرٍ، وَهَنَالِكَ أُمُورٌ عَظِيمَةٌ تَبْدُو وَكَأَنَّهَا تَحْدُثُ حَوْلَنَا وَمَعْنَا طَوَالَ الْوَقْتِ.⁴

في الوقت نفسه، فإنه لم يُطَلَبَ مِنَّا أن نجعل العالم يعتنق الديانة اليهودية، بل طُلِبَ مِنَّا أن نكون مصدر إلهام للعالم. وهذا ما وضحهُ النبي زكريا/زكريا حين قال بأنه سيأتي زمنٌ "يُمِسِّكُ عَشْرَةَ رِجَالٍ مِنْ جَمِيعِ أَلْسِنَةِ الْأُمَّمِ بَرْدَاءِ رَجُلٍ يَهُودِيٍّ قَائِلِينَ: سَنَذْهَبُ مَعَكُمْ لِأَنَّنا سَمِعْنَا أَنَّ اللَّهَ مَعَكُمْ" بحسب ما يذكره سفر زكريا في الآية الثالثة والعشرين من المقطع الثامن. بالتالي فإن عملنا يتمثل في أن نكونُ سُفْرَاءَ اللَّهِ عزّ وجلّ في هذا العالم، وأن نكونُ شاهدين عبر أسلوب حياتنا على قُدرة جماعة ضئيلةٍ من البشر على البقاء والصمود بل والازدهار خلال أصعب الظروف وأشدّها قسوة، وقدرتهم على بناء مُجتمعٍ حُرٍّ لكن حرياته محكومة بالقوانين والنظم، هذه الحريات التي نتحمّل جميعنا مسؤولية جماعية تجاهها بحيث "تَصْنَعُ الْحَقَّ وَتُحِبُّ الرَّحْمَةَ وَتَسْلُكُ مُتَوَاضِعاً مَعَ الْهَيْكَلِ" بحسب ما تُخبرنا الآية الثامنة من المقطع السادس من سفر ميخا. لهذا نجد أن نَصَّ فَاتْحَنَ هو بمثابة الرسالة للمنظومة التي يحملها ويمثلها الشعب اليهودي.

وهنالكَ من لا زالوا يجدون الإلهام فيها، والخاصة التي توصلتُ إليها عبر سنين عمري التي خضتُ غمارها وسط مناحي الحياة العامة هي أن غير اليهود يحترمون اليهود الذين يحترمون اليهودية، وهم يستصعبون فهم الأسباب التي تجعلُ بعض اليهود يتخلّون عن دينهم ليعرفوا أنفسهم بهوية عرقية بحتة رغم أنهم يعيشون في بلدان تحظى بحرية دينية حقيقية. ومن منظوري الشخصي فإنني أؤمنُ بأن العالم في حالته الحالية من الاضطراب بحاجة ماسّة للرسالة اليهودية التي يطلبُ الله عزّ وجلّ منا عبرها أن نكونُ مُخلصين لعقيدتنا ونُباركُ غيرنا بَعْضَ النظر عن مُعتقداتهم. ولو تصوّرنا

4. Milton Himmelfarb and Gertrude Himmelfarb, *Jews and Gentiles* (New York: Encounter, 2007), 141.

عالمًا يؤمنُ فيه الجميع بهذا المبدأ لكان هذا عالمًا مُختلفًا تمامًا. ونحنُ اليهودُ لسنا مُجرد أقلية عرقية، بل نحنُ القومُ الذين وضعوا أُسس حُرّيّتهم استنادًا إلى تربية أبناءهم على المحبة، لا على الكراهية. ومُعتقدنا يُقدّس الزواج والعائلة ويتطرّق للمسؤوليات

والواجبات قبل أن يتطرّق للحقوق. كما أنه المُعتقد الذي يملكُ رؤية لإنهاء معاناة الفقراء والنهوض بهم باعتبار ذلك واجبًا دينيًا، فمثلما وضح الحاخام الكبير موشيه/موسى بن ميمون فإنه لا يُمكن لأحد أن يُفكّر بحالة من السموّ الروحاني وهو وحيدٌ أو مريضٌ أو حينما يكون مُتشرّدًا يتضور جوعًا.⁵ إننا لا نقومُ بهذه الأمور لأننا مُحافظون أو ليبراليون، أو لأننا جمهوريون أو ديمقراطيون، بل لأننا نؤمنُ بأن هذا ما يُريدنا الله عزّ وجلّ أن نفعله.

وتوجدُ الكثير من النصوص التي تتطرّق إلى ال"ماذا" وال"كيف" المتعلقة باليهودية، لكنها جميعها أمور لا تُذكرُ إذا ما قورنت بال"لماذا". وموشيه في آخر شهرٍ من شهور حياته شدّد على أهمية تعليم ال"لماذا"، وهكذا يكونُ القائدُ العظيم مصدر إلهامٍ للعملِ منذ زمنه حتى يومنا هذا. لذلك، إذا أردتَ أن تُغيّر العالم فعليك أن تبدأ بـ "لماذا".

5. Maimonides, *The Guide for the Perplexed*, III:27 (كتاب دلالة الحائرين) - كتاب موسى بن ميمون -

عيقف

هو النصّ الأسبوعي الثالث من كتاب "دفاريم" (أي سفر التثنية) ويبدأ هذا النصّ الأسبوعي بالآية الثانية عشرة من المقطع السابع وينتهي بالآية الخامسة والعشرين من المقطع الحادي عشر.

روحانية الإصغاء

إنها واحدة من أهم الكلمات في الديانة اليهودية لكنها واحدة من أصعب الكلمات فهماً. وأكثر موضعين معروفين ذُكرت فيهما هما النصّ الأسبوعي السابق "فَاتْحَنَنَّ" بالإضافة إلى هذا النصّ الذي نحن بصدد دراسته: "اسمع يا إسرائيل، إنّ الله ربنا إله واحد" بحسب ما تذكر الآية الرابعة من المقطع السادس من سفر التثنية، وبحسب ما تذكر الآية الثالثة عشر من المقطع الحادي عشر من نفس السفر: "إِنَّ سَمِعْتُمْ سَمَاعاً لَلْوَصَايَا الَّتِي أَمَرَكُم بِهَا الْيَوْمَ، لِتَحِبُّوا اللَّهَ رَبَّكُمْ وَتَعْبُدُوهُ مُخْلِصِينَ بِكُلِّ قُلُوبِكُمْ وَكُلِّ نَفُوسِكُمْ". ومثلما نلاحظ فإن بداية الآيتين الأولى والثانية كانت كلمة "شَمَع"، بمعنى اسمع، كما أن هذا الفعل موجودٌ في بداية هذا النصّ الأسبوعي مثلما تخبرنا الآية الثانية عشرة من المقطع السابع: "فَيَكُونُ جِزَاءً مَا تَسْمَعُونَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ".

إنها بالتأكيد كلمة "شَمَع" بالعبرية، هذه الكلمة التي ناقشتُ خلال مقالة سابقة¹ مدى صعوبة ترجمتها بدقة للغة الإنجليزية، كون هذا الفعل يحمل معاني عديدة، منها السمعُ والإصغاءُ والانتباهُ والفهمُ والاستيعابُ والردّ والطاعة، ناهيك عن كونها واحدة من المفردات الرئيسية في سفر التثنية، فهي تظهر في هذا السفر بما لا يقلّ عن اثنتين وتسعين مرة، أي أكثر من أي سفرٍ آخر من أسفار التوراة.

ومرةً أخرى خلال آخر شهرٍ من شهور حياته، نرى نبي الله ورسوله موشيه/موسى يُخاطب بني إسرائيل قائلاً لهم: "شَمَع"، أي اسمعوا وانتبهوا والتفتوا، بمعنى آخر: اسمعوا ما أقول، اسمعوا ماذا يقولُ الله عزّ وجلّ، اسمعوا واصغوا إلى ما يُريده منا، فقط لو كان بإمكانكم أن تُنصتوا وتسمعوا... لأنّ الديانة اليهودية هي مُعتقِدٌ يقوم على الإنصات والإصغاء والاستماع، وهذا أحد أهم مساهماتها الأصيلة في الحضارة.

لقد قامت الثقافة الغربية بالأساس على ركيزتين اثنتين هما الحضارة الإغريقية القديمة وحضارة إسرائيل القديمة. في الوقت نفسه، يوجد اختلاف كبير بين الحضارتين، فحضارة الإغريق تقوم على أساس الرؤية والمظاهر، وأعظم إنجازاتها ترتبط بالعين والرؤية والمشاهدة. كما أنها أنتجت

1. أنظر المقالة التي ناقشت فيها النصّ الأسبوعي "مِشْبَاتِيم" والتي تحمل عنوان "الطاعة والسمع".

جُزءاً من أعظم الإنجازات التي عرفتها البشرية في مجال الفن والعمارة ونحت التماثيل. أضف إلى ذلك أن أبرز سماتها هي الفعاليات الجماعية مثل المسرحيات والألعاب الأولمبية التي كانت بمثابة عروض للناظرين، بمعنى أنها عروض الهدف منها هو المشاهدة. ونجد أن أفلاطون أحد أبرز فلاسفتها كان ينظر للمعرفة على أنها شكلٌ من الأشكال العميقة للرؤية، أي رؤية المُثل الحقيقية الموجودة وراء ما تُظهره الأمور.

إن هذه الفكرة القائمة على أساس أن المعرفة هي شكلٌ من أشكال الرؤية لا زالت طاغية على التعبير المجازي في الغرب حتى يومنا هذا. فعلى سبيل المثال نجد هذه الكلمات الإنجليزية مُرتبطة بالرؤية والمشاهدة والنظر: مثل كلمة (*insight*) والتي تعني النظرة أو البصيرة، وكلمة (*foresight*) التي تعني الاستبصار أو الاستطلاع، وكلمة (*hindsight*) التي تعني النظر في الأمور بعد فوات الأوان، بالإضافة إلى كلمة (*observation*) التي من معانيها المشاهدة، وكلمة (*perspective*) التي تعني المنظور أو وجهة النظر، وكلمة (*illustrate*) التي تعني توضيح أمرٍ ما عبر استعراضه بالرؤية، وكلمة (*illuminate*) التي تعني الإشارة إلى أمرٍ ما بهدف رؤيته، وأخيراً وليس آخراً عبارة (*shed light*) التي تعني تسليط الضوء على أمرٍ ما من أجل رؤيته. وتبعاً للغة الإنجليزية فإن الشخص عندما يفهم أمراً ما فإنه يقول عبارة "I see"، بمعنى "أنا أرى".²

في المُقابل، نجد أن الديانة اليهودية قد طرحت بديلاً مُخالفًا تماماً لتلك الفكرة، لأنها مُعتقد لا يقوم على أساس رؤية الله عزّ وجلّ، فهو الإله الذي لا يمكن تجسيده بأي أمرٍ ماديّ أو مرئيّ على الإطلاق، لهذا نجد أن نحت التماثيل – باعتبارها رمزاً مادياً مرئياً - هو شكلٌ من أشكال الوثنية تبعاً للعقيدة اليهودية. وهُنا نرى كيف يُدكّر موسى بني إسرائيل خلال النصّ الأسبوعي السابق (فَاتَحَن) بما حدث سابقاً عندما لاقوا الله عزّ وجلّ مباشرة فوق قمة جبل سيناء تبعاً لما تُخبرنا به الآية الثانية عشرة من المقطع الرابع: "وَكُنْتُمْ سَامِعِي الْكَلَامِ، وَسَبَّهًا لَمْ تَرَوْا سِوَى الصَّوْتِ فَقَطْ". فالله عز وجل يتواصل بالأصوات، لا بالمشاهد والمظاهر، إنه يتكلم ويأمر ويُنادي، لهذا نرى القدسية الدينية المُطلقة والكامنة في "شَمَع". وعندما يتكلم الله عزّ وجلّ تجدنا نُنصت ونُصغي، وعندما يأمرنا تجدنا نُحاول أن نُطيع أوامرهِ.

وفي هذا السياق فإن الحاخام دافيد كوهين (1887م-1972م) المعروف بالحاخام "هانازير" (أي الحاخام النَّازِر، لأنه كان ينذر على نفسه نذوراً عديدة ألزم بها نفسه) والذي كان من أتباع الحاخام الكبير أفرهام يتسحق كوهين كوك بالإضافة إلى أنه والد الحاخام شار يشوف كوهين الذي كان كبير حاخامات حيفا عند كتابة هذه المقالة، يوضّح بأن جميع أشكال المَجاز المُستخدمة في سياق الفهم في التلمود البابلي تقوم على مبدأ السَّمع، لا على الرؤية. فعلى سبيل المثال نجد آيات تتضمن "تا شَمَع" (بمعنى تعال اسمع)، و"قا مَشَمَع لان" (بمعنى هذا يُعلّمنا)، و"شَمَع مينا" (بمعنى مفهوم من هذا)، و"لُو شَميعا لي" (بمعنى لم أوافق). كما يوجد درسٌ من الدروس والتعاليم التقليدية اليهودية يُطلق عليه

2. (Chicago: University of Chicago Press, 1980) *Metaphors We Live By*, George Lakoff and Mark Johnson

"شَمَعْنَا" (بمعنى ما سُمِعَ أو ما هو مَسْمُوعٌ)،³ وغيرها الكثير من العبارات المشتقة من الفعل "شَمَع".⁴

وقد يبدو للوهلة الأولى بأن الفرق بين الرؤية والسمع في هذه الحالة هو فرق ضئيل، لكن الفرق بينهما شاسعٌ جداً. حيث أننا نجد أن الشكل المثالي للمعرفة كان يتضمّن الانفصال أو الانعزال عن الشيء بالنسبة للإغريق، بمعنى أنه يوجد من يرى (أي الفاعل) ويوجد من يرى (أي المفعول به)، لكن كلاهما ينتميان لعوالم مختلفة. فالشخص الذي ينظر لرسمٍ أو تمثالٍ أو ربّما يشاهد مسرحية معينة في المسرح أو يتفرّج على الألعاب الأولمبية فإنه ليس جزءاً من الفنّ الذي توضحه الرسمّة أو التمثال، كما أنه ليس جزءاً من الدراما التي توضحها المسرحية، ولا جزءاً من المنافسة التي تتضمنها الألعاب الرياضية، فهو مجرد مُشاهدٍ لها وليس مُشاركاً فيها.

في الوقت نفسه فإن السّمع والكلام ليسا من أشكال الانفصال عن الشيء، بل هما شكلان من أشكال الانخراط فيه. فهما يخلقان العلاقة، والكلمة العبرية المُستخدمة للتعبير عن المعرفة "دَاعَت" تحمل معاني القرب والانخراط والحميمية أيضاً، مثلما تُخبرنا الآية الأولى من المقطع الرابع في سفر التكوين: "وإنّ آدمَ واقعَ حفاه/حواء زوجته فحملت وولدت"، وهذه هي المعرفة من منظور اللغة العبرية، لا من منظور الإغريق.

إننا قادرون على الارتباط بالله عزّ وجلّ وبناء علاقة به – رغم أنه دائمٌ ونحن زائلون – لأننا مُرتبطون بالكلمات. وعندما تجلّى الله عزّ وجلّ لنا فإنه كان يتكلّم معنا، وفي الصلوات والأدعية نحن الذين نتكلّم معه. وإذا أردت أن تفهم علاقة معينة سواء بين الزوج وزوجته أو بين الآباء وأبنائهم أو بين الموظف وربّ العمل، فما عليك إلا أن تتجاهل كل شيء وتنتبه جيداً إلى الطريقة التي يُنصتون ويتكلمون بها مع بعضهم البعض.

لقد علّمنا الإغريق أشكالاً للمعرفة تقوم على أساس المُشاهدة والاستنتاج، خاصة في مجالي العلوم والفلسفة، وقد كان أوائل العلماء وأوائل الفلاسفة من اليونان وظهروا في القرنين السادس حتى الرابع قبل الميلاد. لكن لا يُمكننا أن نفهم كل شيء استناداً إلى الرؤية والمظاهر لوحدها. وفي هذا السياق أستحضِر قصة مُعبّرة جداً موجودة في سفر صموئيل/صموئيل الأول، وهذه القصة تتحدث عن أول ملكٍ من ملوك إسرائيل وهو الملك شاوول، والذي كان مظهره يبدو كمظهر الملك، بمعنى أنه كان طويل القامة و "من كتفه فما فوق كان أطول من كل الشعب" مثلما تُخبرنا الآية الثانية من المقطع التاسع والآية الثالثة والعشرون من المقطع العاشر من سفر صموئيل الأول. بالتالي كان الملك شاوول يبدو كالمملك من ناحية الصورة والمظهر، لكن من ناحية الأخلاقيات وصفاته الشخصية فإنه لم يكن قائداً على الإطلاق، بل كان تابعاً.

3. يظهر هذا في الصفحات الأولى من كتابه "قُلْ نِفْوَاه" (صوت النبوة).

4. من باب التأكيد والتوضيح، يستخدم كتاب زوهار (الكتاب الذي تقوم عليه الصوفية والقبالة اليهودية) مُصطلحاً مادياً ظاهرياً وهو "تا حيزي" (بمعنى تعال وانظر). وهناك علاقة وطيدة بين الصوفية اليهودية وأفكار أفلاطون والأفكار الأفلاطونية الحديثة، فما هو مشتركٌ بينها هو اعتبارهم للمعرفة على أنها شكلٌ من أشكال الرؤية العميقة.

ثم أمر الله عزّ وجلّ شموئيل بأن يُنصّب ملكاً خلفاً له، وأخبره بأنه سيكون واحداً من أبناء يشاي/إيشاي. فذهب شموئيل إلى يشاي وكان مُعجباً بمظهر واحدٍ من أبنائه وهو إياف، فاعتقد بأنه هو الابن الذي يقصده الله عزّ وجلّ ليكون ملكاً خلفاً له. لكن الله عزّ وجلّ يقول له: "لا تنظر إلى منظره وطول قامته لأني قد رفضته، فالله لا ينظر كما ينظر الإنسان، لأنّ الإنسان ينظر إلى العينين، وأما الله فإنه ينظر إلى القلب" مثلما تذكر الآية السابعة من المقطع السادس عشر من سفر صموئيل الأول.

لقد قامت اليهودية واليهود بتعليم البشر بأنه لا يمكننا أن نرى الله عزّ وجلّ، لكن يمكننا أن نُصغي إليه ويُصغي إلينا. ومن خلال الكلمات المُتبادلة عبر الحديث والإصغاء بإمكاننا أن نبي علاقة حميمة مع الله عزّ وجلّ، فهو بمثابة والدنا وشريكنا وحاكمنا الذي يُحبنا ونُحبه. كما أننا لا نستطيع تجسيد الله عبر العلوم، ولا يمكننا إثبات وجوده عبر المنطق، فهذه أنماطٌ فكرية إغريقية بحتة، وليست أفكاراً يهودية أبداً. ومن مُنطلقٍ يهودي بحتٍ فإنني أؤمن بأن محاولة إثبات وجود الله عزّ وجلّ من خلال المنطق والعلم تشكل طرْحاً خاطئاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى،⁵ فالله عزّ وجلّ ليس مفعولاً به، بل هو الفاعل، والنمط اليهودي للعلاقة مع الله يقوم على أساس المحبة والحميمية والرغبة والإجلال.

وفي هذا السياق أستحضر مثلاً لشخصية يهودية مُعاصرة ومذهلة بكل معنى الكلمة، وهو رجل كان خلال السواد الأعظم من حياته مُجافياً للديانة اليهودية، ألا وهو سيغموند فرويد، والذي أطلق على التحليل النفسي عبارة "العلاج بالكلام" أو كما يوصفُ بطريقة أكثر دقة على أنه "العلاج بالإصغاء"،⁶ وهو علاجٌ يقومُ أساساً على حقيقة أن الإصغاء الفعّال يعتبر بحد ذاته علاجاً. و فقط بعد انتشار التحليل النفسي - خاصة في أمريكا - بدأ استخدام عبارة "I hear you" (بمعنى أنا أسمعك) في اللغة الإنجليزية كتعبيرٍ عن التواصل عبر التعاطف وُجدانياً مع من نُصغي إليه.⁷

وهناك أمرٌ روحانيّ جداً في مسألة الإصغاء، فهو أكثر شكلٍ فعّالٍ من أشكال حلّ الصراعات حسب معرفتي. فهناك الكثير من الأسباب التي من شأنها أن تخلق صراعاً، لكن ما يزيد من أمده هو شعور أطرافه - أو على الأقل طرف واحد - بأنه لا يوجد من يسمعهم ويُصغي لهم. بمعنى آخر، لم يسمع أحدٌ "صوت الألم"، الأمر الذي أدى إلى فشل الوصول إلى حالة من التعاطف الوجداني مع صاحب الألم. ومن هذا المُنطلق نفهم لماذا يُعتبر استخدام القوّة أو الدعوة إلى مُقاطعة طرفٍ من

5. من باب التأكيد والتوضيح، كان هنالك الكثير من الفلاسفة اليهود الكبار الذين عاشوا في فترة القرون الوسطى ممن قاموا بذلك تحت تأثير الفلاسفة المتأثرين بأفكار أفلاطون وأفكار أرسطو الحديثة بوساطة عدد من كبار الفلاسفة المسلمين، ومن يُمكننا استثناءه من هذه الحالة هو العالم يهوداه هاليفي في مؤلفه "الكراري" (كتاب الخزري).

6. See Adam Philips, *Equals* (London: Faber and Faber, 2002), xii. See also Salman Akhtar, *Listening to Others: Developmental and Clinical Aspects of Empathy and Attunement* (Lanham: Jason Aronson, 2007).

7. لاحظ وجود الفرق بين التعاطف والتعاطف الوجداني. فعندما تقول لأحد ما "أنا أسمعك وأصغي إليك" فإنها طريقة لإشعار الطرف الآخر بالصدق، بمعنى أنني ألتفت وأصغي لما تشعر به لكن ليس بالضرورة أن اتفق مع ما تشعر به أو أن اتفق معك أنت شخصياً.

أطراف الصراع أمراً مُدمراً للذات إلى حدٍ كبير، فهذه الأمور قد تُخمدُ نار الصراع لفترة معينة، لكن الصراع سيعودُ مرة أخرى وسيحتدُّ بشكلٍ أكثر من السابق. وفي هذا السياق أستذكرُ قصة إيوث/أيوب الذي عانى كثيراً من الظلم، ولم تُواسِه محاولات من حاولوا شدَّ أزره ومواساته عبر الجدل معه، لأنه كان مُصبراً على أنه مُحقِّقٌ، بل لأن ما أُراده هو أن يُصغي إليه أحد وأن يكونَ صوتُهُ مسموعاً. لهذا، ليس من قبيل الصدفة أن يستلزم تحقيق العدل هذا الأمر: "*audi alteram partem*"، بمعنى أصغِ إلى الطرف الآخر.

لهذا يحتلّ الإصغاء مكانة هامة في صميم العلاقات، وهو يعني أن نكونَ مُنفتحين تجاه الآخر وأن نحترمه، وبأنّ مشاعره ورؤيته للأمور تُشكلُ أموراً هامة بالنسبة لنا. وبهذا نمُنحُ الآخرين الإذنَ ليكونوا صادقين، حتى لو أدّى هذا إلى أن نُصيحَ عُرضة للتأثر بما سيقولونه، فالأبُّ الجيّد يُصغي لأبنائه، وربّ العمل الجيّد يُصغي لموظفيه، والشركة الجيدة تُصغي لزيائنها وعملائها، والقائدُ الجيّد يُصغي إلى مَنْ يقودهم. مع التأكيد على أن الإصغاء لا يعني بالضرورة أن نوافق على ما نُصغي إليه، لكنه بلا شكّ يعني الاهتمام والاكتراث بمن نُصغي إليهم. بعبارة أخرى: الإصغاء هو المناخُ الذي تنمو فيه المحبة والاحترام.

إننا نؤمنُ في الديانة اليهودية بأنّ علاقتنا مع الله عزّ وجلّ هي بمثابة عملٍ تعليمي تربوي متواصلٍ مع بقية البشر، إذ كيف نتوقّع من الله أن يُصغي إلينا حين نعجزُ عن الإصغاء لشريكٍ أو زوجٍ أو ابنٍ أو لشخصٍ يتأثر بعملنا؟ وكيف نتوقّع ملاقاته الله إن لم نتعلّم كيف نُصغي؟ ففي جبل حوريف/سيناء علم الله عزّ وجلّ النبي إياهو/إلياس بأنّه - أي الله - لا يوجدُ في العواصف والزلازل ولا في النيران، بل في "قول دماماه دقاه"، أي في "الصوت الخافت المنخفض" مثلما تذكر الآية الثانية عشرة من المقطع التاسع عشر من سفر الملوك الأول، وهذا ما أعرفُّه على أنه الصوتُ الذي بإمكانك سَماعه فقط حين تكونُ مُصغياً.

إن الحشودَ والجماهير الغفيرة عادةً ما تتأثّر بالمتحدثين العُظماء وتتحمّس عند سماعهم، لكن الحياة تتغير بالمستمعين العُظماء. وسواء كان هذا بيننا وبين الله عزّ وجلّ أو بيننا وبين بقية البشر، فإن الإصغاء هو بمثابة المُقدمة والخطوة الأولى على طريق المحبة.⁸

8. لقراءة المزيد حول هذا الموضوع بإمكانكم الرجوع إلى المقالة التي تطرقت للنص الأسبوعي "بريشيت" والتي تحمل عنوان "فنّ الإصغاء"، والمقالة التي تطرقت للنص الأسبوعي "تيمدبار" والتي تحمل عنوان "صوت السكون".

رئيّه

هو النصُّ الأسبوعي الرابع من كتاب "دفاريم" (أي سفر التثنية) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية السادسة والعشرين من المقطع الحادي عشر وينتهي بالآية السابعة عشرة من المقطع السادس عشر.

التأثيرُ العميقُ للفرح

قام المؤرِّخُ وكاتبُ اليوميات الإنجليزي المعروف صموئيل بيبس بزيارة إلى الكنيس الإسباني البرتغالي في منطقة كرينتشيترش بمدينة لندن بتاريخ الرابع عشر من تشرين الثاني/أكتوبر عام 1663م. وبالعودة إلى تاريخ اليهود في إنجلترا فقد تم نفيهم وطردهم منها سنة 1290م، لكن بعد مبادرة توسَّط بها الحاخام منشييه بن إسرائيل من أمستردام، أصدر القائد العسكري والسياسي الإنجليزي البارز أوليفر كرومويل بياناً وضح فيه حقيقة عدم وجود أي مانع قانوني يحول دون إقامة اليهود في إنجلترا، وكان هذا عام 1656م. بالتالي صار بإمكان اليهود لأول مرة منذ القرن الثالث عشر للميلاد أن يمارسوا حرية العبادة على الملأ.

وكان هذا الكنيسُ الذي زاره صموئيل بيبس هو أول كنيسٍ أقيمَ هناك، فكان في بداية الأمر منزلاً تعود ملكيته لتاجر كبير من يهود البرتغال ويُدعى أنطونيو فرنانديز كارفاخال، ثم تمت توسعته لاحقاً ليستوعِبَ المُصلين القادمين للصلاة فيه. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي يزور فيها صموئيل بيبس هذا الكنيس، إذ زاره في المرة الأولى أثناء تأدية عدد من الأدعية والصلوات في ذكرى رحيل أنطونيو كارفاخال الذي توفي سنة 1659م، بمعنى أن زيارته للكنيس كانت في أجواء حزينة كئيبة تتناسب مع هذا الحدث الحزين. لكن ما رآه خلال زيارته الثانية لهذا الكنيس كان مُختلفاً كلياً، فكان مشهداً احتفالياً جعله يُصاب بحالة من الدهول مما رآه، وهذا ما كتبه في يومياته تعقيباً على هذا المشهد:

...وبعد العشاء توجَّهتُ برفقة زوجتي إلى الكنيس اليهودي بعد أن نصَّحنا السيّد رولنسون بذلك. وهناك رأينا الرجال والأولاد يرتدون أردية الصلاة ("تليتوت" باللغة العبرية)، فيما النساء يتواجدن في جهةٍ أخرى خلف حاجزٍ مُشبَّك. وكانت هناك بعض الأشياء الموضوعية في الأعلى والتي أعتقدُ بأن منها كتابهم المقدس الذي كان موضوعاً في صندوق (أرون باللغة العبرية) يقفُ الجميع أمامه وينحني. وبينما كانوا يلبسون أردية الصلاة كانوا يرددون عباراتٍ يردُّ عليهم من يسمعها قائلين آمين ثم يُقبَلون رداءه الخاص بالصلاة. وكانوا يؤدِّون طقوسهم بأسلوبٍ غنائي وباللغة العبرية، ثم كان أربع أو خمس رجالٍ ينتشلون الكتاب من الصندوق ويمررونه بين بعضهم من شخصٍ لآخر. ولم أستطع أن أحدد إذا ما كان جميع الرجال يرغبون فعلاً بحمل هذا الكتاب أم لا، لكنهم كانوا يحملونه ويطوفون به في أرجاء المكان وهم يُنشدون ويغنون.. يا إلهي! ما هذا المشهد الفوضوي الذي يملأه الضحك والمرح والتشتت! إن حالة الخبل والفوضى هذه تجعلهم يبدوون وكأنهم مجموعة من البرابرة الهمج، لا

كجماعة تعبد الإله الحقيقي. ولو رأى أي شخص هذا المشهد لقال بأنه لم يرَ أي شيء مماثل لهذا في حياته أبداً، وبالفعل لم أرَ في حياتي شيئاً كهذا، ولم أتخيل حتى وجود دينٍ أو مُعتقدٍ في العالم تُمارسُ طُقوسه الدينية بهذا القدر من السخافة.

في الحقيقة، لم يقل أحدٌ لصموئيل المسكين بأنه اختار أن يزور الكنيس أثناء مناسبة دينية يهودية تُعرف باسم "سمحات تورا" (أي فرحة التوراة)*، وهو بالفعل لم يرَ في حياته بيت عبادة تطغى عليه ملامح الفرحة العارمة مثلما رأى اليهود وهم يرقصون حاملين لفائف التوراة، وكأنَّ هذا العالم هو حفلٌ زفافٍ وكتاب التوراة هو العروس التي ننسى أنفسنا ونحن نرقصُ معها، تماماً كما فعلَ الملك دافيد/داوود عندما أحضر تابوت العهد إلى أورشليم القدس.

إن الفرحة ليست الكلمة التي تخطرُ بالنا بديهياً حين نُفكر في جدية وصرامة الديانة اليهودية كمنظومة أخلاقية، أو حينما نستذكر الصفحات المليئة بالدموع والأحزان من كتاب التاريخ اليهودي. إننا كيهود نمتلك مراتب في المآسي، وشهادات غلبا في الذنوب، ومداليات ذهبية في عالم النواح والعيول، وإن أفضل تعبير عن حال الأعياد والمناسبات في الديانة اليهودية هو ما لخصه أحد الأشخاص بثلاث عبارات فقط: "لقد حاولوا قتلنا، لكننا نجونا بأعجوبة، فهتأ بنا نأكل!".

لكن هنالك فرحة عارمة ونقيّة تُشعّ من قدرٍ كبيرٍ من أجزاء سفر المزامير، كما أن الفرحة تعتبر أحد الكلمات الرئيسية في سفر التثنية، والجذر "س.م.ح" (بمعنى فرح) مذكورٌ مرةً في سفر التكوين، ومرة في سفر الخروج، ومرة في سفر اللاويين، ومرة في سفر العدد، واثني عشر مرةً في سفر التثنية، سبعٌ منها ذُكرت في هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة. وما أكّد عليه نبي الله ورسوله موشيه/موسى مراراً وتكراراً هو أنه ينبغي علينا أن نفرح في أرض إسرائيل، فهي الأرض التي منحنا إياها الله عزّ وجلّ، وهي المكان الذي تقع فيه أحداثُ القصة اليهودية منذ عهد أفرهام/إبراهيم وساره. فهذا الكون الشاسع بمجراته ونجومه التي لا تُحصى هي عملٌ فتيّ لله عزّ وجلّ، وفي ثناياها يوجد كوكب الأرض الذي يحوي في ثناياها أرض إسرائيل والمدينة المقدسة أورشليم القدس. وفي هذه البقعة بالذات يكون الله أقرب ما يكون، وحضوره مُمتدٌ في الأثير، حيثُ السماء تُعبّر عن رُقة السماوات العلى، والحجارة تُعبّر عن ذهبية عرشه. وهي الأرض التي قال عنها موشيه: "الموضع الذي يختاره الله ربّكم.. ليحلّ اسمه (أو نوره) فيه، والتمسوا مسكنه" تبعاً لما تذكره الآية الخامسة من المقطع الثاني عشر من سفر التثنية، فهي الأرض التي سنحتفي بها بالمحبة بين جماعة صغيرة من البشر (التي لم تكن لتحظى بأي أهمية لو لم يخرتها الله)، وبين الله الذي اختارهم شعباً له ورَفَعَهُمْ إلى مراتب العظمة.

ومثلما أخبر موشيه بني إسرائيل، فإن الرواية المُعقّدة للتاريخ اليهودي بأكملها ستكون جليّة واضحة فوق هذه الأرض، مثلما تُخبرنا الآية الثانية عشرة من المقطع الثاني عشر من سفر التثنية: "أنتم وبنوكم وبناتكم وعبيدكم وإماؤكم واللاوي الذي في محالكم إذ ليس له نصيبٌ ونحلة معكم"،

*ملاحظة توضيحية من المترجم: سمحات تورا أو فرحة التوراة هي مناسبة دينية يهودية تحلّ في اليوم التالي لآخر يوم من عيد العرش أو عيد المظلات، وتحلّ في اليوم الذي يُتَمّ فيه اليهود قراءة التوراة كاملة فيفرحون لذلك، ومن هنا جاءت التسمية.

بمعنى آخر: سيفرحُ الشعبُ بأكمله، فينشُدون سويًا ويعبدون الله عز وجل سويًا، ويحتفلون بالأعياد والمناسبات الدينية سويًا، مُدركين بأن التاريخ لا يتمركزُ حول الإمبراطوريات والغزو مثلما لا تتمركزُ المُجتمعات حول التراتبية والنفوذ والسلطة، وبأن الحاكم والمحكوم والعبري (ويشار إليهم كذلك بعبارة "يسرائيل"، راجع الملاحظة الهامشية)* والكاهن جميعهم سواسية في نظر الله عز وجل. وبأنهم جميعاً أصواتٌ تُنشدُ في جوقته الدينية، وجميعهم يرقصون في دوائر مركزها الضياء الإلهي المُنير. وهذا هو تحديداً الأساس الذي يقوم عليه العهدُ مع الله: تغيير ظروف البشر من خلال ما أطلق عليه الشاعر الإنجليزي وليام ووردزورث "التأثير العميق للفرح".¹

وعلى حد تعبير أرسطو فإن السعادة (*eudaemonia* باللغة اليونانية) هي الغاية المُطلقة للوجود الإنساني. فنحنُ نرغبُ في الكثير من الأمور، لكننا نرغبها كوسيلةٍ لتحقيق أمرٍ آخر في العادة. في حين يوجدُ أمرٌ واحدٌ يُعتبرُ الغاية بحد ذاتها: إنه السعادة.² وهناك عاطفةٌ مماثلة في الديانة اليهودية، فالكلمة المُستخدمة في التناخ لوصف السعادة "أشري" (أي طوبى) هي أول كلمةٍ في سفر المزامير، وهي كلمة رئيسية في صلواتنا اليهودية، لكن بمعزل عن هذه السياقات نجدُ أن التناخ يتحدثُ عن الـ "سمحاه" (أي الفرحة).

والفرحُ والسعادةُ هما أمران مُختلفان عن بعضهما البعض، فالسعادةُ شعورٌ بمقدورك أن تشعر به لوحده، لكن الفرحة - في التناخ - هو شعورٌ تتشاركه مع الآخرين. فعلى سبيل المثال، يذكر سفر المزامير في الآية الخامسة من المقطع الرابع والعشرين كيف ينبغي على الزوج في السنة الأولى من الزواج أن "يكون فارغاً لبيته سنة واحدة، ويُفرح زوجته التي اتخذها". وبحسب ما تذكر الآية الحادية عشرة من المقطع السادس والعشرين فإن إحصار باكورة الفواكه إلى الهيكل يؤدي إلى التالي: "افرح بكل الخير الذي رزقك الله ربك، أنت وأهلك واللاوي والغريب الذي في محالك". وفي أحد أكثر الآيات استثنائية في التوراة يُبين لنا موشيه كيف أن النقم واللعنات ستحلّ، لكن هذا لن يكون بسبب عبادة الأوثان أو بسبب التخلي عن عبادة الله، بل لهذا السبب: "ما لم تعبد الله ربك بفرح وجودة قلبٍ" بحسب ما تذكر الآية السابعة والأربعون من المقطع الثامن والعشرين من سفر التثنية. بالتالي فإن فشلنا في الوصول إلى حالةٍ من الفرحة هو العلامة الأولى على وجود حالة من الصّدع والانحدار.

كما توجد فروقٌ أخرى بين السعادة والفرحة، فالسعادة تدورُ حول فترةٍ طويلة في الحياة، في حين يرتبطُ الفرحةُ باللحظة الحالية. كما أن السعادة تبدو كعاطفة باردة هادئة، في حين أن الفرحة يجعلك ترغبُ في الرقص والغناء. ويصعبُ على المرء أن يكون سعيداً وسط حالةٍ من الشك واللايقين، في حين

* ملاحظة توضيحية من المترجم: ينقسم الشعب اليهودي إلى سبط الكهنة المنحدرين من نسل أهارون الكاهن، واللاويين المنحدرين من نسل اللاوي الذين كانوا يساعدون الكهنة في عبادة الله بالهيكل، أما الباقي من الشعب فكان يُشار إليهم بعبارة "يسرائيل"، أي العامة من الناس الذين لا ينتمون لا للكهنة ولا لللاويين. يظل هذا التقسيم مهماً في الطقوس الدينية بالكنيس إلى هذه اللحظة.

1. William Wordsworth, "Lines Composed a Few Miles above Tintern Abbey, on Revisiting the Banks of the Wye during a Tour, July 13, 1798."

2. Aristotle, *Nicomachean Ethics*, 1097a 30-34.

بمقدوره أن يكون فرحاً في خِصَمَ ذلك. وفي هذا السياق أَسْتذَكُرُ الملك دافيد/داوود الذي تحدّث في سفر المزامير عن الخطر والخوف والكآبة بل وفي بعض الأحيان حالة الإحباط، لكن أناشيده كانت تنتهي عادة بنمط إيجابيٍّ ومتفائلٍ مثلما نجد في الآيات 6-13 من المقطع الثلاثين:

"لأن غضبه للحظة، وحياة في رضاه
عند المساء يبیت البكاء، وفي الصّباح ترنم..
حوّلت نواحي إلى رقص حللت مسحي وكسونتي فرحاً
لكي ترنم لك روجي ولا تسكت، يا رب يا إلهي، إلى الأبد أحمّدك".

بالتالي فإن الفرح يُمثل عاطفة يهودية مُطلقة، ففيها نجد أنفسنا في عالمٍ يملؤه الجمال، وكل نفسٍ ننفسه هو روح الله الكامنة بداخلنا، وتُحيط بنا محبته التي تُحرّك الشمس والنجوم. إننا موجودون هنا لأن الله أراد لنا أن نكون هنا، والروح التي تحتفي بالأشياء هي التي تُشدو وتغني فرحاً.

في الوقت نفسه فإن الحياة مليئة بالأتراح والمسؤوليات والمشاكل والآلام، لكن أسفل هذا كله يوجد ما هو مُعجزٌ في وجودنا هنا في هذا الكون المليء بالجمال، وبين البشر الذين يحملون بين ثناياهم شيئاً من "صورة الله عز وجل". وفي هذا السياق يقول الشاعر والروائي الأُسكتلندي روبرت لويس ستيفنسون: "ابحث عن المكان الذي تقيم به فرحتك، وامنحها صوتاً بعيداً أبعد من حدود الغناء. فحين تفقد الفرحة فإنك ستفقد كل شيء"³.

وفي الديانة اليهودية فإن الإيمان ليس عدواً للعلم أو لأي محاولة لتفسير هذا الكون، بل هي حالة من الذهول والتعجب التي ولدت في رحم الشعور بالشكر والعرفان. إنها تتعلّق بالتشبّث بالحياة حتى نصنع بركة منها، وكأن الله عز وجل يخاطبنا قائلاً: لقد صنعتُ هذا جميعه من أجلكم، وهذه هبتي لكم، فاستمتعوا بها وساعدوا الآخرين على الاستمتاع بها أيضاً، وساعدوا في شفاء آلام الغير بقدر ما استطعتم، تلك الآلام التي قد يُسببها الناس لبعضهم البعض أو تلك التي هي نتاج لآلاف الأسباب والعلل الطبيعية التي يتعرضون لها، ذلك لأن الألم والحزن والخوف والغضب والغيرة والحقد جميعها مشاعر تُعمي العيون وتفصل بين الإنسان وبقية البشر، وبين الإنسان وبيني (أي الله عز وجل).

وهنا يوضّح الفيلسوف الدنماركي سورين كيركغور في كتاباته قائلاً: "يتطلب الحزن من الإنسان أن يتحلّى بالجُرأة الأخلاقية، لكن الفرح يتطلب منه أن يتحلّى بالجُرأة الدينية"⁴، وهذه فكرة أُؤمّن بها أنا شخصياً من أعماق قلبي، لهذا فإنني أتأثّر جداً حين أرى اليهود وهم ينظرون للفرح على أنه قيمة دينية عليا بالرغم من معرفتهم حق المعرفة معنى أن يسير المرء في وادي ظل الموت (هذا الوصف المذكور في المقطع الثالث والعشرين من سفر المزامير).

3. Robert Louis Stevenson, "The Lantern-Bearers," in *The Lantern-Bearers and Other Essays* (New York: Cooper Square Press, 1999).

4. Søren Kierkegaard, *Journals and Papers*, 2179.

إننا نبدأ يومنا كل صباح بقائمة من الأدعية التي تعبر عن الشكر والعرفان لله عز وجلّ بأننا موجودون هنا في هذا العالم، وبأن لدينا عائلة وأصحاب يحبوننا ونحبهم، وبأننا على وشك أن نبدأ يوماً مليئاً بالإمكانيات والاحتمالات، وعبر سلوكياتنا التي تعبر عن محبتنا وإحساننا فإننا نسمح للحضور الإلهي بالعبور من خلالنا إلى حياة الآخرين. بالتالي فإنّ الفرخ يُساعدنا كثيراً على شفاء المجروحين والمهمومين في هذا العالم.

شوفتيم

هو النصُّ الأسبوعي الخامس من كتاب "دفاريم" (أي سفر التثنية) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الثامنة عشرة من المقطع السادس عشر وينتهي بالآية التاسعة من المقطع الحادي والعشرين.

عَظْمَةُ التَّوَاضُعِ

خلال مأدبة عشاء أقيمت على شرفِ أحد الشخصيات العامة، بدأ ضيف من المدعوين للحفل بالحديث عن مناقبٍ ومُميزات هذا الرجل، مثل إخلاصه وعمله الدؤوب ورؤيته الثاقبة وغيرها. وعندما أنهى الضيف خطابه اقترب منه الرجل قائلاً: "لقد نسيت أن تذكرَ أمراً آخر"، فسأله الضيف: "ما هو؟"، فأجاب الرجل: "لقد نسيت أن تتحدّثَ عن تواضُعي!"

ومن هنا، نجدُ أن القادة العظامَ يتمتعون بالكثير من السمات، لكن التواضُع ليسَ منها في كثيرٍ من الأحيان. ومع بعض الاستثناءات محدودة فيما يخص التواضع، فإننا نجد الطموح والاعتداد بالنفس إلى حدٍ كبير من أبرز سماتهم، وهُم يتوقَّعون دوماً أن يتم احترامهم وتكريمهم وطاعتهم بل والخوف منهم، حيث تبدو السيادة على الآخرين أمراً عادياً جداً بالنسبة لهم، وهذا ما تصفه إيلانور روزفلت بأنه "ارتداءُ تاجٍ خفيّ".

لكن يوجد فرقٌ كبير بين هذا الأمر وبين التواضع، الأمر الذي يجعل هذا النصُّ الأسبوعي من نصوص التوراة يحتوي على موضوع مؤثّر وغير متوقَّع أبداً. فالتوراة تتحدّثُ عن أحد الملوك، ومع علمنا بأن "السُّلطة تُفضي عادةً إلى الفَساد، والسُّلطة المطلقة تقودُ إلى الفسادِ دون أدنى شكٍّ"¹ على حد تعبير لورد أكتون، فإن التوراة تُبيِّنُ لنا ثلاث مُغرياتٍ من شأنها أن تُغري الملوك تبعاً لتقاليد الممالك في العالم القديم: فالمملِك لا يجب عليه أن يُراكم الخيول ولا النساء ولا الثروة، هذه المغريات الثلاثة التي وقع الملك شلومو/سليمان فيها بنهاية المطاف. وهُنا تُضيفُ التوراة ما يلي:

"وكما يجلسُ على كُرسي مُلكه، يستكتب له نسخة من هذه التوراة في سفرٍ ... تكونُ معهُ ويقراً فيها طوال أيام حياته، لكي يتعلم أن يخاف الله ربه، ويحفظ جميع كلام هذه التوراة، وهذه الرسوم ليعمل بها. لئلا يرتفع قلبه على إخوته، ولئلا يزولَ من الشريعة يُمنة ولا يُسرة، لكي تطولَ أيامه على مملكته، هو وبنوه فيما بين بني إسرائيل" (بحسب ما تذكره الآيات 18-20 من المقطع السابع عشر من سفر التثنية).

1. Transcript of Letter to Bishop Mandell Creighton, April 5, 1887, published in *Historical Essays and Studies*, edited by J. N. Figgis and R. V. Laurence (London: Macmillan, 1907).

وإذا كان الملك الذي يعتبر مَوْضِعَ تَبْجِيلٍ واحترامٍ من الجميع يُؤمَّرُ بأن يكون متواضعاً (لئلا يرتفع قلبه على إخوته)، فما بالك ببقية البشر. وقد كان موشيه/موسى الذي يُعتبر أعظم قائد للشعب اليهودي منذ الأزل "رجلاً خاشعاً جداً، أكثر من جميع الناس على وجه الأرض" بحسب ما تذكر الآية الثالثة من المقطع الثاني عشر من سفر العدد. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: هل كان موشيه عظيماً لأنه كان مُتواضعاً، أم كان مُتواضعاً لأنه كان عظيماً؟ وأياً كانت الإجابة فإن الحاخام يوحنا يتحدث عن الله عز وجل قائلاً: "أينما نجدُ عَظْمَتَهُ فهناك نجدُ تواضعه".²

في الحقيقة فإن فكرة التواضع تعتبر واحدة من أعظم الأفكار الثورية الحقيقية التي جلبتها اليهودية عبر تاريخ الروحانية، ومُجرد القول بأنه ينبغي على الملك أن يكون متواضعاً يعتبر أمراً مدعاة للضحك والسخرية تبعاً لمعايير العالم القديم. كما بإمكاننا في الوقت الحالي أن نرى من خلال بقايا وآثار حضارة ما بين النهرين والحضارة الفرعونية في مصر عدداً لا يُحصى من الأعمال التي أنشأها الحكام آنذاك بغرض تعظيم صورتهم. فعلى سبيل المثال نرى أن رمسيس الثاني قام ببناء أربعة تماثيل لنفسه وتمثالين للملكة نفرتاري، وقام بوضع تلك التماثيل على مدخل معبد أبو سمبل. كما كانت هذه التماثيل تبلغ في ارتفاعها حوالي عشرة أمتار، أي ضِعْفِي ارتفاع تمثال الرئيس الأمريكي أبرهام لينكولن في واشنطن. كما سيكون من الصعب على شخصٍ مثل أرسطو أن يفهم بأن التواضع هو شكلٌ من أشكال الفضيلة، فمن وجهة نظره فإن مُصطلح (*megalopsychos*) الذي يعني صاحب النفس العظيمة، كان يُقصدُ به الشخص الأرستقراطي الذي يبي تماماً بأنه صاحبُ السيادة على جماعةٍ من البشر. بالتالي فإن التواضع والطاعة والخدمة والتقليل من شأن الذات جميعها صفاتٌ للطبقات الدنيا في المجتمع، أي البشر الذين خُلِقوا ليكونوا مَحْكُومِينَ، لا حاكِمين. بالتالي نرى كيف أن إلزام الملك بأن يكون متواضعاً كانت فكرة جديدة وثورية جاءت بها اليهودية وتبنتها المسيحية لاحقاً.

وهذا مثالٌ واضحٌ يُظهِرُ لنا كيف بإمكان الروحانية أن تصنعَ فَرْقاً في أسلوب تصرفاتنا وتفكيرنا وشعورنا، فالإيمان بالله عزَّ وجلَّ وبوجوده يعني أننا لَسْنَا مَحْوَرِ هذا الكون، بل الله هو مَحْوَرُ هذا الكون ومركزه. وهذا ما نراه في حديث أفرهام/إبراهيم الذي يُعدُّ الأب المؤسسَ لعقيدةٍ بأكملها حين قال: "أنا ترابٌ ورمادٌ" (تبعاً لما تذكره الآية السابعة والعشرون من المقطع الثامن عشر من سفر التكوين). والحال نفسه ينطبقُ على موشيه الذي يُعدُّ أعظمَ نبيٍّ على الإطلاق حين قال مُخاطباً الله عزَّ وجلَّ: "مَنْ أنا؟". إنَّ تواضعهما لم يجعلهما ذليلين أبداً، كما أنه لم يجعل منهما شخصين مُتملِّقين على الإطلاق، بل كانت لحظة تواضع أفرهام التي وصف بها نفسه على أنه ترابٌ ورمادٌ هي اللحظة التي ناقشَ فيها الله بخصوص عقابه لقرية سدوم والقرى المحيطة بها. والحال نفسه ينطبق على موشيه الذي وُصِفَ بأنه أكثر الرجال تواضعاً حين ترعَّ إلى الله لكي يغفرَ لبني إسرائيل، وإن لم يغفرَ لهم "فامحني من ديوانك الذي كتبتَه" بحسب ما تذكر الآية الثانية والثلاثون من المقطع الثاني والثلاثين من سفر الخروج. لقد كان كلٌّ من أفرهام وموشيه من ضمن أكثر الشخصيات شجاعة التي أنجبتها البشرية، إلا أنهما كانا مثالين بارزين على شيمة التواضع.

2. Pesikta Zutrata, Ekev.

في الوقت نفسه، يوجد فرقٌ رئيسي في اللغة العبرية بين كلمة "عَنافاه" التي تعني التواضع، وكلمة "شِفْلوت" التي تعني تحقير الذات. والفرقُ شاسعٌ بين الكلمتين لدرجة أن الحاخام موشيه/موسى بن ميمون عَرَّفَ التواضع على أنه الطريقُ الذي يتوسَّطُ بين الـ"شِفْلوت" والكبرياء.³ إن التواضع لا يعني التقليل من شأن الذات أو احتقارها، فهذه هي "شِفْلوت"، بل يعني شعور الإنسان بالثقة بالذات لدرجة أنه ليس بحاجةٍ للآخرين ليمنحوه شعوراً بالاعتزاز بنفسه.

بمعنى آخر، إن التواضع يعني أنك لست بحاجة لإثبات نفسك للآخرين من خلال التظاهر بأنك أكثر ذكاءً وفطنة أو بأنك موهوبٌ وناجحٌ أكثر من غيرك. إنها تعني ثقتك بنفسك لأنك تعيش في رحاب محبة الله عزَّ وجلَّ، فهو يؤمنُ بك حتى وإن لم تؤمن به. بالتالي فإنك لست بحاجة لمقارنة نفسك بالآخرين، إذ لديك مهمة خاصة بك مثلما يوجد لكل منهم مهمة خاصة به، وهذا أمرٌ يدفعك للتعاون مع الآخرين لا لمنافستهم. مما يعني أنك قادرٌ على رؤية الآخرين وتقديرهم كما هم، فهم ليسوا مجرد مِرآة تنظرُ إليها لترى نفسك من خلالها. لذلك تُثق بنفسك، فإن ثقتك بنفسك تجعلك تُقدِّرُ الآخرين، وثقتك بهويتك تجعلك تُقدِّرُ من لا يُشبهونك. ومن هذا المنطلق فإن التواضع يجعلُ الذات تتجه خارجاً صوبَ الغير، انطلاقاً من الفهم القائم على حقيقة أن "الذات ليست هي المحور الذي تدور حوله الأمور".

وعام 1979م قام المؤرِّخ الراحل كريستوفر لاش بتأليف كتابٍ يحمل عنوان "Narcissism, American life in an age of diminished expectations" (النرجسية: الحياة الأمريكية في زمنٍ اندثرت فيه التوقعات)، وقد كان هذا كتاباً نبوئياً بكل ما تحمله الكلمة من معنى، حيث ناقشَ عبر صفحاته كيف أن انحدار العائلة والمجتمع والإيمان يجعلنا فاقدين تماماً لثقتنا بأنفسنا، ومحرومين من الدعم الاعتيادي الذي تُمدِّنا به هويتنا وقيمنا في هذه الحياة. لقد رحلَ كريستوفر لاش قبل أن يرى زمن صور السيلفي والصور الشخصية على موقع الفيسبوك والماركات الفخمة والمصممة بحجم كبير على المُنتجات حتى يراها الآخرون، وغيرها من مظاهر "الدعاية الذاتية". لكن من وجهة نظري فإنه لن يتفاجأ لو ظل حياً ورأى هذه المظاهر. كما وضح عبر صفحات كتابه بأن النرجسية هي شكل من أشكال انعدام الثقة بالنفس، حيث يحتاج النرجسي إلى تأكيد مُستمرٍ من الآخرين على هيئة جرعات مُنظمة تزيد من تقدير النرجسي لذاته. بعبارة أخرى: النرجسية ليست الطريقة المثلى التي يحيى بها الإنسان.

إنني أرى في بعض الأحيان كيف تمضي النرجسية وانعدام الإيمان يداً بيد في الطريق نفسه، فعندما نفقد إيماننا بالله ماذا ستكون الركيزة التي سيستندُ إليها ضميرنا؟ لهذا، ليس من قبيل الصدفة أن نجد واحداً من أعظم المُلحدين في التاريخ المعاصر - نيتشه - يرى في التواضع رذيلةً، لا فضيلة. وكان يصف التواضع على أنه انتقام الضعفاء من الأقوياء. وليس من قبيل الصدفة أيضاً أن يكون واحداً

3. Maimonides, *Shemona Perakim* 4; *Commentary to Avot*, 4:4. In *Hilkhot Teshuva* 9:1, he defines *shiflut* as the opposite of *malkhut*, sovereignty.

الحاخام موشيه/موسى بن ميمون، الفصول الثمانية (شمونة بيراكيم) 4؛ تعقيب على أفوت، 4:4، حيث يقوم بتعريف الـ"شِفْلوت" بأنها نقيض الـ"ملخوت" (الملخوت بالعربية) في "هلخوت تشوفاه" 1:9

من آخر كتبه يحمل عنوان "Why I Am So Clever" (لماذا أنا خارق الذكاء؟).⁴ وبعد فترة وجيزة من تأليف هذا الكتاب بدأت حالته تتدهور حتى وصل إلى الإصابة بالجنون، فظلّ حبيسَ هذه الحالة طيلة السنوات الإحدى عشر الأخيرة من حياته.

كما أنه ليسَ من الضروري أن يكونَ المرءُ متديناً حتى يفهمَ أهمية التواضع. وفي عام 2014م نشرت مجلة (*Harvard Business Review*) نتائج استطلاع للرأي أظهر أن "أفضل القادة هم القادة المتواضعون".⁵ فهم يتعلمون من الانتقاد، ويتمتعون بالثقة بالنفس لدرجة كافية لتمكين الآخرين والثناء على إنجازاتهم، كما أنهم يُجازفون على المستوى الشخصي في سبيل تحقيق المنفعة العامة. إنهم مصدر الإلهام الذي يجلبُ الإخلاص ويقوّي روح الفريق، وما ينطبق على القادة فإنه ينطبق علينا سواء كنا أزواجاً أو شركاءً أو زملاءً أو أصدقاءً أو أبناءً مُجتمع واحد.

لقد كان الحاخام الراحل مناحيم مندل شنيورسون من لوبافيتش واحداً من أكثر الرجال المتواضعين الذين عرفتهم في حياتي، لكن تواضعه لم يكن يعني أنه شخصٌ يمتهن ذاته، بل كان يمضي قُدماً في حياته بكل عزة وكرامة. كما كان رجلاً يتمتع بثقة عالية بنفسه لدرجة كانت تبدو عليه هالة الملوك، لكن عندما تكون برفقته لوحده فإنه يجعلك تشعرُ بأنك أهمّ شخصٍ في هذا المكان. لقد كانت هذه الميزة فيه هبةً استثنائية جداً، لقد كانت "كالملكية دونما تاج"، بل كانت تماماً مثلما وصفها رجل الأعمال الأمريكي سبنسر و. كيمبل: "عَظْمَةُ ترتدي رداءً البساطة". لقد علّمني هذا الرجل العظيم بأن التواضع لا يعني أن تستصغر نفسك، بل أن ترى العَظْمَةَ الموجودة لدى الآخرين. وفي هذا السياق يقول السياسي ورجل الدين الأمريكي عزرا تافت بنسون بأن "الكبرياء يتعلّق بِمَن يكون على صواب، في حين أن التواضع يتعلّق بِمَا هو الصواب". إن طاعة الله عز وجل بكلّ محبة تعني أن تقوم بما هو صائبٌ، لا لسببٍ سوى أنها الصواب بعينه، تبعاً لما وضح الحاخام موشيه بن ميمون.⁶

بالتالي فإن الحُبَّ يعني الإيثار، والتسامح يعني الإيثار أيضاً، بل إن هذه الأمور هي الإيثار بعينه إن صح التعبير. وعندما نضع ذاتنا في مركز الكون فإننا نُحوّل كل شخص وكل شيء إلى أداةٍ لتحقيق مصالحنا، وهذا أمرٌ يُحقّر الآخرين وبنهاية المطاف سيُحقّرنا نحن أيضاً. في حين أن التواضع يعني الحياة في ضوء ذلك الذي هو أعظم منا، فحين يكون الله عزّ وجلّ هو مركز حياتنا فإننا سنكون مُنفتحين تجاه عظمة هذا الخلق وجمال البشر الموجودين فيه. وكلّما قللنا من الذات، كلّما اتسع فُطرُ هذا العالم من حولنا.

4. Part of the work published as *Ecce Homo*

5. Jeanine Prime and Elizabeth Salib, "The Best Leaders Are Humble Leaders," *Harvard Business Review*, May 12, 2014.

6. Maimonides, *Hilkhot Teshuva* 10:2.

كي تَتَسِيهِ

هو النصُّ الأسبوعي السادس من كتاب "دقاريم" (أي سفر التثنية). يبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية العاشرة من المقطع الحادي والعشرين وينتهي بالآية التاسعة عشرة من المقطع الخامس والعشرين.

حُدُودُ الْمَحَبَّةِ

في هذا النصِّ الأسبوعيِّ المليء بالقوانين والتشريعات نجدُ قانوناً في قِمة الروعة، قانونٌ يُنصُّ على ما يلي:

"إن كانت زوجتان لرجل واحد، إحداهما محبوبة والأخرى مكروهة (سنوءاه بالعبرية)، فولدتا له بنيماً، المحبوبة والمكروهة، وكان الابن البكر للمكروهة منهنَّ. ففي يوم ينحلُّ بنيه ما يكونُ له، فلا يجوزُ له أن يُفَضَّلَ ابن المحبوبة على البكرِ ابن المكروهة. بل يجبُ عليه أن يُعرِّفَ الناس بالبكر ابن المكروهة ليعطى له سهمان من جميع ما يوجدُ له، إذ هو أول نيله وله حُكم البُكورية". (تبعاً لما تذكر الآيات 15-17 من المقطع الحادي والعشرين من سفر التثنية).

إنه قانونٌ في قِمة المنطقية، فخلال عهد التناخ كان الابن البكر في إسرائيل يُعطى حصتين مما يرثه من والده،¹ وتبعاً لهذا القانون فإنه لا يحقُّ للأب أن يتدخل ويُقرِّر إعطاء الامتياز الذي يحظى به الابن البكر لابنٍ آخر من أبنائه. بمعنى آخر، لا يحقُّ للأب أن يُفَضَّلَ ابناً على الآخر، خاصة حين يكون هذا الابن من الزوجة التي يُحبُّها أكثر من الزوجة الأخرى التي أنجبت له ابنه البكر.

والقوانين الثلاثة الأولى في هذا النصِّ الأسبوعي، أي القانون المتعلِّق بالنساء اللواتي يتم سببهنَّ في الحروب والمعارك، والقانون الذي ذكرناه للتو والمتعلِّق بحقوق الابن البكر، وقانون الابن العاق (أو الابن الزائلُ المُخالف تبعاً لوصف التوراة) هي قوانين تتطرق لحالة الخلل والاضطراب داخل العائلة. وفي هذا السياق يوضح كبار الحاخامات بأن هذه القوانين وردت في التوراة بهذا الترتيب والتسلسل على وجه التحديد من باب التلميح إلى أن الرجل الذي يسبي امرأةً سيعاني من حالةٍ من الاضطراب داخل بيته، الأمر الذي سيؤدي إلى وجود ابنٍ عاقٍ له.² وتنظرُ الديانة اليهودية للزواج على أنه الركيزة الأساسية في بناء المُجتمع، وأي خلل في الزواج سيؤدي إلى حدوثِ خللٍ في مناحي أخرى من حياة المرء، وهذه حقيقة واضحة وضوح الشمس.

1. هذا موضح ضمناً في قصة يعقوف وابنه رؤوفن ويوسف. ويوضح كبار الحاخامات بأنهم استنتجوها من قصة بنات صلفحاد (أنظر:

تفاسيرهم للآية السابعة من المقطع السابع والعشرين من سفر العدد - Bava Batra 118b)

لكن ما هو استثنائيّ حول هذا الأمر هو أنه يتناقضُ بشكل واضح مع القصة التوراتية المتعلقة بـ يعقوف/يعقوب وزوجتيه ليئاه/ليئة وراحيل. في الحقيقة، فإن التوراة، وعبّر اللغة التي تستخدمها، تربطُ بأسلوبٍ لغويّ لا يشوبه أي خطأ بين قانون الابن البكر وبين هذه القصة، حيثُ يذكر القانون هاتين الكلمتين المُتناقضتين "أهوفاه" بمعنى المحبوبة، و"سنوءاه" بمعنى المَكروهة، وهاتان الكلمتان تحديداً استخدمتهما التوراة للحديث عن قصة ليئاه وراحيل.

ولنستذكر السياق الذي وقعت فيه أحداث القصة، حيثُ قرَّ يعقوف هارباً إلى خاله لئان/لَبان، وهناك وقعَ في حُبِّ ابنته راحيل من أول نظرة، وعَمِلَ لدى والدها سبع سنواتٍ حتى يتمكّن من الزواج بها. لكن في ليلة الزفاف قام والدها لئان باستبدال راحيل بابنة أُخرى من بناته وهي ليئاه، حينها امتعضَ يعقوف قائلاً: "ماذا صنعتِ بي؟"، فردّ عليه لئان ساخراً: "لا يُصنعُ كذا في بلدنا، أن تُزوّجَ الصغيرةَ قبلَ الكبيرة" تبعاً لما تذكره الآياتان الخامسة والعشرون والسادسة والعشرون من المقطع التاسع والعشرين من سفر التكوين.³ عندها وافقَ يعقوف على العمل سبع سنواتٍ أُخرى من أجل الزواج براحيل. وزفافه الثاني كان بالكاد بعد أسبوعٍ من زواجه الأول، وهُنَا نُخبرنا الآية الثلاثون والحادية والثلاثون من نفس المقطع والسفر بالتالي:

"ودخل (يعقوف) إلى راحيل، وأحبها أكثر من ليئاه... فعلم الله أن ليئاه مَكروهة (سنوءاه)، فرزقها ولدًا، وراحيل عاقِرٌ".

بالتالي رَزَقَ الله ليئاه بمولود أطلقت عليه اسم رؤوفن/روبِن، لكن الألم ظل يعتصر قلبها لأن يعقوف لم يكن يُحبها بقدر ما كان يُحبّ زوجته الأخرى راحيل. فنقرأ في الآية الثالثة والثلاثين من نفس المقطع ونفس السّفر ما يلي:

"وحملت أيضاً، وولدت ابناً. قالت إن الله سمع أيّ مَكروهة (سنوءاه) فرزقني هذا الطفل أيضاً، فأسمتهُ شِمعون/سمعان".

ومن الملاحظ أن كلمة "سنوءاه" (بمعنى مَكروهة) تظهرُ ستّ مراتٍ في التوراة: مرتين في الجزئية التي تطرقت للحديث عن ليئاه، وأربع مراتٍ في هذا النصّ الأسبوعي من نصوص التوراة في مستهل الحديث عن قانون حقوق الابن البكر. وهنالك رابطٌ أقوى يربطها بموضعين من آيات التوراة عندما تذكر رؤوفن الابن البكر ليعقوف الذي أنجبه من زوجته ليئاه، أولهما الآية السابعة عشر من المقطع الواحد والعشرين من سفر التثنية "إذ هو أولُ نيله، له حُكم البكورية". أما الموضع الثاني فهو ما تُخبرنا به الآية الثالثة من المقطع التاسع والأربعين من سفر التكوين: "يا رؤوفن أنت بَكري، وقوّتي وأول نيلي، مُفضَّلٌ في الشرف ومُفضَّلٌ في العزّ".

ونظراً لهذا الاستخدام السّياقيّ واللغوي المتشابه في هذين الموضعين فإن من يقرأ القانون الموجود في هذا النصّ الأسبوعي بانتباهٍ سيجد أن هذا التشريع هو تفسير يتعلق بقصة يعقوف في

3. هذه نتيجة لقيام يعقوف بشراء حق البكورة من أخيه عيسف.

طريقة تصرفه مع أبنائه لأن تصرفه معهم يخالف تماماً ما نصّ عليه القانون المذكور في الآية الأولى. فقد قام بتغيير حق البكورة ومنحه لابنه يوسف (ابن زوجته المحببة راحيل) بدلاً من أن يمنحه لابنه رؤوفن (ابن زوجته ليثاء) الذي يُعتبر ابنه البكر في الحقيقة. وهذا ما قاله لابنه يوسف بحسب ما تذكر الآية الخامسة من المقطع الثامن والأربعين من سفر التكوين:

والآن ابنك المولودان لك في بلد مصر، إلى أن آتي إليك إلى مصر هما يُنسبان إليّ، أفرام ومنشيه، مثل رؤوفن وشمعون."

لقد كان من المفروض أن يكون لرؤوفن حصتان من ميراث أبيه، لكن عوضاً عن هذا ذهبت الحصتان إلى الابن الآخر يوسف. كما نجد أن يعقوف قد اعترف بحقوق ابني يوسف الاثنتين من الميراث وبأنهما يستحقان ميراثهما كاملاً، بالتالي أصبح لكل من أفرام ومنشيه قبيلة بحد ذاتها. بصريح العبارة، يبدو أننا نشهد تناقضاً كبيراً بين ما يذكره سفر التكوين وما يذكره سفر التثنية، والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: كيف بإمكاننا حلّ هذه المُعضلة وتفسير هذا التناقض؟

في الحقيقة، قد يكون المبدأ الحاخامي الذي يقول بأن الآباء الأوائل لليهودية قد عاشوا في ظلال التوراة وطبقوا تشريعاتها قبل أن تُمنح لنبي إسرائيل هو مجرد مبدأ تقريبي وليس بتلك الدرجة من الدقة. بمعنى أن القوانين والتشريعات قبل العهد مع الله عزّ وجلّ فوق قمة جبل سيناء ليست جميعها ذات القوانين والتشريعات التي سبقت ذلك. وفي هذا السياق يذكر لنا الحاخام موشيه/موسى بن نَحمان بأن قصة يهوده وتَمار المتعلقة بزواج الأخ من أرملة أخيه المَتَوَفَّى* فإنها مذكورة بطريقة تختلف قليلاً في سفر التثنية.⁴

وبجميع الأحوال فإن هذا ليس هو التناقض الوحيد الذي نجده بين ما ذُكر في سفر التكوين والقوانين والتشريعات اللاحقة، وأحد أبرزها هو أن يعقوف قد تزوّج بشقيقتين، وهو أمرٌ مُحَرَّمٌ تماماً بحسب ما يذكر سفر اللاويين في الآية الثامنة عشرة من المقطع الثامن عشر. وهنا يبرزُ الحَلُّ لهذه المُعضلة من وجهة نظر الحاخام موشيه بن نَحمان، وهو حلٌّ مذهل ينسجم مع رؤيته المتميزة للعلاقة بين التشريعات اليهودية وأرض إسرائيل، إذ يرى بأن الآباء الأوائل لليهودية طبّقوا قوانين التوراة فقط عندما كانوا موجودين فوق أرض إسرائيل نفسها⁵، فيعقوف تزوّج من ليثاء وشقيقتها راحيل خارج أرض إسرائيل، تحديداً في بيت لَفان في منطقة حران (التي يُعتقد بأنها موجودة في تركيا في يومنا هذا).

وفي السياق ذاته يوضّح الحاخام يتسحق بن يهوده أربنبئيل تفسيراً مُختلفاً تماماً لهذه المُعضلة، مُبيناً بأن يعقوف قد انتزَع حق البكورة من ابنه رؤوفن لصالح ابنه الآخر يوسف لأن الله عزّ

4. المصدر: الحاخام موشيه بن نَحمان في مستهل تفسيره للآية الثامنة من المقطع الثامن والثلاثين من سفر التكوين.

*ملاحظة توضيحية من المترجم: بالإمكان الرجوع إلى نفس المصدر لفهم التشريع اليهودي "ييوم" والذي يتعلق بزواج الأخ من أرملة أخيه

المتوفى الذي لم يكن له أبناء ذكور. حيث يجب على الأخ أن يتزوج بأرملة أخيه وأن يُسمّى المولود الأول الذكر لهما باسم الشقيق المتوفى لكي لا ينقطع اسمه من الدنيا عقب وفاته.
5. المصدر: الحاخام موشيه بن نَحمان في مستهل تفسيره للآية الخامسة من المقطع السادس والعشرين من سفر التكوين.

وجلّ هو الذي طلب منه القيام بذلك. بالتالي فإن التشريع الذي وردَ في سفر التثنية مذكورٌ ليوضح بأن ما حدث مع يوسف كان الاستثناء، وليس الأصل. وهذا ما يوضحه تفسير الحاخام عُقّاديا سفورنو الذي يُبين بأن ما حرّمهُ سفر التثنية ينطبقُ في حالة أن الأب قام بانتزاع حقّ البكورة من ابنه البكر ومنحه لابنه الآخر فقط بسبب تفضيل الأب لزوجة على الأخرى، بالتالي فإن هذا التحريم لا ينطبقُ على نقل البكورة من الابن البكر الذي يرتكب معصية تؤدي إلى إبطال حَقّه الشرعي في الحصول على حقوق البكورة. وهذا ما قصده يعقوف حين قال وهو على فراش الموت مُخاطباً ابنه رؤوفن: "والآن بنهله من ماءٍ لا تُفَضَّلُ، إذ صعدت لمضجع أبيك، حينئذٍ مما بذلت فراشي، تخلصُ" بحسب ما تذكر الآية الرابعة من المقطع التاسع والأربعين من سفر التكوين. وهذا ما ذُكر بمنتهى الوضوح في سفر أخبار الأيام الأولى في الآية الأولى من المقطع الخامس: "ورؤوفن.. هو بكر إسرائيل (يعقوف)، ولأجل تدنيسه فراش أبيه أُعطيَت بكوريته لبني يوسف بن إسرائيل".

في الوقت نفسه هنالك تفسيرٌ من نوع آخر ويختلفُ كلياً عن التفسيرات السابقة. فما يجعلُ التوراة بهذا القدر من النُدرة والتميّز هو أنها كتاب تشريع (وهذا هو المعنى الأساسي لكلمة تورا) وكتاب تاريخ في الوقت نفسه. وفي كتب أخرى نجد هذين الموضوعين بعيدين تماماً عن بعضهما. لكن يوجدُ في التوراة تشريعٌ يُجيبُ على السؤال الآتي: "ما هو المسموح لنا فعله وما هو المحظور علينا فعله؟". وهنالك تاريخٌ يُجيبُ على هذا السؤال: "ما الذي حدث؟". وقد يبدو بأنه لا توجد أي علاقة واضحة بين الموضوعين على الإطلاق، لكن هذا لا ينطبق على اليهودية، ففي العديد من الحالات، خاصة في قوانين مشپات (القوانين المدنية)، فإننا نجدُ علاقة بين التشريع والتاريخ، أي بين ما حدث من جهة، والمسموح والمحظور من جهة أخرى.⁶ فعلى سبيل المثال نجدُ أن قدراً كبيراً من التشريعات التوراتية قد ظهرت كنتيجة مباشرة لتجربة العبودية في أرض مصر، وكان هذه التشريعات تقول لنا: هكذا عانى أجدادنا في أرض مصر، لهذا لا تفعلوا الأمر ذاته، فلا تظلموا العاِمل ولا تتركوا يهودياً عبداً طيلة حياته، ولا تتركوا موظفيكم وخدمكم دون يوم عطلة أسبوعية ليرتاحوا فيه، بالإضافة إلى غيرها من التشريعات.

في الوقت نفسه، لا يُمكننا تعميمُ هذا الأمر على جميع تشريعات التوراة، لكن بإمكاننا القول بأن هذه التشريعات تُمثّل واقِعاً يتمخّضُ عن التجربة، وعدلاً يتجسّدُ من عبّر ودروس التاريخ. لهذا تتخذُ التوراة من الماضي مَرشداً للمستقبل، هذه التجارب السابقة التي هي إيجابية في العادة لكنها لا تخلو من السلبيات أيضاً. وفي هذا السياق يوضح لنا سفر التكوين – من بين أمور أخرى – بأن تفضيل يعقوف

6. This is the subject of a famous essay by Robert Cover, "Nomos and Narrative," *Harvard Law Review* 1983–1984, available at http://digitalcommons.law.yale.edu/cgi/viewcontent.cgi?article=3690&context=fss_papers. Cover's view was that "no set of legal institutions or prescriptions exists apart from the narratives that locate it and give it meaning. For every constitution there is an epic, for each decalogue a scripture."

تشكل هذه النقطة موضوع مقالة مهمة للأستاذ روبرت كوفر "القانون والرواية". كان كوفر يرى بأنه "لا توجد أية مؤسسات قانونية أو تشريعات تتواجد بمنأى عن الروايات التي تمنحها معنى، فلذلك دستور هنالك ملحمة، ولكل مجموعة من الوصايا هنالك نصّ ديني."

لزوجته راحيل على زوجته ليثاء، وتفضيله لابنها البكر يوسف على ابن ليثاء البكر رؤوفن كان نتيجة لحالة من التنافر الشديد والشرخ العميق داخل العائلة الواحدة، هذا التنافر الذي كان على وشك أن يؤدي إلى قتل الإخوة لأخيهم يوسف، بل وقاد إلى قيامهم ببيعه كعبدٍ للإسماعيليين. وهُنَا يوضح الحاخام ابن عزرا بأن هذه الأحقاد بين أبناء العائلة الواحدة قد انتقلت لعدة أجيال من أبناء وأحفاد رؤوفن، كما أنها السبب الذي جعل داتان وأفيرام – اللذان ينحدران من نسل رؤوفن – من الشخصيات البارزة التي شاركت في محاولة التمرد التي قادها قورح.⁷

لقد قام يعقوف بما قام به تعبيراً عن محبته، حين كان مُستغرفاً في محبته لراحيل وابنها البكر يوسف. والمحبة هي عاطفة مركزية في اليهودية: إنها تفوق محبة الزوجة والزوج لبعضهما البعض، ومحبة الأب والابن لبعضهما البعض، لتصل إلى حدود محبة الله عزّ وجلّ ومحبة الجار والغريب أيضاً. لكن المحبة وحدها لا تكفي، فلا بُدّ من وجود العدالة وتطبيق القانون دون الكيل بمكيالين لكي يشعر الناس بأن القانون مُنصفٌ، كما لا يُمكننا بناء المُجتمعات بالمحبة وحدها، لأن المحبة تجمع الناس وتفرّقهم في الآن نفسه، فهي تجعلُ الذين يحظون بمحبة أقل من غيرهم يشعرون وكأنهم مُهمَلون مُتجاهَلون منبوذون، بل وتجعلهم يشعرون بأنهم "مكروهون"، الأمر الذي يترك خلفه حالة من الفِتنة والنزاع والحسد ويخلق دوامة من العُنف والانتقام.

وهذا ما تُخبرنا به التوراة عندما تخلق رابطاً معنوياً بين هذا النصّ الأسبوعي من جهة، وقصة يعقوف وأبنائه المذكورة في سفر التكوين من جهة أخرى. إنها تُعلّمنا بأن القانون ليس أمراً عشوائياً لأنه متجذّر في تجاربنا التاريخية، والقانون بحد ذاته هو شكلٌ من أشكال "تيكون" (أي الإصلاح) لأنه طريقة لتصحيح الأخطاء التي ارتكبت في الماضي. بالتالي يجب علينا أن نتعلم كيف نُحبّ، لكن في الوقت نفسه ينبغي علينا أن نعلم حدود هذه المحبة وأهمية العدل كشكل من أشكال الإنصاف في العائلة والمُجتمع.

7. المصدر: الحاخام ابن عزرا في مستهل تفسيره للآية الأولى من المقطع السادس عشر من سفر العدد 16:1. Ibn Ezra on Numbers 16:1.

كي تَقُوا

هو النصُّ الأسبوعي السابع من كتاب "دفاريم" (أي سفر التثنية). يبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع السادس والعشرين وينتهي بالآية الثامنة من المقطع التاسع والعشرين.

الذَّاكِرَةُ هِيَ الْهُوِيَّةُ

إن أحد الأسباب التي جعلت الدين يظلّ موجوداً وقائماً في العالم الحديث بالرغم من مرور أربعة قرونٍ من العلمانية هو أنه يُجيب على ثلاثة أسئلة يطرحها كل إنسانٍ يتفكّر جيداً في حياته: مَنْ أنا؟ ولماذا أنا موجودٌ هنا؟ وكيف يُمكنني أن أعيش؟

في الوقت نفسه فإن المنظومات الأربعة المتمثلة في العلم والتكنولوجيا واقتصاد السوق والدولة الديمقراطية الليبرالية والتي يقوم عليها العالم الغربي المعاصر عاجزةٌ عن الإجابة عن هذه الأسئلة. فالعلم يُبين لنا الكيفية، لكنه لا يُبين لنا لماذا. والتكنولوجيا تمنحنا القوة، لكنها لا تُبين لنا كيف نستخدمها. والسوق يمنحنا خيارات عديدة، لكنه لا يُبين لنا ماذا نختار. أما الدولة الديمقراطية الليبرالية فإنها تلتزم بمبدأ الامتناع عن تزكية أي أسلوب حياةٍ على غيره. والمُحصلة النهائية هي أن الثقافة المعاصرة أضحت تضع أمامنا عدداً لا يُحصى من الاحتمالات والخيارات، دون أن تُبين لنا من نحنُ ولماذا نحنُ موجودون هنا وكيف يجب علينا أن نعيش.

إنها أسئلة جوهرية في الحياة، لهذا كان أول سؤال طرحه نبي الله ورسوله موشيه/موسى عندما قابلَ الله عزَّ وجلَّ في معجزة العليقة المُشتملة هو: "مَنْ أنا؟". والسياق الظاهر لهذه الآية يوحى بأنه سؤالٌ بلاغيٌّ يتضمن هذا المعنى: من أنا لأقوم بهذه المهمة الاستثنائية وأقود الشعبَ إلى الحرية؟ لكن في باطن ذلك نجدُ سؤالاً حقيقياً يتعلق بالهوية، فموشيه نشأ وترعرع على يد الأميرة المصرية ابنة فرعون. وعندما قام موشيه بإنقاذ بنات يثرو/رعوثيل (يثرون) من رُعاة مَدِين، عادت البناتُ إلى أبيهنَّ وأخبرنه بأنَّ "رجلاً مصرياً أنقذنا"، بالتالي كان موشيه يبدو ويتحدَّث كرجلٍ مصريٍّ.

ولاحقاً تزوّج موشيه من زوجته تسيبورا/صفورة إحدى بنات يثرو، فأمضى عقوداً وهو يرعى الغنم كراعٍ مَدِينِيٍّ. والتسلسل الزمني ليس واضحاً تماماً، لكنه يُبين لنا إلى حدٍ ما بأنه كان شاباً يافعاً عندما ذهبَ إلى أرض مَدِين، وبأن عمره كان ثمانين عاماً عندما بدأ بقيادة بني إسرائيل، وبأنه أمضى غالبية سنوات بلوغه برفقة حَمَاه المَدِينِي وهو يَعْتَنِي بغيره. بالتالي عندما سألَ الله عزَّ وجلَّ قائلاً: "مَنْ أنا؟" (تبعاً للآية الحادية عشرة من المقطع الثالث من سفر الخروج) فإن في باطنِ هذا السؤال كان يوجدُ سؤال آخر: هل أنا مصري؟ أم مَدِينِي؟ أم يهودي؟

لقد كان موشيه مصري التربية، وبالنسبة لخبرته وتجربته في الحياة فقد كانت مَدِينَتِهِ، لكن القرار الحاسم بخصوص هويته كان يتعلّق بأصله وهوية آبائه وأجداده، فهو ينحدر من نسل أفرهام/إبراهيم، وهو ابن عمّام/عمران ويوخيفيد/يوكابد. وعندما وجّه السؤال الثاني لله عز وجل "مَنْ أَنْتَ؟" أجابه الله قائلاً: "أَكُونُ مَا أَكُونُ" (تبعاً لما تذكره الآية الرابعة عشرة من نفس المقطع ونفس السفر). ثم أسهب بإجابة ثانية تذكرها الآية الخامسة عشرة والتي جاء فيها:

"كذا قُلْ لبني إسرائيل، اللهُ إله آبائكم، إله أفرهام، إله يتسحق وإله يعقوف بعثني إليكم، هذا اسمي إلى الدهر، وهوذا ذكري لأجيال وأجيال".

وفي هذا الموضوع أيضاً يوجد أمران أحدهما ظاهرٌ والآخر مُبْطَنٌ، فالمعنى الظاهر للآيات يوحي بأن الله عزّ وجلّ يُخبر موشيه بما عليه أن يقول لبني إسرائيل عندما يتساءلون قائلين: "من بَعَثَكَ إلينا؟"، لكن المعنى المُبْطَن في هذا المستوى التوراتي يُخبرنا بطبيعة وماهيّة الهويّة. فالإجابة عن سؤال "مَنْ أَنَا؟" لا تتعلّق بمسقط الرأس ولا بالمكان الذي أمضينا فيه طفولتنا ولا بالدولة التي نُعتبر مواطنين فيها. كما أن الإجابة على هذا السؤال لا تستند إلى عملنا ومهنتنا ولا حتى إلى اهتماماتنا وميولنا، فهذه الأمور جميعها تتعلّق بـ "أين أنا" و "ما أنا" لكنها لا تتعلّق بـ "مَنْ أَنَا".

ومن هذا المُنتلق فإن إجابة الله عزّ وجلّ - إلهك وإله آبائك وأجدادك - تُبيّن طرحاً جوهرياً للغاية، فأولاً وقبل كل شيء آخر نجد أن الهوية تنتقل بالوراثة، أي من خلال الأصل والآباء والأجداد. إنها مسألة تتعلّق بهوية الوالدين وآباء الوالدين وبقية الأسلاف. في المقابل، فإن هذا الطرح لا ينطبق على جميع الحالات، فهناك أبناء بالتبني وهناك أبناءً ينفصلون كلياً وبمحض إرادتهم عن والديهم، لكن يُمكننا القول بأن الهوية تكمن في الحكاية المُسترة للآباء والأجداد بالنسبة لغالبية البشر. وإذا أخذنا بعين الاعتبار حالة التنقل عبر مُختلف الحُقب والأزمان التي عاشها اليهود، فإننا سنجد أن حكايتهم كانت دوماً حكاية ترحال وجُراة وثباتٍ دائمٍ ومعاناة وفرارٍ من المعاناة.

أما المسألة الثانية فهي تكمن في أن الأصل نفسه يُخبرنا عن حكاية معينة. إذ أن الله عز وجل بعد أن طلب من موشيه أن يقول لبني إسرائيل بأنّه (أي الله) هو إله أفرهام ويتسحق ويعقوف، نجده يُتابع كلامه لموشيه قائلاً:

"امضِ واجمع شيوخ بني إسرائيل، وقُلْ لهم، اللهُ إله آبائكم تجلّى لي، إله أفرهام ويتسحق ويعقوف قائلاً: قد ذكرتكم وما صنّع بكم في مصر. فقلتُ أُصعدُكم من عذاب المصريين إلى موضع الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين والحويين واليبوسيين، إلى بلدٍ يفيضُ لبناً وعسلاً" (بحسب ما تذكره الآيات 16-17 من نفس المقطع ونفس السفر).

بالتالي لم يكن الأمر يقتصر على أن الله عز وجل هو إله آبائهم وأجدادهم، بل هو الإله الذي وعدهم بوعده مُحدد: بأن يُخرجهم من العبودية إلى الحرية، من الشّتات إلى أرض الميعاد. لهذا كان بنو إسرائيل جزءاً من حكاية متواصلة ومستمرة عبر الزمن، لقد كانوا جزءاً من حكاية لم تنتهِ بعد، والله عز وجل على وشك كتابة الفصل القادم من فصولها.

أضِف إلى هذا كله أن الله عندما أخبر موسىه بأنه إله آباء بني إسرائيل، فقد أضاف "هذا اسمي إلى الدهر، وهوذا ذكري (زخري) لأجيال وأجيال". بالتالي وَصَّحَ اللهُ لموسيه بأنه يتخطى حدود الزمن (هذا اسمي إلى الدهر)، لكن عندما يتعلق الأمر بالإدراك البشري فإن الله عز وجل يتواجد في خِصْمِ الزمان (الأجيال وأجيال)، وأسلوب الله للقيام بهذا يتمثل في الحفاظ على الذاكرة وتَمْريرها من جيل لآخر (وهوذا ذكري). لهذا فإن الهوية ليست مسألة تتعلق بمن يكون الوالدان، بل تتعلق بما يتذكرانه وبالذاكرة التي مَرَّرها إلي. وإنَّ الهوية الفردية تتشكَّلُ عبر الذاكرة الفردية، لكن الهوية الجماعية تتشكَّلُ عبر الذاكرة الجماعية.¹

لقد كان هذا تمهيداً للحديث عن تشريع ديني بارز تنصَّ عليه آياتُ هذا النصِّ الأسبوعي من نصوص التوراة والذي يحمل عنوان "كي تَقُوا". إنه تشريعٌ ينصُّ على ضرورة أن تُقدِّمَ بواكير الثمار كقربانٍ إلى "المقام الذي يختاره الله"، وهو أورشليم القدس. حيثُ كانت تُقدِّمُ إلى كبير الكهنة، ثم يقومُ بجلبها وهو يتلو ما وردَ في الآيات 5-10 في المقطع السادس والعشرين من سفر التثنية:

"كان أبي آرامياً رَحَّالاً، فنزلَ إلى مصر، وسكنَ هناك برهطٍ قليلٍ، وصارَ هناك أمةً كبيرةً عظيمةً كثيرةً. فأساءَ لنا المصريون وعدَّبونا، وجعلوا علينا خِدمةً صعبةً. فصرخنا إلى الله إله آبائنا، وسمعَ صوتنا، ونظرَ لضعفنا وشقائنا وضغظنا. وأخرجنا الله من مصر بيدٍ شديدةٍ وذراعٍ ممدودةٍ وتخوِّفٍ عظيمٍ وآياتٍ وبراهين. فجاء بنا إلى هذا الموضع وأعطانا هذا البلد، بلداً يفيضُ اللبنُ والعسل. والآن هوذا جئتُ بوائِلِ ثمرِ الأرض التي رزقتني إياها يا ربُّ. ثمَّ ضَعُهُ بين يدي الله رَبِّكَ، واسجد بين يدي الله رَبِّكَ".

لقد تعرَّفنا على هذا الدعاء لأنه - على الأقل منذ زمن الهيكل الثاني - كان موجوداً في صميم قصَّة الهجْداه التي تُتلى حول مائدة الطعام أثناء السيدر (السيدر هي سلسلة الطقوس والأدعية والصلوات التي تُتلى ليلة عيد الفصح اليهودي أثناء تناول وجبة الطعام الخاصة بهذه المناسبة). فلنلاحظ هنا بأنها كانت تُتلى أصلاً على بواكير الثمار التي لا تكون عادة في عيد الپيسح (عيد الفصح) بل كانت في العادة تُتلى في عيد الشفوعوت (عيد الأسابيع) الذي يتزامن مع موسم حصاد وقطف الثمار.

وما كانَ مُمَيِّزاً حَقاً في هذا التشريع هو الفكرة التالية: من البديهي أن نتحدث عن الله عزَّ وجلَّ كإلهٍ للطبيعة حينما نحتفل بالأرض وما تُنتجُه من ثمار، لكن هذا النصُّ لا يتعلَّقُ أبداً بالطبيعة، إنه يتعلَّقُ بالتاريخ. إنه يتطرَّقُ لرجلٍ من سَلَفٍ بعيدٍ (آرامياً رَحَّالاً)، بالتالي فإن الحكاية تتحدث عن أسلافنا وآبائنا وأجدادنا. إنها حكاية تُفسِّرُ لنا لماذا نحنُ موجودون هنا، ولماذا القوم الذين أنتمي إليهم بهذه الماهية ولماذا هم موجودون في هذا المكان بالذات. في الحقيقة لم يكن هناك أمرٌ مماثل لهذا في العالم القديم، ولا في عالمنا الحالي. وفي هذا السياق يوضِّحُ المؤرخ يوسف حايم يروشلمي في كتابه

1. The classic works on group memory and identity are Maurice Halbwachs, *On Collective Memory* (Chicago: University of Chicago Press, 1992), and Jacques le Goff, *History and Memory* (New York: Columbia University Press, 1992).

الكلاسيكي القديم "زُخور"² (بمعنى تذكّر) بأن اليهود كانوا أول قومٍ رأوا الله عزّ وجلّ عبر التاريخ، وأول قومٍ استطاعوا رؤية معنى مُطلقٍ عبر التاريخ، وأول من جعلوا من الذّاكرة فريضةً دينيةً.

ولهذا نجد أن الهوية اليهودية أثبتت أنها واحدة من أعند وأصلب الهويات التي عرفتها البشرية: فهي الهوية الوحيدة التي ظلّت مُستمرة دون انقطاع بالرغم من أن حاملها كانوا أقلية مُفترقةً في شتى بقاع العالم لحوالي ألفي سنة. إنها الهوية التي قادت اليهودَ بنهاية المطاف للعودة إلى وطنهم وبناء دولة إسرائيل، وإحياء اللغة العبرية لغة كتابهم المُقدس (التناخ) مُجدداً بعد فجوة استمرت لقرونٍ لم تكن تُستخدم فيها هذه اللغة سوى في الصلوات والشعر. وإن ذاكرتنا هي هويتنا، وتشريع بواكير الثمار هو بمثابة تأكيد على أن اليهود لن ينسوا هويتهم أبداً.

وخلال السنوات القليلة المُنصرمة انتشرت في الولايات المتحدة الأمريكية موجةٌ من الكتب التي تتساءل عما إذا كانت القصة الأمريكية تُروى وتُدرسُ للأجيال الناشئة، وعما إذا ظلّت هذه الحكاية تُشكّل إطاراً شاملاً لجميع مواطنيها، بحيث تُذكر الأجيال اللاحقة بالحروب التي خاضتها الولايات المتحدة حتى تكون "ولادة جديدة للحرية" على حد تعبير الرئيس الأمريكي أبراهام لنكولن، وهل لا زالت الحريات بحاجة للمزيد من الجهود للحفاظ عليها.³

وإن القارئ لتلك الكتب بإمكانه أن يلاحظ بوضوح حجم المأساة التي يستشعرها مؤلفو هذه الكتب، والذين أكدوا على الفكرة ذاتها تقريباً بالرغم من أنهم قادمون من خلفيات مُتعددة من مُختلف الأطياف السياسية: إن نسيّت حكايتك فستفقد هويتك. بالتالي يوجد شيءٌ مُشابه لمرض الخرف (الزهايمر) على المستوى القومي، وهويتنا تعتمدُ على ما نتذكره، وفي حالة الغرب المُعاصر فإن الفشل في خلق ذاكرة جماعية يُشكل تهديداً خطيراً على مستقبل الحريات هناك.

لقد روى اليهودُ حكاية هويتهم بمُنتهى الإخلاصٍ لمدة أطول من أي شعبٍ آخر روى حكايته على وجه الأرض، وهذا ما يجعلُ الهوية اليهودية ثريّةً بمحتواها وصلبة بطبيعتها. وفي هذا الزمن الذي تطورت فيه ذاكرة الحواسيب والهواتف الذكية بهذه السرعة من الكيلوبايت إلى الميغابايت والجيجا بايت، وأصبحت فيه الذاكرة البشرية قصيرة جداً، فإن هنالك رسالة يهودية هامة: لا يمكننا أن نُفوّض مهمة ذاكرتنا إلى الآلات، بل يجبُ علينا أن نُحدّث ذاكرتنا باستمرار حتى نُعلّمها ونُمرّرها إلى الجيل القادم. وفي هذا السياق يقول ونستون تشرشل: "كلما ازدادَ بُعدُ نظرك في رؤية الماضي، كلما ازدادَ بُعدُ نظرك في رؤية القادِم"⁴. أو بعبارةٍ أخرى مختلفة قليلاً: من يُحدّثون أبناءهم عن حكاية الماضي، هم الذين يبدؤون فعلاً في بناء المُستقبل لأبنائهم.

2. Yosef Hayim Yerushalmi, *Zakhor: Jewish History and Jewish Memory* (Seattle: University of Washington Press, 1982). See also Lionel Kochan, *The Jew and His History* (London: Macmillan, 1977).

3. Among the most important of these are Charles Murray, *Coming Apart* (New York: Crown, 2013); Robert Putnam, *Our Kids* (New York: Simon and Schuster, 2015); Os Guinness, *A Free People's Suicide* (Downer's Grove, Illinois: IVP, 2012); Eric Metaxas, *If You Can Keep It* (New York: Viking, 2016); and Yuval Levin, *The Fractured Republic* (New York: Basic Books, 2016).

4. Chris Wrigley, *Winston Churchill: A Biographical Companion* (Santa Barbara, Calif.: ABC-Clio, LLC, 2002), xxiv.

نِتساقِيم

هو النصُّ الأسبوعي الثامن من كِتَاب "دِفارِيم" (أي سِفر التثنية) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية التاسعة من المَقطع التاسع والعشرين وينتهي بالآية العشرين من المَقطع الثلاثين.

لِبِسْتِ فِي السَّماوات

هنالك قِصة كانت رائجة جداً عندما كنتُ طالباً في الجامعة في فترة الستينيات من القرن الماضي وتحدّث عن امرأة يهودية أمريكية ستينية سافرت إلى شمال الهند لتقابل أحد الجُور المشهورين (بمعنى المُعلم أو المرشد الروحي). فكانت حشودٌ غفيرة تتجمع أمام المكان الذي يتواجد به من أجل رؤيته، لكن المرأة شكّت طريقها من بين الحشود بحجة أنها تريد رؤيته بخصوص أمر في غاية الضرورة. وبنهاية المطاف دخلت إلى خيمته ووقفت في حضرته شخصياً، ثم قالت له هذه العبارة التي دخلت عالم الأساطير من أوسع أبوابه: "يا مارفن! اسمع كلام والدتك وتوقّف عما تقوم به! عليك أن تعود إلى البيت حالاً!".

لقد بدأ اليهود مطلع ستينيات القرن الماضي بتبني العديد من المعتقدات والثقافات الأخرى كمصادر للإلهام الروحي، لكنهم استثنوا عقيدتهم وثقافتهم اليهودية من هذا الإلهام، على الرغم من أن اليهودية تاريخياً امتلكت وأنجبت متصوّفين ومُتأمّلين وشعراء وفلاسفة وشخصيات دينية وأنبياء والكثير من أصحاب الرؤية المُستقبلية. ولطالما كانت تبدو الأمور وكأنها تتسم بهذه العلاقة الطردية: كلما ازدادت المسافة التي تفصلنا عن الدين اليهودي وازداد بُعدنا عنه، كلما ازداد الشوق والحنين إلى التنوير الروحاني، لكننا مع الأسف الشديد نُفضّل روحانية الغريب على القريب.

ولطالما كنتُ أعتقد بأن هذه الحالة تقتصر على زمننا نحن فقط، لكن نبيّ الله ورسوله موسى/موشيه توقع احتمالية أن تسود حالة كهذه* مُستقبلاً، مُلمّحاً بأن اليهود في المستقبل سيقولون بأنهم بحاجة للصعود إلى السماء أو لعبور البحر من أجل إيجاد الروحانية، وبأنها موجودة في كل مكانٍ آخر سوى هذه البُقعة من الأرض.

والحالة نفسها كانت موجودة فوق أرض إسرائيل خلال عهد الهيكل اليهودي (بيت هامقداش/بيت المقدس) الأول والثاني، ففي بداية الأمر جاءت حُقبة صار اليهود فيها في حالة انجذاب والحالة

* ملاحظة توضيحية من المُترجم: تبعاً لما تضمنته الآيات 11-14 من المَقطع الثلاثين من سِفر التثنية: "واعلم أن هذه الوصايا التي أمرتُ بها اليوم لبست بخفية عنك ولا بعيدة. لبست في السماء، فيقول قائلًا: من ذا يصعد لنا إلى السماء ويُزّلها لنا، ويسمّعنا إياها ونعمل بها. وليست هي في جانب البحر فيأخذها لنا ويسمّعنا إياها ونعمل بها، بل الأمر قريب إليك جداً، يُمكنك بفيك وبقلبك أن تعمل بها". وهذه الآيات مأخوذة من تفسير الحاخام سعاديا جاؤون للتوراة.

نفسها كانت موجودة فوق أرض إسرائيل خلال عهد الهيكل اليهودي (بيت هامقداش/بيت المقدس) الأول والثاني، ففي بداية الأمر جاءت حُقبة صار اليهود فيها في حالة انجذاب إلى آلهة الأقوام المحيطين بهم، مثل بعل إله الكنعانيين وكموش إله المُؤابيين ومردوخ وعشتار من آلهة البابليين، ولاحقاً خلال زمن الهيكل اليهودي الثاني كان اليهود مُنجذبين للهلنستية. وقد كانت هذه ظاهرة غريبة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، وكان أفضل من عبّر عنها هو الكوميدي غروتشو ماركس حين قال: "أنا أرفضُ الاشتراك في نادٍ يقبل اشتراكي فيه"¹. بالتالي كان لدى اليهود نزعةً وتوجّهً للوقوع في حُبّ أناسٍ لا يُحبونهم، والمضي قدماً في أي مسارٍ روحاني آخر طالما أنه ليس مسارهم، مسار اليهودية.

وعندما يترك أصحابُ العقول العظيمة الديانة اليهودية فإن اليهودية تخسر تلك العقول، كما أن الروحانية اليهودية تُعاني عندما يذهب اليهودُ الباحثون عن الروحانية إلى أماكن أخرى، وهذا الأمر يبدو وكأنه يحدثُ بطريقةً تتناقضُ تماماً مع الطريقة التي تحدّث عنها موشيه عدّة مرات في سفر التثنية: فهُم يبتعدون عن الروحانية وهُم أثرياءٌ لا فقراء، وفي الأوقات التي ينعمون فيها بالحرية لا بالعبودية. بمعنى آخر: عندما نمتلكُ القليلَ فإننا لا نترددُ في شكر الله عزّ وجلّ، لكن عندما نكونُ غارقين في النعم التي ينبغي علينا أن نكون مُمتنين جداً لأننا نحظى بها، يبدو وكأننا ننسى الله، فعلى سبيل المثال لا الحصر، كانت الفتراتُ التي عبدَ فيها اليهودُ الأوثانَ أو الفترات التي اعتنقوا فيها الديانة الهلنستية هي الفترات الزمنية ذاتها التي كانوا يعيشون فيها فوق أرض إسرائيل ويحظون بكامل سيادتهم واستقلالهم، والفترة التي تخلى فيها بعض اليهود عن اليهودية في أوروبا كانت فترة تحررٍ مُبحوا فيها حقوقهم المدنية لأول مرةٍ في فترة أواخر القرن الثامن عشر حتى مطلع القرن العشرين.

وفي أغلبِ هذه الحالات كانت الثقافات المُحيطة باليهود تُكِنُّ مشاعر الكراهية والعداوة لليهودية واليهود على حد سواء، ومع ذلك كان اليهود يميلون لتبني الثقافات التي رفضتهم بدلاً من احتضان ثقافتهم الأمّ التي ورثوها أباً عن جدّ، هذه الثقافة التي منحتهم الفرصة للشعور بالطمأنينة في كنفها أكثر من أي ثقافة أخرى، الأمر الذي كان له عواقبٌ كارثية جداً، فعبادة الإله بعل لم تجعل بني إسرائيل موضع ترحيب من قبل الكنعانيين، واعتناق الديانة الهلنستية لم يجعل الإغريق ولا الرومان يُحبّون اليهود على الإطلاق، كما أن تخلي اليهود عن اليهودية خلال القرن التاسع عشر لم يكن كفيلاً بإنهاء ظاهرة مُعاداة السامية بقدر ما أدى إلى إشعال لهيبها. ومن هذا المنطلق بإمكاننا أن نفهم القوة الكامنة في إصرار موشيه على كوننا لسنا بحاجة لتسلق الجبال أو عبور البحر حتى نجد الروحانية والحقيقة والجمال، مصداقاً لما تذكره الآية الرابعة عشرة من المقطع الثلاثين من سفر التثنية: "الأمرُ قريبٌ إليك جداً، يُمكنك بفيك وبقلبك أن تعمل به".

وفي نهاية المطاف كانت النتيجة أن قام اليهودُ بإثراء ثقافات غيرهم أكثر من إثرائهم لثقافتهم. فعلى سبيل المثال نجد أن جزءاً من السمفونية الثامنة للموسيقار اليهودي المعروف غوستاف ماهرل (مالر) مأخوذةً من قُداسٍ ديني كاثوليكي. والملحن اليهودي إرفينغ برلين ابن حزانٍ يهودي (الحزان هو

1. Telegram to the Friars 'Club of Beverly Hills to which he belonged, as recounted in *Groucho and Me* Chicago: (Bernard Geis Associates, 1959), 321

الشخصُ الذي يُرْتَلُّ الصلوات اليهودية في المناسبات الدينية الرئيسية) كتب الأغنية الشهيرة "I'm Dreaming of a White Christmas" (أحلمُ بيوم ميلادٍ أبيض). والموسيقار اليهودي فليكس مندلسون (حفيد موشيه مندلسون الذي يُعدُّ من أوائل اليهود "المُتَنَوِّرين") قد ألف ترنيمة موسيقية للكنيسة وأعاد إحياء مقطوعة يوهان سبستيان باخ الموسيقية التي تحمل عنوان "St. Passion Matthew" (شَغَفُ القديس ماثيو) بعد أن كانت مهجورة في سراديب النسيان. والفيلسوفة سيمون فايل التي تُعتبرُ واحدة من أبرز المُفكرين المسيحيين في القرن العشرين يَصِفُها الفيلسوف الفرنسي ألبير كامو بأنها "الروحُ العظيمةُ الوحيدة في زمننا" بالرغم من أنها ابنةُ لعائلة يهودية. والحال نفسه بالنسبة للفيلسوفة اليهودية إديت شتاين التي احتفَّت بها الكنيسة الكاثوليكية ووصفتها بالقديسة الشهيدة بالرغم من أنها كانت في عيون النازيين الذين قتلوها في معسكر أوشفيتز مُجرَّد يهودية، والقائمة تطول.

والسؤال الذي يطرح نفسه هُنا: هل كان السبب وراء ذلك هو فشلُ أوروبا في قبول يهودية اليهود والديانة اليهودية؟ أم أن اليهودية هي التي فشلت في مواجهة هذا التحدي؟ في الحقيقة إن هذه الظاهرة مُعقدة جداً لدرجة أنه يصعبُ علينا تفسير الأسباب التي أدَّت إليها بهذه البساطة، لكن أياً كانت الأسباب فقد خسرتنا فنانيين ومفكرين وعقولاً وأرواحاً عظيمة في خضم ذلك.

وخلال مرحلة معينة تغيَّرت هذه الظاهرة في إسرائيل وفي الشتات على حد سواء، فظهرت حالة من الإحياء للموسيقى اليهودية والتصوُّف اليهودي، وخلالها ظهر عدد من كبار الكتاب والمُفكرين اليهود، لكننا لا زلنا في الحالة ذاتها من التقصير بحق الروحانية اليهودية، فأعمق جذور الروحانية تنبثقُ من باطن الذات: من الثقافة والتقاليد والإحساس، إنها تنبثقُ من بُنية وتراكيب ومُفردات اللغة الأم التي تنطق بها الروح: "الأمرُ قريبٌ إليك جداً، يُمكنك بفيك وبقلبك أن تعمل به".

إن جمال الروحانية اليهودية يكمنُ على وجه التحديد في حقيقة أن الله عزَّ وجلَّ - تبعاً للعقيدة اليهودية - موجودٌ بالقرب منا، إذ لسنا بحاجة لتسلُّق قمم الجبال أو الدخول إلى بيت عبادة هندي (أشرم) على سبيل المثال حتى نستشعرَ حُضور الله عزَّ وجلَّ، فالله حاضرٌ حول مائدة الشبات (يوم السبت اليهودي) في عشاء السَّبْت وفي نور شموعه، وفي بساطة القداسة الموجودة في النبيذ المُبارك بالقيديوش (دُعاء دخول يوم السَّبْت)، وفي حُبز الحلا المُخصَّص ليوم السبت اليهودي، وفي أنشودة "إِشْت حَيْل" (أنشودة تُمجِّدُ النساء وتُنشد عادة في يوم السبت اليهودي) والدُعاء الذي نُبارك به أبناءنا في يوم الشبات المُبارك. إن الله حاضرٌ في الطمأنينة التي نشعر بها في يوم السبت عندما نتركُ العالم بأسره ليدير نفسه بنفسه طيلة يومٍ كاملٍ بينما نحنُ منعزلون عنه لنحتفي بالأشياء العظيمة التي لا تأتي من العمل بل من الاستراحة، ولا تأتي من الشراء بل من الاستمتاع بما قُمنَّا بشرائه، ومن الهبات والعطايا التي نَحظى بها لكننا لم نمتلك الوقت لنُقَدِّر وجودها ونشعر بقيمتها في حياتنا كما يجب.

إن اليهودية تُعتبرُ الله عزَّ وجلَّ قريباً جداً، فهو في أناشيد سفر المزامير، وهو يُصنعي لنا خلال نقاشاتنا أثناء دراسة صفحةٍ من صفحات التلمود أو عندما تُقدِّم تفاسيرَ جديدةٍ لِنُصوص دينية قديمة. إنه موجودٌ في بهجة الاحتفاء بالمناسبات والأعياد الدينية، وفي الدموع التي نذرفها حُزناً في ذكرى "تَيْشَع بِآف" (أي ذكرى التاسع من شهر آف تبعاً للتقويم العبري وهو ذكرى خراب الهيكلين الأول والثاني) إنه

موجودٌ في صدى صوتِ النفخِ بالشوفار (البوق المأخوذ من قرن الأيل أو الكبش) في مناسبة رأس السنة اليهودية "روش هَشناه" ومشاعر التوبة في يوم كيبور (عيد الغفران). إنه موجودٌ في نسمات الهواء العليل في أرض إسرائيل وفي حجارة مدينة أورشليم القدس، هذه البُقعة التي تلتقي فيها العِراقة بالحدّاثَة وكأنهما صديقان حميمان يسيران جنباً إلى جنب في المكان ذاته.

إن الله عزّ وجلّ قريبٌ جداً، واليهودية ليست بحاجةٍ إلى كاتدرائيات أو أديرةٍ أو رجال دينٍ ولاهوتٍ أو فلاسفةٍ ميتافيزيقيين ممن يُعقّدون أبسط الأمور. إنها ليست بحاجة هذه الأمور جميعها بالرغم من عمق جمالها وروعيتها. وبالنسبة لنا فإن الله عزّ وجلّ هو إله الجميع وإله كل زمانٍ ومكان، والله يملكُ الوقت لكل فردٍ منا ويلتقي بنا أينما نكون إذا كنا نمتلك النية الصادقة فعلاً لكي نفتح أبواب أرواحنا له.

إنني حاكماً أمضى اثنين وعشرين عاماً من حياته ككبير للحاخامات، لكنني في نهاية المطاف توصلتُ إلى قناعةٍ مفادها بأننا كحاخاماتٍ لم نَقمُ بدورنا المناطِ بنا لنساعد الناس على أن يفتحوا الأبواب والعقول والمشاعر أمام الحضور الإلهي لله خالقنا بكلّ محبة والذي يمتد حضوره إلى ما هو أبعد من هذا الكون، الله الذي عرفه أسلافنا جيداً وأحبهه جداً من أعماق قلوبهم. فقد كنا خائفين من التحديات الفكرية للعالم الذي تتصاعد فيه وتيرة العلمانية، ومن التحديات الاجتماعية التي تواجهنا في هذا العالم الذي ينبغي علينا أن نعيش فيه مُحترِفين بخصوصيتنا الدينية والثقافية كيهود. لقد كنا خائفين من التحديات العاطفية التي تواجهنا حين يكون اليهود واليهودية ودولة إسرائيل موضع انتقاد وشجبٍ واستنكار، بالتالي اختبأنا خلف حاجزٍ مُرتفعٍ ظناً منا أننا في أمانٍ، لكن الحواجز والسواتر مهما بلغ ارتفاعها لن تجعلك تشعر بالأمان، بل هي التي تجعلك تشعر بالنقيض من ذلك: فكلما اختبأت خلفها كلما صيرت خائفاً أكثر وأكثر.² وما يجعلك تشعر بالأمان حقاً هو مواجهة التحديات دون خوفٍ أو وجل، وأن تكون مصدر إلهامٍ للآخرين حتى يقوموا بالأمر نفسه.

وما قصده موشيه عبر كلامه الاستثنائي المذكور في الآيات 12-13 من المقطع الثلاثين من سفر التثنية "ليست في السماء... وليست في جانب البحر" هو الآتي: "كِنْدِرْلخ (كلمة يديشية تعني يا أولاد)، لقد كان آباؤكم وأجدادكم يرتجفون خوفاً عندما سمعوا صوت الله عزّ وجلّ في سيناء، فكان الصوت طاغياً على أسماعهم لدرجة أنهم قالوا: سنموتُ إذا واصلنا سماع هذا الصوت. بالتالي فإن الله عزّ وجلّ وجد طُرُقاً ليكونَ حاضرًا بينكم ويلتقي بكم دون أن يكونَ حضوره طاغياً بشكل يفوق قدرتكم على التحمل، فهو الخالقُ والحاكمُ وصاحبُ السلطة المطلقة ومُسبّبُ الأسباب ومُحرِّكُ النجوم والكواكب. لكنه في الوقت نفسه الأبُ والشريكُ والمحبُّ والصديقُ، وحضوره وسكينته "شخيناها" جاءت من كلمة "شخِن" التي تعني جارك الساكنَ بِقُربِك.

لهذا يجبُ عليكم أن تحمّدوه كل صباح على نعمة وهدية الحياة التي منحكم إياها، وأن تردّدوا دُعاء "شَمع" مرتين كل يوم على هدية المحبة التي تغمر قلوبنا، وأن تضمّموا صوتكم لأصوات الآخرين في الصلوات والأدعية حتى تعبُر روحه من خلالكم مانحةً إياكم القوّة والجُراة على تغيير العالم. وعندما

2. Rashi on Numbers 13:18

لا يَكُونُ بِمَقْدورِكَ رُؤيةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهَذَا بِبِساطَةٍ لَأَنَّكَ تَنْظُرُ فِي الاتِّجاهِ الخاطِئِ، وَعِندَما يَبْدو لَكَ اللهُ غيرَ حاضِرٍ فَهَذَا لَأَنَّكَ تَقِفُ خَلْفَ البابِ، وَاللهُ مَوْجودٌ خَلْفَهُ لَكِنَّكَ لا تَريدُ أَنْ تَفْتَحَهُ.

"لَهَذَا لا تُعَاملِ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلى أَنَّهُ غَريبٌ، فَهُوَ يُحِبُّكَ وَيُؤمِنُ بِكَ وَيَريدُ لَكَ النِجَاحَ وَالتَّوفِيقَ. وَحَتى تَجِدُهُ فَإِنَّهُ لَيسَ مَطْلوباً مَنكَ أَنْ تَصْعَدَ إِلى السَّماءِ وَلا أَنْ تَشُقَّ البَحْرَ، لَأَنَّه حاضِرٌ فِي الصَّوْتِ الَّذِي بِإِمكانِكَ سَماعُهُ وَالإِصْغاءُ إِلَيْهِ فِي سَكِينَةِ رُوحِكَ وَهَدوئِها. إِنَّهُ مَوْجودٌ فِي النُّورِ الَّذِي تَراهُ فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَنْظُرُ فِيها نَظْرَةَ ذَهولٍ، وَفِي اليَدِ الَّتِي تَربُتُ عَلى كَتِفِكَ وَتَمَدُّ لَكَ العَونَ وَأَنْتِ فِي قِمةِ يَأْسِكَ وَإِحباطِكَ. إِنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ حاضِرٌ فِي كُلِّ نَفْسٍ تَتَنَفَّسُهُ مَناحاً إِياكَ الحِياةَ".

فَيَلْحُ

هو النصُّ الأسبوعي التاسع من كتاب "دفاريم" (أي سفر التثنية) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الحادي والثلاثين وينتهي بالآية الثلاثين من نفس المقطع.

لِنُجَدِّدَ زَمَانَنَا

وجاءَ الوقتُ الذي كان نبي الله ورسوله موشيه/موسى على وشك أن يُفارق الحياة. وبعد أن شهَد وفاة شقيقته ميريام/مريم وشقيقه أهارون/هارون كان يدعو الله عزَّ وجلَّ ألا يمد في عُمره إلى الأبد، بل ألا يمد في عمره على الإطلاق، لكنه كان يتضرَّعُ إلى الله قائلاً: "أَسْأَلُكَ أَنْ أَجُورَ وَأَنْظُرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ الْجَيِّدِ الَّذِي فِي جَانِبِ الْأُرْدُنِّ" تبعاً لما تذكره الآية الخامسة والعشرون من المقطع الثالث من سفر التثنية. بعبارة أُخرى، كان موشيه يتضرَّع إلى الله لكي يسمَح له بإكمال رحلته ويشهد الوصول إلى محطتها الأخيرة، لكن الله رفض ذلك قائلاً لموشيه: "حَسْبُكَ! لَا تُرِدُ مَسْأَلَتِي فِي هَذَا الْبَابِ" بحسب ما تخبرنا الآية السادسة والعشرين من نفس المقطع ونفس السِّفر. بالتالي نجد أن الله عزَّ وجلَّ قد استجاب لكل دعاء تضرَّع به موشيه باستثناء دعائه هذا.¹

لكن ماذا فعل موشيه في آخر أيامه في الحياة؟ لقد أوعزَ بالقيام بأمرين اثنين وهما آخرُ وصيتين من مُجمل الوصايا البالغ عددها 613 وصية، الأمر الذي كان له تأثيرٌ واضحٌ على مُستقبل اليهودية واليهود. أما الأمر الأول فيُعَرَفُ بِـ "هَقْهَيْل"، ويُقصد به أن يقومَ الملكُ بجمع الناسِ خلال عيد السوكوت (عيد المظليات أو عيد العُرُش) عَقِبَ السنة السابعة التي لا يجب فيها زراعة الأرض والتي تعرف بِـ "شميطاه". وهذا ما تبيَّنه لنا الآيات 10-13 من المقطع الحادي والثلاثين من سفر التثنية:

"وأمرهم وقال لهم، في كل مدة سبع سنين، في وقت سنة التسييب في حَجِّ الْمَطَالِ. في مَجِيءِ جَمِيعِ آلِ إِسْرَائِيلَ لِلْحَضُورِ بَيْنَ يَدَي رِبِّكُمْ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يَخْتَارُهُ، تُقْرَأُ عَلَيْكُمْ هَذِهِ التَّوْرَةُ، بِحِذَاهِمِ حَيْثُ يَسْمَعُونَهَا. وَذَلِكَ بَأَنَّ تَجَوَّقَ الْقَوْمَ، الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ وَالْأَطْفَالَ وَالْغَرِيبَ الَّذِي فِي مَحَالِّكَ، لِكِي يَسْمَعُوا وَيَتَعَلَّمُوا، وَيَخَافُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَيَحْفَظُوا وَيَعْمَلُوا بِجَمِيعِ كَلَامِ هَذِهِ التَّوْرَةِ. حَتَّى بَنِيهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا، يَسْمَعُونَ وَيَتَعَلَّمُونَ وَيَخَافُونَ اللَّهَ رَبَّكُمْ طَوَّلَ زَمَانِهِمْ، الَّذِي هُمْ أَحْيَاءٌ فِي هَذَا الْبَلَدِ، الَّذِي أَنْتُمْ جَائِزُونَ الْأُرْدُنَّ لِتَدْخُلُوا إِلَيْهِ لِحُوزِهِ".

1. هنالك عبرة هامة من هذا الأمر: إن الدعوات التي ندعوها للآخرين والتي يدعواها الآخرون لنا هي التي يستجيب لها الله عز وجل، وليس بالضرورة أن يستجيب الله دوماً لدعواتنا التي ندعوها لأنفسنا. ولهذا السبب فإننا ندعو الله بأن يشفي المرضى ويواسي ذوي المتوفين فإننا نُضَيِّفُ هذه العبارة على وجه التحديد "من بين الآخرين" إلى الدعاء، والقصدُ بها أن يشمل الدعاء الآخريين من المرضى أو المَلَكُومِينَ. ومثلما وضع الحاخام يهوداه هاليقي في كتابه "الكراري" (أي الخزري) فإن الدعوات الفردية قد تتضاربُ مع بعضها البعض، ولهذا السبب فإننا ندعو بأسلوب جماعي لكي يعتم الخير على الجميع.

ولا يوجد أي مرجع مُحدد لهذا الأمر في الكتب القادمة من أسفار التناخ، لكن يوجد ما يوثق وجود تجمعاتٍ مُشابهة جداً لهذا الأمر: وهي التجمعاتُ من أجل تجديد العهد، حين يقومُ الملكُ أو من ينوب عنه بجمع الناسِ وقراءة أجزاء من التوراة على مسامعهم من أجل تذكيرهم بتاريخهم، داعياً إياهم كشعبٍ واحدٍ إلى تجديد وتأكيد الالتزام ببندود العهد مع الله عزَّ وجلَّ، وهذا فعلاً ما كان نبي الله ورسوله موسى يقوم به خلال الشهر الأخير من حياته. وسفر التثنية كُتِبَ هو بمثابة إعادة تذكير ببندود العهد مع الله بعد مرور جيلٍ واحدٍ وانقضاء أربعين عاماً منذ بداية هذا العهد فوق قمة جبل سيناء. وهنالك مثالٌ آخرٌ موجودٌ في المقطع الرابع والعشرين والأخير من سفر يهوشوع/ يوشع الذي أذى دوره على أكمل وجه كخليفة لموشيه، فعبرَ مع بني إسرائيل من الأردن وقادهم خلال المعارك حتى يستقروا في أرض الميعاد.

وهنالك مثالٌ آخر حدث بعد عدّة قرونٍ، تحديداً في عهد الملك يوشياهو/ يوشيا ملك يهودا، حيث قام جدّه منشييه/ منسى بممارسة أشكال مُختلفة من عبادة الوثنية، حيث حكم المملكة لمدة خمسة وخمسين سنة وكان واحداً من أسوأ الملوك الذين عرفتهم مملكة يهودا، وخلال فترة حُكمه كان يُقتلُ الأطفال لتقديمهم كقرايين للآلهة. وأراد الملك يوشياهو إعادة الشعب إلى إيمانه اليهودي، فأصدر عدداً من الأوامر من أجل تحقيق هذه الغاية من ضمنها تطهير وإصلاح الهيكل (بيت همقداش/ بيت المقدس)، وفي خضم ذلك تم العثور على نسخة من التوراة² كانت مقفولة بإحكام وموضوعة في مكانٍ خفي حتى لا يتم التخلص منها خلال عقودٍ ازدهرت فيها عبادة الوثنية وكانت فيها التوراة على وشك أن تُنسى.

وكان لعثور الملك يوشياهو على هذه النسخة من التوراة تأثيرٌ شديدٌ عليه، فقام بجمع القوم (تنفيذاً لوصية "هَقْهَيْل") في اجتماع يشبه في طبيعته الاجتماعات التي تجري على المستوى القومي بين الحاكم والرعية، وهذا ما توضحه لنا الآيات 1-3 من المقطع الثالث والعشرين من سفر الملوك الثاني:

"وأرسلَ المَلِكُ فجمعوا إليه جميع شيوخ يهودا وأورشليم. ثم صعد المَلِكُ إلى بيت الله وجميع رجال يهودا وجميع سگان أورشليم معه، والكهنةُ والأنبياءُ وجميع الشعب من الصغير إلى الكبير. وقرأ على مسمعهم جميع كلام كتاب العهد الذي وجده في بيت الله. ووقفَ المَلِكُ على المنبر وقطع عهداً أمام الله أن يسلك طريقه ويحفظ وصاياهِ وشهاداته وفرائضه بكل قلبه ووجدانه لإقامة هذا العهد المكتوب في هذا السِّفر. ووقفَ جميعُ القوم عند العهد".

2. هذا ما فهمتهُ الحاخام دافيد قمحي (المعروف اختصاراً بالحاخام راداق) والحاخام ليفي بن جرشون (المعروف اختصاراً بالحاخام رالباچ) لهذا الموقف. لكن الحاخام يتسحق بن يهوداه أترينائيل يجد بأنه من الصعب تصديق عدم وجود أي نسخة أخرى من نسخ التوراة التي كانت محفوظة خلال حُقبة عبادة الأوثان من التاريخ اليهودي، مُبيناً بأن النسخة التي عُثِرَ عليها كانت محفوظة ومُقفلة بإحكام في مكانٍ ما داخل الهيكل لأنها كانت مخطوطة النبي موسى التي كتبها بخط يده.

لكن أشهر مثال على تجمّع الشعب لتجديد عهد "هقهيل" هو ما قام به عزرا ونحميا بعد الموجة الثانية من عودة يهود بابل إلى أرض إسرائيل (بحسب ما يذكر سفر نحميا في المقاطع 8-10)، حيث صعد عزرا على منبر بجانب أحد بوابات الهيكل، وبدأ يقرأ التوراة على مسامح القوم بعد أن وضع رجالاً من سبط اللاويين بين القوم حتى يُفسّروا للناس ما يقوله. وبدأت مراسم هذا الاجتماع في مناسبة روش هاشناه (رأس السنة العبرية) التي يتبعها عيد السكوت (عيد المظليات أو العرش) عندما وقف الناس جميعاً "والتصقوا بأخوتهم وعظمائهم وأقسموا وحلفوا أن يسيروا في شريعة الله التي أُعطيت على يد موسى عبد الله وخدامه، وأن يحفظوا ويعملوا جميع وصايا الله سيّدنا وأحكامه وفرائضه" بحسب ما تذكر الآية التاسعة والعشرون من المقطع العاشر من سفر نحميا.

أما الأمر الثاني والأخير الذي أوعز به موسى فيمكن اختزاله في هذه الكلمات: "والآن فاكتبوا لكم هذه التسبيحة ولقّنها لبني إسرائيل" بحسب ما تذكر الآية التاسعة عشرة من المقطع الحادي والثلاثين من سفر التثنية، والذي فسّر من خلال التفاسير الحاخامية على أنه أمرٌ بكتابة سفر تورا أو المشاركة في كتابته. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: لماذا أوعز موسى بهذين الأمرين؟ ولماذا في هذا التوقيت على وجه التحديد؟

في الحقيقة هنالك أمرٌ جوهري يجري إتمامه هنا، ولنتذكر كيف بدا الله عزّ وجلّ وكأنه في قمة قسوته حين رفض طلب نبيّه ورسوله موسى بأن يعبر نهر الأردن قائلاً: "حسبك! لا تُردّ مسألتي في هذا الباب". فهل هذه هي التوراة وجزاؤها؟ وهل هذه هي الطريقة التي يكافئ بها الله عز وجلّ أعظم نبيّ من أنبيائه؟ بالتأكيد لا.

إن الله عزّ وجلّ بهذين الأمرين الأخيرين يُعلّم موسى - ومن خلاله يُعلّم اليهود عبر مرّ الزمان - معنى الديمومة والخلود على الأرض، لا في السماوات فقط. إننا كائنات فانية لأننا كائنات مادية، ولا يوجد كائنٌ ماديّ عضوي يعيش للأبد، فنحن نكبر ونتقدم في العمر وتبدأ أجسادنا بالضعف والعجز شيئاً فشيئاً ثم نموت. في الوقت نفسه، نحن لسنا مُجرّد كائنات مادية فقط، فنحن كائنات روحانية أيضاً. وما نتعلّمه عبر هذين الأمرين الأخيرين هو كيف نكون جزءاً من روح لم تَمُت على مدار أربعة آلاف عام، ولن تموت طالما يوجد شمسٌ وقمرٌ ونجوم في هذا العالم.³ بالتالي بيّن الله عز وجلّ لموسيه - وعبره يُبيّن لنا - كيف بإمكاننا أن نكون جزءاً من حضارة لا تعجز ولا تهرم أبداً، فهي حضارة تظلّ يافعةً لأنها تُجدّد نفسها مراراً وتكراراً. بعبارة أخرى: يتمحور هذان الأمران حول مسألة التجديد، أولاً على المستوى الفردي وثانياً على المستوى الجماعي.

إن اجتماع تجديد العهد السنويّ كل سبع سنوات "هقهيل" هو بمثابة ضمانة بأن الشعب يُعيد تكريس نفسه للمهمة الموكلة إليه على نحو مُستمر. ولطالما ناقشتُ هذا الأمر موضّحاً بأنه يوجد مكانٌ واحدٌ في هذا العالم لا زالت مراسم تجديد العهد تُمارس فيه حتى يومنا هذا: إنه الولايات المتحدة الأمريكية. في الحقيقة فإن مبدأ العهد لعب دوراً حاسماً في السياسة الأوروبية خلال القرنين السادس

3. انظر سفر يرمياهو/إرميا المقطع الحادي والثلاثين.

عشر والسابع عشر، خاصة في اسكتلندا وهولندا وإنجلترا وجنيف التي تأثرت بالحركة المسيحية الكالفيونية. لكن أطول تأثيرٍ مُستدام لسياسة تجديد العهد كان على أمريكا، حيث نُقلها إلى هناك أوائل من استوطنوها من أتباع الحركة المسيحية التطهيرية (البيوريتانية)، وظلَّت جزءاً من الثقافة السياسية الأمريكية منذ تلك الفترة حتى يومنا هذا. وبإمكاننا القول بأن الخِطابَ الذي ألقاه ولا زال يُلقيه كل رئيسٍ أمريكي عقب انتخابه رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية كل أربع سنوات (هذا التقليد الذي بدأ منذ عام 1789م) هو بمثابة مناسبة يتم فيها تجديدُ العهد ضمناً أو بشكل صريح، وهذا شكلٌ من الأشكال المُعاصرة لـ "هقهيل".

وفي عام 1987م، هذا العام الذي شهد مرور مئتي عامٍ على إقرار الدستور الأمريكي، وصَفَ الرئيس الأمريكي آنذاك رونالد ريغان الدستور الأمريكي بأنه شكلٌ من أشكال "العهدِ الذي لم نعقده مع أنفسنا فقط، بل مع البشرية جمعاء... إنه عقدٌ إنسانيّ، أجل، إنه عقدٌ يتخطى حدود ذلك ليكون عهداً مع الله العظيم الذي لطالما تضرَّع مؤسسو الولايات المتحدة الأوائل إليه طالبين منه يد العون والمساعدة. إنَّ مهمة الولايات المتحدة الأمريكية تتجسّد في تجديد عهدِها مع الإنسانية.. حتى تستكمل العمل الذي بدأ قبل مئتي عام، هذا العمل النبيلُ الذي تمنحه أمريكا تسمية خاصة: انتصار الحرية الإنسانية، انتصار الحرّية الإنسانية تحت ظلّ عرشِ الله".⁴

بالتالي، إن كان "هقهيل" هو بمثابة مناسبة قومية لتجديد العهد، فإن الأمر الموجّه إلينا بالمشاركة في كتابة سفر تورا جديد (الكتابة بمعنى النسخ في هذه الحالة) هو بمثابة دعوة للتجديد على المستوى الشخصي والفردِي. لقد كانت هذه طريقة نبيّ الله ورسوله موشيه ليوصلَ هذه الرسالة لجميع الأجيال القادمة: لا يكفي أن تقولوا بأنكم ورثتم التوراة عن آباءكم وأجدادكم أو أجداد أجدادكم، بل يجبُ عليكم أن تأخذوها وتُجددوها جيلاً بعد جيل.

إن أحد أكثر السّمات المُذهلة في الحياة اليهودية هو أن اليهود – الذين يمتد وجودهم من أرض إسرائيل إلى مدينة بالو ألتو – هم أكثر مُستخدمٍ فعليّ لأنظمة المعلومات في العالم، لهذا ساهموا إلى حد كبير في تطويرها بشكل يفوق جداً حجم استخدامها، الأمرُ الذي نراه جلياً في شركات جوجل وفيسبوك وتطبيق ويز للخرائط والطرق وغيرها من الاستخدامات. لكن وبالرغم من هذا التطور المهور إلى أننا لا زلنا نكتبُ التوراة بنفس الطريقة التي كنا نكتبها بها قبل آلاف السنين: بِحَظِّ اليد وباستخدام الريشة والمَحبرة ولفائف الجلد الرقيق، وهذا أمرٌ لا يُمثل تناقضاً بل يُجسّد حقيقة راسخة، فالشعبُ الذي يمضي قُدماً وهو يحملُ ماضيه معه فإنه سيُقبله دون أي خوف.

إن التجديد هو واحدٌ من أصعب المهام الإنسانية على الإطلاق، وفي هذا السياق أذكر حين جلستُ قبل بضع سنواتٍ مع رجل كان على وشك أن يُصبح رئيس الوزراء البريطاني حينها، وأثناء

4. المصدر: 43-1040, Public Papers of the Presidents of the United States, Ronald Reagan, 1987.

تبادلنا أطراف الحديث قال لي: "ما أصلي من أجله دوماً هو أن أصلَ إلى هُناك - يقصدُ مقر رئاسة الوزراء في شارع دونينغ - دون أن أنسى لماذا أردتُ أن أصلَ إلى ذلك المكان أصلاً". وأشكُّ أن الكلمات الشهيرة لرئيس الوزراء البريطاني بين عامي 1957م حتى عام 1963م هارولد ماكميلان كانت تجول بخاطره حينها، والذي سُئل عن أكبر مخاوفه السياسية فأجاب قائلاً: "المُناسبات، إنها المناسبات يا بُني!".

هنالك الكثير من الأمور التي تحدثُ في الحياة، فتتقادفُنا الرياح العابرة وتجعلنا مُستغرقين في مشاكل ليس لنا يدٌ فيها، وفي خِصم ذلك قد نحرّف عن مسارنا. وعندما تحدثُ معنا مثل هذه الأمور - سواءً كُنّا أفراداً أو جماعات أو منظومات - فإننا نهرمُ وننسى من نحنُ ولماذا نحن موجودون هنا. ثم بنهاية المطاف يحلّ محلّنا أناسٌ آخرون - أو مؤسسات أو حتى ثقافات - أصغرُ منا سنّاً لكنهم يفوقوننا في تعطّشهم ودافعيتهم، والسبيلُ الوحيد حتى نظلّ يافعين متعطشين ونتحلّى بالدافعية هو التجديد على نحوٍ مُنتظم، عبر تذكير أنفسنا من أين جئنا وإلى أين نحن ذاهبون ولماذا نحن ماضون بهذه الوجّهة، بالإضافة إلى توجيه هذه الأسئلة لأنفسنا: ما هي المُثُل والأخلاقيات التي نلتزم بها؟ وما هي الرحلة التي طُلبَ منا أن نستكملها؟ وما هي الحكاية التي نُشكّلُ جزءاً منها؟

كما كان التوقيتُ مناسباً لما أخبرنا الله عز وجل به من خلال ما أخبره لأعظم أنبيائه عن أسرار الخلود والديمومة، وهذا ما زاد من جمال هذا الموضوع، خاصة وأن الله عز وجل أخبره بهذه الأسرار وهو على فراش الموت. إنها أسرار لا تعني الخلود في السماء فقط، بل على الأرض أيضاً. فعندما نواصل تجديد بنود عهدنا مع الله عز وجل ونواصل تجديدها في حياتنا فإننا سنظل على قيد الحياة بداخل أولئك الذين سيأتون بعدنا، سواءً كانوا أبناءنا أو أتباعنا أو من ساعدناهم أو حتى من تأثروا بنا*. بعبارة أخرى: إننا "نجدد أيماننا كالقديم" بحسب ما يذكره لنا سفر مراثي يرمياهو/إرمياء في الآية الحادية والعشرين من المقطع الخامس، وبالرغم من أن رسول الله ونبيه موشيه قد توفّي إلا أن ما علّمنا إياه وما حاول البحث عنه لا زال حياً وحاضراً بداخلنا وسيظلّ حاضراً فينا إلى الأبد.

*ملاحظة توضيحية من المترجم: دراسة التوراة من خلال النصوص الأسبوعية وتعاليمها على يد حاخامات اليهود من أمثال الحاخام جوناثان ساكس هي بمثابة تجديد للتوراة وإبقائها حاضرة في حياتنا طوال الوقت.

هَازِينو

هو النصُّ الأسبوعي العاشر من كتاب "دفاريم" (أي سفر التثنية) ويبدأ هذا النصُّ الأسبوعي بالآية الأولى من المقطع الثاني والثلاثين وينتهي بالآية الثانية والخمسين من المقطع نفسه.

قوسُ الأخلاقيات

بُلْغَةٌ سَاحِرَةٌ مَهِيْبَةٌ يَبْدَأُ نَبِيَّ اللَّهِ وَرَسُولَهُ مُوشِيَه/مُوسَى بِإِنْشَادِ أُنْشُودَةٍ يُكْرَسُ مِنْ خِلَالِهَا وَصِيَّتُهُ الْأَخِيرَةَ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ بِكَامِلٍ مَا أُوتِيَ مِنْ عُنْفُوانٍ وَشُغْفٍ. إِذْ يَبْدَأُهَا بِأَسْلُوبٍ مَثِيرٍ وَهَادِيٍّ بِمُخَاطَبَةِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِتَشْهَدَ عَلَى مَا سَيَقُولُهُ. وَلِسُخْرِيَةِ الْقَدْرِ بَدَأَ وَكَأَنَّهُ يُرَدِّدُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ الَّتِي قَالَتْهَا بُورْشِيَا فِي رِوَايَةِ تَاجِرِ الْبَنْدُوقِيَّةِ: "جَمَالُ الرَّحْمَةِ أَنْ تَكُونَ خِيَارًا لَا اضْطِرَارًا، فَهِيَ كَمَا السَّمَاءُ يَنْهَمُرُ بِالْخَيْرِ"، فَيَقُولُ تَبَعًا لِمَا تَذَكَّرَهُ الْآيَاتَانِ الْأُولَى وَالثَّانِيَّةُ مِنَ الْمَقْطَعِ الثَّانِيِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ سِفْرِ التَّثْنِيَّةِ:

"لِيُنْصِتِ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ حَتَّى أَنْكَلَّمَ
وَيَسْمَعَ أَهْلُ الْأَرْضِ أَقْوَالَ فَمِي
يَدْرُ كَالْمَطَرِ بَيْتِي
وَتَهْطِلُ كَالظَّلِّ مَقَالَتِي
كَالطَّشِّ عَلَى الْكَلَأِ
كَالرِّذَاذِ عَلَى الْأَعْشَابِ"

لكن هذه الكلمات هي مجرد مقدمة للرسالة الهامة التي يُريد أن يوصلها نبي الله ورسوله موشيه: إنها المبدأ المعروف بـ "تسيدوق هدين"، والذي يُقصد به الاعتراف بعدالة الله عزَّ وجلَّ، فَيُعَبِّرُ مُوشِيَه عَنْ هَذِهِ الرَّسَالَةِ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي تَذَكَّرُهَا الْآيَةُ الرَّابِعَةُ مِنْ نَفْسِ الْمَقْطَعِ وَنَفْسِ السَّفْرِ:

"الْخَالِقُ الصَّحِيحُ فِعْلُهُ
الَّذِي كُلُّ سِيرِهِ بِالْحُكْمِ
الطَّائِقُ ذُو الْأَمَانَةِ، لَا جُورَ عِنْدَهُ فَهُوَ الْعَدْلُ الْمُسْتَقِيمُ".

إن هذا المبدأ يُعبّر عن اعتقادٍ موجودٍ في صميم الديانة اليهودية وطريقة فهمها للشرّ والمعاناة في هذا العالم، وهو مبدأ صعبٌ لكنه في غاية الضرورة. فالله عزّ وجلّ عادلٌ، بالتالي لماذا تحدثُ الأمور السيئة في ظلّ عدل الله؟ فلنتأمل فما تقوله الآية الخامسة من نفس المقطع ونفس السّفَر:

"أفسد إمامةً، لا كأوليائه، لكن المّعيبين هم الجيلُ العسيرُ المنقّل" "

إن الله عزّ وجلّ يُقابل الخيرَ بالخير، والشرّ بالشرّ. وعندما تحدثُ معنا أمورٌ سيئة فإن السبب هو أننا قُمنّا بارتكابِ أمور سيئة، بالتالي فإن اللوم لا يقع على حطّنا العاثر بل يقع علينا نحن. وبالانتقال إلى السياق النبوي لهذا الموضوع فإننا نجدُ أن نبي الله ورسوله موشيه يستشرفُ ما تنبأ به أصلاً، وذلك قبل أن يعبر بنو إسرائيل أرض الأردن للدخول إلى أرض الميعاد. فنجدُه يُحذّرهم عبر آيات سفر التثنية من الخطر المُحدق بهم في أرضهم، وبمجرد أن تنتهي المشقة التي عانوا منها في الصحراء وبمجرد أن تُمسحَ ذكري المعارك من ذاكرتهم، فإنهم سيكونون في حالة من الطمأنينة والرضى والراحة، ثم سينسبون إنجازاتهم لأنفسهم وسيبدؤون بالانحراف شيئاً فشيئاً عن إيمانهم. وبمجرد وصولهم إلى هذه المرحلة فإنهم سيجلبون البلاء لأنفسهم، تبعاً لما تخبرنا به الآيات 15-18 من نفس المقطع ونفس السّفَر والتي تقول:

"فلما سَمِنَ يَشُورُونَ كَذَاكَ بَطَرَ

إذ قِيلَ لَهُ قَدْ سَمِنْتَ وَغَلِظْتَ وَجَسَوْتَ

فترك الإله الذي صنعه...

وامتحنَ مُعتمد غوثه

فَقِيلَ لَهُ الْخَالِقُ مُنْشِئَكَ تَنْسَى، وَالطَّائِقُ مُبْتَدِئَكَ"

وهذه هي المرة الأولى التي تُذكرُ فيها كلمة "يشورون" في التوراة، وهي كلمة مشتقة من الجذر "يَشَر" والتي تعني الاستقامة، بالتالي فإن سياق استخدامها للإشارة إلى شعب الله يبدو فيه نوعٌ من التهكم. لقد عرف بنو إسرائيل كيف يعيشون باستقامة، لكنهم سينحرفون عن هذا المسار تحت تأثير مزيج من الثراء والإحساس بالأمن والأمان بالإضافة إلى انصهارهم في أساليب العيش التي يحيى بها جيرانهم من الأقوام الأخرى. بالتالي سينقضون العهد مع الله عزّ وجلّ، وعندما يحدث هذا فإنهم لن يجدوا الله معهم، ليكتشف بنو إسرائيل بعدها بأن التاريخَ كالذئب المُستعر والوحش الضاري، ذلك لأنهم حين يكونون بمعزل عن مصدر قوتهم فإنهم سيصبحون لُقمة سائغة في فم أعدائهم، وجميع الأمور التي كانوا ينعمون بها ستختفي وتذهب أدراج الرياح. إنها بالفعل رسالةٌ شديدةٌ ومُرعبةٌ بكل ما تحملها الكلمة من معنى.

لكن وبالرغم من ذلك فإننا نجدُ موشيه يستحضرُ التوراة لكي يُنهي موضوعاً كان قد بدأ الحديث عنه منذ البداية. فالله عزَّ وجلَّ - خالقُ هذا الكون - قد خلقَ العالم على أساس أن جوهره هو الخير، هذه الكلمة التي ورد ذكرها سبع مراتٍ في المقطع الأول من سفر التكوين. لكن البشر الذين خلقهم الله عز وجل بصورته وشبهه ومنحهم حُرِّية الإرادة هم الذين يجلبون الشرَّ إلى هذا العالم ثم يُعانون من عواقبه. بالتالي نجدُ نبي الله ورسوله موشيه يُصرُّ على قيامنا بالبحث داخل أنفسنا عن السبب الذي أدى إلى وقوع البلاء والمآسي بدلاً من أن نلوم الله على ذلك. فالله عادلٌ ومُستقيمٌ، لكن الخلل موجودٌ فينا نحنُ أبناؤه.

ولربّما يكونُ هذا المبدأ واحداً من أصعب المبادئ والأفكار التي تحملها الديانة اليهودية ككلّ، فهذه الفكرة تفتحُ الباب على مصراعيه أمام عددٍ من أبسط الانتقادات التي نسمعها في كل جيلٍ تقريباً والتي تتمثل في السؤال التالي: إن كان الله عادلاً، فلماذا تحدثُ أمورٌ سيئةٌ للناس الصالحين؟ وهذا السؤال لا يطرحه المُشكِّكون والشكَّاكون فقط، بل نجدُ عدداً من الشخصيات البارزة في الديانة اليهودية تطرحُ السؤال ذاته. إذ نسمع هذه النبرة المُشكِّكة بين ثنايا كلمات أفراهام/إبراهيم حين أبدى اعتراضه مُتسائلاً: "أحاكمُ جميع العالم لا يعملُ بالحكم؟" بحسب ما تذكر الآية الخامسة والعشرون من المقطع الثامن عشر من سفر التكوين. كما نسمع هذه النبرة أيضاً في كلام موشيه حين وجّه سؤاله مُتحدياً الله عزَّ وجلَّ قائلاً: "يا رَبُّ لِمَ أبلّيت هؤلاء القوم؟" مثلما تذكر الآية الثانية والعشرين من المقطع الخامس من سفر الخروج. وهي نفس النبرة التي نسمعها في كلام النبي يرمياهو/إرمياء حين قال: "أنت أبرُّ من أن أخاصمك يا الله. لكني أكلّمك رغم ذلك: لماذا تَنجَحُ طريق الأشرار؟ لماذا اطمأنَّ كلُّ الغادرين غُدرًا؟" بحسب ما يذكر سفر إرمياء في الآية الأولى من المقطع الثاني عشر.

في الحقيقة، فإن هذه المسألة لا زالت موضوع جدلٍ ونقاش لم يُحسم بعد، فراها في الأعمال والكتابات الحاخامية ونجدها تتكرر أيضاً في "قينوت" (المراثي) التي تتطرق للاضطهاد الذي تعرض له اليهود في القرون الوسطى. كما نجدها أيضاً في الأعمال والكتابات التي ظهرت بالتزامن مع نفي اليهود من اسبانيا، ولا زلنا نسمعها في كل مرة نتحدث فيها عن المحرقة (الهولوكوست).

وفي هذا السياق يوضح التلمود بأن هذا كان السؤال الوحيد الذي لم يُجب الله عنه من بين جميع الأسئلة التي طرحها موشيه عليه.¹ لكن التفسير الأبسط والأعمق لهذا الأمر نجده في سفر المزامير، تحديداً في المقطع الثاني والتسعين والذي يطلق عليه "أنشودة يوم الشبات" (يوم السبت اليهودي المُقدَّس): لقد "زها الأشرار كالعُشب"، لكنهم سيهلكون بنهاية المطاف. أما الصالحون والأخيار فهُم على النقيض من ذلك: "كالنخلة يزهون، كالأرز في لبنان ينمو". بمعنى آخر: قد ينتصر الشرُّ على المدى القصير، لكنه لن ينتصر أبداً على المدى البعيد. والأشرار كالعُشب الذي ينبتُ بين ليلةٍ وضحاها، لكن الأخيار كالشجرة الثابتة التي تحتاجُ سنواتٍ حتى تصل إلى قمة نموها. فعلى المدى البعيد نجدُ أن أنظمة الحكم المستبدة تنهار، والإمبراطوريات تهرمُ ثم تندثر من الوجود شيئاً فشيئاً، أما

1. المصدر: Berakhot 7a

الخير والأخيارُ والصالحون فإنهم ينتصرون في المعركة النهائية. وفي هذا السياق يوضح مارتن لوثر كينغ إن الإيمان بضرورة رؤية العدل في التاريخ تحت سيادة الله عزّ وجلّ هو أمرٌ صعبٌ جداً، لكن فلنُفكّر في البدائل الثلاثة لهذا الإيمان: البديلُ الأول هو أن نقول بأن التاريخ لا يحمل أي معنى أو غاية بأي شكلٍ من الأشكال، أي أن نفترض بأن "الإنسان للإنسان كالذئب" (*est Homo hominis lupus*)، وهذا ما بيّنه المؤرخ الإغريقي ثوقديدس مُتحدثاً باسم سكان أثينا: "القويّ يفعلُ ما يحلو له، والضعيف يُعاني مما هو مفروضٌ عليه".² بمعنى آخر، فإن التاريخ - تبعاً لهذا التفسير - هو مجرد صراع دارويني من أجل البقاء، والعدل لا يتجاوز مُجرد كونه شعاراً يُطبقه الطرف الأقوى متى شاء.

أما البديل الثاني والذي تطرقتُ له عبر صفحات كتابي "ليس باسم الله" (*Not in God's Name*)³ هو الازدواجية، بمعنى أن الشرّ لا يأتي من الله عزّ وجلّ بل هو قوّة مُستقلة بحد ذاتها، وهذه القوّة تتخذ أشكالاً عديدة مثل الشيطان أو أعداء المسيح أو شخصية لوسيفر (سارق النار) أو فارس الظلام أو غيرها من المُسمّيات التي تُطلقُ على القوّة التي تُعارضُ الله عزّ وجلّ أو تعارضُ عباده. لكن هذه الفكرة التي ظهرت بأشكال طائفية في كافة الديانات الإبراهيمية بالإضافة إلى أنظمة الحكم الاستبدادية المُعاصرة هي واحدة من أخطر الأفكار عبر مَرّ التاريخ، فهي تقسّم البشرية إلى قسمين: الأخيارُ الذين لا شكّ فيهم والأشرار الذين لا توبة لهم، الأمر الذي كان له الأثر في خلق شلال الدم والتاريخ الطويل من الهمجية بين البشر والتي نراها تتجسد في وقتنا الحالي في أماكن مختلفة من العالم تحت شعار الحرب المقدسة ضد الشيطان الأكبر والشيطان الأصغر. هذه هي الازدواجية بعينها وليست العقيدة التوحيدية، لهذا أطلق عليها كبار الحاخامات عبارة "شتي راشويوت" (السُلطانان)⁴ ورفضوها رفضاً قاطعاً.

أما البديل الثالث فهو البديل الذي كان محل نقاشٍ طويل في الكتابات الدينية الحاخامية اليهودية، وهو بديل يقوم على فكرة أن العدالة المُطلقة موجودة في الحياة الآخرة والعالم القادم بعد الموت. وبالرغم من أنها فكرة رئيسية في اليهودية إلا أنها قلّما تطرقت لها وتحدثت عنها مُقارنةً بمدى أهميتها، مُعتبرة أن جوهر التناخ يُركز على هذا العالم وعلى الحياة قبل الموت. ولهذا يجب علينا أن نعمل من أجل تحقيق العدالة والإنصاف والتراحم والتهذيب والمثالية ومُساعدة الفقراء بكل ما أوتينا من قوّة سواء كُنّا أفراداً أو مجتمعات. ويُمكننا القول بأن التناخ لا يتبنّى هذا البديل، فالله عزّ وجلّ لم يَقُل ليرمياهو وإيوف/أيوب بأن الإجابة على أسئلتها موجودة في السماوات وبأنهما سيعرفانها فور وفاتهما وانتقالهما للعالم الآخر، ولو كانت تلك هي الإجابة الوحيدة لتبدّدت صِفَةُ العدالة كلياً من العقيدة اليهودية.

2. Thucydides, "The Melian Dialogue", in *History of the Peloponnesian War* (Book 5, chapters 84-116).

3. المصدر: الحاخام جوناثان ساكس وكتابه "ليس باسم الله: مواجهة الغُنف الديني" - (*Not in God's Name: Confronting Religious Violence*, New York: Schocken Books, 2017)

4. المصدر: Berakhot 33b

وبالرغم من صعوبة العقيدة اليهودية إلا أنها صاحبة الفضل عبر التاريخ في إيماننا بهذه الفكرة: حين تحدثُ الأمور السيئة فإنه لا يجب علينا أن نلومَ أحداً سوى أنفسنا، ثم نفعل ما بوسعنا لجعل الأمور تسيرُ على نحوٍ أفضل. إن هذه الفكرة هي التي قادت اليهودَ مراراً وتكراراً للنهوضِ من بين حُطام المآسي بينما تملؤهم النَّدوبُ والجراحُ وهم يعرِّجونَ مُرتنحين كما كان يعرِّجُ يعقوفُ/يعقوب بعد أن واجهَ الملاك. لكن أياً كانت حالتهم فإنَّ اليهود على قناعة تامة بضرورة النهوضِ مُجدداً حتى يُعيدوا تكريس أنفسهم لمهمتهم وعقيدتهم، بحيث ينسبون إنجازاتهم لله عزَّ وجلَّ وهزائمهم لأنفسهم.

ومن رحم تواضع كهذا تولدُ القوَّة العظيمة.

مُلاحِظَةُ مِنَ الْمُحَرَّرِ:

هذه المقالة التي ناقشت النص الأسبوعي "هَازِينُو" هي المقالة الأخيرة للحاخام جوناثان ساكس - رحمه الله وطيبَ ذكراه - في هذه السلسلة من المقالات المنشورة في كتاب "في رحابِ التوراة". والحُزن يعتصر قلوبنا لكونه فارقنا قبل أن يُكمل مقالته الأخيرة للحديث عن النص الأسبوعي الأخير من نصوص التوراة والذي يحمل اسم "فِرْزوت هَبْرَخاه". لكن ما يُعزِّينا هو معرفتنا بأن تعاليمه ستظلُّ حية وباقية فينا لأجيال وأجيال.